تفسير التابعين

عرض ودراسة مقارنة

تأليف

د / محمد بن عبد الله بن علي الخضيري

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

المجلد الأول

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وقل رب زدني علما﴾

كلمة الناشر

تميزت هذه الرسالة بكثرة النتائج والاعتماد على الدراسات الإحصائية التي قلَّ أن توجد في الدراسات الشرعية المماثلة، ولذا يجد القارئ لهذه الرسالة العلمية فهرسًا خاصًا في آخر الكتاب لنتائج البحث، زاد عدد هذه الفوائد والنتائج على أربعمائة فائدة ونتيجة لم يسبق الباحث لكثير منها.

هذا الكتاب :

رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية أصول الدين ـ قسم القرآن وعلومه.

وكانت هذه الرسالة تحت إشراف فضيلة الدكتور: سعود بن عبد الله الفنيسان.

وقد منح صاحبها درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف... والإيصاء بطباعتها والتبادل مع الجامعات الأخرى.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

الحمد لله الذي شرفنا على الأمم بالقرآن المجيد، ودعا فيه إلى الأمر الرشيد، وقوم به نفوسنا بين الوعد والوعيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أحمده على التوفيق للتحميد، وأشكره على الإتمام والتسديد، وأسأله من فضله المزيد.

أما بعد: فإن للمعارف على تعدد أنواعها، واختلاف مشاربها فوائد لا تجحد، وثمرات لا تنكر، وأهم ذلك وأشرفه ما قرَّب العبد إلى مولاه، وكان سبباً في نيل رضاه.

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: آية (١).

(٣) سورة الأحزاب: آية (٧٠، ٧١).

وإن أولى ما صرفت فيه الأوقات والسنون، وكدت فيه العقول والفهوم، علم كتاب الله المصون، الذي هو حبل الله المتين، والسراج المبين، من تمسك به هُدي، ومن اهتدى بنوره رَشَد.

ولقد منَّ الله عليَّ بدراستي هذا العلم الشريف، علم التفسير، وأصبح لديَّ ممارسة واشتغال بكتبه، ومؤلفاته، وذلك منذ أن وُفقت إلى اختيار قسم القرآن وعلومه أولاً، ثم بعد اختيار دراسة تفسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثانيًا، والذي عشت فيه مرحلة الماجستير، وانتهيت منه بحمد الله، ولقد دار في ذهني منذ ذلكم الوقت، أن أجعل موضوع الدكتوراه في نفس المسيرة المباركة مع تفسير مناهج الأصحاب، لأستنير بأقوالهم، وأدرس طرائقهم، فوجدت أحد الباحثين الفضلاء قد سبقني إليه[1]، وما زالت الفكرة تعتلج في خاطري، وتختلج في نفسي، فسكنت النفس بعد، واستقر الاختيار على موضوع مقارب سميته: تفسير التابعين عرض ودراسة.

أهمية الموضوع:

أوجد الله في هذه الأمة رجالاً، وقفوا حياتهم لحفظ شريعة ربهم، والذود عنها، فدأبوا على ذلك زمانهم، واستفرغوا فيه جهدهم، فحفظت بهم الرسالة، حتى وصلت كما أنزلها الله تعالى، لا اعوجاج فيها ولا انحراف؛ فهم دعامتها وحماتها، ولم يكن لهم غاية من ذلك إلا ابتغاء رضوان الله تعالى، فرضي الله عنهم، وبلّغهم مناهم.

ولذا كان من الواجب علينا أن نعرف سيرتهم، ونقف على مسالكهم، وننظر في آرائهم، فننهل من معينهم الصافي الذي لا كدر فيه، وننهل من زلال نبعهم الفيّاض الذي لم تشبه شائبة، فهم خير القرون بعد قرن الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام، يقول

(١) هو الباحث ناصر بن محمد الحميد في رسالته المسماة (التفسير في عهد الصحابة).

الحق سبحانه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[4].

فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم. وهو خير الناس بعد الأنبياء، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد، كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[5]، ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله، كالتفسير، وأصول الدين، وفروعه، والزهد، والعبادة، والأخلاق، والجهاد، وغير ذلك.

---

(١) سورة التوبة: آية (١٠٠).

(٢) سورة الأنفال: آية (٧٥).

(٣) سورة الحشر: آية (١٠).

(٤) سورة الجمعة: آية (٣).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد (٣/ ١٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة (٤/ ١٩٦٤)، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في القرن الثالث (٤/ ٥٠٠)، والنسائي في سننه (٧/ ١٧٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥١).

فإنهم أفضل ممن بعدهم، كما دل عليه الكتاب، والسنة، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم؛ وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصومًا، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم، فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم. ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم، حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه. قال تعالى: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾[1].

دواعي اختيار الموضوع:

١ ـ حملت لنا تلك الحقبة الزمنية خيرة من المفسرين، فرغبت في دراسة مناهجهم؛ للتعرف على مسالكهم، فهم الذين ذلّلوا هذا الطريق، وتركوا فيه معالم خير وهدى للسالكين.

فأردت أن أقتبس من أنوارهم، وأقتطف من أزهارهم، وألقط من نثارهم، وأقيد من شواردهم، وأنتقي من فرائدهم، وأنظر في مسالكهم، وأقفوا آثارهم، لتكون اللبنة الأولى في تسهيل الطريق أمامي لمعرفة كتاب الله، وضبط خطاي على أصول علمية دقيقة أتأسى فيه بذلك الجيل، فقرأت تراثهم مرات ومرات، وأعدت النظر في منتقاه كرات.

٢ ـ سعة الموضوع، وتنوع مباحثه، وتعدد مداخله، وتداخل علومه، مما يتيح لي فرصة الوقوف على جل علوم القرآن الكريم، والرجوع إلى أمهات كتب التفسير، والاطلاع على أهم مصادر علوم القرآن، والمقارنة بين تفاسير الأئمة، والوقوف على أقوالهم، ورصد مناهجهم المختلفة لاختلاف مداركهم ومفهومهم؛ فإن لكل واحد منهم وزنه وقدره.

---

(١) سورة النساء: آية (٥٩)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٢٣ ـ ٢٥).

٣ ـ طرافة الموضوع وجدته، فإنه لم يتعرض للخوض فيه إلا النزر القليل، على أن من تعرض له نأى بنفسه عن الغوص في أهم مزية في الموضوع، وهي عقد المقارنات، وبيان أوجه الاختلاف، والاتفاق.

فكان من الأسباب: عدمُ إفراد هذا التفسير بدراسة مستقلة من قبل الباحثين المعاصرين، فأردت أن أشارك بجهد المقل، وأسهم في خدمة تاريخ التفسير، فكانت هذه الدراسة.

منهج البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع أن يقسم إلى: تمهيد وأربعة أبواب، وخاتمة.

أما التمهيد: فقد بينت فيه بإيجاز ما يلي:

١ ـ مفهوم التفسير بالمأثور عند أهل اللغة، والاصطلاح.

٢ ـ التفسير في مراحله الأولى.

أما الباب الأول: فقد تحدثت فيه عن مدخل إلى تفسير التابعين وضمنته فصلين:

الفصل الأول: بينت فيه المراد بالتابعي، وحكم تفسيره.

الفصل الثاني: تكلمت فيه عن مصادر تفسير التابعين، وكان الحديث فيه عن نوعين من المصادر هما:

١ ـ كتب السنن، والآثار، وقد أشرت فيه بإيجاز إلى نماذج لأهمها.

٢ ـ كتب التفسير بالمأثور، وقد ذكرت كثيراً من كتب التفسير المصنفة وبيان مدى عنايتها بتفسير التابعين.

أما الباب الثاني: فتناولت فيه بالتفصيل مدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائص تلك المدارس، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ترجمت فيه لأشهر رجال مدارس التفسير في عصر التابعين، وتوسعت في بيان أهم المعالم، والسمات المتعلقة بكل مفسر من حيث كونه مفسراً.

الفصل الثاني: خصصته للحديث عن المدارس التالية:

١ ـ المدرسة المكية.

٢ ـ المدرسة البصرية.

٣ ـ المدرسة المدنية.

٤ ـ المدرسة الكوفية.

وختمت الفصل بإشارة موجزة للتفسير في الشام، واليمن، ومصر.

الفصل الثالث: فقد عقدته لدراسة خصائص التفسير في تلك المدارس.

أما الباب الثالث: فقد عقدته لبيان مصادر التابعين ومناهجهم في التفسير، وفيه فصلان:

الفصل الأول: مصادر التابعين في التفسير، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: القرآن الكريم.

المبحث الثاني: السنة النبوية.

المبحث الثالث: أقوال الصحابة.

المبحث الرابع: اللغة العربية.

المبحث الخامس: الاجتهاد.

الفصل الثاني: منهج التابعين في التفسير، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهجهم في القراءات.

المبحث الثاني: منهجهم في آيات الاعتقاد.

المبحث الثالث: منهجهم في استنباط آيات الأحكام.

المبحث الرابع: منهجهم في تلقي ورواية الإسرائيليات.

أما الباب الرابع : فقد خصصته لبيان قيمة تفسير التابعين، وأثره، وتوزع هذا على ثلاثة فصول هي :

الفصل الأول : قيمة تفسير التابعين رواية .

الفصل الثاني : قيمة تفسير التابعين دراية، وتناولت هذا الفصل في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نوع الاختلاف بين مفسري التابعين .

المبحث الثاني : مميزات تفسير التابعين .

المبحث الثالث : منزلة تفسير التابعين عند العلماء .

الفصل الثالث : أثر التابعين في التفسير وأصوله، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثر التابعين في كتب التفسير عند أهل السنة وغيرهم .

المبحث الثاني : أثر التابعين في كتب أصول التفسير .

أما الخاتمة : فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

وكنت قبل تسجيل الموضوع أحسب أن الأمر سهل المنال، قريب المدرك، لا سيما أن تفاسير مشاهير التابعين قد جُمِعَ جُلُّها في رسائل علمية، فقدرت أن هذا يسهل المهمة، ويقصر عمل الباحث على جمع المتفرق وترتيبه وتبويبه، وقد حاولت الاستفادة من هذه الرسائل في تسهيل مهمة الجمع[1] فتعذر ذلك لأسباب منها :

(١) رجعت إلى الرسائل العلمية التالية : «مجاهد بن جبر ومنهجه في التفسير» للباحثة جميلة الغزاني، و«عطاء بن أبي رباح وجهوده في التفسير» للباحث عبد الواحد بكر إبراهيم عايد، و«كعب الأحبار مروياته وأقواله في التفسير» للباحث يوسف العامري، و«إبراهيم النخعي وآثاره الواردة في تفسير سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران» للباحثة نوال اللهيبي، و«آراء إبراهيم النخعي التفسيرية من سورة النساء إلى آخر القرآن» للباحث عبد الرحمن أحمد الخريصي، و«تفسير محمد بن كعب القرظي، من سورة الفاتحة حتى نهاية سورة الناس» للباحث محمد أيوب محمد يوسف، ورسالة «قتادة السدوسي وتفسيره، من أول سورة الفاتحة إلى نهاية سورة النحل» للباحث عمر يوسف محمد كمال، و«تفسير سعيد بن جبير» للباحث محمد أيوب محمد يوسف، و«مرويات الحسن البصري في القرآن من أول سورة الإسراء إلى =

١ ـ أن الباحثين يختلفون في إيرادهم، ومناهجهم، وقدرة تتبعهم، واستقصائهم؛ فمنهم سابق في هذا الباب، ومنهم مقتصد، وآخر مُقصر، فخشيت إن اعتمدت ذلك أن يحصل الخلل والزلل، والتفاوت في الاستقصاء تبعًا لما سبق.

٢ ـ تبين لي أن معظم الباحثين إنما كان جل همهم، وغاية جهدهم، جمع المروي وتحقيقه، وبعد الانتهاء يورد خلاصة في مقدمة بحثه أو خاتمته، ذاكرًا فيها ترجمة المُفَسر، وساردًا نماذج من مصادر التفسير التي استعان بها، وقلَّ من عقد موازنة، ودرس دراسة تحليل وتدقيق.

٣ ـ أن هذه الرسائل كانت ـ وما زالت ـ حبيسة الأدراج، ويصعب حصرها لكثرتها، وتعدد مراكز البحث الجامعة لها.

ولما لم أجد طلبتي في تلك المصادر، اتجهت إلى كتب علوم القرآن ومناهج المفسرين، مفتشًا فيها، ومراجعًا لها، لعلي أجد ما يُيسر الأمر ويعين عليه، فلم أجد من تعرض فيها لتفسيرهم، وتحدث عن مناهجهم، فانتقلت بعد هذا كله إلى الأخذ من تفاسيرهم، والنقل عنها مباشرة، ومن هنا بدأ عملي، وقد جعلته على مراحل.

المرحلة الأولى:

استعنت بالله على جمع الأقوال من موسوعة واحدة ذات منهج في الإيراد، والاستيعاب في هذا الباب، فاخترت أوسع كتب التفسير بالأثر، جامع البيان لإمام المفسرين محمد بن جرير الطبري، وبدأت في استقرائه أثرًا أثرًا، أخرج تفسير كل إمام بمفرده.

= آخر سورة الناس» للباحث شير علي شاه، و«تفسير عكرمة جمعًا ودراسة من أول سورة الروم إلى آخر القرآن الكريم» للباحث سليمان الصغير، و«تفسير عكرمة من أول القرآن إلى آخر سورة الأنفال» للباحث عبد اللطيف هائل، و«تفسير الربيع بن أنس جمعًا وتحقيقًا» للباحث عبد الرحمن العبادي، و«مرويات زيد بن أسلم في التفسير» للباحث صلاح الدين زيطرة، وغيرها من الرسائل.

ثم لاح لي أن أضيف إلى ذلك الإحصاء جمع تفسير مشاهير الصحابة كابن عباس، وابن مسعود، وغيرهم من الصحابة، وزدت على ذلك استخراج تفسير مشاهير أتباع التابعين: كالضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذلك لتمييز مدارس المفسرين ومعرفة طبقاتهم في القرون المفضلة، وبيان خصائص كل مدرسة مع إبراز منزلة تفسير التابعين.

المرحلة الثانية:

قمت بعد استخراجي لكل أثر جاهداً في تصنيفه وتبويبه، فما كان منه في تفسير القرآن بالقرآن بينته، وما كان منه في بيان القرآن بالسنة وضحته، وكذا ما كان بقول الصاحب، وما جاء من ذلك في أسباب النزول، أو الرواية عن أهل الكتاب، أو الاعتماد على لغة العرب، أو بيان مشكل، أو حكم فقهي، إلى غير ذلك من الأنواع، مع الإشارة عند كل أثر إلى من رواه، وبيان المكرر من الروايات.

وبعد هذا قمت بجمع ما تحصل من تلك الأنواع، وبأي الأبواب كانت عناية ذلك التابعي، وكثرة درايته.

وحرصاً على تأكيد ما توصلت إليه في ذلك الجمع عكفت على دراسة الكتب المصنفة في أبواب مفردة في علوم القرآن، كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وكتب المبهمات والمعرب في القرآن وغيره، فسجلت ما تعلق بكل نوع منها، ومَنْ أكثر التابعين تعرضاً لهذه الأنواع:

وقد استغرق العمل في هاتين المرحلتين حولين كاملين، وقاربت الأوراق التي جمعت فيها تلك التفاسير وصنفت خمسة آلاف ورقة، كل ذلك بعد تتبع دقيق لما يقارب أربعين ألف أثر عند ابن جرير.

المرحلة الثالثة :

لما انتهيت من الجمع، والتصنيف، بدأت بكتب التراجم والتواريخ والعلل، ومعرفة الرجال، وطالعت جُلها قدر استطاعتي، فأحفاني وأجهدني التتبع والتنقيب حرصًا على الاستعانة بأقوال الأئمة والاستئناس بآرائهم لمعرفة بعض مناهج الرجال وأحوالهم.

المرحلة الرابعة :

وهي مرحلة الموازنة والمقارنة، فبعد الانتهاء من المراحل السابقة اجتمع لي الشيء الكثير الطيب، فاستعنت بالله، وبدأت في المقارنة؛ حيث اقتضى مني ذلك أن أوازن بين تفسير كل إمام وآخر، وقد كان العمل في ذلك شاقًا وممتعًا في الوقت نفسه، ويحسن بي أن أورد شيئًا منه: فقد عمدت إلى كل تابعي، وقارنت نسب ما أحصيته في كل نوع من الأنواع المذكورة في المرحلة الثانية مع نسب المروي عن التابعي الآخر، فتحصل عندي ميزان راجح، ونتائج دقيقة عن معالم تفسير كل تابعي.

وبعد الانتهاء من المقارنة بين مشاهير التابعين، حرصت على إتمام ذلك أيضًا بالنسبة للمدارس؛ حيث أسندت تفسير كل تابعي إلى مدرسته، فتجمع لدي في كل مدرسة عدة أئمة يشكلون ملامح تلك المدرسة، ثم قمت بعد ذلك بالعمل نفسه، من حيث نسبة رواية كل مدرسة، وبروزها، وبأي نوع كان؟ ومصادرها، وفي أي الأبواب كانت عنايتها؟ والحق أني حسبت الأمر سهلاً، إلا إنه كان غير ذلك، ويمكن تلخيص الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث في عدة نقاط:

١ ـ جدة الموضوع، فمثل هذا البحث لم يطرق بالبحث والدرس فيما أعلم، ولم أجد مَنْ درس وقارن، كما أني لم أجد دراسات مفردة لتلك المدارس، وأغلب ما رأيته مسطوراً في هذا الباب دراسات وصفية تهتم بالجمع وتحقيقه دون عناية بالمقارنات،

والموازنات.

٢ ـ كثرة الآثار وغزارة المادة العلمية، فقد استدعى البحث (في غير تفسير ابن جرير الطبري) مسحًا شاملاً لكتب التفسير بالمأثور كتفسير عبد الرزاق، والثوري، وسعيد بن منصور، وابن الجوزي، وابن كثير، والسيوطي.. وغيرها، ومراجعة كتب علوم القرآن، ومناهج المفسرين، كما أفدت من كتب غريب الحديث، واللغة وغيرها من كتب السنة.

وأتاح لي العمل في البحث أن استقصي كتب التراجم، والسير فقد طالعت كثيراً من التراجم فيها، كما نقبت في كتب العلل ومعرفة الرجال التي أفادتني كثيراً في بيان مسلك بعض الأئمة، ومناهجهم.

٣ ـ طول البحث وتشعبه، فقد أضناني ذلك الكم الهائل من الأقوال والآثار، مما جعلني أتحير في الاختيار والانتقاء.

٤ ـ صعوبة الاستقراء، إذ إن بعض الآثار يكتنفها الغموض، فتحتاج إلى تأمل ونظر، ثم إن بعضها الآخر لطوله، تتداخل فيه العديد من الأنواع.

٥ ـ ومما زاد في صعوبة البحث: كثرة النتائج التي توصلت إليها، والتي قد يوافق الباحث عليها، وقد يخالف، فحرصت على كثرة الاستدلال، وألا أدوّن ملحوظة، أو نتيجة إلا بعد التحري، والاستقراء والمتابعة، وقد انكشف الغطاء عن كثير من مناهجهم بهذه المقارنات، ولاح الفرق بين مسالكهم، فوقفت على حقيقة الأمر في كثير من المسالك، وتذلل ما كان وعراً، وسهل ما كان حزنًا، فاستوى المسلك، وانقاد ما صعب من الأمر وتيسر.

وكان من أبرز النتائج التي توصلت إليها:

أولاً: تبين لي أن هناك ميلاً إلى التخصص في عموم المدارس التفسيرية، وكذا

خصوص الأفراد، أما من حيث العموم فقد تخصصت المدرسة المدنية بالعلم بالسير، والأخبار، ورواية الأحاديث، والسنن؛ وذلك لأن النبي ﷺ عاش بين ظهرانيهم، فنقل الصحابة ومن جاء بعدهم كابراً عن كابر ما تعلق به من سيرة وطرائق.

وبلغت المدرسة المكية شأواً بعيداً في تتبع مسائل الحج، ودراسة آيات الأحكام الخاصة به؛ نظراً لقربهم من المشاعر، وكثرة سؤال الوافدين عنها.

كما اشتهرت المدرسة البصرية باللغة، والفصاحة، ومعرفة الغريب؛ لوقوعها على حدود البادية، ووفرة القادمين إليها من الموالي الذين يفشو اللحن في ألسنتهم، فهدوا إلى حفظ اللغة العربية من اللحن بالسبق في تدوينها.

أما المدرسة الكوفية فقد تخصصت في استنباط آيات الأحكام والإكثار منها، بينما عنيت مدرسة الشام بأحكام الجهاد؛ لأنهم أهل غزو وجهاد.

وأما من حيث خصوص الأفراد؛ فوجدت أن مجاهداً قد تخصص وتفرغ لعلم القرآن، حتى بلغ فيه الغاية، ولم يقاربه أحد في كثرة المروي من التفسير[1].

وغلب الوعظ والتوجيه على تفسير الحسن البصري، حتى إنه ربما خالف الظاهر من النص القرآن منفرداً من بين التابعين بتأويل يوافق مشربه[2].

وأما ابن المسيب فقد عني بآيات الأحكام، وبوجه أخص ما تعلق منها بمسائل

---

(١) حيث بلغ عدد المروي عنه في تفسير الطبري (٦١٠٩) أقوال، وكان يقول: استفرغ علمي القرآن.

(٢) نص على ذلك الأوزاعي، وغيره؛ حيث قال: ذهب عليهم الحسن بالمواعظ، ومن الآيات التي أولها لأجل ذلك، ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ قال ـ رحمه الله ـ: كان الرجلان من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وعند قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾: كان الحسن يحلف أنه ليس ابنه لصلبه. وغيرها من الأمثلة تراجع في موضعها من ترجمة الحسن ص (٢٣٠).

الطلاق[١] .

وإذا جئنا إلى عطاء ألفيناه إمامًا في فقه المناسك، وشاهد ذلك وفرة المروي عنه فيها[٢] .

ثانيًا: تميز بعض التابعين بالبروز في أصل من أصول التفسير، فأكثر من الاعتماد عليه.

فهذا عكرمة فاق غيره من التابعين في رواية أسباب النزول[٣] ، وكان لمجاهد قصب السبق في التعرض لمشكل القرآن[٤] .

وأما تفسير القرآن بالسنة فقد أكثر فيه قتادة، والحسن، وسبقا غيرهما فيه[٥] .

---

(١) ذكر الأئمة أن سعيدًا من أعلم التابعين بالطلاق، وبعد رجوعي لتفسيره وجدت أن ما يزيد على ثلث تفسيره كان حول آيات الأحكام، وكان نصيب مسائل الطلاق وأحكام النكاح النصيب الأوفى؛ حيث بلغ (٠,٧٠) من مجموع تلك الروايات.

(٢) كانت حال عطاء قريبة مما ذكر عن حال سعيد بن المسيب؛ فعطاء اشتغل في تفسيره كثيرًا بتأويل آيات الأحكام، وخصوصًا ما تعلق بأحكام المناسك، وكان الأوزاعي يقول: ذهب عليهم عطاء بالمناسك، والمروي عنه في تأويل آيات الأحكام بلغ (٠,٣٣) من مجموع تفسيره ، (٠,٦٠) منها في تأويل آيات الحج.

(٣) هو أكثر التابعين على الإطلاق اعتمادًا على أسباب النزول في تفسيره؛ حيث بلغ نسبة إيراده للأسباب في تفسيره (٠,١٤) في حين كانت نسبة المروي عن ابن جبير وقتادة (٠,٠٧) من مجموع تفسيرهما، ولم تزد هذه النسبة عند مجاهد وعطاء عن (٠,٠٥)، وعند الحسن عن (٠,٠٣) من مجموع تفسيرهم.

(٤) اتضح لي هذا بعد مراجعة الآيات المشكلة في ظاهرها، فوجدت أكثر من تعرض لها بالبيان والتفسير مجاهدًا، ورجعت إلى من كتب في المشكل كابن قتيبة فوجدت ما يؤيد الذي توصلت إليه.

(٥) بعد مراجعة تفسير الطبري وجدت أن قتادة اعتمد على التفسير النبوي في (٢٠٠) موضع من تفسيره، وجاء بعده الحسن؛ حيث قال بالتفسير النبوي في (٨١) موضعًا من تفسيره.
بينما نجد مجاهدًا اعتمد التفسير النبوي في (٢٥) موضعًا فقط، وعكرمة في (٩) مواضع، وابن جبير في (٢٢) موضعًا، وعطاء في (١٠) مواضع . . .
=

وتميز الشعبي بالاعتماد على أقوال الصحابة في تفسيره[١] .

كما برز إبراهيم النخعي في القدرة على استنباط الحكم الفقهي من الآية، وأكثر من ذلك[٢] .

ثالثًا: ظهرت لي نتيجة مهمة، أحسب أني لم أسبق إليها، وهي أن هناك إغفالاً كبيرًا غير مُتعمد لفضل المدرسة البصرية في التفسير وسبقها، مع أن نسبة المروي عنها يفوق كثيراً ما جاء عن المدرسة الكوفية التي يستروح المصنفون في علوم القرآن بإيرادها في مقدمة المدارس بعد المكية[٣] .

رابعًا: لاح لي أن المشيخة العلمية أبلغ أثرًا في بعض التابعين من البيئة المكانية التي عاشوا فيها، فهذا أبو العالية (مثلاً) بصري المولد والمربي، ومع ذلك فهو مكي المنهج والمسلك، ومثله سعيد بن جبير الذي عاش زمنًا طويلاً في الكوفة، لكنه مكي المشرب،

= وخلاصة القول أن مجموع ما روي عن قتادة والحسن بلغ (٠,٧٠) من مجموع ما روي عن التابعين.

(١) كان الشعبي أكثر التابعين اعتماداً على أقوال الصحابة في تفسيره؛ حيث بلغ نسبة ما روى عنهم (٠,٠٥) من مجموع تفسيره، في حين كان الذي يليه من مشاهير مفسري التابعين إبراهيم النخعي، فقد بلغ نسبة ما روى عنهم في هذا (٠,٠٢٣) من مجموع تفسيره، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.

(٢) إبراهيم النخعي كان أكثر التابعين (على الإطلاق) تعرضًا لتأويل آيات الأحكام؛ حيث بلغ نسبة المروي عنه (٠,٣٨) من مجموع تفسيره.

(٣) وجدت كثيراً ممن صنف في علوم القرآن عند تعرضهم للمدارس يذكرون مدرسة مكة ثم الكوفة فالمدينة، وقلَّ منهم من أفرد مدرسة البصرة بالذكر، مع أني بعد تتبعي لعدد المروي عن الجميع تبين لي أن المروي عن المدرسة المكية بلغ (٠,٤٦) من مجموع تفسير التابعين، وعن المدرسة البصرية بلغ (٠,٣٨)، وعن الكوفية (٠,١٤)، وعن المدرسة المدنية (٠,٠٢) من مجموع تفسيرهم.
وجلي من هذه النسب تفوق المدرسة البصرية على الكوفية.

والطريقة، وكلاهما ممن تتلمذ على يد حبر الأمة ابن عباس ـ رضي الله عنهما[١] ..

خامسًا: قد انكشف لي أن بعض التابعين ليس له في التفسير من أثر إلا العناية بالرواية عن شيوخه، ومن أبرز هؤلاء: الربيع بن أنس الذي نقل جل تفسيره عن شيخه أبي العالية، ولم يجاوزه، ومثله السدي الذي قال بقول ابن عباس ورواه ولم يتعداه[٢].

سادسًا: لاحظت اهتمام مفسري الأثر من الأئمة بإيراد أقوال التابعين أكثر من غيرهم، حتى إن كثيراً منهم ـ كان معظم ما رواه هو من أقوالهم[٣].

سابعًا: تتبعت أسانيد الروايات المأثورة عن الرسول ﷺ، وعن مشاهير الصحابة، وعن التابعين وأتباعهم، فوجدت أن أقوى الأسانيد وأصحها ما جاء عن التابعين كمجاهد، وقتادة[٤].

ثامنًا: ويجدر بي أن أذكر أن هناك نتائج مهمة أخرى وقفت عليها من خلال البحث أشير إليها إشارة سريعة، منها: أن التقارب المكاني بين البصرة والكوفة لم يكن

---

(١) انظر تفصيل هذا المبحث في فصل أشهر رجال مدارس التفسير عند ترجمة أبي العالية ص(٢٨٨)، وسعيد بن جبير ص (١٣٧)، والسدي ص (٢٩٩).

(٢) يأتي بيان ذلك مفصلاً عند الحديث عن تلاميذ المدرسة البصرية.

(٣) فهذا سفيان الثوري اعتمد على تفسير التابعين في أكثر من (٠,٥٦) من مجموع تفسيره، وهذا عبد الرزاق الصنعاني أكثر من النقل والرواية عنهم حتى إن تفسيرهم بلغ ما يزيد على (٠,٦٥) من مجموع تفسيره.
وكان جل المأثور عند ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم في تفسيرهما هو من أقوال التابعين؛ حيث زادت نسبة ما جاء من روايتهم عن (٠,٦٠) من مجموع تفسيرهما.

(٤) فالطريق إلى مجاهد وقتادة ـ وهما من أكثر التابعين تعرضًا للتفسير؛ حيث زاد مجموع ما جاء عنهما عند الطبري على (١١٤٨٨)، رواية ـ أقوى سنداً من المروي عن ابن عباس، وهو من أكثر الصحابة تفسيراً؛ إذ بلغ مجموع ما جاء عنه في تفسير الطبري (٥٨٠٩) رواية، وسوف يأتي تفصيل ذلك في مبحث قيمة المروي عنهم رواية ص (٩١٨).

له كبير أثر في التقارب المنهجي؛ فالكوفة تأثرت بالمدرسة المكية، وكان بينهما شيء من التجانس والاتفاق في كثير من المسائل، في حين كانت المدرسة البصرية إلى المدرسة المدنية أقرب[١].

ومن تلك النتائج: أن الورع الذي غلب على مدرستي المدينة والكوفة كان سببًا رئيسًا في إقلالهما في باب التفسير، وهذا ما يجده المراجع لكتب التفسير، وفضائل القرآن؛ حيث كان غالب المنقول في التحذير عن التفسير، والأمر بالإقلال منه عن التابعين من الكوفيين والمدنيين[٢]، وجاء شاهده من واقعهم؛ حيث لم يرد عنهم إلا القليل من الروايات في التفسير.

تنبيهات متممة للمنهج:

١ ـ نظرًا لكثرة الأعلام الواردة في الرسالة، فإني رأيت أن تكون التراجم في فهرس خاص في آخر الرسالة، عدا نذر قليل قد ترجم لهم خلال البحث.

٢ ـ اعتمدت تفسير الطبري بطبعتيه. فما ذكرت منه رقم الجزء والصفحة والأثر فهو من النسخة التي حققها الشيخان أحمد ومحمد شاكر، وما اكتفيت فيه بذكر الجزء والصفحة، فهو مما بقي من الأجزاء طبعة مصطفى البابي الحلبي.

٣ ـ اعتمدت في نقلي للأمثلة على ما رواه الأئمة في كتب التفسير موثقًا النص بالإحالة إلى كتاب من كتب التفسير، وأكتفي بالإحالة إلا إذا نُصّ على ضعفه فأبينه.

٤ ـ اختصرت أسماء بعض المراجع المشهورة، اكتفاء بالتفصيل الوارد في ثبت المراجع.

---

(١) يُنظر تفصيل ذلك في مبحث: المدرسة المدنية، وأثرها ص (٥٢٠).

(٢) يُنظر بيان ذلك في مبحث: المدرسة الكوفية والمدنية وأسباب إقلالهما في التفسير ص (٤٩٢)، وص (٥١٦).

ومع هذا الجهد المضني في الجمع، والتثبت، والتمحيص، والصياغة، إلا أن الله يأبى العصمة لكتاب غير كتابه، يقول الإمام الشافعي: لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولابد أن يوجد منها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[1]، فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه[2].

وصدق من قال:

كم من كتاب قد تصفحته ... وقلت في نفسي أصلحته

حتى إذا طالعته ثانيًا ... وجدت تصحيفًا فصححته

وفي الختام: أتوجه بدعائي وخالص ثنائي لخالقي ورازقي، فالحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وأثني بالشكر لمن كانا السبب في وجودي بعد الله، امتثالاً لأمر الله ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، فأسأل الله العلي القدير، أن يغفر لهما ويرحمهما كما ربياني صغيرًا.

كما أتوجه بالشكر وعاطر الثناء لأستاذي وشيخي الفاضل الأستاذ الدكتور: سعود ابن عبد الله الفنيسان الذي أشرف عليَّ في رحلة الدكتوراه والذي أفادني من علمه الجم، فهذه الرسالة، وما فيها من جهد وتوفيق، فالفضل لله أولاً ثم لتوجيهات أستاذي متعه الله بالصحة والعافية، وأسأل الله أن يمدَّ في عمره، ويبارك في ولده، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما لا يسعني إلا مواصلة الشكر الجزيل لجامعتي المباركة: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التي أتاحت لي الفرصة لإكمال دراستي الجامعية، وما بعدها من

---

(١) سورة النساء آية (٨٢).

(٢) المقاصد الحسنة (١٥).

دراسات، وأخص بذلك كلية أصول الدين ممثلة في عميدها ووكيليها، وقسم القرآن وعلومه، ممثلاً برئيسه ووكيله، وأتقدم بالشكر سلفًا لمن سيتحمل قراءة هذا البحث، ليقف بي على ما له وعليه، ورحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي.

ثم إن ذكر المعروف واجب، وشكره أوجب؛ فأشكر كل من أسدى إليّ معروفًا، وسددني بنصح، أو توجيه، أسأل الله أن يجزي الجميع عني أفضل الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ثم أما بعد..

فما كان في هذه الرسالة من جهد وتوفيق وسداد فمن الله وحده، فله الحمد في الآخرة، والأولى، وما كان من زلل، وخطأ، فمن نفسي والشيطان، وقد أفرغت جهدي في هذا البحث وبذلت فيه فكري، ولم يكن في ظني أن أصل إلى ما وصلت إليه، ولا أتعرض لما سطرته، وذلك لعلمي بعجزي عن الخوض في مثل تلك المسالك، ولكن عزائي فيما قاله بعض الحكماء:

أسير خلف ركاب النجب ذا عرج ... مؤملاً كشف ما لاقيت من عوج

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الورى في ذاك من فرج

وإن بقيت بظهر الأرض منقطعًا ... فما على عرج في ذاك من حرج

* * *

التمهيد

أولاً : مفهوم التفسير .

ثانيًا : التفسير في مراحله الأولى .

١ ـ مفهوم التفسير بالمأثور

تعريف الأثر في اللغة:

الأثر ـ محركة : بقية الشيء[١] ، والجمع آثار وأثور[٢] .

والأثر : نقل الحديث من القوم، وروايته[٣] .

والأثر : مصدر قولك أثرتُ الحديث آثره؛ إذا رويته عن غيرك[٤] .

أثر الحديث : ذكره عن غيره فهو (آثر) بالمد، وبابه نصر، ومنه حديثٌ مأثور، أي ينقله خلف عن سلف، وأنا آثر؛ قال الأعشى :

إن الذي فيه تماريتُما بُيّن للسامع والآثر[٥]

قال الخليل : والأثر : الاستقفاء والاتباع[٦] ، ويقال : فلان من حملة الآثار[٧] .

قال أبو عبيد : المأثرة هي المكرمة، ويقال : إنها سميت مأثرة؛ لأنها تؤثر، ويأثرها

---

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ١١٩)، ولسان العرب (٤/ ٥)، والقاموس المحيط (١/ ٣٧٥)، وتاج العروس (١٠/ ١٢).

(٢) لسان العرب (٤/ ٥).

(٣) اللسان (٤/ ٦)، وتاج العروس (١٠/ ١٥).

(٤) تهذيب الصحاح (١/ ٢٥٣)، واللسان (٤/ ٦)، ومجمل اللغة (١/ ٨٦).

(٥) ينظر : اللسان (٤/ ٦)، والتاج (١٠/ ١٦)، ومختار الصحاح (٥)، وروايته البيت في ديوان الأعشي ص ١٤١ هكذا :

لتأتينه منطق سائر مستوسق للمسمع الآثر

(٦) معجم مقاييس اللغة (١/ ٥٤).

(٧) تاج العروس (١٠/ ١٣)، وأساس البلاغة (ص ٢).

قرن عن قرن؛ أي يتحدث بها، كقولك: أثرت الحديث آثُرُه أثرًا؛ ولهذا قيل: حديث مأثور[١].

وقال أبو عبيد في حديث النبي ﷺ: إنه سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ يحلف بأبيه فنهاه عن ذلك ـ قال: فما حلفت بها ذاكرًا ولا آثرًا[٢] [٣].

وقوله: «ولا آثرًا» يريد ولا مُخبرًا عن غيري[٤]. ومن هذا قيل: حديث مأثور، أي يخبر به الناس بعضهم بعضًا[٥].

وقال ابن الأثير في تفسير قول عمر: ولا رويت عن أحد أنه حلف بها[٦].

فيكون قد وضع المأثور وضع المأثور عنه[٧].

قال الراغب: وأثرت العلم: رويته، آثُرُه أثرًا، وإثارة، وأثرةً، وأصله تتبعت أثَرهُ. وأثارة من علمٍ، وقرئ أثرة، وهو ما يروى أو يُكتب فيبقى له أثرٌ[٨].

قال الزجاج: أثارة في معنى علامة، ويجوز أن يكون على معنى بقية من علم، ويجوز أن يكون على ما يؤثر من العلم[٩]، ويقال: أو شيء مأثورٌ من كتب

(١) غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/ ٢٨٨).
(٢) غريب الحديث لأبي عبيد (٢/ ٥٩)، والفائق (١/ ٢٣)، والنهاية (١/ ٢٢).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان: باب لا تحلفوا بآبائكم (٧/ ٢٢١)، وصحيح مسلم، كتاب الأيمان باب النهي عن الحلف بغير الله (٣/ ١٢٦٦)، ومسند أحمد (١/ ٣٦)، (٢/ ٧، ٨).
(٤) غريب الحديث لأبي عبيد (٢/ ٥٩)، وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ١٠)، وقنعة الأديب في تفسير الغريب لابن قدامة (٤٥).
(٥) غريب الحديث لأبي عبيد (٢/ ٥٩).
(٦) النهاية في غريب الحديث، والأثر (١/ ٢٢).
(٧) النهاية (١/ ٢٣)، ولسان العرب (٤/ ٧).
(٨) المفردات في غريب القرآن (٩).
(٩) معاني القرآن للزجاج (٤/ ٤٣٨).

الأولين[١].

مما سبق يتضح أن المأثور: يدور حول معنى الخبر المروي، والمنقول عن السلف، ومنه معنى الاتباع والاستقفاء.

وأما معناه في الاصطلاح:

فالمشهور عن المحدثين أن الأثر يشمل ما رفع إلى النبي ﷺ، وما أضيف إلى الصحابي، وما وقف به على التابعي[٢].

وخالف في ذلك بعض فقهاء خراسان، فقالوا: إن الأثر هو الموقوف على الصحابي بإطلاق، أو على التابعي بتقييد، ذكر ذلك ابن الصلاح[٣]، وابن كثير[٤]، والعراقي[٥].

والمعتمد هو ما عليه المحدثون أن يسمى كل هذا أثرًا؛ لأنه مأخوذ من أثرت الحديث أي: رويته[٦].

وأما معناه في اصطلاح كتب أصول التفسير:

فذهب كثير من الأئمة إلي أن المراد به: هو المنقول، والمروي من التفسير عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة، والتابعين، وأتباعهم[٧].

ولذا نجد ابن حجر عندما تعرض لكتب التفسير بالمأثور ذكر أنها: الناقلة للآثار

(١) تاج العروس (١٠/ ١٨).
(٢) ظفر الأماني (٤ـ٥) عن حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث (٢٥)، ولمحات في أصول الحديث (٤٣).
(٣) التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (٦٦)، والنكت على ابن الصلاح (١/ ٥١٣).
(٤) اختصار علوم الحديث (٤٥).
(٥) التبصرة والتذكرة (١/ ١٢٣)، وفتح المغيث (١/ ١٠٤).
(٦) تدريب الراوي (١/ ١٨٥)، ومنهج النقد في علوم الحديث (٢٨).
(٧) مقدمة ابن خلدون (٤٣٩)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢)، ينظر كلام الشريف الجرجاني في كتاب: بين الشيعة والسنة دراسة مقارنة في التفسير وأصوله (١٩)، وكتاب: التعريف بالقرآن والحديث (١٦٤)، والمدخل لدراسة القرآن والسنة (٢/ ٢٢٣)، ورسالة ضبط

المسندة، سواء من المرفوع، أو الموقوف على الصحابة، أو المقطوع عن التابعين[١].

ورجح البعض أن مفهومه ينحصر في التفسير النقلي عن المصطفى ﷺ، والصحابة[٢]، أو قاله كبار التابعين متلقى من الصحابة، وصح سنده[٣].

وأورد بعض من قال بهذا القول الخلاف في مسألة إدخال تفسير التابعين، ومال إلى عدم ذلك مستدلاً بأنهم لم يشاهدوا عصر النبي ﷺ، فيغلب على الظن أن تفسيرهم من قبيل الرأي، والاجتهاد، وأنهم مع عنايتهم الشديدة بالنقل عن الصحابة قد أكثروا من النقل عن أهل الكتاب[٤].

وذهب البعض الآخر إلى أكثر من ذلك، فقصر التفسير بالمأثور على ما كان متعلقًا بالسماع عن النبي ﷺ، وأما الأقوال المنقولة عن الصحابة والتابعين مما يتصل بالاجتهاد، والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور[٥].

وفي ذلك يقول الشيخ محمد الصباغ: إن الرأي الصحيح أن ما جاء عن الصحابة، والتابعين العدول - فيما ليس من باب الاجتهاد والاستنباط، وإنما هو متوقف على السماع من النبي ﷺ - يعتبر من التفسير بالمأثور، وهو مُلزم إن صح سنده، وأما المنقول عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط، فليس من المأثور[٦].

= القرآن (١١٢)، وكتاب اللآلئ الحسان (٣٤٤)، وكتاب في علوم القرآن دراسات ومحاضرات (١٥٧) وكتاب مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث (٦٩).

(١) مقدمة كتاب العجاب في بيان الأسباب، عن كتاب الدر المنثور (٨/ ٦٩٩).

(٢) مدخل إلى علوم القرآن والتفسير (٢١٧، ٢٢٣)، وأصول التفسير وقواعده (١١١)، وعلوم القرآن مدخل إلي تفسير القرآن وبيان إعجازه (٤٠٣، ٤٠٤).

(٣) مباحث في علوم القرآن (٣٤٧).

(٤) دراسات إسلامية في علوم القرآن د. شكر محمد أحمد، د. محمد مصطفى النجار (٥٩، ٦١)، ومناهل العرفان (١/ ٤٨١).

(٥) علوم القرآن مدخل لتفسير القرآن (٤٠٣)، دراسات في التفسير وأصوله (٤٦).

(٦) لمحات في علوم القرآن، واتجاهات التفسير (١٨٠).

والمتأمل لقول من استبعد دخول تفسير التابعين في المأثور أنه خلط بين أمرين هما: المراد بالتفسير بالمأثور، وحكمه من حيث القبول أو الرد، وأن إدخاله في المأثور يعني قبوله، والحق أن بين الأمرين تمايزاً، فكونه مأثوراً لا يلزم منه الأخذ، أو الرد.

ولعل مما يرجح القول بأنه من المأثور، ما شهدت به اللغة في أصل اشتقاق الكلمة، وكذا ما اختاره جمهور المحدثين، والفقهاء، ثم ما شهد به واقع كتب التفسير بالمأثور؛ فإنه قد جمعت الكثير من المروي، سواء كان عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة، أو عن التابعين.

* * *

٢ ـ التفسير في مراحله الأولى

نزل القرآن الكريم على نبيٍّ أميٍّ، وقوم أميين، نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا يفهمون القرآن، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهمًا لا تعكره عُجمة ولا يشوبه تكدير، وكانوا يعلمون ظواهره، وأحكامه، ومن هنا جاء قول ابن خلدون: إن القرآن نزل على العرب بلغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه وتراكيبه. ثم يقرر بعد ذلك أن في القرآن إشارات لم يتح لكثير من العرب أن يفهموها، ومن هنا دعت الحاجة إلى فهمها وبيان مَراميها[١].

ومن المعلوم أن أكثر آيات القرآن واضحة المعنى وخصوصًا ما يتعلق بأصول الدين، وأصول الأحكام، وهذا النوع يفهمه جمهور المسلمين، ولاسيما العرب منهم. أما ما كان من الآيات التي يصعب فهمها على عموم المسلمين، فلا يقف على معناها إلا الراسخون في العلم منهم، وإمامهم في ذلك المصطفى ﷺ الذي أمر بالبيان ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٢].

ولذا نشأ التفسير بالمأثور، وكان مقصورًا في أول أمره على ما ورد عنه ﷺ، فكان الصحابة يقرؤونه ويتسابقون للعمل بما يعلمون، وقد يشكل بعضه على أحدهم فيسأل النبي ﷺ، ويجيبه النبي ﷺ في سهولة ويسر، وكانت حياته ﷺ تطبيقًا عمليًا لأوامر القرآن ونواهيه[٣].

والمتأمل لعصر النبي ﷺ يجد صدق الإيمان في قلوبهم، والفهم الخالي مَن كل شبهة وشهوة، كل ذلك جعلهم لا يقولون في التفسير إلا ما روي عنه ﷺ توقيفًا، وهذا كان في أول الأمر، ولما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانتشر الصحابة في الآفاق، ازدادت الحاجة إلى

---

(١) دراسات في القرآن (١١١).

(٢) سورة النحل: آية (٤٤).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٦٣).

علمهم، فهم أدرى الناس بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم[١].

وهم مع فضلهم وسبقهم رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا يتفاوتون في فهم القرآن، وبيان معانيه وأسراره، وذلك راجع إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع في اللغة ملمًا بغريبها، ومنهم من كان دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبي ﷺ، فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، بالإضافة إلى ما بينهم من التمايز في الدرجة العلمية، والمواهب العقلية[٢].

يقول مسروق: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كإخاذ - يعني الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم[٣].

ولما فتح الله على المسلمين كثيراً من البلاد، نتج عن ذلك انتقال الصحابة مجاهدين بالسنان، وباللسان، فحملوا معهم ما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لما بعدهم، فقامت في هذه الأمصار مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون[٤].

وقد دخل في هذا الدين عناصر أجنبية على حظ كبير من الحضارة المادية، وكانوا يستخدمون الكتابة في كثير من شؤون حياتهم، ويعتمدون عليها في تدوين علومهم، ولم يألفوا حفظها عن طريق الذاكرة، من هنا أخذ الموقف يتحرك قليلاً، فبدأنا نرى جماعة من التابعين يكتبون لأنفسهم[٥]، وإنما استباحوا ذلك اقتداء بأولئك الصحابة[٦] الذين أباح لهم

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٦٣).
(٢) التفسير والمفسرون (١/ ٣٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٥٤٢).
(٤) التفسير والمفسرون (١/ ١٠٠).
(٥) أورد د. محمد مصطفى الأعظمي في كتاب دراسات في الحديث النبوي، الأدلة على أن (٥٣) من كبار التابعين كتبوا (١/ ١٤٣-١٦٧)، وأن (٩٩) من صغار التابعين كتبوا (١/ ١٤٤-٢٢٠).
(٦) وأورد أيضًا الدليل على أن (٥٢) صحابيًا كتبوا، ينظر كتاب دراسات في الحديث النبوي (١/ ٩٢-١٤٢).

النبي ﷺ الكتابة، بينما كان البعض من التابعين لا يكتب.

ولعل من الأسباب التي دعت للكتابة أيضًا، أن الكذب على رسول الله ﷺ قد كثر في عهد التابعين بسبب بداية ظهور الفرق الإسلامية، وبسبب من دخل في الإسلام ممن لا يرجو له وقارًا، ولا لأهله استقرارًا.

ولذا يقول الإمام الزهري: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثًا، ولا أذنت في كتابة[١].

ثم قال أيضًا: يا أهل العراق، يخرج الحديث من عندنا شبرًا، ويصير عندكم ذراعًا[٢].

إذن فالتفسير بالمأثور أخذ أول الأمر بطريق الرواية التي اهتم بها كثير من الصحابة، والتابعين، وأما مرحلة التدوين فقد تحرج منها البعض في بداية الأمر، ثم انشرحت صدور الكثير منهم فكتبوا وأمروا بالكتابة، ولعل الذي يعنينا إبرازه في هذه المرحلة والتأكيد عليه، ذلك الدور المهم للتابعين في تدوين ما حفظوه وقالوه، في التفسير خاصة، وفي غيره عامة، في زمن مبكر، مما يؤكد عنايتهم بهذا العلم، وسبقهم في هذا الجانب.

فعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأل عن التفسير كله[٣].

ولذا يعتبر مجاهد من أول[٤] من دون أقوال ابن عباس، فأدى بذلك دورًا مهمًا في نشر فكر المدرسة المكية وتخليده، وقد قيل: إن أول التعليقات المفسرة للقرآن هي التي أثبتها مجاهد. وتعتبر تدوينات مجاهد من أقدم مصنفات الجمع[٥].

وقد عثر على مخطوطة لتفسير مجاهد نسخت في القرن السادس[٦].

---

(١) تقييد العلم (١٠٨).
(٢) تاريخ الإسلام (٥/ ١٤٣).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٩٠)، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (٢٨)، وتقييد العلم (١٠٥).
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن (١/ ٤٥)، ودراسات في التفسير وأصوله (٣٦).
(٥) دراسات في التفسير وأصوله (٥٦)، والفهرست (٣٣)، وتاريخ آداب اللغة العربية (١/ ٢٢١).
(٦) بين الشيعة والسنة (٦٧).

وهذا التفسير رواية أبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبيد الهمذاني، وينتهي سنده في معظمه إلى مجاهد عن طريق إبراهيم، عن آدم، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد[١].

وكان لسعيد بن جبير كتاب في تفسير القرآن، وكتاب في نزول القرآن[٢].

وقد أشار ابن النديم إلى أن هذا الكتاب كان موجودًا بعد سعيد ثم فُقِد[٣].

وكان ـ رحمه الله ـ يقول عن نفسه: كنت أسأل ابن عمر في صحيفة، ولو علم بها كانت الفيصل بيني وبينه[٤].

ويقول أيضًا: كنت أكتب عند ابن عباس في ألواحي حتى أملأها، ثم أكتب في نعلي[٥].

ويقول أيضًا: كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس، فكنت أسمع الحديث منهما فأكتبه على واسطة الرحل، حتى أنزل فأكتبه[٦].

وقد روى ابن سعد: أن عزرة بن يحيى كان يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير في كتاب، ومعه الدواة يغير[٧].

وكان عبد الملك بن مروان قد سأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه تفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله عن سعيد ابن جبير[٨].

وكتب عمرو بن عبيد ـ شيخ المعتزلة ـ تفسيرًا للقرآن عن الحسن البصري ـ

(١) ويأتي بسط الحديث عنه في فصل مصادر تفسير التابعين ص (٦٠).
(٢) الفهرست لابن النديم (٥١)، وتاريخ التراث (١/ ١٨٤).
(٣) الفهرست (٥١).
(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٨).
(٥) تقييد العلم (١٠٢)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٧).
(٦) تقييد العلم (١٠٣)، وجامع بيان العلم (١/ ٧٢).
(٧) الطبقات (٦/ ٢٦٦).
(٨) الجرح (٣/ ٣٣٢)، والمراسيل (٥٨)، والتهذيب (٧/ ١٩٨).

رحمه الله[١] .. وكان عند زيد بن أسلم كتاب في التفسير[٢] .

وألف إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تفسيراً للقرآن[٣] .

وكان لقتادة كتاب في التفسير[٤] ، والناسخ والمنسوخ في القرآن[٥] ، وعواشر القرآن[٦] .

وكان عطاء بن أبي رباح يكتب لنفسه ، ويأمر ابنه أحيانًا أن يكتب له ، وكان طلابه يكتبون بين يديه[٧] .

وقد نشطت الحركة العلمية في عصر التابعين نشاطًا كان من آثاره بدء مرحلة التدوين الرَّسمي للسنة ، بأمر من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقول عبد الله بن دينار : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة : أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه ، فإني خِفْتُ دُرُوس العلم وذهاب أهله[٨] ، ولم يكن أمره هذا مقصوراً على أهل المدينة فحسب ، بل كتب بذلك إلى سائر الأمصار[٩] .

وكان أول من قام بتدوين السنة بأمر من عمر بن عبد العزيز : ابن شهاب

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ١٣٢)، ومما ينبغي التنبيه عنه هنا ، أن هذا التفسير المروي عن عمرو بن عبيد ، أفاد منه الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان (ص ٦ ب) ينظر تاريخ التراث (١/ ٧٢) . ونقل البغوي تفسير الحسن عن هذا الطريق كما صرح به في مقدمة كتابه (١/ ٢٦) . ولكن الطبري لم ينقل من هذا الكتاب شيئًا ، إنما اعتمد طرقًا أخرى .

(٢) التذكرة (٣/ ١٣٢) .

(٣) حاشية تفسير الطبري (١/ ١٥٦ ـ ١٦٠)، ودراسات في القرآن لأحمد خليل (١١١) .

(٤) الفهرست (٣٤)، ودراسات في الحديث النبوي (١/ ١٩٦) .

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٣)، والبرهان (٢/ ٢٨) .

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٢) .

(٧) سنن الدارمي (١/ ١٢٩) .

(٨) سنن الدارمي (١/ ١٠٤)، وتقييد العلم (١٠٦) .

(٩) فتح الباري (١/ ١٩٤) .

الزهري[١] .

والتفسير في مرحلته الأولى اتخذ شكل الحديث، بل كان جزءًا منه، وبابًا من أبوابه، ومن المعلوم أن الحديث كان هو المادة الواسعة التي شملت جميع المعارف، والعلوم الشرعية؛ لأنه يقوم على الرواية التي هي الأصل في نقل جميع العلوم الدينية[٢] .

وقد تبع مرحلة التدوين، مرحلة التصنيف، والتي بدأها ابن جريج المكي[٣] ، الذي يعد من أول من صنف الكتب[٤] ، وله كتاب في التفسير[٥] .

وابن أبي عروبة والذي يعد من أول من صنف في العراق، وله تفسير القرآن والسنن[٦] .

ثم جاء بعدهم سفيان بن سعيد الثوري، والإمام الأوزاعي، بالشام، ومعمر بن راشد باليمن[٧] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٨٨).

(٢) بتصرف، ينظر علوم القرآن د. عدنان زرزور (٤٠٤).

(٣) وابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٥٠ هـ)، وقد حفظ بتصنيفه هذا تراث المدرسة المكية؛ لأنه من أكثر الرواة لتفسير عطاء، وعكرمة، وهو ثاني أصحاب مجاهد، وسيأتي تفصيل ذلك ص (٤٥٣).

(٤) تاريخ بغداد (١٠/ ٤٠٠).

(٥) الفهرست (٢٨٢)، والتهذيب (٢/ ٢٠٥)، (٤/ ٢٤٤)، ودراسات في الحديث النبوي (١/ ٢٨٦).

(٦) هو سعيد بن أبي عروبة البصري المتوفى سنة (١٥٦) هـ، ينظر: الفهرست (٢٨٣)، وفتح الباري (٩/ ٤٦٤)، ودراسات في الحديث (١/ ٢٥٤).

(٧) المحدث الفاصل (٦١١)، وتدريب الراوي (١/ ٨٩)، ومعمر بن راشد كان لانتقاله من البصرة إلى اليمن، وتدوينه العلم بها، أثره البالغ في إكثار عبد الرزاق من آثار وأقوال البصريين، لاسيما ما جاء عن قتادة والحسن، وسيأتي ذلك مفصلاً في أثر المدرسة البصرية على بقية المدارس ص (٥٠٤).

وامتداداً لتلك المرحلة جاء بعد ذلك: التصنيف على الأبواب، كما صنع عبد الرزاق الصنعاني، وابن أبي شيبة في مصنفيهما، وغيرهما. وبدأ علم التفسير يستقل في مصنفات خاصة سنأتي على ذكر شيء منها بعد ورقات.

❁ ❁ ❁

الباب الأول

مدخل إلى تفسير التابعين

وفيه فصلان:

الفصل الأول: المراد بالتابعي، وحكم تفسيره.

المبحث الأول: المراد بالتابعي.

المبحث الثاني: حكم تفسير التابعي

الفصل الثاني: مصادر تفسير التابعين.

المبحث الأول: كتب السنن، والآثار.

المبحث الثاني: كتب التفسير بالمأثور.

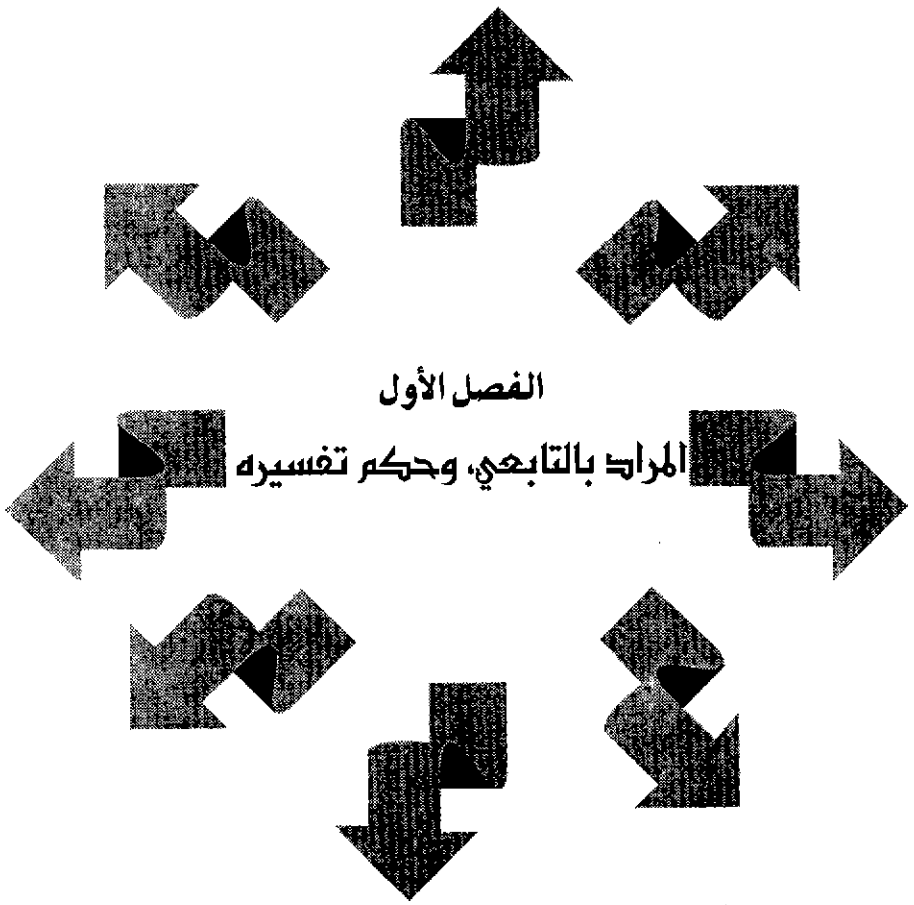

الفصل الأول

المراد بالتابعي، وحكم تفسيره

الفصل الأول

المراد بالتابعي، وحكم تفسيره

المبحث الأول

المراد بالتابعي

التابع ويقال: التابعي، وكذا التبع، ويجمع عليه أيضًا كذا على أتباع[١].

اختلف العلماء في حده، وتعريفه:

فذهب الخطيب البغدادي إلى أن التابعي من صحب الصحابي[٢]. فلا يكفي عنده مجرد اللقي، بل لابد من شرط زائد وهو وجود الصحبة بينهما.

ومال ابن كثير[٣] إلى قول الخطيب؛ لأنه ذهب إلى تعليل اشتراط الصحبة، وعدم الاكتفاء باللقي.

فتبين أن أهل هذا القول لم يكتفوا بمجرد رؤية التابعي للصحابي، كما اكتفوا بذلك حين قرروا أن رؤية رسول الله ﷺ كافية لمن آمن به ثم مات على ذلك في إطلاق اسم الصحابي عليه[٤]؛ لأن هنالك فرقًا؛ فرؤيته ﷺ لها أثرها في النفس، والسلوك.

---

(١) فتح المغيث (٣/ ١٤٠)، وفتح الباقي (٣/ ٤٥).

(٢) الكفاية (٥٩).

(٣) اختصار علوم الحديث (٢٠١).

(٤) صحيح البخاري أول كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٤/ ١٨٨)، والإصابة (١/ ٣).

وذهب الحاكم إلى القول باشتراط المشافهة عن أصحاب النبي ﷺ[١] .

واختار ابن حجر ـ رحمه الله ـ قول الجمهور في ذلك، وزاد قيد الإيمان، ثم قال: خلافًا لمن اشترط في التابعي طول الملازمة، أو صحبة السماع.

فتحصل مما سبق أن تعريف التابعي المختار: هو من لقي الصحابي مؤمنًا، ومات على الإسلام[٢] .

وذهب كثير من المحدثين إلى القول بأن المراد به: من لقي واحدًا من الصحابة فأكثر[٣] .

فيكفي عن هؤلاء مجرد اللقي وإن لم تكن الصحبة، وإلى ذلك ذهب بن الصلاح[٤] والنووي[٥]، ورجحه العراقي[٦] فقال: وعليه عمل الأكثرين من أهل الحديث[٧] . ثم ساق الأدلة الدالة على صحة هذا القول، فقال: ذكر مسلم، وابن حبان، سليمان بن مهران الأعمش في طبقة التابعين، وقال ابن حبان: أخرجناه في هذه الطبقة؛ لأن له لقيًا وحفظًا، رأى أنس بن مالك، وإن لم يصح له سماع المسند من أنس[٨] .

وقال علي بن المديني: لم يسمع من أنس، وإنما رآه رؤية بمكة يصلي خلف المقام[٩] .

---

(١) معرفة علوم الحديث (٤٢)، ومنهج النقد في علوم الحديث (١٤٧).

(٢) شرح قصب السكر نظم نخبة الفكر (١٠٦)، وشرح النخبة لعلي القاري (١٨٤، ١٨٥).
وقد توسع التهانوي في تعريفه، فقال: هو من لقي الصحابي، ولو غير مؤمن بالنبي ﷺ، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة، ينظر: قواعد في علوم الحديث (٤٨).

(٣) تدريب الراوي (٢/ ٢٣٤).

(٤) مقدمة ابن الصلاح (٢٧٢).

(٥) تدريب الراوي (٢/ ٢٣٤).

(٦)، (٧) التبصرة والتذكرة (٣/ ٤٥)، والتقييد والإيضاح (٣١٧).

(٨) الثقات (٦/ ٢٧٠).

(٩) المراسيل لابن أبي حاتم (٨٢).

وقال أبو حاتم: إنه لم يسمع منه[١]، وقال الترمذي: إنه لم يسمع من أحد من الصحابة[٢].

ثم قال العراقي: وعدَّه أيضًا عبد الغني بن سعيد في التابعين، وعدَّ فيهم يحيى بن أبي كثير، لكونه لقي أنسًا، وعدّ فيهم موسى بن أبي عائشة لكونه لقي عمرو بن حريث، وعدّ فيهم جرير بن حازم لكونه رأى أنسًا، وهذا مصير منهم إلى أن التابعي من رأى الصحابي[٣].

وقد قيد ابن حبان الرؤية بأن تكون في سن من يحفظ عنه، كما صرح بذلك في ترجمة خلف بن خليفة، الذي قال البخاري فيه: يقال: إنه مات في سنة إحدى وثمانين ومائة، وبذلك جزم ابن حبان[٤].

قال السخاوي في إيضاحه لهذا التعريف: هو اللاقي لمن قد صحب النبي ﷺ واحدًا فأكثر، سواء كانت الرؤية من الصحابي نفسه، حيث كان التابعي أعمى أو بالعكس، أو كانا جميعًا كذلك يصدق أنهما تلاقيا، وسواء كان مميزًا أم لا[٥]. وختم السخاوي هذا المبحث بقوله: (مرجحًا القول المكتفي باللقاء): ثم إنه قد يستأنس لهذا القول بقوله ﷺ: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني**»[٦].

---

(١) المرجع السابق (٨٢)، والتبصرة (٣/ ٤٥).

(٢) التبصرة (٣/ ٤٦).

(٣) المرجع السابق.

(٤) الثقات (٦/ ٢٧٠).

(٥) فتح المغيث (٣/ ١٤٠).

(٦) رواه الطبراني عن عبد الله بن بسر، بزيادة: «**طوبى لهم وحسن مآب**».
قال نور الدين الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠): رواه الطبراني، وفيه بقية، وقد صرح بالسماع فزالت الدلسة، وبقية رجاله ثقات.
قال الألباني: في السلسلة الصحيحة (٣/ ٢٥٣) ما نصه: وقد وقفت على إسناده، أخرجه الضياء في «المختارة» (ق ١١٣/ ٢) من طريق أبي يعلى والطبراني بإسناديهما عن بقية، ثم قال: =

. . . . . .

= وهو إسناد حسن، ورجاله معروفون غير اليحصبي هذا، فقد ترجمه ابن أبي حاتم (٣/ ٢/ ٣١٦) برواية جماعة عنه، ولم يذكر فيه جرحًا، ولا تعديلاً، ثم قال: والظاهر أنه وثقه ابن حبان يدل عليه كلام الهيثمي السابق.

قال كاتبه: لم يوثقه ابن حبان، بل قال: لا يحتج بحديثه ما كان من رواية بقية بن الوليد، بل يعتبر من حديثه ما رواه الثقات عنه، فتحصل مما سبق تضعيف ابن حبان له، وخاصة في رواية بقية عنه. ينظر: الثقات (٥/ ٣٧٧).

وأخرجه الحاكم (٤/ ٨٦) من طريق عبد الله بن بسر أيضًا بزيادة: «ولمن رأى من رآني وآمن بي».

ثم قال -رحمه الله-: هذا حديث قد روي بأسانيد قريبة عن أنس بن مالك، وأقرب هذه الروايات إلى الصحة ما ذكرنا، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: جميعه واه.

وأما أسانيد الحديث إلى أنس، التي أشار إليها الحاكم فقد أخرجها الخطيب في تاريخه (٣/ ٤٩)، (٣/ ٣٠٦)، (٦/ ٢٠٠)، (٨/ ٢٥٨، ٢٥٩) وفيها ضعف شديد، كما أشار إليه الشيخ الألباني، ثم قال: وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا به، ولكنه واه جدًا، أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من المسند (٢/ ١١٠) من طريق إبراهيم بن أبي إسحاق عن أبي نضرة عنه ثم قال: وهذا إسناد ضعيف جدًا، إبراهيم هذا هو ابن الفضل، وهو متروك كما في «التقريب».

قال كاتبه: ولست أدري من أين استنبط الشيخ حفظه الله أن إبراهيم هذا هو ابن الفضل؛ لأن إبراهيم هنا هو ابن يزيد أبو إسحاق الكوفي، كما يوضحه ما رواه البخاري في تاريخه (١/ ٣٣٥) عند ترجمة إبراهيم ابن أبي يزيد أبو إسحاق الكوفي، وذكر في ترجمته روايته لهذا الحديث عن أبي نُصير سمع أبا سعيد عن النبي ﷺ قال: «طوبى لمن رآني...» الحديث، وساقه بأكثر من ثلاثة طرق عن إبراهيم بن يزيد عن أبي نصير به.

وإبراهيم بن يزيد الكوفي ذكره البخاري (١/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في الجرح (٢/ ١٤٦)، وسكتا عنه، وقال ابن حبان: شيخ يروي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، ينظر: الثقات (٦/ ٢٥).

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠) ٢٩، من طريق وائل بن حجر قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني» قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠): وفيه من لم أعرفهم.

ثم قال الشيخ الألباني: وبالجملة فالحديث حسن إن شاء الله من أجل طريق بقية التي أخرجها الضياء في المختارة.

قال كاتبه: لعل الأقرب أن الحديث حسن لغيره، بمجموع طرقه الضعيفة.

المبحث الثاني

حكم تفسير التابعي

لقد حظيت أقوال التابعين في سائر فروع العلم بمزيد اهتمام، فروي الكثير منها، وجمعت فتاويهم، وآراؤهم.

وقد وقع الخلاف بين الأئمة في قبول قول التابعي:

فعن شعبة قال: رأي التابعين من قبل أنفسهم ريح لا يعتمد عليه، فكيف في كتاب الله[1].

وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع[2].

وذهب أبو حنيفة، والشافعي إلى عدم الأخذ بقوله، وقد صرح أبو حنيفة فقال: إذا جاء الأمر إلى إبراهيم، والحسن فهم رجال، ونحن رجال[3].

وإن كان الإمام الشافعي قد يأخذ أحيانًا بقول التابعي، وقد صرح في أكثر من موضع بأنه قال ذلك تقليداً، كما وقع ذلك منه مثلاً في تقليده لبعض ما ذهب إليه عطاء ابن أبي رباح.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٧٠)، ونقله ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/ ١٥)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بلفظ: أقوال التابعين في الفروع ليست بحجة، فكيف تكون حجة في التفسير، وينظر: الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ٣٩٦).

(٢) المسودة في أصول الفقه (١٧٦)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٨)، والإتقان (٢/ ٢٢٩).

(٣) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٣).

قال ابن القيم: وهذا من كمال علمه، وفقهه ـ رضي الله عنه ـ فإن لم يجد في المسألة غير قول عطاء كان عنده أقوى ما وجد في المسألة، ونجده يقول عند بعض المسائل: وهذا يُخرجُ على قول عطاء[١].

وأما مالك، فإنه لم يصرح باتباع قول التابعي على أنه حجة، ولكن رأيناه في الموطأ كثيراً ما يروي عن التابعين أقوالاً، ويأخذ بها[٢].

وأما أحمد فيأخذ بقول التابعي في رواية، كما يأخذ بقول الصحابي إذا لم يكن هناك قول الصحابي، وإذا اختلف التابعون لم يوازن بين أقوالهم ويتخير فيها، بل يكون قول كل تابعي عنده حجة، ويكون الاختلاف بينهم اختلافًا في مذهبه[٣].

وقد ذكر الدهلوي في بيان الفرق بين أهل الحديث، وأصحاب الرأي، أن المحدثين إذا فرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث، ولم يجدوا في المسألة حديثًا، أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة، والتابعين[٤].

يقول ابن تيمية: من عدل عن مذاهب الصحابة، والتابعين، وتفسيرهم، إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه[٥].

هذا في جانب القول بعامة، وأما في جانب التفسير، فقد درج كثير من المفسرين على الاستشهاد بأقوال التابعين، وجاءت روايات كثيرة لا يُحصيها العد، ذكر منها ابن جرير في تفسيره كثرة كاثرة، والسيوطي في الدر، والبغوي، وابن كثير، وغيرهم[٦].

ولذا ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير؛ لأنهم نقلوا غالب

(١) أعلام الموقعين (١/ ٢٠).
(٢) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٤)، وكتاب مالك حياته، وعصره، لأبي زهرة (٢٦٨).
(٣) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٤).
(٤) الحجة البالغة (١/ ١١٨).
(٥) مقدمة في أصول التفسير (٩١).
(٦) الإسرائيليات لأبي شهبة (٥٧)، وسيأتي تفصيله في الفصل التالي ص (٦٠ ـ ٨٠).

تفسيراتهم عن الصحابة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين[١].

وقد ذكر الزركشي طرق التفسير الأربع: النقل عن النبي ﷺ، ثم الصحابة، ثم أورد عند ذلك مسألة الرجوع إلى أقوال التابعين، وحكى الخلاف فيه، وذكر أقوال بعض المانعين، ثم قال: لكن عمل المفسرين على خلافه، وقد حكوا في كتبهم أقوالهم كابن جبير، ومجاهد، وقتادة...[٢].

وذكر ابن الأنباري أن من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله[٣].

ومن الضوابط التي أشار إليها المفسرون، وينبغي للمتعرض لتفسير القرآن مراعاتها: عدم التسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع، والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة.

وفي هذا يقول القرطبي: فمن لم يُحكم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي والعقل، والسماع لابد له منه في ظاهر التفسير أولاً، ليتقي به مواضع الغلط. ثم قال ـ رحمه الله ـ: والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[٤]، معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٥).
(٢) البرهان (٢/ ١٥٨)، والإتقان (٢/ ٢٢٩)، وتفسير القاسمي (١/ ٨).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢٥).
(٤) سورة الإسراء: آية (٥٩).
(٥) تفسير القرطبي (١/ ٢٦)، وهذا المعنى مروي عن مجاهد، وقتادة، في تفسير هذه الآية، ينظر تفسير الطبري (١٥/ ١٠٩)، والدر المنثور (٥/ ٣٠٧).

الفصل الثاني

مصادر تفسير التابعين

الفصل الثاني
مصادر تفسير التابعين

المصدر: هو المرجع، مأخوذ كما يقول ابن فارس من قولهم: صَدَر عن الماء وصدر عن البلاد[١].

ويقول ابن منظور: أصدرته فصدر، أي: رجعته فرجع، والموضع مصدر، ومنه مصادر الأفعال.

وقيل: الصَّدَرُ عن كل شيء الرُّجوع، وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾[٢].

ولذا فالمصادر هي المراجع التي تجمع وتنقل مأثورهم، ويرجع إليها. وقد وجدت كثيراً من تلك المصادر تورد العديد من الأقوال المروية من تفسيرهم، وبسبب كثرة تلك الكتب، حرصت على انتقاء نماذج من أهم تلك المصادر التي نقلت تفسيرهم، وركزت في هذه الدراسة على نوعين من الكتب: كتب السنن والآثار، وكتب التفسير بالمأثور.

وقد لاحظت من خلال مُطالعتي لبعض الجهود المعاصرة في جمع تفسير أولئك الأئمة قلة عناية كثير من الباحثين ببعض هذه المصادر، إما لعدم معرفة أهميتها، أو لصعوبة البحث فيها عن آثار التابعين، فحاولت في هذا الفصل إبراز نماذج لأهم تلك

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٧).

(٢) لسان العرب (٤/ ٤٤٨)، وتاج العروس (١٢/ ٣٣٠)، والآية من سورة القصص: (٢٣).

المصادر، وبيان مدى عنايتها بتفسير التابعين، مع بيان مدى التفاوت بين المصنفين في الاستشهاد بأقوالهم في التفسير، مما كان السبب وراء ظن البعض أن كتب السنة لا تروي كثيراً من ذلك.

* * *

المبحث الأول

كتب السنن والآثار

جمعت كتب الصحاح والسنن مقادير مختلفة من التفسير بالمأثور ، حتى إننا لنرى في صحيح البخاري كتابين هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، وهما يشغلان حيزًا واضحًا من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه[١] .

صحيح البخاري :

من أهم مصادر تفسير التابعين صحيح الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ فقد روى كثيراً من تفسيرهم ، وخصوصًا في كتاب التفسير من صحيحه ، وكتاب أحاديث الأنبياء ، يقول الأستاذ عبد المجيد محمود : والحق أن البخاري من بين محدثي القرن الثالث هو الذي اهتم بالقرآن في صحيحه ، وهو الذي تفرد بالعناية بذكر الآيات المناسبة للأبواب المختلفة[٢] . وقد رجعت إلى كتابه التفسير في صحيحه فوجدت ما يلي :

١ ـ يقدم أغلب الأبواب في التفسير بذكر ما ورد عن الأئمة من الصحابة والتابعين ، وخاصة ما جاء عن مجاهد ـ رحمه الله ـ .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تفسير (٥/ ٣٤٩) .

في حين أن هناك كتبًا أخرى من الصحاح والسنن كصحيح مسلم الذي جعل كتابًا مستقلاً للتفسير ، لكنه لم يذكر فيه إلا أربعة وثلاثين حديثًا ، كلها من المرفوع عنه ﷺ وبعضهم لم يبوب كتابًا للتفسير في كتابه ، كسنن أبي داود ، وابن ماجه ، وموطأ الإمام مالك ، وغيرها من كتب المسانيد والمعاجم .

(٢) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث ، في القرن الثالث (١٩٥) .

٢ ـ ما يورده عن التابعين أكثره معلق، بخلاف ما يروي عن الصحابة فإنه في الغالب يكون مسنداً[١] ، وأكثره في أسباب النزول[٢] .

٣ ـ يورد جملة من الأقوال غير المنسوبة معلقة، وغالبها مأخوذ من تفسير التابعين[٣] .

٤ ـ أكثر المعلقات المنسوبة وغير المنسوبة وصلها ابن حجر في الفتح والتغليق[٤] .

٥ ـ في إيراده لأقوال التابعين قل أن يذكر خلافاً[٥] ، وكأنه بذلك يختار القول المترجح عنده ويذكره .

٦ ـ أكثر من النقل عن تلاميذ المدرسة المكية، وخصوصاً مجاهد، ثم ابن جبير، ثم عكرمة، ثم أورد بعض أقوال تلاميذ المدرسة العراقية، أما نقله عن المدرسة المدنية فكان قليلاً[٦] .

٧ ـ يورد في النادر بعضاً من الروايات عن أتباع التابعين وخاصة سفيان بن عينية[٧] .

---

(١) قد يورد بعض التفاسير المسندة عن التابعين، ولكنها قليلة، من هذا ينظر صحيح البخاري (٥/ ١٦١)، (٥/ ٢١٥)، (٥/ ١٩١).

(٢) وغالب ما يورده عن التابعين في بيان غامض مفردات الآيات .

(٣) وهذا كثير يتضح من خلال مراجعة فتح الباري الصفحات: (٨/ ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢ . . .).

(٤) ولذا يُعد هذان الكتابان من المصادر الأساسية لمعرفة المروي في التفسير عن التابعين، وقد أغفلهما كثير من الباحثين في جمع المروي عنهم في التفسير .

(٥) ينظر صحيح البخاري (٥/ ٢١١).

(٦) روى عن زيد بن أسلم، وابن المسيب في موضع واحد فقط، ينظر صحيح البخاري (٥/ ٢١١)، (٥/ ١٩١).

(٧) من الأمثلة الدالة على ذلك، ينظر صحيح البخاري، الصفحات (٥/ ١٨٥)، (٥/ ١٨٦)، (٥/ ١٩٩)، (٥/ ٢٠١)، (٥/ ٢١٩)، (٥/ ٢٢١)، (٥/ ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢)، (٦/ ١٠، ١٤ . . .).

٨ ـ اعتمد في تلك المعلقات على تفسير ابن عباس، ومجاهد، وكان ـ رحمه الله ـ يقدم الباب في الغالب بذكر ما يختاره من تفسير مجاهد.

٩ ـ يأتي بعد ابن عباس ومجاهد بمراحل، إيراده لتفسير ابن مسعود رضي الله عنه، وقتادة، وكان اعتماده على تفسير الحسن قليلاً.

١٠ ـ قل أن يورد تفسير سورة بدون إيراد قول، أو أقوال لمجاهد ـ رحمه الله ـ.

وخلاصة القول أن صحيح البخاري يعد من أهم كتب الصحاح والسنن التي جمعت الكثير من أقوال التابعين؛ ولذا عرضت له بشيء من التفصيل. وقد لاحظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ أهمية هذا الكتاب في جانب التفسير بالذات فجرد التفسير من صحيحه[١].

ومما زاد من أهمية الصحيح، ما قام به ابن حجر من شرح وبيان، وإيراد للكثير من آثار التابعين، فصار كتابه الفتح، وقبله التغليق من أهم كتب شروح السنة في جمعها لكثير من آثار التابعين في التفسير[٢]، ولذا فسوف أصل الحديث عن هذين الكتابين، مبينًا أهميتهما في هذا الباب.

تغليق التعليق[*]:

تتضح أهمية هذا الكتاب في سياقه لعدد كبير من الطرق والأسانيد التفسيرية، وقد اعتمد مؤلفه في تصنيفه على ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين مصنفًا[٣]، بعض هذه

(١) في كتاب سماه تجريد التفسير من صحيح البخاري، ينظر: المنهل الصافي (٢/ ٢٤).

(٢) أحسب أن كتاب ابن حجر «الفتح» يأتي في الأهمية بين كتب التفسير بالمأثور بعد كتاب «الدر المنثور».

(*) لأحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة (٨٥٢) هـ، ينظر إنباء الغُمر (١/ ٣)، والضوء اللامع (٢/ ٣٦)، ونظم العقيان (٤٥)، والمنهل الصافي (٢/ ١٧)، وذيل تذكرة الحفاظ (٢٢٦)، والجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر، للسخاوي.

(٣) مقدمة التغليق (١/ ٢٤٣)، (٥/ ٤٤٣).

المصنفات مفقود، وجزء منها صعب المنال من مخطوط، أو مبثوث في الكتب، فكان بمثابة اللبنة الأولى لوصل تلك المعلقات، وقد اعتمده ابن حجر عندما أراد التعرض لشرح الصحيح وزاد عليه، يقول ـ رحمه الله ـ: وقد أغنى عن تعب كبير[١]، وهو كتاب كثير الفوائد، لا سيما في وصل تلك الآثار المعلقة عن التابعين، وقد سار المصنف في الكتاب على نسق ترتيب صحيح البخاري، فيذكر الكتاب، ثم ما تحته من أبواب، حسب منهج صاحب الصحيح.

ومما يزيد في أهمية هذا الكتاب ما ذكره ـ رحمه الله ـ عندما أشار في المقدمة لتغليق المعلقات في كتاب التفسير من الصحيح[٢] فقال: وكتاب التفسير هذا يتكرر النقل فيه من كتب، وذكر أسانيده إلى هذه الكتب، وأسانيد هذه الكتب إلى الرسول ﷺ، والصحابة والتابعين، فذكر من هذه الكتب تفسير عبد بن حميد ـ الذي لا يزال مفقوداً، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن جرير، وتفسير الفريابي[٣]. إلى أن قال: وأما تفسير عبد الرزاق بن همام، وتفسير سعيد بن منصور، وتفسير أبي بكر بن أبي شيبة، وغيرها، فلم أنقل منها إلا القليل، بالنسبة إلى النقل من تلك الكتب الأربعة[٤].

فتح الباري شرح صحيح البخاري:

أورد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه روايات كثيرٍ من التابعين في تفسيرهم، ولكنها جاءت في أغلب الأحيان معلقة.

فلما تعرض ابن حجر لشرحها، وصل الكثير منها، ووضح المبهم، وشرح الغريب، وأورد الشواهد على صحة كثير منها، من قول المصطفى ﷺ، أو من قول

(١) مقدمة التغليق (١/ ٢١٩).
(٢) التغليق (٤/ ١٦٩).
(٣) التغليق (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠).
(٤) التغليق (٤/ ١٧١).

الصحابي، أو التابعي. وهذا الكتاب جاء حافلاً بالكثير من الروايات المسندة الزائدة على ما في الصحيح، ولعله بذلك يكون من أجمع كتب الحديث التي استوعبت التفسير عن الأئمة التابعين، بل فاق كثيراً من كتب التفسير بالأثر، وقد ذكر ابن حجر في نهاية كتاب التفسير من الفتح، إحصاء لما اشتمل عليه كتاب التفسير في صحيح البخاري، فقال: اشتمل كتاب التفسير على خمسمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثًا من الأحاديث المرفوعة، وما في حكمها[١].

وذكر أن الكثير من هذه الأحاديث من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعددها ستة وستون حديثًا[٢]، ثم ذكر أن عدد الآثار في التفسير عن الصحابة، ومن بعدهم، خمسمائة وثمانون أثراً[٣].

وقد جاء تأليفه متأخراً عن التغليق؛ ولذا فقد تميز عنه بالعديد من المزايا منها:

١ ـ في الفتح يورد أكثر من رواية لوصل المعلق من تفسير التابعي، وأما في التغليق فيصله من طريق واحد[٤].

٢ ـ في الفتح يُعنى بألفاظ الرواية، فربما ذكر أكثر من لفظة ووجه لتفسير التابعي نفسه، أما في التغليق فيذكر وجهًا واحداً[٥].

٣ ـ يصل المعلق من تفسير التابعين ويورد الشواهد له، أما في التغليق فيكتفي بوصله فقط[٦].

---

(١) الفتح (٨/ ٧٤٣).
(٢) المرجع السابق (٨/ ٧٤٣).
(٣) المرجع السابق (٨/ ٧٤٤).
(٤) ينظر الفتح (٨/ ١٧٩، ١٨٠، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٧٤...).
(٥) ينظر الفتح (٨/ ١٦١، ١٧٩، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٨، ٢٥٢...).
(٦) ينظر الفتح (٨/ ١٧٩، ١٩٩، ٢٥٢، ٣٠٥...).

٤ ـ امتازت نسخة صحيح البخاري التي اعتمدها في الفتح بزيادات مفيدة[١] .

٥ ـ يورد الخلاف عند ذكر تفسير التابعي بأسانيد الأئمة من الصحابة والتابعين في الفتح، أما في التغليق لا يورد خلافًا؛ لأنه ليس من غرض الكتاب؛ إنما غرضه وصل المعلقات فحسب[٢] .

٦ ـ في الفتح يتعرض للمعلقات المبهمة فيوضحها، أما في التغليق فيكتفي بالمعلقات المسماة.

سنن سعيد بن منصور[*] :

هو من المصنفات التي تضم أحاديث النبي ﷺ، وما ورد عن الصحابة، والتابعين، مرتبة على الأبواب.

وشبه سنن سعيد ـ في الجملة ـ بمصنفي عبد الرزاق، وابن أبي شيبة ظاهر[٣] .

وقد تضمن ستة كتب في فضائل القرآن، وآخر في التفسير[٤] .

---

(١) لأنها جاءت من نسخة الأصيلي، والمستملي، ينظر الفتح (٨/ ١٦١، ١٦٢) عند قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾، و ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ ﴾، و﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ ﴾، و ﴿ فُومِهَا ﴾.

(٢) ينظر الفتح (٨/ ١٧٩، ٢١٠، ٢٥٢، ٢٧٤ . . .).

(*) سعيد بن منصور بن شعبة الخرساني ثم المكي، المتوفى سنة سبع وعشرين ومائتين، ينظر طبقات ابن سعد (٥/ ٥٠٢)، وكتاب تسمية ما انتهى إلينا من الرواة عن سعيد بن منصور عاليًا (٢٦)، وتاريخ وفاة الشيوخ (٤٧)، والمعجم المشتمل (١٢٩).

(٣) مقدمة سنن سعيد للدكتور سعد الحميد (١/ ٢٠٥).

لكن من المفارقات الرئيسة بينهما أن عبد الرزاق أفرد كتابا صنفه في التفسير، وقد طبع بتحقيق د. مصطفى مسلم، وسيأتي الحديث عنه ص (٧٠).

وكذا صنع ابن أبي شيبة، فقد أفرد التفسير بمصنف خاص، قال عنه السيوطي في مقدمة تفسيره (ق ١): وله تفسير لكن لم أره، وهو في بطن تفسير ابن المنذر بسند منه، فإذا عزوت إليه فمنه.

(٤) قال السيوطي: سعيد بن منصور له السنن، وفيها باب عظيم في التفسير يجيء نحو مجلد، ينظر المقدمة (ق ١).

وبعد مراجعتي لكتاب التفسير في سننه[١] ، وجدت أنه يكثر من النقل عن مجاهد وابن عباس، وبعدهما الحسن وإبراهيم، ثم ابن جبير وعكرمة، فعطاء والشعبي، وغيرهم دونهم في ذلك.

سنن الترمذي:

أطال في كتاب التفسير[٢] ، وغالبه من التفسير النبوي، والقليل منه موقوف على الصحابة، وغالب هذا الموقوف في بيان أسباب النزول، وقد يورد في النادر عند نهاية ذكره الحديث أثرًا مسندًا عن تابعي[٣] .

وكتاب الإمام الترمذي على سعة كتاب التفسير فيه، فإن ما نقله عن التابعين كان قليلاً.

سنن الدارمي:

عقد كتابًا في فضائل القرآن أورد فيه أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ، وأكثر فيه من النقل عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وجاء عنه في هذا الكتاب بعضًا من الآثار عن التابعين[٤] .

---

(١) رجعت في تفسيره إلى نهاية سورة النساء، فوجدت أنه روى عن مجاهد في (٥٤) موضعًا أي: ما يقارب (١٠,٠) من مجموع تفسيره، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في (٥٢) موضعًا، وعن الحسن وإبراهيم في (٣٣) موضعًا، وعن ابن جبير في (١٧) موضعًا، وعن عكرمة في (١٦) موضعًا، وعن عطاء في (١٤) موضعًا، وعن الشعبي في (١٣) موضعًا، وغيرهم دونهم في ذلك، وبلغ المرفوع من الآثار للنبي ﷺ (١٧) حديثًا.

(٢) أورد فيه أكثر من أربعمائة حديث (٥/ ١٩٩ ـ ٤٥٣).

(٣) من ذلك ينظر السنن (٥/ ٢٠٠) ٢٩٥٢، (٥/ ٢٠٦) ٢٩٥٨، (٥/ ٢٣٧) ٣٠٢٢، (٥/ ٢٩٥) ٣١١٩.

وقد أورد قبل هذا الكتاب كتابًا في فضائل القرآن، وآخر في القراءات، ومنهجه في هذين الكتابين مثل منهجه في كتاب التفسير.

(٤) من ذلك ينظر سنن الدارمي: (٢/ ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠).

ومع هذا فإن المروي فيه من تفسير التابعين كان قليلاً، إذا ما قورن بالمروي عن الرسول ﷺ وعن الصحابة.

كتب الزهد والرقائق:

وهذا من المصادر التي قد يغفل عنها بعض الباحثين، وقد حوت كثيراً من الآثار التفسيرية عن التابعين، ومن المعلوم أن القرآن كتاب هداية، ودلالة، وإرشاد، وجاء كثيرٌ من آياته في الوعد والوعيد، والترغيب، والترهيب، وقد كان بعض من مفسري التابعين يفسرون تلك الآيات واعظين به الناس، وهذه الكتب تعد مصادر مهمة لتفسير المهتمين بهذا المسلك، والمكثرين منه، ومن أشهر هؤلاء: الحسن البصري.

وقد حوت تلك الكتب ما يزيد على ربع مادتها من أقوال التابعين وتفاسيرهم - رحمهم الله -.

وفيما يلي ذكر نماذج لأهم هذه الكتب:

كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك(*):

وهذا الكتاب من أوسعها مادة، وأكثرها رواية عن التابعين، وقد أكثر من النقل عن الحسن، وبعده مجاهد، فالنخعي، فابن جبير، وغيرهم دونهم في ذلك[1].

(*) عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظليُّ مولاهم التركي، ثم المروزي، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة، ينظر ترتيب المدارك (١/ ٣٠٠)، وخلاصة صفوة الصفوة (١٩٤)، والديباج المذهب (١٣٠).

(١) بعد مراجعتي لكتابه، وجدته قد روى عن الحسن في (٩٤) موضعًا، وعن مجاهد في (٤٢) موضعًا، وعن إبراهيم النخعي في (١٦) موضعًا، وعن عمر بن عبد العزيز في (١٤) موضعًا، وعن قتادة في (٩) مواضع، وعن عطاء بن أبي رباح في (٧) مواضع، وعن الزهري وابن المسيب في (٦) مواضع.

كتاب الزهد لهناد(*) :

نقل فأكثر عن الحسن، ثم مجاهد، فالنخعي، فابن جبير، وغيرهم من التابعين[١].

كتاب الزهد لوكيع(**) :

وهو من أخصر هذه الكتب، وقد نقل عن الحسن، ثم مجاهد، فالنخعي، وغيرهم من التابعين أقل منهم في ذلك[٢].

المصنف لابن أبي شيبة(***) :

هو من الكتب التي جمعت العديد من الآثار التفسيرية عن التابعين وخصوصًا ما يتعلق منها بتفسير آيات الأحكام، والمتتبع لتفسير التابعين لابد له من الرجوع لهذا المصنف، وخاصة أن تفسير ابن أبي شيبة مفقود، وإلى هذا أشار السيوطي في مقدمة

(*) هو هناد بن السري بن مصعب التميمي، أبو السري، توفي سنة (٢٤٣ هـ)، ينظر الثقات (٩/ ٢٤٦)، والمعجم المشتمل (٣١٣)، والخلاصة (٤١٤).

(١) بعد مراجعتي لكتابه وجدت المنقول فيه عن الحسن بلغ (٧١) رواية، وعن مجاهد (٦١) رواية، وعن النخعي (٢٧) رواية، وعن ابن جبير (١٩) رواية، وعن مسروق والشعبي (١٤) رواية، وعن عكرمة (١٣) رواية، وعن قتادة رواية واحدة.

(**) هو وكيع بن الجراح بن مليح، أبو سفيان الرؤاسي، توفي سنة سبع وتسعين ومائة. ينظر التاريخ الصغير (٢/ ٢٨١)، الجرح (١/ ٢١٩)، الحلية (٨/ ٣٦٨).

(٢) بعد مراجعتي لكتابه وجدت المروي فيه عن الحسن بلغ (٤٣) رواية وعن مجاهد (٣٨) رواية، وعن النخعي (٢٢) رواية، وعن عطاء بن أبي رباح (٩) روايات، وعن ابن جبير (٨) روايات، وعن علقمة (٦) روايات، وعن قتادة (٥) روايات.

(***) ابن أبي شيبة، هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، أبو بكر العبسي مولاهم. توفي سنة خمس وستين ومائتين.

ينظر التذكرة (٢/ ٤٣٢)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٢)، والخلاصة (٢١٢).

الدر، وذكر عدم اطلاعه عليه، وأن ما نقله منه، أخذه من بطن تفسير ابن المنذر[١].

والمصنف كثير من أسانيده من تفسير وكيع عن سفيان الثوري.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن الإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم لم ينقلا كثيراً من طريق ابن أبي شيبة، كما صنعا في نقلهما من طريق عبد الرزاق، ولعل السبب في ذلك هو أخذهما هذه التفاسير من طرق أخرى.

ومما يؤكد هذا أن السيوطي في نقله عن هذا التفسير لم يرجع كما رجع في غيره إلى تفسير ابن جرير، إنما رجع إلى الأخذ من ابن المنذر؛ لأن ابن جرير لم ينقل عنه[٢].

غريب الحديث للحربي(*) :

هذا الكتاب ليس قاصراً ـ كما هو ظاهر اسمه ـ على غريب الحديث، بل اشتمل على بيان غريب القرآن وقراءاته، وبيان أسباب النزول، وذكر من خلاف المفسرين الشيء الكثير[٣]، ويعد من المصادر المهمة في تفسير التابعين، التي يغفلها كثير من الباحثين.

ومما امتاز به إيراده للعديد من الآثار التفسيرية المسندة عن التابعين، وخاصة عن مجاهد[٤]، ثم الحسن[٥]، فقتادة[٦]، والسدي[٧]، وغيرهم.

---

(١) انظر مقدمة السيوطي (ق ١).

(٢) المرجع السابق (ق ١).

(*) مؤلفه: هو إبراهيم بن إسحاق الحربي، المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين، ينظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ٨٦)، وفوات الوفيات (١/ ١٤)، والمنهج الأحمد (١/ ٣٨٣)، والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب أحمد (١/ ٢١١).

(٣) ينظر مقدمة محقق الكتاب د. سليمان بن إبراهيم العايد (١/ ١٠٦).

(٤) ينظر غريب الحديث (١/ ٤، ٢٥، ٢٩، ٥٩، ٧٤، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ١٦٠، ١٨٩، ٢١٧ . . .).

(٥) المرجع السابق (١/ ٧٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٣٣، ٢٩٠، ٢٩٢ . . .).

(٦) المرجع السابق (١/ ٤، ٢٥، ٢٩، ٧٥، ٨٧، ٨٨ . . .).

(٧) المرجع السابق (١/ ٢٤، ٨٧، ٢٩٢ . . .).

مما سبق يتضح تفاوت كتب السنة في مدى الاعتماد على تفسير التابعين، وإن كان الغالب عليها العناية بالمرفوع والموقوف[1].

* * *

(١) باستثناء الإمام البخاري كما سبق بيانه.
وقد راجعت بعضًا من كتب السنة التي عقدت كتبًا للتفسير في جوامعها، فلم أجدها تروي شيئًا من تفسير التابعين. فهذا مسلم في صحيحه جعل كتابًا للتفسير في آخر كتابه لم يتوسع فيه، والمنقول فيه كله عن النبي ﷺ، وعن الصحابة، ولم ينقل عن التابعين شيئًا.
بل هذا الحاكم في مستدركه الذي يعد كتاب التفسير عنده من أوسع الكتب (٢/ ٢٢٠ ـ ٥٤١)، ومع هذا لم يورد فيه عن التابعين شيئًا.

المبحث الثاني

كتب التفسير بالمأثور

ليس في طاقة باحث أن يقوم بحصر واستقصاء جميع الكتب التي ألفت في التفسير بالمأثور، والرجوع إليها؛ وذلك لكثرتها، ولفقد البعض منها، وقد اخترت في هذا المبحث نماذج لأهمها، وبينت مناهج الأئمة في إيراد أقوال التابعين.

تفسير مجاهد:

يعد تفسير مجاهد من أقدم المصادر التفسيرية، وجاء هذا التفسير برواية أبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبيد الهمذاني من طريق إبراهيم عن آدم، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، ومن هذا الطريق جاء معظم التفسير عن مجاهد[١].

وقد اعتمد محقق الكتاب في طبعه على نسخة وحيدة مصورة بدار الكتب المصرية[٢]، واستفاد في تصحيح هذه المخطوطة من تفسير الطبري وفي ذلك يقول: فإذا وجدنا فيه ما يوضح عبارة أصلنا الناقصة لم نلتفت بعده إلى تفسير آخر إلا قليلاً[٣].

وهذه النسخة فيها نقص كثير، ولذا عمد المحقق إلى تفسير بن جرير، وأخذ ما فيه من زيادات، وأثبتها في حاشية الكتاب[٤].

(١) ينظر مقدمة تفسير مجاهد (١/ ٥٨).

(٢) رقم ١٠٧٥ نسخت في سنة ٥٤٤ هـ عن مقدمة تفسير مجاهد (١/ ٥٦).

(٣) المرجع السابق (١/ ٦٠).

(٤) والمروي في هذا الكتاب لا يعادل نصف المروي عند ابن جرير الطبري في تفسيره.

وفي ذلك يقول: الزيادات التفسيرية عن مجاهد التي أضفناها إلى أصلنا فإن معظمها من تفسير الطبري، ثم قال: والزيادات التفسيرية نوردها في تعليقاتنا حسب ترتيب الآيات[١].

وهذا التفسير كما هو واضح من مسماه مروي عن مجاهد، وقد يروي فيه عن غيره من التابعين[٢].

تفسير سفيان الثوري(*):

من المصادر المهمة في تفسير التابعين لا سيما المروي عن مجاهد، وقد جاء غالب رواياته عن مفسري مكة، وكان ـ رحمه الله ـ يدعو إلى الأخذ عنهم فيقول: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة[٣]، وكان يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[٤].

والمراجع لهذا التفسير يجد أن الثوري اعتمد تفسير التابعين في أكثر من نصف المروي ـ عنه ـ رحمه الله[٥] ـ واحتل مجاهد المرتبة الأولى بين عموم التابعين[٦].

---

(١) المرجع السابق (١/ ٦٠).

(٢) في تفسير سورة البقرة، ورد عن غير مجاهد أكثر من عشرين رواية للتابعين. ينظر جـ ١/ (٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٨).

(*) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي، توفي سنة إحدى وستين ومائة، ينظر المعارف (٢١٧)، ومشاهير علماء الأمصار (١٦٩)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨٦)، وكتاب سفيان الثوري، وأثره في التفسير تأليف هاشم المشهداني.
وقد طبع تفسيره بعناية الأستاذ امتياز علي عرشي، دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) تفسير الطبري (١/ ٩١) ١٠٩، مقدمة في أصول التفسير (١٠٣).

(٤) المقدمة (١٠٣).

(٥) بلغ عدد المروي في تفسيره (٩١١) رواية، منها (٥١١) رواية عن التابعين أي: ما يعادل (٥٦, ٠) عن التابعين، ينظر كتاب سفيان الثوري وأثره في التفسير (٤٦٦).

(٦) بلغ المروي عن مجاهد (٢٠٦) روايات، وعن ابن جبير (٥٦) رواية، وعن إبراهيم النخعي (٤٣) رواية، وعن عكرمة (٢٤) رواية، وعن عطاء (٢٠) رواية، ينظر كتاب سفيان الثوري، وأثره في التفسير (٤٦٨ ـ ٤٧١).

تفسير سفيان بن عيينة(*) :

وهذا التفسير من المحاولات التفسيرية المتقدمة(١) ، وقد رآه ابن حجر وقرأه(٢) ، ورجع إليه السيوطي ونقل منه في الدر(٣) ، لكنه فقد كغيره من كتب التفسير بالمأثور بعد ذلك، وقد جمع تفسيره أحد الباحثين المعاصرين في رسالة علمية(٤) ، وبعد الرجوع إلى ما جُمع وجدتُ أن كثيراً من تفسيره كان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، وأصحابه(٥) ، ولم ينقل عن غيرهم إلا في مواطن قليلة من تفسيره.

تفسير عبد الرزاق الصنعاني(**) :

من التفاسير المتقدمة، والتي عنيت في المقام الأول بتفسير التابعين(٦) ، وقدمته على غيره، لا سيما ما جاء عن مدرسة البصرة، فقد استغرق المروي عنهم ما يزيد على

(*) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون مولى محمد بن مزاحم، الكوفي ثم المكي، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة، وهو من أعلم الناس بحديث الحجاز، قال عبد الله بن وهب: لا أعلم أحداً أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة، ينظر التاريخ الصغير (٢/ ٢٨٣)، والسير (٨/ ٤٠٠)، (٨/ ٤٠٣)، والعقد الثمين (٤/ ٥٩١).

(١) الفهرست (٢٨٢)، ودراسات في الحديث النبوي (٢٦١).

(٢) ذكر ذلك ابن حجر في كتابه تجريد أسانيد الكتب المشهورة، المسمى بالمعجم المفهرس، والكتاب مصور في الجامعة الإسلامية بالمدينة برقم ٨٩٧ (٨٦).

(٣) مقدمة كتاب الدر المنثور (ق ١).

(٤) جمعه الباحث أحمد صالح محايري، وقد بلغ مجموع ما ورد فيه (٢٢٢) رواية.

(٥) بلغ المروي من تفسير النبي ﷺ (١١) رواية، وعن ابن عباس (٢٥) رواية، وعن ابن مسعود (١٣)، وعن مجاهد (٢٥) رواية، وعن عكرمة (١٠) روايات، وعن طاوس، وابن جبير (٣) روايات، وعن قتادة روايتين فقط، ولم يرد فيه عن الحسن شيء.

(**) عبد الرزاق بن همام بن نافع، أبو بكر الحميري، المتوفى سنة (٢١١ هـ)، ينظر طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤٨)، والتاريخ الكبير (٦/ ١٣٠)، والسير (٩/ ٥٦٣).

(٦) ورد في تفسيره ما يُقارب (٣٧٧٠) رواية، منها (٢٤٥١) رواية عن التابعين أي: ما نسبته (٦٥,٠) من مجموع تفسيره.

نصف الآثار الواردة في هذا التفسير[١] ، والمراجع لتفسيره يجد أنه لا تخلو ورقة منه من أثر عن قتادة، حتى كاد تفسيره يكون كله لقتادة، وجاء بعده الحسن فنقل عنه وأكثر، ثم مجاهد[٢] .

ومع قلة أسفار الإمام عبد الرزاق الصنعاني إلا إنه استفاد كثيراً ممن قدم إلى اليمن، وأخذ كثيراً من علم المشاهير من أتباع التابعين، فنشر علمهم وتفسيرهم في مدرسة اليمن، وقد لازم معمر بن راشد سبع سنين[٣] ، والتقى بعبد الملك بن جريج قبل ذلك، وأخذ عنه بعض تفسير عطاء وغيره من المكيين[٤] .

تفسير آدم بن أبي إياس[*]:

وهو من التفاسير التي فقدت، وقد روى جملة منه ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما.

---

(١) جاء عن قتادة أكثر من (١٥٠٩) أقوال ، وعن الحسن (٢٠٣) أقوال، أي ما نسبته (٤٥ , ٠) من مجوع تفسيره، في حين كان المروي من تفسير الرسول ﷺ (١٠٧) روايات، ومن تفسير ابن عباس (١٠٩) روايات، وعن ابن مسعود (٤٦) رواية، وعن علي بن أبي طالب (٣١) رواية.

(٢) روى من تفسير مجاهد (١٧٨) قولاً، وعن محمد بن شهاب الزهري (٨٤) قولاً، ويعد عبد الرزاق من أهم المصادر لمعرفة تفسير الزهري، وروى عن عكرمة (٦٠) قولاً، وعن طاوس (٤٥) قولاً، وعن ابن جبير (٣٧) قولاً، وغيرهم أقل منهم في ذلك.

(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦٤)، مقدمة تفسير عبد الرزاق (١/ ٨).
وقد رجعت إلى تفسير عبد الرزاق، فوجدت أثر تلك الملازمة؛ إذ كان ما يزيد عن (٢٤٧١) رواية جاءت من طريق معمر، أي ما نسبته (٦٦ , ٠) من مجموع تفسير عبد الرزاق، وينظر رسالة الإمام عبد الرزاق مفسراً للباحث محمد بن عبده بن هادي أزيني في جامعة أم القرى (١١٨).

(٤) التقى بعبد الملك بن جريج، لكن نقله عنه في التفسير كان قليلاً؛ حيث لم يتجاوز (٤٣) رواية.

(*) آدم بن أبي إياس المرْوزي، أبو الحسن العسقلاني، توفي سنة عشرين ومائتين، ينظر تاريخ بغداد (٧/ ٢٧) والمعرفة (١/ ٢٠٥)، والتاريخ الكبير (٢/ ٣٩).

يقول السيوطي: آدم بن أبي إياس له التفسير، لكني لم أره، وهو في بطن ابن جرير[١]، ويمكن من خلال التتبع لبعض كتب التفسير بالمأثور أن نلحظ منهجه، ونعرف طريقته، ويمكن بذلك أن يُجمع قطعة كبيرة من تفسيره.

ومما لاحظته عند مراجعتي لتفسير ابن أبي حاتم عناية ابن أبي حاتم بتفسيره، واعتماده عليه أكثر من عنايته بتفسير الثوري، وابن عيينة.

وهذا التفسير يعتبر من أهم المصادر في إيراد تفسير أبي العالية[٢].

تفسير يحيى بن سلام(*):

وهو من التفاسير القديمة، ومن أوائل من جمع بين الرواية، والدراية، وتميز في ذلك بين مفسري عصره[٣].

يقول ابن حجر: تفسير يحيى بن سلام المغربي هو تفسير كبير في نحو ستة أسفار أكثر فيه النقل عن التابعين، وغيرهم[٤].

---

(١) ينظر مقدمة الدر (ق ١).

(٢) من خلال مراجعة الجزء الأول من تفسير سورة البقرة في تفسير ابن أبي حاتم لاحظت ما يلي:
أ- أن ما يزيد عن (١٣ , ٠) من الأسانيد المروية في تفسير ابن أبي حاتم لهذا الجزء كلها جاء من تفسير آدم بن أبي إياس.
ب- كان معظم هذا التفسير عن أبي العالية، وأن عدد الروايات المأخوذة من تفسيرُه آدم (١٧١) رواية، منها (١٤٣) كلها من تفسير أبي العالية.
والباقي موزع بين عطاء الخراساني (٦) روايات، وقتادة (٥) روايات، وعكرمة (٤) روايات، وغيرهم.

(*) يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي، مولاهم البصري، المتوفى سنة (٢٠٠ هـ)، ينظر طبقات علماء إفريقية لأبي العرب (١١١)، ورياض النفوس (١/ ١٨٨)، ومعالم الإيمان (١/ ٣٢٦)، والتفسير ورجاله لابن عاشور (٢٢)، ومقدمة كتاب التصاريف لهند شلبي (٦٧).

(٣) مقدمة رسالة (مختصر تفسير يحيى بن سلام) للباحث عبد الله المديميغ (١/ ٣).

(٤) العجاب في بيان الأسباب، عن كتاب الدر المنثور (٨/ ٧٠١).

ابتدأ يحيى طلبه للعلم على شيوخ البصرة، فأخذ القراءات، وروى الحروف عن أصحاب الحسن البصري، وروى عن مشايخ أهل البصرة وسمع منهم[١]، وهذا ما نلاحظه على منهجه في الإكثار من الرواية عن الحسن، وقتادة، وجاء بعدهما بمراحل ما رواه عن ابن عباس، ومجاهد[٢].

وهذا التفسير عُرفت روايته في إفريقية، والمغرب، والأندلس، وكانوا يهتمون به جدًا، حتى كان منهم من يحفظه، وقد تناقلوه بالأسانيد[٣].

تفسير عبد بن حميد[*]:

وهو من التفاسير المسندة المفقودة، ويمكننا أن نأخذ صورة إجمالية لمنهجه في إيراد تفسير التابعين، من خلال الاستفادة من مصدر ثانوي نقل عنه كثيرًا، وهو الدر المنثور في التفسير بالمأثور، فبعد مراجعة ما أورده السيوطي من طريق عبد بن حميد، وجدت إكثاره من الرواية عن قتادة، ومجاهد، ثم ابن عباس، والحسن وأما ما روى عن غيرهم فقليل[٤].

---

(١) السير (٩/ ٣٩٦)، وغاية النهاية (٢/ ٣٧٣).

(٢) رجعت إلى مختصره لابن أبي زمنين، فوجدت المروي عن الحسن حتى نهاية سورة آل عمران (١١١) قولاً، وعن قتادة (١٠٩) أقوال، في حين كان عن ابن عباس (٣٠) قولاً، وعن مجاهد (٢٧) قولاً.
وينظر في بيان منهج يحيى، مقدمة تحقيق تفسير كتاب الله العزيز، لهود الهواري (١/ ٢٩).

(٣) معالم الإيمان (٢/ ٢٨٤)، وفهرست ابن خير (٥٦)، ومقدمة مختصر تفسير يحيى (١/ ٤).

(*) عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي مُصنف المسند الكبير، والتفسير، روى عن عبد الرزاق الصنعاني وغيره، مات سنة تسع وأربعين ومائتين، ينظر التذكرة (٢/ ٥٣٤)، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه (٣/ ١٢١٨) والرسالة المستطرفة (٥٠).

(٤) بعد مراجعتي لسورتي البقرة، وآل عمران، في الدر المنثور، وجدت أن المروي عن قتادة بلغ (٢٤٩) قولاً، وعن مجاهد بلغ (٢٣٥) قولاً، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلغ (١٢٢) قولاً، وعن الحسن بلغ (٦٢) قولاً. =

تفسير ابن جرير الطبري(*) :

وهو الكتاب الرئيس، والأساس الذي اعتمد عليه في استخلاص كثير من النتائج، وفي عقد العديد من المقارنات، والسبب في ذلك يرجع إلى جملة من الأمور من أهمها:

١ ـ أن تفسيره من أضخم، وأوسع كتب التفسير بالأثر، وقد فاق غيره من مفسري المتقدمين(١)، والمعاصرين له(٢)، والمتأخرين عنه(٣)، في إيراد العدد الكبير من الآثار في تفسيره.

يقول السيوطي: وله التصانيف العظيمة، منها: تفسير القرآن، وهو أجل التفاسير لم يؤلف مثله؛ وذلك لأنه جمع فيه بين الرواية، والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد

= وقد كان جل اهتمامه بالمروي عن التابعين، فإن ما رواه من المرفوع عنه ﷺ بلغ (٣٢) رواية، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بلغ (٣١) قولاً، وعن عكرمة بلغ (٣٥) قولاً، وعن ابن جبير (٣١) قولاً، وعن عطاء (٢٥) قولاً، وعن النخعي (٢١) قولاً، وعن الشعبي (١٩)، قولاً، وعن طاوس (٩) أقوال، وغيرهم دونهم في ذلك.

(*) مؤلفه هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة، واسم كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ينظر معجم الأدباء (١٨/ ٤٠ ـ ٩٤)، وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١٢٠)، والوافي بالوفيات (٢/ ٢٨٤)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ١٠٦).

(١) كتفسير سفيان الثوري، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير يحيى بن سلام، وغيرهم.

(٢) كتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٤ هـ)، ولعقد مقارنة سريعة بينهما، رجعت إلى تفسير ابن أبي حاتم حتى نهاية الجزء الأول من القرآن، فوجدت الآثار المروية فيه بلغت (١٣٣١) أثراً، في حين كانت عند ابن جرير (٢١٤١) أثراً.

(٣) من أهم وأشهر كتب التفسير بالمأثور عند المتأخرين كتاب السيوطي: الدر المنثور، وبعد الرجوع إليه، وجدت أن ابن جرير فاقه في كم ونوع المروي من الآثار، ففي العديد من الجوانب، كانت الآثار المروية عند ابن جرير في تفسيره كله بلغت ما يقارب (٣٨٣٩٧) أثراً، في حين كانت عند السيوطي (٣٧٠٦٠) أثراً، كما أن ابن جرير امتاز بإيراد الآثار التفسيرية ذات الصلة المباشرة ببيان الآية، في حين أن السيوطي عني كثيراً بإيراد، وحشد العديد من الآثار الواردة في فضائل القرآن من ترغيب، وترهيب، ونحوه.

لا قبله ولا بعده.

٢ ـ ثناء الأئمة وتقديمهم لتفسيره، وفي ذلك يقول النووي، والخطيب البغدادي: له كتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله[١].

ويقول ابن عطية: ابن جرير جمع على الناس أشتات التفسير وقرب البعيد، وشفى في الإسناد[٢].

ويقول ابن تيمية: تفسير ابن جرير من أجلّ التفاسير المأثورة وأعظمها قدراً[٣].

٣ ـ عنايته بأقوال الأئمة مسندة، فقد شفى الغليل ـ رحمه الله ـ في جانب المتن والإسناد، فلا يورد قولاً إلا ويسنده، ويرويه بنصه بمنطوق قائله، بخلاف حال كثير من المفسرين الذين أوردوا أقوال التابعين بمعناها، أو غير مسندة.

٤ ـ عنايته بتفسير التابعين، فقد استغرق تفسير التابعين أكثر من نصف مادته المروية، كما اعتنى بنقل تفاسير شيوخ التابعين من الصحابة بالإسناد[٤].

لهذا وغيره، فقد اعتمدت كتاب الطبري مصدراً أصيلاً أستقصي منه تفسيرات التابعين، وكان الأساس في دراستي، ومادة أصيلة لعملي.

وقد عني ـ رحمه الله ـ في تفسيره بإيراد تفسير مجاهد وقتادة في المقام الأول، وبعدهما السدي، ثم الحسن البصري، فابن جبير، وعكرمة، وغيرهم[٥].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٨)، وتاريخ بغداد (٢/ ١٦٣).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ١٩)، والوجيز في فضائل الكتاب العزيز (١٢٩).

(٣) مقدمة في أصول التفسير (٩٠).

(٤) المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلغ (٥٨٠٩) أقوال، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (٨٥٦) قولاً، وغيرهم من الصحابة أقل منهم في ذلك.

(٥) بعد مراجعتي لتفسير الطبري كله، وجدت أن المروي عن:
مجاهد بلغ (٦١٠٩) أقوال.
وعن قتادة (٥٣٧٩) قولاً. =

تفسير ابن المنذر(*):

من التفاسير المسندة المفقودة(١)، وقد رجعت إلى الدر المنثور واستخرجت ما أورده عنه من روايات، فوجدت أن كثيراً منها جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ثم مجاهد، فقتادة، ثم عكرمة، وابن جبير، والحسن(٢).

ولقد كانت عناية ابن المنذر بالموقوف من التفسير على الصحابة أكثر من عنايته بما

= وعن السدي (١٦٨٢) قولاً.
وعن الحسن البصري (١٤٨٧) قولاً.
وعن سعيد بن جبير (١٠١٠) أقوال.
وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً.
وعن إبراهيم النخعي (٦٠٨) أقوال.
وعن عطاء ابن أبي رباح (٤٨٠) قولاً.
وعن عامر الشعبي (٤٦١) قولاً.
وعن أبي العالية (٢٤٤) قولاً.
وعن سعيد بن المسيب (١٨١) قولاً.
وعن محمد بن كعب القرظي (١٥٣) قولاً.
وعن زيد بن أسلم (١١٧) قولاً.

(*) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر، نزيل مكة، مات سنة ثماني عشرة وثلاثمائة. ينظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٦٠)، وطبقات الفقهاء للعبادي (١/ ٦٧)، وطبقات السبكي (٣/ ١٠٢)، وطبقات الشافعية لابن هداية الله (٥٩).

(١) يقول الذهبي: لابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً، يقضي له بالإمامة في علم التأويل، السير (١٤/ ٤٩٢).
وقد رآه السيوطي ووقف عليه. ينظر طبقات المفسرين للسيوطي (٩١).

(٢) بعد مراجعة الدر حتى نهاية سورة آل عمران، وجدت أن المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلغ (٢٨١) رواية، في حين بلغ المروي عن مجاهد (٩١) قولاً، وعن قتادة (٦١) قولاً، وعن عكرمة (٢٠) قولاً، وعن ابن جبير (١٦) قولاً، وعن الحسن (١٥) قولاً، وعن عطاء والسدي (١١) قولاً، وعن الشعبي (٩) أقوال، وعن النخعي (٦) أقوال، وعن طاووس (٥) أقوال، وغيرهم أقل منهم في ذلك.

جاء عن التابعين.

تفسير ابن أبي حاتم(*) :

من أوسع كتب التفسير المسندة بعد ابن جرير، وقد اختصره فحذف منه الطرق والشواهد، والحروف، والروايات، وتنزيل السور، وقصد إلى إخراج التفسير مجردًا دون غيره، فلا يترك حرفًا من القرآن يوجد له تفسير، إلا أخرج ذلك كله بأصح الأحاديث عنده إسنادًا وأشبعها متنًا[١].

وكان أكثر تفسيره عن التابعين[٢]، وعني بإيراد تفسير قتادة في المقام الأول، ثم السدي، فمجاهد، فالحسن، فأبي العالية، فابن جبير، ثم الربيع بن أنس، ثم عكرمة[٣].

ومن ذلك يتضح عناية ابن أبي حاتم بتفسير المدرسة البصرية أكثر من عناية ابن جرير بها.

(*) هو عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. ينظر التدوين في أخبار قزوين (٣/ ١٥٣)، والتقييد لابن نقطة (٣٣١)، والمختصر في أخبار البشر (٢/ ٨٦)، وفوات الوفيات (٢/ ٢٨٧)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١/ ٢٠٠).

(١) مقدمة تفسير ابن أبي حاتم، تفسير سورة البقرة (ص ١).

(٢) بعد مراجعتي للروايات المسندة في تفسيره حتى نهاية الجزء الأول من سورة البقرة، وجدت أن عدد الآثار المروية (١٣٣١) أثرًا، منها (٧٩٥) أثرًا عن التابعين؛ أي ما يقارب (٦٠, ٠) من مجموع تفسيره عن التابعين.

(٣) بعد مراجعة الأجزاء المطبوعة من تفسيره، حتى نهاية الجزء الأول من البقرة، وتفسير سورة آل عمران، وجدت أن المروي من تفسير التابعين عن قتادة (٢٣٠) رواية، وعن السدي (٢١٢) رواية، وعن مجاهد (١٩٧) رواية، وعن الحسن (١٨٨) رواية، عن أبي العالية (١٧٩) رواية، وعن ابن جبير (١١٣) رواية، وعن الربيع بن أنس (٨٢) رواية، وعن عكرمة (٥٠) رواية.

تفسير الماوردي(*) :

يعتبر كتاب ابن جرير الطبري من أهم مصادره في التفسير بالمأثور(١) ، وقد عني بتفسير ابن عباس ، وأصحابه ، ونقل عن التابعين من البصريين فأكثر(٢) .

تفسير ابن عطية(**) :

من التفاسير التي نقلت عن ابن جرير كثيراً(٣) ، وقد مدحه شيخ الإسلام بقوله : وتفسير ابن عطية أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري(٤) .

وقد تأثر في كتابه بتفسير يحيى بن سلام ، فنقل ما جاء عن تابعيي المدرسة البصرية ، كقتادة ، والحسن ، ونقل عن مجاهد ، والسدي وغيرهم من التابعين(٥) .

(*) هو علي بن محمد بن حبيب البصري ، أبو الحسن الماوردي الشافعي ، واسم تفسيره : النكت والعيون ، مات ـ رحمه الله ـ سنة خمسين وأربعمائة ، ينظر طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ٢٦٧) ، وطبقات الشافعية للأسنوي (٢/ ٢٠٦) ، وهداية العارفين (١/ ٦٨٩) .

(١) مقدمة كتابه التفسير (١/ ٧) .

(٢) بعد مراجعتي لتفسيره حتى نهاية سورة البقرة ، وجدت أنه عني بنقل أقوال ، وتفسيرات ابن عباس ، وأصحابه فأورد عنه ـ ما يزيد على (١٧٨) قولاً ، وعن مجاهد (١٢٨) قولاً ، وعن قتادة (١٠٦) أقوال ، وعن السدي (٩٨) قولاً ، وعن الحسن البصري (٧١) قولاً ، وعن عطاء بن أبي رباح (٣٥) قولاً ، وعن الربيع بن أنس (٣٢) قولاً ، وعن ابن مسعود (٢٨) قولاً ، وعن عكرمة (٢٦) قولاً ، وعن ابن جبير (٢٥) قولاً ، وعن أبي العالية (٢٢) قولاً ، وعن الشعبي (٢١) قولاً ، وعن ابن المسيب (١٦) قولاً ، وعن النخعي (٧) أقوال .

(**) ابن عطية هو : عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي المتوفى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، واسم كتابه في التفسير : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ينظر بغية الملتمس (٣٨٩) ، المعجم لابن الأبار (٢٦١) ، والديباج المذهب (٢/ ٥٧) ، وفوات الوفيات (٢/ ٢٥٦) ، وفهرس بن عطية (٥٩) .

(٣) مقدمة في أصول التفسير (٩٠) .

(٤) المرجع السابق (٩٠) .

(٥) بعد مراجعتي لتفسيره حتى نهاية تفسير سورة البقرة ، وجدت أن المروي عن مجاهد بلغ (١٣٣) قولاً ، وعن قتادة (١٢٨) قولاً ، وعن الحسن (١١٣) قولاً ، وعن السدي (٨٩) قولاً ، وعن

وإن كان في الجملة لم يتوسع في النقل عن السلف ـ رحمه الله[١] ـ.

تفسير البغوي(*) :

وهو مختصر لتفسير الثعلبي الكشف والبيان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة[٢].

وذكر في مقدمة تفسيره أسانيد تلك الروايات التي أوردها في كتابه، فقال: وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حبر هذه الأمة، ومن بعد عن التابعين، وأئمة السلف مثل: مجاهد وعكرمة، والحسن رضي الله عنهم، وقتادة وأبي العالية، ومحمد ابن كعب، وزيد بن أسلم وغيرهم... ثم ذكر أسانيده في كل إمام منهم[٣].

وقد اهتم ـ رحمه الله ـ بإيراد ما روي عن مجاهد، وقتادة، ويليهما الحسن، وعطاء ثم ابن جبير، وعكرمة[٤].

= عطاء (٦٢) قولاً، وعن الربيع بن أنس (٥٤) قولاً، وعن النخعي (٣٦) قولاً، وعن ابن شهاب الزهري، وابن جبير، (٣٥) قولاً، وعن عكرمة (٣٤) قولاً، وعن أبي العالية (٢٠) قولاً، وعن ابن المسيب (١٦) قولاً، وعن طاووس (٩) أقوال، وعن زيد بن أسلم (٥) أقوال.

(١) مقدمة في أصول التفسير (٩٠). وينظر كتاب مدرسة التفسير في الأندلس (٩٥).

(*) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي توفي سنة ست عشرة وخمسمائة، واسم كتابه في التفسير: معالم التنزيل، ينظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٣١٠)، والمختصر في أخبار البشر (٢/ ٢٤٠)، والتقييد لمعرفة رواة المسانيد (٢٥١)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١/ ١٠١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٥٤).

(٣) مقدمة تفسيره (١/ ٢٨).

(٤) بعد مراجعتي لتفسيره حتى نهاية سورة البقرة، وجدت أن المروي عن مجاهد (١٣٧) قولاً، وعن قتادة (١٢٣) قولاً، وعن الحسن (٧٤) قولاً، وعن عطاء (٦٠)، قولاً، وعن ابن جبير (٤١)، وعن عكرمة (٣٦) قولاً، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.

زاد المسير(*) :

صنف ابن الجوزي في التفسير المغني، وهو كتاب كبير ، ثم اختصره في كتاب سماه زاد المسير(١) .

وقد حوى الكثير من الروايات عن أئمة التابعين . وعني بنقل تفسير ابن عباس، ثم مجاهد، فقتادة، فأبي العالية، فالحسن، وغيرهم من التابعين(٢) .

تفسير ابن كثير(**) :

اهتم ـ رحمه الله ـ بالمأثور عنه ﷺ، وأكثر منه(٣)، ونقل عن ابن عباس فأكثر وأطاب(٤)، وعدَّ الأخذ بأقوال التابعين في المرتبة الرابعة بعد الأخذ بأقوال الصحابة، وقدمه في ذلك على الفهم والاجتهاد، وفي ذلك يقول: إذا لم تجد في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري . . . وغيرهم .

(*) مؤلفه : عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي، المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ينظر التقييد (٣٤٣)، وذيل تاريخ بغداد (١٩/ ١٥٥) والتكملة لوفيات النقلة (١/ ٣٩٤).

(١) السير (٢١/ ٣٦٨).

(٢) بعد مراجعتي لتفسيره حتى نهاية الجزء الأول من تفسيره سورة البقرة وجدت أن المروي عن ابن عباس بلغ (٢٢١) رواية، وعن مجاهد (٩١) رواية، وعن قتادة (٧٧) رواية، وعن أبي العالية (٤٢) رواية، وعن عكرمة (٢٣) رواية، وعن ابن جبير (١٩) رواية.

(**) المسمى تفسير القرآن العظيم، مؤلفه هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوي بن كثير أبو الفداء، المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة. ينظر أنباء الغمر (١/ ٣٩)، والبدر الطالع (١/ ١٥٣)، والدرر الكامنة (١/ ٣٣٩)، وذيل تذكرة الحفاظ (٥٧).

(٣) أورد من الأحاديث جملة كبيرة، كثيرٌ منها في الفضائل، وقد بلغت الأحاديث المروية في تفسيره كله (٢٢٥٢) حديثًا. ومن المفارقات الرئيسة بينه وبين ابن جرير الطبري؛ أن ابن كثير اهتم بإيراد المرفوع من الأحاديث وغالبه في الفضائل، وقد لا يكون له علاقة مباشرة ببيان معنى الآية في حين اقتصر ابن جرير على الأحاديث التي لها ارتباط واضح بالآية.

(٤) عني بنقل تفسير ابن عباس في المقام الأول؛ حيث بلغ مجموع ما رواه عنه في تفسيره (١٧١٦) أثرًا، وبعده ابن مسعود حيث بلغ مجموع ما رواه عنه (٣٤٠) أثرًا.

وقد أورد قطعة كبيرة من تفسير مجاهد، وقتادة، ثم عكرمة والسدي، وابن جبير وبعدهم الحسن البصري، فالربيع بن أنس، فأبى العالية[١] .

الدر المنثور(*) :

بين السيوطي الباعث على تأليفه هذا التفسير بقوله : وقد جمعت كتابًا مسندًا فيه تفاسير النبي ﷺ، منه بضعة عشر ألف حديث، ما بين مرفوع، وموقوف، وقد تم ولله الحمد في أربع مجلدات، وسميته ترجمان القرآن، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها، ثم رأيت قصور أكثر الجهد عن تحصيله، ورغبتهم في الاختصار على متون الأحاديث، فلخصت منه هذا المختصر، وسميته الدر المنثور في التفسير بالمأثور[٢] .

ومن هذا البيان يتضح لنا مدى عناية السيوطي بالمرفوع من التفسير، فقد أورد في تفسيره العديد من الأحاديث سواء كانت ذات صلة مباشرة في إيضاح معنى الآية، أو كانت في الفضائل من ترغيب، وترهيب[٣] .

ولذا فقد استغرق المرفوع إلى النبي ﷺ أكثر من ثلث تفسيره[٤] ، وكان تفسيره من

---

(١) بعد مراجعتي لتفسيره كله وجدت أن المنقول عن مجاهد بلغ (٧٤٢) قولاً، وعن قتادة (٧١٦) قولاً، وعن عكرمة (٥٧٨) قولاً وعن السدي (٥٧٦) قولاً، وعن ابن جبير (٥٣٤) قولاً، وعن الحسن البصري (٤٨٨) قولاً، وعن الربيع بن أنس (٣٨٢) قولاً، وعن أبي العالية (٢٩٤) قولاً، وعن ابن المسيب (١٣٨) قولاً، وعن إبراهيم النخعي (٨٤) قولاً، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.

(*) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري الأسيوطي، المتوفى سنة (٩١١ هـ)، ينظر الكواكب السائرة (١/ ٢٢٦)، والضوء اللامع (٤/ ٦٥).

(٢) الدر (١/ ٩)، والإتقان (٢/ ١٨٣).

(٣) وقد سبق الإشارة إلى الفرق بينهما قبل ورقات، ص (٦٩).

(٤) بلغت الأحاديث الواردة في تفسير (١٤١٦٤) حديثًا، أي ما نسبته (٣٨, ٠) من مجموع تفسيره البالغ (٣٧٠٦٠)، في حين كان المرفوع في تفسير ابن جرير لا يزيد عن (٠٨, ٠) من مجموع المروي عنه.

أكثر التفاسير عناية بالمرفوع ، وجاء بعده بمراحل العناية بالموقوف على الصحابة[١] ، ثم المنسوب إلى التابعين .

وقد أورد عن ابن عباس وأكثر ، وجاء بعده مجاهد وقتادة ، ثم ابن جبير والحسن ، فالسدي ، وأبو العالية ، فعكرمة ، وعطاء ، ثم النخعي ، فالربيع ، ثم الشعبي[٢] . . .

* * *

(١) بلغ المروي عن ابن عباس (٣٦٨٠) رواية ، وعن ابن عمر (٩١٠) رواية ، وعن ابن مسعود (٦٨٠) رواية . . . وغيرهم من الصحابة أقل منهم في ذلك ، وكانت نسبة المروي من تفسير الصحابة تمثل (١٧ , ٠) من مجموع تفسيره .

(٢) بعد مراجعتي لتفسيره ، وجدت أن المروي عن مجاهد بلغ (٢٤٤٠) قولاً ، وعن قتادة (٢٢٢٥) قولاً ، وعن ابن جبير (٧٨١) قولاً ، وعن الحسن (٦٠٨) أقوال ، وعن السدي (٥٦٨) قولاً ، وعن أبي العالية (٥٢٠) قولاً ، وعن عكرمة (٤٢١) قولاً ، وعن عطاء (٣٨٢١) قولاً ، وعن النخعي (٣٤٧) قولاً ، وعن الربيع (٢٣٢) قولاً ، وعن الشعبي (٢٢٠) قولاً ، وعن زيد بن أسلم (١٨٧) قولاً ، وعن ابن المسيب (١٦٥) قولاً ، وعن محمد بن كعب (٩٠) قولاً ، وعن مسروق (٦٤) قولاً ، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك .

الباب الثاني

مدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائصها

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أشهر رجال مدارس التفسير في عصر التابعين.

الفصل الثاني: عرض مدارس التفسير في عصر التابعين.

المبحث الأول: المدرسة المكية.

المبحث الثاني: المدرسة البصرية.

المبحث الثالث: المدرسة الكوفية.

المبحث الرابع: المدرسة المدنية.

المبحث الخامس: التفسير في الشام واليمن ومصر.

الفصل الثالث: خصائص مدارس التفسير.

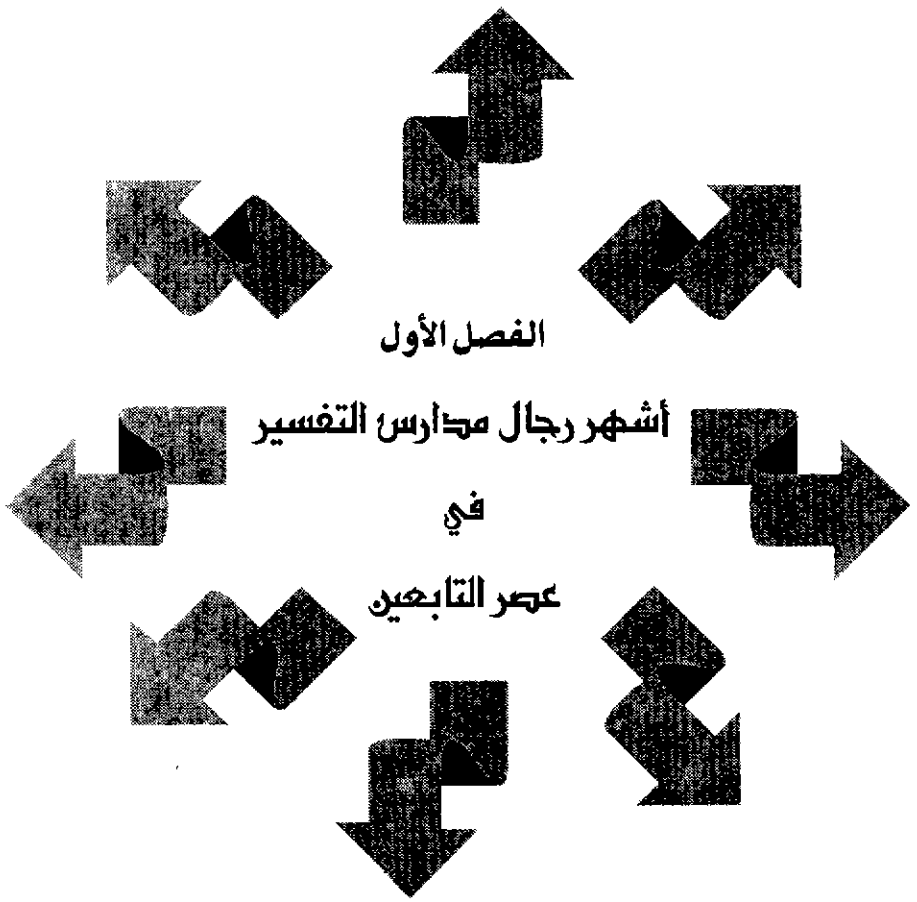

الفصل الأول

أشهر رجال مدارس التفسير

في

عصر التابعين

الفصل الأول

أشهر رجال مدارس التفسير في عصر التابعين

مـادة الشين، والهـاء، والراء تدل في الأصل على الظهـور، والوضـوح وعـدم الخفاء، يقال: شهره يشهره شهرًا، وشهرة فاشتهر، وشهّره تشهيرا، واشتهره فاشتهر، إذا أظهره ووضحه.

وسمي القمر شهرًا لوضوحه، وظهوره، وسمي سل السيف وإخراجه من غمده شهرًا؛ لأنه بذلك يبرز، ويظهر، ويتضح[1].

وقولي في ترجمة هذا الفصل: أشهر رجال المدارس لا يخرج عن مدلول هذه المادة في أصلها اللغوي؛ ذلك أني عنيت به من برز من التابعين، وظهر فضله في مجال التبيان، وبان علمه في مضمار تأويل القرآن، لكثرة تعرضه له بالبيان، ووفرة المروي عنه في هذا الميدان، فاشتهر من بين سائر الأقران، إما بالنسبة لعموم التابعين، أو صار يشار إليه في مدرسته بالبنان.

وقد انتقيت من كل مدرسة أكثر التابعين فيها رواية ودراية في التفسير، وجعلته ممثلاً لتلك المدرسة. وهذا الفصل يعد من أطول فصول هذا البحث، وأهمها، فقد درست فيه تفسير أولئك المشاهير من خلال النظر في كلامهم، واختياراتهم؛ لأن في ذلك استقراءً لأفكارهم، وتتبعًا لمناهجهم، حتى يكون الإدراك لمناهجهم مُقاربًا للتمام والإنصاف، ويكون الحكم على آرائهم حكمًا صحيحًا، وتكون مقارنته ومقابلته لغيره

---

(١) لسان العرب (٤/ ٤٣١-٤٣٣)، وتاج العروس (١٢/ ٢٦٢-٢٦٦).

على أساس مستقيم.

وقبل الشروع في الحديث عن تراجم أشهر هؤلاء الأعلام أحب التنبيه على بعض المسائل:

١ ـ رتبت المدارس، ورجالها حسب كثرة المروي عنهم ـ غالبًا ـ مبتدئًا بمدرسة مكة، مقدمًا مجاهدًا، ثم ابن جبير، ثم عكرمة، فعطاء.

وفي مدرسة البصرة بدأت بالحديث عن إمامها الحسن البصري، ثم قتادة، فأبي العالية.

وعند الحديث عن مدرسة الكوفة، قدمت السدي، ثم النخعي فالشعبي.

وختمت ذلك بمشاهير المدرسة المدنية: سعيد بن المسيب، ثم محمد بن كعب القرظي، فزيد بن أسلم.

٢ ـ حرصت حال التعرض لتراجمهم إبراز المعالم المنهجية في شخصيتهم، والتي تبينت لي من خلال النظر في تفسيرهم ومروياتهم، أو من خلال ما جاء في سيرتهم وترجمتهم، حين تضن مادة التفسير، ولا تفي بما أنا بصدده، وذلك لجبر الخلل وسد النقص.

ولذا يجد الناظر في هذه التراجم بعضًا من الاختلاف في المنهج مرده إلى ذلك؛ ولأن الهدف الرئيس في هذا الفصل هو تسجيل أبرز الملاحظات التي يمكن أن تتضح بدون تكلف في إظهار أهم المعالم في شخص التابعي.

٣ ـ اعتمدت في الحديث عن المشاهير على ثلاثة جوانب:

الأول: الدراسة التاريخية من خلال قراءة كتب التراجم.

الثاني: الاستقراء، والتتبع لمروياته في التفسير.

الثالث: مقارنة ما استقر عندي مما سبق مع غيره من مشاهير مفسري التابعين.

٤ ـ أطلت في تراجم بعض المشاهير وهم: مجاهد، وقتادة، والحسن؛ وذلك لسبقهم، وفضلهم، فإن ما يزيد على ثلث التفسير بالمأثور جاء عنهم.

٥ ـ حرصت على بيان مدى متابعة التابعي لأقوال مدرسته، فإن بعض التابعين خالف منهج أصحابه، وسار في مسلك مدرسة أخرى، فحاولت جاهدًا بيان ذلك وسببه.

٦ ـ حرصت حال تدوين النتائج على التدليل، والمقارنة بين كل تابعي وآخر، واعتماد النِّسب مقارنًا بمجموع ما روي عنه، ومما حدا بي إلى ذلك: تحري صدق النتائج، ودقتها في الدراسات الإحصائية، وإبراز الجوانب المتميزة في شخص كل تابعي بلا مبالغة، ثم حاولت جاهدًا دراسة ما ظهر لي من نتائج، وأثرها على مسلك ذلك المفسر ومنهجه.

٧ ـ قمت بمراجعة الكتب المفردة في بعض أنواع علوم القرآن، ككتب أسباب النزول، والمبهمات، والمشكل، والأمثال، والإسرائيليات وغيرها من الكتب، فتابعت فيها صدق وصحة ما وصلت إليه من نتائج، فوجدت ما يسر النفس ويطمئن القلب.

وبفضل الله ورحمته وجدت أن كثيرًا من تلك النتائج لم أسبق إليها ـ فلله الحمد والمنة ـ.

وبعد هذه التقدمة التي وضعتها بين يدى هذا الفصل أعود إلى المقصد الأساس فأقول:

* * *

مجاهد بن جبر

هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ويقال: مولى عبد الله بن السائب القاري[١].

روى عن ابن عباس، وعنه أخذ القرآن، والتفسير، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر ورافع بن خديج... وغيرهم[٢].

مكانة مجاهد بين أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما:

كان مجاهد من أكثر تلاميذ ابن عباس أخذاً عنه، مع أنه من أقلهم رواية لتفسيره[٣].

فعن الفضل بن ميمون قال: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة[٤].

وعنه أنه قال: ختمت على ابن عباس تسع عشرة ختمة[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)، وطبقات الفقهاء (٦٩)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٦٢)، والسير (٤/ ٤٤٩)، والكنى لأحمد (١٢١).

(٢) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٠٥)، وتهذيب التهذيب (١٠ ٤٢)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤١١).

(٣) سيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله.

(٤) ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٦٦)، والجرح (٨/ ٣١٩)، والحلية (٣/ ٢٨٠)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٨٣)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٠٥)، والعبر (١/ ٩٥).

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٤٢).

قرأ عليه ابن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وابن محيصن والأعمش[١].

بل إن ابن كثير ـ الذي انتهت إليه إمامة القراءة بمكة ـ، لم يكن يخالف مجاهداً في شيء[٢].

وقد أخرج الطبري بسنده، أن مجاهداً كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف[٣].

وقد ظلت قراءة مجاهد تتلقى بالسند، ويتناقلها الرواة حتى عصر البيهقي، فقد ذكر البيهقي أنه تلقى قراءة مجاهد بالسند[٤].

وقد استفاد من ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الجانب التفسيري وأخذ عنه، فعن مجاهد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه على كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف نزلت[٥]؟.

قال ابن عطية: قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تَفَهُّم ووقف عند كل آية[٦]، وساق الطبري بسنده عن ابن أبي مُليكة قال: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كلِّه[٧].

ولعل هذا من أهم الأسباب التي ساعدت في إبراز شخصية مجاهد ـ رحمه الله ـ وقدمته في باب العلم بالتأويل، فصار من أكثر التابعين[٨] على الإطلاق تعرضاً له،

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٤١)، وطبقات المفسرين (٢/ ٣٠٦)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢١٧).

(٢) الحجة في القراءات السبع، لابن مجاهد (٦٤).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٥٣) ٥٢.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤١١).

(٥) الحلية (٣/ ٢٨٠)، وكتاب السنة للخلال (٣٢٣) ٢٦٥، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢١٦).

(٦) المحرر الوجيز (١/ ١٩).

(٧) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٧.

(٨) له في تفسير الطبري (٦١٠٩) أقوال، ولقتادة (٥٣٧٩) قولاً، وللسدي (١٦٨٢) قولاً، وللحسن البصري (١٤٨٧) قولاً، ولسعيد بن جبير (١٠١٠) أقوال، ولعكرمة (٩٤٣) قولاً، ولإبراهيم النخعي (٦٠٨) أقوال، ولعطاء بن أبي رباح (٤٨٠) قولاً. =

وعلمًا به.

يقول خُصيف[١] : كان أعلمهم بالتفسير مُجاهد، وبالحج عطاء[٢] .

وعن أسود بن عامر[٣] قال: قلت لشريك[٤]: أي الرجلين كان أعلم بالتفسير مجاهد، أو سعيد بن جبير؟ قال: كان مجاهد[٥] .

وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد[٦] .

وقد أثنى عليه جمع من الأئمة في التفسير، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه آية في التفسير[٧] .

وقال الإمام الذهبي: مجاهد شيخ القراء، والمفسرين[٨] .

خصائص تفسير مجاهد:

إن للتكوين الشخصي، والمدرك العقلي أثرًا كبيرًا على المنهج العلمي، أضف إلى

= وله في تفسير ابن كثير (١٠٦٢) قولاً، ولقتادة (١٠٠٩) أقوال، وللحسن البصري (٦٢٦) قولاً، وللسدي (٥٧٢) قولاً، وقد سبق في مبحث كتب التفسير بالمأثور أن أكثر الأئمة اعتمدوا تفسير مجاهد في الدرجة الأولى.

(١) خُصيف مصغرًا: ابن عبد الرحمن الجزري، أبو عون، رأى أنسًا، وثقه ابن معين، ينظر لسان الميزان (٧/ ٢١٠)، والكواكب النيرات (٤٦٢)، ونهاية الاغتباط (١٠٩).

(٢) الجرح والتعديل (٨/ ٣١٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤١٢)، والشذرات (١٢٥/ ١).

(٣) أسود بن عامر الشامي، أبو عبد الرحمن، شاذان، وثقه ابن المديني، ينظر الخلاصة (٣٧)، والكاشف (١/ ١٣١).

(٤) شريك بن عبد الله النخعي، قال وكيع: لم يكن في الكوفيين أروى من شريك. ينظر الجرح (٣/ ٣٦٦)، والكواكب النيرات (٢٥٠)، ونهاية الاغتباط (١٧٠).

(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٥٨) ٨٦٧.

(٦) طبقات علماء الحديث (١/ ١٦٣)، والتذكرة (١/ ٩٢).

(٧) مقدمة في أصول التفسير (١٠٣).

(٨) السير (٤/ ٤٤٩).

ذلك طبيعة المدرسة التي حصل منها التلقي، ومع اختلاف المدارس والأشخاص تبرز العديد من المعالم في شخص هذا المفسر أو ذاك، ومن المعالم البارزة في تفسير مجاهد ـ رحمه الله ـ والتي أكسبته شخصية متميزة عن غيره من المفسرين ما يلي:

أولاً: توسعه في باب النظر، والاجتهاد:

وهذا مما جعل البعض يعده من أوائل من أدخل التفسير العقلي للقرآن العظيم[١].

وقد أدى به سلوك هذا السبيل إلى تأويل آيات على غير ظاهر السياق؛ بل قد جاء في بعضها بما يستغرب، ويستنكر فمن ذلك:

١ ـ تأويله للمسخ الواقع على اليهود:

ومن التأويل الذي خالف فيه الظاهر من السياق، ولم يقل به غيره[٢] ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٣].

قال مسخت قُلوبهم، ولم يُمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً[٤].

قال ابن جرير بعد أن ساق هذا التأويل: وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف، ثم ذكر أنه لا دليل عليه، وختم بقوله: هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحُجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه (١٩٧).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٣٠٠).

(٣) سورة البقرة: آية (٦٥).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ١٧٢) ١١٤٤، ١١٤٣، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٩) ٦٧٧، وأورده ابن كثير عن ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد به (١/ ١٥٠)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم (١/ ١٨٥)، وينظر فتح القدير (١/ ٩٦)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٢٣٧)، وتفسير البغوي (٢/ ٧٩).

مُجمعة عليه، وكفى دليلاً على فساد قول، إجماعُها على تخطئته[١] .

٢ ـ تأويله لمعنى المائدة المنزلة على عيسى :

عند تأويله لقوله تعالى : ﴿ **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾[٢] .

قال رحمه الله : مثل ضُرب، لم ينزل عليهم شيء[٣] . وفي رواية قال : مائدة عليها طعام، أبوْها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم[٤] .

وقد صحح ابن كثير[٥] هذه الروايات عن مجاهد .

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٧٣)، وقد أورد ابن كثير قول مجاهد، وحكم بجودة إسناده وغرابة معناه، وخلافه للظاهر من السياق ، ينظر تفسير ابن كثير (١/ ١٥١)، وأورده ابن الجوزي في تفسيره واستبعده، ينظر زاد المسير (١/ ٩٥)، تفسير الماوردي (١/ ١٣٥)، وتفسير ابن عطية (١/ ٢٥٣)، وتفسير البحر المحيط (١/ ٢٤٦).

(٢) سورة المائدة : آية (١١٤).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٢٣٠) ١٣٠١٩ ، وينظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٥)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٢٣٧) وتفسير القرطبي (٦/ ٢٣٨)، وتفسير البغوي (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٤/ ٥٧)، والسيوطي في الدر ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد (٣/ ٢٣٧).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ١٣٣)، وقد عدل الأستاذ محمود شاكر الرواية الواردة في نسخته على هذا النحو «مائدة عليها طعام، أتوا بها، حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، ألوان من طعام ينزل عليهم»، ثم علق عليها في الحاشية بقوله في المطبوعة : غير هذه العبارة (يعني : الطابع) تغييراً شاملاً مزيلاً لمعناها، فكتب مائدة عليها (وساق العبارة). ثم قال محمود : وأثبت ما في المخطوطة ١٠ هـ، ينظر تفسير الطبري (١١/ ٢٢٨) ١٣٠٠٩ .
قلت : والصحيح ما في المطبوعة ويشهد لصحة العبارة ما ورد في تفسير بن كثير (٣/ ٢٢٥)، والدر (٣/ ٢٣٧)، ولعل الأستاذ اجتهد في قراءة المخطوطة فلم يحالفه الصواب، أو لم يتضح له المعنى، ولم يتسق في ورود هذا الأثر عن مجاهد، فغير، ولم يرجع لمصادر أخرى للتثبت من صحة العبارة! وجل من لا يخطئ، وينظر تفسير البغوي (٢/ ٧٩)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٢٣٧)، والبحر المحيط (٤/ ٥٧)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٣٨).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٥).

فهذا المثال، قد خالف فيه الجمهور، وخالف الظاهر من النص القرآني[١].

٣ ـ تأويله لمعنى الورود على النار:

وانفرد فيما يروى عنه في تفسير قوله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[٢].

فقال: الحمى حظ كلّ مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[٣].

ولعله قال بهذا مستأنسًا بما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ عاد مريضًا من وعك به، فقال له النبي ﷺ: «**أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار**»[٤].

وبما ورد في الحديث: «**الحُمىَّ حظ المؤمن من النار**»[٥]، ثم إن قوله هذا لا يلزم منه نفي ما سواه، بل غاية ما يدل عليه التفسير بالمثال واللازم والله أعلم.

٤ ـ تأويله لمعنى قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾[٦]:

قال مجاهد: ثم اجعلهن أجزاء على كل جبل، ثم ادعهن يأتينك سعيا، كذلك

(١) اعتذر عنه ابن كثير بقوله: وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى، وليس في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا، ولا أقل من الآحاد والله أعلم، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله: ﴿إني منزلها﴾، قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق اهـ، ينظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

(٢) سورة مريم: آية (٧١).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١١١)، وأورده ابن كثير عن ابن جرير به، (٥/ ٢٥١).
وينظر تفسير الماوردي (٣/ ٣٨٤)، وتفسير ابن عطية (١١/ ٤٩)، وزاد المسير (٥/ ٢٥٧).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٢٩) وابن ماجة في سننه (٢/ ١١٤٩) ٣٤٧٠، والحاكم في مستدركه، وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٥).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٢، ٢٦٤)، والبخاري في تاريخه (٧/ ٦٣) والطبراني في الكبير (٨/ ١١٠) ٧٤٦٨، والعُقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٨).
وقال في مجمع الزوائد: إسناده حسن (٢/ ٣٠٦).

(٦) سورة البقرة: آية (٢٦٠).

يحيي الله الموتى . هو مثل ضربه الله لإبراهيم[١] .

٥ ـ ما روي عنه في تأويل معنى اهتزاز العرش :

زعم جولد زيهر : أن مجاهداً فسر (العرش) في حديث اهتزاز العرش لموت سعد ابن معاذ، فقال : قال مجاهد : إن المراد به السرير ، الذي حمل عليه سعد إلى قبره ، فقد اهتز من انفساخ الخشب من الحرارة[٢] .

واعتمد في ذلك على ما رواه ابن سعد في طبقاته والحاكم في مستدركه عن مجاهد عن ابن عمر ، قال : اهتز العرش لحب لقاء الله سعداً ، قال : إنما يعني السرير : قال إنما تفسخت أعواده[٣] .

وعند الحاكم عن مجاهد عن ابن عمر بلفظ : «اهتز لحب لقاء الله العرش يعني : السرير ، قال : ورفع أبويه على العرش ، تفسخت أعواده»[٤] .

فهذه الروايات قد توهم أن القائل مجاهد ، والحق أن هذا من قول ابن عمر ، كما حقق ذلك ابن حجر فقال : وقد أنكر ابن عمر ما أنكره البراء[٥] ، فقال إن العرش لا يهتز لأحد ، ثم رجع عن ذلك ، وجزم بأنه اهتز له عرش الرحمن .

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٠٨) ٦٠٢٢ ، ٦٠٢٣ .
وقد يعتذر عنه ـ رحمه الله ـ بأن التمثيل قد يكون تصويرياً وقد يكون حقيقيا ، بمعنى : أن ضرب المثل قد يكون ببيان الحقيقة ذاتها ، وقد يكون بمشهد يقربها للذهن ، فلم لا يكون ذلك من هذا القبيل ؟! ـ والله أعلم ـ .

(٢) كتاب مذاهب التفسير (١٣٠ ـ ١٣١) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٣٣) .

(٤) مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٦) ، وقد صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

(٥) روى إنكار البراء ، وقوله : إن المراد اهتزاز السرير ، البخاري في صحيحه من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ : سمعت النبي ﷺ يقول : «**اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**» ، فقال رجل لجابر : فإن البراء يقول : اهتز السرير ، فقال : إنه كان بين هذين الحيَّين ضغائن ، سمعت النبي ﷺ يقول : «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» . ينظر صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد ابن معاذ (٤/ ٢٢٧) ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/ ٣٧٦) .

أخرج ذلك ابن حبان من طريق مجاهد عنه، والمراد باهتزاز العرش استبشاره، وسروره بقدوم روحه، يقال لكل من فرح بقدوم قادم عليه: اهتز له، ثم قال: ووقع ذلك من حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ: «اهتز العرش فرحًا به» لكنه تأوله كما تأوله البراء بن عازب، فقال: اهتز العرش فرحًا بلقاء الله سعدًا حتى تفسخت أعواده على عواتقنا، قال ابن عمر: يعني عرش سعد الذي حمل عليه[1] اهـ. وليس ما يمنع أن يقع من العرش اهتزاز حقيقي، ويكون لازمه الفرح والاستبشار، وعلى كلٍ فقد اتضح من هذا أن القول لابن عمر وليس من تفسير مجاهد، والله أعلم.

ثانيًا: الدقة في التفريق بين الكلمات المتشابهة:

كان ـ رحمه الله ـ من أكثر التابعين دقة في اختيار الكلمات لتفسير الآيات، وكان يُنبه في بعض المواضع على الكلمات المتشابهة مع إيضاح الفروق المعنوية بينها، فمن ذلك ما جاء عند قوله سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾[2].

قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة لم يكن إلا لهم[3].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٢٤)، وقد أخرج هذا القول الأخير لابن عمر، الحربي بسنده في غريب الحديث (١/ ١٧٣) من طريق عطاء عن مجاهد عن ابن عمر به، وعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله: ورواية عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عمر، في حديث عطاء مقال؛ لأنه ممن اختلط في آخر عمره (ثم قال): ويعارض روايته أيضًا، ما صححه الترمذي من حديث أنس قال: «لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله» قال الحاكم: الأحاديث التي تصرح باهتزاز عرش الرحمن مخرجة في الصحيحين، وليس لمعارضها في الصحيح ذكر ـ ينظر الفتح (٧/ ١٢٤)، وسنن الترمذي (٥/ ٦٩٠)، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٨١٨) والمستدرك (٣/ ٢٠٧).

(٢) سورة البقرة: آية (٥٧).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٩٠) ٩٦٣. وينظر تفسير الماوردي (١/ ١٣٤)، وتفسير ابن عطية (١/ ٢٢٧).

وعند قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾[١] قال: (الربانيون) الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار[٢].

وعند قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾[٣].

عن العوام بن حوشب قال: قلت لمجاهد: الشفق، قال: لا تقل الشفق، إن الشفق من الشمس، لكن قل: حمرة الأفق[٤].

وعند قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[٥]، قال: الصدع: مثل المأزم، غير الأودية، وغير الحُرُف[٦].

ثالثًا: تفسير بعض الألفاظ بما يخالف المعنى القريب:

فكان يصرف بعض الألفاظ عن معناها القريب، ويؤولها تأويلاً بعيدًا عن المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ، ومن أمثلة ذلك: ما جاء عنه عند تأويل قوله سبحانه: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾[٧]، قال: الوزن: القضاء[٨].

---

(١) سورة آل عمران: آية (٧٩).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٥٤١) ٧٣١٢، وينظر تفسير الماوردي (١/ ٤٠٥)، وتفسير ابن عطية (٣/ ١٤٠)، وزاد المسير (١/ ٤١٣)، والبحر المحيط (٢/ ٥٠٦)، وتفسير القرطبي (٤/ ٧٩).

(٣) سورة الانشقاق: آية (١٦).

(٤) تفسير الطبري (٣٠/ ١١٩).

(٥) سورة الطارق آية (١٢).

(٦) تفسير الطبري (٣٠/ ١٤٩)، وينظر تفسير ابن عطية (١٦/ ٢٧٩)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩). ولمزيد من الأمثلة يراجع الطبري الآثار: ١٥٠١، ٤١٦٤، ٤٢٨٢، (٢٩/ ٩٣)، (٢٩/ ١٣٠)، (٢٩/ ٢١٠)، (٢٩/ ٢١٧)، (٢٩/ ٢١٨)، (٢٩/ ٢٣٧)، (٣٠/ ٩٨)، (٣٠/ ٢٩٢).

(٧) سورة الأعراف: آية (٨).

(٨) تفسير الطبري (١٢/ ٣٠٩) ١٤٣٢٨، وقد انفرد مجاهد بهذا التفسير، ورده ابن جرير (١٢/ ٣١١). وينظر تفسير الماوردي (٢/ ٢٠١)، وتفسير البغوي (٢/ ١٤٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٠٧).

ومنها ما ورد عنه في تأويل قوله جل وعلا: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[١] فسر اللباس بالتقوى[٢].

وعند قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[٣]، قال: هو محكم القرآن[٤].

وعند قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾[٥] قال: ذهب وفضة[٦].

وعند تفسير قوله جل وعلا: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[٧] فسر النجم بنجوم القرآن[٨].

وفي رواية: ﴿والنجم﴾ قال: القرآن إذا نزل[٩].

رابعًا: اهتمامه بالمبهمات:

يعد ـ رحمه الله ـ من متقدمي التابعين في تتبع المبهم، والحرص على بيانه، والناظر

---

(١) سورة الأعراف: آية (٢٧).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٥) ١٤٤٥٧، ١٤٤٥٨، ١٤٤٥٩، وانفرد ـ رحمه الله ـ بهذا القول. وينظر تفسير الماوردي (٢/ ٢١٥)، وزاد المسير (٣/ ١٨٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٣).

(٣) سورة الواقعة: آية (٧٥).

(٤) فضائل القرآن لابن الضريس (١٣٠)، وتفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٣)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن نصر، وابن الضريس، عن مجاهد به (٨/ ٢٦).

(٥) سورة الكهف: آية (٣٤).

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٥)، ورواه البخاري معلقًا في كتاب التفسير (٥/ ٢٢٩)، ووصله ابن حجر من رواية الفريابي الفتح، ينظر (٨/ ٤٠٦)، وزاد المسير (٥/ ١٤١)، وتفسير ابن عطية (١٠/ ٤٠٦)، وتفسير البغوي (٣/ ١٦٢).

(٧) سورة النجم: آية (١).

(٨) تفسير الماوردي (٥/ ٣٨٩)، وتفسير ابن عطية (١٥/ ٢٥٤)، وزاد المسير (٨/ ٦٣)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر عن مجاهد به (٧/ ٦٤٢).

(٩) تفسير الطبري (٢٧/ ٤٠)، والفتح (٨/ ٦٠٤)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤١٧)، وتفسير الماوردي (٥/ ٣٨٩)، وزاد المسير (٨/ ٦٣)، وتفسير ابن عطية (١٥/ ٢٥٤)، والبحر المحيط (٨/ ٢١٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٥٥).

في كتب التفسير، والمبهمات[١]، يجد شاهد ذلك، وقد حرص على بيان نوع المُبهم في مواضع كثيرة، فبين نوع الشجرة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[٢] بأنها التينة[٣]، وبين المبهم في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[٤] بأنه الذي بين الكتفين[٥] وبيّن نوع الطير الذي أخذه إبراهيم في تأويله لقوله سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾[٦]. قال إنه الديك، والطاوس، والغراب، والحمام[٧].

وحرص على بيان أسماء بعض من أبهموا، فعند قوله تبارك وتعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[٨]. سمى مجاهد منهم الحارث بن سويد الأنصاري[٩].

وعند تأويله لقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾[١٠]، وقال: ذلك عبد الله ابن أبي[١١].

---

(١) رجعت إلى كتاب السيوطي مُفحمات الأقران في مبهمات القرآن، فوجدت أن مجاهداً أكثر من اهتم بذلك؛ حيث روي عنه أكثر من (٧١) قولاً، في حين كان عن قتادة (٦٨) قولاً، ثم عن عكرمة (٤٠) قولاً، وعن ابن جبير (٢٥) قولاً، وعن الحسن (٢٢) قولاً.

(٢) سورة البقرة: آية (٣٥).

(٣) مفحمات الأقران (١٢).

(٤) سورة البقرة: آية (٧٣).

(٥) المرجع السابق (١٤).

(٦) سورة البقرة: آية (٢٦٠).

(٧) المرجع السابق ص (٢٣)، ولمزيد من الأمثلة تراجع الصفحات (١٧، ٣٣، ٣٨...).

(٨) سورة آل عمران: آية (٨٦).

(٩) المرجع السابق (٢٤).

(١٠) سورة آل عمران (١٥٦).

(١١) المرجع السابق ص (٢٧)، ولمزيد من الأمثلة تُراجع الصفحات (٢١، ٢٧، ٣٩...).

الرأي، التأويل، وأثرهما على المنهج العقدي عند مجاهد:

وهذه المسألة في الحقيقة من أهم القضايا التي يجب العناية بها والوقوف عندها، وتحقيق أبرز ما يمكن أن يروى فيها.

من المعلوم أن مجاهداً - رحمه الله - ممن تربى في مدرسة حبر الأمة وترجمان القرآن، وممن شُهد له بالسبق في تأويل القرآن بين التابعين، وكان يأمر بتدبر القرآن وفهمه، ويحث على تعلم معانيه وما دلت عليه ألفاظه، وكان يرى أن الراسخين يعلمون المتشابه منه، فقد أخرج ابن جرير عن طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعلمون تأويله، ويقولون آمنا به[1].

وأورد البخاري في صحيحه تعليقًا عن مجاهد في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: الحلال والحرام، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾: يصدق بعضها بعضًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾، وكقوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾؛ ثم قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعلمون تأويله و ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[2].

إضافة إلى هذا كله كان - رحمه الله - يرى أن الرأي الحسن - في القرآن - من أفضل العبادة[3]. فأمضى وقته، واستفرغ جهده في مدارسة كتاب الله، وتفهم معانيه، والكشف عن دلالاته ومراميه، فكان من المكثرين في تفسير القرآن، بل عدّه ابن خلدون[4] من أكثر تلاميذ ابن عباس تحررًا وتوسعًا في التفسير.

---

(١) تفسير الطبري ٦٦٣٣ (٦/ ٢٠٣)، وينظر تأويل مشكل القرآن (٩٩)، وتفسير ابن عطية (٣/ ٢١)، والبحر المحيط (٢/ ٣٨٤)، وزاد المسير (١/ ٣٥٤)، وتفسير القرطبي (٤/ ١٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب منه آيات محكمات (٥/ ١٦٥).
وقد وصل ابن حجر هذا المعلق في التغليق (٤/ ١٩٠)، وفي الفتح (٨/ ٢٠٩) من رواية عبد بن حميد، وينظر إيضاح الوقف لابن الأنباري (٢/ ٥٦٥)، والمكتفي في الوقف والابتداء (١٩٦).

(٣) كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (١٦)، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٧٤).

(٤) عن كتاب دراسات في القرآن لأحمد خليل (١١٢).

ولما سافر إلى العراق، واستقر في الكوفة، كان من أسهلهم في الرأي والقياس[١].

ولقد كان لتعلمه في المدرسة المكية الأثر الواضح في بعده عن كثير من الأهواء والبدع، بل كان ـ رحمه الله ـ يقول: ما أدري أيُّ النعمتين أعظم، أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء[٢].

يقول الذهبي معلقًا على قوله: «الأهواء»: مثل الرفض، والقدر، والتجهم[٣].

واتضح هذا المنهج في تفسيره أكثر؛ حيث حمل بشدة على المرجئة والقدرية بخاصة وعلى سائر أهل الأهواء بعامة.

والذي تبين من خلال مراجعة تفسيره، سلامته من مخالفة أصول أهل السنة والجماعة في اعتقادهم، وبعده عن كثير من الأهواء والبدع المنتشرة في ذلك الوقت.

فسلم من بدعة الإرجاء، فكان يقول: إن الإيمان يزيد وينقص[٤]، وإنه قول، وعمل[٥].

ومما اشتهر من تفسيره ما ورد عنه عند تأويله لقوله سبحانه: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[٦]، قال: علم من إبليس المعصية وخلقه لها[٧]. وفي رواية أخرى: وعلم

---

(١) تأويل مختلف الحديث (٧٤).

(٢) السير (٤/ ٤٥٥).

(٣) السير (٤/ ٤٥٥).

(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٨٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ٩٥١) ١٧٢٧.

(٥) المرجع السابق (٥/ ٩٥٢) ١٧٢٨.

(٦) سورة البقرة: آية (٣٠).

(٧) تفسير الطبري (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٩) ٦٢٨ ـ ٦٣٧، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١١٤) ٣٣٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٤٦) ٩٥٩، وزاد المسير (١/ ١٦) والبحر المحيط (١/ ١٤٥).

من آدم الطاعة، وخلقه لها[١] ، وهذا منه ردٌ على القدرية القائلين : إن كل شيء خلق بقدر إلا المعاصي .

بل إنه استشعر خطر الانحراف العقدي على الأمة، فكان يحذر من هذه الأهواء أشد التحذير ، ويقول عن هؤلاء المبتدعة : يبدءون فيكم مرجئة، ثم يكونون قدرية، ثم يصيرون مجوسًا[٢] .

وفي جانب آيات الوعيد، والتهديد، لزم منهج أهل السنة، من ذلك ما ورد عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾[٣] ، عن منصور عن مجاهد قال : سألته ما هذا الكفر؟ قال : من كفر بالله واليوم الآخر[٤] . وفي رواية : من كفر بالحج فلم يرحجَّه برًا، ولا تركه مأثمًا[٥] .

ولورعه وحرصه على سلامة معتقده بقي شهرًا كاملاً يريد أن يسأل ابن عباس عن مسألة من مسائل الوعيد فيقول : سألت ابن عباس شهرًا عن رجل يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يحضر جمعة، ولا جماعة؟ قال : هو من أهل النار[٦] .

ولو لم يسلم من هذه الأهواء لما بقي هذه المدة ينتظر الجواب من ابن عباس - رضي الله عنهما - .

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٨) ٦٣٦ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ٩٨٨) ١٨٠٣ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

(٤) تفسير الثوري (٣٧)، وتفسير الطبري (٧/ ٤٩) ٧٥١٣، ٧٥١٤، وتفسير ابن أبي حاتم (٤٢٧) ١٠٣٣، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير وعبد بن حميد، به (٢/ ٢٧٧) .

(٥) أخرجه الشافعي من طريق ابن جريج عن مجاهد بنحوه (١/ ١١٢)، والطبري من طريق عبد الله ابن مسلم عن مجاهد به (٧/ ٤٨) ٧٥٠٩، والبيهقي في السنن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به (٤/ ٣٢٤)، وينظر تفسير البغوي (١/ ٣٣٠)، وتفسير ابن عطية (٣/ ١٧٥)، والبحر المحيط (٣/ ١٢)، وزاد المسير (١/ ٤٢٨) .

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨/ ١٤٥٦) ٢٨٠٨ .

بل تعدى ذلك إلى مخالفة شيخه[١] في مسألة توبة القاتل المتعمد، فقد روى ابن جرير عن الحكم عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾[٢]. قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام، وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فجزاؤه جهنم، ولا توبة له، قال الحكم: فذكرت ذلك لمجاهد، فقال: إلا من ندم[٣].

ومن خلال ما سلف يتبين أن مجاهدًا ـ رحمه الله ـ وإن وُجدَ عنده شيء من التأويل الذي حاد فيه عن الجادة، وخالف الصواب، فهو من أهل السنة والجماعة، يدور في فلكهم، وينهج طريقهم، وما وقع فيه من المخالفة في مسألة الرؤية[٤] وغيرها، فمن طبيعة النقص البشري، فلا يحكم عليه من خلاله؛ إذ ليس ذلك بمنهج له، بل هو عارض عرض في مسائل مخصوصة، والله أعلم.

ولابد بعد هذا من عرض لأبرز المسائل المنتقدة في التفسير المروي عن مجاهد عند أهل السنة والجماعة، دون ما نسبه إليه أهل الأهواء المخالفون[٥]؛ إذ لا عبرة بهم، ولا وزن لمروياتهم. فمن ذلك:

---

(١) أكثر المروي عن ابن عباس هو قوله بعدم قبول توبة القاتل العمد، وينظر تفسير ابن جرير الآثار ١٠١٨٧، ١٠١٨٨، ١٠١٨٩، ١٠١٩٠، ١٠١٩١، ١٠١٩٢، ١٠١٩٣، ١٠١١٩٤... إلى ١٠٢٠٤ (٩/ ٦٢ـ٦٧).
وسنن أبي داود ٤٢٧٥ (٤/ ١٠٥).

(٢) سورة النساء: آية (٩٣).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٦٢) ١٠١٨٧، وتفسير الماوردي (١/ ٥٢٠)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢١٥)، وتفسير البغوي (١/ ٤٦٥)، والبحر المحيط (٣/ ٣٢٦)، وزاد المسير (٢/ ١٦٧)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢١٤).

(٤) سيأتي تفصيل على هذه المسألة بعد ورقات إن شاء الله.

(٥) من مثل الربيع بن حبيب الفراهيدي الإباضي في مسنده (٣/ ٢٧، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٣)، وكذا ما يرويه عبد الجبار المعتزلي في المغني (٤/ ٢١٢ـ٢١٦) وغيرهم.

١ ـ ما جاء عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[١] من طريق النضر عنه قال: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾: قبلة الله[٢].

وقد أورد ابن خزيمة هذه الآية[٣] على أنها إثبات صفة الوجه لله تعالى، وتبعه على ذلك البيهقي في الأسماء والصفات[٤]، وتعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية بكلام مهم وطويل، ونظراً لأهمية، واحتياج هذا الموضع وغيره مما قد يقع اللبس فيه، إلى الكشف والبيان، وإزالة الالتباس لما قد يعلق بأذهان بعض الناس، أسوق كلامه ـ رحمه الله ـ بطوله حيث يقول: هذه الآية أدخلها في آيات الصفات طوائف من المثبتة والنفاة، حتى عدّها «أولئك» كابن خزيمة، مما يقرر إثبات الصفة، وجعل «النافية» تفسيرها بغير الصفة لهم في موارد النزاع، ولهذا لما اجتمعنا في المجلس المعقود[٥]، وكنت قد قلت: أمهلت كل من خالفني ثلاث سنين، إن جاء بحرف واحد عن السلف يخالف شيئًا مما ذكرته كانت له الحجة، وفعل، وفعلت، وجعل المعارضون يفتشون الكتب، فظفروا بما ذكره البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾، فإنه ذكر عن مجاهد، والشافعي أن المراد: قبلة الله، فقال أحد كبرائهم ـ في المجلس الثاني ـ قد أحضرت نقلاً عن السلف بالتأويل، فوقع في قلبي ما أعد، فقلت: لعلك قد ذكرت ما روي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

(١) سورة البقرة: آية (١١٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، من طريق النضر، عن مجاهد به (٢/ ٥٣٦) ١٨٤٨، والبيهقي في الأسماء والصفات، باب ما جاء في إثبات الوجه، وساق الرواية من طريق النضر عن مجاهد: فثم وجه الله: قبلة الله، أينما كنت في شرق أو غرب فلا توجهن إلا إليها (٢/ ٣٥)، وأخرجها البيهقي أيضًا في السنن الكبرى، بسنده من طريق النضر عن مجاهد، باللفظ السابق (٢/ ١٣) وينظر تفسير الماوردي ١/ ١٧٧)، وتفسير البغوي (١/ ١٠٨)، والبحر المحيط (١/ ٣٦١)، وزاد المسير (١/ ١٣٥).

(٣) في باب ذكر إثبات وجه الله، كتاب التوحيد (١/ ٢٥).

(٤) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٥).

(٥) أي المجلس الذي عقد له في المناظرة حول «الواسطية».

﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾؟ قال: نعم، قلت: المراد بها: قبلة الله، فقال: قد تأولها مجاهد والشافعي[1] وهما من السلف، قلت: هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلاً ولا تندرج في عموم قول من يقول، لا تؤول آيات الصفات.

قال: أليس فيها ذكر الوجه؟!، فلما قلت: المراد بها: قبلة الله. قال: أليست هذه من آيات الصفات؟ قلت: لا، ليست من موارد النزاع، فإني إنما أسلم أن المراد بالوجه ـ هنا ـ القبلة، فإن «الوجه» هو الجهة في لغة العرب، وهذا كثير مشهور، فالوجه هو الجهة، وهو الوجه: كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، أي متوليها، فقوله تعالى: ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ كقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، كلا الآيتين في اللفظ والمعنى متقاربتان، وكلاهما في شأن القبلة، والوجه والجهة، هو الذي ذكر في الآيتين: إنا نوليه: نستقبله. (ثم قال) قلت: والسياق يدل عليه؛ لأنه قال: ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾، وأين من الظروف وتولوا أي: تستقبلوا فالمعنى: أي موضع استقبلتموه فهنالك وجه الله، فقد جعل وجه الله في المكان الذي يستقبله هذا بعد قوله: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ وهي الجهات كلها، كما في الآية الأخرى: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فأخبر أن الجهات له، فدل على أن الإضافة إضافة تخصيص، وتشريف كأنه قال: جهة الله، وقبلة الله، ولكن من الناس من يُسلم أن المراد بذلك جهة الله أي: قبلة الله، ولكن يقول: هذه الآية تدل على الصفة وعلى أن العبد يستقبل ربه، كما جاء في الحديث: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه**»، وكما في قوله: «**لا يزال الله مقبلاً على عبده بوجهه ما دام مقبلاً عليه، فإذا انصرف صرف وجهه عنه**»، ويقول: إن الآية دلت على المعنيين. فهذا شيء آخر ليس هذا موضعه، ثم ختم بقوله ـ رحمه الله ـ: والغرض أنه إذا قيل: «فثم قبلة الله» لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه؛

(١) أحكام القرآن للشافعي (١/ ٦٤)، والأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٥).

الذي ينكره منكرو تأويل آيات الصفات، ولا هو مما يستدل به عليهم المثبتة، فإن هذا المعنى صحيح في نفسه، والآية دالة عليه، وإن كانت دالة على ثبوت صفة فذاك شيء آخر، ويبقى دلالة قولهم: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ على «فثم قبلة الله»، هل هو من باب تسمية القبلة وجهًا باعتبار أن الوجه والجهة واحد؟ أو باعتبار أن من استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله؟ فهذا فيه بحوث ليس هذا موضعها[١] ا هـ.

٢ ـ ومما أخذ عليه تفسيره للمقام المحمود، في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢]. فقد روى ابن جرير في تفسيره من طريق ليث عن مجاهد عند قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: يُجلسه معه على عرشه[٣].

وقد اعتذر ابن جرير ـ بعد إيراده للقول الراجح الموافق لما صح عن النبي ﷺ ـ عما روي عن مجاهد عن طريق الليث بقوله: فإن ما قاله مجاهد من أن الله يُقعد محمدًا ﷺ على عرشه قول غير مدفوع صحته لا من جهة خبر ولا نظر؛ وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، ولا عن التابعين بإحالة ذلك[٤].

وأورد أبو بكر الخلال في كتاب السنة عددًا من الأسانيد المروية من طريق الليث عن

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٥ ـ ١٧).

(٢) سورة الإسراء: آية (٧٩).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٥)، وأخرجه أبو عمرو الداني في المكتفى في الوقف عن طريق الليث عن مجاهد بنحوه (٣٦٣)، وأورده ابن حجر في الفتح، وعزاه إلى عبد بن حميد عن مجاهد بنحوه، الفتح (٨/ ٤٠٠)، والسيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن مجاهد به، (٥/ ٣٢٨)، وتفسير الماوردي (٣/ ٢٦٥)، وتفسير ابن عطية (١٠/ ٣٣٦)، والبحر المحيط (٦/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٠١).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٧)، واستحسن هذا القول ابن تيمية، يُنظر مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٤).

مجاهد بهذا التفسير[١] ، ورجح هذا القول، وأيده، وأتبع ذلك بكلام بعض أهل العلم الذين طعنوا فيمن لم يقل بهذا التفسير، أورده وذكر أنهم عدوه جهميًا، أو كافرًا، أو زنديقًا[٢] ، وأمروا بهجره[٣] ، بل حكم بعضهم بقتله[٤]، ثم أيد ذلك بمنامات ذكر أن أصحابها رأوا النبي ﷺ في المنام ، وأخبرهم أن الله يقعده على العرش[٥] .

وقد أنكر هذا القول جماعة من أهل العلم منهم ابن عبد البر؛ حيث قال: ومجاهد وإن كان أحد المُقدمين في العلم بتأويل القرآن، فإن له قولين في تأويل آيتين هما مهجوران عند العلماء، مرغوب عنهما . . . ، فذكر تأويله للمقام المحمود، ثم عقب عليه بقوله: وهذا قول مُخالف للجماعة من الصحابة، ومن بعدهم، فالذي عليه العلماء في تأويل هذه الآية أن المقام المحمود، الشفاعة[٦] . وتبعه على ذلك القرطبي[٧] .

وقال الواحدي: وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير ثم ذكر أدلته على ذلك[٨] .

والذي يظهر أن المروي عن مجاهد غير معتبر؛ إذ قد جاء من طريق الليث بن أبي

---

(١) يُنظر كتاب السنة لأبي بكر الخلال، الآثار ذوات الأرقام: ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٠.

(٢) المرجع السابق ويُنظر الآثار ذوات الأرقام: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٥.

(٣) المرجع السابق الآثار ذوات الأرقام: ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٣، ٣١٤.

(٤) المرجع السابق الآثار ذوات الأرقام ٢٥٤، ٢٧٣.

(٥) المرجع السابق أثر رقم: ٢٥٦، ٢٥٧.

(٦) التمهيد (٧/ ١٥٧).

(٧) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٠١).

(٨) تفسير القاسمي (١٠/ ٢٧٠).

سُليم، وهو ضعيف[١] .

ثم هو معارض بروايات أصح منه، فيها التصريح بأن مجاهداً يرى أن المراد بالمقام المحمود: هو شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة[٢] . خرجها ابن جرير، وغيره عن طريق ابن أبي نجيح، قال الألباني: هو الثابت عن مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير، وأما رواية الجلوس على العرش فليس لها طريق معتبر؛ لأنها من رواية الليث، وعطاء ابن السائب[٣] ، وأبي يحيى القتات[٤] ، وجابر بن يزيد[٥] ، والأولان مختلطان،

---

(١) قال ابن حجر في التقريب: صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك، التقريب (٤٦٤)، وقال الذهبي ـ بعد أن ساق أقوال أهل العلم فيه ـ قلت: بعض الأئمة يُحسّن الليث، ولا يبلغ حديثه مرتبة الحسن، بل عداده في مرتبة الضعيف المقارب، فيروى في الشواهد والاعتبار، وفي الرغائب والفضائل أما الواجبات فلا اهـ. السير (٦/ ١٨٤)، والضعفاء للنسائي (٢٠٩) والكواكب النيرات (٤٩٣) والضعفاء لابن الجوزي (٣/ ٢٩)، ونهاية الاغتباط بمن رمى من الرُواة بالاختلاط (٢٩٥).
قلت: وإذا ثبت هذا الرأي، أي: ضعف الليث ـ فلا يسوغ الأخذ عنه في هذه الرواية، لا سيما وقد روي ما يُخالفها مما هو أصح منها.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٤)، وأورده ابن كثير في تفسيره من رواية ابن جرير (٥/ ١٠١)، وابن الجوزي في تفسيره (٥/ ٧٦).

(٣) من رواية شريك عن عطاء عن مجاهد، ينظر كتاب السنة لأبي بكر بن الخلال الأثر ذو الرقم (٢٩٤، ٢٩٧)، وعطاء بن السائب، أبو محمد الثقفي، صدوق اختلط. التقريب (٣٩١).
وقال ابن معين: حديثه ضعيف إلا ما كان عن شعبة وسفيان. تاريخ ابن معين (٢/ ٤٠٣)، وينظر الضعفاء للعقيلي (٣/ ٣٩٨)، ولسان الميزان (٧/ ٣٠٥)، وشرح علل الترمذي (٣٠٨)، والكواكب النيرات (٣١٩).

(٤) من رواية شريك قال حدثنا أبو يحيى القتات عن مجاهد به. ينظر كتاب السنة لأبي بكر بن الخلال الأثر ذو الرقم (٢٩٦). وأبو يحيى القتات لين الحديث والتقريب (٦٨٤)، وقد ضعفه أحمد وابن معين، ينظر الاستغناء (٢/ ١٠٠٠)، والكنى للدولابي (٢/ ١٦٥)، والميزان (٤/ ٥٨٦).

(٥) من رواية شريك، قال حدثنا جابر بن يزيد، عن مجاهد به، ينظر كتاب السنة أثر (٢٩٧)، وجابر بن يزيد بن الحارث الجُعفي، ضعيف رافضي؛ قال البخاري: متروك، التقريب (١٣٧)، الضعفاء الصغير (٢٨)، والمغني في الضعفاء (١/ ١٢٦)، الكامل في الضعفاء (٢/ ٥٣٧)، والضعفاء والمتروكين للدارقطني (١٦٨)، والمجروحين (١/ ٢٠٨).

والآخران ضعيفان، بل الأخير متروك متهم[١] اهـ.

وبهذا يتضح أن المروي عن مجاهد من قوله: إن المقام المحمود هو الشفاعة أولى القولين بالصواب، وهو الموافق لما صح به الخبر[٢] عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال عن النبي ﷺ ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: «**هي الشفاعة**»[٣].

٣ ـ ومما أبعد فيه النجعة، وخالف أهل السنة، وأتى فيه بما يستغرب ويستنكر ما ورد عنه في تفسير آية الرؤية؛ حيث أوّلها تأويلاً خالف فيه مذهب أهل السنة، والجماعة من الصحابة، ومن بعدهم، فقد روى ابن جرير عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٤]، قال: تنتظر الثواب[٥]، لا يراه من خلقه شيء[٦]، وفي رواية أنه سئل فقيل له: إن ناسًا يقولون: إنه يُرى، قال: يَرى ولا يراه شيء[٧].

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار ص (١٧)، وينظر تفسير القاسمي (١٠/ ٢٧٣).

(٢) حسنه الترمذي في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الإسراء (٥/ ٣٠٣) ٣١٣٧، وصححه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١٤٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٤، ٤٧٨)، والترمذي في سننه (٥/ ٣٠٣)، والطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٤).

(٤) سورة القيامة: آية (٢٢، ٢٣).

(٥) أخرجه ابن جرير من طريق منصور بن المعتمر، عن مجاهد به، بثلاثة أسانيد، يُنظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٩٢)، وأورده ابن حجر في الفتح، وعزاه إلى عبد بن حميد، وصححه (١٣/ ٤٢٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى بن جرير (٨/ ٣٦٠)، وينظر تفسير الماوردي (٦/ ١٥٦)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٧٠).

(٦) وهذه الزيادة أخرجها ابن جرير من طريق منصور، عن مجاهد به (٢٩/ ١٩٢).

(٧) وهذه الرواية أخرجها ابن جرير من طريق منصور أيضًا عن مجاهد به (٢٩/ ١٩٣).

وقد أورد ابن كثير هذا القول ، ثم عقب عليه بقوله : وقد أبعد النُجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه ، وأين هو من قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾[١] ، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : ما حَجَب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل[٢] .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الدار الآخرة من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ، ولا تأويلها ، منها : ما أخرجه البخاري في صحيحه ، عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : «**إنكم سَتروْن ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . . .**» الحديث[٣] ، وفي رواية عند البخاري عن جرير قال : قال النبي ﷺ : «**إنكم سترون ربكم عيانا**»[٤] ، ومنها ما روى مسلم في صحيحه عن صهيب ، عن النبي ﷺ قال : «**إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وُجُوهَنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النَّار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ**»[٥] .

وبسنده أيضًا عن صهيب وزاد[٦] . ثم تلا هذ الآية : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾[٧] .

---

(١) سورة المطففين : آية (١٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٠٥) .

(٣) المرجع السابق (٨/ ٣٠٤) .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ ، باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ينظر الفتح (٨/ ١٧٩) .

(٥) المرجع السابق (٨/ ١٧٩) .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١/ ١٦٣) .

(٧) المرجع السابق (١/ ١٦٣) .

(٨) سورة يونس : آية (٢٦) .

قال ابن عبد البر في تعليقه على هذا الحديث: والآثار في هذا المعنى كثيرة جدًا، فإن قيل: فقد روى سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب، ذكره وكيع، وغيره عن سفيان؛ فالجواب: قول مجاهد: هذا مردود بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ، وأقاويل الصحابة، وجمهور السلف، وهو قول عند أهل السنة مهجور، والذي عليه جماعتهم ما ثبت في ذلك عن نبيهم ﷺ، وليس من العلماء أحد إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ومجاهد وإن كان أحد المقدمين في العلم بتأويل القرآن فإن قوله هذا مهجور غير مرغوب فيه عند العلماء[١].

وقد اعتذر له ابن حزم بعدم بلوغ الخبر إليه[٢]، والله أعلم.

ومما ورد عنه في مسألة الرؤية تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣] فقد روى ابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها حسنى، وزيادة: مغفرة ورضوان[٤]. وهذه الرواية جاءت من طريق ابن أبي نجيح، وابن أبي نجيح وإن كان من الأئمة الثقات كما قال الذهبي[٥] إلا إنه كان

---

(١) التمهيد (٧/ ١٥٧).

(٢) الفصل في الملل (٣/ ٢).

(٣) سورة يونس: آية (٢٦).

(٤) تفسير الطبري، (١٥/ ٧٠) ١٧٦٤٠، وتفسير مجاهد (٢٩٣)، وأورد البخاري في صحيحه هذه الرواية معلقة عن مجاهد، في كتاب التفسير، تفسير سورة يونس (٥/ ٢١١)، وأشار ابن حجر في الفتح إلى وصلها من طريق الفريابي وعبد بن حميد من طريق ابن أبي نجيح، الفتح (٨/ ٣٤٧)، وأوردها السيوطي في الدر وعزاها إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد به (٤/ ٣٥٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٣٣)، وتفسير البغوي (٢/ ٣٥١)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٥)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢١١).

(٥) الميزان (٢/ ٥١٥).

يرى الاعتزال، كما قاله ابن المديني[١]، بل قال أحمد: أفسدوه بأخرة، وكان جالس عمرو بن عبيد[٢] وقال القطان: كان ابن أبي نجيح من رؤوس الدعاة[٣]، قلت: فلا يُعتد بالرواية عنه في هذا الباب؛ لأنه داعية لبدعته وهذا مما يؤيدها، فالذي يظهر أن هذه الرواية لا تصح عن مجاهد، وقد صح عن المصطفى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى الله تعالى[٤].

وقال ابن الجوزي: روي تفسير (الزيادة) بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن أبي ليلى، والسدي، ومقاتل[٥]. وزاد ابن كثير[٦]: عطاء، وابن المسيب، والحسن... وغيرهم، وذكر أن منهم مجاهداً ـ رحمه الله ـ ولعله اعتمد ما روي عنه من طريق حماد ابن سلمة عن ليث عن مجاهد ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾، قال: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الرب[٧].

وفي سند هذه الرواية الليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف، مر[٨].

---

(١) السير (٦/ ١٢٥).

(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ٥٤)، والتاريخ لابن معين (٣/ ٧٤).

(٣) الميزان (٢/ ٥١٥).

(٤) كما رواه ابن أبي عاصم في السنة في باب: في الزيادة بعد ذكر الحسنى، فساق الحديث بسنده عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: «إذا دخل أهل الجنة الجنة...» الحديث، وقال في ختام الرواية: «فما شيء أعطوه أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».
وينظر كتاب السنة (٢٠٥)، وأخرج الحديث ـ أيضاً ـ مسلم في صحيحه بلفظ مقارب كما مرّ، وأبو عوانة في مستخرجه (١/ ١٥٦)، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٧) ١٨٧، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢/ ٣٣٣)، والآجري في الشريعة (٢٦١).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٥).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٨).

(٧) أوردها اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، والجماعة (٣/ ٤٦٣) ٧٩٧.

(٨) وسيأتي لذلك مزيد بسط في مبحث منهج التابعين في آيات الاعتقاد ص (٨٧٥).

أثره في علوم القرآن :

اهتم ـ رحمه الله ـ بكل علم يخدم القرآن، أو يستند إليه؛ ولذا نجد الأثر البين له في كثير من علوم القرآن، وليس ذلك بمستغرب عليه فهو القائل عن نفسه : استفرغ علمي القرآن[١] ، فقد استفرغ جهده، وبذل وسعه لخدمة القرآن، وعلمه، فتعرض للعديد من أنواع علومه، ولإيضاح أثره في هذا الجانب، أعرض لنماذج من أهم أقواله فيه :

أولاً : معرفة أول ما نزل من القرآن :

اهتم ـ رحمه الله ـ بهذا النوع من علوم القرآن، فتكلم في أول ما نزل من القرآن عمومًا وخصوصًا، فأوضح أول ما نزل منه بمكة وأول ما نزل بالمدينة، وآخر ما نزل بهما، بل وأوضح أول الآيات نزولاً في بعض السور، فعنه قال : أول ما نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ و﴿ نٓ وَالْقَلَمِ ﴾[٢] .

بل ورد عنه تحديد آخر ما نزل في مكة من القرآن؛ حيث قال : هي ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[٣] .

وجاء عنه القول بأن أول ما نزل في المدينة : سورة البقرة[٤] .

وعنه قال : أول ما نزل من براءة : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ، قال : يعرِّفهم نصره، ويوطنهم لغزوة تبوك[٥] .

---

(١) المعرفة والتاريخ (١/ ٧١٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٠)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١٠٨).

(٣) البرهان (١/ ١٩٤).

(٤) زاد المسير (١/ ٢٠).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٠) ١٦٧٥٩، وأورده السيوطي في الإتقان، وعزاه إلى الفريابي (١/ ٧٦).

ثانيًا : أسباب النزول :

لم يعتن مجاهد ـ رحمه الله ـ بهذا النوع من علوم القرآن عناية غيره به[١] ، بل إن من المعالم البارزة في تفسيره ميله إلى القول بعموم معنى الآية في كثير من تأويلاته .

فعند قوله سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[٢] .

قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر[٣] .

وعند قوله جل ثناؤه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[٤] ، قال : في نكاح الأمة ، وفي كل شيء فيه يُسر[٥] .

وعند قوله تعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾[٦] ، قال القاسم بن أبي بزة[٧] ، أمرني مجاهد أن أسأل عكرمة عنها ، فقال عكرمة : هو الخصاء ، فأخبرت مجاهداً ، فقال أخطأ ؛ ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ دين الله[٨] .

وعند قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

---

(١) يعد من أقل مفسري التابعين اعتماداً على أسباب النزول ، فقد بلغ نسبة اعتماده على أسباب النزول (٠٥ , ٠) فقط من مجموع تفسيره ، في حين كانت عند محمد بن كعب القرظي (١٧ , ٠٠) من مجموع تفسيره ، وعن عكرمة (١٤ , ٠) ، وعن عامر الشعبي (١٣ , ٠) ، وعن السدي (١١ , ٠) ، وعن سعيد بن جبير وقتادة (٠٧ , ٠) .

(٢) سورة الروم : آية (٤١) .

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٢٤٠) ٣٩٨٥ ، وتفسير ابن عطية (١٢/ ٢٦٥) ، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٨) .

(٤) سورة النساء : آية (٢٨) .

(٥) تفسير الطبري (٨/ ٢١٥) ٩١٣٥ ، وتفسير ابن عطية (٤/ ٩٠) ، وتفسير القرطبي (٥/ ٩٨) .

(٦) سورة النساء : آية (١١٩) .

(٧) القاسم بن أبي بزة : المكي ، مولى بني مخزوم ، القارئ ، ثقة من الخامسة ، روى عن مجاهد . التقريب (٤٤٩) ، والخلاصة (٣١١) .

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٧٣) ، وتفسير الطبري (٩/ ٢١٦) ١٠٤٥٥ .

مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[١] .

قال ابن جرير الطبري: اختلف أهل التأويل في الإنسان الذي قال فيه الله جلَّ ثناؤه ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ هو إنسان بعينه، أم أريد به المثل لمن فعل الشيطان ذلك به؟ ثم ساق - رحمه الله - عن علي، وابن مسعود، وابن عباس - رضي الله عنهم - وعن طاوس أن المراد بذلك إنسان بعينه، وذكر الروايات عنهم[٢] .

وانفرد بإيراد الأثر عن مجاهد، أن المراد الناس كلهم، فعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: عامَّة الناس[٣] .

ثالثًا: تأويله لمشكل القرآن:

هو من أكثر التابعين تعرضًا لحل ما أشكل وبيان ما غمض من القرآن[٤] فكان - رحمه الله - كلما عرضت له مشكلة تفسيرية سعى في كشف مشكلها وإيراد المعنى الصحيح الموضح لتأويلها، فمن ذلك ما ورد عنه في تفسير قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[٥] .

قال مجاهد: يريد إن كان لله ولد في قولكم، فأنا أول من عبد الله ووحده،

---

(١) سورة الحشر: آية (١٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ٤٩ - ٥١).

(٣) المرجع السابق (٢٨/ ٥١)، وتفسير الماوردي (٥/ ٥٠٩)، وزاد المسير (٨/ ٢١٩). وعند المقارنة بين مجاهد، وقتادة، وهما من أكثر التابعين تعرضًا للتفسير، نجد أن مجاهدًا بعد مراجعة تفسير الطبري قال بعموم معنى الآية صريحًا في أكثر من (٦٠) موضعًا، بينما ورد هذا عن قتادة في (٣٠) موضعًا فقط.

(٤) وذلك من خلال مراجعة كتاب ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن، فقد روى عن مجاهد في أكثر من عشرين موضعًا، وعن الحسن في أربعة مواضع، وعن قتادة وابن جبير في موضعين.

(٥) سورة الزخرف: آية (٨١).

وكذبكم بما تقولون[١] .

وعند قوله سبحانه : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾[٢] ، وقد أشكل تفسير الآية مع آيات أخرى، منها خلق الأرض قبل ذلك، فأجاب عنه بقوله : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ مع ذلك[٣] .

وعند قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٤] وجه إشكال قبول استغفار المشركين، وكونه دافعًا للعذاب عنهم، مع أنهم على الشرك، بقوله : علم أن في أصلابهم من سيستغفر[٥] .

وعند قوله تعالى : ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[٦] ، أشكل ظاهر هذه الآية، فقيل : كيف يدعو نبي الله هؤلاء الفسقة إلى بناته بدل ضيوفه؟! فوجّه الإشكال وبيّن المراد بقوله : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحًا[٧] .

والأمثلة الواردة عنه في هذا كثيرة[٨] .

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٣٧٣)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٠٣)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٩)، وتفسير الماوردي (٥/ ٢٤١)، وتفسير ابن عطية (١٤/ ٢٧٨)، والبحر المحيط (٨/ ٢٨)، وزاد المسير (٧/ ٣٣١)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٧٩).

(٢) سورة النازعات : آية (٣٠).

(٣) تأويل مشكل القرآن (٦٨)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٤٦)، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١٢٣)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٩٩)، وتفسير ابن عطية (١٦/ ٢٢٥).

(٤) سورة الأنفال : آية (٣٣).

(٥) تأويل مشكل القرآن (٧٢)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٤٦)، وتفسير ابن عطية (٨/ ٥٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٥١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٥٣).

(٦) سورة هود : آية (٧٨).

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٤١٤) ١٨٣٧٦ .

(٨) لمزيد من الأمثلة يراجع تفسير الطبري الآثار : ٢٣١٧، ٢٣١٨، ٤١٣٦، ٦٧٧١، ٧١٢٣، ٧٣٤٢، ٧٣٤٣، ٧٣٤٦، ٧٣٤٧، ٧٣٤٨، ٧٦١٤، ٧٦١٥، ١٣٠٥٠، ١٣٠٨٠، ١٤٣٣٤، =

رابعًا: موقفه من النسخ:

كان ـ رحمه الله ـ من أكثر التابعين تضييقًا لدائرة النسخ، فلم ير التوسع فيه، فنجده كثيرًا ما يشير إلى إحكام الآية، وإعمال نصها وعدم نسخها، بخلاف منهج غيره من معاصريه[١].

وكان يقصر النسخ في كثير من الأحيان على آيات الأمر والنهي فقط[٢].

وقد تنوع مفهوم النسخ عنده، فعند تأويل قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾[٣] قال: نزيل حكمها، ونثبت خطها[٤]، وكأنه بذلك يشير إلى ما تغير حكمه، وثبت خطه في المصحف، أي: نسخ الحكم، وبقاء التلاوة، وأشار إلى نوع آخر عند تفسير قوله سبحانه: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾[٥] فقال: نرجئها ونؤخرها[٦]، وكأنه بذلك يشير إلى منسوخ

= ١٤٣٣٧، ١٤٧٥٥، ١٤٧٥٦، ١٤٧٥٧، ١٥١٠٢، ١٥١٠٣، ١٥١٠٤، ١٥١٠٥، (٢٨/ ٦٤)، (٢٨/ ١٦٨)، (٢٩/ ٧١)، (٢٩/ ٩١)، (٢٩/ ١٨٤)، (٢٩/ ٢١٠)، (٣٠/ ٥٦)، (٣٠/ ١٧٧)، و(٣٠/ ٢٤٩).

(١) بعد مراجعة كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، وكتاب الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي، وجدت أن مجاهدًا من أكثر التابعين قولاً بإحكام آيات القرآن، وعند المقارنة بينهم يظهر الفرق، فمثلاً: المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ القول بنسخ (٣٨) آية، وإحكام (٣) آيات، وعن قتادة ـ رحمه الله ـ القول بنسخ (٣٣) آية وإحكام (٨) آيات، وأما مجاهد ـ رحمه الله ـ فروي عنه القول بنسخ (٥) أيات وإحكام (٣١) آية، ويأتي لذلك مزيد بحث، عند الحديث عن أثرهم في أصول التفسير.
ينظر الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس في الصفحات التالية: ١٧، ٣٤، ٣٦، ٨٥، ٨٩، ١٠٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٥، ١٢٩، ١٤٣، ١٤٤... وغيرهما.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلام (٨)، والنسخ في القرآن د. مصطفى زيد (١/ ٣٥٩).

(٣) سورة البقرة: آية (١٠٦).

(٤) أخرجه أبو جعفر النحاس في الناسخ بسنده عن مجاهد به (٧)، وابن جرير في تفسيره (٢/ ٤٧٣) ١٧٤٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٢٢) ١٠٦٢.

(٥) سورة البقرة: آية (١٠٦).

(٦) تفسير الطبري (٢/ ٤٧٧) ١٧٦٥، وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٦).

التلاوة والحكم.

خامسًا : رأيه في المحكم والمتشابه:

اختلف في تعيين المحكم، والمتشابه على عدة أقوال، فقد أورد البخاري[١]، عن مجاهد عند قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾[٢] قال: الحلال والحرام، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٣] يصدق بعضها بعضًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[٤]، وكقوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[٥]. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٦].

ولذا فمجاهد ممن يقول بإمكان علم المتشابه، للراسخين في العلم؛ فقد أخرج ابن قتيبة بسنده عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٧]: تعلمونه وتقولون آمنا به[٨].

وكان ـ رحمه الله يرى أن الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عاطفة[٩]،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب التفسير، باب (منه آيات محكمات) (٥/ ١٦٥).

(٢)، (٣) سورة ال عمران: آية (٧).

(٤) سورة البقرة: آية (٢٦).

(٥) سورة يونس: آية (١٠٠).

(٦) سورة محمد: آية (١٧)، وهذا الأثر ذكر ابن حجر أنه موصول من رواية عبد بن حميد من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به، ينظر التغليق (٤/ ١٨٩)، والفتح (٨/ ٢٠٩)، وذكر العيني في العمدة طريقًا آخر عن ابن جريح من رواية ابن المنذر عن مجاهد به (١٨/ ١٣٨).

(٧) سورة آل عمران: آية (٧).

(٨) تأويل مشكل القرآن (ص١٠٠)، وأخرجه ابن جرير الطبري من طريق ابن أبي نجيح بإسنادين، بلفظ: يعلمونه يقولون آمنا به، تفسير الطبري (٦/ ٢٠٣) ٦٦٣٣، ٦٦٣٤، وذكره أبو جعفر النحاس في معاني القرآن (١/ ٣٥٣) وأورده السيوطي في الإتقان، وعزاه إلى عبد بن حميد (٢/ ٧).

(٩) القطع والإستئناف (٢١٥)، والمكتفى في الوقف والابتداء (١٩٦)، والفتح (٨/ ٢١٠)، والإتقان (٢/ ٧).

وليست للاستئناف.

وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم فذهبوا إلى أن الواو للاستئناف[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا الذي حمل مجاهدًا، ومن وافقه كابن قتيبة[٢] على أن جعلوا الوقف عند قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل؛ لأن مجاهدًا تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله، وبيان معانيه، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله[٣].

سادسًا: كليات القرآن:

حرص - رحمه الله - على استقصاء الألفاظ القرآنية، مع إيضاح ما دلت عليه، وإدراج المتشابه منها في صعيد واحد، سواء اتحد لفظه ومعناه، أو اتحد اللفظ واختلف المعنى، وهو ما يعرف بعلم الأشباه والنظائر، أو كليات القرآن، ومن أمثلة ذلك:

قوله: كل ظن في القرآن يقين ﴿إني ظننت﴾، ﴿وظنوا﴾[٤]، وعنه أيضًا: كل ظن في القرآن فهو علم[٥].

ومنها قوله: كل ما كان في القرآن «كذا، فمن لم يجد فكذا» فالأول فالأول، وكل ما كان في القرآن «أو كذا» «أو كذا» فهو فيه بالخيار[٦].

---

(١) الإتقان (٢/ ٧).

(٢) في المشكل (١٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٤).

وقد ذكر شيخ الإسلام في موضع آخر تعليقًا على هاتين القراءتين فقال: وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى (أي: الاستئناف) المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية (أي العاطفة) المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره اهـ. مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٨١).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ١٩) ٨٦٢، وتفسير ابن كثير (١/ ١٢٦).

(٥) المرجع السابق (٢/ ١٩) ٨٦٣.

(٦) المرجع السابق (٤/ ٧٥) ٣٣٨٠.

ومنها قوله: كل شيء في القرآن «عسى»: فإن «عسى» من الله واجب[١].

ومنها قوله: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار[٢].

وقد تميز ـ رحمه الله ـ بالدقة في التفريق بين المفردات المتشابهة، من ذلك ما روي عنه عند قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾، قال: ما كان في القرآن ثمر بالضم فهو المال، وما كان بالفتح فهو النبات[٣].

سابعًا: الاشتقاق عند مجاهد:

أكثر ـ رحمه الله ـ من بيان أصول الكلمات، واشتقاقها، ويتضح هذا عنده في تعليل التسميات، وبيان وجه المسميات، فمن ذلك:

قوله: إنما سميت الكعبة؛ لأنها مربعة، وإنما سميت البدن؛ من أجل السمانة[٤]، وإنما سمي الميسر؛ لقولهم أيسروا، وأجزروا[٥].

وعند قوله سبحانه: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[٦] قال سميت بذلك لسلاسة سبيلها، وحدة جريها[٧].

وعند قوله سبحانه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[٨] قال: المطروح في التراب ليس له

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور، وعزاه لابن المنذر (١/ ٥٨٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٦).

(٣) أورده ابن حجر في الفتح، وعزاه إلى الفراء عن مجاهد به (٨/ ٤٠٦)، وأورده النحاس في معاني القرآن عن مجاهد بنحوه (٤/ ٢٣٩).

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٤/ ١١٢).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٣٢٢) ٤١٠٦.

(٦) سورة الإنسان: آية (١٨).

(٧) تفسير ابن كثير (٨/ ٣١٧)، وتفسير ابن عطية (١٦/ ١٩٠).

(٨) سورة البلد: آية (١٦).

بيت[١] . وفي لفظ آخر: المطروح في الأرض، الذي لا يقيه شيء دون التراب[٢] .

وعند قوله سبحانه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[٣] قال: إيلافهم ذلك فلا يشق عليهم رحلة شتاء، ولا صيف[٤] .

وفي تفسير قوله جل وعلا: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[٥] ، قال: يدعُّ: يوضع عن حقه، يقال: هو من دععت، يُدعّون أي: يدفعون[٦] .

ثامنًا: الاعتماد على لغة العرب:

وكان ـ رحمه الله ـ من أهل العلم باللغة واللسان[٧] ، فوظف ذلك لخدمة كتاب الله، ولم ير لغير أهل اللسان الخوض في معاني القرآن، بل كان يقول: لا يحل لأحد يؤمن بالله، واليوم الآخر، أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب[٨] .

فعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[٩] . قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب: تضعف[١٠] .

---

(١) أورده ابن حجر في الفتح، وعزاه إلى الفريابي عن مجاهد به (٨/ ٧٠٤).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٠٥)، وتفسير الماوردي (٦/ ٢٧٩)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٩٠)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٤٧).

(٣) سورة قريش: آية (١).

(٤) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٠٦)، والفتح (٨/ ٧٣٠)، وتفسير البغوي (٤/ ٥٢٩).

(٥) سورة الماعون: آية (٢).

(٦) صحيح البخاري كتاب التفسير (٦/ ٩٢)، والفتح (٨/ ٧٣٠)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٣١٠)، وتفسير الماوردي (٦/ ٣٥١).

(٧) المغني لعبد الجبار (٤/ ٢١٥).

(٨) البرهان (١/ ٢٩٢)، ومفتاح السعادة (٢/ ٥٨٥).

(٩) سورة المدثر: آية (٦).

(١٠) تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٩)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٠)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٣٨)، وتفسير ابن عطية (١٦/ ١٥٦)، وتفسير البغوي (٤/ ٤١٤)، وزاد المسير (٨/ ٤٠٢)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٤٥).

وعند قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[١] قال: أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب تسمي البكرة[٢] مسدا[٣].

وفي تفسير قوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾[٤] قال: الضريع نبت يقال له: الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، وهو سم[٥].

والمتأمل لتفسيره يجده قد ضمَّ توضيحات كثيرة، ذات طابع لغوي أحرى بها أن تسمى: دراسة في المفردات الغريبة في القرآن[٦].

بل كان يوجه من يسأله بقوله: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[٧]؛ ولذا فقد ورد عنه ما يستوعب غريب القرآن؛ وأتى على جملة صالحة منه[٨].

تاسعًا: معرفة ما وقع في القرآن من المعرب:

إضافة إلى ما سبق في هذا الجانب، فقد كان على دراية بالألفاظ الأعجمية التي تعربت باستعمال العرب لها، أو كانت مما اتفقت فيه اللغات.

ومجاهد ـ رحمه الله ـ ممن قال بوقوع المعرب في القرآن، بل كان أكثر التابعين قولاً

---

(١) سورة المسد: آية (٥).

(٢) البكرة التي يستقى عليها الماء، وهي خشبة مستدير في وسطها محزٌ للحبل وفي جوفها محور تدور عليه، لسان العرب (٤/ ٨٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٣٦)، وتفسير ابن عطية (١٦/ ٣٨٠)، وتفسير البغوي (٤/ ٥٤٤).

(٤) سورة الغاشية: آية (٦).

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٦/ ٨٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٧)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٧٨)، وزاد المسير (٩/ ٩٦)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢١).

(٦) تاريخ التراث (١٧٧).

(٧) تفسير القرطبي (١/ ٢٤).

(٨) الإتقان (١/ ١٥٠).

به[١] .

ومن أمثلة ذلك : ما ورد عنه في تفسير : (**الأواه**) قال : الموقن بلسان الحبشة[٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿**سَرِيًّا**﴾[٣] ، قال : نهراً بالسريانية[٤] ، وفي تفسير الطور قال : الجبل بالسريانية[٥] ، وفي تفسير (**العرم**) قال : بالحبشية هي المسناة التي تجمع فيها الماء ، ثم ينبثق[٦] ، وفي تفسير (**الفردوس**) قال : بستان بالرومية[٧] ، وفي تأويل (**القسطاس**) قال : العدل بالرومية[٨] ، وعند قوله : (**مشكاة**) قال : الكوة بلغة الحبشة[٩] ، وفي

---

(١) يتضح ذلك من خلال مراجعة كتاب المهذب ، فيما وقع في القرآن من المعرب ، فقد جمع السيوطي ما ورد من آثار عن الصحابة والتابعين ، وغيرهم فاستقصى ، ومن خلال مراجعة ما جمع وجدت أن مجاهداً من أكثر من يروى عنه من التابعين في هذا الشأن ، وبعده عكرمة ، ثم ابن جبير ، ينظر المهذب والإتقان (١/ ٣٦٩-٣٧٨) .

(٢) أورده السيوطي في المهذب (٧٥) ، والإتقان (١/ ٣٧٠) وعزاه إلى ابن أبي حاتم .

(٣) سورة مريم : آية (٢٤) .

(٤) أورده السيوطي في الدر (٥/ ٥٠٣) والمهذب (٩٩) ، وعزاه إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد به .

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ١٥٨) ١١١٦ ، ١١١٧ ، وأورده السيوطي في المهذب ، وعزاه إلى الفريابي عن مجاهد به (١١٣) .

(٦) أورده السيوطي في المهذب ، والدر ، وعزاه إلي ابن أبي حاتم عن مجاهد به ، ينظر المهذب (١١٨) ، والدر (٦/ ٦٩٠) .

(٧) أورده السيوطي في المهذب ، والإتقان ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن مجاهد به ، ينظر المهذب (١٢٠) ، والإتقان (١/ ٣٧٥) .

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٤٧١) ، وابن جرير في تفسيره (١٥/ ٨٥) ، وأورده السيوطي في المهذب ، والدر وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر ، وابن أبي شيبة ، ينظر المهذب (١٢٤-١٢٥) ، والدر (٤/ ١٨٢) .

(٩) أورده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٦٢) ، وذكره السيوطي في المهذب ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره ، عن مجاهد به (١٤٤) ، ينظر المعرب للجواليقي (٣٥١) .

تأويل (المقاليد) قال: المفاتيح بالفارسية[١].

عوامل السبق عند مجاهد:

ولإيضاح هذا الجانب لابد من الإشارة إلى أبرز الأسباب التي ساعدت مجاهداً ـ رحمه الله ـ فصار السابق في علم القرآن وتفسيره. من أهم هذه الأسباب ما يلي:

١ ـ ملازمته، وصحبته لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

كان لابن عباس أصحاب غير مجاهد، ولكن مما ميز مجاهداً عن أصحابه كثرة العرض، والسؤال، والمراجعة لابن عباس في القراءة والتفسير خاصة، حتى إنه قرأ عليه القرآن أكثر من ثلاثين مرة، وعرض عليه التفسير ثلاث مرات يستوقف شيخه عند كل آية، ويسأله عنها.

ولم يكتف بهذا، بل كان ـ رحمه الله ـ يكتب كل ما سمعه، وفي هذا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة[٢] ويقول أيضًا: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرْضَات، من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية منه وأسأله عنها[٣].

ويقول ابن أبي مُليكة: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله[٤].

ولذا عدَّه ابن كثير من أخص أصحاب ابن عباس[٥].

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٠٢)، وذكره السيوطي في المهذب والدر، وعزاه إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد به، ينظر المهذب (١٤٥)، والدر (٧/ ٢٤٣)، والمعرب للجواليقي (٣٦٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)، والحلية (٣/ ٢٨٠)، والجرح (٨/ ٣١٩)، وتهذيب الكمال (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٨، والحلية (٣/ ٢٧٩)، والتهذيب (١٠/ ٤٣).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٧.

(٥) البداية والنهاية (٩/ ٢٥٠).

٢ ـ تعدد مصادره:

امتاز مجاهد ـ رحمه الله ـ عن أقرانه من تلاميذ المدرسة بتعدد مصادره، فمع انقطاعه لابن عباس خلال حياته، إلا إن بعض الروايات تشير إلى أخذه عن غيره، واتصاله بفكر أصحاب المدارس الأخرى[١]، كما في قوله: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت[٢].

وقد صحب ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وفي ذلك يقول: صحبت ابن عمر إلى المدينة فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ إلا حديثًا واحدًا[٣].

فعن عبيد الله بن عمران قال: سمعت مجاهدًا يقول: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه، فكان هو الذي يخدمني[٤]، وكان رحمه الله يحدث من صحيفة جابر ـ رضي الله عنه[٥] ـ.

هذا مع أنه أسند، وروى عن جملة من أصحاب النبي ﷺ، منهم: علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والعبادلة الأربعة، وأسيد بن ظهير، وأبو سعيد

---

(١) دراسات في التفسير وأصوله د. محيي الدين بلتاجي (٥٦).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٥/ ٢٠٠).
وقد وجدت مجاهدًا من أكثر المكيين اتصالاً بالكوفة بعد سعيد بن جبير، بل فاق سعيدًا في الإفادة من قراءات ابن مسعود، وبعد رجوعي لتفسير ابن مسعود وجدت أن مجاهدًا جاء من طريقه خمس روايات في تفسير ابن مسعود، منها أربع في القراءة، وهو بهذا أكثر حتى من سعيد بن جبير، والآثار التي رواها مجاهد عن ابن مسعود في تفسير الطبري هي: ٩٢١١، ١٣٤٣١، ١٤٦٣٢، (٢٥/ ١٧)، (٣٠/ ١٦١).

(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥٥٧)، والتهذيب (١٠/ ٤٣)، والسير (٤/ ٤٥٤).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٤١) ١٧٢٨، والسير (٤/ ٤٥٢).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧).

الخدري، وعائشة، وأم سلمة، وجويرية بنت الحارث، وأبو هريرة، وأم هانئ بنت أبي طالب، وجابر بن عبد الله، وعطية القرظي، وسراقة بن مالك، وغيرهم[١].

ومن المصادر التي اعتمد عليها: الرواية عن أهل الكتاب، وقد تساهل في الرواية عنهم مما جعل بعض أصحاب المدارس الأخرى يتقي تفسيره[٢].

يقول الأعمش[٣] لما سئل: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[٤].

وقد أكثر من الرواية عن بني إسرائيل[٥]، وجاءت عنه بعض التفاصيل المنكرة، والغريبة، فعند تأويله لقوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾[٦]، قال: حلَّ السراويل، حتى أليتيه واستلقت له[٧].

وعند قوله تعالى: ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن**

---

(١) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٠٥)، والتهذيب (١٠/ ٤٢)، والجرح (٨/ ٣١٩)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٨٣).

(٢) كمدرسة الكوفة خاصة فهي من أكثر المدارس بُعدًا وحذرًا من الرواية عن بني إسرائيل، ويقال: إن مجاهدًا سكنها في آخر عمره، السير (٤/ ٤٥٢).

(٣) الأعمش سليمان بن مهران الأسدي، أبو محمد الكوفي، ثقة حافظ عارف بالقراءات، التقريب (٢٥٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٠٧).

(٥) هو أكثر المكيين بعد سعيد بن جبير في روايته عن بني إسرائيل كما يأتي تفصيل ذلك إن شاء الله عند الحديث عن المدرسة المكية.

(٦) سورة يوسف: آية (٢٤).

(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦) ١٩٠٢٣، وفي رواية عند ابن جرير عنه بلفظ: حلَّ سراويله، حتى وقع على أليته (١٦/ ٣٦) ١٩٠٢٤، وفي رواية: جلس منها مجلس الرجل من امرأته ١٩٠٢٥، وأورده السيوطي في الدر بلفظ مُقارب، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ (٤/ ٥٢١).

﴿سَاقَيْهَا﴾[١] ، قال: الصرح بركة من ماء ضرب عليها سليمان قوارير ألبسها، قال: وكانت بلقيس هلباء شعراء، قدمها كحافر الحمار، وكانت أمها جنية[٢] .

وفي رواية أخرى عنه: فإذا هما شعراوان فقال: ألا شيء يذهب هذا؟! قالوا الموسى، قال: لا، الموسى له أثر، فأمر بالنورة فصنعت[٣] .

٣ ـ تخصصه، وانقطاعه لعلم التفسير:

تفرغ مجاهد لهذا العلم، فبذل فيه وسعه، واستنفذ طاقته، وغاية جهده، وفي ذلك يقول: استفرغ علمي القرآن[٤] .

وهذا واضح من تتبع المروي عنه ـ رحمه الله ـ، فعلى جلالة قدره وتمكنه في باب العلوم الأخرى، إلا أن المروي عنه في غير التفسير قليل[٥] في جنب ما روي عنه في ذلك.

أما القرآن وعلومه فقد غاص في بحوره، واستخرج الدر من مكنونه، وتعدى ذلك فعرض لأمور دقيقة تتعلق بآياته، وحروفه، وكلماته.

فقد جاءت الروايات عنه في بيان عدد كلمات القرآن؛ حيث قال: عددها تسع

---

(١) سورة النمل: آية (٤٤).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ١٦٩).

(٣) المرجع السابق ١٩٠/ ١٦٩).

ولمزيد من الأمثلة يُراجع الطبري: ٨٩٧، ١٦٨٩، ٥٦٧٢، ٥٦٧٣، ٥٦٧٤، ٥٦٧٥، ١١٦٦٠، ١١٦٦١، (٢٣/ ١٥٠)، (٢٣/ ١٥٧).

(٤) المعرفة والتاريخ (١/ ٧١٢)، والسير (٤/ ٤٥٢)، وغاية النهاية (٢/ ٤٢).

(٥) ولذا نجد أنه من أقل التابعين تعرضًا للأحكام الفقهية، فالمروي عن عطاء في تفسير آيات الأحكام مثلاً استغرق (٣٣, ٠) من تفسيره، وعن ابن جبير (٠٩, ٠)، وعن مجاهد (٠٣, ٠) من مجموع تفسيره.

وسبعون ألف كلمة ومائتان وسبع وسبعون كلمة[١] ، وحروف القرآن عددها ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف[٢] .

فهذه العناية والاهتمام، والتفرغ لعلم القرآن، كانا من أسباب سبقه وكثرة الرواية عنه .

٤ ـ سبقه في علم القراءات :

مما أعان مجاهدًا ـ رحمه الله ـ على فهم كثير من الآيات تقدمه في معرفة القراءة، حتى عُدَّ إمامًا من أئمة هذا الشأن .

قال ابن جرير : وكان قارئًا عالمًا[٣] ، وقال عنه الذهبي : شيخ القراء[٤] ، ومما يؤكد ذلك أنه كان يتعمد القراء، ويقصدهم للقراءة عليهم، ويقول في هذا : كنت أتحدى القراء فأقرأ[٥] .

وقد قرأ عليه شيخ مكة ابن كثير، ولم يخالفه في شيء من القراءة[٦] ، وكان يقرأ القرآن على خمسة أحرف[٧] ، ولحرصه على هذا الجانب عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة[٨] .

---

(١) عجائب علوم القرآن لابن الجوزي (١٣١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٤٩)، وفنون الأفنان (٢٣٦)، والتفسير القرآني للقرآن (١/ ١٥).

(٣) التهذيب (١٠/ ٤٤).

(٤) السير (٤/ ٤٥٠)، وقال الذهبي في التذكرة (١/ ٩٢)، والميزان (٣/ ٤٣٩): المقرئ المفسر .

(٥) النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٥٥)، وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ١٩٧)، والفائق (١/ ٢٦٨).

(٦) السبعة في القراءات لابن مجاهد (٦٤).

(٧) تفسير الطبري (١/ ٥٣) ٥٢ .

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)، والحلية (٣/ ٢٨٠)، والسير (٤/ ٤٥٦).

وفي رواية عنه قال: ختمت على ابن عباس تسع عشرة ختمة كلها يأمرني أكبر فيها[١].

٥ ـ شغفه بالسفر والترحال وحبه لرؤية العجائب والغرائب:

إن مما لا شك فيه أن التغرب عن الأوطان، والتنقل بين البلدان ذو أثر مفيد على المتلقي؛ لتعدد المصادر بكثرة من يلقاهم خلال ترحاله، ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول:

---

(١) غاية النهاية (٢/ ٤٢)، وإبراز المعاني (٧٣٥)، والنشر (٢/ ٤١٥).

مسألة التكبير: ورد فيها حديث مرفوع ساقه الحاكم في مستدركه (٣/ ٣٠٤) وصحح إسناده، ولم يوافقه الذهبي حيث قال: فيه البزي وقد تكلم فيه، وكذا قال ابن الملقن في مختصره (٤/ ١٩٥٨) ٦٨٨، وحكم أبو حاتم بالنكارة على هذا الحديث، ينظر العلل لابن أبي حاتم (٢/ ٧٧) ١٧٢١، وأخرجه البيهقي في الشعب، وساقه بخمسة أسانيد من ٢٠٧٧ ـ ٢٠٨١، كلها من طريق البزي، ينظر شعب الإيمان (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

وأخرجه بسنده ابن الباذش في الإقناع في القراءات السبع (٨١٩)، من طريق البزي أيضًا، ثم قال أبو جعفر (ابن الباذش): والتكبير موقوف على ابن عباس، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ غير البزي. وكذا رواه أبو شامة المقدسي في إبراز المعاني (٧٣٥) بإسنادين، من طريق البزي، ونقلا قولاً لأبي العلاء أن الرواية والإجماع في ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وذكر ابن الجزري في النشر (٢/ ٤١٤)، والتقريب (١٩١) عن أبي العلاء الهمداني أن التكبير لم يرفعه إلى النبي ﷺ إلا البزي، والناس وقفوه على ابن عباس ومجاهد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسندًا عن النبي ﷺ، ولم يسنده أحد إلى النبي ﷺ إلا البزي، وخالف بذلك سائر من نقله، فإنهم إنما نقلوه اختيارًا ممن هو دون النبي ﷺ وانفرد هو برفعه، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث، ينظر مجموع الفتاوى (١٧/ ١٣٠).

والبزي: هو أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، قال الذهبي: مقرئ مكة ثقة في القراءة، وأما في الحديث فقال العقيلي: منكر الحديث، وضعفه أبو حاتم، ينظر المغني في الضعفاء (١/ ٥٥)، والضعفاء الكبير (١/ ١٢٧)، والجرح (٢/ ٧١)، والضعفاء لابن الجوزي (١/ ٨٦).

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر، ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم، واكتساب معيشة وعلم، وآداب، وصحبة ماجد[١]

وقد كان مجاهد مولعًا بكثرة الترحال، وحب الأسفار، متطلعًا إلى الوقوف على حقائق الأخبار، شغوفًا بمعاينة ما يسمعه عن عجائب الآثار أخذًا بقول القائل:

يابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راء كمن سمعا

وفي ذلك يقول الأعمش: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب ينظر إليها، قال: وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت، قال: وذهب إلى بابل، قال: عليها والٍ صديقٍ لمجاهد، قال: فقال مجاهد: تعرض على هاروت وماروت، قال: فدعا رجلاً من السحرة، فقال: اذهب بهذا، واعرض عليه هاروت وماروت. فقال اليهودي: بشرط ألا تدعو الله عندهما، قال مجاهد: فذهب بي إلى قلعة، فبلغ[٢] منها حجرًا، قال: ثم قال: خذ برجلي فهوى حتى انتهى إليهما، فإذا هما معلقان منكسان كالجبلين العظيمين فلما رأيتهما قلت: سبحان الله خالقكما! فاضطربا، قال فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت، قال: فغشي عليَّ، وعلى اليهودي، قال: ثم أفاق اليهودي قبلي، فقال: قم، قد أهلكت نفسك وأهلكتني[٣].

يضاف إلى ذلك أنه ـ رحمه الله ـ كان كثير الأسفار، وفي هذا يقول الإمام الذهبي: وكان كثير الأسفار، والتنقل[٤].

---

(١) ديوان الشافعي ص (٤١).

(٢) وفي رواية الذهبي في السير «فقطع» (٤/ ٤٥٦).

(٣) الحلية (٣/ ٢٨٨)، والسير (٤/ ٤٥٦).

وقد ساق هذه الرواية الذهبي في موضع آخر مختصراً (٤/ ٤٥٥)، وينظر التذكرة (١/ ٩٢)، والبداية والنهاية (٩/ ٢٥٢).

(٤) السير (٤/ ٤٥٢).

٦ ـ كتابته للتفسير :

كان ـ رحمه الله ـ حريصًا على تدوين ما يسأل عنه من الآيات، وقد ساعد ذلك على حفظ تفسيره، وبقائه، فعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله[١].

وعُبيد المُكتب قال: رأيتهم يكتبون التفسير عند مجاهد[٢].

ولهذا عُدَّ مجاهد من أوائل من دوّن التفسير[٣].

٧ ـ عناية أصحابه بنقل تفسيره:

يُعد التلميذ صورة لشيخه، ووسيلة من وسائل بث علمه، فإذا قيض الله للعالم تلاميذ بررة، حفظوا أثره، ونشروا خبره، كثرت الرواية عنه، وهذا سر حفظ تراث بعض السلف دون بعض، ولقد كان مجاهد ـ رحمه الله ـ من أولئك الأئمة الذين تيسر لهم أصحاب عنوا بالأخذ عنهم وتفرغوا، وتخصصوا في نقل تراثهم، ومن أبرز تلاميذه: ابن أبي نجيح.

وهو عبد الله بن أبي نجيح الثقفي، قال الإمام الذهبي: هو من أخص الناس بمجاهد[٤]، وبتتبع المروي عن مجاهد، تبين أن ابن أبي نجيح تخصص في نقل مُعظم المروي من تفسير مجاهد[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٧.

(٢) تقييد العلم للخطيب (١٠٥)، وسنن الدارمي (١/ ١٢٨)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٥٥٠).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٧٩)، وتاريخ التمدن الإسلامي (١/ ٢٢١).

(٤) السير (٦/ ١٢٦).

(٥) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن ابن أبي نجيح روى (٥٦, ٠) من مجموع تفسيره، وابن جريج روى (١٥, ٠) من مجموع تفسيره.

ويأتي في المرتبة الثانية في العناية بتفسير مجاهد ابن جريج عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج القرشي ، قال الإمام الذهبي : أخذ عن مجاهد حرفين من القراءات[١] .

وكان ابن جريج يقول : لأن أكون سمعت عن مجاهد ، فأقول سمعت مجاهداً أحبُّ إلي من أهلي ، ومالي[٢] .

٨ ـ التوسع في الاجتهاد ، والقدرة على الاستنباط :

استفاد مجاهد كثيراً من شيخه ابن عباس ، وأخذ عنه التفسير كله ، فانشغل في توظيف هذا المستفاد ، مع ما عنده من ملكة عقلية وقدرة اجتهادية في التصدي للتفسير ، وقد اشتغل بالدراية أكثر من الرواية (وقد سبقت الإشارة إلى أن مجاهداً من أقل تلاميذ ابن عباس رواية عنه مع إنه من أكثرهم أخذاً عنه) .

وامتاز مجاهد عن سائر أقرانه من المفسرين بأنه أعطى لفهمه وعقله كثيراً من حرية النظر ، والتأمل ، وهو من أوائل من أدخل التفسير بالاجتهاد في التفسير المأثور[٣] .

وقد أخرج أبو نعيم بسنده ، عن الأعمش ، عن مجاهد قال : أفضل العبادة الرأي الحسن[٤] ولما قدم الكوفة ، واستقر فيها ، كان من أسهلهم في القياس ، والرأي : مجاهد ، ومن أشدهم الشعبي[٥] .

وكان دائم التفكر والتأمل ، حتى إن الناظر له يحسبه مغتماً يقول الأعمش : كنتُ

---

(١) السير (٦/ ٣٢٦) .

(٢) المرجع السابق (٤/ ٤٥١) .

(٣) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين (١٩٧) ، وينظر ما ذكره الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ١٠٦) ، ود . محيي الدين بلتاجي ، في كتابه دراسات في التفسير وأصوله (٥٧) .

(٤) الحلية (٣/ ٢٩٣) ، وتأويل مختلف الحديث (٦٩) ، والبداية (٩/ ٢٥٢) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (٦٩) .

إذا رأيت مجاهداً ازدريته مُتبذلاً، كأنه خَرْبَنْدج ضل حماره وهو مُغتم[١]، ثم قال: فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ[٢].

فهذا الاهتمام، والنظر الدائم عنده جعله من أكثر التابعين على الإطلاق توسعًا في الاجتهاد، ومن أكثرهم إعمالاً للرأي في التفسير، ولذا كان من أكثرهم تعرضًا لحل مشكل القرآن، فكثر المروي عنه في ذلك، حتى أغرب في بعضه، وهذا مما جعل بعض الأئمة يعتب عليه، فقد قال الإمام الذهبي في معرض ترجمته: لمجاهد أقوال وغرائب في العلم والتفسير تستنكر[٣].

ولقد كان في بعض تفاسيره مُستمسك لبعض الفرق الضالة، وفي ذلك يقول الأستاذ موسى لاشين: وهذا مما جعل بعض الفرق الضالة كالمعتزلة تستأنس برأيه في بعض تلك الأقوال[٤].

٩ ـ حافظته:

ومما تميز به ـ رحمه الله ـ قدرته على حفظ ما يسمعه، فلقد وهبه الله من ملكة الحفظ ما ساعده على استيعاب ما يسمع، وقياس غيره عليه.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وددت أن ابني سالمًا، وغلامي نافعًا، يحفظان حفظك[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)، والمعرفة (١/ ٧١١)، والحلية (٣/ ٢٧٩)، وصفوة الصفوة (٢/ ١١٧)، والمراد كأنه فلاح ضل حماره فاغتم لذلك والله أعلم.

(٢) ميزان الاعتدال (٣/ ٤٤٠)، والتذكرة (١/ ٩٢).

(٣) السير (٤/ ٤٥٥).

(٤) اللآلي الحسان في علوم القرآن (٣٣٦).

(٥) تاريخ ابن معين (٢/ ٥٥١)، والعبر (١/ ٩٥)، وطبقات الحفاظ (٣٥)، ورواه الإمام أحمد في العلل بلفظ مقارب (١/ ٣٦٢) ٦٨٧.

وعن مجاهد قال: كنت أتحدى الناس بالحفظ[١].

١٠ ـ عدم دخوله في الفتن:

كان ـ رحمه الله ـ يكره الدخول في الفتن[٢]، ويؤثر السلامة منها، ولما عاب عليه بعضهم عدم شهوده موقعة الجماجم قال ـ رحمه الله ـ: من الخير تخلفت عنها[٣].

١١ ـ تأخر وفاته:

إن طول العمر مع حسن العمل عامل من عوامل السبق، وقد جاوز مجاهد الثمانين، فكان لذلك أثر على التلقي عنه، والنهل من معينه، فحاز بذلك قصب السبق في التفسير.

فعن ابن جريج قال: بلغ مجاهد ثلاثًا وثمانين سنة[٤].

وقد اختلف في سنة وفاته، فقال الهيثم بن عدي: مات سنة مائة، وقال يحيى بن بكير: مات سنة إحدى ومائة، وقال أبو نعيم: مات سنة اثنتين[٥]، وقال أحمد: مات سنة ثلاث[٦].

وقال ابن حبان: مات بمكة سنة اثنتين، أو ثلاث ومائة، وهو ساجد وكان مولده سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر[٧]، وقال يحيى القطان: مات سنة أربع ومائة[٨]، وهو

---

(١) تاريخ مصر وولاتها للكندي (٣٩)، والمستدرك (٣/ ٤٩٥)، وتاريخ دمشق (١٦/ ٤٥٨).
(٢) العلل لأحمد (٢/ ٧٨) ١٦٠٧.
(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ٧١١)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٩٠).
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، والكامل في التاريخ (٥/ ٧٦)، ومرآة الجنان (١/ ٢٤٣)، والشذرات (١/ ١٢٥).
(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٣).
(٦) طبقات خليفة (٢٨٠)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤١١)، والتاريخ الصغير (١/ ٢٤٢)، والعبر (١/ ٩٤)، ومرآة الجنان (١/ ٢٤٣)، والشذرات ١/ ١٢٥).
(٧) مشاهير علماء الأمصار (٨٢)، والثقات (٥/ ٤١٩).
(٨) تاريخ خليفة (٣٣٠)، والتهذيب (١٠/ ٤٣).

ساجد[1] ، تغمده الله بواسع رحمته .

لهذه الأسباب وغيرها كان مجاهد ـ رحمه الله ـ من أكثر التابعين تعرضًا للتفسير ، والله أعلم . . .

* * *

(١) الثبات عند الممات (١٣٨) .

سعيد بن جبير

هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة[١] ، أبو عبد الله[٢] . روى عن أنس بن مالك، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وعدي بن حاتم، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وعائشة[٣] .

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في نسبته المكانية، فمنهم من نسبه إلى الكوفة، وهم الأكثرون، قاله ابن سعد[٤] ، وابن معين[٥] ، وأبو زرعة الرازي[٦] ، والعجلي[٧] ، والكلاباذي[٨] ، وابن القيم[٩] ، وابن الجوزي[١٠] ، وابن الجزري[١١] ، وابن حجر[١٢] .

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، والأنساب للسمعاني (٣/ ١٨٨)، واللباب في تهذيب الأنساب (٣/ ٣٥).

(٢) الكنى لمسلم (ق ٦٠)، والكنى للدولابي (٢/ ٥٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٦).

(٣) تهذيب الكمال (١٠/ ٣٥٨)، والتهذيب (٤/ ١١).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦).

(٥) تاريخ ابن معين (٢/ ١٩٧).

(٦) الجرح (٤/ ١٠).

(٧) تاريخ الثقات (١٨١).

(٨) رجال صحيح البخاري (١/ ٢٨٢).

(٩) أعلام الموقعين (١/ ٢٠).

(١٠) كتاب القصص (٢٤٨).

(١١) غاية النهاية (١/ ٣٠٥).

(١٢) التهذيب (٤/ ١١)، والتقريب (٢٣٤).

وذهب آخرون إلى عده مكيًا، منهم خليفة بن خياط[١] ، وابن عبد البر[٢] ، وابن حبان[٣] ، وابن كثير[٤] ، والذي يهمنا هنا النظر إلى مسلكه، ومنهجه، ولأي المدارس يمكن أن يضاف بهذا الاعتبار.

فعند الرجوع لتفسيره نلمس تأثره البالغ بإمام المدرسة المكية ابن عباس - رضي الله عنهما - وغلبة المنهج المكي على مسلكه عمومًا، ويتضح هذا من خلال ما يلي:

١- كثرة روايته لتفسير ابن عباس:

كان من أكثر مفسري التابعين اهتمامًا ونقلاً عن ابن عباس[٥] - رضي الله عنهما - وقد لاحظ ابن عباس - رضي الله عنهما - هذا الاهتمام والتوجه، فكان يوصيه بقوله: انظر كيف تُحدث عني، فإنك قد حفظت عني حديثًا كثيرًا[٦] .

ولذا قال ابن خلكان: سمع من ابن عباس التفسير، وأكثر روايته عنه[٧]. وقال الذهبي وابن الأثير: روى عن ابن عباس فأكثر وجوّد[٨] وعدّه ابن كثير: من أكابر أصحاب ابن عباس[٩] ، وكان رحمه الله من أكثر تلاميذ ابن عباس دقة، وتحريًا في نقله عن شيخه، يقول علي بن المديني: وأصحاب ابن عباس، الذين يذهبون مذهبه،

(١) طبقات خليفة (٢٨٠).
(٢) العقد الثمين (٤/ ٥٥٠).
(٣) مشاهير علماء الأمصار (٨٢).
(٤) البداية (٩/ ١٠٨).
(٥) بعد مراجعتي للطبري، وجدت أن المروي عن ابن عباس بلغ (٥٨٠٩) روايات كان نصيب ابن جبير ما نسبته (١٢ , ٠) من مجموع تفسيره، في حين كان نسبة ما رواه عنه عكرمة (٠٩ , ٠)، وما رواه مجاهد (٠٣ , ٠)، وما رواه عطاء (٠٢ , ٠) من مجموع تفسيره.
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٧).
(٧) وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، والشذرات (١/ ١٠٨).
(٨) السير (٤/ ٣٢٢)، واللباب في تهذيب الأنساب (٣/ ٣٥٠).
(٩) البداية (٩/ ١٠٩).

ويسلكون طريقه: عطاء، وطاوس، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، وسعيد، فأعلم هؤلاء سعيد بن جبير، وأثبتهم فيه[١].

ويقول أيضًا: ليس في أصحاب ابن عباس مثل سعيد بن جبير قيل: ولا طاوس؟ قال: ولا طاوس، ولا أحد[٢].

وفي مقابل هذا الاهتمام بنقل تفسير ابن عباس، نلحظ قلة روايته لتفسير ابن مسعود رضي الله عن الجميع[٣].

٢ـ محبته لابن عباس، وحرصه على كتابة حديثه:

أحب سعيد شيخه ابن عباس حبًا شديدًا، فكان يقول: إن كان ابن عباس ليحدثني الحديث، فلو يأذن لي أن أقبل رأسه لفعلت[٤]. وكان حريصًا على حفظ، وتدوين كل ما يسمعه من أستاذه، فعن أبي حصين قال: سألت سعيد بن جبير، قلت: أكل ما أسمعك تحدث سألت عنه ابن عباس؟ فقال: لا، كنت أجلس ولا أتكلم حتى أقوم، فيتحدثون فأحفظ[٥].

وقد بلغت عنايته بالكتابة عن ابن عباس أن كتب عنه ودوَّن علمه، فعن سعيد: أنه

---

(١) العلل لابن المديني (٤٩).

(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤٧).

(٣) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن المروي عن ابن مسعود (٨٥٦) رواية، جاء من طريق مُرة الهمذاني (٢١٦) رواية، وعن مسروق (٨٦) رواية، وعن إبراهيم النخعي (٧٧) رواية، وعن أبي عبيدة (٤٥) رواية، وعن شقيق بن سلمة، وعن زر بن حبيش (٣٤)، ولم أجد لسعيد ابن جبير سوى أربع روايات هي الآثار: ١٤٦٣٢، ١٤٦٩٠، ١٧٩٣٧ (٣٠/ ٢٢٦)، بل إن قتادة، ومجاهدًا، كانا أكثر منه.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٠)، وفضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٥١) ١٨٤١، والمعرفة والتاريخ (١/ ٥٣٣، ٥٤٠).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٧).

كان يسأل ابن عباس قبل أن يعمى، فلم يستطع أن يكتب معه، فلما عمي ابن عباس كتب، فبلغ ذلك ابن عباس، فغضب[١].

وكان يقول عن نفسه: ربما أتيت ابن عباس، فكتبت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي[٢].

٣ـ كثرة تردده على مكة:

فمع عيشه في الكوفة، فقد كان كثير التردد، والترحال إلى مكة، يقول هلال بن خباب: خرجت مع سعيد بن جبير في أيام مضين من رجب فأحرم من الكوفة بعمرة، ثم رجع من عمرته، ثم أحرم بالحج في النصف من ذي القعدة، وكان يخرج كل سنة مرتين: مرة للحج، ومرة للعمرة[٣].

بلغ به الحرص على التلقي عن ابن عباس أن كان يرحل إليه في المسألة، فعنه قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء[٤].

٤ـ الأثر المكي على منهجه في التفسير:

ومن الأدلة كذلك، ما نجده من التقارب، بل والتطابق في المنهج بين ابن جبير، وتابعي المدرسة المكية، ويتضح هذا التقارب، والتوافق في العديد من الجوانب التفسيرية، منها:

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٥)، والبداية (٩/ ١٠٨) والشذرات (١/ ١٠٨).

(٢) العلل لأحمد (١/ ٢٣١) ٨٩، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٩) وتقييد العلم (١٠٢).

(٣) الزهد لأحمد (٤٤٣)، والحلية (٤/ ٢٧٥)، والمنتظم (٧/ ٦)، وتهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٥)، والبداية (٩/ ١٠٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا (٥/ ١٨٢) وصحيح مسلم، كتاب التفسير (٤/ ٢٣١٧)، والرحلة للخطيب البغدادي (١٣٩).

١ ـ التوسع في الرواية عن بني إسرائيل ، على عكس المنهج الكوفي الحذر والبعيد عن هذا المصدر في التفسير[١] .

٢ ـ القول بوقوع المعرب في القرآن ، وتفسير بعض الكلمات القرآنية بما علم من اللغات الأعجمية[٢] .

٣ ـ عند تعرضه لحل مشكل القرآن ، قال بقول المدرسة المكية في جل تأويلاته ، ولم يقل بقول الكوفية إلا في القليل النادر .

٤ ـ نقله للقراءات القرآنية : اهتم بقراءة ابن عباس ، وبما روي عنه من توضيح للمعنى ، وقال بقول ابن عباس وتلاميذه في أكثرها .

٥ ـ في الجانب الفقهي الذي قد يظن فيه تأثره بمدرسة الرأي في الكوفة فإن الواقع كان غير هذا ، فقد وجدت أنه يميل في تأويل آيات الأحكام في جملة كبيرة من تفسيره إلى قول ابن عباس .

هذه بعض أوجه الشبه ، والتقارب ، بين ابن جبير والمدرسة المكية ، ومن خلال هذا وغيره ، يقطع بأنه مكي المنهج ، والمسلك ، وأن إضافته على هذا الاعتبار لمدرسة الكوفة فيها بُعد ، وإن كان لا يُنكر التأثير الذي أحدثه عيشه فترة من الزمن في الكوفة ، ولعل من آثار ذلك :

أ ـ تميزه عن تلاميذ المدرسة المكية في العناية بالقراءات ، حتى عدّ الثاني بين التابعين في ذلك بعد أبي العالية .

---

(١) يأتي لذلك مزيد بحث بعد ورقات .

(٢) لم يرد عن المدرسة الكوفية القول بوقوع المعرب إلا في القليل ، وأما سعيد فأكثر من ذلك ، كما صنع المكيون .

ب ـ تميز عن أقرانه المكيين بالاهتمام، والتقدم في الجانب الفقهي، فقد شغل هذا الاهتمام جزءاً كبيراً من تأويلاته[١] .

وهاتان الميزتان من أهم جوانب الأثر الكوفي في تفسير سعيد[٢] .

بعد هذا الاستعراض المجمل يحسن بنا تفصيل المقال بعض التفصيل مع الإفاضة في إيضاح أبرز المعالم المنهجية في تفسيره رحمه الله :

١ـ تقدمه في معرفة القراءة :

وقد سبق أن ذكرنا أنه قرأ على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعدّ من المتقدمين في القراءة، فعن أبي بكر بن أبي داود قال: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، ثم السدي، ثم سفيان الثوري[٣] .

وقال إسماعيل بن عبد الملك: كان سعيد يؤمنا في رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد[٤] .

وعن سالم الأفطس، أن سعيد بن جبير كان يقرأ القرآن على حرفين[٥] .

وقد قرأ عليه أبو عمرو، والمنهال بن عمرو[٦] .

---

(١) المكيون لم يكن لهم كبير عناية بالفقه والإقراء، كما هي الحال عند الكوفيين.

(٢) ويأتي لذلك مزيد بسط إن شاء الله.

(٣) تهذيب التهذيب (٣/ ٣٨٥)، والعبر (١/ ٨١)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤)، والشذرات (١/ ١٠٢).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٤/ ٢٦٦)، وغاية النهاية (١/ ٣٠٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٥٧)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٥)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨٢).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٥٣) ٥٣.

(٦) غاية النهاية (١/ ٣٠٥)، ومعرفة القراء (١/ ٥٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨١).

والمتأمل فيما روي عنه من قراءة[١] في التفسير يجد أن غالبه جاء في بيان معنى الآية، وإيضاح تأويلها. وكانت عنايته بهذا أكثر من عنايته بتصحيح نطقها.

وعلى الرغم من أنه كان يقرأ بقراءة زيد، وابن مسعود، إلا أن تأثره بقراءة ابن مسعود كان قليلاً، ومال إلى ترجيح معاني كثير من الآيات بما ورد من قراءة عن ابن عباس[٢].

ويلاحظ من خلال النظر، والتتبع لما ورد عنه من قراءات، أنه قل أن يسندها لأحد، إنما تروى على أنها من قراءته. من ذلك ما جاء عنه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾[٣]. فعن أبي بشر، عن سعيد بن جبير أنه قرأ: «دارست»، وقال: قارأت[٤].

وعند قوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[٥]، قرأ سعيد «حتى يلج الجُمَّلُ» بضم الجيم وتشديد الميم، وقال سعيد بعد أن قرأ: الجُمّل: يعني قلوس السفن، يعني: الحبال الغلاظ[٦]. وكان يراجع ابن عباس ـ رضي الله عنهما

(١) رجعت إلى تفسير الطبري، فوجدت أن المروي عنه (٢٤) رواية.

(٢) وللوقوف على بعض المواطن التي وافق فيها ابن عباس تنظر الآثار التالية في تفسير الطبري: ٢٧٧٠، ٨١٣٧، ٨٣٢٧، ٩٠٤٣، ١١٦٧٥، ١٣٧٢١، ١٣٧٢٢، ١٣٧٢٣، ١٤٦٤٢، ١٨٣٨٠، والصفحات (١٣/ ٢٥٧)، (١٨، ١٠٩)، (١٨/ ١٣٣).

(٣) سورة الأنعام: آية (١٠٥).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٩) ت ١٣٧٢١، وتفسير الماوردي (٢/ ١٥٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٥)، وقد تبع في ذلك ابن عباس؛ حيث قرأها «دارست» وفسرها بقوله: قارأت وتعلمت، ينظر تفسير الطبري (١٢/ ٢٨) الآثار من ١٣٧١٣ إلى ١٣٧١٩.

(٥) سورة الأعراف: آية (٤٠).

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٤٣٢) ١٤٦٤٢، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٢٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٣٣)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤١٠).
وقد تبع في ذلك ابن عباس، كما هي عند الطبري (١٢/ ٤٣١) ١٤٣٧، وخالف ابن مسعود، حيث قرأ: «حتى يلج الجمل الأصفر»، ينظر تفسير الطبري (١٢/ ٤٣٠) ١٤٦٣٢.

ـ في قراءة أصحاب عبد الله، فعنه قال: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد الله يقرءون «وإذ أخذ ربك من الذين أوتوا الكتاب ميثاقهم»[١] قال: من النبيين على قومهم[٢].

٢ـ الاهتمام بتفسير آيات الأحكام والإكثار من ذلك:

لعل عيشه في الكوفة كان من الأسباب التي أظهرت هذا الاهتمام في نفسه، حتى تميز بين مفسري مكة بهذا الجانب[٣] ومما يلمحه الناظر في تأويله، أنه مع عيشه في الكوفة، وعد بعض الأئمة إياه من فقهائها، فإنه مال إلى ترجيح، واختيار أقوال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومال إلى مذهب المكيين أكثر من ميله إلى قول الكوفيين[٤]. ولم يقل بقولهم إلا في القليل النادر[٥].

بل إنه تقدم في هذا الجانب على غيره من تلاميذ ابن عباس، وعد في هذا أعلم منهم[٦]. وكان بعضهم يرجع عن قوله إلى قول سعيد، فعند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ

---

(١) عند قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ سورة آل عمران: آية (١٨٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٦١) ٨٣٢٧، وفي رواية أخرى عند الطبري عن سعيد قال: قلت لابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾، قال: فقال: أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. المصدر السابق (٧/ ٤٦١) ٨٣٢٨.

(٣) يأتي سعيد في المرتبة الثانية في المدرسة المكية بعد عطاء بن أبي رباح من حيث الإكثار في تأويل آيات الأحكام، فقد روى عنه عند الطبري أكثر من (٨٢) رواية، أي: ما نسبته (٠,٠٩) من مجموع تفسيره.

(٤) لمزيد من الأمثلة تُراجع الآثار في الطبري: ٢٦١٣، ٢٨٨٠، ٢٨٨٧، ٣١٩٥، ٣٢٠٨، ٤٢٢٠، ٤٤٣٨، ٤٤٤٥، ٤٥٢٣، ٤٨١٨، ٧٤٦٧، ٨٦٠٦، ٨٦١٠، ٨٦١٥، ٨٦١٩، ٨٦٦٥، ٨٦٩٨، ٨٧٠٣، ٩٤٢٠، ١١٣٩٩، ١١٨٣٩، ١١٨٤٣، ١٢٦٣١، ١٢٦٣٤، ١٢٦٤٦، ١٢٦٤٧، . . . وغيرها.

(٥) كما جاء ذلك في الآثار ٣٢١٦، ٣٣٦٨، ٣٣٦٩، ١٢٤٠٠، ١٢٤٠١.

(٦) الجرح (٤/ ١٠).

﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[١] قال سعيد: هو الزوج، وقال مجاهد، وطاوس: هو الولي، فقال أبو بشر لسعيد: فإن مجاهدًا وطاووسًا يقولان: هو الولي؟ قال سعيد: أرأيت لو أن الولي عفا وأبت المرأة، أكان يجوز ذلك؟ فرجعت إليهما، فحدثتهما، فرجعا عن قولهما، وتابعا سعيدًا[٢].

بل كان هو المقدم، حتى في الكوفة، فعن جعفر بن أبي المغيرة قال: كان ابن عباس ـ بعدما ذهب بصره ـ إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يعني: سعيد بن جبير[٣].

وقال مغيرة بن مقسم: ما كان مفتي الناس بالكوفة قبل الجماجم إلا سعيد بن جبير كان قبل إبراهيم[٤].

وكان ابن عمر يُسأل عن الفرائض، فيحيل السائل على سعيد[٥].

وكان إبراهيم النخعي يقول بعد وفاة سعيد: ما خلف سعيد بعده مثله[٦]. وقال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد، وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه[٧]. ولذا كان يعد في زمانه جهبذ العلماء[٨].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٣٧).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١٥٥) ٥٣٤٦، ٥٣٤٨، ٥٣٤٩، والمصنف لابن أبي شيبة (٤/ ٢٨١)، والجرح (٤/ ١٠)، والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٥١)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي شيبة بنحوه (١/ ٦٩٩).

(٣) الجرح (٤/ ٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦)، وتهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٤)، والعقد الثمين (٤/ ٥٥٠)، وطبقات الحفاظ (٣١).

(٤) المعرفة (١/ ٧١٣).

(٥) المعرفة (١/ ٧١٣).

(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٨)، وأخبار القضاة (٢/ ٤١١)، والجرح (٤/ ٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦).

(٧) تاريخ الإسلام (ح ٩٥ هـ/ ٣٦٧).

(٨) المعرفة (١/ ٧١٢)، وتاريخ ابن معين (٢/ ١٩٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٤)، وطبقات الحفاظ (٣١)، والعقد الثمين (٤/ ٥٥٠).

وأختم هذا المبحث بالتنبيه على أن سعيداً ـ وإن عاش في الكوفة فقد غلب الأثر في تأويله لآيات الأحكام على الرأي[١]، ولذا نجد بعض أئمة الحديث مثل سفيان الثوري، يقدم فقهه، وآراءه على فقه إبراهيم النخعي[٢].

٣ـ تساهله في الرواية عن بني إسرائيل:

كان ـ رحمه الله ـ من أكثر مفسري مكة توسعًا في ذلك[٣]، وكان محبًا للقص، والتحديث بالأخبار، فعن أبي شهاب قال: كان سعيد بن جبير يقص لنا كل يوم مرتين بعد صلاة الفجر، وبعد العصر[٤].

وقد أفضى به ذلك إلى إيراد شيء من الروايات الغريبة والمنكرة؛ فمن ذلك ما جاء عند تأويل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[٥] قال: رأى صورة فيها وجه يعقوب، عاضًا على أصابعه، فدفع في صدره فخرجت شهوته من أنامله، فكل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر رجلاً، إلا يوسف، فإنه نقص بتلك الشهوة، ولم يولد له غير أحد عشر[٦].

وعند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ

---

(١) الجرح (٤/ ١٠)، وتاريخ أسماء الثقات لابن شاهين (٩٨)، والتذكرة (١/ ٧٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨١).

(٢) التاريخ الكبير (٣/ ٤٦١)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦).

(٣) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت أن نسبة ما رواه سعيد بن جبير من ذلك بلغت (٠,٠٦) من مجموع تفسيره، في حين بلغ المروي عن مجاهد وعكرمة (٠,٠٣) من مجموع تفسيريهما، وعن عطاء ما نسبته (٠,٠١) من مجموع تفسيره.

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٩)، والمنتظم (٧/ ٦)، والزهد لأحمد (٥/ ٢)، وكتاب القصاص لابن الجوزي (٢٤٩)، والحلية (٤/ ٢٤٩).

(٥) سورة يوسف: آية (٢٤).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣) ١٩٠٥٢، وتفسير الماوردي (٣/ ٢٥)، وتفسير البغوي (٢/ ٤٢٠)، وزاد المسير (٤/ ٢٠٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١١٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن سعيد به (٤/ ٥٢١).

﴿فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١] قال: بعثه الله ـ يعني: يونس ـ إلى أهل قريته، فردُّوا عليه ما جاءهم به، وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم؛ فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم، فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وُعدوا بالعذاب في صبحها أدلج ورآه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم وفرّقوا بين كل دابة، وولدها، ثم عجوا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظَّر يونس الخبر عن القرية، وأهلها، حتى مرَّ به مار، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز، فخرج يونس ينظر العذاب فلم ير شيئًا قال: جرّبوا على كذبًا، فذهب مغاضبًا لربه حتى أتى البحر[٢].

ومع أن ابن جبير عاش في الكوفة زمنًا، إلا أنه لم يتأثر بمدرستها في هذا الجانب إلا قليلاً؛ حيث إنها من أكثر المدارس بعدًا عن نقل أخبار بني إسرائيل.

ولعل ابن جبير قد تأثر في هذا بشيخه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لاسيما وأنه من أكثر الناقلين عن ابن عباس للإسرائيليات بل إن جلّ المروي في الإسرائيليات عن ابن عباس جاء من رواية ابن جبير وكان من أكثر المكيين رواية وعناية بها[٣].

---

(١) سورة الأنبياء: آية (٨٧).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٧٧).

وللمزيد من الأمثلة تراجع الآثار: ١٣٤٥١، ١٥٣٦٤، ١٥٣٦٥، ١٥٣٦٦، ١٥٥١١، ١٧٣٥٩، ١٨٣٤١، ١٩٠٤٥، ١٩٠٦٦، ١٩٠٧٨، ١٩٠٧٩، ١٩٠٨٢، ١٩٤٣١، ١٩٤٣٢، ١٩٤٣٣، ١٩٤٣٦، ١٩٧٣١، (١٣/ ٢٤٥)، (١٥/ ٣٥)، (١٦/ ٢٢٢)، (١٧/ ٢٦)، (٢٢/ ٥١)، (٢٣/ ١٠٣)، (٢٣/ ١٠٤)، (٣٠/ ٢٩٤).

(٣) المروي عن ابن عباس من أخبار بني اسرائيل أكثر من (٣٥٢) رواية، جاء ما يزيد عن (٢٦, ٠) منها من رواية ابن جبير، في حين بلغ المروي من طريق عكرمة (١٠, ٠) ومن طريق مجاهد (٠٣, ٠) فقط.

وابن جبير يعد الثاني بعد مجاهد في المدرسة المكية، ومن أهم الأسباب التي أعانته على التقدم في باب التأويل ما يلي:

١ـ قربه من ابن عباس:

فكان من أكثر مفسري المدرسة المكية كتابة، وحفظًا، وإتقانًا لما يرويه عنه[١].

وقد بلغ من اطمئنان ابن عباس إليه أنه كان يأمره بالحديث وهو شاهد حاضر، فعن مجاهد قال: قال ابن عباس لسعيد بن جبير: حدّث، فقال: أحدث وأنت ها هنا، فقال: أوليس من نعمة الله عليك أن تتحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك[٢].

٢ـ حرصه على نشر علمه:

كان ـ رحمه الله ـ محبًا لتبليغ ما علم، ويتحزن حين لا يُسأل، فعن عطاء بن السائب، قال: قال لي سعيد بن جبير، ألا تعجب أن أمكث من الجمعة إلى الجمعة ما يسألني أحد عن شيء[٣].

وكان يقول: سلوني يا معشر الشباب، فإني قد أوشكت أن أذهب من بين أظهركم[٤].

وكان يقول: وددت أن الناس أخذوا ما عندي من العلم، فإنه مما يهمني[٥].

---

(١) سبق الإشارة إلى ذلك.

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦)، والجرح (٤/ ٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٥).

(٣) العلل لأحمد (١/ ١٨٢) ١٤٤، ورواه ابن سعد مختصراً (٦/ ٢٥٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٤٦) ٤٦٦٦، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣١٨).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٥/ ١٠٥)، والمعرفة (١/ ٧١٣).

(٥) الحلية (٤/ ٢٨٣)، وتهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٧)، والبداية (٩/ ١٠٩).

ولما أنكر عليه بعض فقهاء الكوفة حرصه هذا، أخبر بأن ذلك أحب إليه من كتمه، وذهابه به معه إلى قبره؛ فعن حبيب قال: كان أصحاب سعيد بن جبير يعذلونه[١] يحدث، فقال: إني أحدثك وأصحابك، أحب إلي من أن أذهب به معي إلى حُفرتي[٢].

وعن كثير بن كثير قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان في أناس مع سعيد بن جبير ليلاً، فقال سعيد بن جبير للقوم: سلوني قبل ألا تسألوني، فسأله القوم، فأكثروا[٣].

٣ـ قربه من عكرمة:

فقد أفاد سعيد من تلك العلاقة بينه، وبين عكرمة، الذي كان متزوجًا بأم سعيد[٤]، ولذا نجد تقاربًا كبيرًا بينهما في كثير من التأويلات[٥].

٤ـ كتابته للتفسير:

وهذا مما ساعد على حفظ تفسيره، فكان ـ رحمه الله ـ يكتب ويحرص على تدوين ما يسمعه، خشية نسيانه، مع أن الكتابة عن الصحابة كانت قليلة، وكان بعضهم لا يرضى أن يكتب رأيه وعلمه، وكان يكتب عن ابن عمر في صحيفة، ويقول: لو علم بها كانت الفيصل بيني، وبينه[٦].

---

(١) عذل: عَذَلْتُ الرجل: إذا لمته، ينظر مجمل اللغة (٣/ ٦٥٦)، والمصباح المنير (١/ ٤٧٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٢).

(٤) مشاهير علماء الأمصار (٨٢)، والثقات (٥/ ١٣٠)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧١) والسير (٥/ ١٦).

(٥) سوف يأتي تفصيل ذلك، عند الحديث عن أصحاب ابن عباس، والمقارنة بينهم في المدرسة المكية ص (٤٠٢).

(٦) طبقات بن سعد (٦/ ٢٥٨)، والمصنف لابن أبي شيبة (٩/ ٥٤) ٦٥٠١، والسير (٤/ ٣٣٥).

وكان بعض تلاميذه يكتبون عنه التفسير، فيقرهم على ذلك، فكان ابن يحيى يختلف إلى سعيد بن جبير، معه التفسير في كتاب، ومعه الدّواة يُغير[١].

وقد كتب تفسيراً للقرآن، أرسل بنسخة منه إلى عبد الملك بن مروان بناءً على طلبه، وقد انتشر تفسيره هذا في الشام ومصر، رواه عطاء بن دينار بعد أن أخذه من ديوان عبد الملك فأرسله عن سعيد[٢].

ومع هذا القرب من ابن عباس، والحرص على نشر تراث تلك المدرسة إلا أن ثمة أسبابًا وعوامل، كان لها الأثر في تقدم بعض أصحاب ابن عباس عليه، من أهمها:

١ـ عدم تخصصه في التفسير:

فمع تقدم سعيد في مدرسة مكة، إلا أن عدم تخصصه، وتفرغه لعلم التفسير، كحال مشاهير أقرانه[٣]، كان له أثره في قلة نتاجه في علم التأويل خاصة، فقد اعتنى بعلوم أخرى حتى بلغ فيها شأوًا لا يضاهى، مع اشتغاله بعلم التفسير.

وعند الرجوع إلى كتب التراجم نجد شاهد ذلك في تصدير كثير من الأئمة ترجمته، بأبرز العلوم التي تقدم فيها واهتم بها.

يقول أبو نعيم في صدر ترجمته: الفقيه البكاء[٤].

وقال فيه ابن حيان: من عباد وفقهاء التابعين[٥]. وقدم الذهبي ترجمته بقوله: المقرئ الفقيه[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٦٦)، والمعرفة (٣/ ٣٢٦)، والتاريخ الصغير (١/ ٢٢٧).

(٢) الجرح (٦/ ٣٣٢)، والتهذيب (٧/ ١٩٨)، والفهرست لابن النديم (٣٤)، ودراسات في الحديث النبوي (١/ ١٤٩).

(٣) كمجاهد وعكرمة.

(٤) الحلية (٤/ ٢٧٢).

(٥) مشاهير علماء الأمصار (٨٢).

(٦) تذكرة الحفاظ (١/ ٧٦).

وقد أثنى عليه جمع من الأئمة ؛ لتميزه بين التابعين بجمع العديد من العلوم، والتقدم فيها، فعن خصيف بن عبد الرحمن قال: كان أعلمهم بالحج: عطاء، وأعلمهم بالطلاق: سعيد بن المسيب، وأعلمهم بالحلال والحرام: طاووس، وأجمعهم لهذا كله: سعيد بن جبير[١].

وقال النووي في ترجمته: سعيد من كبار أئمة التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه والعبادة[٢].

وأثنى عليه ابن كثير بقوله: كان من أئمة الإسلام في التفسير والفقه وأنواع العلوم والتفسير[٣].

وقال اليافعي: هو المقرئ الفقيه المحدث المفسر[٤].

ومما لا شك فيه أن جمعه لهذه العلوم كان له الأثر في عدم تفرغه لعلم التفسير واشتغاله به.

٢ـ اشتغاله بالرواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

اهتم بنقل تفسير شيخه وروايته أكثر من اهتمامه بالدراية، وقد كان سعيد من أكثر مفسري مكة كتابة، وحفظًا، وإتقانًا لما يروي عنه أستاذها. ومن أكثرهم نقلاً رواية لتفسير ابن عباس[٥]، مع أنه من أقلهم بقاءً في مكة![٦] بسبب رحلته إلى الكوفة،

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥١٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٢)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٥) والشذرات (١/ ١٠٨).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٦).

(٣) البداية (٩/ ١٠٩).

(٤) مرآة الجنان (١/ ٢٢٥).

(٥) روى ما نسبته (١٢,٠) من مجموع تفسير ابن عباس، في حين بلغ نسبة المروي من طريق عكرمة (٠٩,٠)، وعن مجاهد (٠٣,٠)، وعن عطاء (٠٢,٠) من مجموع تفسيره ـ رضي الله عنهما ـ.

(٦) خصوصًا إذا ما قورن بمجاهد وعكرمة وعطاء.

وبقائه فيها زمنًا، ثم اشتراكه في فتنة ابن الأشعث، وغيرها، واختفائه طويلاً عن الحجاج، ومع هذا كان من أكثر التلاميذ حرصًا على رواية تفسير ابن عباس، وقد تميز منهجه في ذلك بالدقة، وشدة التحري في الرواية عامة، وعن شيخه خاصة، ولذا عده ابن المديني من أعلم تلاميذ ابن عباس، وأثبتهم فيه[١].

ومما يدل على شدة إتقانه، وضبطه في رواية السنن، والآثار، تقديم بعض الأئمة مراسيله على مراسيل غيره من أصحابه، وفي ذلك يقول يحيى بن سعيد: مرسلات سعيد بن جبير أحب إلي من مرسلات عطاء ومجاهد[٢].

ولعله استفاد هذا المنهج الدقيق في التحري من مدرسة الكوفة التي عاش فيها، فإن الكوفيين من أكثر المدارس شدة، وتحريًا في الرواية.

ومع أنه روى عن كثير من الصحابة، فقد كان يقدم ابن عباس على غيره في التفسير، ويقول: كان ابن عمر حسن السرد للرواية عن النبي ﷺ، ولم يبلغ في الفقه، والتفسير شأو ابن عباس[٣].

وبلغ من كثرة روايته عن ابن عباس انفراده بين التابعين بإطلاق اسم عبد الله على ابن عباس، وأما إذا روى عن غيره فيقيد[٤].

وكان يميل إلى رواية التفسير عن ابن عباس، ويعتني بها أكثر من عنايته بالاجتهاد، فقد سأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن من تأويله، فغضب وقال: لأن يسقط شقي

---

(١) العلل (٤٩).

(٢) التهذيب (٤/ ١٤).

(٣) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ١٨٤).

(٤) ذكر ذلك الإمام أحمد في كتاب العلل ومعرفة الرجال (٢/ ١١٤٧) ١٨٢١.
وقد تميز بذلك بين التابعين؛ لأن الغالب أن عبد الله إذا أطلق ـ فإنما يراد به ابن مسعود ـ رضي الله عن الجميع.

أحب إليَّ من ذلك[١] .

وسأله رجل عن آية من كتاب الله، فقال سعيد: الله أعلم، فقال الرجل: قل فيها أصلحك الله برأيك، فقال: أقول في كتاب الله برأيي؟ فردد ذلك مرتين[٢] .

والناظر في تفسيره، يجد قلة مخالفته لأقوال شيخه[٣]؛ ولذا قل أن نجد لسعيد رأيًا انفرد به واستغرب عليه.

٣ـ قلة المعتنين برواية تفسيره:

وهذا من الأسباب المشتركة بين جلة من التابعين، في قلة المروي عنهم، وهي عدم تفرغ، أو اشتغال، بعض التلاميذ في تدوين ورواية تفاسيرهم؛ مما أفقدنا الكثير منها[٤] .

٤ـ ما وقع له من الفتن:

كان رحمه الله من جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فلما ظهر الحجاج، هرب سعيد إلى أصبهان، ثم كان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين، وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان، فحدّث بها، واستمر على هذا الحال مختفيًا من الحجاج قريبًا من ثنتي عشرة سنة، ثم أرسله خالد القسري من مكة إلى الحجاج[٥] .

قال الذهبي: طال اختفاؤه، فإن قيام القراء على الحجاج كان سنة اثنتين

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٤٢٥) ٢٢٨٥.

(٣) يتضح ذلك عند مقارنة ذلك بمخالفات مجاهد، وعكرمة لابن عباس، وقلة ذلك عند سعيد.

(٤) فمجاهد وقتادة وعطاء والسدي وجدوا من تخصص في العناية، بنقل ورواية تفاسيرهم، في حين أن آخرين: كعكرمة، وسعيد، وطاوس لم نجد من انقطع وتفرغ لنقل تفاسيرهم.

(٥) البداية (٩/ ١٠٩)، وكتاب المتوارين الذين اختفوا خوفًا من الحجاج (٥٨)، وكتاب الثبات عند الممات، ونهاية الأرب (٢١/ ٣٢٢).

وثمانين، وما ظفروا بسعيد إلا سنة خمس وتسعين[١] ، فقتله الحجاج ظلمًا سنة ٩٤[٢]هـ وقيل: ٩٥ هـ[٣] وهو قول الجمهور، وهو ابن ٤٩ سنة[٤] ، ودفن بواسط - رحمه الله[٥] -.

* * *

(١) السير (٤/ ٣٣٧).

(٢) رجال صحيح البخاري (١/ ٢٨٣)، ورجال صحيح مسلم (١/ ٢٣٨)، والمعارف (١٩٧)، ومروج الذهب (٣/ ١٧٣).

(٣) علل ابن المديني (٨٩)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٦٧) ١٥٧٨١، والتاريخ الصغير (١/ ٢١٠)، وتاريخ خليفة (٣٠٧)، والوفيات لابن قنفذ (١٠١)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣)، ودول الإسلام (٦٥).

(٤) العلل لأحمد (٢/ ٤٤١) ٢٩٥١، وأخبار أصبهان (١/ ٣٢٤)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٠)، وطبقات المحدثين الواردين على أصبهان (١/ ٣١٧)، وأخبار القضاة (٢/ ٤١٢).

(٥) معرفة القراء الكبار (١/ ٥٦)، والغاية (١/ ٣٠٦)، والشذرات (١/ ١١٠)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٦).

عكرمة

هو عكرمة القرشي الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله[١] ، مولى لابن عباس، أصله من بربر المغرب، كان لحصين بن أبي الحر العنبري، فوهبه لابن عباس لما ولي البصرة لعلي ابن أبي طالب[٢] .

وعكرمة من أعلام المدرسة المكية، وقد نال من ثناء الأئمة من معاصريه، ومن بعدهم حظًا لم ينله عالم قبله، ولا سيما في باب العلم بتفسير كتاب الله.

وفي ذلك يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[٣] .

وقال قتادة: أعلم الناس بالتفسير عكرمة[٤] .

وقيل لسعيد بن جبير: تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال: نعم! عكرمة[٥] .

ويقول جابر بن زيد: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه[٦] .

---

(١) الكنى للإمام مسلم (ق ٦٠)، والكنى للدولابي (٢/ ٥٨).

(٢) تهذيب الأسماء (١/ ٣٤١)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٦٤)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٩)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣).

(٣) طبقات علماء الحديث (١/ ١٦٨)، والمنتظم (٧/ ١٠٢)، والميزان (٣/ ٩٥)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١)، ومعجم الأدباء (١٢/ ١٨٦).

(٤) المعرفة والتاريخ (١/ ٧٠١)، والتمهيد (٢/ ٣١)، ورياض النفوس (١/ ١٤٥)، وصفة الصفوة (٢/ ١٠٤)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

(٥) رياض النفوس (١/ ١٤٥)، والحلية (٣/ ٣٢٦)، والتذكرة (١/ ٩٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥).

(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٨)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤٩)، والتمهيد (٢/ ٢٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧١).

وقال أبو حاتم: أصحاب ابن عباس عيال في التفسير على عكرمة[١].

وعده ابن عبد البر من المقدمين بين سائر التابعين في التفسير والسير[٢].

وكان لهذا التفوق أسباب من أهمها:

١ ـ طول ملازمته لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وحبه له:

فقد لمس ابن عباس في عكرمة مخايل الذكاء والنجابة، فكان يحثه ويحرضه على التعلم، وبلغ من شدة حرصه على ذلك أن كان يقيده لتعلم العلم.

قال عكرمة: كان ابن عباس يضع في رجلي الكبل على تعليم القرآن، والسنن[٣].

حتى إذا اطمأن إلى علمه، وفقهه، أمره بالانطلاق لإفتاء الناس، وفي ذلك يقول عن نفسه: قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ لي: انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون. قال: قلت: لو أن مع الناس مثلهم مرتين لأتيتهم، قال: انطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح ثلثي مؤنة الناس[٤].

وعن عبد الرحمن بن حسان قال: سمعت عكرمة يقول: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب، وابن عباس في الدار[٥].

---

(١) الجرح (٧/ ٩)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٩)، والتعديل والجرح (٣/ ١٠٢٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٥٥).

(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ٥٢٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٦٧)، والمنتظم (٧/ ١٠٢)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١)، والتحفة اللطيفة (٣/ ٢٠٦).

(٤) الجرح (٧/ ٨)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٦٨)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

(٥) تاريخ دمشق (١١/ ٧٦٨)، والسير (٥/ ١٤)، وطبقات الحفاظ (٣٧).

وكان لكثرة ملازمته لابن عباس يعرف ما يتقدم فيه ابن عباس على غيره، وما يتقدم فيه غيره عليه.

فكان يقول: ابن عباس أعلم بالقرآن من علي بن أبي طالب، وكان علي أعلم بالمبهمات[١].

٢ ـ تقدمه في معرفة أسباب النزول:

من أبرز المعالم في تفسير عكرمة، عنايته، واهتمامه بعلم أسباب النزول، هذا العلم الذي يعد من أقوى الطرق لفهم معاني آيات القرآن. وقد تميز في ذلك عن غيره من التابعين[٢].

وقد صرف عكرمة إلى هذا العلم معظم عنايته، وغاية جهده وطاقته، بل وجاء كثير مما روي عن ابن عباس في أسباب النزول من روايته ومن طريقه[٣].

وبعد الرجوع إلى المصنفات في أسباب النزول، وجدت أن عكرمة من أكثر التابعين عناية، واعتماداً على معرفة الأسباب في تفسيره[٤].

ومما يدل على اهتمامه بهذا، ما جاء عن حبيب بن أبي ثابت، قال: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع مثلهم أبداً: عطاء، وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٢)، والمعرفة (١/ ٤٩٥، ٥٢٧).

(٢) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت أن (١٤, ٠) من مجموع تفسير عكرمة كان في بيان أسباب النزول، في حين بلغ عن سعيد بن جبير وقتادة (٠٧, ٠)، وعن مجاهد وعطاء (٠٥, ٠)، وعن الحسن (٠٣٥, ٠).

(٣) المروي من تفسير ابن عباس في أسباب النزول جاء (٢٥, ٠) منه من رواية عكرمة، و(١٩, ٠) من رواية سعيد بن جبير، و (٠٢, ٠) من رواية عطاء.

(٤) بعد مراجعة كتابي أسباب النزول للواحدي، ولباب النقول للسيوطي، وجدت أن المروي عن عكرمة فيهما (١٢٧) رواية، في حين بلغت عن ابن جبير (١٠٤) روايات، وعن قتادة (٨٦) رواية، وعن مجاهد، والسدي كل واحد منهما (٧٢) رواية، وعن عطاء (٣٣) رواية.

وعكرمة، فأقبل مجاهد وسعيد يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا، وآية كذا في كذا[١].

وعن أيوب السختياني قال: سألت عكرمة عن آية ونحن بالمدينة، فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى سلع[٢].

كما أنه فاق غيره من المكيين في معرفة المكي والمدني، وجاءت عنه العديد من الروايات في ذلك[٣]. وقد أعانه على هذا تقدمه في معرفة السير، والمغازي، وإتقانه لأحداث السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأتم التسليم.

فعن قتادة قال: كان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي ﷺ[٤].

وعن عمرو بن دينار قال: كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عنهم، كأنه مشرف عليهم ينظر إليهم[٥].

وقال سفيان بن عيينة: والوجه الذي غلب فيه عكرمة: المغازي، وكان إذا تكلم، فسمعه إنسان قال: كأني به مشرف عليهم يراهم[٦].

---

(١) الحلية (٣/ ٣٢٦)، والسير (٥/ ١٨)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٣)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٦)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٢)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

(٢) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٢/ ٣٨٧) ٢٧٢٤، والحلية (٣/ ٣٢٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٣)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

(٣) جاء في المرتبة الثالثة بعد قتادة، والحسن؛ حيث روي عنه في هذا بعد مراجعة زاد المسير (٢٦) رواية، في حين كان المروي عن مجاهد (١٩) رواية، وعن عطاء (١٤) رواية، وعن سعيد بن جبير (٣) روايات فقط.

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٦)، والسير (٥/ ١٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧١)، وطبقات الحفاظ (٣٧).

(٥) الحلية (٣/ ٣٢٧)، والمعرفة (٢/ ٦)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

(٦) الكامل لابن عدي (٩/ ١٩٠٦)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٠)، والسير (٥/ ١٦)، والتهذيب (٧/ ٢٦٦).

وكان هذا التقدم نتاج حرص، وجهد، ورغبة بذلها لمعرفة ما نزل، وما سببه، ومن نزلت فيه، ولنذكر واحدة من هذه الحوادث التي تكشف وتجلي ما ذكرنا.

يقول عن نفسه: طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجرًا أربع عشرة سنة حتى وجدته[١].

وهو مع هذا - أيضًا - يُعد من المُقدمين بين التابعين في معرفة المبهمات، والعناية بها[٢].

٣ - قدرته على الاجتهاد، والفهم، والاستنباط:

فإلى جانب حرصه على الرواية عن شيخه، والأخذ عنه، فقد رزقه الله نظرًا ثاقبًا، وقدرة عقلية لاستنباط المعاني، مما أعان على تفوقه وتقدمه في علم القرآن وتفسيره، وكان يقول عن نفسه: إني لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة فينفتح لي خمسون بابًا من العلم[٣].

وقد فطن ابن عباس إلى هذا الذكاء وتلك النجابة، فكان يضع رجله في الكبل ليجلسه على التعلم والعلم[٤]. وحين اطمأن إليه أمره بالانطلاق إلى الناس وإفتائهم[٥].

وقد جمع - رحمه الله - بين المأثور، والمعقول، وإن كان أكثر حاله تغليب المأثور

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢١)، ومفتاح السعادة (٢/ ٥٥٣).

(٢) أورد السيوطي في مفحمات الأقران (٧٠) قولاً عن مجاهد وقتادة، وكان الذي يليهما في الاعتماد على أقواله عكرمة؛ حيث روى عنه أكثر من أربعين (٤٠) قولاً، وعندما تنسب هذه الأقوال إلى تفسيرهم، نجد أن عكرمة في ذلك أكثر اهتمامًا منهما.

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٨)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٣)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٤)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٩٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١).

(٤)، (٥) سبقت قبل ورقات.

على الرأي[١] ، بل والتحري في حديثه، ومذاكرته، وتمييز هذا من ذاك.

فعن القاسم بن معن بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي عن عبد الرحمن قال: حدث عكرمة بحديث فقال: سمعت ابن عباس يقول كذا، وكذا، فقلت: يا غلام! هات الدواة والقرطاس، فقال: أعجبك؟ قلت: نعم، قال: إنما قلته برأيي[٢].

٤ ـ تفرغه لعلم التفسير:

وقد تخصص في علم التفسير رواية عن شيخه ودراية، حتى كان من أكثر التابعين اشتغالاً بهما[٣] ، ولعل هذا من الأسباب الرئيسة في تفوق هذا الإمام، وسبقه لغيره، والناظر في تفسيره يجد شاهد هذا الانقطاع، فإنه تفرغ لهذا العلم، ولم يشتغل بغيره.

ولذا نجد أن المروي عنه في الفقه كان قليلاً[٤] ؛ بل إن حظه من بعض العلوم المساعدة للتفسير كعلم القراءات كان قليلاً أيضاً[٥] ، مما يدل على أن جل اهتمامه كان في بيان أسباب النزول، وإيضاح مشكل الآيات، وبيان معاني المفردات.

ولذا نجد أن من ترجم له، أشار في صدر ترجمته إلى أهم علم اشتهر به، وفاق غيره.

---

(١) وأما مجاهد فإن الرأي عنده أكثر من عكرمة.

(٢) تاريخ دمشق (١١/ ٧٨١)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٨٦)، والسير (٥/ ٢٩)، وهدي الساري (٤٢٦).

(٣) بعد مجاهد، وهذه ميزة، امتاز بها مجاهد ـ في المقام الأول ـ وتلاه بلا منازع عكرمة، وأما غيرهم من التابعين، فقل من تخصص واستفرغ علمه التفسير.

(٤) المروي عنه في تفسير آيات الأحكام بلغ (٠,٠٤) من مجموع تفسيره، في حين بلغ عن سعيد (٠,٠٩)، وعن عطاء (٠,٣٣) من مجموع تفسيرهما.

(٥) وخاصة إذا ما قورن بغيره كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، فهو من أقلهم في هذا، ولم يترجم له الذهبي في كتاب القراء الكبار، وذكره ابن الجزري، ولم يثن عليه في هذا الجانب. ولذا لا نجد أحدًا من القراء أو رواتهم أخذ عنه القراءة.

فقال أبو حاتم: أصحاب ابن عباس في التفسير عيال على عكرمة[١].

وقال أبو نعيم: مفسر الآيات المحكمة[٢].

وقال الذهبي: الحافظ المفسر[٣].

وقال ابن كثير: أحد التابعين، والمفسرين المكثرين[٤].

وقال ابن حجر: ثقة، ثبت، عالم بالتفسير[٥].

فأنت تجد هؤلاء الأئمة افتتحوا ترجمة هذا الإمام بأهم علم تميز به وتقدم فيه[٦]، بل ومن قبل أثنى عليه قتادة فقال: لا تسألوا العبد إلا عن القرآن[٧]. مما يدل على تخصصه فيه، وانقطاعه له.

٥ ـ معرفته الواسعة بلغات قبائل العرب، وأشعارها:

ومن المصادر التي اعتمد عليها عكرمة في تفسيره، وكانت من أسباب نبوغه وتقدمه في التفسير، معرفته بلغات قبائل العرب، وما دخل في تلك اللغة من كلمات معربة، والاعتماد عليها في إيضاح بعض المفردات القرآنية[٨].

---

(١) الجرح (٧/ ٩).

(٢) الحلية (٣/ ٣٢٦).

(٣) السير (٥/ ١٢).

(٤) البداية (٩/ ٢٧٥).

(٥) التقريب (٣٩٧).

(٦) قارن ذلك بما قدمت به ترجمة سعيد بن جبير، حيث قال عنه الذهبي: المُقرئ الفقيه، ينظر التذكرة (١/ ٧٦)، وقال في ترجمة مُجاهد: المقرئ المفسر، ينظر التذكرة (١/ ٦٢)، وقال في ترجمة عطاء: مفتي الحرم، ينظر السير (٥/ ٧٨).

(٧) المعرفة (٢/ ١٢)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٢).

(٨) هو من أكثر التابعين عناية بذلك، بل ومن أدقهم فيه، ذكر الزركشي أن مذهب ابن عباس وعكرمة، أنه وقع في القرآن ما ليس من لغتهم، ينظر البرهان (١/ ٢٨٨).

ولعل لكثرة رحلاته، وتنقله بين البلدان الأثر الكبير في إثراء هذا الجانب عنده[١]، والناظر في تفسيره يجد عنايته وحرصه في رد كثير من الكلمات القرآنية إلى أصل اشتقاقها، وكيف كانت العرب تستعملها؛ ولذا نجده في بيان الاشتقاق كثيرًا ما يربط بين وضع اللفظ وأصل استعماله.

هذا ما يجده المراجع لتأويله، من حرصه على الرجوع لديوان العرب، وهو الشعر؛ فإنه من أكثر التابعين نصيبًا في هذا[٢].

ولعلنا في هذا المقام نذكر بعض الأمثلة لما سبق:

فمن أمثلة ما ورد عنه في الاعتماد على لغات قبائل العرب، ما جاء عند تأويل قوله سبحانه: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[٣].

قال عكرمة: المشيد المجصص، والجص بالمدينة: يسمى المشيد[٤].

وعند قوله جل ثناؤه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾[٥] قال: أتدعون ربًا، وهي لغة أهل اليمن، تقول: مَنْ بَعْل هذا الثور؟ أي: من ربُّه[٦]؟

وعند قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾[٧]. قال: هي شجرة ذات

---

(١) هو من أكثر مفسري التابعين على الإطلاق جولانًا في البلاد، كما سيأتي بيان ذلك بعد ورقات إن شاء الله.

(٢) يُراجع كتاب إيضاح الوقف والابتداء (١/ ٦٢-٦٩)، وقد أورد العديد من الأمثلة عن عكرمة.

(٣) سورة الحج: آية (٤٥).

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١٨١).

(٥) سورة الصافات: آية (١٢٥).

(٦) تفسير الطبري (٢٣/ ٩٢)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن عكرمة بلفظ: بعلاً: ربًا باليمانية. يقول الرجل للرجل: من بعل الثوب؟ (٧/ ١١٩).

(٧) سورة الغاشية: آية (٦).

شوك، لاطئة بالأرض، فإذا كان الربيع سمتها قريش الشبرق، فإذا هاج العود سمتها الضريع[١].

ومن أمثلة ما جاء عنه في معرب القرآن، تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

عن عكرمة قال: جبر: عبد، إيل: الله، وميكا قال: عبد، إيل: الله[٣].

وعند قوله جل وعلا ﴿طه...﴾، قال: يا رجل! كلمة بالنبطية[٤]. وفي لفظ قال: طه بالحبشية: يا رجل![٥].

ومن الأمثلة التي تدل على معرفته الواسعة بتلك اللغات، بل والتقدم في هذا على غيره من التابعين، ما جاء عنه في تأويل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[٦] قال: «قسورة» الرماة، فقال رجال لعكرمة: هو الأسد بلسان

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة بلفظ مختصر (٨/ ٤٩٢).

(٢) سورة البقرة: آية (٩٧).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٩١) ١٦٢٨، وأخرجه الطبري بلفظ مقارب (٢/ ٣٩٠) ١٦٢٤، ورواه البخاري عن عكرمة معلقًا في صحيحه، ووصله ابن حجر في الفتح (٨/ ١٦٥)، والتغليق (٤/ ١٧٤) من رواية ابن جرير.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٣٦)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عكرمة به (١٠/ ٤٧٢)، ١٠٠٢٥، ورواه البخاري في صحيحه معلقًا، وأشار إلى وصله بن حجر في الفتح (٨/ ٤٣٢)، والتغليق (٤/ ٢٥١)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن عكرمة به (٥/ ٥٥٠).

(٥) المصنف لابن أبي شيبة ١٠/ ٤٧٠) ١٠٠١٧، وأشار ابن حجر في التغليق إلى وصل هذه الرواية من طريق ابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٢)، وأوردها السيوطي في المهذب في معرفة ما وقع في القرآن من المعرب (١١٠)، وذكرها في الدر، وعزاها إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة بنحوه (٥/ ٥٥٠).

(٦) سورة المدثر: آية (٥١).

الحبشة[١] . فقال عكرمة : اسم الأسد بلسان الحبشة : عنبسة[٢] .

ومما جاء عنه في معرفة أصل استعمال الكلمة، وبيان كيفية اشتقاقها، ما روي عنه عند قوله جل وعلا : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾[٣] قال : ذات الحبك : ذات الخلق الحسن، ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب قال : ما أحسن ما حبكه[٤] ؟! .

وعند قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾[٥] قال : يعذبون في النار يحرقون فيها، ألم تر أن الذهب إذا ألقي في النار قيل : فتن[٦] ؟ .

وعند قوله سبحانه : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾[٧] قال : ألم تر إلى الفرس إذا جرى كيف يضبح[٨] ! ، وعنى رحمه الله (الحمحمة) .

ومما فاق به غيره من التابعين كثرة استشهاده بالشعر، والاعتماد عليه في إيضاح معنى الآية؛ وقد تأثر في ذلك بشيخه ابن عباس الذي روى عنه قوله : إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[٩] .

---

(١) وهذا القول مروي عن أبي هريرة، وابن عباس في رواية، وزيد بن أسلم وغيرهم، ينظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٧٠)، والتغليق (٤/ ٣٥٢).

(٢) تفسر الطبري (٢٩/ ١٦٩)، وأخرجه الفراء في معاني القرآن بسنده عن عكرمة بنحوه (٣/ ٢٠٦)، وأشار ابن حجر إلي رواية الفراء في الفتح (٨/ ٦٧٦)، وللمزيد من الأمثلة يراجع تفسير الطبري، الآثار ذوات الأرقام ٦٠٠٠، ١٣٤٤٥، ١٧٣٩٥، ١٨٩٧٢، والصفحات (٢٧/ ٨٢، ٨٣)، (٣٠/ ٢٤٠).

(٣) سورة الذاريات : آية (٧).

(٤) تفسير الطبري (٢٦/ ١٩٠)، وتفسير البغوي (٤/ ٢٢٩).

(٥) سورة الذاريات : آية (١٣).

(٦) تفسير الطبري (٢٦/ ١٩٣).

(٧) سورة العاديات : آية (١).

(٨) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٧١)، ولمزيد من الأمثلة يراجع تفسير الطبري (١٩/ ١٤)، (٢٧/ ١٦٧)، (٢٩/ ١٢٤، ٢٠٣)، (٣٠/ ١٢١).

(٩) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٣)، سنن البيهقي (١٠/ ٢٤١).

ومما جاء عنه في هذا: تأويله لقوله جل ثناؤه: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[١].

قال عكرمة لداود بن أبي هند: ﴿ألا تعولوا﴾: ألا تميلوا، ثم قال: أما سمعت إلى قول أبي طالب:

. . . . . بميزان قسط وزنه غير عائل[٢]

وفي رواية عنه أنشد فقال:

بميزان قسط لا يُخسُّ شعيرةً ووازنِ صدقٍ وزنه غير عائل[٣]

وعند قوله تبارك وتعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾[٤] قال: ظل الأغصان على الحيطان. قال الشاعر:

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

تدعوا أبا فرخين صادف ضاريًا ذا نخليين من الصقور قطاما[٥]

وعند قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[٦] قال: الساهرة: الأرض، أما

---

(١) سورة النساء: آية (٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٥٤٩) ٨٤٩٠.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٥٥٠) ٨٤٩١، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه في كتاب التفسير عن عكرمة بنحوه (٣/ ١١٤٥) ٥٥٧، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ل ١٠٥/ أ). وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة بنحوه. الدر (٢/ ٤٣٠).

(٤) سورة الرحمن: آية (٤٨).

(٥) تفسير الطبري (٢٧/ ١٤٧)، وأخرجه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء عن عكرمة به (١/ ٦٥) وأبو عمرو الداني في المكتفى مختصراً (٥٤٩)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي بكر بن حبان في الفنون، وابن الأنباري في الوقف عن عكرمة بنحوه (٧/ ٧٠٩).

(٦) سورة النازعات: آية (١٤).

سمعت :

لهم صيد بحر وصيد ساهرة[١]

في رواية عنه قال : أولم تسمعوا ما قال أمية بن أبي الصلت :

لهم وفيها لحم ساهر وبحر[٢] .

٦ ـ كثرة رحلاته :

هو من أكثر مفسري التابعين تنقلاً بين الأقاليم ، ورحلة إلى البلدان ، وقد أفاد من ذلك ، وكان هذا من أسباب تفوقه ، وتعدد مصادره .

يقول الإمام أحمد : ولم يدع موضعًا إلا خرج إليه : خراسان ، والشام ، واليمن ، ومصر ، وإفريقية[٣] .

وصدر ابن كثير ترجمته بقوله : أحد التابعين ، المفسرين المكثرين ، والرحالين الجوالين[٤] .

وقال ابن خلكان : كان عكرمة كثير التطواف ، والجولان في البلاد[٥] ، وأشار إلى كثرة دورانه في البلاد : الحاكم النيسابوري[٦] ، والذهبي[٧] ، وابن حجر[٨] ،

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٦)، وأورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة بنحوه (٨/ ٤٠٨).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٦)، (٣٠/ ٣٧) والبيت لأمية . ينظر الديوان (٥٤)، وفرائد القلائد (ص٣٢)، ولمزيد من الأمثلة ينظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٥)، (٣٠/ ٣٩٩).

(٣) السير (٥/ ٣٠).

(٤) البداية (٩/ ٢٧٥).

(٥) وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٦).

(٦) نقله ياقوت في معجم الأدباء (١٢/ ١٨٢).

(٧) السير (٥/ ١٥)، والعبر (١٠٠/ ١)، وتاريخ الإسلام (١٧٦).

(٨) التهذيب (٧/ ٢٦٥).

واليافعي[١] . . . وغيرهم .

قال يحيى بن معين : كان عكرمة جوالاً في البلاد ، قدم البصرة فسمع منه أهلها ، والكوفة فحمل عنه كثير ممن بها ، واليمن فكتب عنه بها كثير من أهلها ، والمغرب فسمع منه به جماعة من أهله ، والمشرق فكتب عنه به[٢] .

وقد ترك الحسن البصري كثيراً من تفسيره حين دخل عكرمة البصرة[٣] .

٧ ـ حرصه على نشر علمه :

ومن أسباب بروزه ، وظهور علمه ، وتفوقه ؛ حرصه على نشر علمه في حله وترحاله ، فعن أبي سلمة سعيد بن يزيد البصري قال : سمعت عكرمة يقول : ما لكم لا تسألونني ! أفلستم[٤] ؟

قال ابن سعد : يعني لا أراكم تسألونني .

وعن أيوب السختياني قال : كان خالد الحذاء يسأل عكرمة ، فسكت خالد ! فقال عكرمة : مالك أجبلت (أي : أكديت) . قال : إني تعبت[٥] .

وساق أحمد بسنده ، عن أيوب السختياني ، قال : كنا نأتي عكرمة (في البصرة) فيحلف بالله ألا يحدثنا ، فما نكون قط بأطمع منه في الحديث عند ذلك ، فيحدثنا ، فنقول : ألم تحلف بالله؟ فقال : ما يدريكم كفارة يميني أن أحدثكم[٦] .

---

(١) مرآة الجنان (١/ ٢٥٤) .

(٢) تاريخ الطبري الذيل (٣/ ٢٤٨٥) .

(٣) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٣) ، والسير (٥/ ١٨) .

(٤) سنن الدارمي (١/ ١٣٧) بلفظ : أفشلتم ، والتصحيح من كتاب العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٢/ ١٩٣) ١٩٧٩ ، وابن سعد (٢/ ٣٨٦) ، ومصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٤٥) ٦٤٦٤ .

(٥) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٠) ، والحلية (٣/ ٣٢٨) ، زاد ابن سعد : أكديت : أي نفد ما عندك (٥/ ٢٩١) ، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٤) .

(٦) العلل لأحمد (٢/ ١٢٨) ١٧٧٥ ، و(٢/ ٤٥٥) ٣٠٢٧ .

هذه هي أهم الأسباب، التي أحسب أنه كان لها الأثر الكبير في تفوق هذا الإمام في التفسير ، واعتبار بعض الأئمة أن المدرسة المكية وتلاميذ ابن عباس عيال في التفسير عليه . ولكن ثمة فرقٌ واضحٌ في الواقع العملي بينه، وبين مجاهد عند مراجعة كتب التفسير[١] ؛ حيث اعتمد كثير من المفسرين على تفسير مجاهد، وكان المنقول عن عكرمة قليلاً إذا ما قورن بمجاهد، وبعد النظر، والمراجعة، وجدت أن ثمة أسبابًا كانت وراء هذا النقص الكبير في المروي عنه، ولعل من أهمها: اتهامه بالكذب، وانتحاله بعض مقالة الخوارج، وسيأتي مناقشة ذلك قريبًا.

وأخيرًا لقد كان عكرمة ـ رحمه الله ـ من أعلم أصحاب ابن عباس بالتفسير، وقد شهد له بذلك أبو حاتم. بل إنه قام ـ رحمه الله ـ بتفسير القرآن الكريم كله، كما أخبر بذلك عن نفسه: لقد فسرت ما بين اللوحين[٢] .

أهم أسباب نقصان تفسيره عن مجاهد:

ومع ما سبق فإن ما وصل إلينا من نتاج هذا الإمام كان قليلاً، ويرجع ذلك لعدة أسباب من أهمها: اتهامه بالكذب، وانتحاله بعض مقالة الخوارج، مع ما يضاف إلى ذلك من كثرة اشتغاله بالرواية عن شيخه، وقلة المتخصصين في نقل تفسيره.

وقد أطال بعض أهل العلم الكلام في السببين الأولين، بل وصنف في ذلك جماعة، منهم: إمام المفسرين ابن جرير الطبري، ومحمد بن نصر المروزي، وابن منده، وأبو حاتم بن حبان، وقد لخص الحافظ ابن حجر ما ورد في تلك الكتب، ولاسيما ما اتهم به من الكذب، وأطال في رده. ولأهمية هذه النقطة سأبسط القول فيها؛ لأني أشعر أنه لولا ذلك لكان المأثور عنه قريبًا من المروي عن مجاهد.

---

(١) المروي عن مجاهد عند الطبري (٦١٠٩) قولاً، وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً.

(٢) الحلية (٣/ ٣٢٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٢)، والبداية (٩/ ٢٧٥).

أولاً: اتهامه بالكذب:

من أشد ما جاء في ذلك، ما روي عن ابن عمر أنه قال لنافع: لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس[١].

وقد نفى ابن حجر صحة هذا الأثر وقال: لم يثبت؛ لأنه من رواية أبي خلف الخزاز عن يحيى البكاء، ويحيى البكاء متروك الحديث. ثم أورد قول ابن حبان: من المحال أن يُجرح العدل بكلام المجروح[٢].

وقد سأل إسحاق بن الطباع مالكًا: هل بلغك أن ابن عمر قاله لنافع؟ قال: لا! ولكن بلغني أن سعيد بن المسيب قال ذلك لبرد مولاه[٣].

ثم نقل ابن حجر[٤] قول ابن جرير: إن ثبت هذا عن ابن عمر، فهو محتمل لأوجه كثيرة، لا يتعين منه القدح في جميع روايته، فقد يمكن أن يكون أنكر عليه مسألة من المسائل كذبه فيها، ثم قال: كان ابن حبان وأهل الحجاز يطلقون «كذب» في موضع «أخطأ»[٥].

وعن عطاء الخراساني قال: قلت لسعيد بن المسيب: إن عكرمة يزعم أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة، وهو محرم، فقال: كذب مُخبثان[٦].

---

(١) الميزان (٣/ ٩٧)، والسير (٥/ ٢٢)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧).

(٢) هدي الساري (٤٢٧). ويحيى البكاء: تركه النسائي، والأزدي، ينظر الضعفاء لابن الجوزي (٣/ ٢٠٣). وقال عنه ابن حبان في كتاب المجروحين: ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وضعفه إذا انفرد (٣/ ١١٥).

(٣) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٢/ ٧٠) ١٥٨٢، ١٥٨٣، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٥)، والتمهيد (٢/ ٢٧)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٨٠).

(٤) هدي الساري (٤٢٧).

(٥) الثقات (٦/ ١١٤).

(٦) هدي الساري (٤٢٦)، والميزان (٣/ ٩٤)، والسير (٥/ ٢٣).

وقال فطر بن خليفة: قلت لعطاء إن عكرمة يقول: سبق الكتاب الخفين، فقال: كذب! سمعت ابن عباس يقول: امسح على الخفين وإن خرجت من الخلاء[١].

وقد نقل ابن حجر ما قاله ابن جرير في رده علي قول سعيد وعطاء، فقال: وأما قول سعيد بن المسيب، فليس ببعيد أن يكون الذي حكي عنه نظير الذي حكي عن ابن عمر، قلت - يعني: ابن حجر - وهو كما قال، فقد تبين ذلك من حكاية عطاء الخراساني عنه في تزويج النبي ﷺ بميمونة، ولقد ظلم عكرمة في ذلك، فإن ذلك مروي عن ابن عباس من طرق كثيرة، أنه كان يقول: إن النبي ﷺ تزوجها، وهو محرم. ومثله ما جاء عن عطاء، ويقوي صحة ما حكاه ابن حبان أنهم يطلقون الكذب في موضع الخطأ[٢].

وأما ما جاء عن ابن سيرين، عندما سئل عن عكرمة فقال: ما يسوؤني أن يدخل الجنة، ولكنه كذاب[٣]، فقد قال ابن حجر[٤]: إنه طعن عليه من حيث الرأي، وإلا فقد أخرج عنه كما قال خالد الحذاء: كل ما قال محمد بن سيرين: ثبت عن ابن عباس، فإنما أخذه عن عكرمة، وكان لا يسميه، لأنه لم يكن يرضاه[٥].

وأما ما جاء من تكذيب يحيى بن سعيد الأنصاري، وعدم رضى مالك عليه، بل وتكذيبه له، والأمر بعدم الأخذ عنه[٦]، فإن هذا كما قال ابن حجر: أما ما روي عن يحيى بن سعيد في ذلك، فالظاهر أنه قلد فيه سعيد بن المسيب[٧].

---

(١) الكامل لابن عدي (٥/ ١٩٠٥)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٦ هـ/ ١٧٩)، والتهذيب (٧/ ٢٦٨).

(٢) هدي الساري (٤٢٧).

(٣) الكامل (٥/ ١٩٠٥)، وتاريخ الإسلام (١٧٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٨٢).

(٤) هدي الساري (٤٢٧).

(٥) المرجع السابق (٤٢٧)، والمعرفة (١/ ٢٣٣)، و(٢/ ٥٥)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٩).

(٦) السير (٥/ ٢٦)، والهدي (٤٢٦).

(٧) هدي الساري (٤٢٧)، والتمهيد (٢/ ٢٧).

وأما ذم مالك، فقد بيّن سببه، وأنه لأجل ما رمي به من القول ببدعة الخوارج، وقد جزم بذلك أبو حاتم، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن عكرمة، فقال: ثقة، قلت: يحتج بحديثه، قال: نعم، إذا روى عنه الثقات، والذي أنكر عليه مالك إنما هو بسبب رأيه[١].

وأما ما روي عن يزيد بن أبي زياد قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس، وعكرمة مقيد عنده، فقلت: ما لهذا. قال: إنه يكذب على أبي[٢].

فقد رد هذه الرواية ابن حجر بقوله: إن رواية يزيد بن أبي زياد ردها أبو حاتم، وابن حبان لضعف يزيد، وقال: إن يزيد لا يحتج بنقله، قال ابن حجر: وهو كما قال[٣].

هذا أهم ما جاء من الروايات في اتهامه بالكذب وردها، والذي يظهر مما سبق أن اتهامه بالكذب على مصطلح المحدثين لم يثبت، والصواب في ذلك أن عكرمة قد وثقه، وأثنى عليه كثير من الأئمة المعتبرين، بل إن شيخه ابن عباس نفسه قد أثنى عليه.

فعن محمد بن فضل عن عثمان بن حكيم قال: كنت جالسًا مع أبي أمامة بن سهل ابن حنيف، إذ جاء عكرمة، فقال: يا أبا أمامة: أذكرك الله، هل سمعت ابن عباس يقول: ما حدثكم عني عكرمة فصدقوه، فإنه لم يكذب علي؟ فقال أبو أمامة: نعم[٤].

وعن أيوب السختياني قال: اجتمع حفاظ ابن عباس على عكرمة، منهم سعيد بن جبير، وعطاء، وطاوس، فكان كلما يحدث بحديث قال سعيد بن جبير هكذا (يعني

(١) الجرح (٧/ ٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٤١)، وأشار إليه ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٧).
(٢) الميزان (٣/ ٩٤)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥)، والسير (٥/ ٢٣).
(٣) الثقات (٥/ ٢٣٠)، وهدي الساري (٤٢٧).
(٤) تاريخ دمشق (١١/ ٧٦٨)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤١٣)، وقال ابن حجر في الهدي: وإسناده صحيح (٤٢٨)، والتمهيد (٢/ ٣١).

أصاب) حتى أتى على حديث الحوت، فقال سعيد بن جبير: أشهد علي ابن عباس أنه قال: كان يُسايرهما في مكتل. قال أيوب السختياني: وأرى ابن عباس كان يقول القولين جميعًا[١].

وعن حماد بن زيد قال: قال لي أيوب: لو لم يكن عندي عكرمة ثقة لم أكتب عنه[٢].

وقد احتج الإمام البخاري بحديثه، وأخرج له في الصحيح[٣]، وقال عنه: ليس أحد من أصحابنا إلا احتج بعكرمة[٤].

وقال ابن معين: إذا رأيت إنسانًا يقع في عكرمة، فاتهمه على الإسلام[٥].

ووثقه أبو حاتم[٦]، والعجلي[٧]، والنسائي، وقال: ثقةٌ من أعلم الناس[٨].

وقال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، ويحيى بن معين، ولقد سألت إسحاق عن الاحتجاج بحديثه، فقال: عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا. وتعجب من

---

(١) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٣/ ٣٧٩) ٥٦٦٧، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٧).

(٢) الجرح (٧/ ٨)، والميزان (٣/ ٩٣)، والسير (٥/ ١٨).

(٣) أخرج له البخاري في صحيحه ما يزيد عن (١٣٠) حديثًا بالمكرر، و (٦٣) حديثًا بغير المكرر، ينظر رسالة عكرمة مولى ابن عباس وتتبع مروياته في صحيح البخاري، إعداد الباحث مرزوق الزهراني. جامعة أم القرى.

(٤) التاريخ الكبير (٧/ ٤٩).

(٥) تهذيب الأسماء (١/ ٣٤١)، والسير (٥/ ٣١).

(٦) الجرح (٧/ ٨).

(٧) تاريخ الثقات (٣٣٩).

(٨) عمل اليوم والليلة للنسائي (٢٠٢) ١٤١.

سؤالي إياه[١] .

وقال ابن حبان: كان من علماء زمانه بالفقه، والقرآن، ولا أعلم أحدًا ذمه بشيء[٢] .

قال المروزي: وعكرمة قد ثبتت عدالته بصحبة ابن عباس، وملازمته إياه، وبأن غير واحد من أهل العلم رووا عنه، وعدلوه[٣] .

ثانيًا: اتهامه بالميل لرأي الخوارج:

وكما اتهم عكرمة بالكذب، فقد اتهم أيضًا بالميل لرأي الخوارج وانتحال بعض مقالاتهم.

فعن عطاء قال: إن عكرمة كان إباضيًا[٤] . واتهمه أحمد[٥] ، وابن المديني بذلك[٦] .

وقال ابن المديني[٧] ، في رواية عنه: كان يرى رأي نجدة[٨] .

---

(١) التمهيد (٢/ ٣٣)، وهدي الساري (٤٢٩).

(٢) الثقات لابن حبان (٥/ ٢٢٩)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١١٠).

(٣) التمهيد (٢/ ٣٣).

(٤) تاريخ الإسلام (ح / ١٨١)، والميزان (٣/ ٩٦)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧)، والإباضية: هم أتباع عبد الله بن إباض المقاعي التميمي المتوفى سنة (٨٦ هـ)، قال الإباضية: إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ودار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان، فإنه دار بغي، وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر النعمة، لا كفر الملة، ينظر الملل والنحل (١/ ١٣٤)، ومقالات الإسلاميين (١/ ١٠٨)، والفرق بين الفرق (١٠٣)، والفصل في الملل (٥/ ٥١)، والمواقف في علم الكلام (٤٢٤)، والإباضية يقولون بخلق القرآن وإنكار الرؤية وتخليد عصاة الموحدين في النار.

(٥) السير (٥/ ٢١)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٨)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٩).

(٦) تاريخ الإسلام (ح ١٨٠)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٨)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧).

(٧) المعرفة (٢/ ٧)، والميزان (٣/ ٩٦)، وذكر أسماء من تكلم فيه، وهو موثق (١٣٧)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٧).

(٨) نجدة بن عامر الحنفي المتوفى سنة (٦٩ هـ)، وكان من أتباع نافع بن الأزرق، ثم خالفه واستقل بمذهبه، ينظر مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٦)، والفرق بين الفرق (٨٧- ٩٠)، والملل والنحل (١/ ١٢٢)، والفصل (٥/ ٥٣)، والمواقف (٤٣٤).

وقال الجوزجاني[١] ، قلت لأحمد بن حنبل : أكان عكرمة إباضيًا؟ فقال : إنه كان صفريًا[٢] .

وقال أبو طالب؛ عن أحمد : كان يرى رأي الخوارج الصفرية، وعنه أخذ ذلك أهل إفريقية[٣] .

وقال ابن معين : كان ينتحل مذهب الصفرية[٤] ، ولأجل هذا تركه مالك[٥] .

وقال أبو سعيد بن يونس في تاريخ الغرباء : وبالمغرب إلى وقتنا هذا قوم على مذهب الإباضية، يعرفون بالصفرية، يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن عكرمة[٦] .

وقال ابن قتيبة : كان عكرمة يرى رأي الخوارج[٧] .

ومما نسب إليه من أقوال الخوارج، ما روي عن خالد بن أبي عمران قال : كنا بالمغرب، وعندنا عكرمة في وقت الموسم، فقال عكرمة : وددت أن بيدي حربة،

---

(١) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٧)، والسير (٥/ ٢١)، والهدي (٤٢٦)، وذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق (١٣٧)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧).

(٢) الصفرية : هم أتباع زياد بن الأصفر، وقولهم في الجملة كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم، ينظر الفرق بين الفرق (٩٠-٩٣)، والملل والنحل (١/ ١٣٧)، ومقالات الإسلاميين (١/ ١٠١)، والمواقف (٤٢٤).

(٣) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٨)، والميزان (٣/ ٩٦)، وتاريخ الإسلام (١٧٩)، وينظر المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية (٨٠).

(٤) السير (٥/ ٢١)، وهدي الساري (٤٢٦).

(٥) التمهيد (٢/ ٢٧)، والكامل (٥/ ١٩٠٥)، والتعديل (٣/ ١٠٢٣).

(٦) هدي الساري (٤٢٦).
وقد ذكرت أكثر المراجع، أن مبدأ دخول الفكر الخارجي، إنما حدث أول ما حدث عند مقدم عكرمة، وكان له دور كبير في نشر المذهب الإباضي، راجع المدارس الكلامية بإفريقية (٧٩-٨١).

(٧) المعارف (٢٠١)، والشذرات (١/ ١٣٠)، ومقالات الإسلاميين (١٢٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥).

أعترض بها من شهد الموسم. قال: فرفضه أهل إفريقية[١].

وقال ابن المديني: حكي عن يعقوب الحضرمي، عن جده قال: وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلا كافر. وكان يرى رأي الإباضية[٢].

وروى ابن عبد البر قصة عن أبي العرب، عن قدامة بن محمد، قال: كان خلفاء بني أمية، يرسلون إلى المغرب، يطلبون جلود الخرفان - التي لم تولد بعد - العسلية، قال: فربما ذبحت المائة شاة، فلا يوجد في بطنها إلا واحد عسلي، كانوا يتخذون منها الفراء، فكان عكرمة يستعظم ذلك ويقول: هذا كفر، هذا شرك، فأخذ ذلك عنه الصفرية، والإباضية، فكفَّروا الناس بالذنوب[٣].

ولما سئل عن نبيذ الجر، قال عكرمة: حرام. قال: فما تقول فيمن يشربه؟ قال: أقول إن من شربه كفر[٤].

وكان يرى كفر تارك الحج[٥].

هذا وقد برأه من هذه التهمة جمع من أهل العلم منهم: العجلي، وابن عبد البر، وابن حجر، وغيرهم.

قال العجلي: ثقة بريء مما يرميه الناس به من الحرورية[٦].

---

(١) الميزان (٣/ ٩٥)، وتاريخ دمشق (٢٠/ ٢٧٨)، والتهذيب (٧/ ٢٦٧)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٨).

(٢) تاريخ دمشق (١١/ ٧٨٨)، والسير (٥/ ٢٢)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٨).

(٣) التمهيد (٢/ ٣٢).

(٤) هدي الساري (٤٢٦).

(٥) أحكام القرآن للشافعي (١/ ١١١، ١١٢)، وكتاب الأم للشافعي (٢/ ١٠٩)، ومعرفة السنن والآثار (٧/ ٨)، والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٣٢٤).

(٦) تاريخ الثقات (٣٣٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٤١)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١).

وقال ابن عبد البر: ويحتمل أن مالكًا رده لما نسب إليه من رأي الخوارج، وكل ذلك باطل عليه - إن شاء الله[١] -.

وقال ابن حجر: والذي أنكر عليه مالك إنما هو بسبب رأيه، على أنه لم يثبت عنه من وجه قاطع أنه كان يرى ذلك، وإنما كان يوافق في بعض المسائل، فنسبوه إليهم.

ثم أورد - أي: ابن حجر - قول ابن جرير الطبري: لو كان كل من ادعي عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعي به، وسقطت عدالته وبطلت شهادته بذلك، للزم ترك أكثر محدثي الأمصار؛ لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يُرغب به عنه[٢].

واختصر عبارته ابن حجر في التقريب، وقال: ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، ولا تثبت عليه بدعة[٣].

وقال البيهقي: هو عند أكثر الأئمة من الثقات الأثبات[٤].

والذي تحصل من هذا أن ما رمي به من تهمة الكذب لم تصح ولم تثبت عنه، وهو أجل، وأعلى من ذلك، وأما الأخرى فقد يغضى فيها العين على قذى، ويجر الذيل على أذى، ويقال: لعل وعسى.

وقد لمست من الإمام الذهبي في كتبه ترددًا في تبرئة عكرمة من هذا الرأي، ولذا قال عنه في ختام ترجمته في السير: فالذين أهدروه كبار، والذين احتجوا به كبار، والله أعلم بالصواب[٥].

---

(١) التمهيد (٢/ ٢٧).

(٢) هدي الساري (٤٢٨)، والتهذيب (٧/ ٢٧٠).

(٣) تقريب التهذيب (٣٩٧)، وتبعه على ذلك الداودي في طبقات المفسرين (١/ ٣٨١).

(٤) السنن الكبرى (١/ ١٣٥)، (٨/ ٣٠٣).

(٥) السير (٥/ ٣٤).

وقال في موضع آخر: تكلموا فيه لرأيه لا لحفظه، اتهم برأي الخوارج[١].

وقال ـ أيضًا: ثبت، لكنه إباضي يرى السيف[٢].

وخلاصة القول كما قال ابن منده: أما حال عكرمة في نفسه، فقد عدله أمة من التابعين، منهم زيادة على سبعين رجلاً من خيار التابعين ورفعائهم، وهذه منزلة لا تكاد توجد فيهم لكبير أحد من التابعين، على أن من جرحه من الأئمة لم يمسك عن الرواية عنه، ولم يستغن عن حديثه[٣].

وهو كما قال؛ فإن من أشدهم رأيًا فيه ابن سيرين، ومع ذلك أخذ عنه، ولذا لما سئل ابن معين، فقيل له: ابن سيرين! سمع ابن عباس؟ فقال: لا! سمع من عكرمة[٤]، لكنه أسقط عكرمة، وكان يقول: نبئت عن ابن عباس، أخذه عن عكرمة، لقيه أيام المختار بالكوفة[٥].

فروايته عنه تدل على قبوله في نفسه، ولكنه لم يرض أن يصرح باسمه بسبب رأيه، وهذا ما فعله مالك[٦].

---

(١) المغني في الضعفاء (٢/ ٤٣٨)، والميزان (٣/ ٩٣).

(٢) الكاشف (٢/ ٢٧٦).

(٣) التهذيب (٧/ ٢٧٢)، هدي الساري (٤٢٩).

(٤) معرفة الرجال لابن معين (١/ ١٢٢، ١٣٢).

(٥) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٦)، المعرفة والتاريخ (١/ ٢٣٣)، (٢/ ٥٥)، طبقات ابن سعد (٥/ ٢٩١)، والحلية (٣/ ٣٢٨).

(٦) الموطأ (١/ ٣٨٤) ١٥٥، ١٥٧، علل الدارقطني (٢/ ٩)، وشرح علل الترمذي لابن رجب (١٩٥)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٥)، وقال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: أدخله مالك في موطئه، وكنى عن اسمه فقال: أخبرني مخبر عن ابن عباس. وهو عكرمة.

ويقول سعيد بن جبير: لو كف عكرمة عن بعض حديثه؛ لشدت إليه المطايا[١].

وعن طاوس قال: لو ترك من حديثه، واتقى الله، لشد إليه الرحال[٢].

وقد أطلت في هذه المسألة؛ لأني أحسب أن ما نسب إليه من رأي الخوارج كان من القواصم في سيرته، التي قللت من تداول روايات هذا الإمام، وجعلت بعض الأئمة يتوقى الرواية عنه في التفسير، مع تقدمه في العلم، والرواية، في مدرسة مكة، حتى إن الإمام الثوري قدمه على غيره من تلاميذ ابن عباس.

إلا إن هذه التهمة قد كان لها الأثر السلبي في الواقع العملي لمرويات عكرمة، سواء ما كان عن طريق شيخه، أو من تفسيره، فبعضهم كان يرد كثيراً من أحاديثه، كما صنع مسلم.

وآخرون كانوا يسقطون اسمه، كما نجده عند ابن سيرين ومالك[٣].

بل إن بعض تلاميذه كان يأخذ عنه، ويتحرج من الرواية أو التصريح باسمه.

فعن رجاء بن أبي سلمة قال: سمعت ابن عون يقول: ما تركوا أيوب حتى استخرجوا منه ما لم يكن يريد (يعني: الرواية عن عكرمة)[٤].

وقال ضمرة: قيل لداود بن أبي هند: هل تروي عن عكرمة؟ قال: هذا عمل أيوب؛ قال: عكرمة، فقلنا: عكرمة[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٨)، والتمهيد (٢/ ٢٩)، والكامل لابن عدي (٥/ ١٩٠٥)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٨٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٠).

(٢) التعديل والجرح (٣/ ١٠٢٤)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٦٨)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٩) (١١/ ٧٨٠).

(٣) وقد سبق بيان ذلك.

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/ ٥)، والسير (٥/ ٢٥)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٦).

(٥) المعرفة والتاريخ (٢/ ٨).

وحكى البخاري عن عمرو بن دينار قال: أعطاني جابر بن زيد صحيفة فيها مسائل عن عكرمة، فجعلت كأني أتباطأ، فانتزعها من يدي، وقال: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا أعلم الناس[١].

بل كان جابر بن زيد يحدث - أحيانًا - عن عكرمة ويقول: أخبرني عين عن ابن عباس[٢].

ولعل هذا مما يفسر لنا شيئًا من قلة روايات عكرمة عن ابن عباس، خاصة وأنه من أكثر تلاميذ ابن عباس أخذًا ورواية عنه - رضي الله عنه[٣] -.

بل ويفسر لنا أيضًا قلة تفسير عكرمة مقارنة بغيره من تلاميذ المدرسة[٤]، كما أن هناك أسبابًا أخرى نشير إليها:

ثالثًا: إكثاره من الرواية عن شيخه:

اشتغل برواية حديث أستاذه ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد اشتغل عكرمة بالرواية عنه أكثر من الدراية[٥]. وكان عكرمة من أكثر مفسري التابعين في مكة عناية

---

(١) التاريخ الكبير (٧/ ٤٩)، والجرح (٧/ ٨)، والحلية (٣/ ٣٣٦)، والمعرفة (٢/ ٩)، والتمهيد (٢/ ٢٩)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٠).

(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٠)، والكامل لابن عدي (٥/ ١٩٠٧، ١٩٠٨).

(٣) بعد مراجعة الطبري، وجدت أن المروي من تفسير ابن عباس كان نصيب عكرمة من روايته (٠,٠٩)، في حين كان المروي عن طريق علي بن أبي طلحة (٠,٢٥)، وعن سعيد بن جبير (٠,١٢).

(٤) روي عن مجاهد من خلال تفسير الطبري (٦١٠٩) أقوال، وعن سعيد (١٠١٠) أقوال في حين كان المروي عن عكرمة (٩٤٣) قولاً.

(٥) هذا من المفارقات بينه، وبين صاحبه مجاهد، الذي أخذ كثيرًا عن ابن عباس لكنه لم يشتغل كثيراً بالرواية ونقل تفسير ابن عباس، كما اشتغل بذلك عكرمة.
بل إن الكثير من التابعين، ومن بعدهم حرصوا على لقاء عكرمة لأخذ تفسير ابن عباس، لاهتمام عكرمة بنقل رواية تفسير شيخه.

بنشر علم شيخه، والتحديث به.

يقول أبو بكر المالكي: كان كثير الرواية عن مولاه وعليه معتمده[١].

وساق ابن عدي بسنده، عن سماك بن حرب، عن عكرمة قال: كل شيء حدثتك في التفسير، فهو عن ابن عباس[٢].

وأخرج ابن سعد عن أيوب قال: حدثني صاحب لنا قال: كنت جالسًا إلى سعيد، وعكرمة، وطاوس ـ وأظنه قال: وعطاء ـ في نفر، قال: فكان عكرمة صاحب الحديث عن ابن عباس[٣].

ولذا فقد كان حفاظ ابن عباس يجتمعون عند عكرمة يسألونه عن حديث ابن عباس[٤].

ولما سئل يحيى بن معين عن عكرمة، وعن نافع، قال: كان عكرمة أعلمهم بابن عباس، ونافع أعلمهم بابن عمر[٥].

وكان مجاهد أكثر ما يذكر عن ابن عباس مما فاته عنه، أخذه عن عكرمة[٦].

ولما قدم عكرمة على طاوس باليمن، حمله طاوس على نجيب، وأعطاه ثمانين دينارًا، فقيل لطاوس في ذلك، فقال: ألا أشتري علم ابن عباس لعبد الله بن طاوس بنجيب وثمانين دينارًا[٧].

(١) رياض النفوس (١/ ١٤٥).
(٢) الكامل (٥/ ١٩٠٨)، والإتقان (٢/ ٢٤٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٩٠)، والتمهيد (٢/ ٣٠)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧٢).
(٤) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٢)، وطبقات الحفاظ (٣٧).
(٥) رياض النفوس (١/ ١٤٥).
(٦) الإرشاد (١/ ٣٢٣).
(٧) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٥)، والتمهيد (٢/ ٣١)، والعلم لأبي خيثمة (١٤٠)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٠).

ولما مات ابن عباس وعكرمة عبد، باعه علي بن عبد الله بن عباس، فقيل له: تبيع علم أبيك؟ فاسترجعه[١].

ومع هذا فقد كان تحديثه عمن دونه أو مثله قليلاً، فإن أكثر حديثه عن ابن عباس، والصحابة.

يقول أحمد بن زهير: ولم يحدث عكرمة عمن دونه أو مثله، حديثه أكثره عن الصحابة[٢]، وكان هذا من الأسباب التي تلتمس في قلة المروي من تفسير عكرمة، فقد صرف جهده ووسعه في رواية علم وتفسير حبر الأمة وترجمان القرآن ـ رضي الله عنه[٣] ـ.

رابعًا: قلة المتخصصين في نقل تفسيره:

وهناك سبب رابع قد يضاف إلى ما سبق ألا وهو: قلة التلاميذ الذين تخصصوا لرواية تفسيره، والعناية به، وقد يكون لكثرة أسفاره وجولاته في البلاد أثرًا في ذلك؛ ولذا قلَّ عدد المروي عنه[٤].

(١) التمهيد (٢/ ٣١)، والمعارف (٢٠١)، ورياض النفوس (١/ ١٤٥)، والمنتظم (٧/ ١٠٢)، والشذرات (١/ ١٣٠).

(٢) الكامل لابن عدي (٥/ ١٩٠٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٠)، والسير (٥/ ٣٠)، وهدي الساري (٤٢٩).

(٣) وعند المقارنة نجد أن عكرمة، قد فاق مجاهداً، وعطاء في نسبة ما روى من تفسير ابن عباس، فقد روى عكرمة ما نسبته (٠,٠٩) في حين لم يرو مجاهد إلا (٠,٠٣)، وعطاء (٠,٠٢) من مجموع تفسيره، ومع أن سعيد بن جبير قد روى عنه (٠,١٢) من مجموع تفسير ابن عباس وفاق عكرمة، فلعل السبب الرئيس في ذلك أن بعض الأئمة اتقى روايات عكرمة. وقد شهد لعكرمة بالتقدم في التفسير جمع من الأئمة، وقد فضله بعضهم على مجاهد.

(٤) بعد المقارنة وجدت أن مجاهداً تخصص في رواية تفسيره ابن أبي نجيح، فروى ما يزيد عن (٠,٥٦) من تفسيره، وروى ابن جريج (٠,١٥)، في حين روى ابن جريج (٠,٥٠) من تفسير عطاء، وجعفر بن أبي المغيرة روى (٠,١٢) من تفسير سعيد.
وأما عكرمة فكان أكثر من روى عنه ابن جريج، ولم تزد نسبة ما رواه عنه عن (٠,٠٨) من مجموع تفسيره.

وفاته :

استقر عكرمة في آخر حياته بالمدينة، وسكن بها، ولم يرض أهل المدينة عنه، ويشهد لهذا عزوف الكثير منهم عن حضور جنازته.

فقد روى إسماعيل بن أبي أويس عن مالك بن أنس عن أبيه قال: أتي بجنازة عكرمة مولى ابن عباس، وكُثِّير عزة، بعد العصر، فما علمت أن أحداً من أهل المسجد حل حبوته إليهما[١].

قال الذهبي: ولم يفعلوا ذلك إلا عن بلية كبيرة في نفوسهم له - رضي الله عنه[٢].

وقد روى البخاري، وابن المديني قالا: مات عكرمة بالمدينة سنة أربع ومائة. وزاد الفسوي في تاريخه: فما حمله أحد، اكتروا له أربعة[٣].

وقد اختلف في سنة وفاته، فذهب الأكثرون إلى أنه توفي سنة ١٠٧ هـ، قاله أبو نعيم، واختاره الذهبي، وابن كثير، وغيرهم[٤].

وذهب ابن المديني، والبخاري، والفسوي إلى أنه توفي سنة أربع ومائة[٥].

ورجح خليفة، وابن قتيبة، وابن قنفذ، وابن الجوزي، أنه توفي سنة خمس

---

(١) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٩٠)، والسير (٥/ ٣٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٩٠)، وتاريخ الإسلام (١٨١).

(٢) السير (٥/ ٣٤).

(٣) التاريخ الصغير (١/ ٢٥٧)، والمعرفة (٢/ ٦)، والسير (٥/ ٣٤).

(٤) التاريخ الصغير (١/ ٢٤٣)/ ٢٥٨)، ودول الإسلام (١/ ٧٥)، والعبر (١/ ١٠٠)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

(٥) التاريخ الصغير (١/ ٢٥٧)، والمعرفة (٢/ ٦).

ومائة[١] .

وقال ابن حبان : وكان عمره أربعًا وثمانين سنة[٢] .

* * *

(١) طبقات خليفة (٢٨٠)، وتاريخ خليفة (٣٣٦)، والمعارف (٢٠١)، والوفيات لابن قنفذ (١٠٦)، والمنتظم (٧/ ١٠٢).

(٢) مشاهير علماء الأمصار (٨٤)، ورجال مسلم (٢/ ١١٠).

عطاء بن أبي رباح

هو أبو محمد القرشي، مولاهم المكي[١]، ويقال: ولاؤه لبني جُمح[٢]، كان من مولَّدي الجُند[٣]، ولد في أثناء خلافة عثمان، ونشأ بمكة[٤].

قال علي بن المديني: اسم أبي رباح: أسلم مولى حبيبة بنت ميسرة ابن أبي خثيم[٥]، وعطاء معدود من كبار التابعين، أدرك مائتين من أصحاب رسول الله ﷺ[٦].

أسباب قلة الرواية عند عطاء:

ومع أن عطاء من مشاهير مدرسة مكة، إلا إنه من أقلهم خوضًا في التفسير دراية،

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٨)، وطبقات خليفة (٢٨٠)، والمعارف (١٩٦)، والتاريخ الكبير (٦/ ٤٦٣)، والجرح (٦/ ٣٣٠)، والحلية (٣/ ٣١٠)، والثقات (٥/ ١٩٨)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، ذيل المذيل (١٣/ ١٢٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، وطبقات خليفة (٢٨٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦١)، والعقد الثمين (٦/ ٨٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٢١١)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٨٥).
وبنو جُمح بطن من قريش، انظر اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٢٩١)، وأنساب القرشيين (٥٤).

(٣) بلدة مشهورة باليمن، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخًا، ينظر معجم ما استعجم (١/ ٣٩٧)، ومعجم البلدان (٢/ ١٧٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، والجرح (٦/ ٣٣٠)، ومشاهير علماء الأمصار (٨١)، والثقات (٥/ ١٩٩)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦١)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، والتذكرة (١/ ٩٨).

(٥) تهذيب الكمال (٢٠/ ٧٥)، والسير (٥/ ٨٠)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤٠٣)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٢)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٥٦٦).

(٦) التاريخ الكبير (٦/ ٤٦٤)، والبداية (٩/ ٣٤٣)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٧)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٠)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣١)، وطبقات الحفاظ (٣٩).

ورواية[١] ، ولعل من أهم الأسباب في ذلك :

١ ـ تحرجه من تفسير القرآن برأيه :

كان من الأسباب الرئيسة لإقلال عطاء في التفسير، تحرجه من القول فيه برأيه، وقد اتضح ذلك في منهجه، ومسلكه، وتميز بهذا بين مشاهير أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما .

ويروي لنا ذلك أقرب الناس إليه، وأعرفهم بحاله، تلميذه ابن جريج؛ فيقول : كنت أسأل عطاء عن كل شيء يعجبني، فلما سألته عن البقرة، وآل عمران، أو عن البقرة، قال : أعفني عن هذا، أعفني عن هذا[٢] .

وكان يغلب الأثر، والسماع، على الرأي، فيتحرج في كثير من المسائل أن يقول فيها برأيه .

فعن عبد العزيز بن رفيع قال : سئل عطاء عن شيء، قال : لا أدري . قال : قيل له : ألا تقول فيه برأيك؟ قال : إني أستحي من الله أن يُدان في الأرض برأي[٣] .

وكان يقول : لا أدري نصف العلم[٤] .

ومما جاء عنه أنه سأله ابن جريج عن قوله : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ** ﴾[٥] . فيمن نزلت؟ قال : لا أدري[٦] .

---

(١) المروي عن مجاهد (٦١٠٩) أقوال، وعن سعيد (١٠١٠) أقوال، وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً، وعن عطاء (٤٨٠) قولاً : ومع هذا فثلث المروي منها جاء في تأويل آيات الأحكام .

(٢) العلل لأحمد (٢/ ١٣١) ١٧٨٢ .

(٣) سنن الدارمي (١/ ٤٧)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٨٢)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٥)، والتهذيب (٧/ ٢٠٢).

(٤) السير (٥/ ٨٥).

(٥) سورة البقرة : آية (٢١٧).

(٦) تفسير الطبري (٤/ ٣١٠) ٤٠٩١ .

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: أرسلت إلى عطاء أسأله عن المُولي[١]، فقال: لا علم لي به[٢].

وما كان قوله: لا أدري، عن عجز مطلق كما يُتوهم؛ ولكن يقول: لا أدري، عندما يكون الذي وصل إليه ظنًا، لا ينبغي عنده إعلانه.

والمتتبع لما روي عنه يجد أن كثيراً من تفسيره جاء من طريق صاحبه ابن جريج[٣]، وأن غالب ما ورد عنه من الآراء والتفاسير التي أخذها منه، كان جوابًا لما يسأل عنه، ولم يتحدث به عن عطاء ابتداءً[٤].

وقد ذكر أبو بكر بن عياش، أن عطاء كان لا يتكلم حتى يُسأل[٥].

وكان ـ رحمه الله ـ من أكثر أصحاب ابن عباس ـ أخذًا وتفسيراً للآية بظاهر نصها، من ذلك ما روي عنه في تفسيره لقوله جل ثناؤه: ﴿ **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾[٦].

قال عطاء: يفطر من المرض كله كما قال الله تعالى[٧].

---

(١) المُولي: الحالف الذي يحلف على اعتزال امرأته. ينظر تفسير الطبري (٤/ ٤٥٦ ـ ٤٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٩٧) ٤٦٦٣، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٤٩).

(٣) حيث روى (٥٠, ٠) من تفسير عطاء، ولازمه أكثر من ثماني عشرة سنة.

(٤) هذا من المفارقات بينه، وبين أقرانه من تلاميذ ابن عباس؛ حيث نجد ابن جريج يروي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد، ولكننا نلاحظ أنه في الرواية عن أولئك يقول: سمعت مجاهداً وعكرمة وسعيداً، أما في كثير مما يرويه عن عطاء فيقول: سألت عطاء عن كذا، فقال: كذا.

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٥).

(٦) سورة البقرة: آية (١٨٥).

(٧) رواه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾، وأشار ابن حجر إلى وصله في التغليق من طريق عبد الرزاق عن عطاء بنحوه. وينظر التغليق (٤/ ١٧٦) ٦٥٦٨، والفتح (٨/ ١٧٩)، والمصنف لعبد الرزاق (٤/ ٢١٩).

وعند قوله جل وعلا: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[١].

عن ابن جريج قال: قال عطاء: لو أن حاجًا أفاض بعد رمي جمرة العقبة، فطاف بالبيت ولم يسع فأصابها ـ يعني امرأته ـ لم يكن عليه شيء، لا حج ولا عمرة؛ من أجل قول الله في مصحف ابن مسعود: «فمن حج البيت، أو اعتمر، فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما» فعاودته بعد ذلك فقلت: إنه قد ترك سنة النبي ﷺ، قال: ألا تسمعه يقول: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فأبي أن يجعل عليه شيئًا»[٢].

وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: قوله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾[٣]؟ قال: مثل ما ذكره الله تعالى ذكره[٤].

وعنه قال: سُئل عطاء عن رجل صلى ولم يتمضمض، قال: ما لم يسمَّ في الكتاب يُجزئه[٥].

وقد ذكر النووي شيئًا من غريب إفتائه يدل على ما سبق.

من ذلك قوله: إذا أراد الإنسان سفرًا، فله القصر قبل خروجه. ومنها: إذا كان العيد يوم الجمعة وجبت صلاة العيد، ولا يجب بعدها لا جمعة ولا ظهر، ولا صلاة بعد العيد إلا العصر[٦].

ومع هذا الإقلال في إعمال الرأي، فإنه كان إذا قال في المسألة من اجتهاده، بيَّنه

---

(١) سورة البقرة: آية (١٥٨).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٤١) ٢٣٥٦، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عطاء مختصرًا (١/ ٣٨٧).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٣٣).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٦٥) ٥٠٤٠، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن ابن جريج عن عطاء بزيادة في آخره (١/ ٦٨٩).

(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩) ١١٣٦٢.

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٤)، والعقد الثمين (٦/ ٨٦).

ووضحه، فعند قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾[١] قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عدل ذلك صيامًا؟ قال: عَدْل الطعام من الصيام. قال: لكل مُدّ يومًا، يأخذ زعم بصيام رمضان، وبالظهار. وزعم أن ذلك رأي يراه، ولم يسمعه من أحد، ولم تمض به سُنة[٢].

ولعل هذا البعد عن الرأي، كان بسبب كثرة اشتغاله بعلم الأثر والحديث، فاستغنى بمحفوظه عن الرأي في كثير مما يعرض له.

ولذا قال الشافعي: ليس من التابعين أحد أكثر اتباعًا للحديث من عطاء[٣].

وكان لاتصاله برجالات مدرسة المدينة، أكبر الأثر في تأكيد هذا المعنى في نفسه، فقد رحل إلى مدينة الحديث والأثر، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتأثر بها، ويدل لذلك ما رواه عمرو بن دينار قال: لم يزالوا متناظرين (يعني: أصحاب ابن عباس) حتى خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إلينا، استبان فضله علينا[٤].

ولعل مما يؤكد حبه للأثر والحديث. وكثرة اشتغاله بهما، توسعه في الرواية وأخذه عن كل من حدثه؛ ولذا اعتبر العلماء مراسيله من أضعف المراسيل؛ لأنه يأخذ عن كل أحد.

يقول يحيى بن سعيد القطان: مرسلات مجاهد أحب إلينا من مرسلات عطاء

---

(١) سورة المائدة: آية (٩٥).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٤٥) ١٢٦٣٠.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٤)، وترتيب المدارك (١/ ٦٣).

(٤) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٤٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٨)، والسير (٥/ ٨٢).

بكثير، كان عطاء يأخذ من كل ضرب[١].

وقال أحمد: ليس في المرسل أضعف من مرسل الحسن، وعطاء؛ كانا يأخذان عن كل أحد[٢].

٢ ـ اشتغاله بالفقه، والإفتاء:

كانت عناية عطاء القصوى متجهة إلى الفقه، والفتوى، لا سيما ما يتعلق بأحكام الحج ومناسكه[٣]، وقد غلب هذا على منهجه، ومسلكه، بل تميز بين أصحاب ابن عباس بذلك، وفاقهم فيه[٤].

يقول ربيعة الرأي: فاق عطاء أهل مكة في الفتوى[٥].

بل كان ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يقول لأهل مكة: تجتمعون عليَّ وعندكم عطاء[٦]؟!.

---

(١) الميزان (٣/ ٧٠)، والتهذيب (٧/ ٢٠٢)، والعقد الثمين (٦/ ٨٥)، وقواعد في علوم الحديث للتهانوي (١٥٦).

(٢) المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٣٩)، والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٣٧)، وميزان الاعتدال (٣/ ٧٠)، وبحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (٦٤).

(٣) بعد مراجعة تفسير الطبري وجدت مجموع ما روي عنه (٤٨٠) قولاً، منها (١٦٠) رواية في تفسير آيات الأحكام، (٩٦) قولاً منها في آيات الحج، أي: أن ما نسبته (٦٠,٠) من تفسيره الفقهي كان عن الحج، ومناسكه.

(٤) إذ بلغت نسبة ما روى عنه في تفسير آيات الأحكام (٣٣,٠) من مجموع ما روى عنه في التأويل. في حين بلغت عن مجاهد ما يقرب من (٠٣,٠)، وعن عكرمة (٠٤,٠)، وعن سعيد (٠٩,٠) من مجموع تفسيرهم.

(٥) الجرح (٦/ ٣٣٠)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٠٢)، وتهذيب الأسماء (٣٣٤/ ١)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٨)، والعقد الثمين (٦/ ٨٥).

(٦) التذكرة (١/ ٩٨)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٧)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٧٢)، والتهذيب (٧/ ٢٠١)، والسير (٥/ ٨١).

وكان ابن عمر يقول: تجمعون لي المسائل، وعندكم عطاء[١] ؟!.

ويقول ابن سعد: وقد انتهت فتوى أهل مكة إليه[٢].

وكان قتادة يقول: إذا اجتمع لي أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء، هؤلاء أئمة الأمصار[٣].

ويقول الإمام الأوزاعي: ذهب عليهم الحسن بالمواعظ، وذهب عطاء بالمناسك[٤].

وعن أبي جعفر قال: ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء[٥]، وكانوا يأمرون مناديًا يصيح في موسم الحج: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح[٦]. بل بلغ من رفعة شأنه في هذا أن خالد بن عبد الله القسري لما أمر بفقهاء أهل مكة أن يلقوا في السجن: عطاء، وعمرو بن دينار، وطلق بن حبيب، وصهيب مولى ابن عامر، فكُلِّم في عطاء أن يخرج في أيام الموسم ليفتي الناس، فلما رآه أهل مكة كبّروا[٧].

وتميز منهجه في تأويله لآيات الحج ومناسكه، باليسر والسهولة، والقول بعموم

(١) الحلية (٣/ ٣١١)، والجرح (٦/ ٣٣٠)، والمعرفة (١/ ٧٠٣)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٤)، والبداية (٩/ ٣٤٦)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦١)، والعقد الثمين (٦/ ٨٥)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٠)، وطبقات الحفاظ (٣٩).

(٣) تهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٩)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٠)، وتاريخ الإسلام (ح ١١٤ هـ/ ٤٢٢)، والبداية (٩/ ٣٤٤)، وطبقات الحفاظ (٣٩).

(٤) العلل لأحمد (١/ ٤٩٢) ١١٤٠.

(٥) العلل لأحمد (٣/ ٤٤٤) ٥٨٨٨، والمعرفة (١/ ٧٠٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٨٦)، (٥/ ٤٦٨)، والتعديل (٣/ ١٠٠٢)، ومعرفة علماء الحديث (١/ ١٧٢).

(٦) المعرفة (١/ ٧٠٢)، والتاريخ الكبير (٦/ ٤٦٤)، والمنتظم (٧/ ١٦٥)، والبداية (٩/ ٣٤٤)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٧ ـ ٦٣٩)، ومرآة الجنان (١/ ٢٧٠).

(٧) العلل لأحمد (٢/ ٤٦٨) ٣٠٧٠.

لفظ الآية، وترك كثير من القيود التي كان يحتاط بها الفقهاء من التابعين ومن بعدهم.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء عنه، عند قوله سبحانه: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[١].

فعن ابن جريج قال: قال عطاء: لو أن حاجًا أفاض بعد رمي جمرة العقبة، فطاف بالبيت، ولم يسع، فأصابها - يعني: امرأته - لم يكن عليه شيء، لا حج ولا عمرة[٢].

فكان عطاء يرى أن سعي الإفاضة تطوع، ولا شيء على من تركه.

وعن أحمد بن محمد الشافعي قال: كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس عطاء بن أبي رباح[٣].

ومما يشهد لهذا البروز في الفتيا والنبوغ في الفقه، اعتماد كثير من كتب الفروع على أقواله الفقهية، وإكثارهم في إيراد آرائه، فنجده مثلاً يأتي في المرتبة الأولى من بين تابعي المدرسة المكية في مغني ابن قدامة من حيث كثرة المروي عنه، وفي المرتبة الثانية من بين التابعين عمومًا[٤]، وكان أكثر حديثه في الحج، ومناسكه، فقد حج أكثر من سبعين حجة[٥].

وشهد له كثير من الأئمة بالإمامة في هذا الباب، يقول عبد العزيز بن أبي حازم عن

(١) سورة البقرة: آية (١٥٨).
(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٤١) ٢٣٥٦، وتقدم قريبًا.
(٣) الحلية (٣/ ٣١١)، وصفة الصفوة (٢/ ٢١٢)، والبداية (٩/ ٣٤٥)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٠).
(٤) جاء عطاء في المرتبة الثانية بعد الحسن في عموم ما جاء عن التابعين في المغني، فقد ورد ذكر الحسن في (٩١٢) موضعًا، في حين ذكر عن عطاء (٧٣٨) موضعًا، ثم إبراهيم النخعي في (٦٩٦) موضعًا، ثم الشعبي في (٥٠١) موضع، وغيرهم أقل منهم في ذلك.
(٥) وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٣)، وتهذيب التهذيب (١/ ٣٣٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤١)، وغاية النهاية (١/ ٥١٣)، والعقد الثمين (٦/ ٨٦).

أبيه: ما أدركت أحداً أعلم بالحج من عطاء[١].

وقال قتادة: أعلم الناس بالحلال والحرام الحسن، وأعلمهم بالمناسك عطاء بن أبي رباح، وأعلمهم بالتفسير عكرمة[٢].

وعنه قال: عطاء أعلم أهل زمانه بالمناسك[٣].

وكان يتأول الإحصار في قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[٤]. بأن الإحصار: كل شيء يحبسه[٥].

ومن ذلك أيضًا أنه لما سأله ابن جريح عن قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾[٦]، ما «أذى من رأسه»؟ قال: القمل وغيره، والصداع، وما كان في رأسه[٧].

هذه صور ونماذج لما روي عن عطاء تدل على تسهيله، وبعده عن التشديد في آيات الأحكام، وأخذ الحكم من ظاهر الآية، وكان هذا المنهج سمة غالبة على تلاميذ ابن عباس، ولا سيما في مسائل الحج والعمرة وأحكامهما.

---

(١) المعرفة (١/ ٧٠٢)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٨)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٠١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٨).

(٢) المعرفة (١/ ٧٠٢)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٦١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٨).

(٣) تاريخ دمشق (١١/ ٦٣٨)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٨).

(٤) سورة البقرة: آية (١٩٦).

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٢٢) ٣٢٢٩، وأخرجه البخاري معلقًا في صحيحه، في كتاب أبواب العمرة باب المحصر، عن عطاء بنحوه، وأشار ابن حجر في الفتح إلى وصله من طريق عبد بن حميد عن عطاء بنحوه (٤/ ٣)، وأخرجه الثوري في تفسيره عن عطاء بنحوه (٦١).

(٦) سورة البقرة: آية (١٩٦).

(٧) تفسير الطبري (٤/ ٥٤) ٣٣٢٣، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى وكيع وعبد بن حميد وابن جرير، عن عطاء بنحوه (١/ ١٥)، ولمزيد من الأمثلة يراجع تفسير الطبري الآثار ذوات الأرقام: ١٩٩٢، ٣٣٠٣، ٣٤٠١، ٣٤٧٨، ٣٥١١، ٣٩٢٩، وغيرها.

وهذا الاشتغال بالفقه، والإفتاء، كان من أسباب قلة تفرغه لعلم التفسير، مع ما كان عنده من الهيبة والورع في جانب التأويل، ولذا يجد المراجع لترجمته، أن كثيراً ممن ترجم له قدم ترجمته بإبراز المعالم الواضحة في شخصيته، فاتفقت كلمة كثير من المحققين، والمؤرخين، في تصدير ترجمته بقولهم: فقيه الحرم[١]، مفتي أهل مكة[٢]، فقيه الحجاز[٣].

كما نجد في المقابل أن من تعرض لبيان طبقات المفسرين من التابعين، ومن بعدهم، لم يعرض لترجمة عطاء، مع تعرضه لترجمة غيره من أصحاب ابن عباس[٤].

٣ ـ قلة الناقلين لتفسيره :

كان مجلس عطاء من مجالس العلم التي قلَّ الحاضرون فيها، والشاهدون لها، فما كان يشهد مجلسه إلا تسعة، أو ثمانية، كما ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم[٥].

يقول الإمام الأوزاعي: كان عطاء من أرضى الناس عند الناس، وما كان ينهد[٦] إلى مجلسه إلا سبعة، أو ثمانية[٧].

---

(١) الحلية (٣/ ٣١٠)، والسير (٥/ ٧٨).

(٢) تاريخ الثقات (٣٣٢)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٧٠).

(٣) دول الإسلام (٧٩)، والعبر (١/ ١٠٨)، ومرآة الجنان (١/ ٢٧٠)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

(٤) كما نجد ذلك عند مراجعة كتاب طبقات المفسرين للداودي حيث ذكر ترجمته لمجاهد، وعكرمة، وسعيد، وغيرهم، ولم يذكر عطاء لعده من الفقهاء.

(٥) الحلية (٣/ ٣١١)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٤٩)، والمعرفة (١/ ٧٠٢)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، والتذكرة (١/ ٩٨)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٨٠)، والبداية (٩/ ٣٠٦).

(٦) ينهد أي: ينهض، النهاية في غريب الحديث (٥/ ١٣٤).

(٧) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٧٢١)، وأبو نعيم في الحلية بلفظ: وكان أكثر من يسند إليه (٣/ ٣١١)، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق باللفظين (١١/ ٦٤٢).

وزاد في رواية عنه : وما كان أكثرهم من يهتدي إليه[١] .

قلت : ولكن ابن جريج ممن اهتدى إليه ، وأطال في ملازمته ، واستخرج كثيراً من علمه بالسؤال ، وأحسب أنه لولا هذا المسلك الذي سلكه ابن جريج مع عطاء لضاع كثير من علمه .

وابن جريج قد حدث عن عطاء فأكثر وجود[٢] ، ولازمه أكثر من ثماني عشرة سنة[٣] .

وعده الإمام أحمد من أثبت الناس في عطاء ، هو وعمرو بن دينار[٤] .

وبلغ من شدة إتقانه لحديث عطاء ، أن قال الثوري عنه : ما ترك ابن جريج أحداً سمع من عطاء إلا فضحه[٥] .

فعناية ابن جريج وإتقانه في روايته عن عطاء ، وكثرة سؤاله له ، أبقت على بقية من علم عطاء .

٤ ـ ضعف اعتماده على اللغة في تفسيره :

قد يكون هذا من الأسباب المفضية إلى قلة الوارد ، وندرة المروي عنه ، فإن المتأمل لتفسيره يلحظ أن اتكاءه على لغة العرب كان قليلاً ، فإن رمت شاهداً من أشعار البلغاء ، أو حجة من كلام الفصحاء ، لم تكد تظفر بطائل ، كما إنه لم يرد عنه القول بوقوع المعرب في الفرقان إلا في موضع فذ[٦] .

(١) المعرفة (١/ ٧٠٢) ، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٢) .
(٢) السير (٦/ ٣٢٦) .
(٣) المعرفة (١/ ٧٠٣) ، والحلية (٣/ ٣١٠) ، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٣) ، وصفة الصفوة (٢/ ٢١٣) .
(٤) العلل لأحمد (٢/ ٤٩٦) ٣٢٧٢ ، (٣/ ٢١٩) ٤٩٥٠ .
(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٥٠) ، والمعرفة (٢/ ٢١) .
(٦) لم يرد عنه إلا رواية واحدة في تفسير «أواه» قال : الموقن بلغة الحبشة ، ينظر تفسير الطبري (١٤/ ٥٢٨) ١٧٣٩٥ .

ولم يكن هذا الشح في الأشعار، والندر في لغة العرب زهداً منه في ذلك، بل كان لعدم تضلعه في العربية، وقد عرف ذلك من نفسه ـ رحمه الله ـ وأقرَّ به، فقال: وددت أني أحسن العربية. قال ذلك وهو يومئذ ابن تسعين سنة[١].

ما انفرد به من أمور في منهجه:

وبعد هذا البيان لأهم الأسباب التي كانت وراء قلة المروي عن عطاء في التفسير، أحب أن أشير إلى جملة من الأمور في منهجه، انفرد بها عن أصحاب ابن عباس منها:

١ ـ قلة اعتماده على روايات بني إسرائيل:

تميز ـ رحمه الله ـ بمنهج فريد بين سائر التابعين، وعلى الأخص بين المكيين؛ فالمدرسة المكية من أكثر المدارس توسعًا في الرواية عن بني إسرائيل؛ ولكن عطاء خالفها مخالفة بينة واضحة في كم المروي ونوعه[٢].

فعند مراجعة ما روي عنه في التفسير، نجده في كثير من المواضع التي روي فيها شيء من الإسرائيليات عن التابعين قد أعرض عنها، فعند مروره بتأويل سورة البقرة ـ في قصة عداوة آدم وإنزاله إلى الأرض ـ ضرب صفحًا عما جاء في قصة البقرة من روايات، ولما مرّ بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[٣] تلك الآية التي ورد فيها العديد من الروايات عن الصحابة والتابعين[٤]، قال عندها: نراه: ما

---

(١) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٤)، والسير (٥/ ٨٧)، والعقد الثمين (٦/ ٨٦)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٤٩).

(٢) حيث روي عنه ما نسبته (٠,٠١) من مجموع تفسيره، في حين روي عن مجاهد، وعكرمة (٠,٠٣) من مجموع تفسيرهما، وروي عن سعيد (٠,٠٦) من مجموع تفسيره.

(٣) سورة البقرة: آية (١٠٢).

(٤) ورد في ذلك العديد من الروايات عن الصحابة كعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم من التابعين مثل مجاهد، وسعيد، والربيع، والسدي، وقتادة. وكثير من هذه الروايات فيها من نكارة الخبر ما يوجب رده. ينظر تفسير الطبري (٢/ ٤٠٥ ـ ٤٣٦).

تُحدِّث. ولم يزد على ذلك[١].

بل ويتضح منهجه المتميز أكثر عندما مرَّ بقصة الذين خرجوا من ديارهم، نجد أنه تعامل مع القصة على ظاهرها القرآني، ولم يرض عما جاء فيها من روايات، ولم يعتمده، ولذا خالف جمهور المفسرين[٢]، عندما فسر قوله تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٣] قال: ما يعرفون من الآيات، يسكنون إليها[٤].

وعندما مرَّ بقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[٥] قال في تفسير البقية: العلم والتوراة[٦].

في حين روي عن كثير من التابعين أن البقية هي: عصا موسى ورُضاض الألواح[٧].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤١٠) ١٦٥٣.

(٢) قال علي بن أبي طالب: هي ريح هفافة، لها وجه كوجه الإنسان، ينظر تفسير الطبري (٥/ ٣٢٦) ٥٦٦٥ـ٥٦٧١، وزاد المسير (١/ ٢٩٤).
وقال مجاهد: السكينة: لها رأس كرأس الهر وجناحان، ينظر تفسير الطبري (٥/ ٣٢٧) ٥٦٧٢ـ٥٦٧٥، وزاد المسير (١/ ٢٩٤).
وقال ابن عباس، والسدي: هي طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.
ينظر تفسير الطبري (٥/ ٣٢٨) ٥٦٧٨، ٥٦٧٩، وزاد المسير (١/ ٢٩٤).
قال ابن جرير معلقًا على هذا الخلاف: وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى الآية ما قاله عطاء ابن أبي رباح (٥/ ٣٢٩).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٤٨).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٣٢٩) ٥٦٨٢.

(٥) سورة البقرة: آية (٢٤٨).

(٦) تفسير الطبري (٥/ ٣٣٤) ٥٦٩٩، وزاد المسير (١/ ٢٩٥).

(٧) قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، والربيع، تفسير الطبري (٥/ ٣٣١)، (٥٦٨٥ـ٥٦٩١)، وزاد المسير (١/ ٢٩٥).
وانظر بعض الأقوال القريبة من ذلك في تفسير الطبري (٥/ ٣٣٢)، (٥٦٩٤ـ٥٦٩٨)، وزاد المسير (١/ ٢٩٥).

وعندما مرَّ بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾[١]، لم يذكر شيئًا من الإسرائيليات المروية في ذلك[٢]، إنما قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾[٣].

وعطاء ـ رحمه الله ـ لم يرد عنه سوى خمس روايات إسرائيلية، أربع منها في قصة بناء الكعبة[٤]، مع أنه ـ رحمه الله ـ عاش في وسط الشيوخ والأقران الذين أكثروا من النقل، والرواية عن أهل الكتاب، ومع ذلك كله تميز منهجه بالإعراض، والتحرز الشديد من قبول شيء منها أو روايته.

كما أن مما يشار إليه هنا، أن تلميذه الخاص الذي عني بنقل جل تفسيره ابن جريج، والذي صحبه ثمانية عشر عامًا، كان من المهتمين والمكثرين من الرواية عن بني إسرائيل، ولو وجد شيئًا من ذلك عن شيخه، وعن أقرب الناس إليه لكان به أسعد، وله أروى، ولكنه لم يجد من ذلك شيئًا. مما يدل على أن إعراض عطاء كان نتاج منهج، ومسلك اتخذه لنفسه.

ذكرت هذا للتأكيد على نقطة تميز بها عطاء عن غيره من التابعين، كعامر الشعبي الذي قاربه في هذا المسلك، لكن يظل هناك فارق رئيس بينهما، ألا وهو أن عامرًا الشعبي في مدرسة كانت بعيدة كل البعد عن الرواية عن بني إسرائيل، على عكس البيئة، والمدرسة التي تتلمذ فيها عطاء، واستفاد منها.

٢ ـ قلة الملازمة والمصاحبة لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :

فعند الرجوع لكتب التراجم، والسير، والتاريخ، لا نجد شيئًا من الإشارة إلى

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٦٠).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٤٨٦ ـ ٤٩٠).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ٤٩٠) ٥٩٧٢، وزاد المسير (١/ ٣١٣).
(٤) تفسير الطبري (٣/ ٥٧ ـ ٦١) ٢٠٣٧، ٢٠٤١، ٢٠٤٥، ٢٠٤٧.

طول ملازمة أو كثرة رواية من عطاء[١] لابن عباس، إلا ما قيل أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يا أهل مكة تجتمعون علي وعندكم عطاء.

أما غير ذلك فلا نجد شيئًا، بخلاف ما ذكر من أحوال بقية أصحابه، كمجاهد، وعكرمة، وسعيد، وغيرهم، من طول مصاحبة، وكثرة تردد، ومجالسة، ومساءلة، ولعل هذا مما يفسر الفرق والتباين في المنهج بين عطاء وغيره من أصحاب ابن عباس الذين كان تأثرهم به أكثر.

بل إن مما ظهر لي أن بعض كبار التابعين كأبي العالية البصري ـ مع أنه بصري ـ فإنه تأثر بأقوال ابن عباس وتفسيره أكثر من تأثر عطاء.

كما أن هذا مما يفسر، ويوضح قصر باع عطاء في التفسير، وقلة المروي عنه، إذا ما قورن بغيره من المكيين.

٣ ـ توسعه في الفقه، والإفتاء:

فقد سبق في ماضي القول أن أشرت إلى تقدمه في هذا الجانب، حتى إنه فاق غيره من المكيين في الفتوى بعامة وفي المناسك بخاصة.

ومما يسجل هنا أن مدرسة مكة لم تعن كثيراً بالفقه كعنايتها بالتفسير، وخالف عطاء منهج المدرسة في هذا، وانفرد بطول الباع في الرواية، والعناية بالفقه، والإفتاء، وقد شغله هذا عن التفسير والإقراء[٢].

---

(١) وجدت ذلك عند مراجعة تفسير ابن عباس، فإن عطاء كان من أقل مفسري المدرسة المكية رواية لتفسير ابن عباس؛ فقد روى سعيد بن جبير (١٢, ٠) من مجموع تفسير ابن عباس، وروى عكرمة (٠٩, ٠) من مجموع تفسيره، ومجاهد (٠٣, ٠)، وعطاء روى (٠٢, ٠) فقط من مجموع تفسيره.

(٢) المروي عن مجاهد بلغ (٦١٠٩) رواية، وعن سعيد (١٠١٠) رواية، وعن عكرمة (٩٤٣) رواية، وعن عطاء (٤٨٠) رواية، فهو من أقلهم رواية في التفسير.

وقد امتد به الأجل، فبارك الله له في عمره، فقارب التسعين عند وفاته عام خمسة عشر ومائة على قول الجمهور[١].

وذهب بعضهم إلى أنه توفي سنة أربع عشرة ومائة، واختار هذا القول جمع من المؤرخين[٢]. وكان مولده سنة سبع وعشرين[٣]، وعاش ثمانيًا وثمانين سنة[٤].

* * *

(١) التاريخ الكبير (٦/ ٤٦٤)، وتاريخ خليفة (٣٤٦)، والمصنف لابن أبي شيبة (١٣/ ٦٩) ١٥٧٨١، والمعارف (١٩٦)، والعلل لأحمد (٢/ ١٧٣) ١٩٠٨، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٨٥)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٠)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٥٦٦)، والوفيات لابن قنفذ (١١٢)، والكامل في التاريخ (٥/ ١٧٩)، ومروج الذهب (٣/ ٢١٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٣).

(٢) التذكرة (١/ ٩٨) ودول الإسلام (٧٩)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٧٢)، والبداية (٩/ ٣٤٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٣)، ومرآة الجنان (١/ ٢٧٠)، وتاريخ الخميس (١/ ٣١٩).

(٣) الثقات (٥/ ١٩٩)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٠)، والتهذيب (٧/ ٢٠٢)، والعقد الثمين (٦/ ٨٦).

(٤) الجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٨٥)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٢)، والكامل (٥/ ١٧٩)، وغاية النهاية (١/ ٥١٣)، وطبقات الحفاظ (٣٩).

الحسن البصري

الحسن بن أبي الحسن يسار[١] أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السَّلمي[٢].

ولد الحسن في بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة النبوية لسنتين بقيتا من خلافة عمر ـ رضي الله عنه[٣] ـ. وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين[٤].

نشأ الحسن بوادي القرى، وكان فصيحًا[٥].

روى عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وابن عمرو، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعمرو بن العاص، وعمران بن حصين، وأسامة بن زيد، وجابر بن عبد الله، وثوبان، وغيرهم[٥].

قدم البصرة مع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه[٦] ـ.

عوامل السبق عند الحسن:

هناك عاملان رئيسان كانا وراء تفوق الحسن، وسبقه في علم التأويل.

---

(١) التاريخ الكبير (٢/ ٢٨٩)، والحلية (٢/ ١٣١)، والتذكرة (١/ ٦٦).
(٢) الجرح (٢/ ٤٠)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٣٢)، والتهذيب (١/ ١٣٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٦)، والثقات (٤/ ١٢٣)، والعبر (١/ ١٠٣)، والتهذيب (٢/ ٢٦١)، والتحفة اللطيفة (١/ ٤٧٦)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٦٢).
(٤) تهذيب الكمال (٦/ ٩٧).
(٥) تهذيب الكمال (٦/ ٩٧ ـ ٩٨)، وتهذيب التهذيب (١/ ١٣٤).
(٦) السير (٤/ ٥٦٤).

أولهما : تقدمه في علوم اللغة العربية ، يتضح هذا من خلال ما يلي :

أ ـ فصاحته :

كان لنشأته في البادية[١] ، حيث الفصاحة ، واللسان العربي المبين البعيد عن لوثة المدن ، وما يخالطها من عجمة الرقيق ، ثم نشأته منذ نعومة أظفاره في بيت من بيوتات النبوة ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ في بيت أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها[٢] ـ ، ثم تتلمذه المبكر علي يد جلة من أكابر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، كان لذلك الأثر الأكبر على منطقه وحسن عبارته ، مما يجعل القارئ لتفسيره[٣] ، يلحظ ذلك التفوق ، والتميز ، وتلكم الفصاحة التي فاق بها الحسن أقرانه من التابعين ، ومن بعدهم .

إن السبك القوي في نظم الكلام ، والقدرة الفائقة في اختيار أعذب الألفاظ ، وأخصرها ، وأبلغها وقعًا في نفوس السامعين ، وأشدها تأثيراً في أحاسيسهم ، كان من الأسباب الرئيسة في قبول ، وانتشار أقواله وتفاسيره ، وحرص الناس على روايتها ، وحفظها .

لقد عني ـ رحمه الله ـ بمنطقه فانتقى ألفاظه ، واختار كلماته حتى قال الأعمش عنه : ما زال الحسن يعتني بالحكمة حتى نطق بها ، وسمعه آخر وهو يعظ فقال : لله دره إنه لفصيح إذا لفظ ، نصيح إذا وعظ[٤] .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٧/ ١٥٧) ، والسير (٤/ ٥٦٤) .

(٢) قال ابن سعد : يذكرون أن أمه (وهي مولاة لأم سلمة) كانت ربما غابت فيبكي الصبي ، فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به ، إلى أن تجيء أمه ، فدرَّ عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة ، والفصاحة من بركة ذلك ، ينظر طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٧) ، والمنتظم (٧/ ١٣٦) ، وتاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ / ٥١) .

(٣) ولجميع كلماته من مواعظ وأحكام وخطب وآداب .

(٤) الحسن البصري لابن الجوزي (١٤) .

وكان الحسن إذا ذكر عند أبي جعفر الباقر قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء[١].

وبلغ من فصاحته ـ رحمه الله ـ أن قال عنه أبو عمرو بن العلاء[٢]: ما رأيت أفصح من الحسن، والحجاج، فقيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن[٣].

وقال ابن عون: كنت أشبه لهجة الحسن بلهجة رؤبة بن العجاج[٤]، يعني في الفصاحة[٥].

وقال ابن الجزري: روينا عن الشافعي قوله: لو أشاء أقول: إن القرآن نزل بلغة الحسن لقلت، لفصاحته[٦].

وعن خالد بن صفوان قال: ليس أحد يتكلم إلا وكلامه يحتاج بعضه إلى بعض، إلا الحسن فإن الكلمة الواحدة منه تجزئ[٧].

وعن أيوب قال: ما سمع أحد كلام الحسن إلا ثقل عليه غيره[٨].

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٤٧)، وتهذيب الكمال (٦/ ١١٨)، وإحياء علوم الدين (١/ ٧٧)، وتاريخ الإسلام للذهبي (ح ١١٠ هـ/ ص ٥٦).

(٢) أبو عمرو بن العلاء المازني، النحوي القارئ البصري، من علماء العربية، ينظر معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ٨٣).

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٧٠)، والكامل لابن الأثير (٤/ ١٣٢)، والسير (٤/ ٥٧٨)، والتهذيب (٢/ ٢٧٠)، والبيان والتبيين (١/ ١٦٣).

(٤) رؤبة بن عبد الله العجاج التميمي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة، ولما مات قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة، ينظر وفيات الأعيان (١/ ١٨٧)، وخزانة الأدب (١/ ٤٣)، والبداية (١٠/ ٩٦).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٦)، والتهذيب (٢/ ٢٧٠)، وخزانة الأدب (١/ ٩٠)، والشذرات (١/ ١٣٨)، ومفتاح السعادة (٢/ ١٦٤)، والأغاني (٢٠/ ٣٦٦).

(٦) غاية النهاية (١/ ٢٣٥)، ومفتاح السعادة (٢/ ٢٤).

(٧) أخبار القضاة (٢/ ١٢).

(٨) المرجع السابق (٢/ ١٣)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٥١).

وعن أيوب قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدُّر؛ فتكلم قوم من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء[١].

ومما روي عنه أن يزيد بن أبان الرقاشي تكلم، ثم تكلم الحسن البصري بعده، وأعرابيان حاضران، فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلين؟ فقال: أما الأول فقاصٌّ مُجيد، وأما الآخر فعربي مُحَكٌّ[٢].

وقد شهد له كثير من الأئمة بالسبق، والإمامة في الفصاحة، حتى فاق أهل زمانه[٣].

والمطالع لتفسيره يجده من أحسن التابعين كلامًا في تفسير القرآن الكريم[٤].

هذا ما يتعلق بجانب الفصاحة، وجزالة الألفاظ، والإمامة في البلاغة.

ب ـ تقدمه في النحو، وعدم لحنه:

فما عرف عن الحسن لحن، بل إن رجلاً قال له: يا أبا سعيد: والله ما أراك تلحن، فقال يا ابن أخي، سبقت اللحن[٥].

وكان ـ رحمه الله ـ يُلَحِّن الفرزدق، والكميت، وذا الرمة[٦].

ولم ير اللُّحَنَة أهلاً لأن يتقدم الناس، فقد سئل عن إمام يلحن، فقال أخِّروه[٧].

---

(١) السير (٤/ ٥٧٧).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٢٠٤).

(٣) قال عنه ابن حبان، والذهبي، وابن حجر: إنه من أفصح أهل البصرة، يُنظر الثقات (٤/ ١٢٣)، والسير (٤/ ٥٦٥)، والتهذيب (٢/ ٢٧٠).

(٤) التسهيل (١/ ١٠).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٥٨) ٩٩٦٩.

(٦) خزانة الأدب (١/ ٦)، والسير (٤/ ٥٧٧)، والبيان والتبيين (٢/ ٢١٩).

(٧) غريب الحديث للخطابي (١/ ٦١)، والتذكار في أفضل الأذكار (١٢٤)، وشعب الإيمان (٢/ ٤٣٠) ٢٣٠٣.

وكان يقول : تعلموا ـ وفقكم الله ـ العلم للأديان ، والطب للأبدان ، والنحو لتقويم اللسان[١] .

وكان يحث على تعلم اللغة ، فعندما سئل عن قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيهم ﷺ[٢] .

قال يحيى بن عتيق : سألت الحسن ، فقلت : أريت الرجل يتعلم العربية يطلب بها حسن المنطق ، ويتلمس أن يقيم قراءته؟ قال : حسن يابن أخي فتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية ، فيعياه توجيهها ، فيهلك فيها[٣] ، وعنه ـ أيضًا ـ قال : أهلكتكم العجمة ، تتأولون القرآن على غير تأويله[٤] .

ولحرصه على حسن التلاوة ، وخوفه من وقوع اللحن ، والتحريف في القرآن ، كان ممن يرى جواز نقط المصاحف ؛ خوفًا من اللحن والتحريف ، فقد سأل أبو رجاء ابن سيرين عن نقط المصاحف فقال : إني أخاف أن تزيدوا في الحروف ، أو تنقصوا منها ، وسألت الحسن فقال : ما بلغك ما كتب به عمر : أن تعلموا العربية ، وحُسن العبارة ، وتفقهوا في الدين؟![٥] .

هذا بالإضافة إلى ما كان عليه ـ رحمه الله ـ من الاطلاع الواسع ، وحفظ لغات العرب ، وكلامهم ، ومن أمثلة ذلك :

ما ورد عنه عند تأويل قوله تعالى : ﴿ **وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ** ﴾[٦] الآية ، قال :

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي (٣٧) .

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (١٢٤) ، ومفتاح السعادة (٢/ ٥٨٥) .

(٣) الاعتصام (٢/ ٢٣٩) ، والإتقان (١/ ٤٨٨) ، ومفتاح السعادة (٢/ ٥٨٥) .

(٤) المحرر الوجيز (١/ ١٥) ، والاعتصام (٢/ ٢٣٩) .

(٥) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٤٥٨) ٩٩٧١ ؛ وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٤٠) ، وكنز العمال (٢/ ٣٦٥) ، ومفتاح السعادة (٢/ ٣٧٥) .

(٦) سورة الأنعام : آية (١٠٠) .

خرقوا ـ بالتخفيف ـ كلمة عربية، كان الرجل إذا كذب في النادي قيل: خرقها ورب الكعبة[١].

ومنها ما ورد عنه عند تفسير قوله سبحانه: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾[٢]، فعن أيوب قال: سألت الحسن عن هذه الآية، فقال: لو كنت امرأ عربيًا لعرفت ما هي، إنما هي فاستمرت به[٣].

وروي عنه عند قوله جل وعلا: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ﴾[٤] عن قتادة، قال: قال الحسن: كانت العرب في الجاهلية إذا خشوا عدوًا قالوا: عليكم الوزر: أي عليكم الجبل[٥].

جـ ـ سبقه في معرفة الغريب من اللغة:

وكان من نتاج تلك الفصاحة، والتقدم في معرفة لسان العرب ولغاتها، أن اتخذه كثير من الأئمة حجة في اللغة، واستشهدوا بجمل من كلماته في ذلك، منهم: ابن قتيبة[٦]، والزمخشري[٧]، وأبو عيسى المديني الأصفهاني[٨]، وابن الأثير[٩]، وابن

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٦)، وأورده السيوطي في الدر، عن أبي الشيخ عن الحسن بلفظ مقارب (٣/ ٣٣٥).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٨٩).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠٤) ١٥٥٠٠، وتفسير ابن عطية (٧/ ٢٢٣)، وأورده السيوطي في الدر وعزاه إلى ابن جرير، وأبي الشيخ عن أيوب، عن الحسن به (٣/ ٦٢٥).

(٤) سورة القيامة: آية (١١).

(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ١٨٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن الحسن بلفظ: كانت العرب إذا نزل بهم الأمر الشديد قالوا: الوزر الوزير، فلما أن جاء الله بالإسلام قال: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ﴾، قال: لا جبل (٨/ ٣٤٥).

(٦) في غريب الحديث؛ حيث استشهد بقول الحسن في (١٦) موضعًا.

(٧) في الفائق في غريب الحديث؛ حيث استشهد بقوله في (٧٢) موضعًا.

(٨) في المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث؛ حيث استشهد بقوله في (٤٦) موضعًا.

(٩) في النهاية في غريب الحديث والأثر؛ حيث استشهد بقوله في (١٥٠) موضعًا.

منظور[١] . . . وغيرهم.

وكان الحسن ـ رحمه الله ـ من أكثر التابعين[٢] معرفة، واستخدامًا للكلمات الغريبة في وعظه، وحديثه، وفي إجابته لمن يستفتيه، ومن أمثلة ذلك:

ما ورد عنه في مقام الوعظ؛ حيث قال: ما تشاء أن ترى أحدهم أبْيَض بَضّا يَمْلَخُ في الباطل مَلْخًا، ينفض مذْرَوَيه، ويضرب أسْدَرَيه، يقول: هأنذا فاعْرفوني! قد عرفناك، فمقتك الله، ومقتك الصالحون[٣].

ومنها ما روي عنه في فتنة ابن الأشعث؛ حيث قال: «والله إنها لعقوبة فما أدري أمستأصلة أم مجحجحة»[٤].

ومنها ما ورد عنه في بعض مواعظه؛ حيث قال: «حادثُوا هذه القلوب بذكر الله،

---

(١) في لسان العرب؛ حيث استشهد بقوله في (٢٦١) موضعًا.

(٢) من خلال النظر، والمقارنة، لما روي عن التابعين في هذا، وبالتتبع والمراجعة لكتب هؤلاء الأئمة الخمسة، تبين أن أكثر من استشهد بقوله في الغريب هو الحسن؛ حيث بلغ مجموع ما روي عنه في هذه الكتب (٥٤٥) رواية، في حين بلغ مجموع ما روي عمن يليه، وهو مجاهد (٢٤٢) رواية، ثم الشعبي (٢٢٨) رواية، ثم قتادة (١٨١) رواية، ثم النخعي (١٥٧) رواية، ثم ابن سيرين (١٢٧) رواية، وعطاء (١٢٧)، رواية، ثم ابن المسيب (١٠٩) رواية، ثم ابن جبير (٨٦) رواية، ثم عكرمة (٦٢) رواية.

(٣) أورده الزمخشري في الفائق (١/ ١١٦)، وقال في شرحه: والبض: الرقيق البشرة الرَّخص الجسد، والملخ: الإسراع، والمرّ السهل، يقال: بَكرة ملوخ: أي: سريع، والمذْرَوان: فرعا الأليتين، والأسدَران: العطفان؛ أي يضرب بيديه عليهما، عن ابن الأعرابي: وهو مثل للفارغ، ونفض المذْرَوَين للمختال اهـ.
وأورد هذا الأثر مختصرًا ابن الأثير في النهاية (١/ ١٣٢)، وابن منظور في اللسان (٧/ ١١٩).

(٤) النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٤٠)، والمجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (١/ ٢٩٨)، والفائق (١/ ١٩١)، وقال الزمخشري: أراد متوقفة كافة عن الاستئصال، يُقال: جَحْجَحَ عن الأمر، وجَحْجَحَ عليه، إذا لم يقدم عليه.

فإنها سريعة الدُّثور، واقْدعُوا هذه الأنفس فإنها طُلَعَة»[١] .

ونجد هذا أيضًا في حديثه العابر، وخبره، فمن ذلك قوله: كان أول من عُرف بالبصرة صعد المنبر، فقرأ البقرة، وآل عمران، ففسَّرها حرفًا، حرفًا، وكان مِنْجًا يسيل غَرْبًا[٢] .

ومنها قوله: جشأت الروم على عهد عمر ـ رضي الله عنه[٣] ـ.

وأما ما ورد عنه من غريب الألفاظ في فتاويه فكثير، من ذلك: أنه سُئل عن كسب التَّيَّاس، فقال الحسن: لا بأس به ما لم يَبْسُر ولم يَمْصُر[٤] .

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ٤٥٩)، وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٤٧)، والمجموع المغيث (٢/ ٣٦١)، وكتاب القصاص والمذكرين (١٢٥)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٢٦٨).
قال ابن الأثير: الطُّلَعَة: التي تطلّع إلى هواها، وشهواتها، ويُنظر لسان العرب (٨/ ٢٦٠)، وأخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي (ص ٩٠)، وزاد أن عبد الله بن أبي إسحاق (أحد النحويين) أخرج ألواحه فكتبها، وقال: استفدناها منك يا أبا سعيد، وأورد الأثر الجاحظ في البيان (١/ ٢٩٧)، وزاد أن أبا عمرو بن العلاء حُدث بهذا فتعجب، ويُنظر أمالي المرتضى (١/ ١٥٥).
ولمزيد من الأمثلة الدالة على كثرة استعماله للغريب في الوعظ يُنظر النهاية (١/ ٩٢)، (١/ ١٣١)، و(١/ ٢٣٢)... وغيرها.

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ١٠٤)، والفائق (١/ ١٦٣)، والنهاية (١/ ٢٠٧)، والبيان (٢٣١)، قال الزمخشري: شبه فصاحته وغزارة منطقه بماء يثج ثجا، الغَرْب: ما سال بحدَّة واتصال، بغير انقطاع اهـ، وأورد الأثر ابن الجوزي مختصرًا (١/ ١١٩).

(٣) النهاية (١/ ٢٧٢)، والمجموع المغيث (١/ ٣٢٩)، قال ابن الأثير: جشأت: أي نهضت، وأقبلت من بلادها، ولمزيد من الأمثلة الدالة على كثرة استعماله للغريب في الأخبار، ينظر: الفائق (١/ ١٥٨)، و(١/ ٣٥٣)، والنهاية (١/ ٦٩)، و(٢/ ٦).

(٤) الفائق (١/ ١٠٩)، والنهاية (١/ ١٢٦)، ولسان العرب (٤/ ٥٧)، قال ابن الأثير: البَسْر: ضَرْب الفحل الناقة قبل أن تطلب. يقول: لا تحمل على الناقة والشاة قبل أن تطلب الفحل، وقال الزمخشري، والمصر: أن يحلب بإصبعين، أراد ما لم يسترق اللبن.

ومنها أنه سئل: أيُدالك الرجلُ امرأته؟ قال: نعم إذا كان مُلْفَجًا[١].

بل كان ـ رحمه الله ـ قد يجيب السائل، فلا يدري ما يقول لغرابة مقاله، فمن ذلك، أنه سُئل عن القيء يذرع الصائم، فقال: هل راع منه شيء؟.

فقال السائل: ما أدري ما تقول، فقال: هل عاد منه شيء[٢].

وقد تميز ـ رحمه الله ـ بعناية كبيرة ودراية في التفريق بين مشتبه الألفاظ القرآنية، حتى إن كان ليصحح لبعض كبار مُعاصريه. من ذلك ما أخرجه عبد الرزاق بسنده، أن أبا العالية سُئل عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٣]، ما هو؟ فقال أبو العالية: هو الذي لا يدري عن كم انصرف: عن شفع، أو عن وتر؟ فقال الحسن: مه، ليس كذلك، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، الذي يسهو عن ميقاتها حتى تفوت[٤].

قال الزركشي: لم يتدبر أبو العالية حرف (في) وَ(عن) وتنبه له الحسن، لو كان المراد ما فهم أبو العالية لقال: «في صلاتهم»، فلما قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ دلّ على أن المراد به الذهاب عن الوقت[٥].

وروى أبو حيان عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، أنه تكلم عند الحسن

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ٤٥٩)، والفائق (١/ ٤٣٧)، والنهاية (٢/ ١٣٠)، ولسان العرب (١٠/ ٤٢٨)، وطبقات النحويين، واللغويين (١٦٦)، وقال أبو عبيد: قوله: يُدالك يعني المطل بالمهر، وكل مماطل فهو مُدالك، والملفج، المُعدم الذي لا شيء له.
ولمزيد من الأمثلة يُنظر الفائق (١/ ٤٢٤)، والنهاية (١/ ٢٢٠)، (١/ ٢٣٠)، و(١/ ٤٢٨)، وغيرها.

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (٤/ ٤٥٨).

(٢) سورة الماعون: آية (٥).

(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٠٠)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن المنذر عن مالك بن دينار، به (٨/ ٦٤٣).

(٥) البرهان (١/ ٢٩٤)، (٢/ ١٠٥).

فقال: رَعُفتُ، فقال الحسن: تقول رَعُفتُ، وأنت رأس في العربية؟ قل: رَعَفْتُ[١].

ثانيًا: إمامته في باب الوعظ والتذكير:

من أهم المميزات التي تميز بها تأويل الحسن عن غيره من التابعين ميله إلى الوعظ في تفسيره، والإكثار من ذلك، وقد عُني - رحمه الله - بانتقاء الكلمات البليغة في لفظها، المؤثرة في سامعها؛ ولذا يجد الناظر في كتب التفسير، والزهد، والرقائق[٢]، بل والأدب[٣] أنها عُنيت بإيراد أقوال هذا الإمام وتفسيراته أكثر من غيره، وقد حاز قصب السبق في الوعظ، فلا يجارى فيه، ولا يدانى في مبلغ تأثيره في قلوب سامعيه.

وقد سلك - رحمه الله - في تفسيره المسلك الوعظي التذكيري، فكلما سنحت له فرصة للوعظ، من خلال تفسير آية، وعظ وذكر، ولا يجد مجالاً من مجالات الدعوة، والنصح، والإرشاد، والأمر، والنهي، إلا دعا، ووعظ، وأرشد، ونصح، وحذر.

---

(١) تذكرة النحاة لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (١٥٨).

(٢) القارئ في كتب الزهد، والرقائق، والتي عني مصنفوها باختيار أبلغ الألفاظ وأجزلها عبارة، وأحسنها صياغة يجد أن تفسير الحسن، وأقواله، احتلت المرتبة الأولى في مرويات هذه الكتب، بل كانت هي مادة تلك الكتب الرئيسة.
وقد رجعت في ذلك إلى أهم كتب الزهد، ككتاب الزهد لابن المبارك ولوكيع، ولهناد، فكان مجموع ما روي فيها عن الحسن ما يُقارب (٤٦٤) رواية، وكان الذي يليه في عدد المروي مجاهد، وبلغ ما روي عنه ما مجموعه (١٧١) رواية، ثم الربيع بن خثيم (٧٢) رواية... وهكذا.
ومما يجدر التنبيه عليه أنه مع هذا الفارق بين الحسن، ومجاهد، في عدد المروي، فإن هناك فارقًا آخر في طريقة تفسير الآية، فالحسن يغلب على تفسيره اختيار العبارة البليغة في لفظها، المؤثرة على سامعها، أما مجاهد: فقد كان جلُّ المروي عنه في هذه المرويات توضيح الغامض من الآية بعبارة قصيرة موجزة، ولم يتجه الوجهة الوعظية التربوية العاطفية كما فعل الحسن عند مروره بتلك الآيات.

(٣) وعند الرجوع لكتب الأدب نجد الكثير من الروايات عن الحسن، ولا سيما في الوعظ والتذكير، وفي بيان أحوال الناس، وما ينبغي أن يكونوا عليه من الأدب مع الله، ومع عباد الله.

والناظر في سيرته يجد الأثر البالغ لنشأته في المدينة في سني شبابه الأولى، فقد تأثر بأحوال أزواج النبي ﷺ، فأمه كانت مولاة لأم سلمة أم المؤمنين كما تقدم[١].

يقول ـ رحمه الله ـ: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي[٢].

هذا بالإضافة إلى كون والده وأمه كانا يُعلمان الناس[٣]، فعن أسامة بن زيد، عن أمه قالت: رأيت أم الحسن تقص على النساء[٤].

مع ما لصحبته لأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وقدومه معه إلى البصرة من أثر[٥]، ثم تأثره بعابد البصرة وزاهدها عامر بن عبد القيس[٦].

لهذا وغيره غلب على منهجه الوعظ، والتذكير، وكان طويل الحزن كثير البكاء، رحمه الله تعالى.

فعن إبراهيم بن عيسى اليشكري قال: ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة[٧].

وساق ابن الجوزي بسنده عن مسمع قال: لو رأيت الحسن، لقلت: قد بث عليه حزن الخلائق من طول تلك الدمعة، وكثرة ذلك النشيج[٨]، وكان من أحسن الناس

(١) السير (٤/ ٥٦٤)، وتهذيب الكمال (٦/ ٩٦)، وأخبار القضاة (٢/ ٤).
(٢) المصنف لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٤٠) ١٦٢٢٣، والأدب المفرد، باب التطاول في البنيان (٦٦).
(٣) أخبار القضاة (٢/ ٥).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٥).
(٥) السير (٤/ ٥٦٤).
(٦) الحلية (٢/ ٩٣).
(٧) تهذيب الكمال (٧/ ١١٢)، وزهد الثمانية من التابعين (٦٤)، وتاريخ الإسلام، (حوادث ١١٠ هـ/ ص ٥٧).
(٨) المنتظم (٧/ ١٣٦).

بكاءً، وكان إذا بكى يُبكي ببكائه[١] .

وقد تميز عن أقرانه من التابعين بهذه الصفة، وتلكم الحالة، فضلاً عن تأثيرها عليه في حديثه، وتفسيره.

أخرج ابن سعد بسنده عن الأشعث قال: كنا إذا أتينا الحسن لا نُسأل عن خبر، ولا نخبر بشيء، وإنما كان في أمر الآخرة، قال: وكنا نأتي محمد بن سيرين، فيسألنا عن الأخبار، والأشعار[٢] .

وعن يونس قال: كان الحسن رجلاً محزونًا، وكان ابن سيرين صاحب ضحك، ومزاح[٣] .

قال رجل ليونس، تعلم أحدًا يعمل بعمل الحسن؟ قال: والله ما أعرف أحدًا يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؟! قيل له: فصفه لنا؛ قال: كان إذا أقبل، فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسيرٌ أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار، فكأنها لم تخلق إلا له[٤] .

وعن الأوزاعي قال: ذهب عليهم الحسن بالمواعظ، وذهب عطاء بالمناسك[٥] .

وقد بلغ في مقام الزهد والوعظ مرتبة جعلت كثيرًا من النُساك والزهاد والعباد يأتون إليه، ويسمعون كلامه، قال أبو سعيد الأعرابي «في طبقات النُساك»: كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن، ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه، في هذه المعاني خاصة، وكان له مجلس خاص في منزله، لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد

(١) العلل لأحمد (٣/ ٢٢٧) ٤٩٩٤.
(٢) طبقات أحمد بن سعد (٧/ ١٦٧).
(٣) المرجع السابق (٧/ ١٦٢)، وأورده الفسوي بلفظ مقارب، ينظر المعرفة (٢/ ٣٣).
(٤) عيون الأخبار (٢/ ٣٥٥).
(٥) العلل لأحمد (١/ ٤٩٢) ١١٤٠.

والنسك، فإن سأله إنسان غيرها تبرم به، وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر[١].

ولقد كان لتذوقه المرهف لنصوص كتاب الله، وما تتركه الآية من عبر في نفسه فيدفعه ذلك إلى التعبير عنها بأسلوب مؤثر يترجم إحساسًا صادقًا في نفسه، مما يدل على رهافة حسه، فعن جعفر بن سليمان قال: سمعت حوشبًا يقول: سمعت الحسن يقول: والله يابن آدم، لئن قرأت القرآن، ثم آمنت به، ليطولنَّ في الدنيا حزنك، وليشتدَّنَّ في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك[٢].

من أساليب الوعظ في تفسيره:

والقارئ لتفسيره يجد شاهد هذا من حاله ـ رحمه الله ـ وقد حرص على نشر تلك التوجيهات القرآنية، والتذكير بها، حتى غلب هذا على منهجه، وقد اختص بخصائص في هذا المسلك قلَّ أن توجد عند غيره، من أهمها:

١ ـ أسلوب المخاطبة في تفسيره الوعظي:

فالمخاطبة، والحوار، والوعظ المباشر الموجه للسامعين كان من الأساليب التي كثرت في تفسيره الوعظي[٣]، ومن أمثلة ذلك ما ورد عنه عند قوله جل وعلا: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[٤].

فعن أبي رجاء قال: قرأ الحسن آيات في البقرة، فأتى على هذه الآية: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه؟ وإن ذلك ليس فيه رَذْل[٥].

---

(١) السير (٤/ ٥٧٩)، وتاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ/ ٦٢).

(٢) الزهد لأحمد (٢/ ٢٢٦)، والحلية (٢/ ١٣٣)، وتهذيب الكمال (٧/ ١١١).

(٣) وقد تأثر به تلميذه قتادة، ومما ينبغي الإشارة إليه، والتأكيد عليه، هو أن أسلوب المخاطبة في التأويل الوعظي للآيات، قد تميز به الحسن في تفسيره، وتبعه على ذلك قتادة، وقلَّ أن نجد هذا عند غيرهما.

(٤) سورة البقرة: آية (٢٥).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٣٨٩) ٥٢٠، وزاد المسير (١/ ٥٣)، وأورده السيوطي في الدر بزيادة في أوله، ثم ساقه بلفظه عن الحسن، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير (١/ ٩٦).

ومنها ما ورد عند قوله سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، قال: اعملوا وأبشروا، فإنه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله[٢].

ومنها ما ورد عنه عند قوله تعالى: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[٣]، قال: هل علمتم أن الكافر يلد مؤمنًا، وأن المؤمن يلد كافرًا؟ فقال: هو كذلك[٤].

ومنها ما ورد عنه عند قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[٥] قال: جعلها يدًا، وجعلها أصابع يقبضهنَّ، ويبسطهنَّ، ولو شاء لجمعهنَّ، فاتقيت الأرض بفيك، ولكن سوّاك خلقًا حسنا[٦]، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة عنه في هذا الباب[٧].

ومما اختص به في تفسيره الوعظي:

٢ ـ أسلوب القسم:

وقد كثر في تفسيره الوعظي هذا الأسلوب، مما يدل على اهتمامه بتأكيد تلك

(١) سورة غافر: آية (٦٠).
(٢) تفسير الطبري (٣/ ٤٨٦) ٢٩١٩.
(٣) سورة آل عمران: آية (٢٧).
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٣٠٨)، ٦٨٢٢، وتفسير الماوردي (١/ ٣٨٥)، وتفسير ابن عطية (٣/ ٥١)، والبحر المحيط (٢/ ٤٢١)، وزاد المسير (١/ ٣٧٠)، وتفسير القرطبي (٤/ ٣٧)، وأورده السيوطي في الدر بلفظ مقارب عن الحسن، وعزاه إلى ابن جرير، وأبي الشيخ (٢/ ١٧٤).
(٥) سورة القيامة: آية (٤).
(٦) تفسير الطبري (٢٩/ ١٧٥)، وأورده السيوطي في الدر بنحوه عن الحسن، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر (٨/ ٣٤٤).
(٧) ولمزيد من الأمثلة ينظر تفسير الطبري الآثار ٢٦١، ٢١٣٤، ٧٦٢٩، ٧٨٦٧، ٨٠٤٣، ١١٨٠١، ١٣٠٦١، (١٥/ ٥٣)، (٢٦/ ١٥٩)... وغيرها.

المعاني الواردة في الآية، من ذلك: ما ورد عنه عند قوله سبحانه: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[١]، قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار[٢].

ومنها: ما ورد عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣]، قال: عظَّم والله في الوزر كما تسمعون، ورغَّب والله في الأجر كما تسمعون! إذا ظننت يا ابن آدم، أنك لو قتلت الناس جميعًا، فإن لك من عملك ما تفوز به عن النار!!، كذبتك والله نفسك، وكذَبَك الشيطان[٤].

ومنها: أنه قرأ هذه الآية يومًا: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٥]، ثم وقف فقال: إنه والله ما أمسى على ظهر الأرض عالم إلا فوقه من هو أعلم منه، حتى يعود العلم إلى الذي علَّمه[٦].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٣١) ٢٥٠٢، وتفسير البغوي (١/ ١٤٢)، وزاد المسير (١/ ١٧٦)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٥٩).

(٣) سورة المائدة: آية (٣٢).

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ٢٣٩) ١١٨٠١، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٢).

(٥) سورة يوسف: آية (٧٦).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ١٩٣)، ١٩٥٩٣، وأورده السيوطي في الدر بلفظ مختصر، وعزاه إلى ابن جرير، وأبي الشيخ عن الحسن (٤/ ٥٦٢).

ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار التالية في تفسير الطبري: ١٩٣٤، ٢١٣٤، ٤٤٩٤، ٨٤٥٥، ١٠٥١٤، ١٠٧٩٨، ١١٨٠٠، ١٢١٧٨، ١٢١٧٩، ١٧٢٧٦، ١٨٢٠٩، ١٨٢١، ١٨٢١٤، ١٨٢٢١، ١٨٢٤٦، ١٩٧٣٣، ٢٠١١٣، (١٥/ ١١٩)، (١٥/ ١٢١)، (١٨/ ٥١)، (١٨/ ١٤٢)، (١٩/ ٣٤)، (٢٠/ ١٣٤)، (٢٢/ ٨٨)، (٢٣/ ١٠١)، (٢٣/ ١٥٦)، (٢٥/ ٦٨)، (٢٦/ ١٥٩)، (٢٦/ ٢٠٥)، (٣٠/ ٢٥٩).

ولمزيد من الأمثلة يراجع كتاب الزهد للإمام أحمد: (٢/ ٢٢٥ـ٢٥١) في جميع مواعظه يبدؤها بهذا القسم مُؤكدًا المعنى المُراد.

أثر الوعظ في تفسيره :

أ ـ شدة عبارته على المخالفين :

إن القارئ لتفسيره يجد أثر ذلك المنهج الوعظي في شدة عبارته وحدتها على المخالفين لأمر الله ـ عز وجل ـ ، وأمر رسوله ﷺ .

فمن ذلك : ما ورد عنه عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[١] ، قال الحسن ـ وصفق بيديه ـ : وكيف عفا عنهم ، وقد قُتل منهم سبعون ، وقُتل عم رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وشج في وجهه؟ قال : ثم يقول : قال الله ـ عز وجل ـ : «قد عفوت عنكم إذ عصيتموني ألا أكون استأصلتكم» . ثم قال : هؤلاء مع رسول الله ﷺ في سبيل الله ، غضابٌ لله ، يقاتلون أعداء الله ، نهوا عن شيء فصنعوه فوالله ما تركوا حتى غُمُّوا بهذا الغم ، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرثم[٢] كل كبيرة ، ويركب كل داهية ، ويسحبُ عليها ثيابه ، ويزعم أن لا بأس عليه! فسوف يعلم[٣] .

ومنها : ما ورد عنه عند قوله سبحانه : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾[٤] ، قال الحسن : هذا نبيي ، هذا خياري ، استنوا به ، خذوا في سننه ، وسبيله ، لم تغلق دونه الأبواب ، ولم تُقم دونه الحَجَبَة ، ولم يُغدَ عليه بالجفان ، ولم يُرجع عليه بها ، وكان يجلس بالأرض ويأكل طعامه بالأرض ، ويلعق يده ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُرْدِف بعده ، وكان يقول : «**من رغب عن سنتي فليس مني**» .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٥٢) .

(٢) يتجرثم الرجل ، تَجَرْثَم : إذا سقط من عُلو إلى سُفْل ، ينظر لسان العرب (١٢/ ٩٥) ، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٢٥٤) .

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٨) ٨٠٤٣ ، وأورده السيوطي في الدر بلفظه عن الحسن وعزاه إلى ابن جرير (٢/ ٣٤٩) .

(٤) سورة الأعراف : آية (٣٢) .

ثم قال الحسن : فما أكثر الراغبين عن سننه التاركين لها! ثم إنّ عُلُوجًا فُسّاقًا أكلة الربا والغُلول، قد سفَّههم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا، وشربوا، وزخرفوا هذه البيوت، يتأولون هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وإنما جعل ذلك لأولياء الشيطان، قد جعلها ملاعب لبطنه وفرجه[1].

ومنها ما ورد عنه عند تأويل قوله عز وجل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[2].

فعن أبي رجاء قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، فلا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك، قال الله للعبد الصالح: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[3].

قلت: يا أبا سعيد، قال الله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، فقال: نعم ولو خمسين آية[4].

ب ـ سلوك الوعظ من خلال إيضاحه لآيات الأحكام:

وكان للمنهج الذي سلكه الحسن أثره في تأويله لآيات الأحكام؛ حيث سلك في بعضها مسلك التوجيه، والإرشاد، فعند قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[5].

قال: على هذا الطالب أن يطلب بالمعروف، وعلى هذا المطلوب أن يؤدي

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٩٦)، ١٤٥٣٧، وأورده أبو نعيم في الحلية عن الحسن بلفظ مُقارب (٢/ ١٥٣). وقد أبعد النجعة في تأويل هذه الآية، فهي عامة، وليست خاصة، وهذا منه ـ رحمه الله ـ انسياق وراء الأسلوب الوعظي، الذي خالط شغاف قلبه، فملك تفسيره وأصبح لسانه أسيره.

(٢) سورة المزمل: آية (٢٠).

(٣) سورة يوسف: آية (٦٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ١٤١).

(٥) سورة البقرة: آية (١٧٨).

بإحسان[١] .

وقال أيضًا : أخذ الدية عفوٌ حسن[٢] .

وعند تأويل قوله جل وعلا : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[٣] . قال : هي ثابتة ، ولكن الناس بخلوا ، وشحُّوا[٤] .

جـ ـ دقة استنباط الفوائد الدعوية :

كما كان لهذا المسلك أثره في دقة استنباطه لكثير من الفوائد الدعوية عند تفسيره لبعض الآيات .

فمن ذلك ما ورد عنه ، عند تأويله لقوله جل ثناؤه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[٥] .

قال : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة ، ولكن أراد أن يستن به من بعده[٦] .

وقال أيضًا : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم[٧] .

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٦٨) ٢٥٧٩ .

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٦٩) ٢٥٨٨ .

(٣) سورة النساء : آية (٨) .

(٤) تفسير الطبري (٨/ ٨) ٨٦٦٧، ٨٦٦٨، وتفسير الماوردي (١/ ٤٥٦)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٧)، وزاد المسير (٢/ ٢١)، وتفسير القرطبي (٥/ ٣٣) .

(٥) سورة آل عمران : آية (١٥٩) .

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (ص ٦٣٢) ١٧٤٥ ، وروضة العقلاء (١٩١)، والبيهقي في السنن بلفظ : ولكن أراد أن يستن بذلك الحكام بعده (٧/ ٤٦)، وأشار إلى هذه الرواية النووي في تهذيب الأسماء (١/ ١٦٣)، وأوردها السيوطي في الدر ، وعزاها إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن الحسن به (٢/ ٣٥٨) .

(٧) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٤) ٨١٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩/ ١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره ، بلفظ : والله ما تشاور قوم قط ، إلا عزم الله لهم بالرشد وبالذي ينفع (٦٣٢) ١٧٤٣ ، وينظر تفسير الماوردي (١/ ٤٣٣)، وتفسير ابن عطية (٣/ ٢٨١)، وزاد المسير (١/ ٤٨٨)، وأورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن به (٢/ ٣٥٩) .

ومنها: أن الحسن تلا هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[١].

فقال: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقي، إلا وإلى جانبه مُنافق يكره عمله[٢].

وعند تأويله قوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[٣].

قال الحسن: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾: أما أهل رحمة الله، فإنهم لا يختلفون اختلافًا يضُرُّهم[٤].

وقال أيضًا: الناس كلهم مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، فمن رحم غير مختلف[٥].

ومما يحسن ذكره في ختام هذا المبحث:

ما تميز به هذا الإمام - رحمه الله - في الجانب الوعظي، من الدقة في معرفة أحوال الناس، وجمال العبارة في وصفهم، مما جعل مقولته في هذا الجانب مادة لكثير من كتب الأدب[٦].

وصارت أقواله حكمًا، ومواعظ تحفظ، وتُروى، وتسير بها الركبان، وعُدَّت

(١) سورة المائدة: آية (١٠٥).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ١٤٨)، ١٢٨٦٨، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن الحسن به (٣/ ٢١٩).

(٣) سورة هود: آية (١١٨، ١١٩).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٥)، ١٨٧٢٥، وأورد الفسوي في المعرفة بلفظ مُقارب (٢/ ٤١).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٢)، ١٨٧٠٦، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن الحسن به (٤/ ٤٩١)، ولمزيد من الأمثلة. ينظر تفسير الطبري الآثار ٢١٥٨، ٤١٦٢، ٧٦٠٥، ٧٨٦٠، ١٧٣١٦، . . . وغيرها.

(٦) بعد مراجعة بعض كتب الأدب، كعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، =

من عيون الأخبار .

ومن النماذج المأثورة عنه في هذا المقام قوله : إن قومًا جعلوا تواضعهم في ثيابهم، وكِبْرَهم في صدورهم، حتى لصاحب المدرعة بمدرعته، أشد فرحًا من صاحب المُطرف بمطرفه[١] .

ويقول أيضًا : كان من قبلكم أرقَّ منكم قلوبًا وأصفق ثيابًا، وأنتم أرقُ منهم ثيابًا أصفق منهم قلوبًا[٢] .

ومن ذلك : ما ورد عنه ـ رحمه الله ـ في وصف قراء القرآن ؛ حيث قال : قُراءُ القرآن ثلاثة : رجلٌ اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس، وقومٌ حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، واستدروا به الولاة ؛ واستطالوا به على أهل بلادهم، وقد كثر الله هذا الضرب في حملة القرآن لا كثرهم الله، ورجلٌ قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله وهملت عيناه، تسربلوا الخشوع، وارتدوا بالحزن، وكدوا في محاريبهم، وجثوا في برانسهم، فبهم يُسقي الله الغيث، ويُنزل النَّصر، ويرفع البلاء، والله لهذا الضَّرْبُ في حملة القرآن أقلُّ من الكبريت الأحمر[٣] .

ويقول ـ رحمه الله في الحث على التواضع : إن خفق النعال خلف الرجال قل ما

= والبيان والتبيين للجاحظ، وجدت أن أكثر من روي عنه من التابعين في هذه الكتب : الحسن ؛ حيث بلغ مجموع ما روي عنه (٢٢٩) رواية، وجاء بعده في عدد المروي : عامر الشعبي ؛ حيث بلغ مجموع ما روي عنه (١٣٢) رواية، ثم محمد بن سيرين ؛ حيث بلغ مجموع ما روي عنه (٦٢) رواية، ثم سعيد بن المسيب ؛ حيث بلغ (٣٤) رواية، ثم محمد بن شهاب الزهري ؛ حيث بلغ (٣١) رواية، ثم قتادة ؛ حيث بلغ (٢٦) رواية .

(١) المطرف : رداء من خز مُربع، له أعلام ، البيان والتبيين (٣/ ١٥٣)، وعيون الأخبار (٢/ ٣٧٢) .

(٢) البيان والتبيين (٣/ ١٧٠) .

(٣) جمال القراء (١/ ١٠٦)، وكنز العمال (١/ ٦٢٣)، وعيون الأخبار (٢/ ١٢٣) .

تلبث الحمقى[١] .

أسباب كثرة المروي عنه :

هذا من أهم ما تميز به الحسن ، وكان له الأثر البالغ في كثرة المروي عنه ، فسبق غيره في هذا الباب مع وجود أسباب أخرى ، كان لها الأثر في كثرة الرواية عنه في باب التفسير ، منها :

١ ـ التساهل في الرواية :

ومن أسباب كثرة المروي عنه تساهله في الرواية متنًا ، وسندًا .

ففي جانب السهولة في رواية النص ، والمتن ، كان الحسن ممن يرى جواز الرواية بالمعنى ، ويرى جواز التقديم ، والتأخير في الألفاظ ، وكذا الزيادة والنقصان إن كان قد أصاب المعنى .

فعن مهدي بن ميمون قال : قلت للحسن : الرجل يحدث بالحديث لا يألو ، فيكون فيه الزيادة ، والنقصان؟ قال : ومن يطيق ذلك؟ ![٢] .

وعن مبارك بن فضالة ، قال : سمعت الحسن يقول : لا بأس بالحديث أن تُقدِّم أو تؤخر إذا أصيب المعنى[٣] .

وعن جرير بن حازم قال : كان الحسن يحدث بالحديث ؛ الأصل واحد ، والكلام مختلف[٤] .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٣٤)، وعيون الأخبار (٢/ ٣٧٢).

(٢) العلم لأبي خيثمة (١٣٩)، طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٩)، والمحدث الفاصل (٥٤٢)، (٧١٣)، والكفاية (٢٠٨)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٢١).

(٣) سنن الدارمي (١/ ٩٣)، والمحدث الفاصل (٥٤١) ٧٠٨، والكفاية (٢٠٧)، والجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٣٢).

(٤) سنن الدارمي (١/ ٩٣)، والكفاية (٢٠٧)، والجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٣١)، وعيون الأخبار (٢/ ١٣٦).

ولذا فقد عده أهل العلم ممن يرى جواز الرواية بالمعنى، وممن يرخص في ذلك.

فعن ابن عون قال: كان القاسم بن محمد، وابن سيرين، ورجاء بن حيوة، يحدثون الحديث على حروفه، وكان الحسن، وإبراهيم، والشعبي، يحدثون بالمعاني[١].

واحتج على ما ذهب إليه من جواز الرواية بالمعنى بقوله: يحكي الله تعالى عن القرون السالفة بغير لغاتها، أفكذب هذا؟[٢].

وقد عرف بهذا المنهج واشتهر به بين معاصريه، فهذا محمد بن سيرين إمام التأويل في زمانه يقول في تعبير رؤيا عرضت عليه؛ حيث قال له رجل: رأيت في المنام حمامة التقمت لؤلؤة فخرجت منها أعظم مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة، وخرجت منها أصغر مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة، فخرجت مثلما دخلت سواء.

فقال ابن سيرين: أما الحمامة التي التقمت اللؤلؤة فخرجت أعظم مما دخلت، فهو الحسن يسمع الحديث فيُجَوده بمنطقه، وأما التي خرجت أصغر مما دخلت، فذاك محمد ابن سيرين يسمع الحديث فيشك فيه وينقص منه، وأما التي خرجت كما دخلت، فذاك قتادة أحفظ الناس[٣].

وبالجملة، فالحسن من أكثر التابعين تساهلاً في هذا، ولعل هذا من أهم الأسباب التي جعلت المروي من أقواله كثيراً.

وأما تساهله في جانب الإسناد، فيتضح جليًا في إرساله لجملة من الأحاديث، والآثار، عن كثير من الصحابة، والتابعين، ولذا نجد إطالة الأئمة ممن كتب في المراسيل

(١) العلم لأبي خيثمة (١٤١)، والعلل لأحمد (٢/ ٢٦٦) ٢٢٠٦، (٣/ ١٩٨) ٣٨٥٩، والكفاية (٢٠٦)، (١٨٦)، والمحدث الفاصل (٥٣٥)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٣٣).

(٢) المحدث الفاصل (٥٣١).

(٣) العلل لأحمد (٢/ ٣١٥) ٢٣٩٥.

عند تعرضهم لإرسال الحسن خاصة[١] .

وكان يقول عن نفسه ـ رحمه الله ـ : كنت إذا اجتمع لي أربعة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تركتهم وقلت: قال رسول الله ﷺ[٢] .

وقال رجل للحسن يا أبا سعيد، إنك تحدثنا فتقول: قال رسول الله ﷺ، فلو كنت تسنده لنا إلى من حدثك؟ فقال الحسن: أما أيُها الرجل ما كذبنا ولا كُذبنا، ولقد غزونا غزوة إلى خراسان، ومعنا فيها ثلاثمائة من أصحاب محمد ﷺ[٣] .

وعن علي بن زيد قال: كنت أحدث الحسن بالحديث، فأسمعه يحدث به فأقول: من حدثك فيقول: لا أدري، إلا أنه ثقة[٤] .

ومن مظاهر تساهله، أخذه عن كل أحد ، ولذا ردَّ بعض الأئمة مراسيله، وفي ذلك يقول ابن سيرين: ثلاثة كانوا يصدقون من حدثهم، وذكر منهم الحسن[٥] .

وكان ابن سيرين يقول لعاصم الأحول: لا تحدثني عن الحسن، ولا عن أبي العالية؛ فإنهما لا يباليان عمن أخذا الحديث[٦] .

وعد الإمام أحمد مراسيل الحسن من أضعف المراسيل، وقال: إنه كان يأخذ عن

---

(١) ينظر في ذلك المراسيل لابن أبي حاتم (من ص ٣١ ـ ص ٤٦)، وجامع التحصيل للعلائي (من ص ١٦٢ ـ ص ١٦٦).

(٢) جامع التحصيل ص (٨٧، ٩٤)، وأصول السرخسي (١/ ٣٦١).

(٣) تدريب الراوي (١/ ٢٠٤).

(٤) الكفاية (٣٧٣)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٢٢).

(٥) المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٥)، والكفاية (٣٧٣)، والعلل لأحمد (١/ ٤٤٢) ٩٨٩، وكذا أخرجه الدارقطني في السنن (١/ ١٧١) بلفظ: أربعة يصدقون من حدثهم.

(٦) المعرفة (٢/ ٣٦)، والكفاية (٣٩٢)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٧٣)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٩).

كل أحد[١] .

وكان ـ رحمه الله ـ يتساهل في صيغ التحمل عنه ، فكان يرى أن القراءة عليه هي بمقام التحديث عنه ، عند الإجازة .

فعن عوف قال : أتى رجل الحسن ، فقال : يا أبا سعيد ، إن منزلي ناء ، وإن الاختلاف يشق علي ، ومعي أحاديث من أحاديثك ، فإن لم تكن ترى بالقراءة بأسًا قرأت ، قال : ما أبالي أقَرَأت علي فأخبرتُك أنه حديثي أو حدثتك به؟ قال : فأقول : حدثني الحسن؟ ، قال : نعم قل : حدثني الحسن[٢] .

وكان ـ رحمه الله ـ يعدُ أصح السماع القراءة على العالم[٣] .

وسئل مرة عن أحاديث حدث بها عمن؟ فقال : صحيفة وجدناها[٤] .

ولعل من أسباب هذا التساهل عنده ، وعدم الاعتناء بالإسناد ، اشتهاره بالدعوة ، والمواعظ ، والتدريس ، ومن كان هذا شأنه لا ينتظر منه في موطن التأثير على الناس أن يأتي بالسند ، بل يأتي بالمتن خاليًا من السند لضرورة الخطبة والموعظة[٥] ، وقد درج على ذلك الخطباء ، والوعاظ .

قال الخطيب البغدادي : ربما أرسلوها اقتصاراً ، وتقريبًا على المتعلم لمعرفة أحكامها كما يفعل الفقهاء[٦] .

---

(١) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (ص ٦٤)، والكفاية (٣٨٦)، وسنن البيهقي (٦/ ٤٢).

(٢) تاريخ ابن معين (٢/ ١١٠)، والفتح (١/ ١٥٠).

(٣) الإلماع (٨٠).

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/ ٤٥).

(٥) الحسن البصري ، وحديثه المرسل د. عمر الجغيبر (٣٤٧).

(٦) الكفاية (٣٩٦).

والحسن معلم وداع إلى الله، وفقيه جالس العوام وأثر فيهم، واشتهر بمليح وعظه وقصه، فقد يثقل عليه في كثير من الأحيان إيراد الإسناد، فكان بعض إرساله من هذا. حدث مرة بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد، عمن؟، قال: وما يصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حُجته[١].

وعن علي بن زيد، قال: حدثت الحسن بحديث، وهو عندي متوار في منزلي، فاستعاده ست مرات، فلما أن ظهر جعل يحدث بذاك الحديث، فقلت: يا أبا سعيد: من حدثك بهذا؟ قال: دعنا منك، فلما أكثرت عليه قال: أنت حدثتنيه[٢].

ولعل من الأسباب التي جعلت الحسن يرسل في بعض الأحيان، الجانب السياسي، فسكوت الحسن عن الرواية عن بعض الصحابة في ذلك الوقت كعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مثلاً قطعًا للفتنة، فكان يفضل الإرسال بزمن الأمويين، والحجاج سيفهم على البصرة[٣].

فعن يونس بن عبيد أنه قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد: إنك تقول: قال رسول الله ﷺ وإنك لم تدركه؟ فقال: يابن أخي، لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك؛ إني في زمان كما ترى ـ وكان في زمن الحجاج ـ كل شيء سمعتني أقوله: قال رسول الله ﷺ، فهو عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر فيه عليًا[٤].

---

(١) عيون الأخبار (٢/ ١٣٧).

(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٦).
وهذا يدل على ضبط الحسن، وإتقانه ـ رحمه الله ـ لكنه أضرب عن إيراد الإسناد لضرورة ما يصبو إليه من وعظ الناس، وإرشادهم، وفيهم عوام لا قيمة للإسناد عندهم، غاية قصدهم ما دل عليه النص من حكم، ومواعظ، والله أعلم.

(٣) الحسن البصري وحديثه المرسل (٣٤٩).

(٤) تدريب الرواي (١/ ٢٠٤)، ولمعرفة المزيد من الأسباب، يراجع كتاب الحسن البصري وحديثه المرسل (٣٤٦ـ٣٥١).

إلى غير ذلك من الأسباب التي أدت إلى تساهل الحسن ـ رحمه الله ـ في جانب الرواية سنداً ومتناً.

٢ ـ حرصه على نشر العلم، وتأثمه من كتمانه :

فعن يونس بن عبيد قال: قال الحسن احتسابًا، وسكت محمدٌ بن سيرين احتسابًا[١].

وعن قتادة، عن الحسن قال: لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه[٢].

وقد أكثر من التحديث حرصًا على البلاغ، حتى بلغ حدًا كره ذلك منه بعض التابعين.

فعن الشعبي قال: لو لقيت هذا (يعني: الحسن) لنهيته عن قوله: قال رسول الله ﷺ، صحبت ابن عمر ستة أشهر فلم أسمعه يقول: قال رسول الله: إلا في حديث واحد[٣].

٣ ـ حرصه على الكتابة :

فقد كانت له كتب يراجعها، وكان يرى أن من أهم ما يحفظ العلم الكتاب.

فعن الأعمش عن الحسن قال: إن لنا كتبًا نتعاهدها[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٢)، والعلل ومعرفة الرجال لأحمد (٣/ ١٣٧) ٤٦٠١.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٨).

(٣) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٣/ ٣٦٧) ٥٦١٤.

(٤) العلم لأبي خثيمة (١/ ١٢٥)، وتقييد العلم (١٠١)، والمحدث الفاصل (٣٧١)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٤).

ويقول أيضًا: إنما نكتبه لنتعاهده[١]، وعنه قال: ما قيد العلم بمثل الكتاب[٢]، وكان يأمر بنيه وبني أخيه بالكتابة.

فعن شرحبيل بن سعيد قال: دعا الحسن بنيه، وبني أخيه، فقال: يا بني، وبني أخي، إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه - أو قال: يحفظه - فليكتبه وليضعه في بيته[٣].

وقد أملى - رحمه الله - التفسير فكتبه الناس[٤].

ولم يكتف بهذا، بل كتب لهم[٥].

٤ - اهتمامه بمعرفة أسباب النزول، وتقدمه في هذا:

يقول عن نفسه: ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيم أنزلت وماذا عني بها[٦].

ولذا كان لا يخرج من سورة إلى أخرى، حتى يعرف تأويلها وفيم أنزلت[٧].

ومما تميز به الحسن في هذا الجانب: ميله إلى القول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يحدوه إلى ذلك ما عني به من التعليم، والدعوة والوعظ والتذكير، فقد ورد عنه عند تأويل قوله سبحانه: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**...﴾ الآية[٨]، قيل للحسن: أهي لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟

---

(١) تقييد العلم (١٠١).
(٢) المرجع السابق (١٠١)، والمحدث الفاصل (٣٧٥).
(٣) سنن الدارمي (١/ ١٣٠).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٤).
(٥) تقييد العلم (١٠٢).
(٦) زاد المسير (١/ ٤)، والمحرر الوجيز (١/ ١٥)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ١١٤، ٢٨٤).
(٧) شذرات الذهب (١/ ١٣٧).
(٨) سورة المائدة: آية (٣٢).

فقال: إي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل! وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا[١].

وعند قوله جل وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

قال الحسن: نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة[٣].

٥ ـ كثرة الاجتهاد، وقوة الاستنباط:

لقد كان للقدرة العلمية، والقدرة العقلية التي تمتع بها الحسن ـ رحمه الله ـ أثر على كثرة المروي عنه؛ حيث كثر اجتهاده لكثرة ما يعرض عليه، وقد أعمل رأيه في الاستنباط لبعض ما يعرض له، واجتهد فيما يرد عليه، لا سيما وأنه إمام عامة وخاصة، وقد غشيه الناس، وأكثروا عليه السؤال، حتى قال ثابت البناني: لولا أن تصنعوا بي ما صنعتم بالحسن لحدثتكم أحاديث مونقة، ثم قال: منعوه القائلة، منعوه النوم[٤]، وهذا الإقبال من الناس جعله من أكثر التابعين تعرضًا للسؤال في بيان مشكل الآيات[٥]، فأعطى لفهمه وعقله، شيئًا من السعة في النظر والتأمل، حتى إن بعض معاصريه نصحه، ونهاه عن ذلك؛ فعن أبي نضرة قال: قدم أبو سلمة البصرة، فأتيته أنا والحسن، فقال للحسن: ما كان أحد بالبصرة أحب إليَّ لقاء منك؛ وذلك أنه بلغني أنك تفتي برأيك،

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٣٩) ١١٨٠٠، وتفسير البغوي (١/ ٣٢)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٨٧)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن الحسن به (٣/ ٦٥).

(٢) سورة المائدة: آية (٤٤).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٣٥٧) ١٢٠٦٠، وتفسير ابن كثير (٣/ ١١٠)، والبحر المحيط، وأورد هذه الرواية السيوطي في الدر، وعزاها إلى عبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن، به (٣/ ٨٨).

(٤) السير (٤/ ٥٨٤).

(٥) وإن كان مجاهد ممن سبق الحسن في هذا، ولكن كان لكل واحد منهما منهج يأتي تفصيله فيما بعد.

فلا تفت برأيك إلا أن تكون سنة عن رسول الله ﷺ أو كتاب منزل[١].

وجاء عنه أيضًا أنه لما قدم البصرة، ورأى تعظيم أهلها للحسن، قال: يا أبا سعيد، إني أرى قومًا (يعني: أنهم يأخذون برأيه): فاتق رأيك[٤].

ولما سُئل طاوس بن كيسان عن الحسن، قال: ذاك رجل جريء[٢]، وقد تعجب بعض من يستفتيه من إفتائه، فقيل له: ما تفتي به الناس، شيئًا سمعته، أو تقوله برأيك؟ قال: لا والله ما كل ما نفتي به سمعنا، ولكن رأينا خير لهم[٣].

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: ما أنزل الله آية، إلا وهو يُحب أن يُعلم في ماذا أنزلت، وماذا عنى بها، وما استثنى من ذلك لا متشابها ولا غيره[٥].

وهذه نماذج لبعض تلك الآيات المشكلة، والتي تعرض لها الحسن بالتفسير والبيان:

فمن ذلك: ما ورد عنه عند قوله جل وعلا: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[٦].

قال الحسن: أربع في القرآن ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وقوله: ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٧]: ما كنا فاعلين، وقوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[٨]: ما كان للرحمن ولد، وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾[٩].

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٥٨).
(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ٤٤).
(٣) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).
(٤) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٩).
(٥) مجموع فتاوى (١٣/ ٢٨٤).
(٦) سورة إبراهيم: آية (٤٦).
(٧) سورة الأنبياء: آية (١٧).
(٨) سورة الزخرف: آية (٨١).
(٩) سورة الأحقاف: آية (٢٦).

وفي رواية عنه زاد خامسة فقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾[١] : ما كنت في شك ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾[٢] .

ومن ذلك: ما ورد عنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٣] .

فعن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس[٤] .

ومما ورد عنه أيضًا: ما جاء عند تأويله لقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[٥] .

عن الحسن قال: قال الله: إني إنما أخفتك لقتلك النفس، ثم قال: كانت الأنبياء تذنب فتعاقب[٦] .

ومنه ما نُقل عنه عند تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٧]، حيث قال: ليس أحد إلا يعطى نورًا يوم القيامة؛ يعطى المؤمن والمنافق، فيطفأ نور المنافق، فيخشى المؤمن أن يطفأ نوره، فذلك قوله: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[٨]. قال: يدعونه تقريبًا إليه، كقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ

(١) سورة يونس: آية (٩٤).
(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٢٤٧).
(٣) سورة البقرة: آية (٣٤).
(٤) تفسير الطبري (١/ ٥٠٦) ٦٩٦، وأورده ابن كثير في تفسيره، وصحح إسناده (١/ ١١٠).
(٥) سورة النمل: آية (١٠).
(٦) تفسير الطبري (١٩/ ١٣٦)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠٩).
(٧) سورة التحريم: آية (٨).
(٨) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٩)، والبحر المحيط (٨/ ٢٩٤).

﴿لِذَنبِكَ﴾[١]، وهو مغفور له[٢].

وقد بلغ الحسن في هذا العلم شأنًا كبيرًا، حتى إن التابعين من المدرسة المكية، كانوا يسألونه عن بعض ما أشكل عليهم، عندما قدم إلى مكة؛ يقول ابن سعد: إن الحسن لما قدم مكة أجلسوه على سرير، واجتمع الناس إليه فحدثهم، وكان فيمن أتاه مجاهد، وعطاء، وطاوس، وعمرو بن شعيب، فقالوا، أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط[٣].

ويقول عقبة بن أبي حمزة: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوس، وعطاء ومجاهد، فسألوه عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ﴾[٤]، قال الحسن: اللهو المرأة[٥].

وقد أفضى به هذا التوسع في بيان مشكل الآية إلى مخالفة الظاهر من النص القرآني، وصرفه عن المعنى القريب إلى معنى بعيد غير ظاهر، ولعل من أسباب ذلك أن الحسن إمام غلب على حسه وفهمه الجانب الوعظي، مما جعله يصرف بعض معاني الآيات عن الظاهر خشية أن يحدث إشكال في أذهان سامعيه للمعنى القريب الظاهر.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك، ما ورد عنه عند تأويل قوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[٦].

---

(١) سورة محمد: آية (١٩).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٩٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٨)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٦٢)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٢٥).

(٤) سورة الأنبياء: آية (١٧).

(٥) تفسير الطبري (١٧/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٨٣)، ولمزيد من الأمثلة الدالة على اهتمامه ببيان المشكل وإيضاحه، يُراجع تفسير الطبري الآثار: ١٦٨٠، ١٦٩٧، ٢٥٠٢، ٣٤٩٨، ٥٦٠٩، ٥٦١٠، ٧٠٢٢، ٧١٣٥، ٧١٤٠، ٧٣٥١، ٧٦٢٩، ١١٨٠٢...، وغيرها.

(٦) سورة المائدة: آية (٢٧).

قال ـ رحمه الله ـ: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾، من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القُربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات[١].

ومنها: ما ورد عنه عند تفسير قوله جل ثناؤه: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ... ﴾[٢] الآية. عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿ فمن يكفر بعد منكم... ﴾، إلى آخر الآية، قالوا: لا حاجة لنا فيها! فلم تنزل[٣].

وعن منصور بن زاذان، عن الحسن: إنه قال في المائدة: لم تنزل[٤].

ومنها: ما نُقل عنه عند تأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾[٥]، قال ﴿ فِي مَنَامِكَ ﴾: بعينك[٦].

ومنها: ما جاء عنه في تفسير قوله جل وعلا: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾[٧]، قال الحسن: لم يكن سجوداً، لكنه سنة كانت فيهم، يومئون برؤوسهم

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٨) ١١٧١٩، وتاريخ الطبري (١/ ٧١)، وزاد المسير (٢/ ٣٣١)، والمحرر الوجيز (٥/ ٧٧)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن به (٣/ ٥٦).
وقد انفرد بهذا القول، وخالفه أخص تلاميذه: قتادة.

(٢) سورة المائدة: آية (١١٤).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٢٣١) ١٣٠٢٠)، وأورده ابن كثير في تفسيره، وصحح إسناده (٣/ ٢٢٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن الحسن به (٣/ ٢٣٧).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٢٣١) ١٣٠٢١، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٥).

(٥) سورة الأنفال: آية (٤٣).

(٦) أورده ابن كثير في تفسيره من رواية ابن أبي حاتم، ثم قال: وهذا القول غريب، وقد صُرح بالمنام هنا، فلا حاجة إلى التأويل، الذي لا دليل عليه اهـ. (٤/ ١٣)، وقد ضعف هذا القول كثير من المفسرين منهم الزمخشري، وأبو حيان، يُنظر البحر المحيط (٤/ ٥٠١).

(٧) سورة يوسف: آية (١٠٠).

إيماء[١] ، وجعل الضمير في قوله: (وخروا له) عائداً على الله[٢] .

وروي عنه في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾[٣] ، أنه كان يحلف أنه ليس ابنه لصلبه، قال قتادة: فقلت له: إن الله حكى عنه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب؟! ثم قال: يقول: من أهلي، ولم يقل: مني[٤] .

وكان ـ رحمه الله ـ يرى أن الإسراء كان بالروح دون الجسد، ويستدل بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾[٥] ، ويستدل بقول الله في الخبر عن إبراهيم، إذ قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٦]، ثم يقول: فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظًا، ونياماً[٧] .

هذه جملة من أبرز الأمثلة المروية عنه في ذلك، ومع هذا فإن المستقرئ، والمتتبع لتفسيره ـ رحمه الله ـ يجد أن أكثره، كان بالمأثور، وأما تفسيره بالرأي فقد كان قليلاً .

٦ ـ عدم دخوله في الفتن :

وهذا من المعالم البارزة في شخصية هذا الإمام، فإنه قد عاصر منذ صباه الاضطرابات الداخلية التي أصابت دولة الخلافة، وانتهت بمقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) تفسير ابن عطية (٩/ ٣٧٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٣).

(٢) المرجعان السابقان.

(٣) سورة هود : آية (٤٢).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٢٦)، وأشار إلى هذه الرواية ابن عطية في المحرر بلفظ مُختصر (٩/ ١٦١).

(٥) سورة الإسراء: آية (٦٠).

(٦) سورة الصافات : آية (١٠٢).

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ١٦)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١).

وفي ذلك يقول: كنت بالمدينة يوم قتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنة[١]، ثم نشأ وعاصر أحداث هذه الثورة، وما تلاها من انشقاق وفتن، وعاش فتنة ابن الأشعث في البصرة، التي خرج فيها عامة القراء، والزهاد، والعلماء، التي هزم فيها ابن الأشعث وأصحابه[٢].

هذا وغيره مما جعل الحسن يبتعد عن هذه الفتن، وينهى عنها.

ولم يكن ذلك جبنًا، وخوفًا، فهو الذي شغل في صباه بالجهاد عن طلب العلم[٣]، وهو الواعظ المشهور الذي كان يأتي الحكام فيأمرهم، وينهاهم ويذكرهم بالله، ولا يخاف في الله لومة لائم، وإنما كان هذا البعد من الفتن منهجًا اختطه هذا الإمام عن قصد، وتوجه؛ ولذا عده بعض الأئمة من رؤوس العلماء في الفتن، والدماء[٤].

ومما جاء من خبره في هذه الفتن، أن الناس أشاروا على ابن الأشعث إن أراد أن يخرج الناس معه أن يخرج الحسن، يقول ابن عون: استبطأه الناس أيام ابن الأشعث، فقالوا له: أخرج هذا الشيخ (يعني: الحسن)، قال ابن عون: فنظرت إليه بين الجسرين، وعليه عمامة سوداء، قال: فغفلوا عنه، فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار حتى نجا منهم، وكاد يهلك يومئذ[٥].

ولما سئل عن الحجاج، فقيل له، يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟

---

(١) السير (٤/ ٥٦٩)، وأخبار القضاة (٢/ ٦).

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الفتنة: فهزموا، وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين والدنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة، ينظر منهاج السنة (٤/ ٥٢٨).

(٣) السير (٤/ ٥٧٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٣)، والسير (٤/ ٥٧٥).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٣)، وتاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ/ ٥٣).

فقال الحسن: أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله، فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء، فاصبروا حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين[١].

وكان يقول: الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة، والتضرع، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[٢].

وسأله رجل (وأناس من أهل الشام عنده)، فقال: يا أبا سعيد: ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب، وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، فقال: نعم، ولا مع أمير المؤمنين[٣].

ولذا فقد احتاج الناس إلى علم الحسن، لبعده عن هذه الفتن، يقول عبد الله بن عون: كان مسلم بن يسار[٤] أرفع عند أهل البصرة من الحسن، حتى خف مع ابن الأشعث، وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد في علو منها بعد، وسقط الآخر[٥].

وعن مالك بن دينار، قال: لقيت معبدًا الجهني بمكة، بعد ابن الأشعث وهو جريح، وقد قاتل الحجاج في المواطن كلها، فقال: لقيت الفقهاء والناس، لم أر مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه![٦].

بل وكان ـ رحمه الله ـ ينهى عن الدخول في الفتن، ويغلظ القول في ذلك.

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٤).

(٢) سورة المؤمنون: آية (٧٦)، منهاج السنة (٤/ ٥٢٩)، وتاريخ الإسلام (١١٠ هـ/ ٥٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٤).

(٤) مسلم بن يسار البصري، أبو عبد الله الفقيه، ثقة عابد مات سنة مائة، قال عنه قتادة: خامس خمسة من فقهاء البصرة، ينظر التقريب (٥٣١)، المعرفة (٢/ ٨٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٥)، والسير (٤/ ٥١٣).

(٦) التاريخ الصغير (١/ ٢٠٤).

فعن شعبة قال: انتهيت إلى الحسن البصري، قال: كلما نعر كلب أو ديك تبعتموه[١].

ولذا نجد أن بعض الفرق كرهوا الحسن، وشنعوا عليه من هذا الباب، وفي ذلك يقول قتادة: والله لا يبغضه إلا حروري[٢].

٧ ـ تقدمه، وجمعه لفروع عديدة من العلم:

يقول ابن سعد: وكان الحسن جامعًا عالمًا عاليًا رفيعًا كبير العلم فصيحًا[٣].

وعن الحجاج بن الأسود، قال: تمنى رجل فقال: ليتني بزهد الحسن، وورع ابن سيرين، وعبادة عامر بن عبد قيس، وفقه سعيد بن المسيب! فنظروا ذلك، فوجدوه كلامًا كله في الحسن[٤].

ويقول عنه ابن حبان: كان من علماء التابعين، بالقرآن والفقه والأدب[٥].

والمطالع في تفسيره يجد شاهد ذلك، في كثرة تعرضه لآيات الأحكام والقراءات والغريب وغير ذلك، مما يدل على تقدمه في كثير من فروع العلم، مما كثر المنقول عنه في هذه الفروع، وكان من الأسباب في كثرة المروي عنه في التفسير وغيره.

وقد كانت حلقته في المسجد يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن، واللغة،

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٤٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٧٤)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).

الحرورية: نسبة إلى حروراء، قرية من قرى الكوفة، تجمع بها المحكمة الأولى الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، بعد تحكيم الحكمين، فكفروا عليًا وتبرؤوا منه فحاربهم بالنهروان، ومنهم افترقت فرق الخوارج كلها. يراجع مقالات الإسلاميين (١/ ١٢٨) والفرق بين الفرق ص (٧٥)، والملل والنحل (١/ ١١٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٥)، والمعرفة (٢/ ٦١).

(٥) مشاهير علماء الأمصار (٨٨)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٤٢).

وسائر العلوم، وكان ربما يُسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن، والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة[١].

بل كان ـ رحمه الله ـ يستثنى من كل غاية فيقال: فلان أزهد الناس إلا من الحسن، وأفقه الناس إلا من الحسن، وأفصح الناس إلا من الحسن، وأخطب الناس إلا من الحسن[٢].

٨ ـ تقدمه في القراءة:

يعد الحسن أحد القراء الأربعة[٣]، الذين تنسب إليهم القراءات الزائدة على العشر[٤].

ولذا نجد الأئمة من المفسرين يعتنون بإيراد قراءته والترجيح بها.

ومما تميز به بين عموم مفسري التابعين في هذا الباب، عنايته بتصحيح الأداء، والنطق في القراءة[٥].

ولذا كان له اختيار في القراءة، وقد جعله الحجاج رئيس اللجنة في كتابة

---

(١) السير (٤/ ٥٧٩).

(٢) المستطرف (١/ ١٥٧).

(٣) القراء الأربعة هم: الحسن البصري (- ١١٠ هـ)، وابن محيصن (- ١٢٣هـ)، ويحيى اليزيدي (- ٢٠٢ هـ)، والشنبوذي (- ٣٨٨ هـ).

(٤) العشرة هم: القراء السبعة: ابن عامر (- ١١٨ هـ)، وابن كثير (- ١٢٠ هـ)، وعاصم (- ١٢٧هـ)، وأبو عمرو (- ١٥٤ هـ)، وحمزة (- ١٨٨ هـ)، ونافع (- ١٦٩ هـ)، والكسائي (- ١٨٩ هـ)، والثلاثة الباقون: هم أبو جعفر (- ١٣٠ هـ) ويعقوب (٢٢٥ هـ)، وخلف (- ٢٢٩هـ).

(٥) من الأمثلة الدالة على ذلك، ينظر تفسير الطبري الآثار ٢٧٩٢، ٨٠٤٧، ٨١٥١، ١٣٧٣١، ١٤٦٢٦، ١٨٨١٢، ١٩١٧٠، ٢٠٥٤٨، ٢٠٥٤٩، والصفحات ذوات الأرقام (١٦/ ١٢)، (١٦/ ٢٠٦)، (٢٣/ ٧٣)، (٢٣/ ١١٧)، (٢٨/ ١٨)، (٢٨/ ٣٠)، (٢٨/ ١٦٠)، (٢٩/ ٢٤٠)، (٣٠/ ٣٩)، (٣٠/ ٢١٥)، (٣٠/ ٢١٨)، (٣٠/ ٢٩٤).

المصحف[١] .

مع ما سبقت الإشارة إليه من فصاحة الحسن، وقدرته الفائقة على الإيضاح، والبيان بأجمل عبارة، وأقواها، وكذا سعة علمه بمعرفة الغريب من كلام العرب، هذا، وغيره من العوامل التي ساعدت على نشر تفسيره ـ رحمه الله ـ وروايته .

٩ ـ إكثاره في باب الوعظ، والتذكير :

فالحسن جمع بين التعليم، والدعوة، فكثر توجيهه، وتعليمه، وقد أوتي حظًا وافرًا من الفصاحة والبيان والقدرة على التأثير، حتى كان فردًا في زمانه في هذا الباب[٢] .

يقول عنه الإمام الذهبي : كان مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأسًا في أنواع الخير[٣] .

وقد نقل عنه كثير من هذه المواعظ والحكم، في آيات الوعد والوعيد، وآيات الترغيب، والترهيب، لما لتفسيره من أثر بالغ على قلب السامعين؛ ولذا حرص المفسرون على نقل تلك الكلمات، وروايتها، فكان هذا من أسباب كثرة المروي عنه .

سئل الأوزاعي : أي الناس أعلم؟ قال : ذهب عليهم الحسن بالمواعظ، وذهب عليهم عطاء بالمناسك[٤] .

وقد أقر له بعض معاصريه من أئمة التابعين بهذا التقدم في باب الوعظ، روى معمر قال : جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال : رأيت حمامة التقمت لؤلؤة، فخرجت منها أعظم مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة، فخرجت أصغر مما

(١) نكتب الانتصار، لنقل القرآن (٣٩٦).
(٢) صبح الأعشى (١/ ٥١٧)، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٧٢).
(٤) العلل لأحمد (١/ ١٩٧).

دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة، فخرجت كما دخلت سواء، فقال ابن سيرين : الحمامة الأولى الحسن يسمع الحديث فيجوده بمنطقه، ثم يصل فيه من مواعظه، والثانية : ابن سيرين يشك فيه فينقص منه، والثالثة : قتادة فهو أحفظ الناس[1].

العوامل التي أدت إلى تقليل نتاجه مقارنة بغيره :

ومع هذه الأسباب التي أدت إلى كثرة المروي عنه إلا أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تقليل هذا النتاج مقارنة بغيره، وإلا لكان المروي عنه أكثر من هذا، من هذه العوامل :

١ ـ عدم تخصص أحد من تلاميذ الحسن لرواية تفسيره والانقطاع لذلك :

فالناظر في المروي عنه في التفسير، يلاحظ عدم تفرغ أحد من تلاميذه لنقل مروياته، فقتادة وهو من أكثر الملازمين له ، بل ومن أكثر التلاميذ رواية عنه، لم يرو إلا نسبة قليلة من تفسيره[2] ، مع ما يلاحظ من أن بعض من روى تفسير الحسن غير مرضي

---

(١) تهذيب الأسماء (٢/ ٥٧)، وسبق قريبًا.

(٢) حيث بلغ ما نقله عنه (١٨٠) رواية من مجموع تفسيره (في تفسير الطبري) ، البالغ (١٤٨٧) رواية أي ما نسبته (١٢ , ٠)، وكان الذي يليه في العناية بنقل تفسير الحسن، معمر بن راشد؛ حيث روى (١٧٢) رواية، أي ما نسبته (٥ , ١١ , ٠)، وغيرهم دونهم في ذلك.
في حين أن مجاهدًا، وقتادة، وغيرهم، وجد من تلاميذهم من يُعنى ويتخصص في نقل تفسيرهم، فهذا مجاهد عني بنقل تفسيره ابن أبي نجيح، فروى ما يزيد على نصفه؛ حيث بلغ نسبة ما رواه (٥٦ , ٠) من مجموع ما ورد عنه في تفسير الطبري البالغ (٦١٠٩) أثرًا، وعني بجزء من الباقي ابن جريج؛ حيث نقل ما نسبته (١٥ , ٠) من مجموع تفسيره.
ومثله قتادة؛ حيث تفرغ لنقل تفسيره سعيد بن أبي عروبة، فروى ما نسبته (٦٢ , ٠) من مجموع تفسيره، البالغ (٥٣٧٩) رواية، وقريبًا منه ما رواه معمر بن راشد؛ حيث روى عنه ما نسبته (٣٠ , ٠) من مجموع تفسيره.
وأحب هنا أن أسجل نتيجة ظهرت لي، وترجحت عندي، وهي أن قطعة كبيرة من تفسير =

الحال كعمرو بن عبيد[١] ، وواصل بن عطاء[٢] ؛ لذا فقد أعرض كثير[٣] من المفسرين عن نقل ما جاء من طريقهم ، كعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم . . . وغيرهم .

٢ ـ اشتغاله بالفقه ، وتصدره للفتوى :

كان ـ رحمه الله ـ إمامًا في هذا ، وممن تصدى لتدريس العامة والخاصة ، ووعظهم ، وتعليمهم ، ومن كانت هذه حاله ؛ فإن من أحوج ما يحتاج إليه الناس السؤال عن

= الحسن نقلها المفسرون عن قتادة ، وهي في الأصل من تفسير الحسن ، يشهد لذلك ويؤيده جملة من القرائن والأدلة من أهمها :

١ ـ أن قتادة تتلمذ على الحسن ، ولازمه أكثر من اثنتي عشرة سنة ، كما سيأتي إن شاء الله .

٢ ـ كان قتادة ممن يحرص على الآثار بعامة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالتفسير ، وكان يقول : ما من آية إلا وسمعت فيها شيئًا ، مع ما يُعلم من حاله من كرهه للاجتهاد بالرأي .

٣ ـ مع ما يلاحظه القارئ لتفسيره (أعني : قتادة) من التشابه ، والتطابق مع تفسير الحسن في كثير من الأحيان ، مما يؤكد أن كثيرًا من تفسيره مستفاد من تفسير الحسن ، ورواه قتادة من تأويله ، لاسيما وأن قتادة كان آية في الحفظ بين التابعين ، بل كان مضرب المثل في ذلك .

٤ ـ ومما يؤكد هذا أن المراجع لكتب الفقه ، والوعظ ، والأدب ، يجدها مليئة بكم كبير من فتاوى الحسن ، في حين أن كتب التفسير بالمأثور قل فيها الرواية عنه ، وخصوصًا ما كان منها في تلك الجوانب ، ولم ينقل إلا شطر منها ، وأغلب الظن بعد التتبع ، والمقارنة ، أن جزءًا كبيرًا من تأويلات الحسن وصلت إلينا في كتب التفسير منسوبة إلى تلاميذه ، وخاصة ، ما كان من تفسير قتادة .

(١) عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري ، كبير المعتزلة ، مات سنة (١٤٤ هـ) ، ينظر الخلاصة (١٠٩) ، ومروج الذهب (٣/ ٣١٣) ، وغاية النهاية (١/ ٦٠٢) .

(٢) واصل بن عطاء أبو حذيفة ، مولاهم البصري ، وكان رأسًا في الاعتزال ، مات سنة (١٣١ هـ) ، ينظر معجم الأدباء (١٩/ ٢٤٣) ، والفرق بين الفرق (١١٧) ، وميزان الاعتدال (٤/ ٣٢٩) .

(٣) تاريخ التراث (١/ ٧٢) . وأما الثعلبي في الكشف فقد نقل تفسير الحسن من طريق عمرو بن عبيد ، وتبعه على ذلك البغوي في المعالم .
ينظر مقدمة تفسير البغوي (١/ ٢٨) ، وتاريخ التراث (١/ ٧٢) .

الأحكام العملية التي ترتبط بعباداتهم وعلاقاتهم، وسلوكهم، فاشتغل - رحمه الله - بهذا، وكان له الأثر في عدم تفرغه، وانقطاعه لعلم التفسير[١].

وقد أثنى عليه قتادة - وهو أقرب الناس إليه، وأخصهم بمعرفة حاله - أثنى عليه في الجانب الفقهي، وقدم غيره عليه في الجانب التفسيري.

فعنه قال: أعلم الناس بالحلال والحرام الحسن، وأعلمهم بالمناسك عطاء بن أبي رباح، وأعلمهم بالتفسير عكرمة[٢].

ولذا عدَّ الحسن فقيه البصرة بلا مُنازع[٣]، وقد أثنى عليه الأئمة في هذا.

فعن علي بن زيد قال: أدركت عروة بن الزبير، ويحيى بن جعدة، والقاسم بن محمد، فلم أر فيهم مثل الحسن، ولو أن الحسن أدرك أصحاب النبي ﷺ - وهو رجل - لاحتاجوا إلى رأيه[٤].

وكان قتادة يقول: ما جالست فقيهًا قط، إلا رأيت فضل الحسن عليه[٥].

وقال بكر بن عبد الله: الحسن أفقه من رأينا[٦].

وقد بلغ من كثرة المروي عنه في الفقه، أن جمع بعض العلماء[٧] فتاواه في سبعة

---

(١) بخلاف ما كان عليه مجاهد، وقتادة؛ حيث تفرغا لهذا العلم، ولم يُنقل عنهم في العلوم الأخرى من الروايات مثل ما نُقل عنهما في التفسير.

(٢) المعرفة (١/ ٧٠١)، (٢/ ١٦)، والسير (٥/ ١٧).

(٣) شذرات الذهب (١/ ١٣٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦١)، والمعرفة (٢/ ٣٢)، وطبقات الفقهاء (٨٧).

(٥) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٧).

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٢)، والتحفة اللطيفة (١/ ٤٧٧).

(٧) وهو محمد بن أحمد بن يحيى بن مُفرج القاضي، قال: الحميدي في جذوة المقتبس: وصنف محمد بن أحمد في فقه التابعين منها «فقه الحسن البصري» في سبع مجلدات، الجذوة (٤٠).

أسفار ضخمة[١] .

وقد فاق غيره من التابعين في سعة علمه، وإحاطته بسائر الأحكام.

فعن مطر، قال: كان علم عطاء في المناسك، وكان علم إبراهيم في الصلاة، وكان علم صاحبنا في كل، يعني الحسن[٢] .

وشاهد ذلك ما يجده المراجع لتفسيره، من كثرة تعرضه لتأويل آيات الأحكام، وبيان ما فيها من الأحكام، والفوائد الفقهية[٣] .

وهذا الاشتغال كان من أهم الأسباب في عدم تفرغه لعلم التفسير، وانصرافه عنه، مما كان له الأثر الأكبر في قلة المروي عنه.

٣ ـ ضعف حافظته وإحراقه لكتبه :

فكان علمه ـ رحمه الله ـ في صحيفة[٤] .

وكان يقول عن نفسه : لولا النسيان كان العلم كثيراً[٥] .

---

(١) أعلام الموقعين (١/ ١٩).

ويشهد لكون الحسن من أكثر التابعين اهتمامًا بالفقه، ما نجده من عناية الفقهاء بأقواله في كتبهم، فمن ذلك ما ورد في كتاب المغني في الفقه لابن قدامة؛ حيث روى عن الحسن (٩١٢) رواية، في حين كان المروي عن مجاهد أقل من ذلك بكثير، روى عنه (٢٥٧) رواية، وعن قتادة (٣٣٤) رواية.

(٢) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٦٨٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣٨).

(٣) حيث بلغ المروي عنه في ذلك ما نسبته (١١ , ٠) من تفسيره، في حين بلغ ذلك عن مجاهد ما نسبته (٠٢٨ , ٠) من تفسيره، وعند قتادة ما نسبته (٠٢ , ٠) من تفسيره، والمراجع لكتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي يجد ما يؤكد سبقه وتقدمه في هذا.

(٤) تاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ/ ص ٥٢).

(٥) المعرفة (٢/ ٣٣)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٢١)، والسير (٥٦٩).

حيث لا يمكن أن يُقارن الحسن في حافظته مع صاحبه ابن سيرين، ولا مع تلميذه قتادة. رحمة الله عليهم أجمعين.

ومع أن كثيراً من علمه كان في صحيفة إلا أنه أمر بها فأحرقت، فعن سهل بن الحصين الباهلي، قال: بعثت إلى عبد الله بن الحسن البصري: ابعث إلي بكتب أبيك، فبعث إلي: أنه لما ثُقل والدي، قال: لي: اجمعها لي، فجمعتها له، وما أدري ما يصنع بها، فأتيت بها، فقال للخادم: اسجري التنور، ثم أمر بها فأحرقت غير صحيفة واحدة[١].

٤ ـ قلة أسفاره، ورحلاته:

الحسن قضى سني عمره الأولى بالمدينة منذ الطفولة إلى سن الاحتلام، ولم يغادرها إلا بعد هذا السن، ثم لم يرجع إليها، وقد سأله أبو رجاء، فقال له: متى عهدك بالمدينة؟ قال: ليالي صفين[٢].

ثم إنه اشتغل في شبابه وصباه بالجهاد، فلم يطلب العلم، ولم يرحل فيه[٣].

فعن أبي معتمر قال: كان الحسن قد أفنى عمره في الغزو[٤].

وأما المرحلة الأخيرة من عمره ـ وهي أطول المراحل[٥] ـ فقد استقر في البصرة، ولم يخرج منها، بل إن خروجه إلى الأماكن المقدسة قليل، فلم يخرج إلا حاجًا، ولم يحج إلا مرتين[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٧٤)، والمنتخب من ذيل المذيل (٦٣٩).

(٢) العلل لأحمد (٣/ ١٧٦، ١٨٢) ٤٧٨٤، وطبقات ابن سعد (٧/ ١٥٧)، والثقات (٤/ ١٢٣)، والتذكرة (١/ ٧١)، والبداية (٧/ ٢٥٩)، والتحفة اللطيفة (١/ ٤٧٧)، وليلة صفين كانت في غرة صفر سنة (٣٧) هـ.

(٣) السير (٤/ ٥٧٢).

(٤) العلل لأحمد (٣/ ٢٢٧) ٤٩٩٤.

(٥) والتي كانت بين (٥٣ هـ ـ ١١٠).

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ١٧٥)، وتاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ/ ص ٥٦).

٥ ـ هيبته في قلوب تلاميذه :

فقد قذف الله الهيبة في قلوب تلاميذ هذا الإمام، فكان الواحد منهم يبقى الأيام، بل السنين لا يسأله عن المسألة مهابة له، يقول أيوب السختياني : كان الرجل يجلس إلى الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن المسألة هيبة له[١] .

٦ ـ قلة اهتمام المشارقة بتفسيره :

كان اهتمام وعناية المفسرين من المشرق، بنقل ورواية ما جاء عن مجاهد، وعكرمة، وعموم تلاميذ المدرسة المكية، أكثر من اهتمامهم وعنايتهم بتفسير الحسن[٢] .

هذه بعض العوامل والأسباب التي كان لها الأثر في تقليل النقل عن هذا الإمام رحمه الله رحمة واسعة .

أثره في بعض علوم القرآن :

أولاً : موقفه من النسخ :

عني ـ رحمه الله ـ بمعرفة الناسخ، والمنسوخ، ومال كثيراً إلى القول بإعمال، وإحكام كثير من الآيات[٣] .

والناظر في تفسيره يجد ترادف عبارة النسخ والاستثناء عنده، وهذا التساهل كان

---

(١) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٧)، وتاريخ الإسلام (ح ١١٠ هـ/ ٥٧)، والسير (٤/ ٥٧٣).

(٢) على عكس المغاربة الذين كانت عنايتهم في الدرجة الأولى بتفسير الحسن، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في مبحث كتب التفسير بالمأثور ص ٧٣ .

(٣) بعد مراجعة كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، وكتاب الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي، وجدت أن الحسن ممن مال إلى إعمال كثير من الآيات، ولذا روي عنه القول بإحكام (١٥) آية، ونسخ (٧) آيات .

دارجًا في عبارات المتقدمين من السلف.

فعند قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[١] قال: فنسخ، واستثنى من ذلك[٢] فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾[٣].

وعند قوله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

ثم قال: ثم نسخ واستثنى من ذلك[٥]، فقال:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

ثانيًا: معرفة المكي، والمدني:

كما كان ـ رحمه الله ـ من المهتمين بمعرفة المكي، والمدني، وقد عُني بتحديد كثير من السور المكية، والمدنية، وفاق غيره من التابعين[٧] في هذا المضمار، ومما يدل على اهتمامه بهذا الجانب عنايته بتحديد بعض المستثنى من سور محدودة، ولم يتوسع في ذلك[٨].

= ينظر بعض الأمثلة في كتاب الإيضاح الصفحات التالية: (١٤٨)، (١٦٩)، (٢٧٠)، (٢٧٢)، (٢٨٣)، (٢٨٧)، (٢٩٥)، (٣٦٠)، (٣٨٦)، (٤٠٥)، (٤١١).

(١) سورة الأنعام: آية (١٢١).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٨٧) ١٣٨٣٥.

(٣) سورة المائدة: آية (٥).

(٤) سورة النحل: آية (١٠٦).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٨٤).

(٦) سورة النحل: آية (١١٤).

(٧) باستثناء قتادة فإنه قد فاق شيخه في هذا الباب، وجاء الحسن بعده.

(٨) ينظر زاد المسير (٦/ ٣١٥)، (٨/ ٤٢٧).

فمن ذلك ما جاء عنه عند تفسير سورة غافر؛ حيث قال: وهي مكية إلا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[١]؛ لأن الصلوات نزلت في المدينة[٢].

وكذلك عند تفسيره لسورة لقمان قال: هي مكية إلا آية نزلت في المدينة، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[٣]؛ لأن الصلاة والزكاة مدنيتان[٤].

كما عني -رحمه الله- بالإشارة إلى بعض الضوابط العامة في معرفة المكي من المدني فكان يقول: ما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فهو مكي، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فبالمدينة[٥].

ثالثًا: المعرب في تفسيره:

يعد الحسن ممن قال بوقوع المُعرب في القرآن، ولكنه امتاز عن غيره من التابعين[٦] بعدم التوسع في ذلك، حتى إنه لم يرد عنه القول بوقوع المعرب إلا في موضع واحد من القرآن، وذلك عند تأويل قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[٧].

قال: كلمة بالسريانية، أي: عليك[٨].

---

(١) سورة غافر: آية (٥٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٧٩).

(٣) سورة لقمان: آية (٤).

(٤) زاد المسير (٦/ ٣١٤).

(٥) البرهان (١/ ١٩١).

(٦) كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير... وغيرهم.

(٧) سورة يوسف آية (٢٣).

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٢٧) ١٨٩٧٦، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٧)، وأورده السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، وعزاه ابن جرير إلى الحسن به (١٥٧)، وأشار إليه السيوطي في الإتقان (١/ ٣٧٨).

رابعًا: موقفه من الإسرائيليات :

ومما تميز به تفسير الحسن عن سائر التابعين[١] ، بُعده وإعراضه عن كثير من روايات بني إسرائيل، مع أنه من الوعاظ والمذكرين، إلا أنه لم يرض عن كثير من تلك الروايات، بل ضرب عنها صفحًا؛ فنجده مثلاً في سورة البقرة ـ التي روي فيها مئات الروايات عن التابعين[٢] ـ لا نجد له شيئًا، بل إن المروي عنه في ذلك يُوضح عدم الرضى، فعند تفسير قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[٣] .

قال: خرجوا فرارًا من الطاعون، فأماتهم قبل آجالهم، ثم أحياهم إلى آجالهم[٤] .

وعند قوله جل ثناؤه: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٥] خاض كثير من التابعين في المراد بها[٦] ، وأعرض الحسن عن هذا كله، وقال في تفسيرها: شيء تسكن إليه النفوس[٧] .

وكان ـ رحمه الله ـ يرد وينكر، بعض الروايات الواردة في حق الأنبياء، ويفسر الآية بتفسير بعيد عن كل هذا.

---

(١) تميز حتى عن أقرب الناس إليه، فتلميذه قتادة مع أنه من أكثر الناس تأثرًا بمنهجه، وبعدًا عن روايات بني إسرائيل، إلا أنه قد وقع في شيء منها.

(٢) من خلال تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) سورة البقرة: آية (٢٤٣).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٢٧٤) ٥٦٠٩، وقارن ذلك بما روي عن غيره من التابعين عند هذه الآية.

(٥) سورة البقرة: آية (٢٤٨).

(٦) فقيل في تفسير السكينة: إنها برأس كرأس الهرة، وجناحان، وقيل: لها جناحان وذنب، وقيل: لها جناحان وذنب مثل ذنب الهرة، رويت هذه الأقوال عن مجاهد كما في تفسير الطبري في الآثار: ٥٦٧٢، ٥٦٧٣، ٥٦٧٤، ٥٦٧٥، وقيل: السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاه الله موسى، وفيها وضع الألواح، وكانت الألواح من دُر، وياقوت وزبرجد، ينظر الأثر ٥٦٧٩.

(٧) أورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن به (١/ ٧٥٨).

فعند قوله جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾[١].

انفرد الحسن بالقول: بأن هذا كان في بعض الملل، ولم يكن بآدم[٢].

وفي رواية له، قال: عُني بهذا ذرية آدم. ومن أشرك منهم بعده[٣]، وورد عنه أيضًا قاله: هم اليهود، والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا[٤].

وقال أيضًا: هذا في الكفار، يدعون الله، فإذا آتاهما صالحًا هوَّدا ونصَّرا، ثم قال: قال الله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يقول: يطيعون مالا يخلق شيئًا، وهي الشياطين[٥].

ومما ورد عنه من إنكار لروايات بني إسرائيل، ما جاء عند تفسير قوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[٦]، أنكر على من قال: إن سليمان كان يأتي نساءه، وهن حيض، بعد تلك الفتنة[٧]، وقال: ما كان الله يسلطه (يعني: الشيطان) على نسائه[٨].

---

(١) سورة الأعراف: آية (١٩٠).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٤) ١٥٥١٦، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٩).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٤) ١٥٥٢٧، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٠)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن الحسن به. (٣٠/ ٦٢٦).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٥) ١٥٥٢٨، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٠)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، عن الحسن، بلفظه (٣/ ٦٢٦).
قال ابن كثير بعد سوق تلك الروايات عن الحسن: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه فسر الآية بذلك، وهو أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية (٣/ ٥٣٠).

(٥) أورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ عن الحسن به (٣/ ٦٢٧).

(٦) سورة ص: آية (٣٤).

(٧) روي ذلك عن سعيد بن المسيب، وغيره كما في الدر (٧/ ١٨٤).

(٨) أورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، والحكيم الترمذي، عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب، وساقها عن سعيد بطولها، ثم ذكر في آخرها سؤال علي بن زيد للحسن: عن إتيان سليمان نساءه؛ فأنكره (٧/ ١٨٤).

ومما يلفت النظر عند استعراض ما ورد عنه من آثار عن بني إسرائيل مع قلتها إلا أن المتأمل فيها يجد اختصارًا عجيبًا في إيرادها تميز به الحسن عن غيره من التابعين، فهو يورد الشاهد من القصة بعبارة موجزة: مكتفيًا بما يُزيل الغموض الظاهر في الآية دون إسهاب أو إطالة بذكر مشاهد القصة، وأحداثها[١].

وفي ختام هذا المبحث، فبالتتبع[٢] لم أجد له من الروايات الغريبة، أو المنكرة، إلا رواية واحدة، جاءت عند تأويل قوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٣]، فعنه قال: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا لعبادته، ويومًا لقضاء بني إسرائيل، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه، ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل قال: ذكروا، فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك: فلما كان يوم عبادته، أغلق أبوابه، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على التوراة، فبينما هو يقرؤها، فإذا حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، قد وقعت بين يديه، فأهوى إليها ليأخذها، قال: فطارت فوقعت غير بعيد، من غير أن تؤيسه من نفسها، قال: فما زال يتبعها، حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقها، وحُسنها، قال: فلما رأت ظله في الأرض، جللت نفسها بشعرها، فزاده ذلك أيضًا إعجابًا

---

(١) ومن يراجع تلك الآثار، ويقارن بينها، وبين غيرها مما ورد عن أئمة التابعين وغيرهم، يلحظ تلك المزية التي امتاز بها الحسن من الاختصار الشديد في الإيراد، وهذه أرقام جميع ما روي عنه من خلال تفسير ابن جرير، الآثار: ١٤٨١٤، ١٤٨١٥، ١٤٩٦٣، ١٤٩٦٤، ١٨١٣٥، ١٨٨٥٤، ١٨٨٦٤، ١٩٠٤٨، ١٩٠٤٩، ١٩٠٧٠، ١٩٠٧٣، ١٩٠٧٥، ١٩٠٧٥، ١٩٠٨١، ١٩٤٣٨، ١٩٧٣٣، ١٩٨١٣، ١٩٩٢٢.
والصفحات التالية: (١٤/ ٩٠)، (١٦/ ٦)، (١٦/ ٥٩)، (٢٠/ ٦٢)، (٢٠/ ١١٥)، (٢٢/ ٦٩)، (٢٢/ ٨٤)، (٢٣/ ٨٧).

(٢) بعد تتبع تفاسير: ابن جرير الطبري، وابن كثير، والسيوطي.

(٣) سورة ص: آية (٢٤).

بها، وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا؛ مكان إذا سار إليه لم يرجع، قال: ففعل، فأصيب، فخطبها، فتزوجها[1].

* * *

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٨)، وأورده السيوطي في الدر بزيادة قصة في آخره نسبها للحسن، وهي من قول قتادة، وعزى الأثر لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر (٧/ ١٥٨).
ولعل الحسن ـ رحمه الله ـ اعتمد في هذه الرواية الوحيدة عنه على ما روي مرفوعًا من طريق أنس، ولكن الحديث لا يصح؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، كما ذكر ذلك ابن كثير (٧/ ٥١)، والسيوطي (٧/ ١٥٦).

قتادة

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز[١] ، وقيل : قتادة بن دعامة بن عُكابة[٢] ، أبو الخطاب[٣] ، السدوسي البصري الضرير الأكمه[٤] .

وسدوس هو ابن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن بكر بن وائل[٥] .

قال ابن خلكان : وكان تابعيًا ، وعالمًا كبيراً[٦] .

قال الإمام أحمد : ما أعلم قتادة روى عن أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا عن أنس[٧] .

قال شعبة : نصصت على قتادة سبعين حديثًا كلها يقول : سمعت أنس بن مالك[٨] .

---

(١) الجرح (٧/ ١٣٣)، والثقات (٥/ ٣٢١)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٩٥).

(٢) الجرح (٧/ ١٣٣)، والثقات (٥/ ٣٢٢)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٥).

(٣) الكنى لأحمد (٦٦) والكنى لمسلم (ق ٣٣)، والكنى للدولابي (١/ ١٦٦).

(٤) نكتب الهميان (٢٣٠).

(٥) الإنباه على قبائل الرواة، لابن عبد البر (٨٧)، ونُسب عدنان وقحطان، للمبرد (ص ٣٨) ضمن مجموعة الرسائل الكمالية، والأنساب للسماعاني (٧/ ٥٧)، واللباب لابن الأثير (٢/ ١٠٩)، ولباب الألباب في تحرير الأنساب، للسيوطي (٢/ ١٤)، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٢٦١).

(٦) وفيات الأعيان (٤/ ٨٥)، وعدّه ابن عبد الهادي الصالحي من الطبقة الثالثة من طبقات التابعين، وينظر كتاب طبقات علماء الحديث (١/ ١٩٥).

(٧) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (١٢٩)، والمراسيل (١٦٨)، وجامع التحصيل (٢٥٤)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٥)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٤٢٢).

(٨) السير (٥/ ٢٧٧).

وصحح أبو زرعة سماعه من عبد الله بن سرجس[١] ، وزاد ابن المديني أبا الطفيل[٢] .

روى عن سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وأبي العالية، وصفوان بن مُحرز، وأبي عثمان النهدي، والنضر بن أنس، وعكرمة مولى ابن عباس، وبكر بن عبد الله المزني، وهلال بن يزيد، وعطاء بن أبي رباح، ومعاذة العدوية، وبشير بن كعب، وأبي الشعثاء جابر بن زيد، وخالد بن عرفطة، وخلاس الهجري، وعبد الله بن شقيق ، وعامر الشعبي، وخلق كثير[٣] .

وقد أخذ عن الحسن فأكثر، يقول معمر : قال قتادة : جالست الحسن اثنتي عشرة سنة، أصلي معه الصبح ثلاث سنين، قال : ومثلي يأخذ عن مثله[٤] .

والناظر في تفسيره يجد أثر ذلك الإكثار في الأخذ عن الحسن وتأثره به[٥] .

كما أخذ عن سعيد بن المسيب وتأثر به أيضًا[٦] .

---

(١) العلل لأحمد (٣/ ٢٨٤) ٥٢٦٤ .

عبد الله بن سرجس المزني؛ صحابي سكن البصرة، ينظر كتاب تسمية أصحاب النبي ﷺ (٦٦)، وأسد الغابة (٣/ ٢٥٦)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣١٣)، والإصابة (٢/ ٣١٥).

(٢) هو عامر بن واثلة بن عبد الله الليثي، ولد عام أحد، ورأى النبي ﷺ وعُمر إلى أن مات سنة (١١٠) هـ؛ يُنظر كتاب تسمية أصحاب النبي ﷺ (٧٥)، وأسد الغابة (٦/ ١٧٩)، والتجريد (١/ ١٨٠)، والإصابة (٢/ ٢٦١).

(٣) تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٩٩)، والسير (٥/ ٢٧٠)، والتهذيب (٨/ ٣٥٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، والمعرفة (٢/ ٢٧٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٧).

وقتادة من أكثر الرواة الذين نقلوا لنا تفسير الحسن؛ حيث روى (١٢ , ٠) من مجموع تفسيره.

(٥) لا سيما في الجانب الوعظي، ويأتي لذلك مزيد بحث إن شاء الله بعد ورقات.

(٦) وقد كان قتادة من أكثر تلاميذ سعيد عناية بنقل تفسيره؛ حيث روى ما نسبته (٣٧ , ٠) من مجموع تفسيره، وقد تأثر به في الحرص على الأثر، والبعد عن الرأي، في حين جاء الذي يليه يحيى بن سعيد، فلم تزد نسبة ما روى عنه عن (١٦ , ٠) من مجموع تفسيره .

ما تميز به قتادة مما أثر في تفسيره :

كان ـ رحمه الله ـ أكثر التابعين أقوالاً في التفسير ، وقد سبق مجاهداً في عدد الآيات التي تعرض لها[١] .

وقد تميز ـ رحمه الله ـ بين مفسري التابعين بعدد من المميزات من أهمها ما يلي :

أولاً : قوة حافظته :

اتفقت كلمة الأئمة على الثناء عليه في هذا الجانب ، وكان مضرب المثل في عصره[٢] ولعلنا نسوق طرفًا من هذه الشهادات ، التي تدل على ذلك :

فعن معمر قال : قال محمد بن سيرين : قتادة أحفظ الناس[٣] .

وعن سعيد بن المسيب قال : ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة[٤] .

وكان ابن المسيب ، يسأله فيقول : تحفظ كل ما سألتني عنه؟ قال : نعم ، سألتك عن كذا ، فقلت : كذا ، وسئلت عن كذا ، فقلت فيه : كذا ، وقال فيه : ما كنت أظن الله خلق مثلك[٥] .

وعن معمر قال : قال قتادة لسعيد بن المسيب : يا أبا النضر : خذ المصحف ، قال :

---

(١) بعد مراجعتي لتفسير الطبري ، وجدت أن المروي عن قتادة في التفسير بلغ (٥٣٧٩) قولاً ، وكان المروي عنه بغير المكرر (٤٤٤٣) قولاً ، في حين بلغ المروي عن مجاهد بالمكرر (٦١٠٩) أقوال ، وبغير المكرر (٣٣٤٣) قولاً .

(٢) السير (٥/ ٢٧٠) وهدي الساري (٤٣٦) ، وغاية النهاية (٢/ ٢٦) ، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩) ، ونكت الهميان (٢٣٠) .

(٣) الجرح (٧/ ١٣٤) ، والعبر (١/ ١١٢) ، والبداية (٩/ ٣٥٢) ، وطبقات المفسرين (٢/ ٤٣) .

(٤) الجرح (٧/ ١٣٣) ، والتذكرة (١/ ١٢٣) ، وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٧) ، وطبقات الحفاظ (٤٧) .

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٨) ، وتهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٢) ، وكتاب الحث على الحفظ ، وذكر كبار الحفاظ (١٠٥) .

فعرض عليه سورة البقرة، فلم يُخْطِ فيها حرفًا، قال: فقال: يا أبا النضر، أحكمتُ؟ قال: نعم، قال: لأنا لصحيفة جابر بن عبد الله أحفظ مني لسورة البقرة[١].

وقال الإمام أحمد: كان قتادة أحفظ أهل البصرة، لايسمع شيئًا إلا حفظه، قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[٢].

وعن بكر المزني قال: من سره أن ينظر إلى أحفظ من أدركنا فلينظر إلى قتادة[٣].

وكان من قوة حافظته يرغب عن تكرار الحديث، وفي ذلك يقول: تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره، وما قلت لأحد قط: أعدْ علي[٤].

عن معمر قال جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال: رأيت حمامة التقمت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة فخرجت أصغر مما دخلت، ورأيت حمامة التقمت لؤلؤة فخرجت كما دخلت سواء، فقال ابن سيرين: الحمامة الأولى: الحسن يسمع الحديث، فيجوده بمنطقه، ثم يصل فيه من مواعظه، والثانية: ابن سيرين يشك فيه فينقص منه، والثالثة: قتادة فهو أحفظ الناس[٥].

ولقد بلغ من شدة حفظه ـ كما يقول عن نفسه ـ أنه ما سمع بشيء إلا حفظه[٦].

ومع هذه الحافظة الفطرية فقد كانت عنده الرغبة القوية، والحرص الشديد على

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٢٧٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٦).

(٢) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (١٢٩)، والتهذيب (٨/ ٣٥٥)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٨)، وطبقات الحفاظ (٤٧)، والبداية (٩/ ٣٥٢).

(٣) الجرح (٧/ ١٣٣)، والتذكرة (١/ ١٢٣)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٧)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٩٧)، وطبقات المفسرين (٢/ ٤٤).

(٤) تاريخ الإسلام (ح/ ١٠١ هـ/ ٤٥٤)، والتهذيب (٨/ ٣٥٤)، ونكت الهميان (٢٣٠)، ومرآة الجنان (١/ ٢٧٧).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٨)، والجرح (٧/ ١٣٤)، والسير (٥/ ٢٧٦).

(٦) السير (٥/ ٢٧١)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

حفظ ما يسمع، واستيعابه، فعن مطر قال: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافًا، يأخذه العويل والزويل[١] حتى يحفظه[٢].

وكان من اهتمامه بالحفظ وحرصه أن جعله مقدمًا على العبادة، وفي ذلك يقول: باب من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول[٣].

وكان واعيًا لهذا المحفوظ، فعنه قال: ما سمعت أذناي شيئًا قط إلا وعاه قلبي[٤].

ولذا عده الإمام الذهبي حافظ العصر، وقال عنه: يُضرب به المثل في قوة الحفظ[٥].

وقال ابن ناصر الدين: قتادة مُفسر الكتاب آية في الحفظ[٦].

وقال الزيلعي: هو أحفظ أهل زمانه[٧].

أثر حافظته على تفسيره:

إنما أكثرت من إيراد أقوال العلماء في سياق توكيد أهم صفة تميز بها هذا الإمام، لما ترتب على ذلك من آثار في جوانب عديدة من منهجه في التفسير، يتضح ذلك فيما يلي:

---

(١) الزويل أي: القلق والإنزعاج، ينظر اللسان (١١/ ٣١٥).

(٢) المعرفة (٢/ ٢٨٢)، والبداية (٩/ ٣٥٢)، والسير (٥/ ٢٧٢)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٣).

(٣) السير (٥/ ٥٧٥)، والبداية (٩/ ٣٥٢).

(٤) العبر (١/ ١١٢)، وكتاب الحث على الحفظ، وذكر كبار الحفاظ (١٠٥)، وطبقات المفسرين (٢/ ٤٣)، ومرآة الجنان (١/ ٢٧٧).

(٥) السير (٥/ ٢٧٠).

(٦) شذرات الذهب (١/ ١٥٣).

(٧) نصب الراية (١/ ٢١٤، ٣٥٢).

أ ـ بعده عن مخالفة الظاهر، وقلة الاجتهاد، والرأي في تفسيره[١] :

كان لهذه الحافظة أثر واضح في إبعاد كثير من تأويلات هذا التابعي عن التفسير المخالف لظاهر النص القرآني، وقد استغنى ـ رحمه الله ـ بمحفوظه، ومسموعه، عن القول برأيه، واجتهاده في كثير من المسائل، فعن أبي هلال قال: سألت قتادة عن مسألة فقال: لا أدري، فقلت: قل برأيك، قال: ما قلت برأيي منذ أربعين سنة، فقلت: ابن كم هو يومئذ؟ قال: ابن خمسين سنة[٢].

وعن همام بن يحيى قال: سمعت قتادة يقول: ما أفتيت بشيء من رأيي منذ عشرين سنة[٣].

ولذا فمن أقوى الأسباب ـ فيما أحسب ـ التي قللت الرأي عنده تلك الحافظة القوية، يضاف إلى ذلك ما اشتهر به من الحرص على السماع، ولاسيما فيما يتعلق بالقرآن، فعن معمر قال: سمعت قتادة يقول: ما في القرآن آية إلا قد سمعت فيها بشيء[٤].

ومن كانت هذه حاله من قوة الحافظة، وكثرة المحفوظ، فإنه يصعب عليه أن يتحرر مما حفظ، بل نجد أثر ذلك واضحًا في تفسيره، فقتادة قلَّ ما يخرج عن الأثر، فتفسيره يغلب عليه المسلك النقلي الأثري، وهذا يفسر لنا قلة تعرضه واعتماده على الاجتهاد، وقلة

---

(١) وهذا من المفارقات الرئيسة بينه، وبين شيخه الحسن، الذي كان أسهل منه في هذا بكثير.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، وسنن الدارمي (١/ ٤٧)، والمعرفة (٢/ ٢٨٠)، والعلل لأحمد (٢/ ٢٣٣) ٥٠٢١، والسير (٥/ ٢٧٣).

(٣) الجرح (٧/ ١٣٤)، والتذكرة (١/ ١٢٣)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠١ هـ/ ٤٥٤)، وطبقات المفسرين (٢/ ٤٤).

(٤) سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٥/ ٢٠٠)، والجرح (٧/ ١٣٤)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠١ هـ/ ٤٥٤)، وأوردها صاحب تاريخ الخميس (٢/ ٣١٩) بلفظ: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا من النكت.

تعرضه للآيات المشكلة، وإنما كان جلُّ همه في حفظ الآثار والاعتماد عليها في تأويله.

ولذا فمن الطبعي ما يلحظه القارئ لتفسيره من الاعتماد الكبير على المصادر النقلية، فرجوعه إلى المصدر الثاني وهو السنة[١]، وكذا قول الصاحبي[٢]، بل وقول التابعي[٣] كثير، وفاق غيره فيه.

ب ـ اهتمامه برواية أسباب النزول:

وهذه الحافظة قد أعانته على استحضار أسباب النزول، والاعتماد عليها في تأويله[٤].

وكان لهذا الاهتمام أثره في قوله بخصوص المعنى، في جملة من المنقول عنه[٥].

ثانيًا: إقلاله من الرواية عن بني إسرائيل:

ومما ينبغي الإشارة إليه عند بيان منهجه ـ رحمه الله ـ أنه مع حرصه على الرواية،

---

(١) رجعت إلى تفسير الطبري، وقارنت بين مجاهد وقتادة في اعتماد هذه المصادر، فوجدت أن المروي عن مجاهد في اعتماد الحديث جاء في (٢٥) رواية، في حين كان اعتماد قتادة عليه في (٢٠٥) روايات.

(٢) المروي عن مجاهد في الاعتماد على قول الصاحبي، جاء فيما يزيد عن (٢٦) رواية، في حين كان المروي عن قتادة يزيد عن (١٠٠) رواية.

(٣) أما الاعتماد على قول التابعي، فهذا قليل جداً عند مجاهد، ولعل ما بينهما من الفارق الزمني قد قلل هذا عند مجاهد، وكثره عند قتادة حتى إننا نجد أن (٣٧, ٠) من تفسير سعيد بن المسيب جاء من رواية قتادة، و (١٢, ٠) من تفسير الحسن كان من طريق قتادة وغيرهم من التابعين.

(٤) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت أن اعتماده على أسباب النزول بلغ ما نسبته (٠٧, ٠) من مجموع تفسيره، في حين بلغ عند مجاهد ما نسبته (٠٥, ٠) من مجموع تفسيره.
وقد رجعت إلى كتب أسباب النزول، ككتاب الواحدي، فوجدت أنه أورد عن قتادة ما يزيد عن (٤١) رواية، في حين بلغت عن مجاهد (٣٦) رواية، وفي كتاب السيوطي لباب النقول، روي عن قتادة (٤٥) رواية، في حين كان المروي عن مجاهد (٣٧) رواية.

(٥) بخلاف مجاهد، الذي كان يميل إلى القول بعموم اللفظ في كثير مما روي عنه.

ونقل الأخبار، وحب الآثار، إلا أنه في جانب الرواية عن أهل الكتاب تميز منهجه بميزات لعل من أهمها :

أ ـ قلة تعرضه للرواية عن أهل الكتاب :

فعند مراجعة كثير من المواطن، التي سبق فيها العديد من الروايات الإسرائيلية لم نجد لقتادة حين مر بها شيئًا يذكر[١] .

ب ـ مخالفته لكثير من تفسيرات التابعين بالروايات الإسرائيلية، وإيراده تفسيرًا بعيدًا عن تلك الروايات :

فمن ذلك ما ورد عنه عند قوله سبحانه : ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[٢] .

قال : الرعد خلق من خلق الله، سامع مطيعٌ لله جل وعز[٣] .

وعند قوله جل وعلا : ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٤] ، قال : وقار[٥] .

وعند قوله تعالى : ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن

---

(١) ولذا نجد أن ابن جرير لم يورد عنه شيئًا في قصة البقرة، وفي قصة الزهرة عند تأويل قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ سورة البقرة آية (١٠٢) التي خاض فيها كثير من التابعين بأقوال منكرة وغريبة، وفي قصة بناء البيت، بل وعند كل الآيات الواردة في سورة آل عمران في شأن مريم وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وينظر في ذلك الآيات : (٣٥، ٣٧، ٤٠، ٤٩)، وعند قصة تحريم القرية على بني إسرائيل أربعين سنة الواردة في سورة المائدة، آية (٢٦)، وغيرها من المواطن.

(٢) سورة البقرة : آية (١٩).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٤٠) ٤٣٠.

(٤) سورة البقرة : آية (٢٤٨).

(٥) تفسير الطبري (٥/ ٣٢٩) ٥٦٨٤، تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٨)، وتفسير الماوردي (١/ ٣١٦)، وتفسير البغوي (١/ ٢٢٩)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد الرزاق به (١/ ٧٥٨).

سَاقَيْهَا ﴾[١] .

قال : وكان من قوارير ، وكان الماء من خلفه فحسبته لجة[٢] .

ولم يدخل في شيء من الإسرائيليات في ماهية الرعد ، أو في بيان المراد بالسكينة ، أو ذكر السبب الذي من أجله جعل سليمان هذا الصرح من القوارير .

جـ ـ تخرجه من رواية الإسرائيليات :

ويظهر ذلك للمتأمل في طريقة إيراده لها ؛ حيث يُقدمها ، ويصدرها بقوله : ذكر لنا والله أعلم . ثم يسوقها مُختصرة ، مع أن الغالب على تفسيره ، ورواياته ، الطول ، والشرح ، والبيان ، ومع هذا يختصر من هذا المحفوظ ، ويحتاط ، ويسوق طرفًا منه كشاهد ، وهذا يؤكد لنا أن فعله هذا كان نتاج منهج اختطه ، وطريقة سلكها عن قصد ، ولم يقتصر عمله في هذه المنقولات على الرواية فحسب ، ولعلي أسوق طرفًا من الأمثلة المبينة لذلك :

فقد روي عنه عند تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** ﴾[٣] ، قال : من الكهانة والسحر ، وذُكر لنا والله أعلم أن الشياطين ابتدعت كتابًا فيه سحر ، وأمر عظيم ، ثم أفشوه في الناس وعلّموهم إياه[٤] .

وعند قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ** ﴾[٥] قال : كان موسى تركه عند فتاه يوشع بن نون ، وهو بالبرية ، وأقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته في دار طالوت ، فأصبح في داره[٦] .

---

(١) سورة النمل : آية (٤٤) .

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ١٦٩)، (٢/ ٨٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٩) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٠٢) .

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٤١٠) ١٦٥٢، ثم قارن ذلك بما روي عن غيره .

(٥) سورة البقرة : آية (٢٤٨) .

(٦) تفسير الطبري (٥/ ٣٢٤) ٥٦٦٢ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره بلفظ مختصر (١/ ٩٨)، وعند المقارنة بما روي عن غيره في هذا الأثر يتضح الفرق واضحًا جليًا .

وعندما جاء إلي تفسير قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[١]، لم يستطرد في بيان عظيم خلقهم، وما نقل في ذلك من روايات أهل الكتاب، إنما قال: ذكر لنا أنهم كانت لهم أجسام، وخلق، ليست لغيرهم[٢].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[٣].

قال: ذكر لنا أن طول السفينة ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وبابها في عرضها[٤].

ومما يشار إليه في هذا الباب أنه ـ رحمه الله ـ قد روى شيئًا من الروايات الغريبة، وقد تبين لي من خلال التأمل أنه قلما يوردها إلا عندما لا يجد شيئًا من المرفوع للنبي ﷺ وبعضًا من الموقوف على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فيستأنس بهذا أو ذاك فيروي شيئًا منها.

من ذلك ما ورد عنه عند تأويل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٥]؛ قال: ذكر لنا أنه كان لا يعيش لهما ولد، فأتاهما الشيطان، فقال لهما: سمياه (عبد الحارث)! وكان من وحي الشيطان،

---

(١) سورة المائدة: آية (٢٢).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٧٣) ١١٦٥٨، وزاد المسير (٢/ ٣٢٤)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر عن قتادة به (٣/ ٤٨).

(٣) سورة هود: آية (٣٨).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٣١١) ١٨١٣٤، وتفسير ابن عطية (٩/ ١٤٦)، وزاد المسير (٤/ ١٠٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٢)، وللمزيد من الأمثلة تُنظر الآثار في تفسير الطبري، ٩٤٢، ١٦٦٣، ٥٦٨٨، ١١٦٩٦ . . . وغيرها.

(٥) سورة الأعراف: آية (١٩٠).

وأمره، وكان شركًا في طاعة، ولم يكن شركًا في عبادة[1].

وورد عنه عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ الآية[2]، قال قتادة: بلغنا أنها

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٢) ١٥٥٢١، وفي لفظ عند الطبري ١٥٥٢٠، عن قتادة قال: فأشركا في الاسم، ولم يُشركا في العبادة، وينظر تفسير الماوردي (٢/ ٢٨٧)، وزاد المسير (٣/ ٣٠٣)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة به (٣/ ٦٢٦).

وروي عن الحسن من طريق قتادة عند هذه الآية، قال: كان الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى، رزقهم الله أولادًا، فهوَّدوا، ونصَّروا، ينظر تفسير الطبري (١٣/ ٣١٥)، ١٥٥٢٨.

وقد روي من طريق قتادة عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «كانت حواء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه عبد الحارث، فعاش لها ولد فسمته عبد الحارث، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان»، ينظر الطبري (١٣/ ٣٠٩) ١٥٥١٣، وهذا الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١١)، والترمذي في سننه وحسنه (٥/ ٢٦٧) ٣٠٧٧، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/ ٣٠٩) ١٥٥١٣، والحاكم في مستدركه، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٥)، وابن عدي في الكامل، وضعفه (٥/ ١٧٠٠)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن سمرة به (٣/ ٦٢٣).

والحديث جاء من رواية سمرة، من طريق عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، وفي إسناده عمر بن إبراهيم العبدي البصري، ضعيف الحديث إذا روى عن قتادة، أشار إلى ذلك الإمام أحمد، وابن حبان، وابن عدي، وابن حجر، ينظر تهذيب الكمال (٢١/ ٢٧٠)، والمجروحين (٢/ ٨٩)، والكامل (٥/ ١٧٠٠) والتقريب (٤١٠).

وقد أعلَّ هذا الحديث الحافظ ابن كثير بقوله: إن الحسن البصري الذي روى الحديث، صح عنه تفسير الآية بغير هذا، ثم قال: ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو، ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، ثم ذكر أن الحديث موقوف على الصحابي، يعني سمرة، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، ينظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٩، ٥٣٠)، وقد أطال المباركفوري في إيراد الشواهد والأقوال الدالة على ضعف هذا الحديث فتراجع في تحفة الأحوذي (٨/ ٤٥٩-٤٦٦).

(٢) سورة (ص): آية (٢٣).

أم سليمان، قال: فبينما هو في المحراب، إذا تسوَّر الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتياه يأتيانه من باب المحراب، ففزع منهم حين تسوروا المحراب، فقالوا: ﴿لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾... حتى بلغ: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تمل ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾؛ أي: أعدله وخيره ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾، وكان لداود تسع وتسعون امرأة ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[1] قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة... وذكر الخبر، ثم قال قتادة: فعلم داود إنما صُمد له، أي: عني به ذلك[2].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[3].

قال: إن سليمان أمر ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه، ولا يسمع فيه صوت حديد، قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له: إن شيطانًا في البحر يقال له: صخر شبه المارد، قال: فطلبه، وكانت عين في البحر يردها في كلِّ سبعة أيام مرّة، فنزح ماؤها وجعل فيها خمر، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصيبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم رجع، حتى عطش عطشًا

---

(١) سورة ص: آية (٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٨). وقد أورد السيوطي في الدر حديثًا مرويًا من طريق أنس، عن النبي ﷺ قال: «إن داود النبي ﷺ حين نظر إلى المرأة قطع على بني إسرائيل، فأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو، فقرب فلانًا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يُستنصر به؛ من قُدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل، أو ينهزم عنه الجيش، فقتل زوج المرأة ونزل الملكان على داود يقصان عليه قصته، ففطن داود فسجد، فمكث أربعين ليلة ساجدًا...» الحديث، وقد عزاه السيوطي إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن أبي حاتم، وضعف إسناده (٧/ ١٥٦).
وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن رواية ابن أبي حاتم لهذا الحديث: لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، اهـ. (٧/ ٥١).

(٣) سورة (ص): آية (٣٤).

شديداً حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه، فذل، قال: فكان مُلكه في خاتمه، فأتي به سليمان، فقال: إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعنَّ فيه صوت حديد، قال: فأتى ببيض الهدهد، فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد، فدار حولها، فجعل يرى بيضه، ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس، فوضعه عليه، فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه، فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة، فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو الحمام، لم يدخلها بخاتمه؛ فانطلق يومًا إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه، قال: فدخل الحمام، وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونُزع مُلك سليمان منه، وألقي على الشيطان شبه سليمان، قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على مُلك سليمان كله غير نسائه، فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد فُتن نبي الله، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر ابن الخطاب في القوة، فقال: والله لأجربنه، قال: فقال له: يا نبي الله - وهو لا يرى إلا أنه نبي الله - أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغُسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟. قال لا، قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة، حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنيّ، ولا طير، إلا سجد له، حتى انتهى إليهم ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: هو الشيطان صخر[1].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٧)، وأورده السيوطي في الدر وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة بنحوه (٧/ ١٨٠)، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره بلفظ مقارب عن قتادة (٢/ ١٦٤). وأورد هذه الرواية، وغيرها ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٥٨)، ثم قال: ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم. . . وساق روايةً عن ابن عباس (سندها قوي كما قال)، والسبب في شدة نكارتها أن هذه الرواية ذُكر فيها إتيان الشيطان نساء سليمان، بخلاف المروي عن قتادة؛ =

ثالثًا : الوعظ في تفسيره :

ومن أبرز المعالم في تفسيره وضوح الجانب الدعوي، والتربوي، والأثر البالغ لتتلمذه على الحسن البصري ـ رحمه الله ـ فنجده في كثير من جوانب تفسيره لا يكاد يدع مجالاً للوعظ والتذكير إلا وَعَظ وذكّر، ولا يجد مناسبة للدعوة إلا دعا ، وقد اتضح هذا النهج في تفسيره فأصبح من أكثر التابعين اهتمامًا بهذا المسلك، وتوجهًا إليه[١] .

وهذا المعلم في تفسيره ، قد استغرق أكثر اهتمام هذا الإمام[٢] .

خصائص تفسيره :

من خلال تتبع تأويله للآيات في ذلك، نجد أنه اختص بخصائص استفادها من أستاذه الحسن البصري، وقلَّ أن توجد عند غيره، من أهمها :

١ ـ أسلوب المخاطبة والحوار في تفسيره :

فالقارئ لتفسيره يشعر بتلك الصلة الحية بينه، وبين قارئه، أو المستمع إليه ، وكأن القارئ لهذا التفسير يشعر بتلك الرابطة ، وبذلك الحرص من هذا الإمام على تلاميذه، وسامعيه، للتأثير عليهم وتربيتهم بهذا القول، والتوجه بالحديث، والتفسير إليهم، ووعظهم به .

= حيث صرح ـ رحمه الله ـ بقوله : وسُلِّط على مُلك سليمان كله غير نسائه .
وأورد السيوطي الرواية عن ابن عباس، وقال : أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس، ثم ساق الرواية بطولها ونكارتها وفيها . . . فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء؟ قُلْنَ : نعم إنه يأتينا ونحن حيض، وما كان يأتينا قبل ذلك، الدر (٧/ ١٧٩) .

(١) استفاد هذا الأسلوب، والمسلك من شيخه الحسن البصري .

(٢) حيث بلغ ما يزيد على (١٧٠) من مجموع تفسيره، والناظر في تفسيره يجد أنه قد فاق شيخه الحسن في عدد ما روي عنه في جانب الوعظ في التفسير، والذي بدا لي أن كثيراً من هذه الآثار التفسيرية الوعظية هي من محفوظات قتادة عن شيخه الحسن، حفظها ورواها من تفسيره، والله أعلم .

ومن أمثلة ذلك، ما ورد عنه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾[١]، بقول: لا تعتلُّوا بالله، أن يقول أحدكم: إنه تألَّى ألا يصل رحمًا، ولا يسعى في صلاح، ولا يتصدق من ماله، مهلاً مهلاً، بارك الله فيكم، فإن هذا القرآن إنما جاء بترك أمر الشيطان، فلا تطيعوه، ولا تنفذوا له أمرًا في شيء من نذوركم ولا أيمانكم[٢].

وعند تأويل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٣]، قال: يرغبكم في المعروف، ويحثكم على الفضل[٤].

وعند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[٥]، قال: قد تقدم الله إليكم فيهم كما تسمعون، وحذركم، وأنبأكم بضلالتهم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنهم الأعداء الحسدة الضلاَّل، كيف تأتمنون قومًا كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسلهم، وتحيَّروا في دينهم، وعجزوا عن أنفسهم؟ أولئك والله هم أهل التهمة، والعداوة![٦].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٢٤).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٢٠) ٤٣٥٤، وتفسير الماوردي (١/ ٢٨٥)، وزاد المسير (١/ ٢٥٤).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٣٧).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ١٦٥) ٥٣٧٠، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة بنحوه (١/ ٧٠٠).

(٥) سورة آل عمران: آية (١٠٠).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٦٠) ٧٥٣١، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة به (٢/ ٢٨٠).
ولمزيد من الأمثلة تُراجع الآثار الواردة في تفسير الطبري: ٥٧٢، ٢٩٨٠، ٣٠٦٢، ٣٠٦٣، ٤١٠٤، ٤٣١٦، ٥٥٤٧، ٥٧٦١، ٦١٤٦، ٦١٦٩، ٦١٥٨، ٦٢٦٤، ٦٣٦٩، ٦٥٢٥، ٦٦٠٣، ٧٣٨٩، ٧٣٩١، ٧٥٧٥، ٧٥٨٢، ٧٥٩١، ٧٦٠١، ٧٦٤٣، ٧٨٤٠، ٧٨٥٨، ٧٨٨٥، ٧٩٠٣، ٧٩٣٢، ٨٠٩٩، ٨٣٥٥، . . وغيرها.

٢ ـ أسلوب القسم لتأكيد المعنى المراد :

وهذا ما يدل على اهتمامه بذلكم التفسير الوعظي التذكيري، فكثيراً ما يؤكد المعنى بقوله : إي والله، بلى والله، نعم والله، وغيرها من ألفاظ القسم.

من ذلك ما ورد عنه عند قوله : ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ** ﴾[١]، قال : إي والله! من الإثم، والأذى[٢].

وعند قوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾[٣]، قال : نعم والله! سخر لكم ما في الأرض[٤].

وعند قوله سبحانه : ﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ** ﴾[٥]، قال : والله ما غرُّوا نبي الله، ولا وكل إليهم شيئًا من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك[٦]، والأمثلة على ذلك كثيرة[٧].

٣ ـ شدة عباراته على المخالفين :

إضافة إلى ما سبق، فإن مما تميز به تفسيره الوعظي، قسوته في العبارة على

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٩٦) ٥٤٦.

(٣) سورة البقرة : آية (٢٩).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٤٢٧) ٥٨٧.

(٥) سورة آل عمران : آية (١٩٦).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٤٩٣) ٨٣٧٢، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة بمثله (٢/ ٤١٥).

(٧) يُراجع تفسير الطبري الآثار : ٥٧٤، ١٤٧٥، ٢٤٠٥، ٥٧٣٦، ٦٥٧٠، ٦٩٦٦، ٧٥٣٣، ٧٥٨٢، ٧٦٩٦، ٧٨٤٠، ٧٩٠٣، ٧٩٩٤، ٨١٢٠، ٨١٧٧، ٨٢٥٦، (٢٩/ ٤٣)، (٢٩/ ٧٤)، (٢٩/ ١٠١)، (٢٩/ ١٠٧)، (٢٩/ ١٢٧)، (٢٩/ ١٣٧)، (٢٩/ ١٨٥)، (٢٩/ ٢٠٩)، (٣٠/ ٨٢)، (٣٠/ ٨٢)، (٣٠/ ٩٩)، (٣٠/ ١٨٩)، (٣٠/ ٢٨٣)، وقد استفاد ذلك من شيخه الحسن ـ رحمه الله ـ.

المخالفين، فنجد عند مروره بآيات وصف الكافرين والمنافقين، وغيرهم من المخالفين يشتد أكثر من غيره عليهم في وصفهم وتأنيبهم، وزجرهم.

من ذلك مثلاً ما ورد عنه عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[١]؛ قال:

شديد القسوة في معصية الله، جَدِلٌ بالباطل، وإذا شئت رأيته عالم اللسان، جاهل العمل، يتكلم بالحكمة، ويعمل بالخطيئة[٢].

وعند تأويله لقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٣]؛ قال:

تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر[٤].

ثم قال عند قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾: كفور لنعم الله، مكذب بلقائه، متمن على الله[٥].

وعند قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال:

يعذر الله الجبل الأصم، ولم يعذر شقي بن آدم، هل رأيتم أحدًا قط تصدعت جوانحه من خشية الله؟، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[٦] يقول تعالى ذكره: وهذه الأشياء نشبهها للناس، وذلك تعريفه جل ثناؤه إياهم أن الجبال أشد تعظيمًا لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها[٧].

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٠٤).
(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢٣٥) ٣٩٧٤، وتفسير الماوردي (١/ ٢٦٥)، وتفسير البغوي (١/ ١٨٠).
(٣) سورة الكهف: آية (٣٤).
(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٦).
(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٧).
(٦) سورة الحشر: آية (٢١).
(٧) تفسير الطبري (٢٨/ ٥٣).

وعند قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[١]؛ قال:

هو الهالك المفرط العاجز، وما يمنعه أن يقول ذلك، وقد راج عليه عورات عمله، وقد استقبل الرحمن، وهو عليه غضبان، فتمنى الموت يومئذ، ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت[٢].

٤ ـ جمال العبارة، وصدقها، وتأثيرها في وعظه:

وعند تعرضه لآيات ذم الدنيا. يرد عنه ذلك بأجمل عبارة، وأكثرها تأثيراً، فمن ذلك ما ورد عنه عند قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[٣]؛ قال:

وإنه من تفكر فيهما عرف فضل إحداهما على الأخرى، وعرف أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وأن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء، فكونوا ممن يصرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة[٤].

ومنه ـ أيضاً ـ ما جاء عنه عند قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[٥]؛ قال:

---

(١) سورة النبأ: آية (٤٠).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٦).
ولمزيد من الأمثلة يُنظر تفسير الطبري الآثار ذات الأرقام: ١٣٥٩، ١٦٤٥، ١٨٢٣، ٦٢٤٣، ٦٢٦٤، ٦٦٠٣، ٦٨٣٦، ٧٢٨٥، ٧٢٩٢، ٧٣٧٣، ٧٦٩١، ٧٦٩٦، ٧٦٩٩، ٨٠٨٧، ٨١٧٧، ٨٢٠٠، ٨٢٥٦، ٨٣٥٠، وغيرها.

(٣) سورة البقرة: آية (٢١٩، ٢٢٠).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٣٤٨)، ٤١٨١، وأورده السيوطي في الدر وعزاه إلى عبد بن حميد عن قتادة بمثله (١/ ٦١١).

(٥) سورة الحاقة: آية (٢٤).

إن أيامكم هذه أيام خالية هي أيام فانية، تؤدي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا فيها خيراً إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله[١] .

٥ ـ الوعظ في آيات الأحكام :

وقد اتضح هذا المنهج الوعظي عنده في تأويله لآيات الأحكام، فما كان ـ رحمه الله ـ يفسر تلك الآيات مبينًا الحكم الفقهي المستنبط ، والرأي المختار فحسب، بل كان يزيد على ذلك بربطه بالجانب الدعوي التذكيري، فمن ذلك ما ورد عند تأويل قوله جل وعلا : ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ** ﴾[٢]؛ قال :

علم الله أن ستكون حقوق، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة، فخذوا بثقة الله ، فإنه أطوع لربكم، وأدرك لأموالكم، ولعمري لئن كان تقيًا لا يزيده الكتاب إلا خيراً، وإن كان فاجراً فبالحري أن يؤدي إذا علم أنَّ عليه شهوداً[٣] .

وعند قوله : ﴿ **وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ** ﴾[٤] ؛ قال :

اتقى الله شاهد في شهادته لا ينقص منها حقًا، ولا يزيد فيها باطلاً، اتقى الله كاتب في كتابه، فلا يَدَعنَّ منه حقًا، ولا يزيدنَّ فيه باطلاً[٥] .

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٦١)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن قتادة به (٨/ ٢٧٢). ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار في تفسير الطبري ١٥٩٣، ٣٨٨٤، (٢٩/ ١)، (٣٠/ ٥٠) (٣٠/ ١٨٢) . . . وغيرها .

(٢) سورة البقرة: آية (٢٨٢).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٦٧) ٦٣٦٢ .

(٤) سورة البقرة: آية (٢٨٢).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٨٦) ٦٤١٠، وتفسير البغوي (١/ ٢٧٠)، والبحر المحيط (٢/ ٣٥٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٦١)، ولمزيد من ذلك تراجع الآثار في تفسير الطبري: ٤٩٧٦، ٤٩٧٧، ٥٣٧٠، ٦٣٣٨، ٦٣٦٩ . . . وغيرها .

٦ ـ الدقة في استنباط الفوائد الدعوية :

وهذا المنهج الوعظي جعله يتميز بدقة استنباط كثير من الفوائد الدعوية من الآيات، مما يدل على تقدمه في معرفة أحوال الدعوة والمدعوين، فمن ذلك ما ورد عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾[١] ؛ قال:

فلعمري لمن رجع من أهل الشرك أكثر ممن رجع من أهل الكتاب، إنما آمن من أهل الكتاب رهط يسير[٢] .

وعند قوله جل وعلا: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[٣] ؛ قال:

أكره عليه هذا الحيُّ من العرب؛ لأنهم كانوا أمة أمية ليس لهم كتاب يعرفونه، فلم يقبل منهم غير الإسلام، ولا يكره عليه أهل الكتاب إذا أقروا بالجزية، أو بالخراج، ولم يُفتنوا عن دينهم، فيخلَّى عنهم[٤] .

وعند قوله سبحانه: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾[٥] ؛ قال:

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأنَّ القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده[٦] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٨٨).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٢٩) ١٥١٤، وتفسير الماوردي (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (١/ ٣٠٢)، وزاد المسير (١/ ١١٣).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٥٦).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٤١٢) ٥٨٢٧، وتفسير الماوردي (١/ ٣٢٧)، وتفسير البغوي (١/ ٢٤٠)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٨٢)، وأورده السيوطي في الدر عن قتادة بلفظ مقارب، وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي داود في ناسخه، وابن جرير (٢/ ٢١).

(٥) سورة آل عمران: آية (١٥٩).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٣) ٨١٢٦، وتفسير الماوردي (١/ ٤٣٣)، وتفسير البغوي (١/ ٣٦٥)، وزاد المسير (١/ ٤٨٨)، وتفسير القرطبي (٤/ ١٦١)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة به (٢/ ٣٥٨).

وعند قوله جل وعلا: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[١]، قال:

فما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان في الجنة، وفلان في النار! فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفته الأنبياء قبلك! قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[٣]، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٤].

وعند قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[٥]، قال: رأى نوح قومًا تجزَّعت أعناقهم حرصًا على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا، والآخرة[٦].

٧ ـ اهتمامه بأمثال القرآن:

وهذا المَعلم التربوي والدعوي في تفسيره، جعله ـ أيضًا ـ من أكثر التابعين اهتمامًا

(١) سورة التوبة: آية (١٠١).
(٢) سورة الشعراء: آية (١١٢).
(٣) سورة هود: آية (٨٦).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٤١)، ١٧١٢١، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٨٥)، وتفسير بن كثير (٤/ ١٤٣)، والبحر المحيط (٥/ ٩٣).
(٥) سورة نوح: آية (١٢).
(٦) تفسير الطبري (٢٩/ ٩٤)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة به (٨/ ٢٩٠)، ولمزيد من الأمثلة يراجع تفسير الطبري (٥٨٣٠، ٧٦٦٥، ٧٥٨٢، ٧٦٢٥، ٨٣٢٤، والصفحات ذات الأرقام (٢٨/ ٤٧)، (٢٨/ ٨٦)، (٢٨/ ٩٩)، (٢٨/ ١٢٧)، (٢٨/ ١٦٩)، (٢٩/ ٣٥)، (٢٩/ ١٠١)، (٢٩/ ١١٨)، (٢٩/ ١٣٣)، (٢٩/ ١٤١)، (٢٩/ ١٧١)... وغيرها من الأمثلة.

بأمثال القرآن شرحًا، وبيانًا، واستنباطًا للفائدة والعبرة، بل فاق غيره حتى في عدد الأمثال التي عرض لها بالشرح والتفصيل، وبذلك تميز عن غيره في هذا كمًا، ونوعًا، ونسوق بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

فعند قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾[1]، قال: أجبن قوم لا يسمعون شيئًا إلا إذا ظنوا أنهم هالكون فيه حذراً من الموت، والله محيط بالكافرين، ثم ضرب لهم مثلاً آخر: فقال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾، يقول: هذا المنافق، إذا كثر ماله، وكثرت ماشيته، وأصابته عافية قال: لم يُصبني منذ دخلت في ديني هذا إلا خير. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، يقول: إذا ذهبت أموالهم، وهلكت مواشيهم، وأصابهم البلاء، قاموا متحيرين[2].

ومنها ما ورد عند قوله عز وجل: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[3]، قال:

أصابها ريح فيها سموم شديد ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، فهذا مثلٌ، فاعقلوا عن الله ـ جل وعز ـ أمثاله فإنه قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[4] هذا رجل كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر عياله، ثم احترقت جنته على بقية ذلك، كأحوج ما يكون إليه، يقول: أيحب أحدكم أن يضلَّ عنه عمله يوم القيامة كأحوج ما يكون إليه[5]؟.

---

(١) سورة البقرة: آية (١٩).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٥٠) ٤٥٩.
(٣) سورة البقرة: آية (٢٦٦).
(٤) سورة العنكبوت: آية (٤٣).
(٥) تفسير الطبري (٥/ ٥٤٧) ٦٠٩٩.

ومنها ـ أيضاً ـ ما ورد عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾[1].

قال: وليس ببالغه حتى يتمزع عنقه، ويهلك عطشاً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾. هذا مثل ضربه الله، أي: هذا الذي يدعو من دون الله هذا الوثن، وهذا الحجر، لا يستجيب له بشيء أبداً ولا يسوق إليه خيراً، ولا يدفع عنه سوءاً حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذراعيه إلى الماء ليبلغ فاه، ولا يبلغ فاه، ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشاً[2].

٨ ـ عنايته بعلم المناسبات:

وكان لهذا النهج الدعوي عنده أثره في اهتمامه ببيان تناسب الآيات، وأسرار ختمها، والربط في تفسيره بين أول الآية وآخرها، عند إيضاحه لمعناها، من ذلك ما ورد عنه عند قوله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[3].

قال: ثم عذر الحجارة ولم يعذر شقيَّ ابن آدم فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد: آية (١٤).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٠١) ٢٠٢٩٣، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير، وأبي الشيخ، عن قتادة بلفظه (٤/ ٦٢٨).
والمراجع لتفسيره يجد أنه قلَّ أن يوجد مثلٌ من أمثلة القرآن، إلا وله وقفة وشرح له، وهو من أكثر التابعين في هذا.

(٣) سورة البقرة: آية (٧٤).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٢٤١) ١٣١٩، وتفسير ابن عطية (١/ ٢٦٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٣١٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة، بزيادة في أوله (١/ ١٩٧).

وعند تأويل قوله سبحانه: ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾[١] ، قال:

ثم عير المشركين بأعمالهم أعمال السوء فقال: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾، أي: الشرك بالله أكبر من القتل[٢] .

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾[٣] ، قال:

مغفرة لفحشائكم، وفضلاً لفقركم[٤] .

وعند تفسير قوله سبحانه: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾[٥] ، قال:

قال الله تعالى ذكره: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ فبين الله على من يقع ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[٦] .

وأختم هذا المبحث بالتأكيد على الأثر الواضح للإمام الحسن البصري في قتادة، وخاصة في جانب التفسير الوعظي الدعوي، فعند المقارنة بين تفسيري هذين الإمامين

---

(١) سورة البقرة: آية (٢١٧).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣١١) ٤٠٩٥.

(٣) سورة البقرة: آية (٢٦٨).

(٤) تفسير الطبري (٥/ ٥٧١)، ٦١٦٩، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة به (٢/ ٦٥).

(٥) سورة المدثر: آية (٩).

(٦) تفسير الطبري (٢٩/ ١٥٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، عن قتادة بلفظ مقارب (٨/ ٣٢٨).
ولمزيد من الأمثلة يُراجع تفسير الطبري الآثار: ٤٩٦، ٧٦٤٦، ٨٠٨٧، (٢٨/ ٧)، (٢٨/ ٦٥)، (٢٩/ ٦٩)، (٢٩/ ٧٥)، (٢٩/ ٧٩)، (٣٠/ ٣٧)، (٣٠/ ١٦٦)، (٣٠/ ٢٠٣)، (٣٠/ ٣٠٨).

نجد أن من أهم أوجه التشابه بينهما في التفسير الاتفاق في هذا الجانب[١]، فكان لطول الملازمة والمجالسة أثر في ذلك.

فعن معمر قال: قال قتادة: جالست الحسن اثنتي عشرة سنة أصلي معه الصبح ثلاث سنين، ومثلي أخذ عن مثله[٢].

وقد ساعدته حافظته على حفظ كثير من أقوال شيخه، وسوقها أو روايتها بعبارة مطابقة، أو مشابهة[٣] ولذا عده الأئمة من أكبر أصحاب الحسن[٤].

ومع تأثر قتادة الكبير، بهذا الإمام في ذلكم المسلك، إلا أنه خالفه في جملة أخرى من تفسيره، مثل: توسعه في النسخ، والإسرائيليات، وعدم إكثاره منها، وعدم تأويل آيات الأحكام، والتزامه بظاهر النص في تفسيره، وعدم مخالفته، ونلاحظ في المسائل التي قال الحسن فيها برأيه أن قتادة خالفه، وكان محبًا لشيخه غاية المحبة، فقد روى ابن عساكر، عن قتادة، أنه قال: لن تخلو الأرض من أربعين، بهم يُغاث الناس، وبهم ينصرون، وبهم يرزقون، كلما مات منهم أحد أبدل الله مكانه رجلاً، قال قتادة: والله إني لأرجو أن يكون الحسن منهم[٥].

رابعًا: أثره في بعض علوم القرآن:

ومن الأمور التي عني بها ـ رحمه الله ـ اهتمامه ببعض المباحث المهمة من علوم

(١) من المعالم البارزة في تفسير الحسن وضوح الجانب الوعظي والتذكيري في تفسيره، وقتادة قد تأثر بالحسن في هذا المسلك حتى إنه نحا منحى إمامه في طريقة تأويله لآيات الوعد والوعيد، من المخاطبة للسامعين، وتأكيد كثير من المعاني بالقسم.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٦)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٢٧٩)، والثقات (٥/ ٣٢٢).

(٣) وإن كان قتادة ـ رحمه الله ـ يميل إلى الشرح، والإطالة في العبارة.

(٤) كما ذكر ذلك الإمام أبو حاتم، وأبو زرعة، ينظر الجرح (٧/ ١٣٥)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٨).

(٥) أورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن عساكر (١/ ٧٦٦).

القرآن[١] وخاصة ما يتعلق بالناسخ والمنسوخ ، ومعرفة المكي والمدني، ونزول القرآن.

أ ـ توسعه في النسخ :

قتادة من أوائل من ألف في هذا العلم[٢] ، ومن أكثرهم توسعًا[٣] وعناية به، فقد عدَّ رفع دلالة العام، والمطلق، والظاهر ، وغيرها، إما بتخصيص، أو تقييد، أو حمل مُطلق على مُقيد، وتفسيره وتبينه ـ عدَّها نسخًا، حتى إنه توسع في الاستثناء والشرط والصفة فعدها نسخًا[٤] أيضًا. مع أن هذا لم يكن مسلكًا لجميع التابعين، بل على العكس من ذلك فأكثر التابعين أعمل الكثير من الآيات[٥] .

---

(١) مع العلم أنه ـ رحمه الله ـ لم يهتم ببعض العلوم الأخرى كالحديث عن وقوع المعرب في القرآن، فعند النظر فيما ورد عنه نجده شيئًا قليلاً، وأقل منه الحديث عن كليات القرآن ومعرفة الأوجه والنظائر، ويمكن ملاحظة هذا عند مقارنة ما روي عنه بما روي عن غيره من التابعين ـ وخاصة ـ تلاميذ ابن عباس كعكرمة، وابن جبير، ومجاهد.

(٢) البرهان (٢/ ٢٨)، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة (١٠٦)، وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق د. حاتم الضامن، والكتاب لم يستوف جميع ما روي عن قتادة في النسخ.

(٣) هو أكثر التابعين توسعًا في هذا الباب ، وقد راجعت في ذلك كتابي (الناسخ والمنسوخ) لأبي جعفر النحاس، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، فوجدت أن قتادة روي عنه (٣٣) موضعًا، قال في (٢٥) بالنسخ، في حين أن مجاهدًا روي عنه (٣١) موضعًا، قال في (٥) مواضع بالنسخ، وفي (٢٦) موضعًا بالإحكام، وللمزيد من التأمل يُراجع كتاب النحاس للنظر في المواضع التي قال فيها قتادة بالنسخ ص (١٦، ٣٠، ٣٤، ٣٩، ٧٦، ٨٨)، وينظر كتاب مكي: الإيضاح ص (١٢٤، ١٣١، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٠، ١٧٦، ١٨٦، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٨٢، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٢٩، ٣٧٧، ٤٠٧، ٤٠٩)، والفوز الكبير في أصول التفسير ص ٨٣.

(٤) أعلام الموقعين (١/ ٢٩).

(٥) سيأتي لذلك مزيد بيان ـ إن شاء الله ـ في فصل أثر التابعين في أصول التفسير ص (١٠٨١) .

ومن أكثر الآيات التي توسع في القول بنسخها، آيات الصفح[١]، والعفو[٢]، وترك القتال[٣]، وعدم المجادلة لأهل الكتاب[٤]؛ إذ جعل جميع هذه الآيات منسوخة بآية السيف[٥].

وقد يكون للمنهج الوعظي أثره في قول قتادة بنسخ كثير من آيات الصفح، والعفو، فقد سبق أن بينا أن المتأمل لتفسيره يلمس تلك الشدة على المخالفين، لا سيما من الكفار، والمنافقين، فلعل هذا نتاج ذاك[٦].

والمراجع لتفسير قتادة لمعنى النسخ يلحظ توسعه في تفسير النسخ الوارد في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[٧].

---

(١) كما في قوله سبحانه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ المائدة (١٣)، يُنظر الإيضاح (٢٦٩)، وعند قوله جل وعلا: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر (٨٥)، ينظر الإيضاح (٣٢٩)، وعند قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ الزخرف (٨٩) ينظر الإيضاح (٤٠٧).

(٢) كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ الأنفال (٦١)، يُنظر الإيضاح لمكي (٣٠٠)، وعند قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الجاثية (١٤)، ينظر الإيضاح (٤٠٩).

(٢) كما في قوله جل وعز: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ البقرة (١٩١)، ينظر الإيضاح (١٥٧)، وعند قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ (٢١٧)، ينظر الإيضاح (١٦٠)، وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ النساء (٩٠) ينظر الإيضاح (٢٣٠)، وعند قوله جل وعلا: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ المائدة (٢)، ينظر الإيضاح (٢٥٥)، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الأنعام (٧٠) ينظر الإيضاح (٢٨٢).

(٤) كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ العنكبوت (٤٦)، ينظر الإيضاح (٣٧٧).

(٥) وهي قوله سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ التوبة (٢٩).

(٦) والعجيب في ذلك أنه خالف مسلك شيخه الحسن في ذلك مخالفة بينة واضحة، ولعله تأثر في ذلك بمسلك ابن المسيب، وخاصة أن قتادة قد روى كثيراً من أقوال سعيد بن المسيب، التي قال فيها بالنسخ، كما أن ابن المسيب هو الشيخ الثاني لقتادة.

(٧) سورة البقرة: آية (١٠٦).

قال: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي[١].

وأكثر النسخ ورودًا في تفسيره نسخ القرآن بالقرآن، وأما نسخ القرآن بالسنة فلم أجد له قولاً في ذلك.

ب ـ أسباب النزول: عني ـ رحمه الله ـ بأسباب النزول[٢] عناية كبيرة، وأكثر من إيرادها في تفسيره، ولعل مما أعانه على ذلك، تلك الحافظة التي متع بها. وخاصة أن أسباب النزول علم قائم على الرواية.

جـ ـ المكي والمدني:

هو أكثر التابعين تعرضًا، وبيانًا لهذا النوع من علوم القرآن[٣]، بل تميز منهجه بالدقة، والتفصيل في كثير من السور، والآيات، وذلك ببيان نوع السورة، وقدر المستثنى من آياتها إن كان من غير نوعها، وهذا التحديد، والاهتمام بالمستثنى من السورة، قلَّ من اهتم به من التابعين غير قتادة.

ومن أمثلة ذلك، ما ورد عنه في تحديد سورة الأعراف؛ حيث قال: آية من الأعراف مدنية، وهي: ﴿**وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...**﴾[٤] إلى آخر الآية، وسائرها مكية[٥].

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٥٥)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٨١) ١٧٧٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٧) ١٠٧٧، وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٧)، وتفسير الماوردي (١/ ١٧١).

(٢) نسبة المروي عنه في أسباب النزول (٠,٠٧) من مجموع تفسيره، في حين بلغت عن شيخه الحسن (٠,٠٣) من مجموع تفسيره، وعن مجاهد (٠,٠٥) من مجموع تفسيره.

(٣) يتضح ذلك عند مراجعة تفسير زاد المسير لابن الجوزي؛ حيث روى عن قتادة أكثر من (٥٣) قولاً في تحديد نوع السورة، في حين جاء بعده الحسن في (٣٤) قولاً، ثم عكرمة في (٢٦) قولاً، ثم جبر بن زيد في (٢٠) قولاً، ثم مجاهد في (١٩) قولاً، فعطاء في (١٤) قولاً، ولم يرد عن ابن جبير إلا قولان في ذلك.

(٤) سورة الأعراف: آية (١٦٣).

(٥) أورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ عن قتادة به (٣/ ٤١٢)، وينظر فتح القدير (٢/ ١٨٧).

ومنه ما ورد عنه في تحديد سورة يونس؛ حيث قال: إنها مكية، غير ثلاث آيات من المدني، أولها قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾[١] إلى رأس ثلاث آيات[٢]، إلى غير ذلك من الأمثلة[٣].

كما ورد عنه التحديد العام لسور القرآن، فعن همام قال: قال قتادة: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحجر، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد إلى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[٤]: عشر متواليات، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله والفتح، قال: هذا مدني، وسائر القرآن مكي[٥]، هذه بعض أهم ما تميز به تفسيره.

أسباب كثرة المنقول عنه في التفسير:

وكما سبق فيما مضى من القول أن قتادة من أكثر من تعرض للتفسير من التابعين، وأحسب أن ثمة أسبابًا كانت وراء هذه الكثرة في المروي عنه، من أهمها:

١ ـ عناية تلاميذه بنقل تفسيره:

تخصص بعض تلاميذه ـ رحمه الله ـ في رواية تفسيره، والعناية به، كسعيد بن أبي عروبة، ومعمر بن راشد، وكان لهذا الاهتمام والعناية أكبر الأثر في انتشار هذا التفسير، وعند المراجعة لتفسيره نجد أن أكثر هذا التأويل جاء من طريق سعيد بن أبي

---

(١) سورة يونس: آية (٩٤).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣).

(٣) ولمزيد من الأمثلة التي تدل على عنايته ـ رحمه الله ـ بالمستثنى في السور، يُراجع زاد المسير في الصفحات التالية: (٣/ ١٦٤)، (٤/ ٢٥٦)، (٤/ ٣٤٣)، (٤/ ٤٢٣)، (٥/ ١)، (٦/ ٦٩)، (٧/ ٢٠٥)، (٧/ ٢٧١)، (٧/ ٣٥٥)، (٨/ ٣)، (٨/ ٦٣)، (٩/ ٥١).

(٤) سورة التحريم: آية (١).

(٥) كتاب الناسخ، والمنسوخ لقتادة (٥٢)، والبرهان (١/ ١٩٣)، والإتقان (١/ ٢٨).

عروبة[١] ، الذي عده بعض الأئمة من أحفظ أهل زمانه[٢] ، بل قال عنه ابن معين : إنه من أثبت الناس في قتادة[٣] .

وقال عنه أبو حاتم : من أعلم الناس بحديث قتادة[٤] ، وقال أبو داود الطيالسي : كان سعيد أحفظ أصحاب قتادة[٥] .

وقال علي بن المديني : أصحاب قتادة ثلاثة : سعيد ، وهشام ، وشعبة ، فأما سعيد فأتقنهم[٦] .

وكان قتادة يحس من سعيد هذا الاهتمام والإتقان لحديثه ، فقد روى ابن المديني بسنده عن جرير قال : كتب إليَّ يعلى بن حكيم أن سل قتادة عن حديث ثم اكتب إلي ، فأتيته فقال : ائت سعيد بن أبي عروبة فقد أخذ حديثي ، يملي عليك ، ثم ائتني بها ، فأتيت سعيداً فأملاها عليَّ ، ثم جئت به قتادة فما غير منها إلا حرفين[٧] .

---

(١) بعد المراجعة لتفسير الطبري وجدت أن المروي عن قتادة هو (٥٣٧٩) قولاً ، منها (٣٣٣٥) قولاً من طريق سعيد بن أبي عروبة ، و(١٦١٣) قولاً عن رواية معمر بن راشد ، أي (٠,٦٢) جاء من طريق سعيد بن أبي عروبة و (٠,٣٠) من طريق معمر بن راشد .
وفي هذا يقول سزكين : يبدو أن قتادة كان له تفسير كبير الحجم ؛ ذلك لأن الطبري ذكر الرواية عن قتادة أكثر من ثلاثة آلاف مرة بهذه الرواية : بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة اهـ . ينظر تاريخ التراث العربي (١/ ٥٢) .

(٢) كما ذكر ذلك أبو عوانة ، حيث قال : لم يكن عندنا في ذلك الزمان أحدٌ أحفظ من سعيد بن أبي عروبة ، الجرح (٤/ ٦٥) ، والسير (٦/ ٤١٤) .

(٣) سؤالات ابن الجنيد لابن معين (٣٤٩) ، والجرح (٤/ ٦٥) ، وهدي الساري (٤٠٦) ، التهذيب (٤/ ٦٤) ، والتذكرة (١/ ١٧٧) .

(٤) التهذيب (٤/ ٦٤) ، وشرح علل الترمذي لابن رجب (٢٨٣) .

(٥) الجرح (٤/ ٦٥) ، وهدي الساري (٤٠٦) ، والسير (٦/ ٤١٧) .

(٦) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤١) ، وفتح الباري (٥/ ١٨٥) .

(٧) المعرفة والتاريخ (٢/ ٨٩) .

وأما الراوي الثاني : فهو معمر بن راشد الأزدي الذي سمع من قتادة كما يقول عن نفسه : سمعت وأنا ابن أربع عشرة سنة ، فما شيء سمعت في تلك السنين إلا وكأنه مكتوب في صدري[١] .

وهذان الراويان هما من أئمة الحفاظ ، والرواة في زمانهم ، وفي ذلك يقول ابن المديني ، نظرتُ في الأصول من الحديث ، فإذا هي عند ستة ممَّن مضى ؛ من أهل المدينة : الزهري ، ومن أهل مكة : عمرو بن دينار ، ومن أهل البصرة : قتادة ، ويحيى بن كثير ، ومن أهل الكوفة : أبو إسحاق ، والأعمش ، ثم نظرت فإذا حديث هؤلاء الستة يصير إلى أحد عشر رجلاً ؛ وذكر منهم سعيد بن أبي عروبة ، ومعمر بن راشد[٢] .

وقد ساعد على حفظ تراث هذا الإمام ونشره ، أن هذين التلميذين كانا من أوائل من صنف الكتب ، وفي ذلك يقول أبو محمد الرامهرمزي : أول من صنف وبوب الربيع بن صبيح بالبصرة ، ثم سعيد بن أبي عروبة بها ، ومعمر باليمن ، وابن جريج بمكة[٣] .

ومع هذا التقدم لهذين الراويين في الحفظ ، والإتقان بعامة ، ولاسيما ما رواياه عن قتادة بخاصة ، وكذا تفرغهما ، واهتمامهما بنشر ما أثر عن قتادة ، فإنه يضاف إلى ذلك كله حرصهما على الكتابة ، والتصنيف ، فهذا مما يجعلنا نؤكد أن هذا الإمام تيسر له من

---

(١) المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤٢)، والسير (٧/ ٦).

وقد اعتمد الإمام عبد الرزاق الصنعاني على طريق معمر في جل تفسيره المسند ، الذي لا تخلو ورقة منه إلا وفيها أثرٌ أو آثار عن قتادة من طريق معمر ، وانظر مثل ذلك ما جاء عنه في المصنف ، فقد اعتمد على هذا الطريق كثيراً .

(٢) السير (٧/ ٧).

(٣) المحدث الفاصل (٦١١)، والعلل لابن المديني (٢٨ ، ٣١)، وشرح علل الترمذي لابن رجب (٥٢ ، ٥٣)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٩ ، ١٧٧).

عناية تلاميذه بمروياته ما لم يتيسر لغيره، ولذا كثرت الرواية عنه.

٢ ـ حضه على الكتابة :

فعن أبي هلال، قال: قيل لقتادة: يا أبا الخطاب أنكتب ما نسمع؟ قال: وما يمنعك أحد أن تكتب، وقد أنبأك اللطيف الخبير أنه قد كتب، وقرأ: ﴿فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾[١].

٣ ـ كثرة رحلاته :

ومما ساعد على انتشار علمه كثرة تنقله في البلدان، وحرصه على التلقي، والأخذ عن أئمة تلك الأمصار، فعن معمر قال: أقام قتادة عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام، فقال له في اليوم الثامن: ارتحل عني يا أعمى فقد أنزفتني[٢].

ولذا كان سعيد بن المسيب يقول: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة[٣].

ورحل ـ رحمه الله ـ إلى الكوفة، وفي هذا يقول قيس بن الربيع: قدم علينا قتادة الكوفة، فأردنا أن نأتيه فقيل لنا: إنه يبغض عليًا رضي الله عنه فلم نأته، ثم قيل لنا بعد: إنه أبعد الناس من هذا، فأخذ عن رجل عنه[٤]، وحرص في ذهابه للكوفة على لقاء الشعبي فلم يجده[٥]، ورحل إلى واسط وتوفي بها[٦].

---

(١) سورة طه: آية (٥٢)، وينظر طبقات ابن سعد (٧/ ٢٣٠)، وتقييد العلم (١٠٣)، والكفاية (٣٥٤)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥٠٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٤)، والثقات (٥/ ٣٢٢)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٥٠).

(٣) الجرح (٧/ ١٣٣)، والسير (٥/ ٢٧٢)، والبداية (٩/ ٣١٣)، والتهذيب (٨/ ٣٥٣).

(٤) السير (٥/ ٢٧٢)، والقصة في تاريخ أبي زرعة مختصرة (١/ ٣٠٠).

(٥) العلل لأحمد (١/ ٣٦٥) ٦٩٩، ٧٠٠.

(٦) التهذيب (٨/ ٣٥٥).

٤ ـ تعدد مصادره :

وهذا مما ميز قتادة بين عموم التابعين، ولعل لقوة حافظته، وتأخر وفاته، وكثرة رحلاته، الأثرَ الكبير في تعدد مصادره وكثرة شيوخه، والمتأمل في كتب التراجم يجد ويلحظ كثرة من سمع منهم، وروى عنهم، فقد زاد عددهم عن مائة وعشرين صحابيًا، وتابعيًا[١] ولم يقاربه في هذا العدد أحد من التابعين.

وقد كان من أكثر التابعين رواية ونقلاً لتفسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢]، كما كان من أكثرهم نقلاً لتفسير الحسن البصري[٣] وسعيد بن المسيب[٤]؛ بل كان من أكثر التابعين نقلاً عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بعد أصحابه من الكوفيين[٥].

وحاصل القول أن قتادة فاق غيره من التابعين في تعدد مصادره، وكثرة شيوخه واهتمامه بالنقل عن عدد كبير من الصحابة والتابعين.

ولذا عده كثير من الأئمة من أعلم الناس بالخلاف.

فعن الإمام أحمد قال: كان قتادة عالمًا بالتفسير، وباختلاف العلماء، وقال: قلما تجد من يتقدمه[٦].

---

(١) تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٩٩).

(٢) بعد مراجعتي لتفسير عمر بن الخطاب ـ جمع إبراهيم بن حسن ـ وجدت أن التفسير المسند عن عمر بلغ (٣٢٩)، وأن قتادة روى (١٤, ٠) من مجموع تفسيره، وعن الحسن (٠٩, ٠)، وعن الشعبي (٠٦, ٠). وعن زيد بن أسلم (٠٥, ٠) وعكرمة، ومجاهد (٠٤, ٠)، وعن عطاء، وعن ابن جبير (٠٣, ٠)، وغيرهم دونهم في ذلك.

(٣) روى (١٢, ٠) من مجموع تفسير الحسن، البالغ (١٤٨٧) قولاً في تفسير الطبري.

(٤) روى (٣٧, ٠) من مجموع تفسير سعيد البالغ (١٨١) قولاً في تفسير الطبري.

(٥) روى (٠٢, ٠) من مجموع تفسير ابن مسعود رضي الله عنه، وكان غالب هذه الروايات في قراءة ابن مسعود.

(٦) السير (٥/ ٢٧٦).

وعن سعيد بن المسيب قال: لم أر أحدًا أسأل عما يُختلف فيه منك[١].

٥ ـ حافظته:

ومن الأسباب ـ التي أدت إلى كثرة المروي عنه ـ قوة حافظته، وبروزه في هذا الجانب، بل وتقدمه على غيره فيه؛ فإن هذه الذاكرة المتقدة ساعدته على حفظ كثير من الأحاديث والآثار، التي استعان بها في تأويله لكثير من الآيات، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

لذا فقد وجدناه من أكثر التابعين حفظًا، واهتمامًا واعتمادًا على المصدر الثاني من مصادر التفسير، وهو تفسير القرآن بالسنة، وكذا اعتماده على المصدر الثالث، وهو تفسيره بما ورد عن الصحابة وكبار التابعين، هذا المحفوظ ساعده في كثرة تعرضه وتفسيره لآيات كتاب الله.

٦ ـ سبقه في علوم اللغة:

ومن الأسباب التي قدمته في علم التفسير تقدمه في معرفة اللغة واطلاعه الواسع على لغات العرب.

أما تقدمه في معرفة اللغة، فقد قال الإمام الذهبي: ومع حفظ قتادة وعلمه بالحديث كان رأسًا في العربية، واللغة، وأيام العرب، والنسب[٢].

ويثني عليه القفطي[٣] بقوله: تابعي بصري مُقدم في علم العربية والعرب، عالم بأنسابها، وأيامها، لم يأت عن أحد من ذلك أصح مما أتى عنه في علم العرب اهـ.

---

(١) السير (٥/ ٢٧٦).

(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٣)، والسير (٥/ ٢٧٧)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٤٤).

(٣) استفاد هذا القول من كلام محمد بن سلام الجُمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء (١/ ٦١)، وينظر إنباه الرواة (٣/ ٣٥)، والمزهر للسيوطي (٢/ ٣٣٤).

ويقول أيضًا: كان الرجلان من بني أمية يختلفان في البيت من الشعر، فيبردان بريدًا إلى قتادة، فيسألانه عن ذلك[١].

وبلغ من شهرته وعلمه - في هذا - أن أبا عبيدة قال: ما كنا نفقد في كل يوم راكبًا، من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة، فيسأله عن خبر، أو نسب، أو شعر[٢].

ويقول همام بن يحيى[٣]: أعربوا الحديث فإن قتادة لم يكن يلحن[٤].

وعن سعيد بن أبي عروبة قال: قيل لقتادة: مالك لا تروي عن نافع ورويت عن غيره؟! قال: إن نافعًا كان علجًا لحّانًا[٥].

وعن معمر قال: سألت أبا عمرو بن العلاء[٦] عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[٧]، فلم يجبني، فقلت: إني سمعت قتادة يقول: مُطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، فلولا كلامه في القدر، لما عدلتُ به أحدًا من أهل دهره[٨].

وعن ابن أبي عروبة قال: كان قتادة، ربما حدثني بالحديث، فينشد بعده بيت شعر أو بيتين[٩].

---

(١) طبقات فحول الشعراء (١/ ٦١)، وإنباه الرواة (٣/ ٣٥)، والسير (٥/ ٢٧٨)، والأزهر (٢/ ٣٣٤)، ومعجم الأدباء (١٧/ ١٠).

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٨٥)، ومعجم الأدباء (١٧/ ١٠).

(٣) همام بن يحيى بن دينار البصري ثقة ربما وهم، ينظر التقريب (٥٧٤).

(٤) غريب الحديث للخطابي (١/ ٦١)، وطبقات ابن سعد (٧/ ٢٣٠).

(٥) العلل لأحمد (٣/ ٨٣)، ٤٢٨١، وأخبار النحويين لعبد الواحد بن أبي هاشم (١٥).

(٦) أبو عمرو بن العلاء النحوي القارئ شيخ القراء، ومن علماء العربية، ينظر السير (٦/ ٤٠٧)، والتقريب (٦٦٠).

(٧) سورة الزخرف: آية (١٣).

(٨) وفيات الأعيان (٤/ ٨٥)، ونكت الهميان (٢٣٠).

(٩) العلل لأحمد (٣/ ٣٠٨) ٥٣٧٢، والجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٢٩).

والمتأمل لتفسيره يجد شاهد ما ذكره الأئمة من تقدمه في معرفة لغات العرب، فمن ذلك ما ورد عنه عند قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[١]، قال: وهذه كلمة من كلام العرب ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَد﴾: أي: إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي[٢].

وعند قوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٣] قال: وهي كلمة عربية كانت العرب تقولها: طهر ثيابك، أي من الذنب[٤]، وفي رواية عنه قال: طهرها من المعاصي، فكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب، وإذا وفى وأصلح قالوا: مطهَّر الثياب[٥].

وعند قوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[٦]. فعنه قال: أمه هاوية: هي كلمة عربية، وكان الرجل إذا وقع في أمر شديد قالوا: هوت به أمه[٧].

وكان ـ رحمه الله ـ من أكثر التابعين اهتمامًا ببيان اشتقاق الأسماء، فعند قوله جل وعلا:

---

(١) سورة الزخرف: آية (٨١).

(٢) تفسير الطبري (٢٥/ ١٠١)، وأورده ابن حجر في الفتح (٨/ ٥٦٩)، والسيوطي في الدر، وعزاه لابن جرير (٧/ ٣٩٥)، وينظر تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٨)، وتفسير الماوردي (٥/ ٢٤٠).

(٣) سورة المدثر: آية (٤).

(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢٧)، وتفسير الطبري (٢٩/ ١٤٥).

(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٥)، وتفسير البغوي (٤/ ٤١٣)، وزاد المسير (٨/ ٤٠٠)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٤٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٨٩)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد الرزاق، وعبد ابن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة بلفظ مقارب (٨/ ٣٢٥).

(٦) سورة القارعة: آية (٨/ ٩).

(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٩٢)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٢٨٢)، وتفسير البغوي (٤/ ٥١٩)، وزاد المسير (٩/ ٢١٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن المنذر عن قتادة به (٨/ ٦٠٦).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ﴾[١] ، قال: إنما سموا نصارى؛ لأنهم كانوا بقرية يقال لها: ناصرة، ينزلها عيسى بن مريم، فهو اسم تسموا به ولم يؤمروا به[٢].

وعند قوله جل ثناؤه: ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾[٣] ، قال: إنما سمي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان[٤].

وعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾[٥] ، قال: فإن الله بكَّ به الناس جميعًا، فيصلي النساء قدام الرجال، ولا يصلح ببلد غيره[٦].

وبالإضافة إلى ما سبق فمن أسباب الكثرة:

٧ ـ عنايته وحرصه على بيان وتفسير آيات الوعد والوعيد:

فقلَّ أن توجد آية فيها وعظ، إلا ويعظ بها ويذكر، ويأتي عنه فيها العديد من

---

(١) سورة البقرة: آية (٦٢).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ١٤٥)، ١٠٩٧، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن المنذر عن قتادة به (١/ ١٨٢).

(٣) سورة آل عمران: آية (٣٩).

(٤) تفسير الطبري (٦/ ٣٧٠) ٦٩٥٠، وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٢٣٥) ٤٥٨، وتفسير ابن عطية (٣/ ٧٣)، والبحر المحيط (٢/ ٤٤٧)، وتفسير البغوي (١/ ٢٩٨). وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة به (٢/ ١٨٨).

(٥) سورة آل عمران: آية (٩٦).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٢٤)، ٧٤٤١، ٧٤٤٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٠٥)، ٩٦٩، ورواه عبد الرزاق في تفسيره بلفظ: وبكة يبك الناس بعضهم بعضًا الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، ويمر بعضهم بين يدي بعض لا يصلح ذلك إلا بمكة. تفسير عبد الرزاق (١/ ١٢٧)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة به (٣/ ٤٤٤) ٤٠١٥.
وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن قتادة به (٢/ ٢٦٦).

الأقوال[١] .

٨ ـ عدم دخوله في الفتن :

والمراجع لسيرته، يجد أنه لم يرد عنه في الناحية السياسية شيء، بل عاش حياة سالمة هادئة، ولم يرد عنه أي ذكر في فتنة قط، ولا خروج ولا ثورة، مع أن العصر الذي عاش فيه كان عصراً يموج بالفتن، ولكنه عاش بعيداً عن هذا كله، وليس هذا بمستغرب على قتادة، فهو تلميذ الحسن البصري الذي عاصر الفتن، وكان له منهج متميز بين سائر التابعين في البعد عنها[٢] .

وقد وهب نفسه ـ رحمه الله ـ للعلم والدرس، يقول مطر الوراق : ما زال قتادة متعلماً حتى مات[٣] .

٩ ـ تأخر وفاته :

وهذا مما ساعده على انتشار علمه، وكثرة الآخذين لتفسيره، فقد توفي سنة سبع عشرة ومائة[٤] ، وهو معدود في صغار التابعين رحمه الله رحمة واسعة .

❁ ❁ ❁

(١) وقد كان جلُّ تفسيره في الوعظ والدعوة؛ حيث بلغ (١٧ , ٠) من مجموع تفسيره كما سبق بيانه .

(٢) كما جاء بيان ذلك فيما مضى من ترجمة الحسن ص (٢٣٢).

(٣) التهذيب (٨/ ٣٥٣).

(٤) طبقات خليفة (٢١٣)، والتاريخ الصغير (١/ ١٢٩)، والعلل لابن المديني (٨٩)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥١٧)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

أبو العالية

هو أبو العالية ، رُفيع الرياحي[١] - بكسر الراء - نسبته إلى قبيلة رياح ، بطن من تميم ، وأبو العالية الرياحي ينسب إليها ولاءً ، واسمه رفيع بن مهران ، مولى امرأة من يربوع من بني رياح[٢] ، وهو من كبار التابعين بالبصرة المخضرمين ، أدرك الجاهلية ، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين[٣] .

إمامته في القراءة :

حاز أبو العالية قصب السبق في القراءة ، حتى عدّه بعض الأئمة من أكثرهم علمًا في هذا ؛ يقول أبو بكر بن أبي داود في كتابه شريعة القارئ : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية ، وبعده سعيد بن جبير ، ثم السدي ، ثم سفيان الثوري[٤] .

---

(١) الكنى لأحمد (٧٥) ، والكنى لمسلم (٨٣) ، والكنى للدولابي (٢/ ٢٠) ، والكنى لابن عبد البر المسمى بالاستغناء (٢/ ٨٣٦) .

(٢) الأنساب (٦/ ١٩٩) ، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ٤٦) ، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٠) ، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٨/ ٣٦٧٩) .

(٣) تهذيب الأسماء (٢/ ٢٥١) ، والاستغناء (٢/ ٨٣٦) ، والثقات للعجلي (٥٠٣) ، والمعين في طبقات المحدثين (٣٣) ، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٣) ، والإصابة (٤/ ١٤٤) ، وذكر أسماء التابعين (٢/ ٨١) ، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣١٣) ، والتعديل والتجريح (٢/ ٥٧٨) ، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨١) .

(٤) تهذيب الأسماء (٢/ ٢٥١) ، ودول الإسلام (١/ ٦٤) ، وغاية النهاية (١/ ٢٨٥) ، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٧٣) ، وعند ابن حجر في التهذيب بلفظ : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة (٣/ ٢٨٥) .

ولعل من أسباب ذلك ، أنه قرأ على سيد القراء أبي بن كعب[١] ، ولازمه[٢] .

وأبي من أقرأ الأمة ، كما شهد بذلك الصادق المصدوق ﷺ بقوله : «**وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب**»[٣] .

وقرأ على عمر أكثر من مرة ؛ تقول حفصة بنت سيرين : قال لي أبو العالية : قرأت القرآن على عمر ثلاث مرات[٤] .

وأخذ القراءة عرضًا عن زيد بن ثابت ، وابن عباس[٥] .

وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء[٦] وروى عنه القراءة عرضًا الأعمش والربيع بن أنس[٧] .

وهو من أقدم مفسري التابعين تلقيًا للقراءة ، وأعلاهم سندًا ، وفي ذلك يقول : قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم ﷺ بعشر سنين[٨] ، ويقول أيضًا : قرأنا القرآن قبل أن

---

(١) التاريخ الصغير للبخاري (١/ ٢٢٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٥٠)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٦)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣).

(٢) وقد عني بنقل قراءته وتفسيره ، وفي ذلك يقول السيوطي : ثمة نسخة كبيرة في التفسير رواها أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، أخرج منها ابن جرير الطبري في تفسيره ، وابن أبي حاتم كثيراً ، كما أخرج منها الحاكم في المستدرك وأحمد في مسنده ، ينظر الإتقان (٢/ ٢٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب ، باب رقم (٣٣)، وقال : حديث حسن صحيح ، (٥/ ٦٦٥) ٣٧٩١ .

(٤) معرفة القراء الكبار (١/ ٥٠)، وغاية النهاية (١/ ٢٨٥)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥)، والإصابة (١/ ٥٢٨)، وصحح الجميع هذه الرواية ، وأشار إليها العلائي في جامع التحصيل (٢١٢)، والأصبهاني في المبسوط في القراءات العشر بلفظ أربع مرات (٧٧).

(٥) المبسوط في القراءات العشر (٧٧)، والسير (٤/ ٢٠٨)، وتاريخ الإسلام (ح ٩٣ هـ/ ٥٣٠).

(٦) السير (٤/ ٢٠٧)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).

(٧) السير (٤/ ٢٠٨)، وتاريخ الإسلام (ح ٩٣ هـ/ ٥٣٠).

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ١١٣)، وأخبار أصبهان (١/ ٣١٤)، والمعرفة (١/ ٢٣٧)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣١٣)، والتذكرة (١/ ٦١)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٧٣).

يقتلوا صاحبهم، ويفعلوا ما فعلوا، باثني عشرة سنة (يعني: قبل أن يقتلوا عثمان)[١].

قال البخاري معلقًا على هذه الرواية: وقد قرأ القرآن، قبل أن يُولد الحسن بسنة[٢].

ويعد ـ رحمه الله ـ من المتقدمين بين قراء البصرة، ولذا فقد اختاره الحجاج عندما أراد عدَّ سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه[٣].

وشاهد ما ذكرت تقديم بعض الأئمة له ممن صنف في طبقات القراء؛ حيث جعلوه في طبقة متأخري الصحابة، وصغارهم، ولم يذكروا أحدًا من مفسري التابعين معه[٤].

والناظر فيما روي عنه من القراءة في تأويله، يجد أنه اهتم في إيراد تلك القراءات بجانب المعنى، فأورد القراءة شاهدًا لإيضاحه، وكان هذا واضحًا في تفسيره، أكثر من الاهتمام بإيراد منطوق القراءة، كما نجده عند غيره من التابعين[٥].

ومن أمثلة ذلك، ما ورد عنه عند قوله سبحانه: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ** ﴾[٦].

قال: في قراءة أبي بن كعب: «هَلْ يَنظُرُون إلاّ أن يَأتِيَهُمُ اللَّهُ وَالملائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ

---

(١) التاريخ الصغير (١/ ٢٢٥)، والمعرفة (٣/ ٢٦).

(٢) التاريخ الصغير (١/ ٢٢٥).

(٣) البرهان (١/ ٢٤٩).

(٤) كما نجد ذلك عند الإمام الذهبي في كتاب معرفة القراء الكبار؛ حيث عدَّ أبا العالية في الطبقة الثانية، ولم يذكر في هذه الطبقة أحدًا من المكثرين من مفسري التابعين، وإنما ذكر في الطبقة الثالثة سعيد بن جبير فحسب، وهذا يدل على علو إسناده وتقدمه في هذا العلم (أعني: علم القراءات)، ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٥٠).

(٥) كالحسن، وقتادة، وغيرهم.

(٦) سورة البقرة: آية (٢١٠).

الْغَمَامِ»، قال: تأتي الملائكة في ظلل من الغمام، ويأتي الله ـ عز وجل ـ فيما شاء[١].

وكان يقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾[٢] «فإن لم تجدوا كتابًا» ثم يقول: توجد الدواة، ولا توجد الصحيفة[٣].

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[٤]، قال: «أمَّرنا» مثقلة جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها[٥].

تأثره بالمنهج المكي:

ومما يلفت النظر عند قراءة تفسيره، أن أبا العالية مع أنه من مفسري البصرة، وممن عاش ومات فيها، إلا أن تأثره بها كان قليلاً، إذا ما قورن بأثر المدرسة المكية فيه، فقد قال بقولها، ومال إلى رأيها في كثير من تأويلاته.

ولعل من العوامل، والأسباب التي أثرت عليه، كثرة تردده على مكة؛ فقد حج إليها ستًا وستين حجة[٦]. وكان ابن عباس يدنيه ويقربه منه، يقول عن نفسه: كنت ألزم

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٦١) ٤٠٣٢، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١٩٤)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى أبي عبيد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية بنحوه (١/ ٥٨٠).

(٢) سورة البقرة: آية (٢٨٣).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٩٦) ٦٤٤٢، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن أبي العالية به (٢/ ١٢٥)، وأورد القرطبي في تفسيره هذه القراءة عن أبي العالية، وأورد قراءة أخرى حكاها عنه المهدوي أن أبا العالية قرأ (كُتُبًا)، ينظر تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٣)، ومختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع (١٨).

(٤) سورة الإسراء: آية (١٦).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية بلفظ مقارب (٥/ ٢٥٥).

(٦) المعارف لابن قتيبة (٢٠٠)، وشذرات الذهب (١/ ١٠٢). قارن هذا بحال الحسن الذي لم يحج إلا مرتين، ولم يلق ابن عباس، كما سبق بيانه.

ابن عباس، فيرفعني على السرير فتغامزت بي قريش، وهم أسفل من السرير، يقولون: يرفع هذا المولى على السرير، ففطن بهم ابن عباس، فقال: إن هذا العلم يزيد الشريف شرفًا، ويجلس المملوك على الأسرة[١].

وكان يقول: كان ابن عباس يُعلمنا اللحن (يعني: الإعراب)؛ لأنه به يظهر الحق[٢].

ولا ريب أن هذا جعله يستقل بكثير من الآراء عن مدرسته، فكان له شخصيته المتميزة، وبعد تفسيره عن السمة الغالبة على تفسير أصحابه من البصريين، لا سيما ما تعلق بالتفسير الوعظي.

بل إن المراجع لترجمته يلمس منه ـ رحمه الله ـ عدم الرضى التام عن منهج المدرسة البصرية بإكثارها من الوعظ والتذكير، على يد الحسن خاصة أو من تبعه في ذلك.

ولذا لما سئل مرة عن الحسن قال: رجل مسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأدركنا الخير، وتعلمنا قبل أن يولد الحسن[٣].

وكان ـ رحمه الله ـ ينتقد منهج بعض الزهاد، فعندما زاره عبد الكريم أبو أمية[٤]، وعليه ثياب صوف، قال له: هذا زي الرهبان! إن المسلمين إذا تزاوروا تجملوا[٥].

---

(١) الجرح والتعديل (٣/ ٥١٠)، وتهذيب الكمال (٩/ ٢١٧)، والتذكرة (١/ ٦٢)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٧٣)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٨)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨٢).

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ٣٢٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٨).

(٣) المعرفة (٢/ ٥٢)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥)، وتاريخ الإسلام (ح ٩٣ هـ/ ٥٣٠).

(٤) أبو أمية عبد الكريم بن أبي المخارق البصري المعلم صاحب تعبد وخشوع، الخلاصة (٢٤٢)، والتاريخ الكبير (٦/ ٨٩)، والسير (٦/ ٨٣).

(٥) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد (١/ ٤٤١) ٣٤٨، وطبقات ابن سعد (٧/ ١١٥)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨٦).

وخالف منهج المدرسة في الحرص على كثرة التذكير بنصوص الوعيد والتخويف، وذكَّر بنصوص الوعد والرجاء؛ ولذا كان يقول: إني لأرجو ألا يهلك عبدٌ بين نعمتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه[١].

وهذا وغيره من الأسباب التي ميزت تفسير أبي العالية، وجعلت له منهاجًا خاصًا انفرد به عن أصحابه.

جوانب تأثره بالمنهج المكي:

ولعلي بعد هذا أذكر أهم الجوانب التي تأثر فيها أبو العالية بالمدرسة المكية:

١ ـ اهتمامه بتأويل مشكل الآيات وقوله بقول المكيين في تبيين مشكلها:

من ذلك ما جاء عنه عند تأويل قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، قال: كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة[٣].

وعند قوله جل ثناؤه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]، قال: دعا موسى، وأمّن هارون[٥]. إلى غير ذلك من الأمثلة[٦].

---

(١) الحلية (٢/ ٢١٩)، ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ٣٣١)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨٦).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٤٣).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٠٢) ١٥٠٩٢، ١٥٠٩٣، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٩)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ، عن أبي العالية به (٣/ ٥٤٧)، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، ولم يرد عند الطبري عن غيرهم هذا التأويل، ينظر الآثار (من ١٥٠٩٤ إلى ١٥١٠٥).

(٤) سورة يونس: آية (٨٩).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٦) ١٧٨٥١، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن أبي العالية به، (٤/ ٣٨٥).

(٦) من ذلك يراجع الطبري في تفسيره الآثار ذوات الأرقام: ٧٣٤٤، ٧٣٧٧، ٧٣٧٨، ٧٣٨٠، ٧٣٨١... ، وهذه جل الأمثلة الواردة عنه في تأويل المشكل، وقلَّ أن يشابهه فيها أحدٌ من البصريين لاسيما الحسن.

٢ ـ عنايته ، ومتابعته لأشباه القرآن وكلياته :

فعند تأويله لقوله تبارك، وتعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١] قال: الأليم: الموجع في القرآن كله[٢].

وعند قوله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾[٣]، قال: إن الظن هاهنا يقين[٤].

وعند قوله سبحانه: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾[٥]، قال: كل فرج ذكر حفظه في القرآن فهو من الزنا، إلا هذه ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[٦]، فإنه يعني: الستر[٧].

٣ ـ قلة تعرضه لتفسير آيات الأحكام:

ومال في هذا القليل المروي عنه إلى رأي المكيين[٨]، فعند قوله تبارك وتعالى: ﴿ فلا رفث ﴾[٩].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٠).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤٩) ١١٩، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن أبي العالية به (١/ ٧٦).

(٣) سورة البقرة: آية (٤٦).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ١٩) ٨٦١، وتفسير ابن أبي حاتم (١٥٧) ٤٩٧.

(٥) سورة النور: آية (٣٠).

(٦) سورة النور: آية (٣١).

(٧) تفسير الطبري (١٨/ ١١٦)، جاء سياق الآية في غض الأبصار، فرجح بعض المفسرين أن المراد هنا الستر لتناسب السياق، وإلى هذا مال ابن جرير الطبري (١٨/ ١١٦).

(٨) بينما كان المروي عن البصريين ـ وخاصة ـ الحسن كثيراً.

(٩) سورة البقرة: آية (١١٧).

قال: لا يكون رفث إلا ما واجهت به النساء[١].

وعند تأويله لقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢]، قال في تفسير المعروف: القرض[٣]، وأجاز الاستقراض من مال اليتيم.

٤ ـ تساهله في رواية الإسرائيليات:

كان عدد المنقول عنه كثيراً إذا ما نسب إلى مجموع تفسيره، وإن كان غالب ما جاء عنه في هذا من الروايات المقبولة، وحرص في نقلها على الاختصار[٤].

٥ ـ بعده عن الأهواء:

تميز ـ رحمه الله ـ ببعده عن الأهواء، والنحل، التي كانت منتشرة بالبصرة كالحرورية، والقدرية[٥]، وكان يقول: تعلموا القرآن، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء فإنها توقع العداوة والبغضاء بينكم، فإنا قد قرأنا القرآن قبل أن

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ١٢٨) ٣٥٨٣، وإلى هذا ذهب ابن عباس في أكثر من رواية عنه. انظر الآثار ذوات الأرقام ٣٥٧١، ٣٥٧٣، ٣٥٧٤، بخلاف مذهب ابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي الذين ذهبوا إلى أن الرفث هو التكلم بذلك للرجال والنساء، وإن ذكروا ذلك بأفواههم، ينظر الآثار (٣٥٧٥، ٣٥٧٦).

(٢) سورة النساء: آية (٦).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٥٨٥) ٨٦١٧، وهو مذهب ابن عباس ٨٥٩٨، ٨٦٠٤، ٨٦٠٥، وسعيد ابن جبير ومجاهد، وغيرهم، ولم ينقل ابن جرير عن أحد من البصريين وغيرهم هذا القول.

(٤) تراجع الآثار في تفسير الطبري ٧٤٥، ٧٧٩، ٨٢٠، ٨٩٣، ٩٤٠، ١٢٨٤، ١٣١٢، ١٤٧٠، ١٤٧٤، ١٤٧٩، ١٥١٣٨، (١٧/ ٨٨) (١٨/ ١)...، وغيرها، ولم ينقل عنه السرد، والإطالة، إلا في أثرين هما ٩١٤، ١١٧٣.

(٥) تأثر الحسن البصري برأي القدرية في أول أمره ثم رجع، وقال بقولهم قتادة في بعض المسائل. ويأتي لذلك مزيد بحث عند الحديث عن منهجهم في آيات الاعتقاد ص (٨١٤).

يقتل (يعني : عثمان) بخمس عشرة سنة[١] .

وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يوصي بلزوم الاتباع، ويحذر من الإحداث والابتداع[٢] .

ومما جاء عنه أيضًا قوله : قرأت المحكم بعد وفاة نبيكم بعشر سنين فقد أنعم الله علي بنعمتين لا أدري أيتهما أفضل، أن هداني للإسلام، أم لم يجعلني حروريًا[٣] .

هذه بعض أوجه الشبه بين أبي العالية وابن عباس وأصحابه، ومما ظهر لي أن أبا العالية كان في منهجه أقرب إلى منهج المدرسة المكية من بعض أصحاب ابن عباس، كعطاء بن أبي رباح . والله أعلم .

أسباب قلة المروي عنه في التفسير :

ومع هذا التقدم في السن، وفي علم القرآن، نجد أن المروي عنه في التفسير كان قليلاً إذا ما قورن بغيره من التابعين، لا سيما أصحابه من البصريين[٤] ، ولعل من الأسباب الرئيسة في ذلك ما يلي :

١ ـ قلة الرواة عن أبي العالية :

فقد ذهب كثير من علمه بسبب ذلك، فعن أبي داود قال : ذهب علم أبي العالية؛ لم يكن له رواة[٥] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨٥)، والحلية بلفظ مقارب (٢/ ٢١٨).

(٢) الحلية (٢/ ٢١٧)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥، ٢٦٦)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨١).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١١٣، ١١٤)، والحلية (٢/ ٢١٨)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥)، والسير (٤/ ٢١٢).

(٤) بعد مراجعتي لتفسير الطبري ، وجدت أن المروي عن أبي العالية (٢٤٤) قولاً، في حين كان عن قتادة (٥٣٧٩)، قولاً، وعن الحسن البصري (١٤٨٧) قولاً.

(٥) تهذيب الكمال (٩/ ٢١٧)، والتهذيب (٣/ ٢٨٤)، والإصابة (١/ ٥٢٨).

٢ ـ جل تفسيره جاء من رواية الربيع بن أنس[١] :

وفي هذا يقول الإمام الذهبي : سمع أبا العالية ، وأكثر عنه[٢] ؛ بل إن كثيراً من الأقوال المروية من تفسير الربيع ، هي في الحقيقة من تفسير أبي العالية ، وليست من تفسير الربيع[٣] .

ولذا فإنه لو أضيف كثير من تفسير الربيع لأبي العالية لكان من أكثر التابعين بعد المشاهير منهم[٤] .

٣ ـ حبه للخفاء :

فقد كان ـ رحمه الله ـ يؤثر عدم الظهور ويحب الخفاء ، ويكره جلبة الناس ، وكثرة السائل ، والمتعلم ، ويؤثر الإقلال من الفتوى ، والبعد عن مجالس العامة ، وكان إذا جلس إليه أربعة قام[٥] ، وعنه قال : تعلمت الكتاب ، والقرآن ، فما شعر بي أهلي ، ولا رُئي في ثوبي مداد قط[٦] .

٤ ـ كراهيته لكتابة العلم :

فعن أبي خلدة قال : قلت لأبي العالية : أعطني بعض كتبك ، قال : لو كتبت شيئًا

---

(١) رجعت لتفسير أبي العالية عند الطبري فكان (٧٨ , ٠) من مجموع ما روى عنه من طريق الربيع ابن أنس يقول الداودي : لأبي العالية تفسير رواه عنه الربيع ، طبقات المفسرين (١/ ١٧٣) .

(٢) السير (٦/ ١٧٠) .

(٣) من خلال تتبعي ومقارنتي بين المروي عن أبي العالية والربيع ، وجدت أن (٧١ , ٠) من تفسير الربيع هو في الحقيقة من أقوال وتفاسير أبي العالية ، لكن الربيع نسبها لنفسه ، ولأهمية هذه النقطة فقد أفردتها بمزيد بحث ومقارنة ومتابعة ، يأتي الحديث عنها مفصلاً في مدرسة البصرة ، عند الحديث عن المقارنة بين الربيع بن أنس وأبي العالية .

(٤) كمجاهد ، والحسن ، وقتادة .

(٥) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٧) ٢٩٨٤ ، والعلم لأبي خيثمة (١١٨) ، والمنتظم (٦/ ٢٩٧) ، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٧٢) .

(٦) الحلية (٢/ ٢١٧) ، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٧) ، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٨٤) .

لأعطيتك وأكرمتك[١] .

٥ ـ تشدده في قبول الرواية :

فقد كان من أشد البصريين[٢] في قبول الأخبار، وفي هذا يقول عن نفسه: كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة ، فسمعناها من أفواههم[٣] .

وعنه قال: كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها، أقمت، وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع[٤] .

وفاته :

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه توفي سنة ثلاث وتسعين[٥] ، وقيل: إنه توفي سنة تسعين[٦] ، وصحح القول الأول جماعة من المؤرخين كالصالحي[٧] ، والذهبي[٨] ، وابن كثير[٩] ، وابن عساكر[١٠] ، وغيرهم[١١] .

---

(١) العلل لأحمد (٣/ ٤٤١) ٥٨٧٥ .

(٢) بعد محمد بن سيرين ، وسوف يأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن مدرسة البصرة ـ إن شاء الله ـ ص (٤٢٢).

(٣) سنن الدارمي (١/ ١٤٠)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٢)، والكفاية (٤٠٢)، والرحلة في طلب الحديث (٩٣).

(٤) الحلية (٢/ ٢٢٠)، والرحلة في طلب الحديث (٩٣).

(٥) التاريخ الكبير (٣/ ٣٢٦)، والتاريخ الصغير (١/ ٢٢٥)، والثقات (٤/ ٢٣٩)، والأنساب (٦/ ١٩٩)، وبغية الطلب (٨/ ٣٦٩٠).

(٦) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٩٢)، وتاريخ ابن معين (٢/ ١٦٦)، والكامل (٤/ ٥٤٨)، والوفيات لابن قنفذ (٩٩).

(٧) طبقات علماء الحديث (١/ ١٢٤).

(٨) التذكرة (١/ ٦٢).

(٩) البداية (٩/ ٨٨).

(١٠) تاريخ دمشق (٦/ ٢٧٥).

(١١) طبقات المفسرين (١/ ١٧٣).

إسماعيل السدي

هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، مولى زينب بنت قيس بن مخرمة[١] ، وقيل: مولى بني هاشم[٢] ، أبو محمد القرشي[٣] ، الأعور[٤] ، أصله حجازي، سكن الكوفة[٥] ، وكان يقعد في سدة باب الجامع بالكوفة، فسمي السدي[٦] .

رأى أبا هريرة[٧] ، والحسن بن علي[٨] ، وابن عمر[٩] ، وسمع أنس بن مالك، ومرة الهمداني[١٠] ، وفي سماعه من ابن عباس نظر، وإنما قيل: إنه رآه[١١] .

---

(١) التاريخ الصغير (١/ ٣١٢)، ورجال صحيح مسلم (١/ ٦٠)، والإكمال (٤/ ٥٦٨)، واللباب في تهذيب الأنساب (٥/ ٢١).

(٢) المعرفة والتاريخ (٣/ ١٨٦)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٣٥)، ومعرفة الرجال لابن معين (١/ ١٤٤)، (٢/ ١٤٧)، والإكمال (٤/ ٥٦٧).

(٣) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٢)، والسير (٥/ ٢٦٤).

(٤) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٢/ ٣٤٣) ٢٥٢٢.

(٥) رجال صحيح مسلم (١/ ٦٠)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٢٨)، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ١١٠)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٠٩).

(٦) الإكمال (٤/ ٥٦٨)، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ١١٠)، ولباب الألباب في تحرير الأنساب (٢/ ١٤).

(٧) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٣)، والميزان (١/ ٢٣٦)، وكتاب من تُكلم فيه وهو مُوثق (٤٦)، والسير (٥/ ٢٦٤).

(٨) السير (٥/ ٢٦٤)، وتاريخ الإسلام (ح ١٢٧ هـ/ ٣٧)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٣).

(٩) مختصر سنن أبي داود للمنذري (٤/ ٢٥١)، والثقات (٥/ ٢١)، واللباب (٢/ ١١٠).

(١٠) التاريخ الصغير (١/ ٣١٢)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٦١)، ومختصر سنن أبي داود (٤/ ٢٥١)، وأخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، ونصب الراية (٣/ ٤٤٥)، والضعفاء لابن الجوزي (١/ ١١٥).

(١١) مختصر سنن أبي داود (٤/ ٢٥١)، ونصب الراية (٣/ ٤٤٥).

ساق أبو نعيم بسنده عن محمد بن أبان عن السدي، قال: رأيت نفراً من أصحاب النبي ﷺ، منهم: أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وابن عمر[١].

وعِداده في صغار التابعين[٢].

وثقه العجلي[٣]، وأحمد[٤]، وقال أحمد في رواية عنه: مُقارب الحديث، وقال النسائي: صالح الحديث، وقال يحيى بن سعيد: لا بأس به[٥].

والسدي ينسب إلى المدرسة الكوفية، التي عاش فيها واستقر بها[٦]، وهذه المدرسة من أكثر المدارس ورعًا، وإحجامًا في التفسير، إلا أنه كان من المكثرين بين التابعين في التفسير، بل كان من أكثر تابعي الكوفة رواية، ودراية فيه[٧].

وقد نهج منهجًا انفرد به عن غيره من أصحابه الكوفيين، ولعل من أبرز معالم هذا المنهج ما يلي:

مميزات تفسيره، التي أدت إلى انتشاره:

١ ـ إكثاره في باب التفسير[٨]:

من حيث الرواية ـ في المقام الأول ـ ثم من حيث الدراية في المقام الثاني، وقد بلغ

(١) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٥)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣٣٣)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٣٢٣)، والمعين في طبقات المحدثين (٤٤)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨).
(٣) تاريخ الثقات (٦٦).
(٤) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (٢٤).
(٥) الجرح (٢/ ١٨٤)، والكامل (١/ ٢٧٦).
(٦) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤).
(٧) سيأتي مزيد بسط لهذا، عند الحديث عن مدرسة الكوفة ص (٤٥٧، ٥٧٩).
(٨) جاء في المرتبة الثالثة بعد مجاهد، وقتادة؛ حيث بلغ مجموع ما روي من تفسيره عند الطبري (١٦٨٢) رواية.

من إكثاره أن أنكر عليه بعض معاصريه من التابعين وعلى رأسهم إمام الكوفة في زمانه عامر الشعبي، فكان يمر به، وحوله شباب يفسر لهم القرآن، فقام عليه، وقال: ويحًا للآخر لو كنت نشوان يُضرب على استك بالطبل، خيرًا لك مما أنت فيه[١].

وعن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت الشعبي، وقيل له: إنَّ إسماعيل السُدي قد أعطي حظًا من علم بالقرآن، فقال: إنَّ إسماعيل قد أعطي حظًا من جهل بالقرآن[٢].

وقد رد على ذلك إسماعيل بن أبي خالد (وهو من أعلم الناس بالشعبي وأثبتهم فيه)[٣]، بقوله: كان السدي أعلم بالقرآن من الشعبي[٤].

وقال الذهبي: ما أحد إلا وما جهل من القرآن أكثر مما علم[٥].

قلت: ولعل ما أنكره الشعبي على السدي هو توسعه في التفسير وإكثاره فيه.

ولذا نجد السدي يرد هذا بقوله: هذا التفسير أخذته عن ابن عباس، فإن كان صوابًا فهو قاله، وإن كان خطأ فهو قاله[٦].

٢ ـ تعدد مصادره:

كان جل اهتمام أصحاب ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ومن جاء بعدهم من تابعي الكوفة هو نقل، ورواية تفسيره، وانفرد السدي بإضافة مصدر آخر مهم، وهو النقل،

(١) الكامل لابن عدي (١/ ٢٧٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٥)، وأشار إلى هذه الرواية مختصرة الطبري في تفسير (١/ ٩٢) ١١٤، وابن عطية في المحرر (١/ ١٩).
(٢) العلل لأحمد (٢/ ٣٣٤) ٢٤٧٧، والضعفاء الكبير (١/ ٨٧)، والكامل (١/ ٢٧٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٦)، والميزان (١/ ٢٣٦)، والسير (٥/ ٢٦٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٠)، وتهذيب الكمال (٣/ ٧٣)، والجرح (٢/ ١٧٥).
(٤) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٥)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٦١)، والسير (٥/ ٢٦٥).
(٥) السير (٥/ ٢٦٥)، وتاريخ الإسلام (ح ١٢٧ هـ/ ٣٨).
(٦) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، ومعجم الأدباء (٧/ ١٦).

والرواية من أقوال ابن عباس، لا سيما ما كان منها في التفسير، فنقل وأكثر حتى أنكر البعض توسعه، فكان يبين لهم أن عمله في هذا إنما هو النقل، فصنيعه ذاك مرشد إلى تعدد مصادره، وتنوعها، ولا ريب أن ذلك أثرى جانب التفسير عنده.

٣ ـ الاهتمام بالتفسير الروائي :

برز السدي بين أصحابه في جانب العناية بالآثار المروية في التفسير، وأكثر من النقل عن الصحابة كابن عباس، وابن مسعود، وعن كبار التابعين من الكوفيين، كأبي مالك غزوان الغفاري، وغيره، كما دأب على رواية قصص بني إسرائيل، وأكثر من نقل أسباب النزول.

وحري بنا أن نشير هنا إلى أن السدي من أكثر التابعين على الإطلاق اعتماداً على تفسير الصحابة؛ فقد روى الكثير منه، وغلب جانب الرواية في تأويله على الدراية[١].

ومن خلال التتبع، والاستقراء اتضح لي جليًا أن جانب الرواية كان أغلب على تفسيره من جانب الدراية وأظهر، وقد أشار بعض من ترجم له إلى هذا المَعلم في شخصيته.

فهذا العجلي يقول: عالم بالتفسير راوية له[٢].

ويقول حاجي خليفة: تفسير السدي على طريق الرواية[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وغالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس[٤].

---

(١) اجتهاده في التفسير كان قليلاً، وقل أن ينفرد بشيء من التفسير، لم يسبق إليه.
(٢) تاريخ الثقات (٦٦).
(٣) كشف الظنون (١/ ٣١٠).
(٤) مقدمة في أصول التفسير (٩٨)، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٦).

ولذا كان السدي أكثر العراقيين[١] رواية لتفسير ابن مسعود، وابن عباس، وقد روى ما يزيد عن ربع التفسير المسند عن ابن مسعود، وروى الكثير من تفسير ابن عباس، وقد بالغ في حبه للمسند من تفسير هؤلاء ، حتى عاب بعض الأئمة من المحدثين صنيعه ذلك.

فقال الإمام أحمد: إنه ليحسن الحديث إلا أن هذا التفسير الذي يجيء به قد جعل له إسنادًا ، استكلفه[٢] .

٤ ـ عناية تلاميذه بنقل آثاره :

مما ميز السدي من بين عموم التابعين، تخصص أحد تلاميذه بنقل تفسيره، وانقطاعه لذلك، وهو أسباط بن نصر، فقد تفرغ للرواية عنه، وكان يوصف براوية السدي[٣]؛ حيث جاء من طريقه جل المروي عنه في التفسير.

٥ ـ انقطاعه للتفسير، واشتغاله به :

ومما ميزه، وأهّله للسبق على أصحابه في مدرسة الكوفة، تفرغه للتفسير، واشتغاله به، وقلة اهتمامه بالعلوم الأخرى، وشاهد ذلك، نجده في تصدير كثير من الأئمة ترجمته بإبراز تقدمه وعلمه في التفسير، وذكر إمامته فيه؛ فهذا العجلي صدر ترجمته بقوله: عالم بتفسير القرآن[٤] .

وقال ابن سعد: السدي صاحب التفسير[٥] .

---

(١) سواء من البصريين أو الكوفيين.
(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٣١٤)، وشرح علل ابن رجب (٣٥١).
(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٣٧٦)، روى أسباط بن نصر ما يُقارب (٩٥ , ٠) من مجموع تفسيره .
(٤) تاريخ الثقات (٦٦).
(٥) طبقات ابن سعد الجزء المتمم (١٢٧)..

وميز الذهبي السدي بقوله: المفسر المشهور[١].

ومع هذه الشهرة والتقدم في التفسير، نجد أن حظه من العلوم الأخرى قليل، لاسيما علم الفقه الذي صرف التابعون من الكوفيين جل جهدهم وعلمهم فيه، مما أهل مدرسة الكوفة أن تكون من أشهر المدارس، ولم يكن نصيبه في هذا الباب إلا أقل من القليل[٢] لانقطاعه للتفسير، وعدم اشتغاله بغيره.

٦ ـ اهتمامه بنقل أسباب النزول :

اهتم السدي ـ رحمه الله ـ بمعرفة أسباب النزول اهتمامًا كبيرًا، واعتنى بذلك عناية شديدة، وأطال في إيرادها بما لا تكاد تجده عند غيره، ورجح على ضوء ذلك كثيرًا من المعاني القرآنية، معتمدًا على دراية واسعة، بالمغازي وأيام العرب، ووقائعهم.

يقول الأتابكي: السدي صاحب التفسير والمغازي والسير، كان إمامًا عارفًا بالوقائع، وأيام الناس[٣].

وقد اعتمد في تفسيره على معرفة أسباب النزول اعتمادًا جعله في عداد المكثرين بين التابعين في هذا الباب[٤].

ويشهد لهذا أنه كان يطيل في سرد السبب، ويحرص إذا جاء في الآية نهي أن يبين سببه[٥]، وإن كان للآية قصة أوردها[٦]، ولعل من مظاهر حرصه على التفصيل،

---

(١) العبر (١/ ١٢٧)، وتاريخ الإسلام (١٢٧ هـ/ ٣٧).

(٢) رجعت إلى كتاب المغني لابن قدامة، فلم أجد له إلا رواية واحدة في الفقه، في حين بلغت عن إبراهيم النخعي (٦٩٦) رواية، وعن عامر الشعبي (٥٠١) رواية.

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨)، وتاريخ التراث (١/ ٧٧).

(٤) بلغ نسبة ما روي عنه في أسباب النزول (١١,٠) من تفسيره، فكان الرابع بين عموم التابعين في عنايته بالأسباب.

(٥) تراجع الآثار في تفسير الطبري: ١٧٣٨، ٣٠٨٥، ٣٨٣٨، ٣٨٦٦، ٣٨٧٤، ٤١٩٥.

(٦) من ذلك الآثار ذوات الأرقام: ١٤٠١، ١٥٢٧، ١٤٧٢، ١٨٣٤، ٢٥٦٣، ٢٧٢١، ٤١٤٧، ٧١٨٣، ٧٢٣٣، ٧٧١٧، ٧٧٢٣، ٨١٠١، ٨٢٣٧.

والإطالة في ذلك: العناية بذكر الأسماء والأماكن[١] .

بل وذهب إلى أبعد من ذلك ، فكان يجزم بأن الآية نزلت في كذا ، وكذا، ويقطع بذلك، وكأن القارئ لتفسيره لتلك الآية يشعر أن هذا السبب أو ذاك كان وراء نزول هذه الآية فحسب[٢] .

٧ ـ إكثاره من الرواية عن أهل الكتاب :

هو أكثر التابعين على الإطلاق في اتخاذ رواية أهل الكتاب مصدراً ومعتمداً في التفسير، ولم يشاركه بل لم يقاربه أحدٌ في هذا، والعجيب من أمر السدي أنه عاش واستقر في الكوفة، التي كانت من أكثر المدارس حذراً وبعداً عن روايات بني إسرائيل، ولكنه خالف منهج تلك المدرسة، وأورد العديد من الروايات المنكرة، وكان من أكثر التابعين تساهلاً في ذلك[٣]

وأحسب أن هذا التوسع، والخوض في التفسير بعامة، والإكثار من النقل عن بني إسرائيل بخاصة، هو من أهم أسباب إنكار الشعبي عليه .

وقد فاق السدي في تساهله هذا، حتى المشاهير من رواة الإسرائيليات كوهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وقد تتبعت المروي عنهم جميعًا، وحاولت استقراء العديد من كتب التفسير كالطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، والسيوطي، فوجدت أن السدي أكثر منهم عدداً، وأكثر تفصيلاً وإغرابًا، بل إن المروي عن هؤلاء

---

(١) ينظر في هذا تفسير الطبري الآثار ذوات الأرقام: ٢٧٢١، ٢٩٤٩، ٣٩٦١، ٤٠٨٣، ٤١٤٧، ٤٢٢٥، ٤٢٣٤، ٤٩٢٠، ٤٩٣٩، ٦٢٥٨، ٦٣٠٢، ٧١٦٣، ٧١٨٣، ٧٣٦٤، ٧٩٤٣، ٨٠٠٣، ٨١٩٥، ٨٢٠١، ٨٣٠٢.

(٢) من ذلك : ٢٤١٨، ٢٧٠٢.

(٣) بلغ نسبة المروي عنه (١٦ , ٠) من مجموع تفسيره، في حين جاء الذي يليه محمد بن كعب القرظي بنسبة (٠٧ , ٠).

المشاهير - الذين تخصصوا في نقل روايات بني إسرائيل - يعد قليلاً إذا ما نسب إلى ما نقله السدي ورواه.

واختص في كثير من روايته بالرغبة في إيراد تفاصيل القصص والاستطراد في السرد، والقص، وهذه صفة عامة في أغلب ما يرويه، ولم أجد من شابهه أو قاربه من مفسري التابعين في هذا المسلك، وهذا المنهج من أهم ما يلاحظه الناظر في تفسيره.

ولذا سوف أعرض بشيء من التفصيل بعضًا من الشواهد الموضحة لمنهجه في هذا، فمن ذلك ما جاء عنه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، أورد الطبري قصة سبب استنصار عيسى عليه السلام من استنصر من الحواريين، فساق عن السدي قوله: لما بعث الله عيسى، فأمره بالدعوة، نفته بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسيحون في الأرض، فنزل في قرية على رجل فضافهم وأحسن إليهم.

وكان لتلك المدينة ملك جبار معتد، فجاء ذلك الرجل يومًا وقد وقع عليه همٌ وحزن، فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت مريم لها: ما شأن زوجك؟ أراه حزينًا! قالت: لا تسألي! قالت: أخبريني! لعل الله يُفرج كربته! قالت: فإن لنا ملكًا يجعل على كل رجل منا يومًا يطعمه هو، وجنوده، ويسقيهم من الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، وإنه قد بلغت نوبته اليوم الذي يريد أن نصنع له فيه، وليس لذلك عندنا سعة!

قالت: فقولي له لا يهتم، فإني آمر ابني فيدعو له، فيكفي ذلك. قالت مريم لعيسى في ذلك، قال عيسى: يا أمَّه إني إن فعلت كان في ذلك شرٌ. قالت: فلا تبال، فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا! قال عيسى: فقولي له: إذا اقترب ذلك، فاملأ قدورك وخوابيك ماء، ثم أعلمني. قال: فلما ملأهنَّ أعلمه، فدعا الله فتحول ما في القدر لحمًا، ومرقًا، وخبزًا، وما في الخوابي خمرًا لم ير الناس مثله قط، وإياه طعامًا.

(١) سورة آل عمران: آية (٥٢).

فلما جاء الملك أكل، فلما شرب الخمر سأل: من أين هذا الخمر؟ قال له: هي من أرض كذا، وكذا. قال الملك فإن خمري أوتى بها من تلك الأرض، فليس هي مثل هذه! قال: هي من أرض أخرى. فلما خلط على الملك اشتد عليه، قال: فأنا أخبرك، عندي غلام لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه، وإنه دعا الله فجعل الماء خمرًا. قال الملك - وكان له ابن يريد أن يستخلفه، فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحب الخلق إليه - فقال: إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمرًا، ليستجابن له، حتى يحيي ابني!

فدعا عيسى فكلمه، فسأله أن يدعو الله فيحيي ابنه، فقال عيسى: لا تفعل، فإنه إن عاش كان شرًا، فقال الملك: لا أبالي، أليس أراه؟ فلا أبالي ما كان. فقال عيسى عليه السلام: فإن أحييته تتركوني أنا وأمي نذهب أينما شئنا؟ قال الملك: نعم. فدعا الله فعاش الغلام. فلما رآه أهل مملكته قد عاش، تنادوا بالسلاح، وقالوا: أكلنا هذا، حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه، فيأكلنا كما أكلنا أبوه!! فاقتتلوا.

وذهب عيسى، وأمه، وصحبهما يهودي. وكان مع اليهودي رغيفان ومع عيسى رغيف، فقال له عيسى: شاركني، فقال اليهودي: نعم، فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف ندم، فلما ناما جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف، فلما أكل لقمة، قال له عيسى: ما تصنع؟ فيقول: لا شيء! فيطرحها، حتى فرغ من الرغيف كله. فلما أصبحا قال له عيسى: هلمَّ طعامك! فجاء برغيف، فقال عيسى: أين الرغيف الآخر؟ قال: ما كان معي إلا واحد. فسكت عنه عيسى، فانطلقوا، فمروا براعي غنم، فنادى عيسى: يا صاحب الغنم، أجزرنا شاة من غنمك.

قال: نعم أرسل صاحبك يأخذها. فأرسل عيسى اليهودي، فجاء بالشاة فذبحوها، وشووها، ثم قال لليهودي: كل ولا تكسرن عظمًا. فأكلا. فلما شبعوا، قذف عيسى العظام في الجلد ثم ضربها بعصاه وقال: قومي بإذن الله، فقامت الشاه تثغو! فقال: يا صاحب الغنم، خذ شاتك. فقال له الراعي: من أنت؟ فقال: أنا عيسى ابن مريم. قال: أنت الساحر! وفرَّ منه. قال عيسى لليهودي: بالذي أحيا هذه الشاة

بعدما أكلناها، كم كان معك رغيفًا؟ فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد، فمروا بصاحب بقر، فنادى عيسى فقال: يا صاحب البقر، أجزرنا من بقرك هذه عجلاً. قال: ابعث صاحبك يأخذه.

قال: انطلق يا يهودي فجئ به. فانطلق فجاء به. فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر، فقال له عيسى: كل ولا تكسرن عظمًا فلما فرغوا، قذف العظام في الجلد، ثم ضربه بعصاه، وقال: قم بإذن الله. فقام وله خُوار، قال: خُذ عجلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى قال: أنت السحَّار! ثم فرَّ منه.

قال اليهودي: يا عيسى أحييته بعدما أكلناه! قال عيسى: فبالذي أحيا الشاة بعدما أكلناها، والعجل بعدما أكلناه، كم كان معك رغيفًا؟ فحلف بالله ما كان معه إلا رغيف واحد. فانطلقا، حتى نزلا قرية، فنزل اليهودي أعلاها، وعيسى في أسفلها، وأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى، وقال: أنا الآن أحيي الموتى! وكان ملك تلك المدينة مريضًا شديد المرض، فانطلق اليهودي يُنادي: من يبتغي طبيبًا؟ حتى أتى ملك تلك القرية، فأخبر بوجعه، فقال: أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه.

فقيل له: إن وجع الملك قد أعيى الأطباء قبلك، ليس من طبيب يداويه، ولا يُفيء دواؤه شيئًا إلا أمر به فصلب. قال: أدخلوني عليه، فإني سأبرئه. فأدخل عليه فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات، فجعل يضربه بعصاه، وهو ميت، ويقول: قم بإذن الله! فأخذ ليصلب، فبلغ عيسى، فأقبل إليه وقد رفع على الخشبة، فقال: أرأيتم إن أحييت لكم صاحبكم، أتتركون لي صاحبي؟ قالوا: نعم، فأحيا الله الملك لعيسى.

فقام وأنزل اليهودي فقال: يا عيسى أنت أعظم الناس عليّ منة، والله لا أفارقك أبدًا. قال عيسى ـ فيما حدثنا به محمد بن الحسين بن موسى قال: حدثنا أحمد بن المفضل قال: حدثنا أسباط، عن السدي ـ لليهودي: أنشدك بالذي أحيا الشاة والعجل

بعدما أكلناهما، وأحيا هذا بعدما مات، وأنزلك من الجذع بعدما رفعت عليه لتصلب، كم كان معك رغيفًا؟ قال فحلف بهذا كله ما كان معه إلا رغيف واحد، قال: لا بأس! فانطلقا، حتى مرا على كنز قد حفرته السباع، والدواب، فقال اليهودي: يا عيسى، لمن هذا المال؟ قال عيسى: دعه، فإن له أهلاً يهلكون عليه. فجعلت نفس اليهودي تطلع إلى المال، ويكره أن يعصي عيسى، فانطلق مع عيسى.

ومر بالمال أربعة نفر، فلما رأوه اجتمعوا عليه، فقال: اثنان لصاحبيهما: انطلقا فابتاعا لنا طعامًا، وشرابًا، ودواب نحمل عليها هذا المال. فانطلق الرجلان، فابتاعا دواب وطعامًا وشرابًا، وقال أحدهما لصاحبه: هل لك أن نجعل لصاحبينا في طعامهما سمًا، فإذا أكلا ماتا، فكان المال بيني، وبينك؟ فقال الآخر: نعم! ففعلا، وقال الآخران: إذا ما أتيانا بالطعام، فليقم كل واحد إلى صاحبه فيقتله، فيكون الطعام والدواب بيني، وبينك.

فلما جاءا بطعامهما قاما فقتلاهما، ثم قعدا على الطعام فأكلا منه، فماتا. وأعلم ذلك عيسى، فقال لليهودي: أخرجه حتى نقتسمه، فأخرجه فقسمه عيسى بين ثلاثة، فقال اليهودي: يا عيسى، اتق الله ولا تظلمني، فإنما هو أنا، وأنت!! وما هذه الثلاثة؟ قال له عيسى: هذا لي، وهذا لك، وهذا الثلث لصاحب الرغيف. قال اليهودي: فإن أخبرتك بصاحب الرغيف، تعطيني هذا المال؟ فقال: عيسى: نعم. قال: أنا هو. قال عيسى: خذ حظي وحظك، وحظ صاحب الرغيف، فهو حظك من الدنيا، والآخرة.

فلما حمله مشى به شيئًا، فخسف به. وانطلق عيسى بن مريم، فمر بالحواريين، وهم يصطادون السمك، فقال: ما تصنعون؟ فقالوا: نصطاد السمك. فقال: أفلا تمشون حتى نصطاد الناس؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى بن مريم. فآمنوا به، وانطلقوا معه. فذلك قول الله عز وجل: ﴿**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: آية (٥٢). ينظر تفسير الطبري (٦/ ٤٤٤) ٧١٢٢.

ومع هذا التساهل والإغراق في إيراد تلك التفاصيل، والسرد الذي لا طائل تحته، ولا حاجة للناس به، كان السدي ممن تجاوز إلى رواية بعض القصص، والحكايات المنكرة، فمن هذا ما جاء عنه عند قوله سبحانه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[1].

قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه، ويوم يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال: يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأعطني مثل ما أعطيتهم، وافعل بي مثل ما فعلت بهم، قال: فأوحى الله إليه: إن آباءك ابتلوا ببلايا، لم تبتل بها: ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، وابتلي إسحاق بذهاب بصره، وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف، وإنك لم تبتل من ذلك بشيء.

قال: يارب ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، وأعطني مثل ما أعطيتهم، قال: فأوحى إليه: إنك مبتلى فاحترس؛ قال: فمكث بعد ذلك ـ ما شاء الله ـ أن يمكث؛ إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب، حتى وقع عند رجليه، وهو قائم يصلي، فمد يده ليأخذه، فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه، فطار من الكوة، فنظر أين يقع، فيبعث في أثره، قال: فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل الناس خلقًا، فحانت منها التفاتة، فأبصرته، فألقت شعرها، فاستترت به، قال: فزاده ذلك فيها رغبة، قال: فسأل عنها، فأخبر أن لها زوجًا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا؛ قال: فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث «أهريا» إلى

= ولمزيد من الأمثلة الدالة على حبه السرد، والتفصيل في قصه وتحديثه، تراجع الآثار التالية في تفسير الطبري: ٨٩٥، ٩٣٧، ٩٩١، ١١٤٢، ١١٧٤، ١٦٤٦، ١٦٨٦، ١٦٩٦، ٥٦٠٢، ٥٦٣٥، ٥٦٣٨، ٥٧٤٤، ٦٩٠٤، ١١٦٥٦، ١١٦٩٤، ١٥٥٢٥، ١٩٠١٣، (٢٣/ ١٤٧)، (٢٣/ ١٥٨).

(١) سورة ص: آية (٢١).

عدو كذا وكذا، قال: فبعثه، ففتح له، قال: وكتب إليه بذلك، قال: فكتب إليه أيضًا: أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، أشد منهم بأسًا، قال: فبعثه ففتح له أيضًا. قال: فكتب إلى داود بذلك، قال: فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه فقُتل المرة الثالثة، قال: وتزوج امرأته.

قال: فلما دخلت عليه، قال: لم تلبث عنده إلا يسيرًا، حتى بعث الله ملكين في صورة إنسيين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا، فتسوروا عليه المحراب، قال: فلما شعر وهو يصلي، إذ هو بهما بين يديه جالسين، قال: ففزع منهما فقالا: ﴿لا تَخَفْ﴾، إنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ يقول: لا تخف ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾: إلى عدل القضاء. قال: فقال: قصا عليّ قصتكما، قال: فقال: أحدهما: ﴿إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فهو يريد أن يأخذ نعجتي، فيكمل بها نعاجه مائة. قال فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعًا وتسعون نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه، فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره، قال: وهو كاره؟

قال: إذن لا ندعك، وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك، أو تريد، ضربنا منك هذا، وهذا، وهذا، وفسر أسباط: طرف الأنف، وأصل الأنف، والجبهة، قال: يا داود أنت أحق أن يُضرب مثل هذا، وهذا، وهذا؛ حيث لك تسع وتسعون نعجة امرأة، ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتلته، وتزوجت امرأته قال: فنظر فلم ير شيئًا، فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتلي به. قال: فخر ساجدًا. قال: فبكى. قال: مكث يبكي ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها، ثم يقع ساجدًا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، قال: فأوحى الله إليه بعد أربعين يومًا: يا داود، ارفع رأسك فقد غفرت لك، فقال: يا رب

كيف أعلم أنك قد غفرت لي، وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء، إذا جاءك أهريا يوم القيامة آخذًا رأسه بيمينه، أو بشماله، تشخب أوداجه دمًا قبل عرشك يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ قال: فأوحى إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريًا فأستوهبك منه، فيهبك لي، فأثيبه بذلك الجنة، قال: رب الآن علمت أنك قد غفرت لي، قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه، حتى قبض ﷺ[1].

والسدي قد سلك طريقةً مغايرة لطريقة غيره من مشاهير مفسري التابعين، فكان كثيراً ما يورد الآيات القرآنية في ثنايا حديثه وروايته، وكأنه بذلك يرد على المنكرين لصنيعه في إكثاره، وكأنه يشعر بشيء من عدم الرضى من معاصريه، فكان يذكر الآيات القرآنية في تضاعيف تلك الروايات لدعم موقفه، والرد على مخالفيه، والاحتجاج بتلك الإطالة والتفصيل، ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه عند تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾[2].

قال السدي: لما تاب الله على قوم موسى، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعدما أماتهم، أمرهم الله بالسير إلى أريحا، فساروا، حتى إذا كانوا قريبًا منهم، بعث موسى اثني عشر نقيبًا، فكان من أمرهم، وأمر الجبارين، وأمر قوم موسى، ما قد قص الله في كتابه، فقال قوم موسى لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3]، فغضب موسى، فدعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[4]، فكانت عجلة من موسى عجلها، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٧).
ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار التالية في تفسير الطبري (١٦٨٦، ١٥٥٢٥، ١٩٠١٣، (٢٣/ ١٥٨)، وغيرها.
(٢) سورة البقرة: آية (٥٧).
(٣) سورة المائدة: آية (٢٤).
(٤) سورة المائدة: آية (٢٥).

﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾[١] ، فلما ضرب عليهم التيه، ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى؟، فلما ندم. أوحى الله إليه: أن لا تأس على القوم الفاسقين؛ أي: لا تحزن على القوم، الذين سميتهم فاسقين ـ فلم يحزن ، فقالوا: يا موسى، كيف لنا بماء هاهنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجر الترنجبين، والسلوى ـ وهو طير يشبه السمان ـ فكان يأتي أحدهم، فينظر إلي الطير، إن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه. فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟

فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين. فقالوا: هذا الطعام ، والشراب؟ فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[٢] ، وقوله: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[٣] .

وخلاصة القول: إن مما يؤخذ على السدي هذا التساهل، والإكثار في الأخذ والرواية عن بني إسرائيل.

٨ ـ توسعه في القول بالنسخ :

نأى السدي عن أصحابه الكوفيين، فتساهل في القول بالنسخ، وادعى نسخ كثير من الآيات[٤] ، ولم يرتض بعض الأئمة هذا الصنيع فرده عليه.

(١) سورة المائدة: آية (٢٦).

(٢) سورة البقرة: آية (٥٧).

(٣) سورة البقرة: آية (٦٠).

تفسير الطبري (٢/ ٩٧) ٩٩١، ولمزيد من الأمثلة تنظر الآثار: ٩٣٧، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٨، ٩٩١، ١١٤٢، ١١٧٤، ٥٦٣٧، ٦٩٠٤، ٧٠٠١، ٧١٠٧، ٧١٣٢ . . . وغيرها.

(٤) من أمثلة هذا، يراجع تفسير الطبري الآثار ذوات الأرقام ١٨٠٠، ٢٢٠٤، ٢٢٦٠، ٤٠٦٨، =

يقول ابن الجوزي: ومن نظر في كتاب الناسخ والمنسوخ للسدي رأى من التخليط العجائب[١] . . . إلى أن يقول:

وإني أعرضت عن ذكر آيات ادعى عليها النسخ من حكاية لا تحصل إلا تضييع الزمان أفحش تضييع، كقول السدي: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾[٢] نسخها ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[٤] نسخها ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[٥]، وقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾[٦] نسخها ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾[٨] نسخها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٩].

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١٠] نسخها ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١١] ثم قال: لا أدري أي الأخلاط الغالبة حملته على هذا التخليط، فلما كان مثل هذا ظاهر الفساد، وريت[١٢] عنه غيرةً على الزمان أن يضيع، وإن كنت قد ذكرت مما يقاربه طرفًا، لأنبه

= ٤١٧٦، ٥٥٨٠، ٥٨١٩، ٧٥٥٩، ٨٨٢٧، ١٠٩٧٤، ١١٩٩٥، ١٣٣٩٧، ١٤٠٢٩، ١٤٠٣٢، ١٤٢٦٧، ١٥٥٤٤، ١٥٦٧٣، ١٦٢٨١، ١٦٣٣٧، ١٦٤٨٨، (٢٦/ ٤٠).

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي (٧٦).

(٢) سورة النساء: آية (٢).

(٣) سورة النساء: آية (٥).

(٤) سورة النساء: آية (٣٨).

(٥) سورة التوبة: آية (٥٣).

(٦) سورة المائدة: آية (١٠٦).

(٧) سورة المائدة: آية (١٠٦).

(٨) سورة الأنعام: آية (٦٢).

(٩) سورة محمد: آية (١١).

(١٠) سورة العنكبوت: آية (٤٥).

(١١) سورة البقرة آية (١٥٢).

(١٢) وريّ الشيء تورية عن كذا، أي: أراده، وأظهر غيره، ينظر القاموس المحيط (١٧٣٠).

بمذكوره على مغفله[١] .

٩ ـ عنايته بعلم القراءات :

فاق السدي المتأخرين من الكوفيين في علم القراءات حتى عدّ من المقدمين في هذا الشأن في زمانه ، فعن أبي بكر بن أبي داود قال : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية ، وبعده سعيد بن جبير ، ثم السدي ، ثم سفيان الثوري[٢] .

والذي روي عنه من القراءات في تفسيره قليل ، وكان ـ رحمه الله ـ يستعين بالقراءة ليوضح بها معنى قراءة أخرى ، فعند قوله سبحانه : ﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ** ﴾[٣] .

قال : من قرأها خفيفة هم بنو مقرن ، ومن قرأها بالتشديد ، أي الذين اعتذروا بشيء ليس لهم عذر بحق[٤] .

١٠ ـ تأخر وفاته :

وأحسب أن مما ساعد على انتشار تفسير السدي في الكوفة خصوصًا ، قلة المتعرضين فيها للتفسير ، وندرة المكثرين فيه ، مع ما صاحب هذا من تأخر وفاته . فقد اتفقت كلمة كثير من الأئمة على أنه توفي سنة سبع وعشرين ومائة[٥] .

* * *

(١) نواسخ القرآن (٧٧).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٥١)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣)، وغاية النهاية (١/ ٢٨٥)، وعند ابن حجر في التهذيب بلفظ : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة (٣/ ٢٨٥).

(٣) سورة التوبة : آية (٩٠).

(٤) أورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم (٤/ ٢٦١).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٣٢٣)، وطبقات خليفة (١٦٣)، وتاريخ خليفة (٣٧٨)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٢٨)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣٣٥)، والثقات (٥/ ٢١)، واللباب (٢/ ١١٠)، ومرآة الجنان (١/ ٢٩٤)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٠٩).

عامر الشعبي

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار[١] ، أبو عمرو[٢] ، الهمداني[٣] ثم الشعبي[٤] ، ولد في أواسط خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه[٥] ـ، وكانت أمه من سبي جلولاء[٦] .

وعده غير واحد من الأئمة في الطبقة الثانية، من تابعي مدرسة الكوفة[٧] .

أدرك خمسمائة من الصحابة[٨] ، وروى عن خمسين ومائة منهم[٩] ، وسمع من

(١) العلل لأحمد (٢/ ٥٢٢) ٣٤٤٤، (٣/ ٤٦٨) ٥٩٧٧، والسير (٤/ ٢٩٤).

(٢) الكنى للدولابي (٢/ ٤٣)، والكنى لمسلم (ق ٧٥)، والمعارف (١٩٩)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٧٧).

(٣) رجال صحيح البخاري (٢/ ٥٥٦)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ٨٤).

(٤) الأنساب (٧/ ٣٤١)، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ١٩٨)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦)، والمعارف (١٩٩).

(٥) تهذيب الكمال (١٤/ ٢٨)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ٨٤)، والمنتظم (٧/ ٩٣)، وطبقات الحفا (٣٣).

(٦) طبقات خليفة (١٥٧)، والتاريخ الكبير (٦/ ٤٥٠)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٧)، والأنساب (٧/ ٣٤٢)، ووفيات الأعيان (٣/ ١٥).

وجلولاء: قرية بناحية فارس، كانت بها الوقعة المشهورة على الفرس، والتي انتصر فيها المسلمون سنة ١٦ هـ، قُتل من الفرس فيها مائة ألف فجلّلت القتلى، فسميت جلولاء لما جللها من قتلاهم، ينظر معجم البلدان (٢/ ١٥٦)، ومعجم ما استعجم (١/ ٣٩٠).

(٧) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦)، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٨٧).

(٨) التاريخ الكبير (٦/ ٤٥١)، والحلية (٤/ ٣٢٣)، والثقات (٥/ ١٨٦)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤٢)، ومرآة الجنان (١/ ٢٤٥).

(٩) الثقات (٥/ ١٨٦)، ومشاهير علماء الأمصار (١٠٢)، والأنساب (٧/ ٣٤١).

ثمانية وأربعين صحابيًا[١] .

وكان لهذا الإدراك وكثرة السماع الأثر البالغ في تميز الشعبي بمنهج أثري روائي، حتى صار من أكثر العراقيين تتبعًا، واقتداءً، وإفتاءً بالأثر، بل صار من أبعدهم عن الرأي والقياس[٢] .

أسباب قلة المروي عنه :

المدرسة الكوفية التي عاش فيها الشعبي، من المدارس التي تورعت عن الخوض في التفسير، وعظمت القول فيه فقلَّ نتاجها، واشتغلت بعلوم أخرى غيره، وكان عامر ممن تورع في هذا، فكان من المقلين بين مشاهير المفسرين من التابعين[٣] .

ومن خلال النظر في أخباره، وتتبع آثاره، يظهر أن ثمة أسبابًا كانت وراء ذلك من أهمها ما يلي :

١ ـ شدة ورعه، وكراهيته الإكثار من التحديث، والفتيا :

فقد بلغ الشعبي ـ رحمه الله ـ الغاية في الاحتياط، والورع، وكان من أكثر التابعين ورعًا في هذا الباب، مع تقدمه في العلم.

وعند النظر والمراجعة والتأمل لما ورد عنه من أقوال في سائر فروع العلوم الشرعية، نجد أن هذا الاحتياط والورع كان سمة بارزة من سماته، بل كان ـ رحمه الله ـ ينكر على غيره من الأئمة إكثارهم من التحديث، والفتيا.

---

(١) تاريخ الثقات للعجلي (٢٤٣)، والسير (٤/ ٣٠١)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤٢).

(٢) يأتي مزيد بسط لهذه المسألة ـ إن شاء الله ـ.

(٣) هو من أقلهم عددًا في المروي عنه، بين المكيين، والبصريين، والكوفيين، فقد بلغ مجموع ما روي عنه في تفسير الطبري (٤٦١) قولاً.

فعن توبة العنبري[١] قال: قال لي الشعبي: أرأيت حديث الحسن[٢] عن النبي ﷺ، وقاعدت ابن عمر قريبًا من سنتين، أو سنة ونصف، فلم أسمعه يحدث عن النبي ﷺ غير هذا.

وذكر حديث الضب، وأن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا وأطعموا فإنه حلال**»[٣].

وعن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: لو لقيت هذا - يعني الحسن - لنهيته عن قوله: قال رسول الله ﷺ؛ صحبت ابن عمر ستة أشهر فلم أسمعه يقول: قال رسول الله ﷺ إلا في حديث واحد[٤].

ولما سئل عن قتادة، لم يرض عنه بسبب كثرة تحديثه، وقال: حاطب ليل[٥].

وكان يقول: كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث[٦].

ولعله يضاف إلى ذلك: خوفه من الخطأ في حديث رسول الله ﷺ، فعن عاصم العدوي قال: سألت الشعبي عن حديث فحدثنيه، فقلت: إنه يرفع إلى النبي ﷺ، فقال: لا، على من دون النبي ﷺ أحب إلينا، فإن كان فيه زيادة أو نقص، كان على

(١) توبة العنبري: البصري أبو المورع. ثقة من الرابعة، ينظر التقريب (١٣١)، والخلاصة (٥٥).

(٢) قال ابن حجر في تعليقه على قول الشعبي (أرأيت حديث الحسن): كان الشعبي يُنكر على من يرسل الأحاديث عن رسول الله ﷺ، إشارة إلى أن الحامل لفاعل ذلك طلب الإكثار من التحديث عنه، وإلا كان يكتفي بما سمعه موصولاً، ينظر الفتح (١٣/ ٢٤٣).
وقال الكرماني: مراد الشعبي أن الحسن مع كونه تابعيًا كان يكثر الحديث عن النبي ﷺ، وابن عمر مع كونه صحابيًا يحتاط، ويقل مهما أمكن، ينظر الفتح (١٣/ ٢٤٣).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب خبر المرأة الواحدة (٨/ ١٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد، باب إباحة الضب (٣/ ١٥٤٣)، والدارمي في سننه (١/ ٨٤).

(٤) العلل لأحمد (٢/ ١٩٨) ١٩٩٩، (٣/ ٣٦٧) ٥٦١٤.

(٥) المعرفة (٢/ ٢٧٧)، والسير (٥/ ٢٧٢).

(٦) التذكرة (١/ ٨٣).

من دون النبي ﷺ [١] .

وكان من طبع الشعبي الانبساط في الحديث مع تلاميذه، وأصحابه، فإذا جاءت المسألة والفتيا انقبض، على عكس إبراهيم النخعي، الذي يكون منقبضًا، فإذا وقعت الفتوى انبسط[٢] .

يقول ابن عون: كان الشعبي إذا جاءه شيء اتقاه، وكان إبراهيم يقول، ويقول[٣].

وذكر الشعبي وإبراهيم عند ابن عون، فقال: كان إبراهيم يسكت، فإذا جاءت الفتيا انبرى لها، وكان الشعبي يتحدث، ويذكر الشعر، وغير ذلك، فإذا جاءت الفتيا أمسك[٤] .

وكان الشعبي يكره كثرة السؤال، ويقول: لو أن هؤلاء كانوا على عهد النبي ﷺ لنزلت عامة القرآن: يسألونك يسألونك[٥] .

وعن داود بن أبي هند قال: سألت الشعبي: كيف كنتم تصنعون إذا سئلتم؟ قال: على الخبير وقعت، كان إذا سئل الرجل، قال لصاحبه: أفتهم، فلا يزال حتى يرجع إلى الأول[٦] .

وكان رحمه الله كثيرًا ما يقول: لا أدري[٧] .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٨٢).
(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٥٤).
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٥٤).
(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٧).
(٥) سنن الدارمي (١/ ٦٦).
(٦) سنن الدارمي (١/ ٥٣).
(٧) سنن الدارمي (١/ ٥٢، ٦٣)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٠)، والمعرفة (٢/ ٦٠٣)، والتذكرة (١/ ٨٥)، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٩٨).

ولما قيل له: أما تستحي من كثرة ما تُسأل، فتقول: لا أدري. قال: أكثر ملائكة الله المقربين لم يستحيوا حيث سئلوا عما لا يعلمون أن قالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم[١].

وكان إذا سئل عن مسألة شديدة قال: زباذات[٢]، وبر، لا تنقاد، ولا تنساق، لو سُئل عنها أصحاب محمد ﷺ لعُضلت بهم[٣].

وأحسب أن المروي عنه سيكون كثيراً لولا غلبة هذا الجانب على نفسه، ومنهجه، مما جعله يؤثر جانب الإقلال في الرواية بعامة، وفي التفسير بخاصة، مع أنه من المقدمين بين التابعين في معرفة غريب اللغة وشعرها، ومن أفصحهم لسانًا، وأكثرهم حفظًا؛ بل إنه ما من آية إلا وسمع فيها شيئًا من التفسير، ومع هذا فقد أحجم، وتحرج عن نقل مسموعه وروايته، فضلاً عن الدراية والاجتهاد.

يقول عن نفسه: والله ما من آية إلا قد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله[٤].

وكان من شدة ورعه، أنه كان كثيراً ما يقول: يا ليتني أنفلت من علمي كفافًا؛ لا عليَّ ولا لي[٥].

٢ ـ كراهيته للرأي والقياس، وإقلاله في باب النظر والاجتهاد:

إضافة إلى ما ذكر سابقًا من إقلاله في الرواية، وشدة ورعه فيها فإنه كان أكثر

(١) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٣)، والمزهر (٢/ ٣١٥)، وتذكرة النحاة لأبي حيان الغرناطي (٦٩٩)، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٩٩).

(٢) زباذات: قال ابن شبرمة: مسألة شاقة وصعبة.

(٣) الحلية (٤/ ٣١٩)، والمعرفة (٢/ ٥٩٣)، تاريخ دمشق (٨/ ٧٠٠).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٨٧) ١٠٢، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٤)، والمعرفة (٢/ ٦٠٣)، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٩٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).

(٥) المعرفة (٢/ ٥٩٢، ٦٠٢)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٦٠)، والمنتظم (٧/ ٩٣)، وتهذيب وتاريخ دمشق (٧/ ١٤٣).

تحرجًا في جانب الدراية، وكان شديد الكراهية للرأي، والقياس.

الظاهر أن الشعبي قد استغنى بمحفوظه، وما عنده من الآثار والسنن عن كثرة النظر، والاستنباط، والاجتهاد، ومما ساعده على ذلك إدراكه لخمسمائة من أصحاب النبي ﷺ، وروايته عن خمسين ومائة منهم، وسماعه من ثمانية وأربعين صحابيًا.

هذا مع ما كان عنده من قدرة فائقة، وحافظة نادرة، فعن ابن شبرمة قال: سمعت الشعبي يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا استعدت حديثًا من إنسان[١].

وعن عبد الملك بن عمير قال: مرَّ ابن عمر على الشعبي وهو يحدث بالمغازي، فقال: لقد شهدت القوم فلهو أحفظ لها، وأعلم بها[٢].

ومع أنه عاش في مدرسة الكوفة، وكان الغالب على منهجها التساهل في الرأي والقياس، إلا أنه كان من أشد العراقيين كراهية لذلك[٣].

فعن مالك بن مغول، قال: قال لي الشعبي: ما حدثوك عن أصحاب رسول الله ﷺ فخذ به، وما حدثوك برأيهم فألقه في الحش[٤].

وعن محمد بن جحادة أن عامرًا الشعبي سُئل عن شيء فلم يكن عنده فيه شيء، فقيل له: قل برأيك قال: وما تصنع برأيي؟ بُل على رأيي[٥].

ولما جاءه رجل، فسأله عن شيء فقال: كان ابن مسعود، يقول كذا أو كذا، قال:

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢٥)، والعلم لأبي خيثمة (١١٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٩)، وكتاب الحث على الحفظ وذكر كبار الحفاظ (٩٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٥).

(٢) تهذيب الكمال (١٤/ ٣٤)، والتعديل والتجريح (٣/ ٩٩٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ١٢)، والتذكرة (١/ ٨٢)، وطبقات الحفاظ (٣٣).

(٣) تأويل مختلف الحديث (٧٤).

(٤) العلل لأحمد (١/ ٢٨٣) ٤٥٤، وسنن الدارمي (١/ ٦٧)، وتأويل مختلف الحديث (٧٥)، والمعرفة والتاريخ (٢/ ٥٩٢)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٠).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٠)، وشرف أصحاب الحديث (٧٤)، وتاريخ دمشق (٨/ ٧٠١).

أخبرني أنت برأيك، فقال: ألا تعجبون من هذا، أخبرته عن ابن مسعود، ويسألني عن رأيي، وديني عندي آثر من ذلك، والله لأن أتغنى أغنية أحب إلى من أن أخبرك برأيي[١].

وكان يقول: ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي[٢].

وكان ينكر على أصحاب الرأي ويقول: إنما هلكتم أنكم تركتم الآثار، وأخذتم المقاييس[٣].

وعن مجاهد، عن الشعبي قال: لعن الله أرأيت[٤].

وعنه قال: والله لئن أخذتم بالمقاييس لتُحرِّمُنَّ الحلال، ولتُحِلُّنَ الحرام[٥].

وكان يستدل على بطلان القياس، بمثل قوله لأبي بكر الهذلي: أرأيتم لو قتل الأحنف، وقتل معه صغير، أكانت ديتهما سواء؟ أم يفضل الأحنف لعقله وحلمه؟ قلت: بل سواء، قال: فليس القياس بشيء[٦].

وعن صالح بن مسلم، قال: لقيت الشعبي فمشيت معه، حتى حاذينا أبواب المسجد، فنظر إليه، فقال: الله يعلم لقد بَغَّضَ إليَّ هؤلاء هذا المسجد، حتى لهو أبغض لي من كناسة داري، فقلت: من يا أبا عمرو، قال: هؤلاء الرائيون أصحاب الرأي[٧].

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٤٧).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٨٧) ١٠٣.
(٣) الحلية (٤/ ٣٢٠).
(٤) الحلية (٤/ ٣٢٠)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٢٨٦)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٤ هـ/ ١٣٠).
(٥) سنن الدارمي (١/ ٦٥)، وتأويل مختلف الحديث (٧٥).
(٦) الحلية (٤/ ٣٢٠)، والتذكرة (١/ ٨٤).
(٧) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٧).

بل إنه ـ رحمه الله ـ لما تولى القضاء، كان يقول: ما قضيت لي رأيًا[١].

٣ ـ ورعه في التفسير:

وإذا كانت تلك حاله في الفتيا والفقه وكراهيته للرأي والقياس، فكيف ستكون حاله في التفسير؟!!، لقد كان ـ رحمه الله ـ شديد الورع والتوقي للتفسير، وكان ينكر على كل من يتعرض لتفسير القرآن برأيه، أو يكثر من الرواية فيه، وكان يقول: إن الذي يفسر القرآن برأيه؛ إنما يرويه عن ربه[٢].

ويقول: من كذب على القرآن، فقد كذب على الله[٣].

وكان ينكر أشد الإنكار على السدي وأبي صالح؛ لأنه كان يراهما مقصرين في النظر[٤]، وأنهما أكثرا من التفسير، فعن صالح بن مسلم قال: مررت مع الشعبي على السدي، وحوله شباب يفسر لهم القرآن، فقام عليه الشعبي، فقال: ويحك! لو كنت نشوان يضرب على استك بالطبل كان خيرًا لك مما أنت فيه[٥].

وعن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت الشعبي وقيل له: إن إسماعيل قد أعطي حظًا من علم القرآن، قال: إن إسماعيل قد أعطي حظًا من جهل القرآن[٦].

وكان يمر بأبي صالح فيأخذ بأذنه فيعركها، ويقول: تفسر القرآن، وأنت لا تقرأ القرآن[٧].

---

(١) الشرح والإبانة (١٢٧).
(٢) الحلية (٤/ ٣١٢).
(٣) الحلية (٤/ ٣٢١).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٢٨)، والوجيز في فضائل الكتاب العزيز (١٢٧).
(٥) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٦)، والكامل في الضعفاء (١/ ٢٧٤).
(٦) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٦)، والضعفاء الكبير (١/ ٨٧)، والكامل في الضعفاء (١/ ٢٧٤).
(٧) تفسير الطبري (١/ ٩١) ١١٢، وتاريخ ابن معين (٢/ ٢٨٧)، والمعرفة (٢/ ٢٨٥)، وأبو صالح هو باذام مولى أم هانئ بنت أبي طالب، ينظر: تاريخ أسماء الثقات لابن شاهين (٤٧)، وتاريخ الثقات للعجلي (٧٧).

٤ ـ اشتغاله بالآثار والسنن والأحكام الفقهية :

فقد كان جل همه ـ رحمه الله ـ تتبع الروايات، والسنن، والآثار ومعرفتها، فصرف غاية جهده وعلمه في تمحيص الروايات، ونقدها، ثم رواية ما خلص منها، وتميز في هذا بين أقرانه، ومعاصريه في الكوفة، وفي سائر الأمصار.

فعن عاصم بن سليمان قال: ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة، والحجاز، والآفاق من الشعبي[١].

وقال مكحول الشامي: ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية من الشعبي[٢].

ويقول ابن عوف: إن كنا نتذاكر الشيء ما نرى أن فيه أثراً، فيحدثنا الشعبي فيه بحديث[٣].

وعن ابن شبرمة قال: قال الشعبي: ما جالست أحداً منذ عشرين سنة فحدث بحديث، إلا أنا أعلم به منه[٤].

ولذا يقول حماد بن زيد: لم يكن بالكوفة رجل أحسن اتباعًا، ولا أحسن اقتداء من الشعبي، وذلك لكثرة ما سمع[٥].

وكان من المفارقات بينه وبين أشهر معاصريه في مدرسة الكوفة، أن الشعبي عدَّ

---

(١) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٦)، والسير (٤/ ٣٠٢)، والتذكرة (١/ ٨٥).
(٢) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٧)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٤)، والبداية (٩/ ٢٥٨)، والأنساب (٧/ ٣٤٢).
(٣) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٢).
(٤) المعرفة (٣/ ٣٧٢)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٦١)، والمنتظم (٧/ ٩٣)، والتعديل والتجريح (٣/ ٩٩٣).
(٥) تهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩).

صاحب آثار، وعدَّ إبراهيم النخعي صاحب قياس[١] .

ومع ميله للأثر، وانصرافه إلى رواية السنن، والآثار، والمغازي، والسير؛ فقد عني بالفقه، واشتغل به، ويتضح ذلك الاهتمام الفقهي في عنايته بآيات الأحكام، والإكثار من التطرق إليها[٢] .

وقد عده غير واحد من الأئمة من أفقه التابعين .

فعن أبي مجلز قال: ما رأيت أحدًا أفقه من الشعبي، لا ابن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين، فقد رأيتهم كلهم[٣] .

وعدَّه ابن عيينه من أفقه أهل زمانه[٤] .

وكان ابن سرين يأمر أصحابه بملازمة الشعبي، ويقول: لقد رأيته يُستفتى والصحابة متوافرون[٥] .

وصدر كثير من أهل التراجم والسير ترجمته بقولهم: كان إمامًا حافظًا فقيهًا[٦] .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٤٧)، والحلية (٤/ ٣٢٠)، وأخبار القضاة (٢/ ٤٢٨)، والتذكرة (١/ ٨٢).

(٢) بلغت نسبة ما روي عنه من تأويل آي الأحكام (٢٣, ٠) من مجموع تفسيره، وهو بهذا يأتي في المرتبة الرابعة، بعد كل من: النخعي، الذي بلغت نسبة المروي عنه (٣٨, ٠) من مجموع تفسيره، وابن المسيب؛ حيث بلغ ما نسبته (٣٤, ٠) من مجموع تفسيره، وعطاء؛ حيث بلغ ما نسبته (٣٣, ٠) من مجموع تفسيره.

(٣) طبقات علماء الحديث (١/ ١٥٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٣٠)، والتعديل (٣/ ٩٩٣)، والتذكرة (١/ ٨١).

(٤) التاريخ الكبير (٦/ ٤٥١)، وأخبار القضاة (٢/ ٤٢١)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤٢)، وشذرات الذهب (١/ ١٢٨).

(٥) أخبار القضاة (٢/ ٤٢١)، والإرشاد (٢/ ٥٥٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٩)، والتعديل (٣/ ٩٩٣).

(٦) التذكرة (١/ ٧٩)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٥)، والبداية (٩/ ٢٥٨)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٥٣).

٥ ـ قلة الرواة عنه :

كان من الأسباب المؤدية إلى قلة المأثور عن هذا الإمام، قلة الرواة عنه، وضآلة عدد الناقلين لعلمه من أصحابه، على عكس ما كان الأمر عليه عند أشهر معاصريه، كالنخعي مثلاً، فقد عني أصحابه برواية ونقل آثاره وأخباره، وقد كان هذا من الفوارق الجلية بينهما، وكان الشعبي يشير إلى ذلك فيقول لما مات إبراهيم، وجلس حماد بن أبي سليمان يبث علمه ـ قال: إبراهيم ميتًا أفقه منه حيًا[١].

ونجد شاهد ما قال عند النظر في المنقول من تفسيرهما؛ حيث اهتم أصحاب إبراهيم بنشر تفسيره وعلمه، أكثر من اهتمام الملازمين للشعبي[٢].

٦ ـ ما تعرض له من الفتن :

وهذا سبب رئيس من الأسباب المشتركة بين الطبقة المتوسطة من تابعي مدرسة الكوفة[٣]؛ حيث تعرض كثير منهم لفتنة ابن الأشعث، فنتج عن ذلك اختفاء بعضهم، وسجن آخرين، وفرار الباقين.

وعامر الشعبي كان أحد المتعرضين لهذه الفتنة؛ حيث كان ممن خرج على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، فتوعده الحجاج، فاختفى تسعة أشهر مغلقًا عليه بابه، ثم لحق

(١) العلل لأحمد (٣/ ٢٠٦)، ٤٨٨٤، والمعرفة (٢/ ٦٠٨)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٨٤).

(٢) عند النظر والمقارنة بين الشعبي، والنخعي في هذا، نجد أن الشعبي، كان من أبرز أصحابه الناقلين لتفسيره اثنان: الأول: داود بن أبي هند، روى ما نسبته (٢٣, ٠) من مجموع تفسيره، والثاني: مغيرة بن مقسم، روى ما نسبته (١١, ٠) من مجموع تفسيره وغيرهم من التلاميذ كان أقل منهم. في حين كان من أبرز أصحاب إبراهيم اثنان: الأول: مغيرة بن مقسم؛ حيث روى ما نسبته (٣٦, ٠) من مجموع تفسيره، والثاني: منصور بن المعتمر؛ حيث روى (٢٦, ٠) من مجموع تفسيره.

(٣) بخلاف غيرهم من تلاميذ المدارس الأخرى، وخاصة أقربها إليهم مدرسة البصرة؛ حيث لم يشارك أحد من مشاهير مفسري التابعين في هذه الفتنة، فاستقرت الأمور عندهم، وتفرغوا لنشر علمهم.

مختفيًا بعسكر قتيبة بن مسلم إلى خراسان، ثم بلغ خبره الحجاج، فأرسل في طلبه، فبعثه قتيبة بن مسلم إليه.

يقول الشعبي: فلما دنوت من واسط، استقبلني ابن أبي مسلم فقال: يا أبا عمرو، إني لأضنُّ بك عن القتل، إذ دخلت على الأمير فقل كذا وقل كذا. فلما أدخلت عليه ورآني قال: لا مرحبًا، ولا أهلاً، جئتني ولست في الشرف من قومك، ولا عريفًا، ففعلتَ وفعلت، ثم خرجت عليَّ وأنا ساكت!؛ فقال: تكلم. فقلت: أصلح الله الأمير، كل ما قلته حق، ولكنا قد اكتحلنا بعدك السهر، وتحلسنا الخوف، ولم نكن مع ذلك بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فهذا أوان حقنت لي دمي، واستقبلت بي التوبة. قال: قد فعلت ذلك[1].

خصائص تفسيره:

ومع قلة المروي عنه في التفسير، فإنه من خلال تتبع تفسيره وجدت أنه تميز بجملة من الخصائص، التي انفرد بها عن أصحابه الكوفيين، أو أنه عني بها أكثر من عنايتهم بها، ومن أهمها:

١ ـ غلبة الجانب الأثري على أقواله وآرائه أكثر من غيره:

فقد ذكرنا في ماضي القول، أنه أدرك الكثير من الصحابة، وسمع منهم أكثر من سماع غيره، كما أن مما ميزه أن مصادره تعددت بسبب كثرة أسفاره ورحلاته، فقد سافر إلى الحجاز، وصحب ابن عمر وتأثر به، ولقي غيره من الصحابة، وقد أشار ابن المديني إلى هذا فقال: وكان أصحاب عبد الله الذين يقرءون بقراءته، ويفتون الناس ستة: علقمة والأسود ومسروق... وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله وطريقتهم ومذهبهم: إبراهيم والشعبي، إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق،

(١) ينظر السير (٤/ ٣٠٤، ٣٠٥).

يأخذ عن علي وأهل المدينة وغيرهم، وكان إبراهيم يذهب مذهب أصحابه[١].

وكان الشعبي إلى فقهاء الأثر أقرب منه إلى فقهاء الرأي[٢].

والمراجع لكتب التراجم والسير يجد أن أهل الآثار والسنن من أتباع التابعين وغيرهم، يقدمون الشعبي على سائر فقهاء الكوفة، لغلبة هذا الجانب عنده؛ ولذا يقول الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيب في المدينة، والشعبي في الكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[٣].

بل كان من حبه للآثار والاحتياط في روايتها أنه عدَّ أول من زكى وجرح بعد انقراض الصحابة[٤].

وكان لذلك الميل إلى الأثر أثره في التفسير، فقد تبين لي أنه أكثر التابعين اعتماداً على أقوال الصحابة في تفسيره[٥]. كما أن هذا المسلك قد أثر في حرصه على معرفة أسباب النزول، وروايتها، حتى إنه احتل المرتبة الثانية بعد عكرمة من بين مشاهير المفسرين من التابعين[٦]، ومن المعلوم أن علم أسباب النزول يعتمد في الدرجة الأولى على علم الرواية والأثر.

وأحسب أن الشعبي من أوائل من نشر هذا المنهج والمسلك في المدرسة الكوفية، ولكن الغلبة والظهور كان لمنهج مدرسة الرأي، الذي أسسه إبراهيم، وانتشر بعده.

---

(١) العلل لابن المديني (٢٥٢).

(٢) أبو حنيفة، لأبي زهرة (٦٨).

(٣) المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٦٢)، وفيات الأعيان (٣/ ١٣)، ومرآة الجنان (١/ ٢٤٥).

(٤) قول من يعتمد في الجرح والتعديل للذهبي ص ١٥٩.

(٥) احتل المرتبة الأولى بين التابعين في الاعتماد على هذا المصدر، فكان نصيب هذا المصدر من نسبة ما روي عنه (٥, ٠) ولم يقاربه أحد من التابعين في ذلك.

(٦) حيث بلغ نسبة ما روي عنه في أسباب النزول (١٣, ٠) من مجموع تفسيره، في حين كانت النسبة عن عكرمة (١٤, ٠) من مجموع تفسيره.

٢ ـ تقدمه في علوم اللغة من غريب وفصيح وشعر :

وهاهنا أمثلة دالة على ذلك ، منها ما جاء منه في قوله : اجتمع جوارٍ فأرنَّ وأشرْنَ ولعبن الخُزُقَّة[١] .

قال ابن الأثير في بيان معنى غريب حديثه : فأرنَّ أي نشطن ، من الأرن : النشاط[٢] ، وأشرن من الأشر ، وهو البطر[٣] .

ولعبن الخُزُقَّة : هي لعبة من اللعب ، أخذت من التحزق : التجمُّع[٤] .

ولما سئل عن حكم الشعر قال : إنما نُهينا عن الشعر ، إذا أُبِّنتْ فيه النساء ، وتزوُزئتْ فيه الأموال : أي استجلبت به الأموال[٥] .

ولما سئل عن رجل قَبَّل أم امرأته ، قال : أعن صَبُوح تُرَقِّق؟ حرمُت عليه امرأته .

قال ابن الأثير في بيان معنى فتوى الشعبي : هذا مثل للعرب ، يقال لمن يظهر شيئًا وهو يريد غيره ، كأنه أراد أن يقول : جامع أم امرأته ، فقال : قَبَّل .

وأصله أن رجلاً نزل بقوم فبات عندهم ، فجعل يُرقّق كلامه ، ويقول : إذا أصبحت غدًا فأصطبحت فعلت كذا ، يريد إيجاب الصبوح عليهم ، فقال بعضهم : أعن صبوح ترقق : أي تعرض بالصبوح ، وحقيقته أن الغرض الذي يقصده كأن عليه ما يستره ، فيريد أن يجعله رقيقًا شفافًا ينمُّ على ما وراءه ، وكأن الشعبي اتهم السائل ، وأراد بالقُبلة ما يتبعها ، فغلظ عليه الأمر[٦] اهـ .

وإن المراجع لكتب الغريب في اللغة والحديث ، يجد أنه حاز قصب السبق في

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٣٧٩) .
(٢) المرجع السابق (١/ ٤١) .
(٣) المرجع السابق (١/ ٥١) .
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٧٩) .
(٥) المرجع السابق (١/ ٢١٨) .
(٦) النهاية في غريب الأثر (٢/ ٢٥٣) .

استعمال الغريب، وتشبعه بالفصيح، وجاء في هذا بعد الحسن البصري[١].

ومما يدل على تقدمه، وحفظه لكثير من دواوين الشعر المختلفة ما ذكره عن نفسه؛ حيث يقول: ما أروي أقل من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرًا لا أعيد[٢].

ومن كثرة حفظه صار يقرضه وهو ابن سبع وسبعين سنة[٣].

وأبان ذلك ابن حبان في ترجمته بقوله: وكان فقيهًا شاعرًا، وأخباره في ذكر الشعر ونظمه كثيرة[٤].

ومما روي عنه في ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[٥]؛ قال: إذا هم بالأرض، ثم تمثل ببيت أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهو به أبدًا مقيم[٦].

وأحسب أن الشعبي كان من أحفظ التابعين للشعر.

وفاته:

ذهب الأكثرون من أهل العلم[٧]، إلى أنه توفي سنة أربع ومائة[٨]، وقيل: ثلاث ومائة[٩]، وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة[١٠].

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) بعد مراجعة كتب غريب الحديث لابن قتيبة، والزمخشري، والأصفهاني، وابن الأثير، ولسان العرب لابن منظور، وجدت أن مجموع ما جاء عن الحسن (٥٤٥) رواية، في حين بلغت عن مجاهد الذي جاء في المرتبة الثانية (٢٤٢) رواية، وعن الشعبي (٢٢٨) رواية، وإن كان العدد متقاربًا بين مجاهد والشعبي؛ إلا أن الفرق بينهما نوعي؛ حيث كان استعمال الشعبي للغريب أكثر وأبلغ وأفصح.

(٢) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٠)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٩)، والتذكرة (١/ ٨٤)، ومرآة الجنان (١/ ٢٤٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٥).

(٤) الثقات (٥/ ١٨٥)، والأنساب (٧/ ٣٤١).

(٥) سورة النازعات: آية (١٤).

(٦) الدر المنثور، وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، عن الشعبي به (٨/ ٤٠٨).

(٧) المنتظم (٧/ ٩٤)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٦)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٥٣).

(٨) طبقات خليفة (١٥٧)، والتاريخ الصغير (١/ ٤٢٣)، وأخبار القضاة (٢/ ٤٢٦)، والمصنف لابن أبي شيبة (١٣/ ٦٧)، ١٥٧٨١، والبداية (٩/ ٢٥٨).

(٩) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦)، والكامل (٥/ ١٠٥).

(١٠) التاريخ الكبير (٦/ ٤٥٠)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٥٥٧)، دول الإسلام (٧٣)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٤ هـ/ ١٣٢).

إبراهيم النخعي

إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن ربيعة بن ذهل بن ربيعة النخعي[١] ، أبو عمران[٢] .

كانت أمه مليكة بنت قيس ، أخت علقمة بن قيس ، وهي عمة الأسود بن يزيد[٣] .

قال أحمد : علقمة عم أم إبراهيم ، والأسود خال إبراهيم ، وعلقمة عم الأسود[٤] . وكان إبراهم يحج مع عمه ، وخاله ، علقمة ، والأسود[٥] .

لم يُحدث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ وإن كان قد أدرك منهم جماعة ، ورأى عائشة[٦] .

فعن أبي معشر أن النخعي حدثهم أنه دخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فرأى عليها ثوبًا أحمر ، فقال له أيوب : كيف دخل عليها؟ قال : كان يحج مع عمه ، وخاله ، فدخل عليها ، وهو غلام[٧] .

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٩٣)، (١/ ٦٦٧)، والأنساب (٥/ ٤٧٣) ط الجديدة، واللباب في تهذيب الأنساب (٣/ ٣٠٤)، ولباب الألباب في تحرير الأنساب (٢/ ٢٩٤).

(٢) الكنى لأحمد (١١٧)، والكنى لمسلم (ق ٨٠).

(٣) الثقات (٤/ ٨)، والمعرفة (٢/ ٦٤٤) (٣/ ٢١٦)، واللباب (٣/ ٣٠٤)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٥).

(٤) الكنى لأحمد (١٠٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧١)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٣٤)، والثقات للعجلي (٤/ ٩).

(٦) تاريخ الثقات للعجلي (٥٧)، والعلل لابن المديني (٧٥)، والمراسيل لابن أبي حاتم (٩)، وجامع التحصيل (١٤٢)، ونصب الراية (٤/ ٣٦٣).

(٧) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧١)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٣٤)، والثقات (٤/ ٩).

قال أبو حاتم: إبراهيم أدرك أنسًا، ولم يسمع منه[١].

وقال الذهبي: ولم نجد له سماعًا من الصحابة المتأخرين، الذين كانوا معه بالكوفة، كالبراء، وأبي جحيفة، وعمرو بن حريث. . . ، ثم قال: مع عدِّهم كلهم لإبراهيم في التابعين، ولكنه ليس من كبارهم، وكان بصيرًا بعلم ابن مسعود[٢]، ولم يلقه، إنما أخذه عن كبار أصحابه[٣]. وعدّه أهل التراجم والسير في الطبقة الثانية الوسطى من طبقات التابعين، مع طبقة الحسن، ومجاهد[٤].

وقال ابن الجوزي: أدرك إبراهيم أبا سعيد الخدري، وعائشة، وعامة ما يروي عن التابعين، كعلقمة، ومسروق، والأسود[٥].

وكان (رحمه الله) أعلم الناس بابن مسعود برأيه[٦]. وفتياه، وألزم الناس بمذهبه، كما كان من أعلمهم بمذهب أصحابه الملازمين له.

يقول ابن المديني: كان إبراهيم عندي من أعلم الناس بأصحاب عبد الله وأبطنهم به[٧].

وقد عُرف له قدره عند أصحاب عبد الله، وعند تلاميذ المدرسة الكوفية[٨].

ومدرسة الكوفة في جملتها تورعت، وعظمت القول في التفسير، فقل نتاجها،

---

(١) المراسيل لابن أبي حاتم (٩)، والجرح (٢/ ١٤٤).
(٢) السير (٤/ ٥٢٠).
(٣) الفتح (٤/ ١٧٥).
(٤) عده الذهبي في الطبقة الثانية. يُنظر المعين في طبقات المحدثين (٣٧)، والتذكرة (٧٣)، وطبقات الحفاظ (٢٩).
(٥) المنتظم (٧/ ٢٢)، وصفة الصفوة (٣/ ٨٩).
(٦) نصب الراية (٤/ ٣٥٨)، وقواعد في علوم الحديث للتهانوي (١٣٦).
(٧) العلل لابن المديني (٤٣)، والجرح (٢/ ١٤٥).
(٨) التعديل والتجريح (١/ ٣٥٨).

ولم أجد مادة من تفسير أصحاب ابن مسعود المعاصرين له، إلا النزر اليسير الذي يصعب الاعتماد عليه، أو استخراج منهج من خلال النظر فيه[١].

إلا إنني وجدت الذين جاءوا بعد أصحاب ابن مسعود، ومن أشهرهم: إبراهيم النخعي، والشعبي، كان لهم بعض الأثر في علم التأويل؛ ولذا آثر اختيارهما لتمثيل هذه المدرسة.

وإبراهيم كان أقرب إلى منهج شيخ المدرسة، وأصحابه؛ لقلة أسفاره، ولعنايته وملازمته أصحاب عبد الله، لا سيما علقمة الذي كان أشبه الناس بابن مسعود هديًا، وسمتًا، ودلاً[٢]، والذي انتهى في علمه وفتواه إلى قول عبد الله[٣].

ومع عدم إدراك إبراهيم والشعبي لعبد الله بن مسعود، إلا إنهما من أعلم أهل الكوفة بمذهبه، كما أشار إلى ذلك ابن المديني[٤].

أسباب قلة المروي عنه في التفسير:

وعند الرجوع إلى تفسيره، ومقارنته بغيره، نجد أن اهتمامه بل وتعرضه لعلم التفسير كان قليلاً[٥]، وأحسب أن ثمة أسبابًا كانت وراء قلة المروي عنه في هذا الباب، ولعل من أهمها:

١ ـ هيبته وتورعه عن القول في تفسير القرآن:

فقد تأثر إبراهيم في ذلك بأصحابه من الكوفيين، وكان يقول: كان أصحابنا

(١) المروي من تفسير إبراهيم عند ابن جرير بلغ (٦٠٨) أقوال، وعن الشعبي (٤٦١) قولا، في حين كان المروي عن أصحاب ابن مسعود والملازمين له، لم يبلغ عند أكثرهم (٤٠) قولاً. وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن مدرسة الكوفة.

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٦)، والمعرفة (٢/ ٥٥٣، ٥٥٤)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٩٧).

(٣) المعرفة (٢/ ٥٥٧).

(٤) العلل لابن المديني (٥٢)، والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٥٥).

(٥) إذا ما قورن بالمكثرين من التابعين: كمجاهد، وقتادة، والسدي.

يكرهون تفسير القرآن، ويهابونه[١] .

والمراجع لتفسيره يلمس هذا، فكثيراً ما كان يصدّر تأويله للآية بقوله: كان يقال كذا، أو يقولون كذا، ويكرهون كذا.

ويشهد لذلك ما جاء عنه في تأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾[٢] . قال: كان يقال: ليس المعروف بلبس الكتان والحلل، ولكن المعروف ماسدَّ الجوع ووارى العورة[٣] .

ومن ذلك أيضًا ما جاء عنه عند قول الحق سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ** ﴾[٤] قال إبراهيم: كان يقال: إنما الصدقات لفقراء المهاجرين[٥] .

ومنه أيضًا ما ذكره عند تفسيره لقوله جل ثناؤه: ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[٦] . قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لعمري، يرونه كقوله: وحياتي[٧] .

ومما يشهد لما سبق أيضًا، ما أثر عنه من كراهيته للسؤال، وحب الخفاء، والبعد عن

(١) الحلية (٤/ ٢٢٢)، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٤٣٥) ٢٢٨٦ .

(٢) سورة النساء: آية (٦).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٥٨٧) ٨٦٢٧، وتفسير البغوي (١/ ٣٩٦) وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٥).

(٤) سورة التوبة: آية (٦٠).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٣٠٧) ١٦٨٢٩، ١٦٨٣٢، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٧٤)، وتفسير البغوي (٢/ ٣٠٣)، وتفسير ابن عطية (٨/ ٢١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٥٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٦).

(٦) سورة الحجر: آية (٧٢).

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٤٤)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن إبراهيم به (٥/ ٩٠)، وينظر تفسير ابن عطية (١٠/ ١٤٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٨)، ولمزيد من الأمثلة، يراجع تفسير الطبري الآثار: ٨٨٦٤، ١٢٦٥٤، ١٧٧٤٩، (٢٧/ ٨٣).

الشهرة، يقول الإمام الذهبي في صدر ترجمته: وكان عجبًا في الورع والخير، متوقيًا للشهرة[١].

وعن أبي حصين قال: أتيت أسأل إبراهيم فقال: ما كان بيني وبينك أحد تسأله غيري[٢].

وعن منصور بن المعتمر قال: ما سألت إبراهيم قط عن مسألة إلا رأيت الكراهية في وجهه، يقول: أرجو أن تكون، وعسى[٣]. وكان كثيرًا ما يحتقر نفسه، ويزدريها؛ فعنه قال: وددت أني لم أكن تكلمت، ولو وجدت بدًا من الكلام ما تكلمت، إن زمانًا صرت فيه فقيهًا لزمان سوء[٤].

وكان من شدة تواضعه ـ رحمه الله ـ يكره الاستناد إلى سارية، ويرى أن ذلك للعلماء، وليس له، يقول الأعمش: جهدنا بإبراهيم أن نُجلسه إلى سارية فأبى[٥].

٢ ـ تشدده في قبول الرواية:

ولم يكن ورعه وخوفه هذا، في التفسير، والفقه فحسب، بل نجد هذه الصفة أكثر ما تكون وضوحًا عند روايته لحديث المصطفى ﷺ، فقد كان من أكثر الناس نقدًا وشدة في قبول الأخبار، وروايتها، يقول الأعمش: كان إبراهيم صيرفيًا في الحديث[٦]؛ ولذا

---

(١) الكاشف (١/ ٩٦)، والتذكرة (١/ ٧٤).
(٢) العلم لأبي خيثمة (١٤٠)، والحلية (٤/ ٢٢٦)، وصفة الصفوة (٣/ ٨٨).
(٣) الحلية (٤/ ٢٢٠)، والعلم لأبي خيثمة (١٢٧).
(٤) الحلية (٤/ ٢٢٣)، وسنن الدارمي (١/ ٦٦)، والمنتظم (٧/ ٢١).
(٥) العلل لأحمد (١/ ١٧٨) ١٣١، ١٣٢، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٣)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٦٤)، والمعرفة (٢/ ٦٠٦).
(٦) العلل لأحمد (١/ ٤٢٨) ٩٤٦، والحلية (٤/ ٢٢٠)، والمعرفة (٢/ ٦٠٧)، والإرشاد (٢/ ٥٥٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٤٦)، وطبقات الحفاظ (٢٩).

كان الأعمش إذا سمع الحديث عن بعض أصحابه عرضه على إبراهيم[١] .

وكان يقول عنه : ما رأيت أحداً أردّ لحديث لم يسمعه من إبراهيم[٢] .

ويشهد لذلك، أنه رد كثيراً من أحاديث أبي هريرة، إلا ما جاء عن طريق أبي صالح (السَّمان)[٣] .

وكان شديداً في قبول الرواة، وقد ترك ما جاء من حديث أصحاب علي لاتهامه إياهم؛ فقد سئل مرة وقيل له : أدركت أصحاب عبد الله وأصحاب علي، فكيف أخذت عن أصحاب عبد الله، وتركت أصحاب علي؟ قال : أتهم أصحاب علي[٤] .

وعن الأعمش قال : قال إبراهيم : إنما سئل عن الإسناد أيام المختار، وسبب هذا أنه كثر الكذب على علي في تلك الأيام[٥] .

ومما يدل على حرصه في انتقاء الرجال، وتشدده في قبولهم، أنه على الرغم من عدم إدراكه لأحد من الصحابة، وكثرة إرساله، إلا أن الأئمة عدّوا مراسيله من أقوى المراسيل؛ لأنه لا يأخذ عن كل أحد، إنما ينتقي في رواياته؛ لذا فقد قبل الإمام أحمد مراسيله، وعدّ مراسيل غيره، كالحسن وعطاء، من أضعف المراسيل[٦] .

بل إن ابن معين فضل مراسيل إبراهيم على مراسيل أشهر التابعين كابن المسيب، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر[٧] .

(١) الحلية (٤/ ٢٢٠)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٤٦).
(٢) الحلية (٤/ ٢٢١)، والجرح (٢/ ١٤٥)، والسير (٤/ ٥٢٨).
(٣) العلل لأحمد (١/ ٤٢٨) ٩٤٦، والحلية (٤/ ٢١٩).
(٤) المعرفة (٣/ ١١٧).
(٥) العلل لأحمد (٣/ ٣٨٠) ٥٦٧٣، وشرح علل الترمذي لابن رجب (٦٣).
(٦) سبقت الإشارة إلى ذلك في ترجمة الحسن، وعطاء.
(٧) معرفة الرجال لابن معين (١/ ١٢٠)، وشرح علل الترمذي لابن رجب (١٨١)، والنكت على ابن الصلاح (٢/ ٥٥٥، ٥٥٦)، وقواعد في علوم الحديث للتهانوي (١٥٠).

ومع شدة الاحتياط عنده في تمحيص الروايات، فإنه كان يفضل رواية آثار الصحابة على نقل أحاديث المصطفى ﷺ، ويرجع سبب ذلك إلى خوفه من الخطأ في حديث رسول الله ﷺ؛ فعن حماد بن زيد عن أبي هاشم قال: قلت لإبراهيم: يا أبا عمران، أما بلغك حديث عن النبي ﷺ تحدثنا؟ قال: بلى، ولكن أقول: قال عمر، وقال عبد الله، وقال علقمة، وقال الأسود، أجد ذاك أهون عليّ[١].

٣ ـ انصرافه للفقه وعنايته بالأحكام الفقهية:

فقد عني إبراهيم بالفقه والإفتاء، عناية كبيرة أكثر من اهتمامه بالتفسير، فاستنفد فيهما وسعه، وأفرغ فيهما جهده، حتى عدّ فقيه العراق في زمنه بالاتفاق.

والمراجع لترجمته في كتب السير، والتراجم، يجد أن كثيراً من الأئمة يصدرون ترجمته بقولهم: فقيه العراق[٢]، فقيه الكوفة[٣] ومفتيها[٤].

يقول النووي: وقد أجمعوا على جلالته، وبراعته في الفقه[٥].

وقد أثنى عليه الشعبي عند وفاته بقوله: والله ما ترك بعده مثله، قال ابن عون: قلت: بالكوفة؟ قال: لا بالكوفة، ولا بالبصرة، ولا بالشام، ولا بكذا، ولا بكذا[٦].

وعند النظر في تفسيره نجد شاهد ذلك؛ فقد اهتم ـ رحمه الله اهتماماً بيّناً بتفسير

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٢).
(٢) العبر (١/ ٨٥)، والشذرات (١/ ١١١).
(٣) التعديل والتجريح (١/ ٣٥٨)، ودول الإسلام (٦٥)، وطبقات الحفاظ (٢٩).
(٤) تاريخ الثقات للعجلي (٥٧)، والتهذيب (١/ ١٧٧)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٥).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات(١/ ١٠٤).
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٨٤)، والحلية (٤/ ٢٢٠)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٣٤)، والمعرفة (١/ ٢٢٢)، (٢/ ٦٠٨).

أيات الأحكام ، حتى إنها زادت على ثلث المنقول عنه في التفسير[١] ، وكان بذلك من أكثر التابعين على الإطلاق عناية بآيات الأحكام تفسيراً وتفصيلاً لها ، مما يؤكد أن من أسباب انصرافه عن التفسير هو الاشتغال بعلم الفقه ؛ ولذا فقد عني الأئمة من الفقهاء بنقل آثاره في كتبهم[٢] .

ومما تبين لي بعد مراجعتي للمروي عنه في تفسير آيات الأحكام ، أنه تبع ابن مسعود في كثير من المسائل الفقهية ، ونقل آراءه عند تأويله لتلك الآيات ، بل وعني بنقل تفسيره عمومًا أكثر من عناية الشعبي بذلك[٣] .

٤ ـ كراهيته للكتابة :

فقد كره ـ رحمه الله ـ الكتابة ، وكان ينهى عنها خشية أن يشتبه بالمصاحف ، وكان يقول : ما كتبت شيئًا قط[٤] .

ويقول : ما كتب إنسان كتابًا إلا اتكل عليه[٥] .

وكان يكره الكتابة في الكراريس[٦] ويقول : يشبه بالمصاحف[٧] .

---

(١) بعد مراجعتي لتفسير الطبري ، بلغت نسبة المروي عنه في تفسير آيات الأحكام (٠,٣٨) من مجموع تفسيره ، في حين كانت عن سعيد بن المسيب ما نسبته (٠,٣٤) ، وعن عطاء بن أبي رباح (٠,٣٣) ، وعن الشعبي (٠,٢٣) ، وعن الحسن (٠,١١) ، وعن سعيد بن جبير (٠,٠٩) من مجموع تفسيرهم ، وغيرهم من التابعين دونهم في هذا .

(٢) وقد رجعت إلى كتاب المغني فوجدت أن إبراهيم قد احتل المرتبة الثالثة بعد الحسن وعطاء في كثرة ما روي عنه من مسائل فقهية .

(٣) بعد مراجعتي لتفسير ابن مسعود عند الطبري وجدت أن (٠,٠٩) من مجموع تفسيره جاء من رواية إبراهيم ، في حين بلغ المروي من طريق الشعبي (٠,٠٢) فقط من مجموع تفسيره .

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٠) ، وتاريخ ابن معين (٢/ ١٦) ، والمعرفة (٢/ ٦٠٩) .

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧١) ، والسير (٤/ ٥٢٢) .

(٦) العلل لأحمد (١/ ٢١٧) ٢٤٨ ، (١/ ٥٣٢) ١٢٥٣ ، وتقييد العلم (٤٨) .

(٧) سنن الدارمي (١/ ١٢٠ ، ١٢١) .

وقد أثر هذا في حديثه، وعلمه، حتى إن منصور بن المعتمر سأل إبراهيم فقال: إن سالمًا أتمَّ منك حديثًا، قال: إن سالمًا كان يكتب[١].

٥ ـ ورود اللحن في كلامه:

ولعل هذا من الأسباب الرئيسة ـ التي جعلت إبراهيم قليل التعرض لتفسير آيات الكتاب العزيز ـ كثرة لحنه؛ إذ لا يخفى أن من يكثر اللحن في كلامه يخشى أن يتسرب اللحن منه إلى القرآن الكريم.

قال خالد بن سلمة المخزومي: لقد رأيت إبراهيم النخعي، فرأيت رجلاً لحانًا[٢].

وعن عاصم بن بهدلة قال: كان إبراهيم رجل صدق، ولو سمعته يقرأ، قلت: ما يحسن هذا شيئًا[٣].

ولذا قال الذهبي عنه: وكان لا يحكم العربية، وربما لحن[٤].

٦ ـ ما وقع له من الفتن، وتقدم وفاته:

لقي إبراهيم من ظلم الحجاج ما لقي، واختفى عن أعين الناس بسبب بحث الحجاج عنه، حتى إنه ـ رحمه الله ـ كان لا يصلي في جماعة، مخافة سطوة ذاك الظالم[٥]، وكان يفسر قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[٦]، بقوله: خافوا فأمروا أن يصلوا في بيوتهم[٧].

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢٣)، ومعرفة الرجال (٢/ ٢٥)، والمحدث الفاصل (٣٧٤)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٩/ ٤١٢٢).
(٢) العلل لأحمد (١/ ٣٤٨) ٦٤٨.
(٣) العلل لأحمد (١/ ٣٤٨) ٦٤٩، (٢/ ٢٤٩) ٢١٤٨.
(٤) الميزان (١/ ٧٥).
(٥) كتاب المتوارين الذين اختفوا خوفًا من الحجاج (٥٠).
(٦) سورة يونس: آية (٨٧).
(٧) الحلية (٤/ ٢٣١).

ولما توفي دفن ليلاً، ولم يحضر جنازته إلا سبعة[١] .

وكانت وفاته سنة ست وتسعين[٢] ، وعمره ثمان وأربعون ، وقيل : تسع وأربعون سنة[٣] .

خصائص تفسيره :

بعد استعراض أهم الأسباب التي كانت وراء قلة المنقول عنه في التفسير ، ومع قلتها إلا أننا نجد عند قراءة سيرته ، وتتبع آثاره ، أن ثمة خصائص ، وصفات تميز بها هذا الإمام بين أصحابه ، كان لها الأثر في حفظ ونقل بعض آثاره التي وصلت إلينا ، ومن أهمها :

١ ـ جمعه بين الرواية ، والدراية :

فمدرسة الكوفة قد غلب عليها الرأي ، والقياس ، ولم يخرج إبراهيم النخعي عن النهج ، فقد كان إلى فقهاء الرأي أقرب ، لكنه مع هذا تميز بالجمع بين العلمين ، فكان يقول : لا يستقيم رأي إلا برواية ، ولا رواية إلا برأي[٤] .

ولما بلغ الشعبي موت إبراهيم ، قال عنه : ما خلف بعده مثله ، ثم قال : والعجب أنه يفضل ابن جبير على نفسه ، وسأخبركم عن ذلك ، إنه نشأ في أهل بيت فقه ، فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفوة حديثنا إلى فقه أهل بيته ، فمن كان مثله[٥]؟ .

---

(١) المعارف (٢٠٤)، وتهذيب الكمال (٢/ ٢٣٨)، والشذرات (١/ ١١١).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٨٤)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٣٤)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٩٣)، وتاريخ الثقات للعجلي (٥٧)، وطبقات خليفة (١٥٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٦٦) ١٥٧٨١ ، وطرح التثريب (١/ ٣٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٨) ١٥٧٥٥ ، ورجال صحيح البخاري (١/ ٦٠)، وتهذيب الكمال (٢/ ٢٣٨)، والمنتظم (٧/ ٢٢).

(٤) الحلية (٤/ ٢٢٥)، وصفة الصفوة (٣/ ٨٨).

(٥) العلم لأبي خيثمة (١١٦)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤١٣)، والحلية (٤/ ٢٢١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧١).

٢ ـ تفوقه في الاجتهاد، وقدرته على الاستنباط :

فقد كان إبراهيم من أوائل التابعين، الذي سلكوا هذا المسلك، وتوسعوا فيه، ساعده على ذلك تمتعه بدرجة عالية من الذكاء والفطنة والأخذ بأدوات الاجتهاد، مما رسخ عنده القدرة على الاستنباط، والقياس.

يقول الإمام أحمد: وكان إبراهيم ذكيًا حافظًا[١].

ويقول حماد بن أبي سليمان: ما رأيت أحدًا قط كان أحضر قياسًا من إبراهيم[٢].

ولما سأل الحسن بن عبد الله النخعي، قال: قلت لإبراهيم: كل ما تفتي به سمعته؟! قال: لا، ولكن سمعت، فقست ما لم أسمع بما قد سمعته[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: كان أفقههم في زمانه إبراهيم النخعي، كان بمنزلة سعيد بن المسيب في أهل المدينة، وكان يقول: إني لأسمع الحديث الواحد، فأقيس به مائة حديث[٤].

وقد حمل عنه العلم في سن مبكرة من عمره، وهو ابن ثماني عشرة سنة[٥]. وقد سما بهذه العقلية إلى أن صار فقيه العراق بلا منازع، ففاق أقرانه في استنباط الأحكام الشرعية مما لم يرد فيه نص.

فهو بحق المرسي الأول لقواعد مدرسة الرأي بالكوفة، التي وضعت أساس مذهب مستقل لمنهج البحث الفقهي.

ولذا كان أصحابه يرجعون إليه؛ لأخذ رأيه فيما يجدُّ من حوادث ومسائل، فعن

(١) السير (٤/ ٥٢٩)، وتاريخ الإسلام (ح ٩٦ هـ/ ٢٨٢).
(٢) العلل لأحمد (١/ ٢٥٣) ٣٥٥.
(٣) المعرفة والتاريخ (٢/ ٦٠٩)، والفقيه والمتفقه (١/ ٢٠٣).
(٤) الفتاوى الكبرى (٣/ ٢٢٧)، والرفع والتكميل (٨٧).
(٥) المعارف (٢٠٤)، وعيون الأخبار (١/ ٢٣٠)، والمنتظم (٧/ ٢٠).

إسماعيل بن أبي خالد قال: كان الشعبي، وإبراهيم، وأبو الضحى يجتمعون في المسجد، فإذا جاءهم شيء، ليس عندهم فيه رواية، رموا إبراهيم بأبصارهم[١].

وقد جاءت عامة اجتهاداته في تأويل آيات الحلال والحرام، فمن ذلك ما جاء عند تأويله لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[٢] قدم ذلك بقوله: فيما أرى، في الرجل يخرج محاربًا، قال: إن قطع الطريق وأخذ المال: قطعت يده ورجله، وإن أخذ المال وقَتل: قُتل، وإن أخذ المال وقتل ومثّل: صُلب[٣].

وأحسب أن كثرة اشتغال إبراهيم بالرأي، والقياس، جعلت حظه من الاشتغال بالأثر والنقل قليلاً؛ ولذا نجد هذا واضحًا في تفسيره؛ إذ كان من أقل التابعين اعتمادًا على تفسير القرآن بالسنة، أو بأسباب النزول[٤].

٣ ـ حرص أصحابه على نشر علمه:

وهذا مما ميز إبراهيم على غيره من أقرانه في الكوفة، وقد أشار الشعبي إلى هذا، فعن ابن شبرمة قال: لما مات إبراهيم جلس حماد بن أبي سليمان يبث علمه، فقال: قال إبراهيم، قال إبراهيم، فقال عامر الشعبي: والله لإبراهيم ميتًا أفقه منه حيًا[٥].

وقد بلغ حرص أصحابه على نشر علمه إلى حد أن تخصص بعضهم في النقل

---

(١) تاريخ ابن معين (٢/ ١٧)، والجرح (٢/ ١٤٤)، والحلية (٣/ ٢٢١)، والإرشاد (٢/ ٥٥٧).

(٢) سورة المائدة: آية (٣٣).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٢٥٨) ١١٨٣١، وتفسير البغوي (٢/ ٣٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٩٩).

(٤) بعد مراجعتي لتفسيره عند الطبري، وجدته من أقل التابعين اعتمادًا على هذين المصدرين، فقد كان المروي عنه في ذلك أقل من (٠,٠١) من مجموع تفسيره، وقريبًا من هذا كانت حاله في الاعتماد على أسباب النزول؛ حيث بلغت نسبة المروي عنه (٠,٠١) من مجموع تفسيره، مسجلاً بذلك أقل نسبة بين التابعين.

(٥) العلل لأحمد (٣/ ٢٠٦) ٤٨٨٤.

والرواية لجل تفسيره، ومن أبرزهم مغيرة بن مقسم الذي نقل ما يزيد عن ثلث تفسيره، وكان من أعلم الناس بإبراهيم. كما قال ابن المديني[١].

ونُقل ما يزيد عن ربع تفسيره من رواية منصور بن المعتمر، الذي كان من أثبت الناس في حديثه عن إبراهيم. قاله يحيى بن سعيد[٢].

وكان لهذا الحرص من أصحابه الأثر البالغ في كثرة المروي عنه.

٤ ـ إعراضه عن الرواية عن أهل الكتاب :

وهذه سمة ظاهرة عند مفسري الكوفة؛ إلا أن إبراهيم تميز بمزيد حذر وبُعد، فلم أجد له بعد مراجعتي لتفسيره في هذا شيئًا يذكر[٣].

هذه بعض أهم الأسباب التي أثرت في نتاج الرواية عنه، وكذا أهم المميزات، التي امتاز بها إبراهيم، وفاق فيها غيره.

* * *

(١) المعرفة (٣/ ١٤).

(٢) المعرفة (٣/ ١٢)، وشرح علل الترمذي لابن رجب (٢٩٣).

(٣) ورد عنه رواية واحدة عند الطبري عند قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ القصص: آية (٧٩)، قال: في ثياب حمر (٢٠/ ١١٥).

سعيد بن المسيب

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المدني[١] ، يكنى أبا محمد[٢] .

ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر رضي الله عنه[٣] ، وعداده في الطبقة الأولى من كبار التابعين[٤] .

روى عن أبي بكر مرسلاً، وعن عمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وحكيم بن حزام، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبي موسى، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت عُميس وغيرهم[٥] .

وعن الزهري قال: أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، ودخل على أزواج النبي ﷺ: عائشة، وأم سلمة،

---

(١) طبقات خليفة (٢٤٤)، والأنساب (٨/ ٣٣١)، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ٣٠٧)، والتحفة اللطيفة (٢/ ١٥٨).

(٢) الكنى لأحمد (١١٧)، والكنى لمسلم (٩٥ ق)، والكنى للدولابي (٢/ ٩٦)، ومعرفة الرجال لابن معين (٢/ ١٦٥).

(٣) تاريخ خليفة (١٣٤)، والعلل لأحمد (١/ ١٥٠) ٤٨، ورجال صحيح البخاري (١/ ٢٩٢)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ١٦٩)، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١١٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ١١٩)، والمعين في طبقات المحدثين (٣٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٨).

(٥) تهذيب الكمال (١١/ ٦٧)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٨٤).

وكان قد سمع من عثمان، وعلي، وصهيب[١] ، وجل روايته المسندة عن أبي هريرة[٢]، وكان زوج ابنته[٣] .

وكان سعيد يختلف ويتردد على أبي هريرة بالشجرة[٤] ، وكان أعلمهم بحديثه[٥]، وأثبتهم فيه[٦] .

وكان يقال له : راوية عمر ؛ لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته[٧] .

وكان ابن عمر يرسل إليه في أحاديث عمر ؛ لأن سعيداً قد نصب نفسه لقول عمر فلم يجزه[٨] .

وسئل الإمام مالك عن سعيد بن المسيب : هل أدرك عمر؟ قال : لا ، ولكنه ولد في زمان عمر ، فلما كبر أكب على المسألة عن شأنه ، وأمره ، حتى كأنه رآه[٩] .

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه ، عن سعيد بن المسيب قال : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ، وكل قضاء قضاه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكل قضاء قضاه

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، ومرآة الجنان (١/ ١٢٤).

(٢) التعديل (٣/ ١٠٨٢)، والتذكرة (١/ ٥٥)، والشذرات (١/ ١٠٣).

(٣) المعارف (١٩٣)، ورجال صحيح مسلم (١/ ٢٣٧)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ١٦٨).

(٤) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٦٩)، والرحلة للخطيب (٥٨)، وقال الخطيب : والشجرة هي ذو الحليفة.

(٥) رجال صحيح مسلم (١/ ٢٣٧)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، وإعلام الموقعين (١/ ١٧) ومرآة الجنان (١/ ٢١٥).

(٦) تهذيب الكمال (١١/ ٧٤)، والبداية (٩/ ١١١)، وطبقات الحفاظ (١٨).

(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١)، والمعرفة (١/ ٤٧١)، وتهذيب الكمال (١١/ ٧٤)، والتهذيب (٤/ ٨٦).

(٨) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٤)، وتهذيب الكمال (١١/ ٧٤)، والبداية (٩/ ١١).

(٩) المعرفة (١/ ٤٦٨)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٤)، والتهذيب (٤/ ٨٦).

عمر ـ رضي الله عنه ـ وكل قضاء قضاه عثمان ـ رضي الله عنه ـ مني[١] .

وقد قرأ القرآن الكريم على ابن عباس، وأبي هريرة[٢] .

أسباب قلة المروي عنه في التفسير :

ومن خلال النظر في تفسير سعيد، وقراءة سيرته، نجد أنه من أقل مشاهير التابعين تعرضًا للتفسير[٣] ، ولعل من أهم الأسباب التي كانت وراء ذلك ما يلي :

١ ـ تعظيمه للتفسير ، وشدة ورعه فيه :

فبالرغم من سبق هذا الإمام في علم الفقه، والأثر؛ إلا أنه أحجم عن الخوض في هذا الباب، وتورع فيه غاية التورع، فعن يزيد بن أبي يزيد قال: كنا نسأل سعيدًا عن الحلال، والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع[٤] .

بل كان يصرح بذلك؛ فعن يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: أنا لا أقول في القرآن شيئًا[٥] .

قال الإمام الذهبي: ولهذا قلَّ ما نُقل عنه في التفسير[٦] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢٠)، والمعرفة (١/ ٤٦٨)، والتاريخ الكبير (٣/ ٥١١)، والمنتظم (٦/ ٣٢٠)، والشذرات (١/ ١٠٢).

(٢) الغاية (١/ ٣٠٨).

(٣) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، بلغ مجموع ما روي عنه (١٨١) قولاً، منها (٧٢) قولاً في تفسير آيات الأحكام، أي: ما نسبته (٣٤,٠) من مجموع تفسيره فلم يبق إلا (١٠٩) أقوال.

(٤) تفسير الطبري (١/ ٨٦) ١٠٠، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٨٥) ٩٤، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٣٧)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).

(٦) السير (٤/ ٢٤٢).

وكان ـ رحمه الله ـ لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن[١] .

وكان ينكر على المكثرين في التفسير ؛ لما قدم عكرمة المدينة ، ورأى سعيد توسعه ، أنكر عليه ؛ يقول عمرو بن مرة : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن ، فقال : لا تسألني عن القرآن ، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه ـ يعني عكرمة[٢] .

وكان ـ رحمه الله ـ ورعًا ، حتى عند إفتائه لسائله ؛ فلا يكاد يفتي فتيا ، ولا يقول شيئًا إلا قال : اللهم سلمني وسلم مني[٣] .

٢ ـ اشتغاله بالفقه ، والإفتاء :

بذل ـ رحمه الله ـ في هذا الباب من العلم جلَّ جهده ، وصرف فيه كثيراً من طاقته ، حتى عدَّ بين التابعين فقيه الفقهاء[٤] ، وكان رأس من بالمدينة في دهره ، والمقدم عليهم في الفتوى[٥] .

وقال غير واحد من أهل العلم : إنه أفقه أهل الحجاز[٦] ، وقال عنه مكحول : سعيد عالم العلماء[٧] ، وكان يقول : طفت الأرض كلها ، فما رأيت أعلم من سعيد[٨] .

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٦) ٩٥ ، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧) .

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨٦) ١٠١ ، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨) ، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧) ، وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٩) ، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٤) .

(٣) التاريخ الكبير (٣/ ٥١١) ، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠) ، وتهذيب الكمال (١١/ ٧٢) .

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١) ، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠) ، والمنتظم (٦/ ٣٢١) ، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦) ، والبداية (٩/ ١١١) ، وطبقات الحفاظ (١٨) ، والنجوم (١/ ٢٢٨) .

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١) ، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠) ، وتهذيب الكمال (١١/ ٧١) ، وطبقات الحفاظ (١٨) .

(٦) المعارف (١٩٣) ، والثقات (٤/ ٢٧٤) ، والمنتظم (٦/ ٣١٩) ، والتهذيب (٤/ ٨٧) .

(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١) ، والمنتظم (٦/ ٣٢١) ، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦) ، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٨) .

(٨) العلل لأحمد (٣/ ٣٢٠) ٥٤٢٤ ، والتاريخ الكبير (٣/ ٥١١) ، والجرح (٤/ ٦٠) ، والعبر (١/ ٨٢) ، والتحفة اللطيفة (٢/ ١٥٩) .

وكان ـ رحمه الله ـ يفتي وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء[١] . وقال نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: هو والله أحد المفتين[٢] .

وعن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه قال: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهل المدينة، فدفعت إلى سعيد بن المسيب[٣] .

وقال قتادة: ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام من سعيد[٤] .

وعن سليمان بن موسى قال: سعيد بن المسيب أفقه التابعين[٥] .

وقد اتضح اهتمامه بالأحكام الفقهية في عنايته بتأويل آيات الأحكام خاصة؛ حيث بلغ ذلك أكثر من ثلث تفسيره[٦] ، وهو يدور بوجه أخص حول أحكام النساء، ومسائل الطلاق[٧] .

فعن خصيف بن عبد الرحمن قال: كان أعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالطلاق

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١)، والمنتظم (٦/ ٣٢٠).

(٢) طبقات علماء الحديث (١/ ١١٣)، وتهذيب الكمال (١١/ ٧٠)، والتذكرة (١/ ٥٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢٢)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٣)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٨٢)، وتهذيب الكمال (١١/ ٧٠).

(٤) الجرح (٤/ ٦٠)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، والعبر (١/ ٨٢)، وطبقات الحفاظ (١٨).

(٥) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٧١٢)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، والتهذيب (٤/ ٨٥).

(٦) جاء في المرتبة الثانية بعد النخعي؛ حيث بلغ نسبة ما روى عنه (٠,٣٤) من مجموع تفسيره، في حين كان عن إبراهيم (٠,٣٨) من مجموع تفسيره، وغيرهم من التابعين أقل منهم في ذلك.

(٧) حيث بلغ (٠,٧٠) من مجموع تفسيره لآيات الأحكام، حول مسائل النكاح.

سعيد بن المسيب[١] .

ومما تميز به في هذا الجانب . أنه جمع بين الرأي، والأثر؛ يقول زين العابدين علي ابن الحسين : سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدمه من الآثار، وأفقههم في رأيه[٢] .

وليس هذا بمستغرب على مثل هذا الإمام، فإنه قد جمع السنن والآثار بملازمته لأبي هريرة، وإكثاره من الرواية عنه، حتى كان من أعلمهم بحديثه، ثم أضاف إلى ذلك علم عمر وفقهه ـ رضي الله عنه ـ حتى كأنه رآه، لكثرة ما كان يعلم من حاله وشأنه وقضائه، بل وصار ابن عمر يرسل إليه يسأله عن حديث عمر وقضائه ـ رضي الله عن الجميع[٣] ..

٣ ـ قلة تحديثه ، وهيبة الناس له :

ومما قلل نتاجه في التفسير وغيره، هيبته وشدته ، يقول الإمام مالك : وكان ابن المسيب رجلاً شديداً[٤] ، وكان لا يُتجرأ عليه[٥] .

وكان ابن شهاب الزهري يقول : لقد كنا نجلس إلى ابن المسيب، فما يستطيع أحد منا أن يسأله عن شيء إلا أن يبتدئ الحديث، أو يأتي رجل، فيسأله عن أمر قد نزل به، وقد طالت مجالستنا إياه حتى ما كنا نسمع منه إلا الجواب[٦] .

ويقول أيضًا : لم نكن نقدر منه على الحديث إلا أن نأتيه فنقول : قالوا : كذا وكذا[٧] .

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥١٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١)، والمعرفة (١/ ٤٧١، ٤٧٥، ٦٢٢)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).
(٣) التحفة اللطيفة (٢/ ١٥٩)، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٦)، والمعرفة (١/ ٥٤٩).
(٥) المعرفة (١/ ٥٤٩).
(٦) المعرفة (١/ ٦٢٤).
(٧) العلل لأحمد (٣/ ١٥٣) ٤٦٧٥، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٥١٧).

٤ ـ عدم تركه كتبًا :

وهذا مما جعلنا نفقد بعض علمه ـ رحمه الله ـ يقول الإمام مالك : ومات ابن المسيب، والقاسم، ولم يتركوا كتابًا، ومات أبو قلابة، فبلغني أنه ترك حمل بغل كتبًا[١] .

فهذا المنهج كان غالبًا في المدينة، فهذا يحيى بن سعيد أحد رواة تفسير سعيد يقول : أدركت الناس يهابون الكتب، ولو كنا نكتب يومئذ لكتبنا من علم سعيد ورأيه، شيئًا كثيراً[٢] .

٥ ـ النهي عن مجالسته :

امتنع سعيد عن بيعة سليمان بن عبد الملك مع بيعة الوليد، وكره أن يبايع بيعتين، فأمر به عبد الملك، وجلد مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وألبسه ثيابًا من شعر[٣]، ومنع الناس من مجالسته. فعن أبي يونس القزي، قال : دخلت مسجد المدينة، فإذا سعيد جالس وحده، فقلت : ما شأنه؟ قال : نهي أن يجالسه أحد[٤] .

هذه الأسباب مجتمعة كانت وراء قلة المروي عنه في التفسير وغيره.

الجانب الأثري الروائي عند سعيد، وأثره في التابعين :

ومما ينبغي تسجيله، والإشارة إليه عند الحديث عن هذا الإمام، أن ثمة معالم بارزة في شخصيته اتصف بها، وانفرد، وكان لها الأثر فيمن جاء بعده من مشاهير مفسري التابعين : كالحسن، وقتادة، ومكحول، وغيرهم.

---

(١) المعرفة (١/ ٤٧٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ١٤١)، والمعرفة (١/ ٦٤٩).

(٣) المنتظم (٦/ ٣٢٢).

(٤) الحلية (٢/ ١٧٢)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٢٨)، والمعرفة (١/ ٤٧٨)، والتحفة اللطيفة (٢/ ١٥٩).

فقد كان لغلبة الجانب الأثري: والحديثي على منهجه بعد ملازمته الطويلة لأبي هريرة، ثم تقدمه في معرفة قضاء النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، بل وكثرة رحلاته في سماع الحديث[١] كان لذلك كله الأثر في اتفاق كلمة الأئمة على أنه من أفضل التابعين على الإطلاق[٢].

ولذا فالناظر في سيرته يجد أثره الواضح على العديد من أقرانه وأصحابه.

فهذا أحد أقرانه القاسم بن محمد، يقول عنه الإمام مالك: كان القاسم يُسأل عن الشيء، فيقول للذي يسأله: من سألت؟، فيقول الرجل: سألت عروة بن الزبير، وسألت فلانًا، وسألت فلانًا، فيقول له القاسم: هل سألت سعيد بن المسيب؟ فيقول: نعم. فيقول: ما قال؟، فيقول: قال كذا وكذا، فيقول له القاسم: فأطعه، فذلك سيدنا وأعلمنا[٣].

ولم يقتصر هذا الأثر على أصحابه، بل تجاوزهم ليشمل غيرهم من مشاهير مفسري المدارس الأخرى، ولا سيما مدرستا البصرة والشام، فقد كان لمنهجه، ومسلكه، وعلمه انتشار واسع في تلك البلاد، أكثر من غيره.

فهذا إمام البصرة الحسن بن أبي الحسن البصري: كان إذا أشكل عليه شيء، كتب فيه إلى سعيد بن المسيب[٤].

ويقول علي بن زيد: كنت إذا خرجت إلى مكة قال لي الحسن: سل لي سعيدًا عن كذا، وسل لي سعيدًا عن كذا، يعني ابن المسيب[٥].

(١) تهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٨٣)، والبداية (٩/ ١١١)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٥).
(٢) البداية (٩/ ١١١).
(٣) المعرفة (١/ ٤٦٩)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٤)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).
(٤) تهذيب الكمال (٧/ ١٠٧)، والتهذيب (٤/ ٨٦)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).
(٥) العلل لأحمد (٣/ ٣٢١) ٥٤٢٩.

ولذا فقد اتفق الحسن مع سعيد في كثير من المسائل الفقهية، فعن سلام بن مسكين قال: سمعت عمران يقول: قلّ ما كانا يختلفان في الفتيا وفي الشيء[١].

وممن كان في مقدمة من تأثر به أيضًا قتادة، حتى إنه كان من أكثر التابعين رواية لتفسيره، وجاء ما يزيد عن ثلث المروي عنه في التفسير من رواية قتادة[٢].

وقد رحل قتادة إلى سعيد بالمدينة، وأخذ عنه، حتى قال عنه سعيد: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة، وكان سعيد يثني عليه فيقول: ما كنت أظن الله خلق مثلك[٣].

وقد تأثر به قتادة، فتوسع في باب الناسخ والمنسوخ، وقال بنسخ كثير من آيات العفو والصفح[٤].

وكان قتادة يقدم سعيدًا في الفقه والحديث على غيره، فيقول: ما رأيت أحدًا قط أعلم بالحلال والحرام من سعيد بن المسيب[٥]، وما رأيت أعلم من سعيد بن المسيب ولا أجدر أن يتبع: فلان عن فلان ـ يعني: يسند كل حديث[٦].

وقد تأثر به مكحول، وهو من أئمة المدرسة الشامية، وممن نشر العلم والأثر المدني في تلك البقاع، فعن الأوزاعي قال: سئل الزهري ومكحول: مَنْ أفقه من أدركتما؟

---

(١) تهذيب الكمال (٧/ ١٠٨).

(٢) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن (٣٧, ٠) من تفسير سعيد هو من رواية قتادة، وكان قتادة أكثر عناية بنقل تفسيره من أصحاب سعيد المدنيين أنفسهم؛ حيث كان الذي يليه في هذا يحيى بن سعيد المدني، فقد روى (١٦, ٠) من تفسيره، وغيرهما من أصحاب سعيد أقل منهما.

(٣) مَرَّ في ترجمة قتادة ص (٢٥٢).

(٤) مع أن الحسن البصري، وهو شيخ قتادة كان ممن ضيق دائرة النسخ، فقد خالفه قتادة في ذلك متأثرًا بسعيد بن المسيب، وقتادة من أكثر التابعين توسعًا في هذا الباب.

(٥) الجرح (٤/ ٦٠).

(٦) المرجع السابق.

فقالا : سعيد بن المسيب[١] .

ومع ما أبرزته من أثره الجلي في المدرستين البصرية والشامية، إلا أن تأثيره أو تأثره بالمنهج المكي كان ضعيفًا، مع كثرة أسفاره، ورحلاته إلى مكة؛ إذ يروى أنه حج أكثر من أربعين حجة[٢] ، ومرد ذلك - فيما أرى - أمران اثنان :

أحدهما : استغناء المدرسة المكية بعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - .

الثاني : اختلاف منهجي المدرستين المكية والمدنية، فكان جل اهتمام المكيين منصبًا على التفسير، بينما نجد أن معظم اشتغال المدنيين كان في السنن، والآثار، والسير .

وفاته :

اختلفوا في وفاته على أقوال؛ من أقواها أنه توفي سنة[٣] أربع وتسعين[٣] ، وقال بعضهم : سنة ثلاث وتسعين[٤] ، عن تسعة وسبعين عامًا[٥] .

❁ ❁ ❁

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٣)، والمعرفة (١/ ٤٧٩)، والجرح (٤/ ٦١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).

(٢) التاريخ الكبير (٣/ ٥١١)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، والشذرات (١/ ١٠٣).

(٣) تاريخ خليفة (٣٠٦)، والعلل لأحمد (٣/ ٤٧٢) ٦٠١٦، ومصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٦٦) ١٥٧٨١، ودول الإسلام (٦٥)، والتذكرة (١/ ٥٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١١٣)، والكامل (٤/ ٥٨٢)، وغاية النهاية (١/ ٣٠٨)، والشذرات (١/ ١٠٢).

(٤) التاريخ الصغير (١/ ٢٠٩)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ١٦٩)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٨٢)، ومشاهير علماء الأمصار (٦٣)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٢٠).

(٥) الكاشف (١/ ٣٧٣)، وغاية النهاية (١/ ٣٠٨)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣).

محمد بن كعب القرظي

محمد بن كعب بن حبان بن سليم بن أسد القرظي[١] ، يكنى أبا حمزة[٢] ، منسوب إلى بني قريظة الطائفة المعروفة من اليهود، كان أبوه من سبي قريظة[٣] ، وكان لم ينبت يوم قريظة فتُرك[٤] .

عداده في الطبقة الثالثة من التابعين[٥] ، سمع زيد بن أرقم، وابن عباس[٦] ، ورأى ابن عمر[٧] . وروايته عن علي، وابن مسعود مرسلة[٨] .

نشأ بالكوفة، ثم تحول به أبوه إلى المدينة[٩] ، فهو في عداد تابعي أهل المدينة[١٠] .

---

(١) طبقات ابن سعد، الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، وتهذيب الأسماء (١/ ٩٠)، والأنساب (١٠/ ١٠٢)، واللباب (٣/ ٢٦).

(٢) طبقات خليفة (٢٦٤)، والكنى للدولابي (١/ ١٥٦)، والكنى لمسلم (ق ٢٧).

(٣) الجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٤٤٨)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ٢٠٤)، والتهذيب (٩/ ٤٢٠).

(٤) التاريخ الكبير (١/ ٢١٦)، والأنساب (١٠/ ١٠٢)، والتهذيب (٩/ ٤٢١).

(٥) طبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، وعده الذهبي في كتابه المعين في الطبقة الثانية مع الحسن ومجاهد (٤٢).

(٦) التاريخ الكبير (١/ ٢١٦)، والكنى لمسلم (ق ٧)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٤٤٨).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٠)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٦٧٥)، والتهذيب (٩/ ٤٢١).

(٨) العلل لأحمد (١/ ٥٢٧) ١٢٣٦، والتهذيب (٩/ ٤٢٢)، والتحفة اللطيفة (٣/ ٧٢٠).

(٩) الجرح (٨/ ٦٧)، والسير (٥/ ٦٥)، والتحفة اللطيفة (٣/ ٧١٩)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٠).

(١٠) الجرح (٨/ ٦٧)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٣)، والثقات (٥/ ٣٥١)، والتحفة اللطيفة (٣/ ٧٢٠)، ومشاهير علماء الأمصار (٦٥).

والقرظي مع أنه كوفي المولد والمنشأ[١] ، ومدني المستقر، ومنهج هاتين المدرستين مشهور بقلة التعرض لتأويل القرآن، فقد فاق أصحابه من المدنيين، وتوسع قليلاً في باب التفسير، فكان من أكثرهم علمًا فيه[٢] ، يقول سفيان بن عيينة: لم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله - يعني: زيد بن أسلم[٣] .

ويقول عون بن عبد الله: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظي[٤] .

وقد أثنى عليه غير واحد ممن ترجم له، فقال العجلي: مدني تابعي عالم بالقرآن[٥] .

وقال ابن حبان: من عباد المدينة، وعلمائهم بالقرآن[٦] .

وقال الذهبي: هو من أئمة التفسير[٧] .

وقال ابن كثير: كان عالمًا بتفسير القرآن[٨] .

ومما أعانه وساعده على التقدم في هذا، كثرة تأمله وتدبره للقرآن، فكان لا يشبع من النظر والتفكر فيه، ينقضي الليل عليه، وهو لم يفرغ من حاجته منه، يقول عن نفسه: وعجائب القرآن تورد علي أمورًا حتى إنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي

---

(١) العبر (١/ ١٠٢)، والشذرات (١/ ١٣٦).

(٢) بمقارنة المروي عنه مع غيره من أصحابه، نجد أن المروي عن سعيد بن المسيب على قلته، كان جله في تأويل آيات الأحكام، في حين كان تعرض محمد بن كعب للتفسير أكثر.

(٣) فتح الباري (١٣/ ١١١).

(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٤٥)، والمعرفة (١/ ٥٦٤)، والسير (٥/ ٦٨)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٨ هـ/ ٢٥٢)، والغاية (١/ ٢٣٣).

(٥) تاريخ الثقات (٤١١).

(٦) مشاهير علماء الأمصار (٦٥).

(٧) السير (٥/ ٦٧).

(٨) البداية (٩/ ٢٨٩).

منه[١].

ويقول أيضًا: لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة ولا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إليَّ من أن أهذّ القرآن ليلتي هذه هذًا، أو قال: أنثره نثرًا[٢].

وقد فسر بعض الأئمة ما ورد عنه ﷺ: «**سيخرج من الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسه أحد بعده**»[٣].

فقال ربيعة: كنا نقول: هو محمد بن كعب القرظي، والكاهنان قريظة، والنضير[٤].

---

(١) الحلية (٣/ ٢١٤)، والمنتظم (٧/ ١٢٤)، والبداية (٩/ ٢٩٠)، والسير (٥/ ٦٦)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٦).

(٢) الزهد لابن المبارك (٩٧) ٢٨٧، ومختصر قيام الليل للمروزي (٦٠)، والحلية (٣/ ٢١٤)، والغاية (١/ ٢٢٣)، والبداية (٩/ ٢٨٩).

(٣) الحديث أخرجه ابن سعد في طبقاته (٧/ ٥٠٠)، وطبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، ورواه أحمد في مسنده (٦/ ١١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٩٧) ٥١٨، (٢٢/ ٣١٤) ٧٩٤، والفسوي في المعرفة (١/ ٥٦٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٩٨)، وابن حجر في تعجيل المنفعة (١٥٨)، وعزاه إلى ابن منده، والطبراني، وأورد هذه الرواية الهندي في الكنز، وعزاها إلى ابن سعد، وابن منده، والطبراني، وابن عساكر، عن عبد الله بن مغيث، ينظر كنز العمال (١١/ ٣٧٨) ٣١٨٠٩.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٩٩)، تهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٥)، وغاية النهاية (١/ ٢٣٣)، قال الهيثمي في المجمع: عبد الله بن مغيث ذكره ابن أبي حاتم، وبقية رجاله ثقات (٧٠/ ١٦٧).
قلت: عبد الله بن مغيث ذكره البخاري، وابن أبي حاتم وسكتا عنه، وذكره ابن حبان في الثقات، ينظر التاريخ الكبير (٥/ ٢٠١)، والجرح (٥/ ١٧٤)، والثقات (٧/ ٤٣).
وروى الحديث كما عند البيهقي من طريق ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن النبي ﷺ بلفظ مقارب.
وعن موسى بن عقبة قال: بلغني أن رسول الله ﷺ . . . وذكر الحديث بنحوه. وكلا الطريقين فيهما علة الإرسال، كما ذكره البيهقي في الدلائل (٦/ ٤٩٨-٤٩٩).

وقال سفيان الثوري: يرون أنه محمد بن كعب[١].

مميزات تفسيره:

ومما تميز به تفسيره ـ رحمه الله ـ إبرازه للجانب الوعظي والتذكيري للآيات، فقد كان محبًا للوعظ والقص، وكان يؤثر ويبكي بقصه وتذكيره[٢].

وكان له جلساء من أعلم الناس بالتفسير[٣]، وكان يقص عليهم[٤].

والناظر في تفسيره يجد شاهد ذلك.

قال صاحب الحلية: قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر، لرخص لزكريا عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾[٥]، ولو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص للذين يقاتلون في سبل الله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٦].

وعند قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال: ﴿اصْبِرُوا﴾ على دينكم، ﴿وَصَابِرُوا﴾ لوعدي الذي وعدتكم، ﴿وَرَابِطُوا﴾ عدوي: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما بينكم

---

(١) ذكر جمعٌ ممن ترجم لمحمد بن كعب هذا الحديث وتفسيره، ينظر المعارف (٢٠٢)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٤ـ٤٣٥)، والتهذيب (٩/ ٤٢١)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٨ هـ/ ٢٥٢)، والسير (٥/ ٦٨)، والغاية (١/ ٢٣٣).

(٢) طبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٦).

(٣) المعرفة (١/ ٥٦٤)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٦)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٨ هـ/ ـ٢٥٣).

(٤) كتاب القصاص والمذكرين (٢٣٥)، والمعارف (٢٠٢)، تاريخ ابن معين (٢/ ٥٣٦)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ٢٠٤)، والثقات (٤/ ٣٥١)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٣٤٦)، والغاية (١/ ٢٣٣).

(٥) سورة آل عمران: آية (٤١).

(٦) الأنفال: آية ٤٥، ينظر الحلية (٣/ ٢١٥)، البداية (٩/ ٢٨٩).

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١] إذا لقيتموني[٢] .

وعن داود بن قيس قال: سمعت ابن كعب يقول: إن الأرض لتبكي من رجل، وتبكي على رجل، تبكي لمن كان يعمل على ظهرها بطاعة الله تعالى، وتبكي ممن يعمل على ظهرها بمعصية الله تعالى قد أثقلها. ثم قرأ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[٣] .

وعن عمرو بن دينار قال: سألت محمد بن كعب القرظي عن هذه الآية: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[٤] قال: من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابها في نفسه وأهله، وماله، حتى يخرج، وليس له خير. ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبتها في نفسه، وأهله، وماله حتى يخرج، وليس له شر[٥] .

وقد تميز ـ رحمه الله ـ من بين عموم التابعين بالعناية، والاعتماد على أسباب النزول في تفسيره، حتى صار من أكثرهم إيراداً، واستشهاداً بالأسباب[٦] .

ومع هذا التقدم، فلم يكن يحصر المعنى في السبب، بل يذكر السبب ويبين أن الأصل عموم المعنى لا خصوص السبب.

فعن أبي معشر نجيح قال: سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب فقال سعيد: إن في بعض الكتب أن لله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من

(١) سورة آل عمران: آية (٢٠٠).
(٢) الحلية (٣/ ٢١٥)، والبداية (٩/ ٢٨٩).
(٣) سورة الدخان: آية (٢٩)، وينظر الحلية (٣/ ٢١٣)، والبداية (٩/ ٢٩٠).
(٤) سورة الزلزلة: الآيتان (٧، ٨).
(٥) الحلية (٣/ ٢١٣)، والبداية (٩/ ٢٩٠).
(٦) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت المروي عن محمد بن كعب (١٥٣) قولاً، بلغ نسبة ما جاء عنه في أسباب النزول (١٧,٠) من مجموع تفسيره، فكان من أكثر التابعين في هذا الباب.

الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجترُّون الدنيا بالدين، قال الله تبارك وتعالى: «**أعلي يجترئون وبي يغترُّون!! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران!!**»، فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[1].

فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية! فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد[2].

ومما يدل على اهتمامه بالسير، وأسباب النزول أيضًا، أن محمد بن إسحاق نقل كثيرًا من القصص والحوادث عن طريق محمد بن كعب، وفي هذا يقول سزكين: ويتضح من الروايات التي ذكرها الطبري في تاريخه أن ابن إسحاق استخدم كتابًا للقرظي ذا مضمون تاريخي[3].

وأحسب أن مما ساعده على التقدم في باب التفسير سماعه، ولقاءه بابن عباس، كما أنه في المقابل لم يلق أحدًا من فقهاء المدينة الذين كانوا يتورعون عن التفسير، هذا وغيره جعل لهذا التابعي الصدارة في مدرسة التفسير بالمدينة.

وأحسب أنه لو عاش في غير هذه المدرسة لكان نتاجه أكثر، لكنه عاش في المجتمع المدني، الذي تأثر بشيوخه المقلين في باب التأويل، والمشتغلين بعلوم أخرى:

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٠٤).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢٣١) ٣٩٦٤، وسنن سعيد بن منصور (٣/ ٣٨١) ٣٦١، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن محمد به (١/ ٥٧٢).

(٣) تاريخ التراث (١/ ٧٦).

كالحديث، والمغازي، والسير، فكان هذا هو الغالب على الناقلين من الرواة بالمدينة[١].

وفاته:

ذهب كثير من الأئمة والمؤرخين إلى أنه توفي سنة ثمان ومائة[٢]، وذهب البعض أنه مات سنة سبع عشرة ومائة[٣].

* * *

(١) يأتي لذلك مزيد بحث عند الحديث عن المدرسة المدنية - إن شاء الله - ص (٥١٦).

(٢) تاريخ ابن معين (٢/ ٥٣٦)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٢٤٥)، والمعارف (٢٠٢)، والتاريخ الكبير (١/ ٢١٦)، والتاريخ الصغير (١/ ٢٤٣)، وتهذيب الأسماء (١/ ٩٠)، والمنتظم (٧/ ١٢٤)، والكامل (٥/ ١٤١)، والعبر (١/ ١٠٢)، ودول الإسلام (٧٦)، والأنساب (١٠/ ١٠٢).

(٣) تاريخ خليفة (٣٤٨)، وطبقات ابن سعد، الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٧)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ٢٠٤)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٤٤٨)، والتعديل والتجريح (٢/ ٦٣٦).

تابع الباب الثاني

الباب الثاني

مدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائصها

الفصل الثاني: عرض مدارس التفسير في عصر التابعين.

المبحث الأول: المدرسة المكية.

المبحث الثاني: المدرسة البصرية.

المبحث الثالث: المدرسة الكوفية.

المبحث الرابع: المدرسة المدنية.

المبحث الخامس: التفسير في الشام واليمن ومصر.

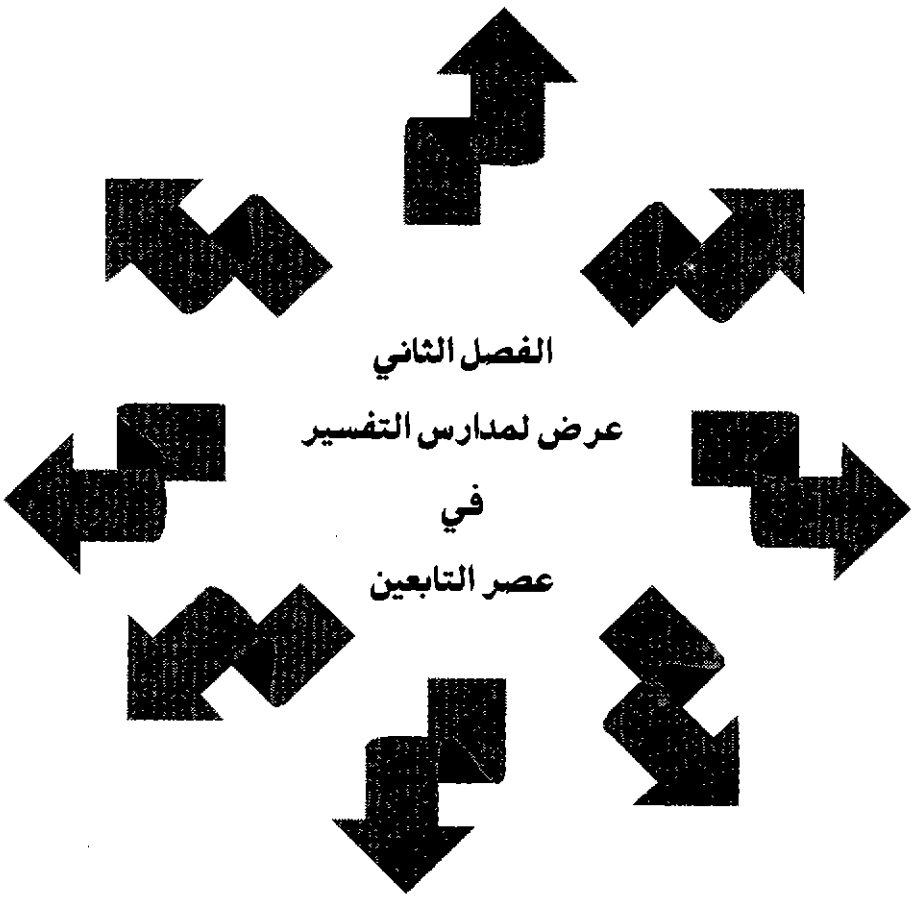

الفصل الثاني

عرض لمدارس التفسير

في

عصر التابعين

الفصل الثاني

عرض لمدارس التفسير في عصر التابعين

أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، وأنزل كتابه الذي هدى به من اتبع رضوانه سبل السلام، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهداهم إلى صراط مستقيم، وسعد المسلمون بهذا الكتاب، وأيقنوا بصدق أنه ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1]، وأنه حبله المتين، وكتابه المبين، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، فأخذوا في تدبره وتعلمه، والوقوف على ما فيه من مواعظ، وعبر . . . ، ثم أخذوا في دعوة الناس إليه، وتعليمهم إياه ولا سيما بعد أن تتابعت الفتوحات الإسلامية، واتسعت ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فانتشر صحابة رسول الله ﷺ بين الناس يعلمونهم دينهم، وكتاب ربهم، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الصحب الكرام - رضوان الله عليهم - لم يكونوا في درجة علمية واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل كانت مراتبهم متفاوتة، ومن ثم تفاوتت طرائقهم المنهجية التي ساروا عليها في تعليم الناس.

يقول مسروق : لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم[2] .

وكان من أولئك الذين لو نزل بهم أهل الأرض لأصدرهم ثلة من الصحابة رضوان الله

---

(١) سورة الإسراء: آية (٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣)، والمعرفة (٢/ ٥٤٢).

عليهم، ومن أشهرهم كما يقول عامر الشعبي: كان علماء هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ستة: عمر، وعبد الله، وزيد بن ثابت، فإذا قال عمر قولاً، وقال هذان قولاً، كان قولهما لقوله تبعًا، وعلي، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، فإذا قال علي قولاً، وقال هذان قولاً، كان قولهما لقوله تبعًا[1].

وقد قيض لبعض هؤلاء الأئمة من الأصحاب تلاميذ، اختصوا به ولازموه وأخذوا بقوله، ونشروا علمه، وتيسر له من هذا، ما لم يتيسر لآخرين، ومن هنا نجد بدايات الظهور لتلك المدارس، التي كان الصحابة أساتذتها، والتابعون روادها، فنهلوا من معين علمهم الصافي، ثم فاضوا بالخير العميم على الناس من بعدهم.

فكانوا كالنهر لما اشتد واديه ... فاضت جوانبه تسقي روابيه

يقول علي بن المديني: لم يكن من أصحاب النبي ﷺ من له أصحاب يذهبون مذهبه، ويفتون فتواه، ويسلكون طريقته، إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس[2].

وقد ورث التابعون علمهم، وطرائقهم في البحث، والاستنباط، وكانوا طرائق قددًا، فمنهم من توسع في التفسير تبعًا لتوسع شيخه، ومنهم من كان يحمله التورع، والاحتياط على الإقلال خوفًا من عدم الإصابة؛ اقتداءً بنهج كثير من الصحابة الذين نقل العلم عنهم.

وقد أطلت الحديث في فصل أشهر رجال المدارس، واستعرضت كل واحد من أولئك المشاهير، لأنطلق بعد ذلك إلى الحديث عن مدارسهم، التي نهلوا منها وأخذوا عنها، فأردت في هذا الفصل أن أبين المنهج العام لكل مدرسة، وأعقد مقارنات بين

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥١)، ومثل ذلك ما رواه مسروق، ينظر العلل لأحمد (٢/ ١٦٢) ١٨٧٣، وطبقات الفقهاء للشيرازي (٤٥).

(٢) العلل (٤٣)، ومقدمة ابن الصلاح (٤٣١).

أصحاب كل إمام، وأجمع تلك النتائج والملاحظات، التي برزت في حياة كل مفسر، مبينًا الفروق بين تلاميذ كل مدرسة ، مشيراً إلى أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وأسباب ذلك ، وقد اعتمدت كثيراً على تلك الإحصائيات؛ لكونها أكثر دقة في نتائجها ومؤشراتها.

والحديث عن المدارس التفسيرية يكتنفه جملة من الأمور لابد من بيانها في هذه المقدمة من أهمها: أن مصطلح، المدارس التفسيرية لم يتعرض له كثير ممن كتب في المناهج، وتاريخ التشريع، وأما المشهور فهو ما دون في معرفة المدارس الفقهية، وسار من جاء بعد هؤلاء على هذا المصطلح، ولعل من أهم النتائج التي توصلت لها في هذا المبحث هو إبراز قيمة المدرسة البصرية في التفسير، وإظهار أثرها؛ لأن كثيراً من الباحثين يُفردون المدرسة الكوفية بالحديث، ويغفلون مدرسة البصرة، أو يدخلونها ضمنًا، مع أنها ثاني المدارس بعد المدرسة المكية في التفسير، وكان ما يزيد على ثلث المروي عن التابعين قد جاء عن أصحابها. ولذا فسوف يكون ترتيب إيراد المدارس حسب كثرة المروي عنها.

ثم إنه في مقابل هذه الحال، فقد كانت المدرسة المدنية من أقل المدارس اشتغالاً بالتفسير، ومن أكثرها هيبة، وتعظيمًا له، فقلَّ نتاجها وسبقها غيرها، ورغم هذه القلة فقد أفردتها بالحديث كمدرسة مستقلة؛ لوضوح المنهج الاستقلالي في تفسيرها رغم قلته، وعدم تأثرها كثيراً بغيرها، في حين أنها أثرت في كل المدارس الأخرى، فالحسن وقتادة وعطاء، والشعبي ومكحول وغيرهم، تأثرهم واستفادتهم من المنهج المدني واضحة ولاسيما أخذهم عن سعيد بن المسيب.

ومما ينبغي بيانه في هذه المقدمة أن الشام واليمن ومصر لن أدرسها كمدارس، وإنما سوف أدرسها كبقاع بها بعض الآثار، لكن لم يكن لها منهج مستقل، وآثار كثيرة حتى

تجعل كمدرسة مستقلة .

وبعد هذه المقدمة أعود إلى مقصودي في هذا الفصل، فأبدأ الحديث عن أهم هذه المدارس وأعلمها في التفسير .

* * *

المدرسة المكية

احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين، والشائبين إلى بلد الله الحرام، الحجاج، والعمار، والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها، أو تمنى أن يراها.

ولقد كان العلم بمكة يسيراً زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج[1].

إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في علم التفسير.

وقد تأثر بالمدرسة ـ أيضًا ـ رجال وأئمة لم يكونوا بمكة، لكن كانوا كثيري الترداد والمثابة لها: كأبي العالية، وطاووس بن كيسان، وغيرهم، فنشاط المدرسة المكية كان أوسع من أن يقتصر على بقعة واحدة.

وبعد أن رحل ابن عباس عن مكة، لم يختف نوره فيها، وإنما قلَّ نتاج تلاميذه، وزادت هيبتهم من التفسير ورحل بعضهم للآفاق، حتى جاء عصر أتباع التابعين، فدفعوا العجلة، وأكثروا من الرواية عن شيوخهم وظل العطاء يتواصل ـ حتى الطبقة التي تليهم، وفيما يلي بيان لأهم الأسباب التي أدت إلى تفوق المدرسة، أهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأستاذيته لها، ولذا فسوف أعرض لترجمته بشيء من التفصيل، ثم أبين بعض معالم منهجه التي كان لها الأثر في نفوس أصحابه وتلاميذه، فأقول وبالله التوفيق:

(١) الإعلان والتوبيخ لمن ذم التاريخ (٢٩٢).

عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :

اسمه ونسبه :

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو العباس الهاشمي[١] ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وأمه لُبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية[٢] .

مولده :

وُلد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشعب من مكة ، فأتي به النبي ﷺ فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين[٣] ، فيكون له عند وفاة النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة[٤] .

وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس، قال : توفي رسول الله ﷺ وقد قرأت المحكم من القرآن (أي : المفصل)[٥] .

وصحب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً[٦] وأحصي ما قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما : سمعت النبي ﷺ ، ورأيت النبي ﷺ ، وبت عند النبي ﷺ ، فإذا هو ثمانون أو نيف وسبعون[٧] .

وقد روى عن النبي ﷺ ألف حديث وستمائة وستين حديثًا[٨] ، صرح في عشرة منها بالتحديث[٩] .

يعد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في طبقة صغار الصحابة، ومع هذا فقد سبق

---

(١) تسمية أصحاب النبي ﷺ (٩٧)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٠)، والإصابة (٢/ ٣٣٠).
(٢) أسد الغابة (٣/ ٢٩٠)، والإصابة (٢/ ٣٣٠).
(٣) المرجعان السابقان.
(٤) فتح الباري (١١/ ٩٠).
(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٨٩) ١٠٥٧٧ ، ومنحة المعبود (٢/ ١٤٨).
(٦) السير (٣/ ٣٣٢).
(٧) العلل لأحمد (٢/ ١٠٧) ١٧١٧ .
(٨) تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٠)، والفصل في الملل (٤/ ١٥٢)، وتدريب الراوي (٢/ ٢١٧)، ومقدمة مسند بقي بن مخلد (٨٠).
(٩) التحفة اللطيفة (٢/ ٣٣٨).

غيره من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في علم التفسير حتى صار من أعلمهم فيه[١] .

يقول ابن أبي نجيح : كان أصحاب ابن عباس يقولون : ابن عباس أعلم من عمر ، ومن علي ، ومن عبد الله ، ويعدون ناسًا ، فيثب عليهم الناس ، فيقولون : لا تعجلوا علينا ، إنه لم يكن أحدٌ من هؤلاء إلا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه ، وكان ابن عباس قد جمعه كله[٢] .

وكان ابن مسعود يقول : لو بلغ ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل ، نعم ترجمان القرآن ابن عباس[٣] .

وأثنى عليه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بقوله : هو أعلم أمة محمد ﷺ بما أنزل على محمد[٤] .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابن عباس أعلمنا بما مضى وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه شيء[٥] ، بل كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يأمر الناس بأخذ القرآن عنه ، وسؤاله ، فيقول : من كان سائلاً عن شيء من القرآن ، فليسأل عبد الله بن عباس[٦] .

وكان بعض التابعين يترك الأكابر من أصحاب النبي ﷺ ويجلس للأخذ عن ابن عباس .

---

(١) الفتح (٧/ ١٠٠).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥)، وشذرات الذهب (١/ ٧٦).
(٣) العلم لأبي خيثمة (١٢٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، والمعرفة (١/ ٤٩٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٣)، قال الحربي في غريب الحديث : ما عاشره منا أحد : أي لو كان في السن مثلَنا ما بَلَغ أحد منا عُشْرَه في العلم . اهـ . (١/ ١٥٦).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٦)، والإصابة (٢/ ٣٣٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧١).
(٦) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٧) ١٨٩٣ .

فعن ليث بن أبي سُليم قال: قيل لطاوس: أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وانقطعت إلى هذا الغلام من بينهم؟!

قال: أدركت سبعين من أصحاب النبي ﷺ فكلهم إذا اختلفوا في شيء، انتهوا فيه إلى قول ابن عباس[١].

ويقول ابن أبي مليكة وقد أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ: كان ابن عباس إذا أخذ في الحلال والحرام، أخذ الناس معه، وإذا أخذ في القرآن، لم يتعلق الناس معه بشيء[٢].

أسباب تقدم ابن عباس في التفسير:

ولا شك أن ثمة أسبابًا أهلّت ابن عباس رضي الله عنهما وقدمته على غيره من الصحابة في فهم كتاب الله، والقدرة على تأويله، وهي على الإجمال:

١ ـ دعاء النبي ﷺ له بالفقه في الدين والعلم بالتأويل:

رأى النبي ﷺ فيه النجابة، والفطنة، والذكاء، فدعا له، ومن ذا الذي يدعو له النبي ﷺ بدعوة فلا تصيبه؟ وابن عباس من هؤلاء الذين أصابتهم دعوته ﷺ حينما دعا له بقوله ﷺ: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، والإصابة (٢/ ٣٣٣)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٢)، والمحدث الفاصل (٢٣٩)، والمطالب العالية (٤/ ١١٥).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٧) ١٩٠٠، والاستيعاب (٢/ ٣٥٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، وفي فضائل الصحابة (٢/ ٩٥٥) ١٨٥٦، وابن حبان في صحيحه، ينظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٥٣١) ٧٠٥٥، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٩٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٢٠) ١٠٦١٤، والأوسط (٢/ ٢٤٩) ١٤٤٤، وأورده الهيثمي في مجمع البحرين في زوائد المعجمين، من رواية الطبراني في الكبير، وصححها (٦/ ٣٩٤).
والحديث أخرجه البزار في مسنده بلفظ: «**اللهم علمه تأويل القرآن**»، يُنظر كشف الأستار =

بل دعا له بالحكمة مرتين[١] ، فاستجيبت تلك الدعوات المباركات الزكيات، فكانت فتحًا لقلبه، ونبوغًا في عقله، وصوابًا في رأيه، وحين نرجع إلى تأويله، نرى أثر هذه الدعوة النبوية جليًا، واضحًا في تقدمه بين الأصحاب، وسبقه في ميدان العلم بالقرآن، وتفسيره[٢] ، كما نشهد أثر ذلك في كثرة تعرضه للقرآن وتأويله[٣] .

٢ ـ قرب منزلته من عمر ـ رضي الله عنه ـ :

ولعل السبب الثاني الذي أعان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وحثه، وشجعه على التقدم في التفسير، هو تلك العلاقة، والعناية الخاصة التي حظي بها ابن عباس من عمر ـ

= (٣/ ٢٤٧) ٢٦٧٤، والحاكم في مستدركه، وصححه، ووافقه الذهبي (٣/ ٥٣٧).
وجاء الحديث عند أبي نعيم، وأحمد بلفظ: «**اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل**» ينظر الحلية (١/ ٣١٦)، والمسند (١/ ٢٦٩)، وفضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٤) ١٨٨٣.
ورواه ابن ماجه بلفظ: «**اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب**» (١/ ٥٨) ١٦٦، وصحح الألباني هذه الرواية في صحيح ابن ماجه (١/ ٣٣) ١٣٧.
وجاء في صحيح البخاري في عدة مواضع بلفظ: «**اللهم علمه الكتاب**»، ينظر كتاب العلم من الصحيح، باب قول النبي ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**»، ينظر الفتح (١/ ١٦٩) ٧٥، وكتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ينظر الفتح (٧/ ١٠٠) ٣٧٥٦، وفي أول كتاب الاعتصام من الصحيح، ينظر الفتح (١٣/ ٢٤٥) ٧٢٧٠.

(١) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٨٤٦) ١٥٦١، (٢/ ٩٧٢) ١٩١٠، وابن سعد في طبقاته (٢/ ٣٦٥، ٣٧٠)، والنسائي في فضائل الصحابة ص (٩٥) ٧٥، والترمذي في سننه كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن عباس، وحسن إسناده (٥/ ٦٧٩) ٣٨٢٢، ٣٨٢٣.
والفسوي في تاريخه (١/ ٥١٩)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٢٨).

(٢) الفتح (٧/ ١٠٠).

(٣) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلغ (٥٨٠٩) روايات، في حين كان عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (٨٥٦) رواية، وغيرهما من الصحابة أقل منهم.
بل إن المروي عن الصحابة مجتمعين لا يبلغ مجموع ما روي عنه ـ رضي الله عنهما ـ.

رضي الله عن الجميع ـ فقد لمس عمر ـ رضي الله عنه ـ فيه مخايل النجابة، والذكاء، والفطنة، فكان يُدنيه من مجلسه، ويقربه إليه، ويُشاوره، ويأخذ برأيه فيما أشكل من الآيات، وابن عباس ما زال شابًا غلامًا، فكان لذلك الأثر البالغ في دفعه وحثه على التحصيل والتقدم، بل والإكثار في باب التفسير وغيره من أبواب العلم.

فعن عامر الشعبي عن ابن عباس قال: قال لي أبي: يا بني، أرى أمير المؤمنين يقربك، ويخلو بك، ويستشيرك مع ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فاحفظ عني ثلاثًا: اتق الله لا تفشين له سرًا، ولا يُجربن عليك كذبة، ولا تغتابن عنده أحدًا[1].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يدخله مع أكابر الصحابة، وما ذلك إلا لأنه وجد فيه قوة الفهم، وجودة الفكر، ودقة الاستنباط.

قال: كان عمر يسألني مع أصحاب محمد ﷺ، فكان يقول لي: لا تكلم حتى يتكلموا، فإذا تكلمت قال: غلبتموني أن تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه[2]؟.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم[3]: لم يُدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، ودعاني معهم، قال: وما أريتُهُ دعاني يومئذ إلا ليُريَهم مني[4]،

(١) الحلية (١/ ٣١٨)، والمعرفة (١/ ٥٣٣)، والمعجم الكبير (١٠/ ٣٢٢) ١٠٦١٩، والمنتقى من كتاب مكارم الأخلاق (١٤٨) ٣٢٥.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٧٠) ١٩٠٤، المعرفة (١/ ٥١٩)، والمستدرك (٣/ ٥٣٩)، وصحح إسناده الحاكم، ووافقه الذهبي، وكتاب الفقيه والمتفقه (٢/ ١٣٣).
(لم تجتمع شؤون رأسه): قال الحربي: الشؤون واحد شأن مُجتمع قبائل الرأس، فكأن عُمر قال إنه صغير لم يتلاقيا، غريب الحديث (٢/ ٨٧٦)، وتهذيب اللغة (١١/ ٤١٦).

(٣) القائل هو: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كما صرح به البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، يُنظر الفتح (٨/ ١٣٠) ٤٤٣٠.

(٤) قال ابن حجر: وعند ابن سعد (أما إني سأريكم اليوم منه ما تعرفون به فضله) الفتح (٨/ ٧٣٦).

فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، «إذا جاء نصر الله، والفتح» فتح مكة، فذاك علامة أجَلك، «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا»، قال عُمر: ما أعلمُ منها إلا ما تعلم[1].

وكان ابن عباس لشدة أدبه، إذا جلس في مجلس فيه من هو أسن منه لا يتحدث إلا إذا أذن له، فكان عمر يلمس ذلك منه، فيحثه، ويحرضه على الحديث تنشيطًا لنفسه، وتشجيعًا له في العلم.

فعن عبيد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾[2]؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلاً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، ينظر الفتح (٨/ ٣٠) ٤٢٩٤، ورواه أيضًا في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، ينظر الفتح (٨/ ٧٣٤) ٤٩٧٠.

ورواه مختصرًا في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ٤٤٣٠، ينظر الفتح (٨/ ١٣٠).

قال ابن حجر في شرح هذا الأثر: وفيه فضيلة ظاهرة لابن عباس وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل. اهـ. ينظر الفتح (٨/ ٧٣٦).

والأثر أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٢١) ١٠٦١٧، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٤٦).

وجاء عند ابن سعد (٢/ ٣٦٥)، وأحمد (١/ ٣٣٧) بزيادة «كيف تلومونني على ما ترون».

(٢) سورة البقرة: آية (٢٦٦).

لعمل، قال عُمر: أيُّ عمل[١] ؟ . قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ـ عز وجل ـ ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله[٢] .

وقال ابن حجر ـ في شرحه لهذا الأثر ـ: وفيه قوة فهم ابن عباس، وقرب منزلته من عمر، وتقديمه له مع صغره، وتحريض العالم تلميذه على القول بحضرة من هو أسن منه، إذا عرف فيه الأهلية لما فيه من تنشيطه، وبسط نفسه، وترغيبه في العلم[٣] .

وكان لعمر ـ رضي الله عنه ـ مجلس يسمع فيه من الشباب ويعلمهم، وكان ابن عباس من المقدمين عند عمر .

فعن عبد الرحمن بن زيد قال: كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى السُّبْحة، وفرغ، دخل مربدًا له[٤] ، فأرسل إلى فتيان قد قرؤوا القرآن، منهم ابن عباس، قال: فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسون، فإذا كانت القائلة انصرف. قال فمروا بهذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾، و ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٥] ، فقال ابن عباس لبعض من

(١) قال ابن حجر: أخرج هذا الأثر ابن المنذر في تفسيره بلفظ: أي عمل؟ قال ابن عباس: شيء ألقي في روعي، فقال: صدقت يا ابن أخي، يُراجع الفتح (٨/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (أيود أحدكم أن تكون له جنة) ٤٥٣٨، وينظر الفتح (٨/ ٢٠١)، وعمدة القاري (١٨/ ١٢٩)، وابن جرير في تفسيره (٥/ ٥٤٥) ٦٠٩٦، والحاكم في مستدركه كتاب التفسير (٢/ ٢٨٣)، وأورده السيوطي في الدر، عن ابن عباس بنحوه، وعزاه إلى ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم والحاكم (٢/ ٤٧).

(٣) فتح الباري (٨/ ٢٠٢).

(٤) السبحة: الدعاء وصلاة التطوع، والنافلة: يقال فرغ فلان من سبحته، أي من صلاة النافلة، ينظر تاج العروس (٦/ ٤٤٩).
والمربد: قال أبو عبيد: هو الذي يجعل فيه التمر عند الجُذاذ قبل أن يدخل إلى المدينة، ويصير في الأوعية، ينظر غريب الحديث (٣/ ٩٦)، والنهاية (٢/ ١٨٢).

(٥) سورة البقرة: آية (٢٠٦).

كان إلى جنبه: اقتتل الرجلان، فسمع عمر ما قال، فقال: وأي شيء قلت؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين!، قال: ماذا قلت؟ اقتتل الرجلان؟، قال: فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى هاهنا مَنْ إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل، وأخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي! فقاتله، فاقتتل الرجلان! فقال عمر: لله تلادك، يا ابن عباس[١].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يسأل ابن عباس عن الشيء من القرآن ثم يقول: غص غوَّاص[٢].

بل كان عمر إذا جاءته الأقضية المعضلة، يقول لابن عباس: يا أبا عباس قد طرأت علينا أقضية عضل، وأنت لها، ولأمثالها، ثم يأخذ برأيه، وما كان يدعو لذلك أحدًا سواه إذا كانت العضل[٣].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا، ولا ألب لُبًّا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس، ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمُعضلات، ثم يقول: عندك قد جاءتك مُعضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين، والأنصار[٤].

وكان عمر يصفه بقوله: ذاكم فتى الكهول، إن له لسانًا سؤولاً، وقلبًا عقولاً[٥].

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٤٥) ٣٩٩٩، وأورده السيوطي في الدر مختصرًا، وعزاه إلى ابن جرير، وقال في آخره: لله درك يا ابن عباس (١/ ٥٧٨).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٨١) ١٩٤٠.

(٣) المرجع السابق (٢/ ٩٧٣) ١٩١٣، وأسد الغابة (٣/ ١٩٣)، والشذرات (١/ ٧٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٩)، والسير (٣/ ٣٤٧)، وأورده صاحب كنزل العمال، وعزاه لابن سعد (١٣/ ٤٥٦) ٣٧١٨٢.

(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٨٤٤) ١٥٥٥، الإصابة (٢/ ٣٣٢)، والمدخل للبيهقي (٢٩٠) ٤٢٦، ورواه عبد الرزاق في مصنفه وفي أوله قصة (٤/ ٣٧٦) ٨١٢٣.
ورواه الحاكم في مستدركه، وسكت عنه، وقال الذهبي: منقطع (٣/ ٥٣٩).

يقول طلحة بن عبيد الله: ما كنت أرى عمر بن الخطاب يقدم على ابن عباس أحداً[١].

وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - كثير الملازمة لعمر، حريصًا على سؤاله، والأخذ عنه.

فعنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعت وكنَّا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة، وعائشة. قال: قلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك. قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرّتك به[٢].

ولذا كان ابن عباس - رضي الله عنهما - من أكثر الصحابة نقلاً ورواية لتفسير عمر وعلمه - رضي الله عنهم[٣]..

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب «تبتغي مرضاة أزواجك» ينظر الفتح (٨/ ٦٥٧) ٤٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء (٢/ ١١٠٨) ٣١، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة التحريم (٥/ ٤٢٠) ٣٣١٨، وابن حبان في صحيحه، يُنظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٦/ ٢٢٩) ٤٢٥٤، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٦١).

(٣) المُراجع لتفسير عمر المأثور عنه يجد أن جلَّ المروى من الآثار المسندة عنه في التفسير كانت من رواية ابن عباس، ولم يقاربه في ذلك أحدٌ من الصحابة، فبعد مراجعتي للتفسير المأثور عن عمر - رضي الله عنه - وجدت أن ابن عباس - رضي الله عنهما - روى من الآثار عن عمر - رضي الله عنه - (٢٦, ٠) من مجموع تفسيره، في حين كان الذي يليه في العناية برواية تفسير عمر هو قتادة، حيث روى (١٤, ٠) من تفسيره، وبعدهما أنس - رضي الله عنه - حيث روى (١٢, ٠)، وبعدهما الحسن حيث روى (٠٩, ٠) من تفسيره.

وقد أشار بعض أهل العلم إلى أن عامة علم ابن عباس أخذه من عمر رضي الله عن الجميع[١] .

هذا بعض ما لقيه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من عناية عمر وتقريبه له ـ رضي الله عنه ـ وأحسب أن هذا مما أعان ابن عباس وشجعه للمضي قدمًا في طريق العلم بعامة، والتفسير بخاصة.

ولعل مما يضاف إلى ما سبق، ويتممه أن أشير إلى طرف من شهادة بعض الصحابة لابن عباس، وثنائهم عليه في مجال سبقه، وتقدمه في العلم.

فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته[٢] .

ولما مات زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس خلفًا[٣] .

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند أبيّ بن كعب، فلما قام من عنده قال أبّي: هذا يكون حبر هذه الأمة، أوتي عقلاً وفهمًا[٤] .

٣ ـ الأخذ عن كبار الصحابة :

رأينا فيما مضى ذلك الأثر، وتلك الصلة بين ابن عباس وعمر ـ رضي الله عنهم ـ وابن عباس لم يكتف بالأخذ عن عمر فحسب، وإنما حرص على سؤال بقية الصحابة.

---

(١) قاله معمر بن راشد، ينظر المعرفة (١/ ٥٤١)، والسير (١/ ٣٩٨)، وأورده الهندي في الكنز، ونسبه لابن عساكر في تاريخه (١٣/ ٤٥٧).

(٢) الإصابة (٢/ ٣٣٢)، وفيض القدير (١/ ٤٤)، وأورده الهندي في الكنز، وعزاه للدينوري (١٣/ ٤٥٩) ٣٧١٩٢.

(٣) الإصابة (٢/ ٣٣٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٠).

فعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قُبض رسول الله ﷺ ، قلت لرجل من الأنصار: هَلُمّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير. قال: فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَن فيهم؟ قال: فتركتُ ذلك ، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه ـ وهو قائل ـ فأتوسَّدُ ردائي على بابه تسفي الريح عليّ التراب، فيخرج، فيراني، فيقول لي: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا ، أنا أحق أن آتيك! فأسأله عن الحديث فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناسُ حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني[1].

ويقول ـ رضي الله عنهما ـ عن نفسه: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ ، وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا إلا سُرَّ بإتياني لقربي من رسول الله ﷺ ، فجعلت أسأل أبيّ ابن كعب في العلم عما نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة[2].

بل كان ـ رحمه الله ـ من حرصه على السماع ـ كما يقول معمر ـ أنه يقول لأخ له من الأنصار: اذهب بنا إلى أصحاب محمد ﷺ فلعله أن يُحتاج إلينا، فقال: وكان ابن عباس إذا صلى أجلس غلمانه خلفه، فإذا مرّ بآية لم يسمع فيها شيئًا رددها فكتبوها، فإذا خرج سأل عنها[3].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٣٦٧)، وسنن الدارمي (١/ ١٤١)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٩٩) ١٠٥٩٢، والمعرفة (١/ ٥٤٠)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٥)، وأورده ابن حجر في المطالب العالية، وعزاه إلى أحمد بن منيع، ومسدد (٤/ ١١٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧١).

(٣) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٠) ١٨٧٤، والمعرفة (١/ ٥٤٨).

وكان ـ رضي الله عنه ـ يسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ[١] ، فكثرة سؤاله ، وأخْذُه عن كبار الصحابة ، جعله يستدرك ما فاته من العلم زمن النبي ﷺ ، فلحق من سبقه ، وسبق من كان مثله .

٤ ـ قوة اجتهاده ، وقدرته على الاستنباط :

كان ـ رحمه الله ـ يرجع في فهمه لمعاني الآيات للقرآن أولاً ، فإن لم يكن ؛ رجع إلى أقوال المصطفى ﷺ ، فإن لم يكن ؛ رجع إلى ما تلقاه من كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإن لم يكن ؛ اجتهد رأيه ، وقد منَّ الله عليه بحظ وافر من أدوات الاجتهاد ، جعلته يتبوأ تلك المنزلة الرفيعة بين المفسرين من الصحابة ، والتي تتمثل فيما يلي :

١ ـ فهمه لتراكيب اللغة ، وأسرارها .

٢ ـ معرفته بأيام العرب ، وعاداتهم ، وأنسابهم ، وأشعارهم .

٣ ـ قوة الفهم ، وسعة الإدراك ببركة دعاء النبي ﷺ له ، ولذا كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علومه[٢] .

فجمع ـ رضي الله عنه ـ بين العلمين : الرواية ، والدراية ، وكان له نصيب وافر من كليهما ، ولذا لما سُئل عن علمه كيف حصله؟ قال : بلسان سؤول وقلب عقول[٣] .

وعن عبيد الله بن أبي يزيد قال : كان ابن عباس إذا سُئل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به ، وإن لم يكن في القرآن ، وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به ، فإن لم يكن في القرآن ، ولا عن رسول الله ﷺ ، وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به ، فإن لم يكن في شيء من ذلك اجتهد رأيه[٤] .

---

(١) السير (٣/ ٣٤٤).
(٢) الحلية (١/ ٣١٦)، والجرح (٥/ ١١٦)، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٤).
(٣) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٧٠) ١٩٠٣، و (٢/ ٩٦١) ١٨٧٧ .
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، وسنن الدارمي (١/ ٥٩)، والإصابة (٢/ ٣٣٣).

وعن عبيد الله بن عُتبه، قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه، وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر، وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر، ولا عربية، ولا بتفسير القرآن، ولا بحساب، ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولقد كان يجلس يومًا ما يذكر فيه إلا الفقه، ويومًا التأويل، ويومًا المغازي ويومًا الشعر، ويومًا أيام العرب، وما رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علما[١].

وعن عطاء قال: كان ناس يأتون ابن عباس للشعر، وناس للأنساب وناس لأيام العرب، ووقائعها، فما منهم من صنف إلا يُقبلُ عليهم بما شاؤوا[٢].

وعنه قال: ما رأيت مجلسًا أكرم من مجلس ابن عباس، كان يجيء أصحاب القرآن، فيسألونه، ثم يجيء أهل العلم فيسألونه، ثم يجيء أصحاب الشعر فيسألونه[٣]، وعنده أصحاب النحو يسألونه، كلهم يصدر عن واد واسع[٤].

وعن عمرو بن دينار، قال: ما رأيت مجلسًا أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس لحلال وحرام، وتفسير القرآن، والعربية، وأنساب الناس والطعام[٥].

وكان ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ يستشهد بالشعر في تفسيره.

فعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: شهدت ابن عباس، وهو يسأل عن عربية

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٨)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩١)، وشذرات الذهب (١/ ٧٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٧)، والاستيعاب (٢/ ٣٥٧)، والعقد الثمين (٥/ ١٩١)، وذخائر العقبى (٢٣٠).
(٣) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٧٨) ١٩٢٩.
(٤) والزيادة، ينظر المعرفة (١/ ٥٢٠)، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٤).
(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٥٤)، ١٨٥٢، والاستيعاب (٢/ ٢٥٣)، والعقد الثمين (٥/ ١٩١).

القرآن فينشد الشعر[١] .

وكـــان ـ رضي الله عنهما ـ يقول، إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[٢] .

وقال سعيد بن جبير ، ويوسف بن مهران : ما نحصي كم سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن، فيقول : كذا وكذا، أما سمعت الشاعر يقول : كذا وكذا[٣] .

وعن عكرمة قال : كان ابن عباس إذا سئل عن الشيء من عربية القرآن ينشد الشعر[٤] .

بل كان ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ إذا سئل عن شيء من إعراب القرآن قال الشعر[٥] .

ومن أشهر ما يُروى عنه ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، ما رواه الضحاك بن مزاحم في مُساءلة نافع بن الأزرق لابن عباس وإجابته عن غريب ما سألهُ بما حضره من شعر العرب .

فعن الضحاك بن مزاحم الهلالي قال : خرج نافع بن الأزرق، ونجدة بن عويمر في نفر من رؤوس الخوارج لينقروا من العلم ويطلبوه، حتى قدموا مكة، فإذا هم بعبد الله ابن عباس قاعداً قريبًا من زمزم، وعليه رداء له أحمر، وقميص ، وإذا ناس قيام يسألونه عن التفسير يقولون : يا بن عباس، ما تقول في كذا، وكذا؟ فيقول : هو كذا

---

(١) سنن سعيد بن منصور كتاب التفسير (٢/ ٣١٦) ٩١، وإيضاح الوقف والابتداء (١/ ٦٢)، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٩٨) ١٦٠٢ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٤١)، إيضاح الوقف (١/ ١٠١)، والجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٩٨) ١٦٠٣ .

(٣) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٣) ١٨٨٠ .

(٤) المرجع السابق (٢/ ٩٧٤) ١٩١٦ .

(٥) المرجع السابق (٢/ ٩٨١) ١٩٣٨ .

وكذا: فقال له نافع بن الأزرق: ما أجرأك يا ابن عباس على ما تجريه منذ اليوم. فقال له ابن عباس: ثكلتك أمك يا نافع، وعدمتك، ألا أخبرك من هو أجرأ مني؟ قال: من هو يا ابن عباس؟ قال: رجل تكلم بما ليس به علم، ورجل كتم علمًا عنده، قال: صدقت، يا ابن عباس، أتيتك لأسألك، قال: هات يا ابن الأزرق، فسل.

قال: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ ما الشواظ؟ قال: اللهب الذي لا دخان فيه. قال: وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد ﷺ؟ قال: نعم! أما سمعت قول أمية بن أبي الصّلت.

ألا من مبلغ حسان عني ... مغلغلة تدب إلى عكاظ

أليس أبوك قينا كان فينا ... إلى القينات فسلا في الحفاظ

يمانيًا يظل يشب كيرا ... وينفخ دائبًا لهب الشواظ

قال: صدقت، فأخبرني عن قوله: ﴿وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ ما النحاس؟ قال: الدخان الذي لا لهب فيه، قال: وهل كانت العرب تعرف ذلك؟ قال: نعم! أما سمعت قول نابغة بني ذبيان يقول:

يضيء كضوء السراج السليط ... لم يجعل الله فيه نحاسا

قال: صدقت، فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿أمشاج نبتليه﴾ قال: ماء الرجل، وماء المرأة، إذا اجتمعا في الرحم كان مشجا، قال: وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد ﷺ؟ قال: نعم! أما سمعت قول أبي ذؤيب الهذلي وهو يقول:

كان الفصل والفوقين منه ... خلال الريش سيط به مشيج

قال: صدقت[١].

٥ ـ اهتمامه بالتفسير:

ومع كثرة علوم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وتعدد معارفه إلا أنه صرف في علم التفسير عنايته، وأفرغ فيه جهده، وبدا ذلك واضحًا في شهرة مدرسته به، ثم باشتغال أكثر أصحابه به.

والناظر في كتب الآثار يجد المروي عنه كثيرًا في التفسير خاصة، مما يدل على عظيم احتفائه به، وكثرة اشتغاله بهذا العلم، وهذا من أسباب تقدمه وسبقه في هذا الفن.

وقد كان أقرانه من الصحابة يحيلون السائل عن مشكل القرآن إلى ابن عباس.

فهذا ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عندما سُئل عن قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[٢].

قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني ما قاله. فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال: إن ابن عباس قد أوتي علمًا، صدق ـ هكذا كانتا. ثم قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي علمًا[٣].

---

(١) ينظر الأثر بطوله في المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٣٠٤ـ٣١٢) ١٠٥٩٧، قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني، وفيه جويبر، وهو ضعيف (٩/ ٢٨٤)، وينظر إيضاح الوقف والابتداء (١/ ٧٦ـ٩٧).

(٢) سورة الأنبياء: آية (٣٠).

(٣) الحلية (١/ ٣٢٠)، وأورده السيوطي في الدر عن ابن عمر، بلفظ مختصر وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في الحلية (٥/ ٦٢٥)، وأشار إلى هذا الأثر ابن حجر في الإصابة (٢/ ٣٣٢)، والسيوطي في الإتقان (٢/ ٥٣١).

وعن عمرو بن حبشي[١] قال: قلت لابن عمر: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٢]، قال: انطلق إلى ابن عباس فاسأله، فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ. فأتيته فسألته، فقال: إنه كان عندهما أصنام، فلما حُرِّمن أمسكوا عن الطواف بينهما، حتى أنزلت: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٣].

وعن سعيد بن مرجانة[٤]، قال: سمعت عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[٥] الآية، فقال: والله لئن آخذنا الله بهذا لنهلكنَّ! ثم بكى ابن عمر حتى سُمع نشيجه، فقال ابن مرجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما تلا ابن عمر، وما فعل حين تلاها، فقال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمري لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت في القول، والفعل[٦].

---

(١) عمرو بن حبشي الزبيدي، ذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ١٧٣)، وينظر الجرح والتعديل (٦/ ٢٢٦).

(٢) سورة البقرة: آية (١٥٨).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٢٢٣) ٢٣٤٠، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه لابن جرير عن ابن عمر به (١/ ٣٨٥).

(٤) سعيد بن مرجانة: هو سعيد بن عبد الله، ومرجانة أمه، وأبو عثمان الحجازي ثقة مات قبل المائة بثلاث سنين من الثالثة، ينظر التقريب (٢٤٠).

(٥) سورة البقرة: آية (٢٨٤).

(٦) تفسير الطبري (٦/ ١٠٦) ٦٤٥٩، وتفسير عبد الرزاق (١/ ١١٢)، والمعرفة والتاريخ (١/ ٤٠٤)، وزاد المسير (١/ ٣٤٢)، والإصابة (٢/ ٣٣٢).

ولذا كان سعيد بن جبير - الذي صحب ابن عمر، وابن عباس - رضي الله عن الجميع - يقول: كان ابن عمر حسن السرد للرواية عن النبي ﷺ ولم يبلغ في الفقه والتفسير شأو ابن عباس[١].

وعن المطلب بن عبد الله[٢] قال: قرأ ابن الزبير آية فوقف عندها، أسهرته حتى أصبح، فلما أصبح قال: من حبر هذه الأمة؟ قال: قلت: ابن عباس فبعثني إليه فدعوته، فقال له: إني قرأت آية كنت لا أقف عندها، وإني وقفت الليلة عندها، فأسهرتني حتى أصبحت ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣]، فقال ابن عباس: لا تسهرك فإنا لم نعن بها، إنما عني بها أهل الكتاب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤]، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[٥]. فهم يؤمنون ههنا، وهم يشركون بالله[٦].

هذا كله يشهد له - رضي الله عنه - بالسبق والشهرة في علم التفسير، وكان - رضي الله عنهما - يحرص في المجامع العامة على تعليم الناس التفسير.

فعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: حججت أنا وصاحب لي وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور، ويفسرها، فقال صاحبي: يا سبحان الله! ماذا يخرج

---

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ١٨٥).

(٢) المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي المدني، وثقة الفسوي، والدار قطني، وذكره ابن حبان في الثقات، ينظر المعرفة (٢/ ٤٧٢)، وسؤالات البرقاني للدارقطني (٤٤)، والثقات (٥/ ٤٥٠).

(٣) سورة يوسف: آية (١٠٦).

(٤) سورة لقمان: آية (٢٥).

(٥) سورة المؤمنون: آية (٨٨).

(٦) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٥٣) ١٨٤٩.

من رأس هذا الرجل، لو سمعت هذا الترك لأسلمت[١] .

ومما يبين اشتغاله بالتفسير، ما نجده من كثرة المروي عنه، وعدم مقاربة أحد من الصحابة له في هذا العلم[٢] ، بينما نجد سبق بعضهم له أو مقاربتهم له في علوم أخرى: كالحديث[٣] والفقه[٤] مثلاً.

٦ ـ منهج ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ التعليمي مع أصحابه[٥] :

تميز ـ رضي الله عنهما ـ بمنهج تعليمي خاص مع أصحابه، اتسم بالحرص على بث روح الثقة في نفوسهم، والتشجيع لهم للتصدي لأداء ما علموه وإبلاغه، وقد انفرد في هذا المنهج بالعديد من الأساليب، من أهمها:

أ ـ الحرص على تحصيلهم، وتلقيهم للعلم، وإلزامهم بذلك، فكان يربط في رجل مولاه عكرمة الكبل على تعليمه العلم[٦] .

ب ـ تدريبهم بحضرته على الأداء، والإفتاء للاطمئنان عليهم، فبعد أن علم أهليتهم كان يحرضهم على الإفتاء بحضرته لما فيه من تشجيعهم، وتنشيطهم على تحصيل العلم، وإبلاغه.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي (٣/ ٥٣٧)، ورواه الفسوي في تاريخه بلفظ مُقارب (١/ ٤٩٥)، وأبو نعيم في الحلية، وفيه: فجعل يقرأ سورة البقرة (١/ ٣٢٤)، وينظر الاستيعاب (٢/ ٣٥٣)، والإصابة (٢/ ٣٣٣)، والفتح (٧/ ١٠٠).

(٢) حيث بلغ المروي عنه عند ابن جرير (٥٨٠٩) أقوال، في حين جاء بعده ابن مسعود فبلغ مجموع ما جاء عنه عند ابن جرير (٨٥٦) قولاً، وعن عمر بن الخطاب (٣٢٤) قولاً.

(٣) حيث سبقه أبو هريرة فروى (٥٣٧٤) حديثًا.

(٤) سبقه عمر بن الخطاب، حيث جاء عنه عند ابن قدامة في المغني (٩٢٤) قولاً ومسائله ابن عمر، حيث أورد عنه ابن قدامه (٨٥٧) قولاً، وعن ابن عباس (٨٥٨) قولاً، رضي الله عن الجميع.

(٥) وهذا المنهج أدى بالتالي إلى تقدم الشيخ في التفسير لكثرة مسائل التلاميذ.

(٦) سنن الدارمي (١/ ١٣٩)، والمعرفة (٢/ ٥)، وسنن البيهقي (٦/ ٢٠٩).

فعن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لابن جبير: حدث، قال: أحدث وأنت شاهد؟ قال: أوليس من نعمة الله عز وجل عليك أن تحدث وأنا شاهد؟ فإن أخطأت علمتك[١].

جـ- وكان بعد الاطمئنان على علمهم، يأمرهم بالانطلاق لتعليم الناس وإفتائهم، فعن عكرمة قال: قال ابن عباس لي: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون. قلت: لو أن مع الناس مثلهم مرتين لأفتيتهم، ثم قال: قال ابن عباس: انطلق، فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثُلثي مؤنة الناس[٢].

وكان يقول لسعيد بن جبير: انظر كيف تحدث عني، فإنك قد حفظت عني كثيراً[٣].

د- وكان من أساليبه- رضي الله عنهما- توجيه الناس للأخذ عنهم، مشيراً إلى عظيم قدرهم، فكان لذلك الأثر الكبير في حرص الناس على سؤالهم، والأخذ عنهم، فكان إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟، يعني سعيد بن جبير[٤]، وكان يقول: يا أهل مكة أتجتمعون علي وعندكم عطاء؟!"[٥].

ولذا نجد أن تلاميذ ابن عباس تميزوا عن غيرهم من مفسري التابعين بالتوسع في علم الرواية، والدراية[٦] فكانت مدرستهم من أكثر المدارس قولاً، ورأيًا في التفسير،

---

(١) الجرح (٤/ ٩)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦).
(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٦٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٧).
(٤) تهذيب الكمال (١٠/ ٣٦٤)، وطبقات الحفاظ (٣١).
(٥) السير (٥/ ٨١)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٧٢).
(٦) عند مقارنة أصحاب ابن عباس بأصحاب ابن مسعود نجد أن من المفارقات الرئيسة بينهما أن أصحاب ابن مسعود الملازمين: كعلقمة، ومرة، ومسروق اشتغلوا برواية علم شيخهم، وقلَّ =

بل إن من ثمار تلك التربية أن أصحابه كانوا يفتون الناس بحضرته.

فعن مجاهد قال: بينما نحن أصحاب عبد الله بن عباس جلوس في المسجد، طاووس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وابن عباس يصلي، إذ وقف علينا (يعني واقفًا) فقال: هل من مفتي؟ فقلنا: سل، فقال: ما تقولون في رجل إذا بال، اتبعه الماء الدافق؟ قلنا: الذي يكون منه الولد؟ قال: نعم. قلنا: عليه الغسل، فولى الرجل يرجع، وخفف ابن عباس في صلاته، فلما سلم قال لعكرمة: علي بالرجل، ثم أقبل علينا، فقال: أرأيتم ما أفتيتم به هذا الرجل، أعن كتاب الله؟ قلنا: لا. قال: فعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: لا. قال: فعمن؟ قلنا: عن رأينا، قال: لذلك يقول رسول الله ﷺ: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»[(١)].

فلما جاء الرجل أقبل عليه ابن عباس، فقال: أرأيت إذا كان ذلك منك شهوة في قلبك؟ قال: لا، قال: فحدرًا؟ يعني في جسدك، قال: لا. قال: هذه إبردة[(٢)]، يجزيك فيها الوضوء[(٣)].

= عندهم التوسع في باب الدراية، ونجد المنقول عنهم في هذا نزرًا يسيرًا، ويأتي لذلك مزيد بسط ص (٥٤٨).

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب فضل العلماء (١/ ٨١) ٢٢٢، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقيه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه (٥/ ٤٨) ٢٦٨١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٦٧) ١٧١٥، وذكره السخاوي في كتاب المقاصد الحسنة، وقال: سنده ضعيف. وذكر أن سنده يتقوى بما روي من طرق أخرى (٣٣٦)، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣/ ٩٦) ٣٩٩١، وفي تخريجه لأحاديث مشكاة المصابيح، وقال: آفته روح بن جناح، وهو ضعيف جدًا. (١/ ٧٥) ٢١٧.

(٢) الإبردة: علة معروفة من غلبة البرد والرطوبة تُفتِّر عن الجماع، وهمزتها زائدة. . . ، ورجل به إبردة، وهو تقطير البول، ينظر لسان العرب (٤/ ٤٩).

(٣) الأثر أخرجه بطوله ابن المنذر في الأوسط (١/ ١٣٥) ٢٤، وأورده الهندي في الكنز، وعزاه إلى ابن عساكر، وحسن إسناده (٩/ ٤٨٤) ٢٧٠٨٣.

وعن عكرمة قال: كنت أفتي بالباب، وابن عباس في الدار[١].

وكان أصحابه يراجعونه، وقد يفتحون عليه بعض المعاني، فيسرُّ بذلك.

فعن عكرمة قال: قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[٢].

قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به، حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة[٣].

وبلغ ببعضهم أن كان يراجع شيخه، ويُخالفه صراحة، فعند تأويل قوله تعالى: ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[٤]، قال ابن عباس: إذا أصاب الرجل الحدَّ: قتل، أو سرق، فدخل الحرم، لم يُبايع، ولم يُؤوَ، حتى يتبرم فيخرج من الحرم، فيقام عليه الحد، قال مجاهد لابن عباس: ولكني لا أرى ذلك، أرى أن يؤخذ بُرمته، ثم يخرج من الحرم، فيقام عليه الحد، فإن الحرم لا يزيده إلا شدة[٥].

هذا شيء من حاله ومنهجه ـ رضي الله عنه ـ مع أصحابه، وأحسب أن هذا المسلك التربوي، الذي تميز به ابن عباس مع أصحابه كان من أسباب تفوق أصحابه، وسبقهم، وكثرة اجتهادهم.

٧ ـ حرصه على نشر علمه:

يقول ابن أبي مليكة: دخلت على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: إني

(١) الميزان (٣/ ٩٥)، وطبقات الحفاظ (٣٧).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٦٤).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٨٧) ١٥٢٦٩، وطبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٧)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة به (٣/ ٥٩٠)، وفتح القدير (٢/ ٢٥٩).

(٤) سورة آل عمران: آية (٩٧).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٠) ٧٤٥٩.

أصبحت طيب النفس، فسلوني عن أشياء من سورة البقرة وسورة يوسف، يخصهما من بين السور، قال: فولينا المسألة رجلاً، فلم يكن عنده شيء[١].

وكان ـ رضي الله عنهما ـ يتمنى لو علم جميع الناس ما يعلم من القرآن[٢].

وكان يرغب أصحابه في كتابة العلم، والأخذ عنه، يقول ـ رضي الله عنه ـ: قيدوا العلم بالكتاب، من يشتري مني علماً بدرهم[٣].

ويقول ـ رضي الله عنهما ـ لسعيد بن جبير: إن لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم، ولا يقولن أحدكم: حدثت أمس فلا أحدث اليوم، بل حدث أمس، ولتُحدث اليوم، ولتحدث غداً[٤].

٨ ـ رحلاته وأسفاره:

تنقَّل ـ رضي الله عنه ـ في البلاد مُبلغًا، مجاهداً باللسان والسنان، فسافر إلى العراق، واستعمله علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على البصرة[٥].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يغشى الناس بالبصرة في شهر رمضان فما ينقضي حتى يفقههم[٦].

فعن الحسن قال: كان ابن عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم على منبرنا هذا، فيقرأ سورة البقرة وآل عمران فيفسرها آية آية[٧].

---

(١) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٩٤).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٢٢).
(٣) العلم لأبي خيثمة (١٤٤).
(٤) سنن الدارمي (١/ ١٤٧)، وشرف أصحاب الحديث (٩٥).
(٥) تهذيب الأسماء (١/ ٢٧٦)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٢)، والعقد الثمين (٥/ ١٩١).
(٦) الإصابة (٢/ ٣٣٤).
(٧) السير (٣/ ٣٤٤)، وأخرج هذا الأثر ابن سعد في طبقاته بلفظ مقارب مختصر (٢/ ٣٦٧)، وكان من نتاج هذه الرحلة ما رأيناه من أثر واضح على المدرسة البصرية، وأنها من أكثر المدارس تعرضًا للتفسير بعد مكة، وكان من نتاجها ما ذكرنا من الأثر البالغ الذي أحدثه ابن عباس في =

ورحل إلى مصر، فروى عنه من أهلها خمسة عشر نفسًا[١] .

وسافر إلى إفريقية مجاهدًا، وقسم الفيء بين المسلمين في فتح إفريقية، وكان الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح - رضي الله عنه[٢] -.

وهذا مما نشر علمه، وكثر الناقلين لعلمه، وتفسيره.

٩ - تأخر وفاته :

توفي - رضي الله عنه وأرضاه - في الطائف[٣] ، سنة ثمان وستين[٤] . فحصل الكثير من العلم، وزاد من الحاجة إليه، ولاسيما في مكة ، التي كان العلم بها يسيرًا في زمن كبار الصحابة، وكثر في عهد صغارهم[٥] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد أن ساق ثناء ابن مسعود على ابن عباس رضي الله عنهم - وقوله : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس، قال رحمه الله: فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح وعُمِّرَ بعده ابن عباس ستًا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود[٦] .

= نفوس ومناهج بعض مفسريها وعلى رأسهم أبو العالية، الذي مال إلى منهج المدرسة المكية، وتأثر بها أكثر من تأثره بمنهج المدرسة البصرية، ويأتي لذلك مزيد بسط إن شاء الله.

(١) السير (٣/ ٣٣٦)، وحسن المحاضرة في أخبار من دخل مصر والقاهرة (١/ ٢١٤).

(٢) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/ ٦١)، ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (١/ ١١١)، والإصابة (٢/ ٣٣٠).

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (٣/ ٣٢٨)، والمعرفة (١/ ٥١٨)، والمعجم الكبير (١٠/ ٢٨٨)، والمستدرك (٣/ ٥٤٤).

(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٣٨)، والمعرفة (٣/ ٣٣٠)، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٥)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٠).

(٥) الأمصار ذوات الآثار (١٥٦).

(٦) مقدمة في أصول التفسير (٩٧).

مقارنة بين أصحاب ابن عباس

بين مجاهد، وعكرمة:

مجاهد وعكرمة ـ رحمهما الله ـ من أكثر مفسري التابعين تعرضًا للتأويل، واجتهادًا فيه، فقد تفرغا وانقطعا له، وكان بينهما أوجه من الشبه والاتفاق، وبعض أوجه من الاختلاف والتباين، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: أوجه الشبه والاتفاق:

فمما تشابها فيه: طول ملازمتهما، ومصاحبتهما لحبر الأمة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأخذهما عنه، وكذا سبقهما لكثير من التابعين في باب النظر والاجتهاد في التفسير، فقد كانا من أكثر التابعين تساهلاً وتوسعًا في بيان ما غمض من الآي وأشكل، ولذا نجد الأئمة قد اختلفوا في تقديم أحدهما على الآخر، فمنهم من قدم مجاهدًا، كما روي ذلك عن قتادة حيث قال: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد[1]، وقال خصيف: أعلمهم بالتفسير مجاهد[2].

ومنهم من قدم عكرمة، كما روي ذلك عن أبي حاتم حيث قال: أصحاب ابن عباس عيال في التفسير على عكرمة[3].

كما أن من أوجه التقارب بينهما ما تبين لي من تفرغهما وتخصصهما في علم القرآن وتأويله، فإن مما قلل نتاج الكثير من التابعين جمعهم لكثير من العلوم، أو اشتغالهم

(١) التذكرة (١/ ٩٢).
(٢) تهذيب الكمال (٢٧/ ٢٣٣).
(٣) الجرح (٧/ ٩).

بعلوم أخرى مع علم التفسير، وتقديمهم لهذه العلوم عليه، أما مجاهد وعكرمة فقد صرفا جل عنايتهما، وغاية اهتمامهما إلى التفسير وأصوله، وكل علم يخدم القرآن، لذلك كان حظهما من العلوم الأخرى أقل من التفسير.

ثانيًا: بعض أوجه التباين والاختلاف:

١ ـ تعرضا جميعًا للآيات المشكلة، وتوسعا في باب النظر والاجتهاد، إلا أن مجاهدًا كان أكثر من عكرمة في هذا، وكان أسهل منه في باب الرأي والقياس، وقد عدّه ابن خلدون من أكثر تلاميذ ابن عباس تحررًا في التفسير[١].

وقد أعطى مجاهد لعقله، وفهمه حرية أوسع في فهم بعض النصوص القرآنية التي يبدو ظاهرها بعيدًا[٢]، وكان من أكثر تلاميذ ابن عباس في ذلك. بل يعتبر من أوائل من أدخل التفسير بالاجتهاد في التفسير بالمأثور[٣]، وكان أكثر مخالفة لظاهر اللفظ القرآني من عكرمة، بل من التابعين كلهم، مع ما كان من مخالفته لإمام المدرسة ابن عباس[٤].

وأما عكرمة فإنه، وإن كان ممن اجتهد، وبلغ في ذلك شأوًا كبيرًا من العلم بالتأويل، واستحق بتلك العقلية التي كانت تسمع الكلمة من الناس فينفتح لها خمسون بابًا من العلم[٥] أن يتبوأ تلك المنزلة الرفيعة بين المفسرين؛ فقد غلَّب جانب الأثر والرواية، والإفادة من محفوظه.

٢ ـ ولعل مما أهل مجاهدًا للسبق في باب النظر، تعدد مصادره، وتنوع موارده،

---

(١) دراسات في القرآن أحمد خليل (١١٢).
(٢) دراسات في التفسير وأصوله د. محيي الدين بلتاجي (٥٧).
(٣) القرآن العظيم هدايته وإعجازه (١٩٧).
(٤) وقد مرّ هذا بشيء من التفصيل في ترجمته ص (١٣٣).
(٥) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٣)، والتذكرة (١/ ٩٦).

وتأتى له من ذلك ما لم يتأت لعكرمة، فقد رحل إلى الكوفة، وتلقى قراءة ابن مسعود، وكان يقول: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت[١].

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: ما رأيت مسجدًا أحرى أن نسمع فيه علمًا لم نسمعه من مسجد الكوفة[٢]. ويضاف إلى ذلك أنه صحب ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وتأثر به في جانب الإقلال من رواية حديث المصطفى ﷺ، وفي هذا يقول: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ إلا حديثًا واحدًا[٣].

٣ ـ وهذا يقودنا إلى الحديث عن وجه آخر من أوجه الخلاف بينهما، فإن عكرمة كان يعتمد على العلوم النقلية أكثر من العقلية، في حين كان مجاهد من أقل المكيين في ذلك، فلا غرو إذًا أن نجد عكرمة قد فاق صاحبه وتقدم عليه في معرفة أسباب النزول، ويتبين هذا واضحًا في نسبة ما روي عنه[٤].

كما فاق عكرمة أيضًا في العناية والاهتمام بالرواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مما حدا بمجاهد إلى أن يأخذ كثيرًا مما فاته عن ابن عباس من عكرمة[٥]، ويبدو هذا جليًا من مقارنة ما روي عن ابن عباس من طريق عكرمة، وما روي عنه من طريق مجاهد[٦].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يُفسر القرآن برأيه (٥/ ٢٠٠).
(٢) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٦٧٨).
(٣) السير (٤/ ٤٥٤)، والتهذيب (١٠/ ٤٣).
(٤) كان نسبة أسباب النزول عند عكرمة (١٤, ٠)، في حين بلغت عن مجاهد (٠٥, ٠) فقط.
(٥) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (١/ ٣٢٣).
(٦) المروي عن ابن عباس من طريق عكرمة بلغ (٠٩, ٠) من مجموع تفسيره، في حين بلغ المروي من طريق مجاهد (٠٣, ٠) فقط.

وفي ذلك يقول عكرمة : كل شيء أحدثكم في القرآن ، فعن ابن عباس[١] .

ويشهد لذلك أن حفاظ ابن عباس كانوا يسألون عكرمة عن مذهب ابن عباس أكثر من سؤالهم مجاهداً[٢] .

٤ ـ توسع مجاهد وتساهله في الرواية عن بني إسرائيل أكثر من عكرمة ، فمع أن عكرمة كان من المقدمين بين المكيين في معرفة المغازي والسير وفي أسباب النزول ؛ إلا أنه قل أن يعتمد عليها ، وهذا ما دفع بعض الكوفيين إلى التحرز من تفسير مجاهد بسبب أخذه عن أهل الكتاب[٣] .

٥ ـ ومما تميز به مجاهد عن عكرمة ، وانفرد به ، كثرة المروي عنه في علم التفسير ، واعتماد الأئمة عليه في التأويل ، ويدل على ذلك أن ما رواه الإمام الطبري مثلاً عن عكرمة لا يزيد عن سدس ما رواه عن مجاهد[٤] ، ومنشؤ ذلك ـ فيما أحسب ـ يعود إلى سببين أولهما : دخول عكرمة في شيء من الأهواء ، والقول ببعض أقوال أهل الأهواء[٥] ، والثاني : أنه تهيأ لمجاهد من أسباب نشر علمه ، ونقل تراثه ما لم يتهيأ مثله لعكرمة[٦] .

٦ ـ ومما تميز به مجاهد سبقه في علم القراءات ، فقد تقدم على عكرمة ؛ ولذا عدّه

(١) العلل لأحمد (٣/ ٣٦٦) ٥٦١١ ، ووفيات الأعيان (١/ ٣١٩) ، والتهذيب (٧/ ٢٦٣) .
(٢) العلل لأحمد (٣/ ٣٧٩) ٥٦٦٧ ، (٣/ ٣٦٩) ٥٦٢٢ .
(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧) .
(٤) بعد مراجعة تفسير الطبري بلغ المروي من تفسير مجاهد (٦١٠٩) أقوال ، وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً .
(٥) سبق تفصيل ذلك في ترجمة عكرمة ص (١٦٨) .
(٦) تخصص ابن أبي نجيح في رواية ونقل تفسير مجاهد ، حيث روى (٠,٥٦) من مجموع تفسيره . وابن جريج حيث روى (٠,١٥) ، في حين كان من أشهر أصحاب عكرمة ابن جريج ، ولم يرو عنه إلا (٠,٠٨) من مجموع تفسيره ، ويزيد النحوي ولم يرو إلا (٠,٠٧) من مجموع تفسيره .

الإمام الذهبي شيخ القراء[١] ، ولم لا وقد كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف[٢] ، ولم يبلغ عكرمة مبلغه في هذا .

وخلاصة القول : إن عكرمة قارب مجاهداً في كثير من التفسير ، فكان أتباع التابعين في مكة يعرضون أقوال عكرمة على مجاهد ، ويعدون اتفاقهما علامة على صحة القول وقوته ، فقد جاء عن عكرمة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[٣] .

قال الله لإبراهيم : إني مبتليك بأمرٍ فما هو؟ قال : تجعلني للناس إمامًا! قال : نعم . قال : ومن ذريتي . قال : لا ينال عهدي الظالمين ، قال : تجعل البيت مثابة للناس قال : نعم ، قال : وأمنًا . قال : نعم ، قال : وتجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . قال : نعم ، قال : وترينا مناسكنا وتتوب علينا ، قال نعم ، قال : وتجعل هذا البلد آمنًا ، قال : نعم ، قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم ، قال : نعم .

يقول ابن أبي نجيح : أخبرني به عكرمة ، فعرضته على مجاهد فلم ينكره[٤] .

وقال ابن جريج : فاجتمع على هذا القول مجاهد وعكرمة جميعًا[٥] .

وعن ابن أبي نجيح ، قال : سمعت عكرمة قال : قال الله : ﴿ ومن كفر ﴾ . . . فإني أرزقه من الدنيا حين استرزق إبراهيم لمن آمن ، ثم قال ابن أبي نجيح : سمعت هذا من عكرمة ، ثم عرضته على مجاهد فلم ينكره[٦] .

---

(١) السير (٤/ ٤٤٩) .
(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٣) ٥٢ .
(٣) سورة البقرة : آية (١٢٤) .
(٤) تفسير الطبري (٣/ ١١) ١٩١٩ .
(٥) تفسير الطبري (٣/ ١١) ١٩٢٠ .
(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٧٩) ١٢٣٥ .

وعند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ عن ابن أبي نجيح، عن عكرمة قال: ثم مصير الكافر إلى النار، فعرضته على مجاهد، فلم ينكره[١].

ومع هذا فكأني ألمس أن مجاهداً لم يكن يرضى عن عكرمة تمام الرضى، بل كان يخطئه، ويصفه بالكذب أحياناً[٢].

فعن القاسم بن أبي بزة قال: قال لي مجاهد: سل عنها عكرمة: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾[٣]، فسألته، فقال: الإخصاء.

قال مجاهد: ماله، لعنه الله! فوالله لقد علم أنه غير الإخصاء، ثم قال: سله، فسألته فقال عكرمة: ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٤] قال: لدين الله، فحدثت به مجاهداً، فقال: ماله أخزاه الله[٥].

وكان ـ رحمه الله ـ يرسل أحياناً من يسأله، فإذا أصاب بين ذلك، فعن ليث بن أبي سليم قال: أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[٦] فقال: قيل له: إن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال:

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٧٩) ١٢٣٧.

(٢) المغني في الضعفاء (٢/ ٤٣٩)، ولعل مراده بالكذب الخطأ كما هو كثير في مصطلح السلف، أو بسبب تلبس عكرمة ببعض رأي أهل الأهواء.

(٣) سورة النساء: آية (١١٩).

(٤) سورة الروم: آية (٣٠).

(٥) تفسير الطبري (٩/ ٢١٦) ١٠٤٥٥، وتفسير عبد الرزاق (١/ ١٧٣).

(٦) سورة الأنبياء: آية (٨٤).

أصاب[١] .

بين عكرمة، وسعيد بن جبير :

كان بين عكرمة وسعيد أوجه من التقارب، والاتفاق، وأوجه أخرى من التباين، والاختلاف، فأما أوجه التقارب؛ فسببها أن عكرمة تزوج بأم سعيد[٢] ، وكان لذلك أثره في تقاربهما في كثير من الآراء[٣] ، فقد تقاربا في عدد المروي عنهما في التفسير - عامة -[٤] ، وكانا كفرسي رهان في الرواية لتفسير ابن عباس - رضي الله عنهما[٥] ..

وأما أوجه الاختلاف، فعكرمة أعلم بالتفسير، وأكثر تفرغًا من سعيد. يتضح هذا من خلال ما يلي :

١ - كانت عناية عكرمة بالعلوم الخادمة للقرآن أكثر، ففاق صاحبه في معرفة أسباب النزول، وكان اعتماده عليها أكثر[٦]، ويتضح هذا ويتأكد ، عند مراجعة المروي من تفسير ابن عباس ، فقد عني عكرمة بأسباب النزول الواردة عنه - رضي الله عنه - أكثر من عناية سعيد[٧] .

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٧٢)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى ابن جرير عن ليث بمثله (٥/ ٦٥٦).

(٢) مشاهير علماء الأمصار (٨٢)، والثقات (٥/ ٢٣٠)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧١).

(٣) هما من أكثر المكيين تقاربًا في المناهج والأقوال.

(٤) تشابها في هذا الجانب، فقد روى سعيد بن جبير (١٢ , ٠) من مجموع تفسير ابن عباس، في حين كان نسبة ما رواه عكرمة (٠٩ , ٠) من مجموع تفسيره، وأما غيرهم من أصحابهم، فإن مجاهداً لم يرو إلا (٠٣ , ٠)، وعطاء (٠٢ , ٠) وغيرهم أقل منهم في ذلك.

(٥) تقاربا في عدد المروي عنهما في التفسير عامة، فإن مجموع ما روي عن سعيد بن جبير بلغ (١٠١٠) أقوال، وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً.

(٦) كانت نسبة ما روي عن عكرمة في أسباب النزول (١٤ , ٠)، في حين بلغت عند سعيد ما نسبته (٠٧ , ٠) من مجموع تفسيره.

(٧) كان المروي عن ابن عباس في أسباب النزول (٤٨٥) رواية، منها (٢٥ , ٠) من طريق عكرمة، (١٩ , ٠) من طريق سعيد.

٢ ـ وفي باب معرفة المكي والمدني تقدم عكرمة كثيراً على صاحبه، واستشهد الأئمة من المفسرين بأقوال عكرمة في هذا، وقل أن نجد لسعيد شيئًا من الروايات في هذا الباب[١].

٣ ـ كان عكرمة أكثر تساهلاً من سعيد في باب الاجتهاد والنظر، وكان أكثر منه تعرضًا للمشكل من الآيات، ولعل سعيدًا تأثر في هذا بالمدرسة الكوفية، التي كانت من أشد المدارس ورعًا وخوفًا من التفسير، فعن مروان الأصفر قال: كنت جالسًا عند سعيد بن جبير، فسأله رجل عن آية من كتاب الله عز وجل، فقال له سعيد: الله أعلم، فقال له الرجل: قل فيها أصلحك الله برأيك، فقال: أقول في كتاب الله برأيي؟! فردده مرتين، أو ثلاثًا، ولم يجبه بشيء[٢].

٤ ـ توسع عكرمة في القول بالنسخ، وكان في ذلك أكثر من سعيد[٣].

٥ ـ كان عكرمة ـ رحمه الله ـ أكثر عناية بمبهمات القرآن من سعيد[٤].

٦ ـ كان عكرمة أكثر اعتمادًا على اللغة من سعيد، فكان استشهاده بالشعر، ودقته في التفريق بين الكلمات القرآنية، ومعرفة المعرب من الألفاظ القرآنية، مميزات تقدم فيها على صاحبه[٥].

٧ ـ وفي الجملة، فقد كان تفرغ عكرمة وانقطاعه لعلم التفسير أكثر من سعيد، وقد لاحظنا فيما سبق أن ثناء الأئمة على عكرمة جاء في التفسير خصوصًا، فهذا أبو حاتم

---

(١) وفي تحديد المكي، والمدني، استشهد ابن الجوزي بما روي عن عكرمة في (٢٦) موضعًا، في حين لم يعتمد قول سعيد بن جبير إلا في موضعين فقط.

(٢) سنن سعيد بن منصور كتاب التفسير (١/ ١٧٤) ٤١، وشعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٢٣١) ٢٠٨٨.

(٣) يأتي تفصيل ذلك في مبحث النسخ ص (١٠٨١).

(٤) سبق الإشارة إلى ذلك في ترجمة عكرمة ص (١٥٨).

(٥) سبق تفصيل ذلك في ترجمة عكرمة ص (١٦١).

عندما سئل : أيهما أعلم بالتفسير عكرمة أو سعيد؟ ، قال أصحاب ابن عباس عيال في التفسير على عكرمة[١] .

بل إن سعيداً لما سئل فقيل له : تعلم أحداً أعلم منك، قال : نعم . عكرمة ، في حين ورد الثناء على سعيد في جمعه لعديد من العلوم[٢] .

٨ ـ كان لرحلات عكرمة، وكثرة أسفاره في البلاد، الأثر البالغ في نشر تراث المدرسة المكية، وأما سعيد فكان أقل منه في ذلك .

وفي مقابل هذا نجد أن سعيداً فاق عكرمة فيما يلي :

١ ـ كان سعيد ـ رحمه الله ـ أكثر إتقاناً وضبطاً في الرواية من عكرمة . وقد عدّه ابن المديني من أثبت أصحاب ابن عباس[٣] .

وعد ابن معين مراسيله أقوى من مراسيل عطاء، ومجاهد، وطاووس[٤] . بل كان سعيد يتابع عكرمة، ويسمع منه، ويصحح ما يراه صواباً .

فعن أيوب السختياني قال : اجتمع حفاظ ابن عباس على عكرمة، منهم سعيد بن جبير، وعطاء، وطاووس، فكان كلما حدث بحديث، قال سعيد بن جبير : هكذا، وعقد أبو صالح ثلاثين ـ يعني : أصاب ـ حتى أتى على حديث الحوت، فقال عكرمة : كان يسايرهم في ضحضاح من ماء، فقال سعيد بن جبير : أشهد على ابن عباس أنه قال : كان يسايرهما في مكتل[٥] .

وأحسب أن مما أهله لذلك؛ اتصاله بمشاهير مدرسة الكوفة، والذين كانوا من أشد

---

(١) الجرح (٩١٧)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٢٣)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٧ هـ/ ١٧٨).
(٢) التاريخ الكبير (٧/ ٤١٢)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٢).
(٣) العلل لابن المديني (٤٩)، والمعرفة (٢/ ١٤٧).
(٤) جامع التحصيل (٩٠).
(٥) العلل لأحمد (٣/ ٣٧٩) ٥٦٦٧، (٣/ ٣٦٩) ٥٦٢٢.

التابعين نقداً وشدة في قبول الروايات، مع ما كان عنده من الحرص على الكتابة - رحمه الله -.

٢ - كان سعيد أكثر عناية بالآثار، وبعداً عن الآراء من عكرمة، فقد غلَّب الرواية على الدراية، وقد اتضح هذا من خلال ما روي عنهما في التفسير، ومن خلال طول مصاحبة سعيد لابن عمر[١]، بخلاف ما كان من حال عكرمة[١].

٣ - كان اهتمام سعيد بالقراءات وتقدمه فيها أكثر من عكرمة، واتضح هذا الاهتمام كذلك بعد تتبع المروي عن ابن عباس في القراءات، حيث حاز سعيد قصب السبق في ذلك[٢].

٤ - كان سعيد أكثر تساهلاً في التحديث عن بني إسرائيل من عكرمة[٣].

٥ - كانت عناية سعيد بآيات الأحكام وتفسيرها أكثر من عكرمة[٤].

٦ - المروي، والمنقول من تفسير ابن عباس عن سعيد أكثر[٥]، مع أن عكرمة كان أكثر ملازمة، وأطول بقاءً عنده، وأحسب أن السبب الرئيس في ذلك دخول عكرمة في شيء من الأهواء، مما عكر صفو المروي عنه، حيث رد بعض الأئمة روايته بسبب ذلك. بخلاف سعيد الذي لم يتردد أحد في الأخذ منه والنقل عنه[٦].

---

(١) العلل لأحمد (٢/ ١٤٧) ١٨٢١.

(٢) عني سعيد بنقل (٢٠,٠) من مجموع ما جاء عن ابن عباس في القراءات، في حين بلغت نسبة ما جاء عن عكرمة (١٣,٠)، وعن مجاهد (٠٧,٠)، وعن عطاء (٠٣,٠).

(٣) بلغ نسبة المروي عن سعيد في الإسرائيليات (٠٦,٠) من مجموع تفسيره، في حين لم تتجاوز (٠٣,٠) من تفسير عكرمة.

(٤) بلغ نسبة المروي عن سعيد (٠٩,٠) من مجموع تفسيره، في حين بلغت عن عكرمة (٠٤,٠).

(٥) حيث بلغ المروي عنه في ذلك (١٢,٠) من مجموع تفسيره، وعن عكرمة (٠٩,٠).

(٦) سبق تفصيل ذلك في ترجمة عكرمة ص (١٦٨).

بين عطاء بن أبي رباح، وأصحاب ابن عباس :

فارق عطاء ـ رحمه الله ـ أصحابه في بعض المسالك، بل هو من أكثر الأربعة المشاهير اختلافًا ومفارقة، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب :

١ ـ قلة المروي عنه في التفسير : فهو من أقل المشهورين رواية في التفسير[١] ، ومن أكثرهم تحرجًا فيه، بل كان يطلب من تلميذه ابن جريج أن يعفيه إذا سأله عن التفسير[٢]. مع ما كان عنده من الورع في بلاغ علمه، ولذا فإن أكثر علمه إنما أخذ منه بالسؤال، وأيضًا فقد كان الحاضرون لحلقته قليل، ومن ثمَّ قل المروي عنه[٣] .

٢ ـ كان ـ رحمه الله ـ من أكثرهم عناية بالفقه، والإفتاء، بل إنه فاقهم في الفتوى[٤]، وصار أعلمهم بالمناسك[٥] .

والمكيون ـ عمومًا ـ لم يهتموا بالفقه والأحكام الفرعية كاهتمامهم بالتفسير ؛ إلا أن عطاء خالفهم في هذا.

٣ ـ هو أقلهم رواية عن بني إسرائيل ، مع أن المدرسة المكية من أكثر المدارس رواية عن أهل الكتاب.

٤ ـ كان ـ رحمه الله ـ من أقلهم ملازمة لابن عباس، يتضح هذا عند قراءة سيرته، ومقارنتها بغيره من أصحابه، ولذا فهو من أقلهم رواية عنه[٦] .

---

(١) بلغ المروي عنه عند ابن جرير (٤٨٠) قولاً.

(٢) العلل لأحمد (٢/ ١٣١) ١٧٨٢.

(٣) اللآلئ الحسان (٣٣٦).

(٤) الجرح (٦/ ٣٣٠)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٤)، والعقد الثمين (٦/ ٨٥).

(٥) العلل لأحمد (٣/ ٤٤٤) ٥٨٨٨.

(٦) روى سعيد بن جبير (١٢ , ٠) من مجموع تفسير ابن عباس، في حين بلغت النسبة عن عكرمة (٠٩ , ٠)، وعن مجاهد (٠٣ , ٠)، وعن عطاء (٠٢ , ٠).

٥ ـ كان من أكثرهم حرصًا على الآثار، وروايتها، وكان من أكثر أصحاب المدرسة المكية تساهلاً في روايته للمراسيل، وكان يأخذ عن كل أحد، حتى عُدَّت مراسيله من أضعف المراسيل[١].

ولذا فهو من أبعدهم عن الرأي، بل إن مما ميزه عن غيره، سفره إلى المدينة، وأخذه الحديث عن أئمتها.

يقول مجاهد وغيره من المكيين: لم يزل شأننا متشابهًا متناظرين، حتى خرج عطاء ابن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إلينا استبان فضله علينا[٢].

ولذا يقول الإمام الشافعي: ليس من التابعين أحد أكثر اتباعًا للحديث من عطاء[٣].

وخلاصة القول: إن عطاء ـ رحمه الله ـ كان من أكثر المشاهير من مفسري مكة مخالفة لمنهج شيخه، ومسلك أصحابه، وكان من أشدهم ورعًا، ولذا فإنه قلَّ أن يتعرض للمشكل من الآيات. وكان ـ رحمه الله ـ من أضعفهم في معرفة لغات أهل قبائل العرب، وغيرها من معرب القرآن[٤].

أسباب كثرة المروي عنهم:

تميزت المدرسة المكية من بين سائر المدارس بكثرة تناولها للآيات وتفسيرها، وأسهمت إسهامًا قيمًا في الإبانة عن كثير من المعاني التي يحتاج إليها، ويرجع ذلك لأسباب عديدة من أهمها:

---

(١) الجرح (١/ ٢٤٣)، والمعرفة (٣/ ٢٣٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٨٣).
(٢) المعرفة (١/ ٤٤٣).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٣).
(٤) وقد سبق ذلك في ترجمته ص (١٩٤).

١ ـ إمامة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ للمدرسة :

وقد سبق أن بينا تقدم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بين الصحابة في علم التفسير، ببركة دعائه ﷺ ، وما كان من حاله في كثرة اشتغاله بالتفسير، وتأخر وفاته، وغير ذلك، مما كان وراء كثرة المروي عنه في علم التأويل.

كل ذلك كان له الأثر المباشر في نفوس أصحابه، ولذا يتبين للناظر في مرويات تلاميذه، أن من أهم أسباب كثرة المروي عنهم أخذهم العلم عنه ـ رضي الله عن الجميع ـ وكان أصحابه يفاخرون غيرهم من التابعين بتلك الإمامة.

فهذا مجاهد ـ رحمه الله ـ يقول: نحن ـ أهل مكة ـ نفخر على الناس بأربعة: بفقيهنا، وقاصّنا، ومؤذننا، وقارئنا، فأما فقيهنا فابن عباس، وأما مؤذننا فأبو محذورة، وأما قارئنا فعبد الله بن السائب، وأما قاصّنا فعبيد بن عمير[1].

وحق لهذه المدرسة أن تفاخر بابن عباس الذي كان من أعلم الصحابة، وأكثرهم قولاً في التفسير؛ حتى إن الذي يليه من الصحابة في كثرة المروي عنه، وهو ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لا يعادل المروي عنه في التفسير سدس المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

٢ ـ الأثر المكاني على المدرسة :

فمكة هي البلد الحرام، وفيها بيته الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، فالثائبون له من الحجاج والعمار، يترددون عليه المرة تلو الأخرى، تأتي مواكب الحجيج من كل فج عميق، لحج بيته، وليشهدوا منافع لهم، وليتعلموا العلم النافع، فإذا قضوا مناسكهم حملوا ما مَنَّ الله به عليهم من العلم، لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤٥)، وفضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٧٧) ١٩٢٦، (٢/ ٩٨١) ١٩٤١، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٤٣).

فعن معتمر بن سليمان قال: كانوا يجتمعون على عطاء في المواسم، فكان سليمان ابن موسى هو الذي يسأل لهم[١].

وقد كان كثير من الأئمة ممن ليسوا من المكيين لعيشهم، ونشأتهم في حواضر، ومدن بعيدة عن مكة، إلا أنه كان لترددهم عليها مرات عديدة الأثر البالغ في منهجهم، فأصبحوا إلى المدرسة المكية أقرب منهم إلى مدارسهم، فهذا أبو العالية حج أكثر من ست وستين حجة[٢].

وكان سعيد بن جبير يتردد على مكة في العام مرتين: مرة حاجًا ومرة معتمراً[٣]، وحج طاووس أكثر من أربعين حجة[٤].

٣ ـ كثرة رحلاتهم، وأسفارهم:

فمع أن المركز الرئيس لهذه المدرسة هو مكة، التي كان يشع منها نور العلم، فيستفيد منه الحجاج، والوافدون إلى بيت الله؛ إلا أن أصحاب هذه المدرسة لم يكتفوا بهذا، بل حرصوا على التنقل، والتجوال في الأقطار والبلدان، لينتشر هذا العلم في أصقاع المعمورة.

ولعل من أبرز من يمثل هذا بين المكيين عكرمة مولى ابن عباس، فقد رحل إلى البصرة، وكانت رحلة خير وبركة، حتى إن إمامها الحسن البصري ترك كثيراً من التفسير، لما قدم عكرمة[٥].

وكان مجاهد قريبًا منه، فكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب، ونظر إليها، وقد رحل

---

(١) العلل لأحمد (٢/ ٢٣٣) ٢١٠٨.
(٢) المعارف (٢٠٠)، وشذرات الذهب (١/ ١٠٢)، سبق بيانه في ترجمته ص (٢٩١).
(٣) الزهد لأحمد (٤٤٣)، والحلية (٤/ ٢٧٥)، سبق بيانه في ترجمته ص (١٤٠).
(٤) المعرفة (١/ ٧٠٦).
(٥) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٣)، والسير (٥/ ١٨).

إلى الكوفة، وأفاد من قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ورحل إلى رودس[١] ، وأقام بها سبع سنين، وسافر إلى المدينة في صحبة ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

أما عطاء بن أبي رباح ، فقد سافر إلى المدينة، فاستبان فضله على أصحابه بعد رجوعه، وفاقهم في علم الآثار، والسنن.

وأحسب أن المدرسة المكية من أكثر المدارس عناية بالرحلات والأسفار، لما تعطيه للعالم من مادة وفيرة، هي بطبيعتها تفتق الذهن وتنمي المدارك، وتعطي الفكر مادة من الصور توسع تصوره، وتفتح له مجالاً رحبًا لنشر علمه.

٤ ـ حرصهم على نشر علمهم :

كان للمنهج التعليمي عند ابن عباس في تدريب أصحابه، وأمرهم بالانطلاق، وإفتاء الناس، وحثهم على الأخذ منهم[٢] ، أثر بالغٌ في تشجيع هؤلاء التلاميذ على التقدم، والإكثار من البلاغ والنشر لكل ما علموه؛ حتى إننا نجد سعيد بن جبير عندما يذهب إلى الكوفة يحزن ويتألم أن يبقى أيامًا لا يأتي أحد لسؤاله[٣] .

وكان يأمرهم أن يسألوه[٤] ، ويقول: إن مما يهمني أن يؤخذ ما عندي من العلم[٥] .

وهذا عكرمة لما رحل إلى البصرة ينكر عليهم عدم سؤالهم إياه، ويقول: ما لكم لا تسألونني أفلستم[٦] .

---

(١) سبق تفصيل هذا في ترجمته ص (١٣٠).
(٢) سبق بيانه في منهج ابن عباس التعليمي مع أصحابه ص (٣٩٠).
(٣) طبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣١٨)، والبداية (٩/ ٩٨).
(٤) المعرفة (١/ ٧١٣).
(٥) الحلية (٤/ ٢٨٣)، والسير (٤/ ٣٢٧).
(٦) سنن الدارمي (١/ ١٣٧)، والعلل لأحمد (٢/ ١٩٣) ١٩٧٩.

وكان يقسم أحيانًا ألا يحدثهم، ثم يحدثهم بعد ذلك[١].

وكان مجاهد يتأول هذه الآية من قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٢] فيقول: جعلني معلمًا للخير[٣].

وسعيد بن جبير يتأول قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[٤] قال: هذا من العلم[٥].

٥ ـ التصنيف، والتدوين المبكر لآثار المدرسة:

كان للمدرسة المكية القدح المعلى في سبق غيرها في التصنيف في هذا الباب[٦].

وقد تصدر لهذا العلم ابن جريج، الذي كان أحد الملازمين لعطاء بن أبي رباح[٧]، فأخذ كثيرًا من تفسير مجاهد، وروى عنه[٨].

ثم تفرد بعد طبقة التابعين بالإمامة في مكة، فدوَّن العلم، وحمله عنه الناس[٩]، ولذا كان ـ رحمه الله ـ يقول: ما صنف أحد العلم تصنيفي[١٠].

(١) العلل لأحمد (٢/ ١٢٨) ١٧٧٥، و(٢/ ٤٥٥) ٣٠٢٧.
(٢) سورة مريم: آية (٣١).
(٣) العلم لأبي خيثمة (١١٦).
(٤) سورة النساء: آية (٣٧).
(٥) العلم لأبي خيثمة (١١٨).
(٦) جاءت المدرسة البصرية بعدها في هذا، وإن كان هناك فرق ينبغي الإشارة إليه: أن راوية البصرة سعيد بن أبي عروبة غلبت عليه الصناعة الحديثية، فكان دوره الرواية فحسب، وأما ابن جريج فإنه كان أحد الأئمة المشهورين بالرواية والدراية، لا سيما في التفسير، وله كتاب في التفسير. ينظر تاريخ التراث (١/ ١٣٠)، ومعجم المؤلفين (٦/ ١٨٤).
(٧) سبق الإشارة إلى ذلك في ترجمة عطاء ص (١٩٤)، وقد روى ابن جريج نصف تفسير عطاء أي ما يقارب (٢٤٠) قولاً.
(٨) وروى من تفسير مجاهد ما نسبته (١٥, ٠) من مجموع تفسيره، أي ما يقارب (٩١٦) قولاً.
(٩) السير (٦/ ٣٣٢).
(١٠) العلل لأحمد (٢/ ٣١١) ٢٣٨٣، والسير (٦/ ٣٢٧).

قال عبد الرزاق الصنعاني: أول من صنف الكتب ابن جريج[١].

وقال ابن الأهدل: هو أول من صنف الكتب في الإسلام[٢].

وكان - يرحمه الله - غاية في الدقة، والتحري.

فعن يحيى بن سعيد قال: كنا نسمي كتب ابن جريج، كتب الأمانة[٣].

٦ - قلة العلم في مكة زمن كبار الصحابة:

وهذا سبب آخر من أسباب كثرة مرويات المدرسة المكية، حيث كان العلم قليلاً زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم[٤].

فعن ابن الأبجر عبد الملك بن سعيد الكوفي، قال: إنما فقه أهل مكة حين نزل ابن عباس بين أظهرهم[٥].

ولعل هذا مما زاد من الحاجة إلى علمهم، فبلغوه، ونشروه، بخلاف تلك المدارس التي كثرت فيها السنن عنه ﷺ، أو عن أصحابه، فاستغنى الناس بأولئك زمانًا، ولم يحتج الناس إلى كثير من علمهم.

٧ - كثرة اشتغالهم بالتفسير:

تميز المكيون بالانصراف لعلم تأويل الكتاب، فصرفوا فيه غاية الجهد، وبرز من

---

(١) الجرح (٥/ ٣٥٧)، وشرح علل الترمذي لابن رجب (٥٠).

(٢) الشذرات (١/ ٢٢٦).

(٣) تاريخ بغداد (١٠/ ٤٠٤)، وتهذيب الكمال (١٨/ ٣٤٨).

(٤) الأمصار ذوات الآثار للذهبي (١٥٦)، على عكس المدينة التي كان العلم بها وافرًا زمن الصحابة، ينظر المرجع السابق (١٥١).

(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٨) ١٨٩٤، والعلل لأحمد (٣/ ٢٣٩) ٥٠٥١، والجرح (٤/ ٣٥١).

المكيين في هذا مجاهد، الذي قال عن نفسه: استفرغ علمي القرآن[١].

بل إنه ـ رحمه الله ـ مع إمامته في التفسير، وكونه آية في فهمه وعلمه، كان لا يحسن الفرائض[٢]، ولم يشتغل كثيرًا بالحديث، أو الفقه.

وقريبًا منه عكرمة، الذي برز في هذا العلم، حتى عدّه بعضهم إمام مدرسة مكة، ومن أعلم أصحاب ابن عباس في التفسير[٣].

وقد انعكس ذلك عليهم في علوم أخرى، فقلَّ إسهامهم فيها، ففي علم المغازي والسير الذي شُغلت به كثير من المدارس، كانت مكة من أقلهم حظًا فيه، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: فأعلم الناس بالمغازي أهل المدينة، ثم الشام، ثم العراق[٤].

ومما يدل على انقطاع هذه المدرسة لهذا العلم، وتخصصهم فيه، أنها من أكثر المدارس حديثًا عن كليات القرآن، ومبهماته، وأسباب نزوله، وبلغ اهتمام بعضهم أن عدّ كلمات القرآن، وحروفه، وغير ذلك من العلوم الخادمة للقرآن.

٨ ـ الاجتهاد، والقدرة على الاستنباط:

هابت كثير من المدارس الخوض في التفسير، والإكثار من القول في التأويل، وكثرت النصوص والآثار المنقولة عنهم في التحذير من هذا، وكانت مدرستا الكوفة والمدينة من أكثر المدارس بعدًا عن التأويل وحذرًا منه.

وفي المقابل كانت المدرسة المكية أكثرهم توسعًا في باب التأويل، ولعل الفضل في هذا ـ بعد الله ـ يعود لأستاذهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي كان يأمرهم بالتعلم

(١) المعرفة (١/ ٧١٢).
(٢) العلل لأحمد (٣/ ٨٥) ٤٢٩٢.
(٣) الجرح (٧/ ٩).
(٤) مقدمة في أصول التفسير (٦٠).

منه، ثم الإفتاء بحضرته، ثم الانطلاق بعد ذلك لتعليم الناس، وقد كان جل ما أخذوه وعلموه من شيخهم متعلقًا بتفسير كتاب الله تعالى.

على أنه لم يرض بعض الصحابة المعاصرين لابن عباس هذا المسلك منه، فكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لم تكن تعجبني جرأة ابن عباس[١].

وقد سلك أصحابه مسلكه، ونهجوا سبيله، فكانوا يتنقلون في البلدان، معلمين، وناشرين لعلم التأويل، فعكرمة لما قدم المدينة، واستقر بها، وأخذ في نشر بضاعته من علم التفسير لم يلق اجتهاده، وعلمه رواجًا، لاسيما وأن إمام المدرسة في عصره سعيد ابن المسيب كان ينكر عليه صنيعه هذا، وعندما يسأل عن شيء من القرآن يقول: لا تسألني، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء[٢].

وكان عكرمة يقول: إني لأسمع بالكلمة الواحدة، فينفتح لي بها خمسون بابًا من العلم[٣].

ولما رحل مجاهد إلى الكوفة، وكانوا أهل قياس كان من أسهلهم فيه[٤].

٩ ـ كتابة التفسير:

المدرسة المكية من أقل المدارس تحرجًا في باب تدوين العلم بعامة والتفسير بخاصة، ولذا فأصحابها من أكثر التابعين عناية بكتابة التفسير.

وقد أفادوا هذا المنهج من شيخهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي كان يأمرهم بالكتابة.

---

(١) سبق تفصيل هذه القصة في ترجمة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، وتفسير الطبري (١/ ٨٦) ١٠١.
(٣) تاريخ دمشق (١١/ ٧٧٣)، والتذكرة (١/ ٩٦).
(٤) تأويل مختلف الحديث (٧٤).

فعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومع ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب. حتى سأل عن التفسير كله[١].

وعن عبيد بن مهران قال: رأيتهم يكتبون التفسير عند مجاهد[٢]. وقد ألف مجاهد كتاباً في التفسير، رواه عنه القاسم بن أبي بزة، وأفاد منه ابن أبي نجيح، وابن جريج[٣].

وهذا سعيد بن جبير، كان حريصاً أشد الحرص على الكتابة، فيقول عن نفسه: ربما أتيت ابن عباس، فكتبت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي[٤].

وعن ورقاء بن إياس قال: رأيت عزرة يختلف إلى سعيد بن جبير، معه التفسير في كتاب، ومعه الدواة يغير[٥].

وقد كتب تفسيراً كاملاً للقرآن طلبه منه عبد الملك بن مروان، وأرسله إليه، وأفاد منه أهل الشام، ووجده عطاء بن دينار المصري، فأخذه معه إلى مصر، وأفاد منه.

ولذا يقول أبو حاتم: عطاء بن دينار صالح الحديث، إلا أن تفسيره أخذه من الديوان، فإن عبد الملك بن مروان كتب يسأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير إليه، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه، فأرسله عن سعيد بن جبير[٦].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٧، ومقدمة في أصول التفسير (٢٨).
(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٨)، وتقييد العلم (١٠٥).
(٣) الفهرست (٣٣)، ومشاهير علماء الأمصار (١٤٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٧)، والسير (٤/ ٣٣٥).
(٥) التاريخ الصغير (١/ ٢٢٧).
(٦) الجرح (٦/ ٣٣٢)، والميزان (٣/ ٧٠)، والتهذيب (٩/ ١٩٨).

وكان عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ يُسأل، فيكتب الجواب بين يديه، وبحضرته، فلا يمنع ذلك[١].

وكان عكرمة مولى ابن عباس ـ رحمه الله ـ كتب كتابًا نسخه عبد الله بن الأسوار، ونزل به إلى صنعاء، فأخذه عنه ابن عمرو بن عبد الله، فلما قدم عكرمة اليمن، وكان ينزل عند أبيه، جعل عمرو يسأل عكرمة، فعلم أنه أخذه من كتابه، فقال له: علمت أن عقلك لم يبلغ هذا[٢].

هؤلاء هم أئمة المدرسة المكية، وقد كانوا جميعًا يكتبون، أو يكتب عندهم، فلا ينكرون، وأما غيرهم من مشاهير المدارس الأخرى، فقد كان بعضهم يكره أن يكتب شيئًا، أو يكتب عنده، كما نجد ذلك في طبقة كبار مدرسة الكوفة، ومتوسطيها وغيرهم.

١٠ ـ البعد عن الفتن:

كانت مكة أكثر استقرارًا من غيرها من البلاد، فكان العلماء يهرعون إليها فارين بعلمهم من الفتن.

ولذا وفد إلى مكة الكثير من العلماء، ومن أشهر هؤلاء سعيد بن جبير، الذي بقي فيها زمنًا طويلاً، وكان ذلك من أسباب كثرة المروي عنه، ومن أسباب تأثره بالمدرسة المكية، حتى عُدَّ من المكيين.

أثرها:

كانت المدرسة المكية من أكثر المدارس تأثيرًا في مفسري التابعين ومدارسهم، وقد تهيأ ذلك بسبب إمامة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وسبقه في علم التفسير، مع ما

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢٩).

(٢) الجرح (٦/ ٢٤٤)، والميزان (٣/ ٢٩٥)، والتهذيب (٨/ ٦١).

صاحب ذلك من حرص أصحابه على نشر علمه في بقية البلدان.

أثرها على المدرسة الكوفية:

مثَّل سعيد بن جبير حلقة اتصال مهمة بين المدرستين[١]، مما كان له الأثر في تقارب المدرستين الكوفية، والمكية، حتى صارتا من أكثر المدارس تقاربًا، واتفاقًا.

ومن المعلوم أن الكوفة كانت تتجنب الخوض في التفسير والإكثار فيه، إلا أن سعيد ابن جبير الذي كان من أكثر تلاميذ ابن عباس رواية عنه في التفسير أكثر من نقل رواية تفسير شيخه، وبثه بين طبقة متوسطي التابعين، فتناقله تلاميذه من صغار التابعين، ومن بعدهم.

وكان - رحمه الله - يحرص على تدارس آثار ابن عباس، ونشرها في مساجد الكوفة، وحلقها.

فعن مسلم البطين قال: رأيت أبا يحيى الأعرج - وكان عالمًا بحديث ابن عباس - اجتمع هو وسعيد بن جبير في المسجد فتذاكرا حديث ابن عباس[٢]، وكان سعيد - رحمه الله - يجمع المسائل المختلف فيها عند أهل الكوفة، ويبعث بها إلى شيخه ابن عباس - رضي الله عنهما - أو يرحل إليه ليسأله عنها.

فعنه قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾[٣]، وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء[٤].

---

(١) سبق بيان اختلاف أهل العلم في نسبة ابن جبير، فعده الأكثرون كوفيًا، وعده بعضهم مكيًا ص(١٣٧).

(٢) المعرفة (٢/ ١٦).

(٣) سورة النساء: آية (٩٣).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٦٦) ١٠١٩٧، والرحلة في طلب الحديث (١٣٩)، وتفسير عبد الرزاق (١/ ١٦٧)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، وابن جرير، والطبراني عن سعيد بنحوه (٢/ ٦٢٣)، وفتح القدير (١/ ٤٩٩).

وكان إمام الكوفة في الفقه إبراهيم النخعي كثيراً ما يسأل سعيداً عن قول ابن عباس، ويدارسه إياه، لا سيما ما كان في تأويل آيات الحج.

فعن إبراهيم عن علقمة قال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[١].

قال: هو في قراءة عبد الله (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت)، قال: لا تجاوزوا بالعمرة البيت، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس[٢].

وعن إبراهيم، عن علقمة قال: إذ أهلّ الرجل بالحج فأحصر، بعث بما استيسر من الهدي: شاة، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس[٣].

وعن إبراهيم عن علقمة قال: إذا أهل الرجل بالحج فأحصر، بعث بما استيسر من الهدي: شاة، فإن عجل قبل أن يبلغ الهدي محله، فحلق رأسه، أو مس طيباً، أو تداوى، كان عليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد ابن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس[٤].

وسأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٩٦).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٧) ٣١٨٥.

(٣) المرجع السابق (٤/ ٢٨) ٣٢٥٤، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن إبراهيم، بزيادة في أوله (١/ ٥١٢)، وفتح القدير (١/ ١٩٨).

(٤) المرجع السابق (٤/ ٥٥) ٣٣٢٥.

(٥) سورة البقرة: آية (١٩٦).

فأجاب بقوله: يُحكَم عليه إطعامٌ، فإن كان عنده اشترى شاة، فإن لم تكن قوِّمت الشاة دراهم، فجعل مكانه طعامًا، فتصدَّق، وإلا صام لكل نصف صاع يومًا، فقال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر[١].

وقد اتضح أثر المنهج المكي في طبقة صغار التابعين من بعدهم، فقد اهتموا بنقل أقوال ابن عباس، وروايتها أكثر من اهتمامهم بأقوال أصحابهم، ومشايخهم في الكوفة.

فالسدي، الذي يُعد من مشاهير مفسري التابعين، ومن أكثر الكوفيين رواية وتفسيرًا[٢] كان جل علمه في التفسير مأخوذًا عن ابن عباس، وفي ذلك يقول: هذا التفسير أخذته عن ابن عباس[٣].

وكان الضحاك بن مزاحم أحد مشاهير مفسري أتباع التابعين ومكثريهم[٤] في الكوفة. نجد أن تفسيره كله كان عن ابن عباس، لقي سعيد بن جبير، فأخذه عنه[٥].

وامتد هذا الأثر في عصر أتباع التابعين، فهذا سفيان الثوري، الذي يعد من أعلم الناس بمذهب أهل الكوفة، وكان يذهب مذهبهم، ويفتي بفتواهم، كما يقول ابن المديني، تأثر في التفسير بأصحاب ابن عباس، ونقل عنهم جلَّ تفسيره[٦]. بل كان يقدمهم في التفسير على أصحابه من الكوفيين، وفي ذلك يقول: خذوا التفسير عن

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٧٤) ٣٣٧٦.
(٢) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت أن المروي عن السدي (١٦٨٢) قولاً، في حين كان عن إبراهيم النخعي (٦٠٨) أقوال، وعن عامر الشعبي (٤٦١) قولاً.
(٣) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، ومعجم الأدباء (٧/ ١٦).
(٤) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن المروي عنه كان (١٢١٤) قولاً.
(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٣٠٧) (٢/ ٦٧٧)، والمعرفة (٢/ ١٤٨).
(٦) وقد سبق بيان ذلك في فصل مصادر تفسير التابعين، ص (٦٩).

أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة[١].

فعدهم جميعًا من أصحاب ابن عباس، ولم يقدم عليهم أحدًا من أصحابه الكوفيين.

أثرها على المدرسة البصرية:

كان الأثر المكي على الكوفة أكثر منه على البصرة، وإن كانت البصرة قد تأثرت بتولي ابن عباس - رضي الله عنهما - إمارة البصرة من قبل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وبقائه بها أربع سنين[٢] فأخذ عنه بعض أئمة المفسرين من البصرة، ومن أشهر هؤلاء أبو العالية، الذي صحب ابن عباس - رضي الله عنهما - وكان يدنيه ويجلسه على السرير معه، وكان أبو العالية كثير التردد على مكة، فقد حج ما يزيد عن ست وستين حجة، وكان إلى المنهج المكي أقرب منه إلى البصري[٣].

وتتلمذ على ابن عباس جابر بن زيد، وأخذ عنه كثيرًا من المسائل الفقهية حتى عدَّ من أصحابه[٤].

ولم يكن تأثر المدرسة البصرية بالمدرسة المكية مختصًا بابن عباس، بل إن عكرمة مولى ابن عباس رحل إليها، فأعجب الحسن بعلمه، وبتقدمه في باب العلم بالقرآن، وتفسيره، فكان يسكت عن التفسير إجلالاً له، واعترافًا بقدره في هذا العلم، بل ترك كثيرًا من التفسير لما دخل عكرمة البصرة[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٩١)، ومقدمة في أصول التفسير (١٠٣).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧).
(٣) سبق بيان ذلك في فصل أشهر رجال المدارس عند ترجمة أبي العالية ص (٢٩١).
(٤) يأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن مدرسة البصرة ص (٤٤١).
(٥) طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١).

وكان عكرمة يجالس البصريين فيحدثهم، ثم يقول: يحسن حسنكم مثل هذا[١].

وقد أخذ عنه غير واحد من البصريين، فنقل عنه قتادة بعضًا من تفسيره[٢].

بل كان يقدمه في علم التفسير على شيخه فيقول: أعلم الناس بالتفسير عكرمة[٣].

كما أن عكرمة ـ رحمه الله ـ كان من أكثر أصحاب ابن عباس نشرًا لتراثها، فقد رحل إلى المدينة، والكوفة، ومصر، والمغرب، وطاف غالب البلدان، فكان لذلك أثره البالغ في تلك الأمصار[٤].

* * *

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٨٠).

(٢) بعد مراجعتي لتفسير عكرمة عند الطبري، وجدت أن (٣٠) رواية في التفسير جاءت من طريق قتادة، وقتادة سمع عن عكرمة، ولم يسمع من مجاهد وابن جبير شيئًا، ولذا قلَّ أن يروي عنهما، يُنظر سؤالات ابن الجنيد لابن معين (٣١٧، ٣٦٢).

(٣) التمهيد (٢/ ٣١)، ورياض النفوس (١/ ١٤٥).

(٤) سيأتي عند بحث التفسير في مصر بيان أثر المدرسة المكية على التفسير في مصر بشيء من التفصيل، ينظر ص ٥٤٢.

المبحث الثاني

المدرسة البصرية

أول من مصَّر البصرة عُتبة بن غزوان ـ رضي الله عنه ـ، اختطها سنة أربع عشرة[١]، بأمر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وهي أقدم من الكوفة بثلاث سنين[٢].

وهي منافسة لمدرسة الكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير[٣]، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ، وعدة من الصحابة كان خاتمتهم أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ[٤].

ومن أشهر من نزل البصرة أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك.

فأما أبو موسى ـ رضي الله عنه ـ فيمني قدم مكة، وأسلم، وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، وكان يعد من أعلم الصحابة، وقد قدم البصرة، وعلم بها. سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك: كيف تركت الأشعري؟ فقال: تركته يعلم الناس

---

(١) المعارف (٢٤٥)، وأسد الغابة (٣/ ٥٦٦)، والإصابة (٢/ ٤٥٥).

(٢) المعارف (٢٤٦).

(٣) عدَّ ابن حبان أكثر من خمسين صحابيًا من المشاهير الذين دخلوا البصرة، ينظر مشاهير علماء الأمصار (٣٧ ـ ٤٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٦)، وطبقات الفقهاء (٥٣)، ورجال صحيح مسلم (١/ ٦٥)، وتهذيب تاريخ دمشق (٣/ ١٤٤).

القرآن[١] .

أما أنس فهو ابن مالك : بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام ، أبو حمزة[٢] النجاري الخزرجي[٣] ، خادم رسول الله ﷺ ، كان يتسمى بذلك ويفتخر به وحق له ذلك[٤] .

يقول ـ رضي الله عنه ـ : خدمت النبي ﷺ عشر سنين وأنا غلام[٥] .

ويقول أيضًا : قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين ومات وأنا ابن عشرين سنة[٦] .

وقد دعا له النبي ﷺ بكثرة المال ، والولد ، والمباركة في العمر فقال عليه الصلاة والسلام : «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه**»[٧] .

قال الذهبي ، وقد سرد صاحب التهذيب نحو مائتي نفس من الرواة عن أنس[٨] ، وروى ألفي حديث ومائتين وستة وثمانين حديثًا ، اتفق البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثًا ، وانفرد البخاري بثمانين حديثًا ، ومسلم بتسعين[٩] .

(١) فجر الإسلام (١٨٤).
(٢) الاستيعاب (١/ ١٠٩)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣١)، وأسد الغابة (١/ ١٥١)، والثقات (٣/ ٤)، والإصابة (١/ ٨٤).
(٣) النسب لأبي عبيد (٢٨٠)، وجمهرة أنساب العرب (٣٥٠).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٧).
(٥) مسند أحمد (٣/ ١٩٥، ٢٢٧، ٢٥٥)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٢٠٢).
(٦) صحيح مسلم (٣/ ١٦٠٣) ٢٠٢٩، ومسند الحميدي (٢/ ٤٩٩) ١١٨٢، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٥٦٥)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٢٠١) ٧٩٥.
(٧) صحيح مسلم (١/ ٤٥٧، ٤٥٨) (٤/ ١٩٢٨)، والمعجم الكبير (١/ ٢٢١)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٢٧).
(٨) السير (٣/ ٣٩٧).
(٩) مقدمة مسند بقي (٧٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٢٧)، والسير (٣/ ٤٠٦)، وتدريب الراوي (٢/ ٢١٧).

ولقد تأثرت البصرة بالمنهج المدني، وأحسب أن السبب في ذلك يرجع إلى نشأة الحسن هناك وتربيته في بيت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ، فلقد رسخ الحسن علاقته بسعيد ابن المسيب، وكان يكاتبه ونهج منهجه في البعد عن الفتن[١].

وقد درج قتادة على هذا النحو، ولاسيما بعد رحلته للمدينة، وتحمله عن سعيد، كما أننا نلمح الطابع المدني في اهتمام قتادة بالآثار وإن كان الإرسال كثيراً في رواياته، وروايات شيخه الحسن قبله، وتساهلا في الرواية بالمعنى أيضًا.

ولم تتأثر البصرة بالمدرسة الكوفية إلا فيما يتعلق بنقل قراءة ابن مسعود، أما في باقي التفسير فلم أر لهما نقلاً عن ابن مسعود إلا في موضعين وكلاهما في الوعظ[٢].

وأما المدرسة المكية، فمع تأثر بعض البصريين بمنهج المكيين، كأبي العالية الذي كان قد حج ستًا وستين حجة[٣]، وكان ابن عباس يقدره، ومع ذلك لم يُنقل علم المكيين عن أبي العالية لقلة تلاميذه وحبه للخفاء وبعده عن التصدر والإفتاء والتدريس، بل على الرغم من أن ابن عباس كان أميراً على البصرة أيام علي ـ رضي الله عنه ـ إلا أن تأثيره لم يتعد إلى كل البصريين، فإمام البصرة الحسن لم يلق ابن عباس، يقول ابن المديني: لم يسمع من ابن عباس ما رآه قط، كان الحسن بالمدينة أيام كان ابن عباس بالبصرة، استعمله عليها علي ـ رضي الله عنه ـ وخرج إلى صفين[٤].

وكذلك لم يحج الحسن إلا مرتين[٥] ولم يلق فيهما ابن عباس، ولم يرو قتادة عن

(١) سيرة الإمام مالك لأبي زهرة (٥٦).

(٢) عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المائدة: آية (١٠٥)، ينظر تفسير الطبري (١١/ ١٣٩)، ١٢٨٤٩، وعند شرح مثل المهل في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ سورة الكهف: آية (٢٩)، تفسير الطبري (١٥/ ٢٣٩).

(٣) المعارف (٢٠٠).

(٤) المعارف (٣٣)، ويراجع في ولاية ابن عباس على البصرة تاريخ الطبري (٥/ ٢٢٤، ٢٣٦)، (٦/ ٩٠)، والإصابة (٢/ ٣٢٥).

(٥) الحسن البصري لإحسان عباس (٢١).

ابن عباس أيضًا، ولم يسمع من سعيد بن جبير، ولا من مجاهد[١] ولا من الشعبي ولا من النخعي[٢] ، ولذا لم تتأثر البصرة بمنهج المكيين.

إلا أن المدرسة البصرية أخذت جانبًا من علوم المدرسة المكية بعد أن زارها عكرمة وحدث بها، حتى إن قتادة قال: أعلم الناس بالحلال والحرام الحسن، وأعلمهم بالتفسير عكرمة[٣] .

وكان الحسن لا يفسِّر ما دام عكرمة بالبصرة.

ونلحفظ هنا أمرًا آخر، وهو أن المدرسة البصرية لم تسر على نهج المدينة في جهة الرأي والأهواء، فهم وإن كانوا بعيدين عن كثير من الأهواء رغم التهمة ببعضها، إلا أنهم كانوا مكرمين، ومحتفين بعكرمة، في حين كان لا يقبله ابن المسيب والمدنيون، بل لم يحفلوا بتشييع جنازته[٤] .

لقد كثر نتاج المدرسة البصرية، وهي ثاني المدارس بعد المكية أثرًا في التفسير، واعتمدت على اجتهادات الحسن الذي أفاد من فقه عمر وأنس، وغلب عليها الوعظ، حتى كان أهلها أكثر الناس هيبة لانتهاك الحرمات[٥] ، وأكثر من استفاد من هذه المدرسة أهل اليمن بعد نزول معمر بن راشد بها، ويحيى بن سلام، الذي نشر تفسيره في بلاد المغرب فتأثر المغاربة بتفسير الحسن، وقتادة، وأكثروا من النقل عنهم[٦] .

(١) العلل لأحمد (٣/ ٢٨٤) ٥٢٦٣، وسؤالات ابن الجنيد لابن معين (٣١٧، ٣٦٢).
(٢) المعرفة (٢/ ١٢٤، ٦٦١).
(٣) المعرفة (١/ ٧٠١) ، (٢/ ٢١٦)، والسير (٥/ ٢١٧).
(٤) التمهيد (٢/ ٢٧).
(٥) قال ابن جبير: ما رأيت أحدًا أرعى لحرمة هذا البيت، ولا أحرص عليه من أهل البصرة، ينظر الحلية (٤/ ١٢٧٦).
(٦) كأبي حيان، وابن جزي، وابن عطية، والزركشي وغيرهم، يُراجع كتاب التسهيل (١٠)، والبحر المحيط (١/ ١٣)، والبرهان (٢/ ١٥٨)، وينظر تفسير كتاب الله العزيز لهود الهواري (١/ ٢٢، ٣٢، ٣٣).

وفيمل يلي دراسة مقارنة لأعلام هذه المدرسة التي أغفلها الكثيرون رغم تقدمها وثراء نتاجها، وتأثيرها الواسع في التفسير.

* * *

مقارنة بين البصريين

بين الحسن ، وقتادة :

هذه مقارنة بين التلميذ وشيخه ، فقد جالس قتادة أستاذه الحسن ما يزيد على ثنتي عشرة سنة ، فنما بإذن ربه ، وآتى أكله طيبًا ، بل فاق شيخه في كثرة المروي عنه في التفسير ، حتى صار المروي عن الأستاذ لا يعادل إلا قريبًا من ربع المروي عن تلميذه[١] .

نعقد هذه المقارنة بين علمين من أعلام البصرة ، كان لهما الأثر البالغ في التفسير ، واللذين بسببهما احتلت البصرة المرتبة الثانية بعد المكية في التفسير ، وقد تشابها - رحمهما الله - في كثير من أوجه الشبه ، واختلفا في بعض المسائل ، وسنعرض في هذا المقام بعضًا من ذلك .

فمن أبرز ما تشابها فيه : التوجيه الدعوي والوعظي لآيات الكتاب العزيز ، وإن كان قتادة في هذا ناقلاً لكثير من علم أستاذه الحسن ، ومتأثرًا بأسلوبه البديع المؤثر ، فقد تشابها في هذا حتى إن القارئ لتفسيرهما ليخال أنه خرج من مشكاة واحدة ، وتأثر به قلب واحد ، ونطق به لسان واحد .

كما أن من أوجه الشبه بينهما في التفسير ، والتي اتضحت من خلال التأمل لتأويلهما قلة عنايتهما بمبهمات القرآن ، وندرة الاعتماد على ما جاء عن أهل الكتاب[٢] ، وكذا قلة الاشتغال بمعرب القرآن وكلياته ، وغير ذلك من أوجه الشبه .

---

(١) المروي عن الحسن كما وجدته عند الطبري (١٤٨٧) قولاً ، وعن قتادة (٥٣٧٩) قولاً ، أي : ما نسبته (٢٨ , ٠) من مجموع تفسيره .

(٢) مقارنة بالمكيين الذين أكثروا .

هذه مقدمة أشرع بعدها في بيان ما هو أهم؛ ألا وهو التماس بعض أوجه الافتراق والاختلاف بينهما؛ لأن الناظر في أحوالهما وأقوالهما قد لا يلاحظ تلك المفارقات، لكن بعد طول نظر وتأمل تبين لي ما يلي :

١ ـ تفوق الحسن في المسلك الوعظي، والتوجيه الدعوي لتفسيره، وأثر ذلك تأثيراً مباشراً على قتادة، فحذا حذوه، ونهج سبيله، واقتفى أثره، ومما هو مقرر سلفًا أن الحسن بلغ في هذا الباب مبلغًا صار به فرداً بين التابعين[١]، وذهب على أهل زمانه بالمواعظ، والرقائق[٢]، فكان نصيحًا إذا وعظ، فصيحًا إذا لفظ، حتى شبه كلامه بكلام الأنبياء[٣] لبلاغته، وتأثيره في السامعين، وصار يضرب به المثل في الوعظ والتذكير. فهل كان قتادة كذلك ؟!.

بعد رجوعي لتفسيره، وجدت أن ما يزيد عن ألف رواية في التفسير كانت في الوعظ والتذكير، وأن كثيراً منها شابه كلامه فيها كلام الحسن، لدرجة أنه قد يصعب التفريق بين كلام كل واحد منهما.

ومما يستغرب هنا أنه مع كثرة مروياته، وتقدمه في هذا الجانب فإنني لم أجد في كتب التراجم من أشار إلى تقدمه في الوعظ، كما صُنع مع الحسن، فوقع في روعي أن ما روي عنه هنا إنما استفاد جله من شيخه الحسن، ولم تكن تلك الكلمات من بنات أفكاره، لاسيما أن قتادة مُتع بحافظة نادرة انفرد بها بين التابعين.

وحين أردت استيضاح الأمر، رجعت إلى كتب الزهد والرقائق؛ ككتاب ابن المبارك، وأحمد، ووكيع، وهنّاد، فوجدت ما يؤكد ما ذهبت إليه، فالمروي عن قتادة في هذه الكتب قليل جداً، إذا ما قورن بالحسن، بل إنه لم يجاوز عُشر المروي عن

(١) صبح الأعشى (١/ ٥١٧).
(٢) العلل لأحمد (١/ ٤٩٢) ١١٤٠.
(٣) الحلية (٢/ ١٤٧).

الحسن[١] .

٢ ـ ما روي عن الحسن في باب الفقه والإفتاء[٢] ، وتناول آيات الأحكام[٣] أكثر بكثير من صاحبه، الذي لم ينقل عنه في هذا الباب إلا القليل . ولعل من أهم الأسباب التي جعلت قتادة لا يُقلد شيخه في هذا كراهيته للرأي، وإيثاره للنقل والأثر، ويدل على ذلك ما روي عنه حين سُئل عن مسألة وقيل له : قل فيها برأيك، قال : ما قلت برأي منذ أربعين سنة[٤] .

وأما شيخه ـ رحمه الله ـ فكان يتساهل في هذا، فحين سأله أبو سلمة بن عبد الرحمن فقال له : ما تفتي به الناس شيء سمعته، أو شيء تقوله برأيك؟ قال : لا ، والله ما كل ما نفتي به سمعناه، ولكن رأينا خير لهم[٥] .

ولذا كان أبو سلمة يقول له : يا أبا سعيد، إني أرى قومًا (يعني أنهم يأخذون برأيه) فاتق رأيك[٦] .

٣ ـ تقدم الحسن في جمعه للعديد من أنواع العلوم، فكان من أعلمهم بالقرآن، والفقه، والأدب، وكان بعض أصحابه يصحبه للتفسير، وبعضهم للفقه ، وآخرون للبيان والبلاغة، ولذا نجد أن كثيراً من الأئمة كانوا يستثنون الحسن من كل غاية، فيقال : فلان أزهد إلا من الحسن، وأفقه إلا من الحسن، وأقرأ إلا من الحسن، وكان

---

(١) مجموع ما روي عن الحسن في هذه الكتب بلغ (٤٦٤) رواية ، في حين بلغ عن قتادة (٣٧) رواية، مع أن جانبًا كبيراً من الآثار الواردة عنهما كانت حول تفسير آيات الوعد والوعيد.

(٢) المروي عن الحسن في كتاب المغني أكثر من (٩١٢) قولاً، وعن قتادة (٣٣٤) قولاً.

(٣) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت أن ما نسبته (١١ , ٠) من مجموع تفسير الحسن كان حول تأويل آيات الأحكام، في حين بلغت هذه النسبة عن قتادة (٠٢ , ٠) فقط من مجموع تفسيره.

(٤) الجرح (٧/ ١٣٤).

(٥) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).

(٦) المرجع السابق (٦/ ١٠٩).

تلاميذه يفاخرون بهذا فيقولون: كان علمه في كل شيء[١].

٤ ـ كان الحسن أكثر إعمالاً للرأي في تفسيره من قتادة، فقد تعرض للعديد من مشكل الألفاظ، وفسرها، بل إننا نلاحظ في بعض المروي عنه ما يخالف الظاهر من النص القرآني، بخلاف حال صاحبه، الذي كان مع كثرة المروي عنه، يندر أن تجد منقولاً عنه يخالف فيه ظاهر النص القرآني.

فإنه قد يخالف شيخه ـ أحيانًا ـ، ولاسيما إذا رأى مخالفته للظاهر من الآية القرآنية.

فعن عمران القطان قال: سمعت الحسن يقول في قوله: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[٢] قال: فوالله ما كانت إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت، قال عمران: فذكرت ذلك لقتادة، فأنكر ذلك وقال: كان والله يكثر الصلاة في الرخاء[٣].

وحين سئل عن موت الجن قال الحسن: الجن لا يموتون[٤]، اعترض عليه قتادة بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[٥].

٥ ـ وفي مقابل ما سبق من حال الحسن، فإن قتادة كان إلى الأثر أقرب منه، وساعده على ذلك أنه كان يملك حافظة قوية، مكنته من حفظ وإتقان المنقول من أقوال المصطفى ﷺ.

---

(١) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٦٨٣).

(٢) سورة الصافات: آية (١٤٣).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠١)، وزاد المسير (٧/ ٨٧)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه لأحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، عن الحسن بنحوه (٧/ ١٢٦).

(٤) تفسير الطبري (٢٦/ ٢٠).

(٥) سورة الأحقاف: آية (١٨).

قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس[١]، وكان لا يسمع بشيء إلا حفظه[٢].

بل إن هذه الحافظة ساعدته ومكنته من التقدم - أيضًا - في العلوم النقلية الخادمة للتفسير، كعلم أسباب النزول[٣] وغيره[٤].

بخلاف حال شيخه، الذي كان أقل منه إتقانًا لمحفوظه، يقول عن نفسه: لولا النسيان كان العلم كثيرًا[٥]، فأصبح يرى جواز الرواية بالمعنى، ويرى جواز التقديم والتأخير، والزيادة والنقصان إذا كان المعنى واحدًا.

٦ - وقد فاق قتادة شيخه أيضًا في تعدد مصادره، وكثرة رحلاته، فقد أخذ وروى عن أكثر من مائة وعشرين نفسًا[٦]، ولذا كان أعلم بالخلاف من أستاذه.

وفي هذا يقول الإمام أحمد: كان عالمًا بالتفسير، وباختلاف العلماء، وقلما تجد من تقدمه[٧].

٧ - توسع قتادة في القول بنسخ جملة كبيرة من الآيات، وكان من أوائل من ألف في هذا[٨]، وقد تأثر في هذا بشيخه الثاني سعيد بن المسيب.

---

(١) سنن الدارمي (٢/ ٤٣)، والبداية (٩/ ٣٥٢).

(٢) تاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

(٣) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن (٠,٣٥) من مجموع تفسير الحسن كان في بيان أسباب النزول، في حين بلغت النسبة عن قتادة (٠,٠٧) من مجموع تفسيره.

(٤) مثل الاعتماد على أقوال الصحابة. فبعد مراجعتي للمسند المجموع من تفسير عمر بن الخطاب وجدت أن (٠,١٤) من مجموع تفسيره من رواية قتادة، في حين كان (٠,٠٩) من مجموع تفسيره من رواية الحسن.

(٥) المعرفة (٢/ ٣٣).

(٦) تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٩٩).

(٧) السير (٥/ ٢٧٦).

(٨) البرهان (٢/ ٢٨)، ويراجع تفصيل ذلك في ترجمة قتادة ص (٢٧٥)، وسيأتي له مزيد بيان - إن شاء الله - في مبحث الحديث عن أثرهم في أصول التفسير ص (١٠٨١).

كما أن من العلوم التي تعرض لها أكثر من تعرض شيخه علم مناسبات الآيات، وأكثر من الحديث عن أمثال القرآن، وتناولها بالشرح والبيان[١].

٨ـ ومما تميز به قتادة أيضًا: تخصص بعض أصحابه في نقل تفسيره وروايته كما سبق بيان ذلك.

بين الحسن وابن سيرين:

انتهت إلى هذين الإمامين إمامة البصرة، ورئاسة العلماء فيها، وكانا كفرسي رهان في الفضل والعلم والورع.

فعن سوار بن عبد الله قال: كان محمد والحسن سيدي أهل هذا المصر عربيها ومولاها[٢].

ويقول عمرو بن مرة: إني لأغبط أهل البصرة بذينك الشيخين: الحسن، ومحمد[٣]، وقد تشابها في كثير من السجايا والصفات، فاجتمعا في كونهما بصريين متعاصرين، كل واحد منهما من الموالي، فكان ابن سيرين مولى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه[٤] ـ، وكانت أم ابن سيرين كأم الحسن، مولاة خدمت في بيوت أصحاب النبي ﷺ، وهي مولاة أبي بكر الصديق، وكلاهما أخذ وروى عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، كما تشابها في العيش في المدينة في سني عمرهما الأولى، ثم الانتقال إلى البصرة، ومع كل هذا فإنه كان بينهما كثير من المفارقات في المنهج والسلوك، وقد أشار كثير من الأئمة إلى تلك المفارقات، وعقدوا بينهما المقارنات.

وسأعرض في هذا المقام أهم تلك الفروق الرئيسة بينهما مبينًا السبب في قلة

(١) سبق تفصيل ذلك في ترجمة قتادة ص (٢٧٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٧).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢١).
(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٣).

المروي من تفسير القرآن عن ابن سيرين - رحمه الله -.

فمن أهم الأسباب التي تطالعنا عند الرجوع إلى سيرة هذا الإمام ما يلي :

١ - الورع ، وحب الخفاء، والخوف من الشهرة :

كان ابن سيرين - رحمه الله - كثير الورع ، يقول عنه سفيان الثوري : لم يكن كوفي ولا بصري في مثل ورع ابن سيرين[١] .

وعن مورق العجلي قال : ما رأيت أحدًا أفقه في ورعه ، ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين[٢] .

ويقول هشام الدستوائي : ما رأيت أحدًا أفضل من الحسن ، ولا أورع من ابن سيرين[٣] .

وعن يونس بن عبيد قال : أما الحسن ، فإني لم أر رجلاً أقرب قولاً من فعلٍ ، من الحسن .

وأما ابن سيرين ، فإنه لم يعرض له أمران في دينه ، إلا أخذ بأوثقهما[٤] .

وعن الحجاج بن الأسود قال : تمنى رجل فقال : ليتني بزهد الحسن ، وورع ابن سيرين[٥] .

وكان من شدة ورعه أنه يدع الحلال تأثمًا[٦] ، وكان يقول : نفسي تُكلفني أشياء ،

---

(١) السير (٤/ ٦١٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٦)، والمعرفة (٢/ ٥٦)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢١).
(٣) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٦٨٣).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٦٨٤).
(٥) المعرفة (٢/ ٦١)، وطبقات ابن سعد (٧/ ١٦٥).
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢٣).

وددت أنها لا تكلفني[١] .

وعن ابن عون قال: كان محمد يغتسل كل يوم[٢] ، وقد علق الذهبي على هذا بقوله: كان محمد مشهورًا بالوسواس[٣] .

وكان لهذا الورع أثره عليه، في بث علمه، وبلاغه، فكان يكره الشهرة ويؤثر الخفاء، وكان يقول: لم يكن يمنعني عن مجالستكم إلا مخافة الشهرة[٤] .

وكان ـ رحمه الله ـ يبقى مستخفيًا في البصرة[٥] ، وأقام في دمشق أربع سنين لا يُعْرف[٦] . وكان من أشد الناس إزراءً على نفسه[٧] .

يقول ابن شبرمة: لم أر أجبن من فتوًى منه[٨] .

ويقول عبد الله بن عون: ما لقيت آلف من ثلاثة: رجاء بن حيوة بالشام، والقاسم ابن محمد بالحجاز، وابن سيرين بالعراق[٩] .

وكان ـ رحمه الله ـ إذا أراد أن يحدث كأنه يتقي شيئًا، وكأنه يحذر شيئًا[١٠] .

وكان من المفارقات الرئيسة بينه وبين الحسن، أن الحسن تكلم وبلَّغ العلم احتسابًا، وسكت ابن سيرين احتسابًا[١١] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٠٠).
(٢) المرجع السابق (٧/ ٢٠٣)، والسير (٤/ ٦١٨).
(٣) السير (٤/ ٦١٨).
(٤) الحلية (٢/ ٢٧١)، وتاريخ بغداد (٥/ ٣٣٥).
(٥) المعرفة (٢/ ٦٧)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢١٧).
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢١٧).
(٧) تاريخ بغداد (٥/ ٣٣٥)، والسير (٤/ ٦١٥).
(٨) السير (٤/ ٦١٤).
(٩) المعرفة (٢/ ٣٦٨).
(١٠) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٤)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢١).
(١١) العلل لأحمد (٣/ ١٣٧) ٤٦٠١، وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٨).

وكان ـ رحمه الله ـ يجلس فيحدث أصحابه بالأخبار والأشعار، وينبسط إليهم، فإذا سُئل عن شيء من الفقه والحلال والحرام تغير لونه وتبدل، حتى كأنه ليس بالذي كان[١].

وكان من شدة ورعه ـ رحمه الله ـ لا يفتي في الفرج بشيء فيه اختلاف[٢].

وكان يقول لما سمع ما روي عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يفتي الناس أحد ثلاثة: من يعلم ما نسخ من القرآن، أو أمير لا يجد بدًا، أو أحمق مُتكلف، فكان ابن سيرين يقول: فلست بواحد من هذين، ولا أحب أن أكون الثالث[٣].

٢ ـ كراهيته للرأي، وقلة الاجتهاد عنده:

فقد كان ـ رحمه الله ـ لا يقول برأيه في شيء إلا ما سمعه[٤]، وكان يقول: ما دام على الأثر، فهو على الطريق[٥].

وعن قتادة قال: حدث ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي ﷺ، فقال رجل: قال فلان كذا وكذا، فقال ابن سيرين: أحدثك عن النبي ﷺ، وتقول: قال فلان كذا وكذا، لا أكلمك أبدًا[٦].

أما الحسن فإنه ـ كما قال طاوس ـ رجل جريء[٧]، وقد سأله رجل، فقال له: ما تفتي به الناس شيئًا سمعته أو تقول برأيك؟ قال: لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه،

---

(١) الحلية (٢/ ٢٦٤)، وطبقات ابن سعد (٧/ ١٩٥)، والفقيه والمتفقه (٢/ ١٦٧).
(٢) سنن الدارمي (١/ ٥٦).
(٣) أعلام الموقعين (١/ ٢٨).
(٤) العلل لأحمد (٣/ ٤٩٠) ٦١٠١، وسنن الدارمي (١/ ٤٧).
(٥) سنن الدارمي (١/ ٥٤).
(٦) المرجع السابق (١ / ١١٧).
(٧) المعرفة (٢/ ٤٤).

ولكن رأينا خير لهم[١] .

ولذا نجد التقارب بين أهل الأثر من الكوفة مع ابن سيرين، وعدم رضاه على أهل الرأي في الكوفة، فكان الشعبي يوصي أصحابه بالذهاب إلى ابن سيرين[٢] ، ونجد ابن سيرين يحب الشعبي، ويثني عليه[٣] ، ولا يرضى عن صنيع إبراهيم النخعي، وأصحابه[٤] .

٣ ـ اشتغاله بالحديث ، وتشدده في روايته متنًا وإسنادًا :

كان ـ رحمه الله ـ محبًا للآثار، مشتغلاً برواية السنن، والتحديث بها؛ إلا أنه كان من أشد التابعين في الرواية، فكان يعيد الحديث بحروفه، ولا يرى روايته بالمعنى .

يقول ابن عون : كان إبراهيم، والشعبي، والحسن، يأتون بالحديث على المعاني، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء بن حيوة، يعيدون الحديث على حروفه[٥] .

ويقول هشام الدستوائي : كان ابن سيرين إذا حدث لم يُقدم ولم يؤخر، وكان الحسن إذا حدث قدم وأخر[٦] .

وكان من شدته وحرصه في هذا أنه يتكلف الحديث كما يسمع، وكان يروي الحديث ملحونًا، إذا كان سمعه كذلك ولا يُغيره[٧] .

ولما أخبر أن الحسن ، وإبراهيم، والشعبي، يحدثون بالحديث مرة هكذا، ومرة

---

(١) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).
(٢) السير (٤/ ٦٠٨)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢٢).
(٣) أخبار القضاة (٢/ ٤٢١)، والتذكرة (١/ ٨٢).
(٤) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٩) ٢٩٩٣.
(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٥٤)، والمعرفة (٢/ ٣٦٨).
(٦) سنن الدارمي (١/ ٩٣).
(٧) جامع بيان العلم (١/ ١٣٣)، والكفاية (١٨٦)، والجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢١).

هكذا، قال: أما إنهم لو كانوا يحدثون كما سمعوه كان خيراً لهم[١].

هذا في جانب متن الحديث ونصه، أما في إسناده فكان ابن سيرين من أوائل من نقد الرجال[٢]، وكان أيوب السختياني يقول عنه: كان الرجل يحدث محمداً بالحديث، فلا يقبل عليه ذاك الإقبال، قال: فيقول: إني والله ما أتهمك، ولا أتهم ذاك، ولكني أتهم من بينكما[٣].

وكان - رحمه الله - يعيب على من يتساهلون في تصديق الأخبار، فكان يقول: ثلاثة يصدقون من حدثهم: أنس، وأبو العالية، والحسن البصري[٤].

قال الخطيب البغدادي: أراد ابن سيرين أنهم كانوا يأخذون الحديث عن كل أحد، ولا يبحثون عن حاله لحسن ظنهم به، وهذا الكلام قاله ابن سيرين على سبيل التعجب منهم في فعلهم وكراهته لهم ذلك[٥] اهـ.

ومن الفوارق بينهما كما قال ابن معين: كان الحسن أنبل الرجلين ورجال ابن سيرين أنقى من حديث الحسن[٦]، ومع أن الحسن أدرك ما يزيد عن مائة صحابي، وابن سيرين لم يدرك إلا ثلاثين منهم[٧] فإن الأئمة صححوا مراسيله؛ لأنه كان يتشدد، ولا يسمع إلا من ثقة[٨]، وعدوا مراسيل الحسن من أوهى المرسلات[٩].

وكان من احتياطه وشدته في هذا أنه كان يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم[١٠].

---

(١) العلل لأحمد (٢/ ٣٩١) ٢٧٤٦، والمحدث الفاصل (٥٣٤)، والكفاية (٢٠٦).
(٢) شرح علل الترمذي (٦٣).
(٣) العلل لأحمد (٢/ ٣٨٦) ٢٧٢١.
(٤) الكفاية (٣٧٣).
(٥) الكفاية (٣٧٣).
(٦) تاريخ ابن معين (٢/ ١١٢).
(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٨٣)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢٠).
(٨) التمهيد (١/ ٣٠)، والنكت على ابن الصلاح (٢/ ٥٥٧).
(٩) الموقظة (٤٠).
(١٠) صحيح مسلم المقدمة (١/ ١٤)، والحلية (٢/ ٢٧٨).

وكان من شدته أنه روى عن عكرمة، ولم يكن يسميه؛ لأنه لم يكن يرضاه[١].

وكان يقول: نُبئت عن ابن عباس[٢]. بخلاف حال الحسن الذي كان يترك التفسير إذا دخل عكرمة البصرة[٣].

٤ ـ كراهيته للكتابة:

وهذا من أوجه الخلاف بينه وبين صاحبه الحسن، فكان ابن سيرين يكره الكتابة[٤]، وكان لا يكتب، والحسن يكتب[٥]، بل كان ابن سيرين يحذر أصحابه من الكتابة، ويقول: إياكم والكتب، فإنما تاه من كان قبلكم، أو قال: ضل من كان قبلكم بالكتب[٦].

وعن ابن عون قال: سمعت محمداً يقول: لو كنت متخذاً كتاباً لاتخذت رسائل النبي ﷺ[٧].

ولما جاءه عاصم الأحول بكتاب يريد أن يضعه عنده، فقال له: لا يبيت عندي[٨].

كان ما سبق بياناً للفوارق الرئيسة بين هذين الإمامين، وذلك من الأسباب التي قللت نتاج هذا الإمام في العلم بعامة، وفي التفسير بخاصة[٩].

---

(١) سبق ذلك في ترجمة عكرمة (ص ١٧٨).
(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧٣)، والسير (٥/ ٣٠)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٨١).
(٣) سبق بيان ذلك ص (١٧٥).
(٤) العلل لأحمد (٢/ ٣٩٢) ٢٧٥٢، والعلم لأبي خيثمة (٣١).
(٥) سنن الدارمي (١/ ١٢١)، والعلم لأبي خيثمة (١٢٥).
(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٤)، والعلم لأبي خيثمة (١٤٥).
(٧) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٤).
(٨) العلل لأحمد (٣/ ٢٤١) ٥٠٦١، والمعرفة (٢/ ٥٥)، والكفاية (٣٥٣).
(٩) رجعت إلى تفسير ابن كثير، فلم أجد له إلا خمسين رواية، جُلها منقول عنه في بيان حكم فقهي.

ولم يكن يكتفي بذلك الإقلال من نفسه، بل كان يدعو إليه، ويعتب على الحسن كثرة تحدثه في التفسير فيقول: تُفسر القرآن وكأنك شهدت التنزيل[١].

وقبل أن أختم هذه المقارنة بين هذين العلمين في مدرسة البصرة أحب أن أذكر طرفًا من بقية الخلاف بينهما في الأحوال، والمناهج.

فعن الأشعث قال: أنا أصفهما لكم - يعني: الحسن وابن سيرين - كنا ندخل على الحسن فإنما هو النارُ، وأمر الآخرة، والموت، وكنا ندخل على ابن سيرين، فكان يمزح، ويضحك، ويتحدث، فإذا أردته على شيء من أمر دينه، كنت إلى أن تنال السماء أقرب منك إلى ما تريد[٢].

ويقول أيضًا: كنا إذا أتينا الحسن، لا نُسأل عن خبر، ولا نخبر بشيء، وإنما كان في أمر الآخرة.

قال: وكنا نأتي محمد بن سيرين، فيسألنا عن الأخبار والأشعار[٣].

وعن يونس بن عبيد قال: كان الحسن رجلاً محزونًا، وكان ابن سيرين صاحب ضحك، ومزاح[٤]، بل كان ابن سيرين - رحمه الله - يضحك حتى يستلقي[٥].

وقد كان لذلك الأثر الواضح في تباين مناهجهما الدعوية، فكانوا يقولون: خذوا بحلم ابن سيرين، ولا تأخذوا بغضب الحسن[٦].

وكان لهذا الحلم عند ابن سيرين أثره في منهجه ومسلكه، وفي ذلك يقول أيوب

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٩٥).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٧).
(٤) المرجع السابق (٧/ ١٦٢).
(٥) الحلية (٢/ ٢٧٤)، والمعرفة (٢/ ٦٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٥)، والسير (٤/ ٦١٥).

السختياني، وهشام الدستوائي: ما رأينا أحداً أعظم رجاءً لأهل القبلة من ابن سيرين[١].

وكان من منهج الحسن أن يجيء إلى السلطان، ويعيبهم، وكان ابن سيرين لا يجيء إلى السلطان، ولا يعيبهم[٢].

وقد بعث عمر بن عبد العزيز - بعد أن تولى الخلافة - إلى الحسن فقبل، وبعث إلى ابن سيرين فلم يقبل[٣].

وكان ابن سيرين أعلم بالقضاء من الحسن، لدقة معرفته بأحوال الناس[٤]، وكان ابن سيرين أفطن من الحسن في أشياء[٥]، ولذا لما تولى الحسن القضاء لم يُحمد[٦].

يقول إياس بن معاوية قاضي البصرة: لست بخب، ولا يغبنني، ولا يغبن ابن سيرين، ولكن يغبن الحسن[٧].

ومن الموافقات في الأقدار، أن ابن سيرين توفي بعد الحسن بمائة يوم[٨]، فقدمات لتسع مضين من شوال سنة عشر ومائة[٩].

وقد سُئل ابن سيرين عن تعبير رؤيا فقال له رجل: رأيت كأن الجوزاء تقدَّمت الثُريا، قال: الحسن يموت قبلي، ثم أتبعه، وهو أرفع مني[١٠].

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٧)، وتهذيب الأسماء (١/ ٨٤).
(٢) المعرفة (٢/ ٦٤)، والسير (٤/ ٦١٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٠٢).
(٤) تهذيب الأسماء (١/ ٨٤).
(٥) السير (٤/ ٦٠٨).
(٦) أخبار القضاة (٢/ ٨، ١١).
(٧) إحياء علوم الدين (٢/ ٨٠).
(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٠٦)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٢/ ٢١٨، ٢٣٣).
(٩) السير (٤/ ٦٢١).
(١٠) الحلية (٢/ ٢٧٧)، والسير (٤/ ٦١٨).

قال الإمام الذهبي : وكان ابن سيرين له عجائب يطول ذكرها في تعبير الرؤيا، وكان له في ذلك تأييد إلهي[١] .

وبعد هذا العرض الموجز لأوجه الخلاف بين إمامين عاشا في مدرسة واحدة، وتعاصرا وأخذا عن صحابي واحد، فكان بينهما من التشابه والاختلاف ما كان، فكان من نتاج ذلك الخلاف في المنهج أن ظهر أثر الحسن في المدرسة في التفسير، وأثرى البصرة في مجال التأويل، وقل أثر ابن سيرين وانحسر .

أنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إمام آخر، هو ثالث الأئمة إذا عُدَّ العلماء من البصرة؛ أعني جابر بن زيد، مبينًا سبب ندرة المروي عنه في التفسير، ومبرزًا أهم ما انفرد به عن أصحابه .

جابر بن زيد والبصريون :

هو جابر بن زيد الأزدي البصري[٢] ، أبو الشعثاء[٣] ، من كبار التابعين بالبصرة يقول عنه الذهبي : كان عالم أهل البصرة في زمانه، يُعدُّ مع الحسن، وابن سيرين، وهو من كبار أصحاب ابن عباس[٤] .

قال الإمام أحمد : أصحاب ابن عباس ستة : طاوس ومجاهد وسعيد بن جبير، وعطاء، وجابر بن زيد، وعكرمة آخر هؤلاء[٥] .

وجابر من أكثر البصريين تأثرًا بابن عباس[٦] إلا أن جلَّ هذا التأثر كان في معرفة

(١) السير (٤/ ٦١٨).
(٢) المعارف (٢٠٠)، والأنساب للسمعاني (٣/ ٣٧٤)، والغاية (١/ ١٨٩)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٥٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٧٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٤١).
(٤) السير (٤/ ٤٨١).
(٥) العلل لأحمد (١/ ٢٩٤) ٤٧٧، (٢/ ٥٠٠) ٣٢٩٦.
(٦) مقارنة بصاحبيه : الحسن وابن سيرين .

الأحكام الفرعية، أما في التفسير فقد كان ـ رحمه الله ـ من المقلين، ولم أجد له في كتب التفسير إلا القليل من الروايات[١]، ومرد ذلك ـ والله أعلم ـ أنه قد صرف جهده واستفرغ علمه في الفقه والإفتاء، فكان مفتي البصرة، فقد كان الحسن يغزو، وكان مفتي الناس جابر[٢].

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول لأهل البصرة: تسألونني وفيكم ابن زيد؟![٣].

ويثني عليه بقوله: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علمًا عمًّا في كتاب الله[٤].

ولما سئل أيوب السختياني: هل رأيت جابر بن زيد؟ قال: نعم، كان لبيبًا لبيبًا لبيبًا[٥].

ولعل من أهم الأسباب التي قللت نتاجه في التفسير، اشتغاله بعلم معرفة الأحكام الشرعية الفرعية، وتصدره للإفتاء، مع ما كان عنده من الورع، فكان كما يصفه صالح الدهان أحد أصحابه بقوله: ما سمعت جابرًا قط يقول: قال رسول الله ﷺ[٦].

---

(١) بعد مراجعتي لتفسير ابن كثير، وجدت له (٢٢) قولاً فقط، منها (١٧) قولاً في تفسير آيات الأحكام، وله عند القرطبي (٣٤) قولاً كلها في معرفة الأحكام الفقهية العملية.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٨٠).

(٣) الحلية (٣/ ٨٥)، والجرح (٢/ ٤٩٥)، والتذكرة (١/ ٧٢)، وطبقات الحفاظ (٢٨).

(٤) المعرفة (٢/ ١٢)، وطبقات الفقهاء (٨٨)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٤٣)، والشذرات (١/ ١٠١).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٨٠)، والمعرفة (٢/ ١٤)، والعلل لأحمد (٢/ ٣٧٦) ٢٦٧٦، والتذكرة (١/ ٧٢).

(٦) المعرفة (٢/ ١٥).

فإذا كانت هذه حاله في نقل حديث رسول الله ﷺ، فإن حاله في تفسير كتاب الله أشد، بل كان ـ رحمه الله ـ مع تقدمه في الفتوى ينهى عن كتابة رأيه.

فعن عمرو بن دينار قال: قيل لجابر بن زيد: يا أبا الشعثاء إنهم يكتبون عنك. قال: إنا لله! يكتبون عني رأيي أرجع عنه غداً[1].

وأما ما انفرد به عن صاحبيه: الحسن ومحمد، أنه صحب ابن عباس وتأثر به، لاسيما في الجانب التشريعي، بينما الحسن ومحمد لم يسمعا من ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وخلاصة القول: إن لكل إمام ميزة تميز بها، وخاصية انفرد بها، فمحمد بن سيرين برع في الجانب الحديثي، ولم يتقدمه أحد، وجابر تفرغ لعلم الفقه، والإفتاء، والحسن كان جامعًا للعديد من العلوم، ومن أكثرهم حديثًا في التفسير.

أقف عند هذا؛ لأنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن واحد من صغار التابعين في هذه المدرسة كان له الأثر في التفسير، ولم أتعرض له في فصل أشهر رجال المدارس مع أنه من المكثرين، لما سيأتي، وآثرت أن أعرض له هاهنا بشيء من الاختصار مُبينًا السبب الرئيس في ترك تفصيل حاله وهو:

الربيع بن أنس البكري:

هو من بكر بن وائل ومن أنفسهم، كان من أهل البصرة[2]، سمع أنس بن مالك[3]،

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٤)، وطبقات ابن سعد (٧/ ١٨١).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٦٩)، والمعارف (٢٠٥)، وتهذيب الكمال (٩/ ٦١).

(٣) التاريخ الكبير (٣/ ٢٧١)، ومشاهير علماء الأمصار (١٢٦)، والسنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٢٠١).

وروى عنه[١] ، ولقي جابر بن عبد الله، وابن عمر -رضي الله عنهم[٢]-، وجالس الحسن، وأخذ عنه، وفي ذلك يقول: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، أو ما شاء الله، ما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله[٣] .

ولكن تأثره في التفسير كان بأبي العالية أكثر منه بالحسن[٤] ، وعدّه ابن حبان راوية أبي العالية[٥] ، وقال عنه الذهبي: أكثر عن أبي العالية[٦] .

وقد عني -رحمه الله- بتفسير أبي العالية رواية ودراية، ولذا فسوف أعقد مقارنة بينه وبين شيخه أبي العالية مبينًا بعض أوجه التشابه بينهما.

بين الربيع، وأبي العالية:

أما في الجانب الروائي: فإن جلَّ المروي عن أبي العالية كان من طريق الربيع ومن روايته[٧] .

وأهم من هذا ما كان من تأثر الربيع بشيخه أبي العالية في جانب الدراية، فالقارئ لتفسير الربيع يلحظ التقارب الواضح، بل والتطابق في كثير من الأحيان بين تفسير أبي العالية والربيع، حتى إن القارئ لتفسيرهما يشعر في بعض الأحيان أنهما تفسير واحد[٨] . وإخال أن ذلك كذلك، وأن الربيع اقتصر دوره على الرواية دون الدراية.

---

(١) الثقات (٤/ ٢٢٨)، وتهذيب الكمال (٩/ ٦١).

(٢) المعارف (٢٠٥)، وطبقات ابن سعد (٧/ ٣٦٩)، وتهذيب الكمال (٩/ ٦١).

(٣) تهذيب الأسماء (١/ ١٦٢)، والجرح (٣/ ٤٢)، وتهذيب الكمال (٦/ ١١١).

(٤) كان أثر الحسن عليه في التفسير قليلاً.

(٥) مشاهير علماء الأمصار (١٢٦).

(٦) السير (٦/ ١٧٠).

(٧) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن ما نسبته (٧٨,٠) من مجموع تفسير أبي العالية هو من رواية الربيع بن أنس.

(٨) بعد مراجعة ومقارنة ما روي من تفسير الربيع عند ابن جرير من خلال الجزء الأول من سورة =

وقد روى الإمام ابن جرير من تفسير الربيع فأكثر عنه[1] ، ولكني وجدت أن جله كان من تفسير أبي العالية، وليس من اجتهادات الربيع، وإن كان مسوقًا على أنه له[2]،

= البقرة لاحظت هذا التشابه، والتطابق بين المروي عن الشيخ وصاحبه، وهذه بعض أرقام الآثار الدالة على ذلك :
٧٠٦، ٨٩٤، ٩١٥، ١١٣٤، ١١٣٧، ١١٩١، ١٢٠٣، ١٢١٣، ١٢٢٧، ١٢٥١، ١٢٦١، ١٣٥٣، ١٣٨٠، ١٤٦٨، ١٥٣٩، ١٥٤٣، ١٥٥٨، ١٥٦٣، ١٥٨٥، ١٥٨٨، ١٥٩٨، ١٦٠٢، ٢١١٧.

(١) بعد مراجعتي لتفسير الطبري، وجدت أن المروي من تفسير الربيع (٥٩٦) قولاً، كلها من طريق أبي جعفر الرازي.

(٢) السبب الذي جعلني أجزم بهذا أنه تبين لي من خلال مقارنة المروي من تفسير الربيع عند ابن جرير، مع المروي من تفسير أبي العالية عند ابن أبي حاتم أني وجدت ما نسب للربيع عند ابن جرير هو من تفسير أبي العالية عند ابن أبي حاتم، وإليك أرقام الآثار، التي يمكن من خلالها المقارنة.
ملحوظة : الرقم الأصغر (الأيسر)، هو عند ابن أبي حاتم من تفسير أبي العالية، والأكبر (الأيمن) عند ابن جرير، هو من تفسير الربيع :
٢٤٣ : ٤٩، ٢٧٦ : ٦٧، ٢٨١ : ٨٧، ٢٩٨ : ٩٣، ٣١٨ : ١٠٥، ٣٢٧ : ١١٣، ٣٣٣ : ١١٥، ٣٣٤ : ١١٩، ٣٤٠ : ١٢١، ٣٤٥ : ١٣٠، ٣٥٦ : ١٤٠، ٣٦٩ : ١٤٧، ٣٧٩ : ١٥٠، ٣٨٦ : ١٥٩، ٤١٤ : ١٨١، ٤٦٠ : ٢١١، ٤٧١ : ٢١٣، ٤٧٧ : ٢٢٢، ٥٢٧ : ٢٦٣، ٥٥٦ : ٢٧١، ٥٦٤ : ٢٧٧، ٥٧٣ : ٢٨٩، ٥٨٨ : ٣٠٩، ٥٨٩ : ٣١١، ٦٠٢ : ٣٢٣، ٧٦٥ : ٤٠٥، ١١٤٩ : ٦٧٩، ١١٥٣ : ٦٨٠، ١١٥٥ : ٦٨٢، ١١٧٠ : ٦٩٠، ١٢٧١ : ٧٤١، ١٤٢٨ : ٨٢٧، ١٤٤٠ : ٨٣٣، ١٥٧٤ : ٩٤٠، ١٦١٩ : ٩٦٠، ١٦٣٢ : ٩٦٤، ١٦٧١ : ١٠٠٥، ١٧١٩ : ١٠٤٠، ١٧٩٢ : ١٠٩٤، ١٨٠١ : ١٠٩٩، ١٨٠٣ : ١١٠٢، ١٨٠٧ : ١١٠٣، ١٨١٠ : ١١٠٦، ١٨١٢ : ١١١٢، ١٨١٦ : ١١١٦، ١٨٥٨ : ١١٤٢، ١٨٦٤ : ١١٤٨، ١٨٧١ : ١١٥١، ١٩٤٢ : ١١٨٢، ١٩٤٤ : ١١٨٦، ١٩٧٧ : ١٢٠٠، ١٩٨٢ : ١٢٠٣، ٢٠٧٦ : ١٢٦٥، ٢٠٨٤ : ١٢٨٠، ٢٠٨٨ : ١٢٨٨، ٢١٠٦ : ١٣١٠، ٢١١١ : ١٣٢٠، ٢١٣٥ : ١٣٢٨.
فتحصل من هذا: أن المروي عنه، والمنسوب إليه عند ابن جرير على أنه من تفسيره أكثر من (١١٤) قولاً، منها (٢٣) قولاً، مطابقة لما روي عن أبي العالية، و (٥٨) قولاً من تفسيره عند ابن جرير، ولكنها عند ابن أبي حاتم من رواية أبي العالية، وتفسيره بنصها تمامًا، فلم يبق من تفسيره إلا (٣٣) قولاً، أي: ما يقارب (٢٩ , ٠) من مجموع تفسيره، وهذا الذي انفرد فيه عن أبي العالية، وغالبه فيما يرويه عن بني إسرائيل.

ولعله لو صنف المكثرون من مفسري التابعين، لعُدَّ الربيع بن أنس من الرواة، ولم يعد من المفسرين[١].

وهذا ما تبين لي من حاله أن عمله اقتصر في أكثر المنسوب إليه على الأخذ عن أبي العالية، وحفظ هذه الأقوال، وروايتها على أنها من تفسيره.

وهذا من أهم الأسباب التي جعلتني أرجئ الحديث عن الربيع إلى هذا الموضع مع أنه من المكثرين، ولكنها كما اتضح كانت من تفسيره غيره.

وأما ما انفرد فيه الربيع، وهو ما يقارب ثلث المروي عنه، فإن غالبه دار حول آيات القصص، وبدء الخليقة، وقد ساق فيها الربيع الكثير من الرواية عن بني إسرائيل، لكن المروي فيها لا يطابق المروي عن أبي العالية، وإن كان من حيث المنهج قد تأثر فيه به؛ لأن أبا العالية من أكثر البصريين تساهلاً في الرواية عن بني إسرائيل[٢].

بين الحسن، وأبي العالية:

ومع أن هذين الإمامين عاشا في البصرة، إلا أن أوجه الاتفاق في المنهج بينهما كانت قليلة، ومن أبرز نقاط الاختلاف بينهما ما يلي:

١ ـ تقدم أبي العالية على الحسن في علم القراءة، فقد قرأ على أبي بن كعب، وقرأ

---

(١) لم يذكره الداودي في طبقات المفسرين، والأحرى بحال الربيع أن يعد من الرواة، كابن أبي نجيح، وسعيد بن أبي عروبة، وغيرهم. والله أعلم.
ومما يستأنس به هنا ما ذكره الذهبي في ترجمة الربيع حيث قال عنه: روى كثيراً في التفسير والمقاطيع، ينظر تاريخ الإسلام (ح ١٣٩/ ٤١٧).
فأنت ترى أنه قال عنه: روى كثيراً، ولم يقل: إنه مفسر، كما قال عن غيره.

(٢) المروي عن أبي العالية في الإسرائيليات أكثر من (٠,٠٦) من مجموع تفسيره، في حين بلغت هذه النسبة عن الحسن، وقتادة (٠,٠٣) من مجموع تفسيرهما.

على عمر ثلاث مرات[١]، وهو معدود في طبقات كبار القراء[٢] ، والحسن ـ رحمه الله ـ وإن كان من المهتمين بالقراءة، إلا أنه لم يبلغ مرتبة أبي العالية .

٢ ـ الحسن البصري كان إمام عامة وخاصة، وكانت حلقات الوعظ عنده يجتمع فيها الكثير من الناس، بخلاف حال أبي العالية الذي كان يكره اجتماع الناس عليه، ويُؤثر الخفاء، فإذا اجتمع إليه أربعة قام[٣] .

٣ ـ ونتيجة لما سبق فقد كثر تلاميذ الحسن، والناقلون لتفسيره، على عكس أبي العالية الذي ضاع كثير من علمه بسبب قلة تلاميذه[٤] .

٤ ـ تأثر الحسن بالمنهج المدني، في حين مال أبو العالية في كثير من مسالكه إلى المنهج المكي ، وليس بمستغرب عليهما ذلك، فالحسن عاش أول سني عمره في المدينة، وكان تردده على مكة بعد أن انتقل إلى العراق قليلاً، حتى إنه لم يحج إلا مرتين[٥] ، ولم يسمع من ابن عباس[٦] ، في حين أن أبا العالية سمع من ابن عباس، وحج ستًا وستين حجة[٧] . فصار إلى المنهج المكي أقرب في قلة التعرض لآيات الأحكام، والتساهل في الرواية عن بني إسرائيل، والعناية بمشكل القرآن، والاهتمام بالأشباه والنظائر، إلى غير ذلك من أوجه الشبه بين المكيين وأبي العالية، وقد سبق بيان ذلك وتفصيله[٨] .

---

(١) سبق تفصيل ذلك في ترجمة أبي العالية، ص (٢٨٩).

(٢) ذكر الذهبي أبا العالية في كتاب معرفة القراء (١/ ٥٠)، ولم يذكر الحسن، وعده أبو بكر بن أبي داود من أعلم الناس بالقراءة بعد الصحابة، ينظر التهذيب (٣/ ٢٨٥).

(٣) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٧) ٢٩٨٤، والعلم لأبي خيثمة (١١٨).

(٤) تهذيب الكمال (٩/ ٢١٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٨).

(٦) سؤالات ابن الجنيد لابن معين (٣١٥).

(٧) المعارف (٢٠٠)، والشذرات (١/ ١٠٢).

(٨) في ترجمة أبي العالية ص (٢٩١).

٥ ـ الناظر في سيرة أبي العالية يلمس عدم رضاه التام عن المنهج الوعظي للحسن، ولذلك كان يقول لما سئل عنه: رجل مسلم يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأدركنا الخير، وتعلمنا قبل أن يولد الحسن[1].

هذه بعض أوجه الاختلاف بين هذين الإمامين:

وخلاصة القول في أصحاب مدرسة البصرة: إن الحسن البصري كان إمامهم في التفسير والفقه، وأنه كان من أكثرهم استقلالاً، ومن أشدهم تأثيراً في المدرسة، ويأتي بعده في التفسير قتادة الذي هو امتداد للحسن، وثمرة من غرس يده، لكنه تميز بحافظة قوية، مما كثر نتاجه في العلم بعامة، وفي التفسير بخاصة، حتى كان الثاني بين عموم التابعين.

وبعد هؤلاء في التفسير رفيع بن مهران (أبو العالية)، وإن كان أثره في المدرسة محدوداً، وتأثره بها أقل من ذلك.

أما الربيع بن أنس، وإن وجد له بعض من الأثر في التفسير، فإن جلَّ تفسيره نقله عن أبي العالية، ودوره الرواية فحسب، والله تعالى أعلم.

أسباب كثرة المروي عنهم:

كما أسهمت المدرسة المكية إسهامًا قيمًا في كثرة تناولها للآيات وتفسيرها، فإن المدرسة البصرية كان لها اهتمام بارز، ودور مميز في تناول آيات الكتاب الكريم، وتفسيرها، وأسباب ذلك كثيرة من أهمها:

١ ـ كثرة رواياتهم للأحاديث، وتساهلهم في ذلك:

كان من الفوارق الرئيسة بين البصريين والكوفيين، أن الكوفيين كانوا يتشددون في نقل السنن، ويحتاطون غاية الاحتياط، وكان إمامهم في ذلك ابن مسعود، الذي كان

(١) المعرفة (٢/ ٥٢)، وتاريخ دمشق (٦/ ٢٦٥).

من أكثر الصحابة إقلالاً في باب الرواية، وتحذيراً لأصحابه من الخطأ فيها[١] .

بينما كانت البصرة على العكس من هذا المنهج، وخصوصًا ما كان من رواية الحسن البصري إمام مفسري التابعين في البصرة، ولعله استفاد بعض هذا من تساهل شيخه في البصرة أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، فقد كان أكثر تساهلاً من ابن مسعود ـ رضي الله عن الجميع ـ .

فعنه قال: ليس كل ما نحدثكم عن رسول الله ﷺ سمعناه منه، ولكن حدثنا أصحابنا، ونحن قوم لا يكذب بعضهم بعضًا[٢] .

يقول ابن سيرين: ثلاثة كانوا يصدقون من حدثهم: أنس، وأبو العالية، والحسن البصري[٣] .

قال الخطيب البغدادي في بيان معنى قول ابن سيرين: أراد أنهم كانوا يأخذون الحديث عن كل أحد، ولا يبحثون عن حاله، لحسن ظنهم به[٤] .

وأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يعد من المكثرين بين الصحابة في رواية الحديث، فقد ذكر بقي بن مخلد: أنه روى ألف حديث، ومائتي حديث، وستة وثمانين حديثًا[٥] .

وكان الحسن البصري من أكثر التابعين تساهلاً في الرواية، فكان يجيز التحديث بالمعنى[٦] ، ويرخص بالزيادة أو النقصان في الحديث، إذا كان المتحدث يصيب

(١) سيأتي لذلك مزيد بحث في المدرسة الكوفية ص (٤٦٢).
(٢) الكفاية (٣٨٦).
(٣) العلل لأحمد (١/ ٤٤٢) ٩٨٩، والمعرفة (٢/ ٣٥).
(٤) الكفاية (٣٧٣).
(٥) مقدمة مسند بقي بن مخلد (٧٩)، تدريب الراوي (٢/ ٢١٧).
(٦) العلم لأبي خيثمة (١٤١)، والعلل لأحمد (٢/ ٢٦٦) ٢٢٠٦.

المعنى[١] .

ولم يكن تساهله هذا في جانب المتن فحسب، بل شمل التساهل في الإسناد، ولذا نجده من أكثر التابعين، الذي أفاضت كتب المراسيل في تتبع إرساله ، والحديث عن حكم تلك المراسيل[٢] .

وقريبًا من ذلك كان منهج قتادة، فإنه كان كثيراً ما يورد الرواية بلاغًا دون إسناد، وكان ـ رحمه الله ـ يكثر إرسال الحديث، يقول شعبة: كنت أتفطن إلى فم قتادة إذا حدث، فإذا حدث بما قد سمع قال: حدثنا سعيد بن المسيب، وحدثنا أنس، وحدثنا الحسن، وحدثنا مطرف، وإذا حدث بما لم يسمع قال: حدث سليمان بن يسار، وحدث أبو قلابة[٣] .

ولذا فقد كان الأئمة من الكوفيين ينكرون على البصريين، فقد أنكر الشعبي على الحسن إكثاره[٤] ، وقال لما سئل عن قتادة: حاطب ليل[٥] .

٢ ـ تقدمها في معرفة اللغة :

استخدمت هذه المدرسة الفصيح استخدامًا واسعًا في تفسيرها، وسبقت بقية المدارس في القدرة على معرفة الغريب من كلام العرب، فقد كان الحسن البصري لا يقاربه في هذا الباب أحد، ولذا كثر النقل عنه في كتب تفسير غريب الحديث والأثر.

وكان هو وقتادة من أفصح أهل الكوفة، وممن نالوا من ثناء الأئمة ما لم ينل أحد

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٩٣)، والمحدث الفاصل (٥٤١) ٧٠٨.

(٢) المراسيل لابن أبي حاتم (٣١ـ٤٦)، وجامع التحصيل للعلائي (١٦٢ـ١٦٦). وقد سبق تفصيل ذلك في ترجمة الحسن ص (٢٢٠).

(٣) العلل لأحمد (٣/ ٢٤٢) ٥٠٦٨.

(٤) العلل لأحمد (٣/ ٣٦٦) ٥٦١٤، والكفاية (٣٩٢).

(٥) المعرفة (٢/ ٢٧٧)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥١٠)، والسير (٥/ ٢٧٢).

مثله، والمتأمل في تفسيرهما يجد شاهد هذا في جزالة اللفظ، وقوة سبك العبارة، وجمال الأسلوب، واستخدام الأفصح في كلام العرب في تفسير الآيات، مما جعل الكثير من أقوالهم وآثارهم حكمًا وأمثالاً تحفظ، لبديع عبارتهم، وجمال وقعها في النفوس، وصدق تأثيرها في القلوب.

٣ ـ بُعْدُ المدرسة عن الفتن:

نعمت البصرة بكثير من الاستقرار مقارنة بغيرها من الحواضر والمدن المجاورة كالكوفة.

ويعد المشاهير من مفسري التابعين فيها من أبعد التابعين عن الفتن[١]؛ بل إن الناظر في منهجهم يجد تميزًا في هذا، يستحق أن يفرد بالدرس والبحث، ليس هذا مقام الاستطراد فيه.

فهذا إمامهم الحسن البصري يقول محذرًا أصحابه من الدخول في الفتن: كلما نعر كلب، أو صاح ديك تبعتموه[٢].

وكان يحذر من الاشتراك في الفتن، ولذا كرهه بعض الخوارج، فكان قتادة يقول عنه ـ رحمه الله ـ: والله لا يبغض الحسن إلا حروري[٣]، وكان يأمر الناس بالصبر، والكف، والضراعة إلى الله، ويرى أن الموعظة بالحسنى، والرفق في الإنكار، أجدى من الثورة، والدعوة إلى الفتنة[٤].

ولم يكن ذلك سمة خاصة بالحسن فقط، بل إن الإمام محمد بن سيرين البصري كان يبارك هذا الرأي للحسن، ويؤكده بقوله لأصحابه: هاجت الفتنة، وأصحاب

(١) اشترك من الكوفة في فتنة ابن الأشعث سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي.
(٢) التاريخ الصغير (١/ ٢٤٧).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٧٤)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).
(٤) سبق تفصيل ذلك عند الحديث عن الحسن ص (٢٣٢).

رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين[١] .

وأما قتادة ـ رحمه الله ـ فقد قفا أثر شيخه الحسن في ذلك، وكان رجلاً أعمى، فلم ينقل عنه دخول أو مشاركة في فتنة.

ولذا كثر علم هؤلاء، وتناقل الناس آثارهم في التفسير وغيره.

٤ ـ التدوين المبكر لآثار المدرسة :

وهذا مما حفظ آثار هذه المدرسة، وعلمها، وميزها عن غيرها[٢] . فسعيد بن أبي عروبة الذي يُعد من أحفظ أهل زمانه[٣] ، وكان من أحفظ أصحاب قتادة[٤] ، كان أول من صنف الكتب، قال الإمام أحمد: أول من صنف الكتب: ابن جريج، وابن أبي عروبة[٥] .

وعدّه ابن العماد: من أول من صنف الكتب بالعراق[٦] .

٥ ـ إقدام المدرسة على اقتحام باب التفسير، والإكثار فيه :

الحق أن المدرسة البصرية جاءت بعد المكية في هذا الباب ، في توسعها في باب الاجتهاد ، وكثرة النظر في التفسير، في حين غلب جانب الهيبة والورع على مدارس أخرى كمدرستي المدينة والكوفة[٧] .

وقد أكثر في ذلك الإمامان: الحسن وقتادة، وتوسعا فيه حتى ظهر أثر ذلك جليًا

---

(١) العلل لأحمد (٣/ ١٨٢) ٤٧٨٧، والبداية (٧/ ٢٥٣).

(٢) كانت في هذا أسبق من الكوفة والمدينة.

(٣) الجرح (٤/ ٦٥).

(٤) هدي الساري (٤٠٦)، نقل من تفسير قتادة أكثر من (٣٣٣٥) قولاً.

(٥) السير (٦/ ٣٢٧).

(٦) شذرات الذهب (١/ ٢٢٦).

(٧) سيأتي مزيد بيان لهذا ـ إن شاء الله ـ في الحديث عن هاتين المدرستين.

في قتادة، فغزر علمه في التفسير، بيد أن حظه من العلوم الأخرى كان قليلاً. وهذا التوسع لم يرضه بعض المشاهير من الكوفيين خاصة.

فكان عامر الشعبي يصف قتادة - الذي كان مضرب المثل في عصره بالحفظ - فيقول: قتادة حاطب ليل. وبعد مراجعتي لتراجم الأئمة المشاهير من مفسري تلك المدارس، لم أجد عند البصريين ذلك الحرج والخوف الذي وجدت في تراجم غيرهم من الكوفيين، والمدنيين.

كما أن قتادة - وهو من عني بنشر تراث هذه المدرسة - كان جل همه النقل والرواية والدراية في التفسير، وأما ما نقل عنه في العلوم الأخرى فقد كان قليلاً.

٦ - أثر ابن عباس عليها :

وأحسب أن مما أهلها لاحتلال هذه المرتبة المتقدمة بين مدارس التابعين بعد المكية، تولي ابن عباس الإمارة فيها، وبقاءه زمنًا بها[١].

٧ - قلة الصحابة فيها :

وهذا سبب يمكن أن يلاحظ، وخصوصًا إذا قورنت هذه المدرسة بغيرها من مدارس التابعين[٢]، ولذا احتاج الناس إلى علمهم أكثر من غيرهم.

يقول مسروق: كان القضاء في أصحاب رسول الله ﷺ في ستة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، فكان نصفهم لأهل الكوفة علي، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري[٣]، وكان النصف الآخر لأهل المدينة.

---

(١) المستدرك (٢/ ٢٧٣).

(٢) مقارنة بالكوفة والمدينة.

(٣) المعرفة (١/ ٤٨١).

٨ ـ الحرص على إبلاغ العلم، ونشره :

حرص أئمة البصرة على التحديث بما علموه، وأكثروا من ذلك، وكان الحسن ـ رحمه الله ـ يتكلم ويُعلم احتسابًا، في حين كان غيره يسكت احتسابًا[١]، أو ينكر عليه إكثاره، كما جاء في إنكار الشعبي على الحسن[٢]، وكان الحسن ـ رحمه الله ـ يقول : لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه[٣].

وتبعه في ذلك تلميذه قتادة الذي مُتع بحافظة كانت مضرب المثل في عصره، مما جعلته أهلاً ليحتل المرتبة الأولى بين صغار التابعين ومن بعدهم، فدار الإسناد في جميع الأمصار على ستة، كان قتادة أحدهم[٤]. حتى قيل : بث العلم في الدنيا أربعة، وكان من أولهم قتادة[٥].

ومن المعلوم أن أسانيد قتادة وعلمه ـ الذي بثه ـ كان جله في علم التفسير، وروايته، فكان هذا سببًا رئيسًا في انتشار آثار هذه المدرسة، وكثرة الرواية عنها.

مع العلم أنه وجد في المدرسة بعض المتورعين كابن سيرين، وبعده أبو العالية، إلا أن الغلبة كانت لمنهج الحسن، وصاحبه قتادة.

أثرها :

احتلت المدرسة البصرية المرتبة الثانية بعد المكية في التفسير[٦] إلا أن الأثر المكي في

(١) المعرفة (٢/ ٥٦).

(٢) العلل لأحمد (٣/ ٣٦٧) ٥٦١٤.

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٨).

(٤) العلل لابن المديني (٢١)، وهؤلاء الستة كما ذكرهم ابن المديني : محمد بن شهاب الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، وأبو إسحاق السبيعي، وسليمان بن مهران الأعمش، ويحيى بن أبي كثير، ينظر العلل (١٧، ٢٤).

(٥) البيان والتبيين (١/ ٢٤٢).

(٦) بلغ نسبة ما جاء عنها في التفسير بعد مراجعتي للمروي من تفسير مشاهير أصحاب المدارس عند ابن جرير (٣٨, ٠) من مجموع تفاسير التابعين، في حين كان عن المكية ما نسبته (٤٦, ٠)، وعن الكوفية (١٤, ٠)، وعن المدنية فقط (٠٢, ٠).

التفسير بدا واضحًا مُبكرًا في عصر التابعين[١] ، في حين كان الأثر الواسع والبالغ، الذي أحدثته المدرسة البصرية بدأ في الظهور في أواخر زمن التابعين، وبالذات في عصر أتباعهم ومن بعدهم.

فهذا معمر بن راشد البصري ـ الذي عني بتفسير الحسن ، وقتادة رحل إلى اليمن[٢]، ونشر في مدرستها تفسير هذين الإمامين البصريين، حتى إننا نجد أقدم التفاسير المسندة، كتفسير عبد الرزاق الصنعاني يعتمد في تفسيره على هذين المفسرين، أكثر من اعتماده على شيوخ المدرسة المكية[٣] .

كما نجد أثر هذه المدرسة يمتد، ليشمل بلاد المغرب الإسلامي، حتى إن مفسري المغاربة يعتمدون على تفسير الحسن وقتادة أكثر من اعتمادهم على تفسير مجاهد، وعكرمة، ولعل السبب الرئيس في هذا ما نقله يحيى بن سلام ـ الذي عاش في البصرة ـ وأخذ التفسير وعلم القراءة عن أصحاب الحسن[٤] ، مع ما صاحب هذا قبول لأقوال

---

(١) سبق تفصيل ذلك في أثر المدرسة المكية ، ص (٤١٦، ٤٢١).

(٢) السير (٧/ ٥)، وقد لازم عبد الرزاق الصنعاني معمرًا ثماني سنين، ينظر الجرح (٦/ ٣٨)، وكان (٦٦ , ٠) من مجموع تفسيره من طريق معمر عن قتادة، وسيأتي لذلك مزيد بيان عند التعرض للتفسير في اليمن ص (٥٣٦).

(٣) بلغ عدد الأقوال الواردة في تفسيره عن قتادة (١٥٠٩) أقوال، وعن الحسن (٢٠٣) أقوال، في حين كانت عن مجاهد (١٧٨) قولاً، بل كان المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لم يجاوز (١٠٩) أقوال، وسبق تفصيل ذلك في فصل مصادر تفسير التابعين ص (٧٠).

(٤) السير (٩/ ٣٩٦ـ٣٩٧)، وغاية النهاية (٢/ ٣٧٣).

بلغ المروي في تفسير يحيى بعد مراجعة مختصر تفسيره لابن أبي زمنين في سورتي البقرة وآل عمران، عن الحسن (١١١) قولاً، وعن قتادة (١٠٩) أقوال ، وعن مجاهد (٢٧) قولاً، وهذا التفسير عني به أهل إفريقية والمغرب والأندلس ، وكانوا يهتمون به حتى كان منهم من يحفظه، فقد ذكر الدباغ في معالم الإيمان (٢/ ٢٤٨)، في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفارسي أنه كان يحفظ تفسير يحيى بن سلام كما يحفظ القرآن، ينظر مقدمة مختصر تفسير يحيى لأبي زمنين (١/ ٤).

الحسن وصاحبه عند المغاربة، وذلك لقربهم في كثير من الآراء من المدرسة المدنية، التي ينتمي لها معظم بلاد المغرب الإسلامي[1]، فصارت المدارس في شمال إفريقية والقيروان والأندلس تعني بتفسير الحسن وصاحبه، وامتد الأثر فرأيناه حتى في كتب المصنفين من متأخري مفسري المغاربة.

* * *

(١) سيأتي تفصيل الأثر المدني على مدرسة البصرة - إن شاء الله - عند الحديث عن أثر المدرسة المدنية على بقية المدارس ص (٥٢١).

المبحث الثالث

المدرسة الكوفية

لما نزل المسلمون المدائن، طال بها مُكثهم، آذاهم الغبار، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يختار منزلاً آخر بحريًا، فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة، والبعير، فسأل من قبله عن هذه الصفة، فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان، وهو ظهر الكوفة، وكان نزولهم الكوفة سنة سبع عشرة[١].

وقد هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر - رضي الله عنهم أجمعين -[٢].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة قائلاً: يا أهل الكوفة، أنتم رأس العرب، وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيء من هاهنا، وهاهنا، قد بعثت إليكم بعبد الله وخرْت لكم، وآثرتكم به على نفسي. وفي رواية عنه قال: أما بعد فإني بعثت إليكم عماراً أميراً، وعبد الله معلمًا ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، وإني قد آثرتكم بعبد الله على نفسي إثرة[٣].

وكان الحسن البصري إذا سُئل: أيهما خير أهل الكوفة، أم أهل البصرة؟ قال: كان يبدأ بأهل الكوفة[٤].

---

(١) المعارف (٢٤٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٩).
(٣) المرجع السابق (٦/ ٧).
(٤) المعرفة (٢/ ٥٥٠).

ومدرسة الكوفة من أكثر المدارس عناية بآثار شيخها ابن مسعود.

يقول ابن جرير: ولم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود[١].

ويقول مسروق بن الأجدع: حدثنا عبد الله، ولو لم يحدثنا عبد الله من كان يُحدثنا[٢]

ومدرسة الكوفة هي ثالث المدارس رتبة في العناية والاهتمام بعلم التفسير[٣]، وقد أثرت الإقلال والورع فيه، متأثرة بمنهج شيخها ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وتربيته، حتى إن الملازمين له من أصحابه لم يرد عنهم في التفسير إلا أقل القليل، فكانوا بذلك من أقل التابعين على الإطلاق تعرضًا للتأويل.

ننتقل بعد هذا البيان الموجز إلى تفصيل المقال في حياة هذا الصحابي الجليل ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن قار بن مخزوم أبو عبد الرحمن[٤] الهذلي حليف بني زهرة[٥]. وأم عبد الله بنت عبدود بن سواءه من هذيل أيضًا[٦].

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦).
(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤٥٠) ٢٩٩٩.
(٣) سبقتها مدرستا مكة والبصرة.
(٤) الاستيعاب (٢/ ٣١٦)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٥٠)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٤)، والإصابة (٢/ ٣٦٨)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٥٧).
(٥) أسد الغابة (٣/ ٣٨٤)، والمعارف (١٠٩)، والمعجم الكبير (٩/ ٥٧) ٨٤٠١، والمغازي للواقدي (١/ ١٥٥).
(٦) الاستيعاب (٢/ ٣١٦)، والإصابة (٢/ ٣٦٨).

وكان إسلامه قديمًا، يقول ـ رضي الله عنه ـ : لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا[١] .

وكان ـ رضي الله عنه ـ أول من جهر بالقرآن بمكة[٢] .

وقد شهد بدرًا وبيعة الرضوان والمشاهد كلها[٣] ، وهو قاتل أبي جهل عدو الله[٤] .

روى عن النبي ﷺ ثمانمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثًا[٥] ، منها أربعة وستون حديثًا في الصحيحين، انفرد له البخاري بإخراج واحد وعشرين حديثًا، ومسلم بإخراج خمسة وثلاثين حديثًا[٦] .

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب وسادة النبي ﷺ وسواكه، ونعليه وطهوره[٧] .

يقول أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينًا ما نَرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي ﷺ ، لما نرى من دخوله، ودخول أمه على النبي ﷺ[٨] .

---

(١) المستدرك (٣/ ٣١٢) ، وكشف الأستار (١/ ٣٠٣)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٨٧).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣١٤)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٥١)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٥).

(٣) المعارف (١٠٩)، والمستدرك (٣/ ٣١٢)، والمنتظم (٥/ ٣٠).

(٤) المغازي للواقدي (١/ ٩٠)، وتاريخ الثقات (٢٧٨)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٨١).

(٥) مُقدمة مُسند بقي بن مخلد (٨٠)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٣٤)، والسير (١/ ٤٦٢).

(٦) السير (١/ ٤٦٢).

(٧) الحلية (١/ ١٢٦)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٥٣)، والمعرفة (٢/ ٥٥٠)، والمستدرك (٣/ ٣١٤).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله، ينظر الفتح (٧/ ١٠٢) ٢٧٦٣، ومسلم في صحيحه بلفظ مختصر، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله (٤/ ١٩١١) ٢٤٦٠، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله (٥/ ٦٧٢) ٣٨٠٦، والنسائي في فضائل الصحابة (١٤٩)، وابن سعد في طبقاته (٣/ ١٥٤).

وعن شقيق بن سلمة قال: سمعت حذيفة يقول: إن أشبه الناس دلاً وسمتًا، وهديًا برسول الله ﷺ، لابن أم عبد، من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندري ما يصنع في أهله إذا خلا[1].

وعن أبي الأحوص قال: كان نفر من أصحاب النبي ﷺ، أو قال: عدة من أصحاب النبي ﷺ في دار أبي موسى يعرضون مصحفًا، قال: فقام عبد الله بن مسعود فخرج، فقال أبو مسعود البدري: هذا أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد ﷺ، فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حُجبنا ويشهد إذا غبنا[2].

وعن زيد بن وهب، قال: كنت جالسًا في القوم عند عمر، إذ جاء رجل نحيف قليل، فجعل عمر ينظر إليه ويتهلل وجهه، ثم قال: كنيفٌ ملئ علمًا، كنيف مُلئ علمًا، كنيف ملئ علمًا، فإذا هو ابن مسعود[3].

وكان علي ـ رضي الله ـ لما سُئل عنه، قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى[4].

وكان أبو موسى الأشعري يقول لمن يسأله: لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الهدي الصالح، ينظر الفتح (١٠/ ٥٠٩) ٦٠٩٧، ورواه ـ أيضًا ـ مختصرًا في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله، ينظر الفتح (٧/ ١٠٢) ٢٧٦٢، ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٠١، ٤٠٢)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله (٥/ ٦٧٣) ٣٨٠٧، وكتاب فضائل الصحابة للنسائي (١٥٠)، والمعرفة (٢/ ٥٤٠)، والحلية (١/ ١٢٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٤٨)، والمعرفة (٢/ ٥٤١، ٥٤٤)، والحلية (١/ ١٢٩)، والمستدرك (٣/ ٣١٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٩٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٦)، والحلية (١/ ١٢٩)، والمعرفة (٢/ ٥٤٣)، والمعجم الكبير (٩/ ٨٥).

(٤) المستدرك (٣/ ٣١٨)، والحلية (١/ ١٢٩)، وصفة الصفوة (١/ ٤٠١).

بين أظهركم، يعني: ابن مسعود[١] .

وعن مسروق قال: قال عبد الله ـ رضي الله عنه ـ : والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[٢] .

وقد كتب عمر بن الخطاب لأهل الكوفة أني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر فاسمعوا، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، فاسمعوا، وتعلموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي[٣] .

وعن مسروق قال: كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى الأشعري في منزل أبي موسى، فقال حذيفة: أما أنت يا عبد الله بن مسعود، فبعثت إلى أهل الكوفة معلمًا، فأخذوا من أدبك، ولغتك، ومن قراءتك[٤] .

ولقد كان لهذا المعلم الأثر البالغ في نفوس أصحابه الملازمين له أو من جاء بعدهم، فقد توجهت المدرسة متأثرة بأستاذها للعلوم التي أكثر منها وفيها.

---

(١) مسند أحمد (١/ ٤٦٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣)، والمعرفة (٢/ ٥٤١)، والمعجم الكبير (٩/ ٩٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ينظر الفتح (٩/ ٤٧) ٥٠٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله (٤/ ١٩١٣) ٢٤٦٣، وأحمد في مسنده (١/ ٤٢١)، وابن أبي داود في المصاحف (٢١، ٢٣)، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث (٩٥).

(٣) المستدرك (٣/ ٣٨٨)، والمعرفة (٢/ ٥٣٣، ٥٤٢)، والمعجم الكبير (٩/ ٨٥)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٨).

(٤) المصاحف لابن أبي داود (٢١).

أسباب قلة نتاج ابن مسعود التفسيري :

ومدرسة الكوفة كانت من أكثر المدارس اقتداءً ومتابعة لأستاذها حتى بعد موته، فإن تأثيره قد بقي في الكوفة بعده مدة طويلة، وأحسب أن من أهم أسباب إقلال المدرسة في التفسير هو اشتغال المدرسة بالعلوم التي اشتغل بها إمامها ـ رضي الله عنه ـ وهذا بدوره يجعلنا نوجه الحديث إلى إظهار أهم الأسباب التي قللت نتاج هذا الإمام في التفسير[1] ، وأهم من ذلك بيان السبب في إقلال أصحابه من بعده، وإليك توضيح ذلك مفصلاً:

١ ـ التحرج والورع عند ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

كان شديد الورع في التحديث عن رسول الله ﷺ ، وقد تأثر في هذا بمسلك عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يأمر بالإقلال من الحديث خشية الخطأ في نقل حديثه ﷺ .

فعن قرظة بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال : قدمنا على عمر بن الخطاب في وفد من أهل الكوفة، قال: فقضى من حوائجنا ما قضى، حتى إذا ودعنا وخرجنا، لحقنا عمر وهو ينادي، يعلق نعله في يديه، قال: فلما رأيناه، وقفنا له حتى إذا جاء، قال: إني ذكرت أنكم تقدمون غداً على قوم، فأقلوا الرواية على رسول الله ﷺ وأنا شريككم[2] .

وعن رجاء بن أبي سلمة قال: إن معاوية كان يقول: عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر، فإن عمر قد كان أخاف الناس في الحديث عن رسول الله ﷺ[3] . وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ ينهى المكثرين من الصحابة عن التحديث، فكان يقول لأبي هريرة:

---

(١) المروي عن ابن عباس في التفسير عند الطبري (٥٨٠٩) أقوال ، في حين بلغ المروي عن ابن مسعود (٨٥٦) قولاً، أي: ما يقارب سدس المروي عن ابن عباس.

(٢) العلل لأحمد (١/ ٢٥٨) ٣٧٣، وسنن ابن ماجه (١/ ١٢) ٢٨، وجامع بيان العلم (٢/ ١٢٠).

(٣) العلل لأحمد (٣/ ١٨٣) ٤٧٨٩، والمسند لأحمد (٤/ ٩٩).

لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس.

وقال لكعب الأحبار: لتتركن الأحاديث أو لألحقنك بأرض القردة[١].

وقد تأثر ابن مسعود بهذا المنهج، ولا غرو في ذلك، فهو الذي كان يدع قوله لقول عمر. فقد روى العجلي في تاريخه قال: ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يدعون قولهم لقول ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ: كان ابن مسعود يدع قوله لقول عمر، وكان أبو موسى الأشعري يدع قوله لقول علي، وزيد بن ثابت يدع قوله لقول أبي[٢].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو أن علم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وضع في كفة الميزان، ووضع علم أهل الأرض في كفة لرجح علم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه[٣].

وقد بلغ عبد الله مرتبة عظيمة من الورع والخشية عند التحديث عنه ﷺ.

فعن عمرو بن ميمون قال: صحبت عبد الله ثمانية عشر شهرًا، فما سمعته يُحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا، فرأيته يعرق، ثم غشيه بهرٌ ثم قال نحو هذا أو شبهه[٤].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول لأصحابه: إن استطعت أن تكون أنت المُحدَّث،

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥٤٤)، مسند أحمد (٤/ ٩٩)، وشرف أصحاب الحديث (٩٠)، والمحدث الفاصل (٥٥٤).

(٢) تاريخ الثقات (٢٧٨).

(٣) العلم لأبي خيثمة (١٢٣).

(٤) المعرفة (٢/ ٥٤٨)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٣٠)، وسنن الدارمي (١/ ٨٣)، وأخرجه ابن سعد بلفظ مقارب عن علقمة، ومسروق (٣/ ١٥٦، ١٥٧)، ورواه ابن ماجه في سننه (١/ ١٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ١١١)، و(٣/ ٣١٤)، وينظر المحدث الفاصل (٥٤٩)، والإلماع (١٧٧)، والكفاية (٢٠٥).

فافعل[١] .

وكان ينهى عن كثرة التحديث[٢] ، وكان يحدث في الشهر بالحديث والحديثين[٣] .

وعد بعض أصحابه حديثه ، فلم يجاوز الخمسين حديثًا[٤] .

وكان يقول ـ رضي الله عنه ـ : إن الذي يفتي الناس في كل شيء لمجنون[٥] .

ولما سئل ـ رضي الله عنه ـ عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ . قال : والله لولا التحرجُ ، وأني لم أسمع من رسول الله ﷺ فيها شيئًا ، لقلت : إن العمرة واجبة مثل الحج[٦] .

وكان يقول : القرآن كلام الله ، فمن قال فليعلم ما يقول على الله[٧] ، وكان ـ رضي الله عنه ـ ينهى عن القصص ، والتكلف[٨] .

ولما سئل عن شيء قال : إني لأكره أن أحل لك شيئًا حرمه الله عليك ، أو أحرم ما أحله الله لك[٩] .

وعن مسروق قال : كنا عند عبد الله جلوسًا ، وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن قاصًا عند أبواب كندة يقص ، ويزعم أن آية الدّخان تجيء ، فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، فقال عبد الله وجلس

(١) العلم لأبي خيثمة (١١٣) .
(٢) المرجع السابق (١٣٣) .
(٣) سنن الدارمي (١/ ٨٤) .
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٣) ، والمحدث (٥٥٧) .
(٥) سنن الدارمي (١/ ٦١) ، والعلم لأبي خيثمة (١١١) ، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢١١) .
(٦) تفسير الطبري (٤/ ١٣) ٣٢١٣ ، والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٣٥١) .
(٧) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٤٢٤) ٢٢٨٠ .
(٨) العلم لأبي خيثمة (١٢٥) .
(٩) سنن الدارمي (١/ ٥٥) .

وهو غضبان: يا أيها الناس، اتقوا الله، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم الله أعلمُ، فإن الله ـ عز وجل ـ قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

٢ ـ الاشتغال بالقراءة:

برز ابن مسعود ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ بين الصحابة، وسبق في علم القراءة، وقد تلقى من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة من القرآن، فعن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله بن مسعود، فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم[2].

وعن مسروق قال: ذُكر عبد الله عند عبد الله بن عمرو، فقال: ذاك رجلٌ لا أزال أحبُّه بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود** فبدأ به، **وسالم مولى أبي حُذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل**»[3].

---

(١) سورة ص: آية (٨٦)، والأثر أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين (٤/ ٢١٥٥) ٢٧٩٨، والبخاري في صحيحه مختصرًا، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، ينظر الفتح (٨/ ٥٤٧) ٤٨٠٩، ورواه البغوي بسنده عن مسروق مختصرًا، ينظر تفسير البغوي (٤/ ٧٠)، وابن كثير في تفسيره (٧/ ٧٣). وأورده السيوطي في الدر، وعزاه للبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه عن مسروق بنحوه (٧/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ينظر الفتح (٩/ ٤٦) ٥٠٠٠، وينظر طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٢، ٣/ ١٥١)، والمعرفة (٢/ ٥٣٧، ٥٣٩)، والمستدرك (٢/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة، ينظر الفتح (٧/ ١٠١) ٣٧٥٨. ورواه أيضًا في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ بلفظ مقارب، ينظر الفتح (٩/ ٤٦) ٤٩٩٩، ورواه في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن مسعود (٧/ ١٠٢) ٣٧٦٠، وباب مناقب معاذ بن جبل (٧/ ١٢٥) ٣٨٠٦. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله (٤/ ١٩١٣) ٢٤٦٤. وأخرجه النسائي في فضائل الصحابة (١٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٦٠)، وأبو =

وقد مدحه النبي ﷺ بقوله: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأ قراءة ابن أم عبد**»[١].

وكان - رضي الله عنه - يقول: لو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[٢].

وقد عرف عمر الفاروق - رضي الله عنه - لابن مسعود قدره في علم القراءة والإقراء.

فعن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر، وهو بعرفة، فقال: يا أمير المؤمنين، جئت من الكوفة، وتركت بها من يملي المصاحف عن ظهر قلبه، قال: فغضب عمر، وانتفخ، حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرجل، ثم قال: ويحك من هو؟ قال: عبد الله بن مسعود، فما زال يطفئ، ويسري الغضب، حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، ثم قال: ويحك، والله ما أعلمه بقي أحدٌ من المسلمين هو أحق بذلك منه[٣].

وقد عظم على ابن مسعود - رضي الله عنه - تقديم زيد عليه في جمع القرآن، فعن عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاها رجلٌ غيري، والله لقد أسلمت وإنه

= داود الطيالسي ١٨٩٤، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٣٤٧)، وأبو شامة في المرشد الوجيز (٣٦).

(١) مسند أحمد (١/ ٧، ٢٦، ٣٨، ٤٤٥، ٤٥٤)، وسنن ابن ماجه (١/ ٤٩) ١٣٨، ومسند الطيالسي، ينظر فتح المعبود (٢/ ١٥)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٤٦)، والمصنف لابن أبي شيبة (٢/ ١٦٣)، والمستدرك للحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٣١٨)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٦٧)، والسنن الكبرى للبيهقي (١/ ٤٥٢)، وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٩) ١١٤.

(٢) سبق تخريجه قبل ورقات.

(٣) المستدرك للحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٢/ ٢٢٧)، ومسند أحمد (١/ ٢٥، ٢٦)، والحلية (١/ ١٢٤)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٤٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٦٤، ٦٥)، والمعرفة (٢/ ٥٣٨).

لفي صُلب أبيه، يا أهل الكوفة: اكتموا المصاحف التي عندكم وغُلوها[1].

وقد بدا واضحًا عناية ابن مسعود بالقراءة في تفسيره، فإنه من أكثر الصحابة الذين اعتنوا بذلك، ونقل عنه العديد من الروايات في ذلك[2].

ومما يدل على أثر هذا على أصحابه، ما نراه من عدّ ثلاثة من القراء الكبار، كلهم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح (٥/ ٢٨٥) ٣١٠٤، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٧٠)، وينظر المصاحف لابن أبي داود (١٧)، وأشار إلى هذه الرواية الإمام الذهبي في السير (١/ ٤٨٨)، وقال معلقًا: إنما شقَّ على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدَّم في ذلك من يصلح أن يكون ولده، وإنما عدل عنه عثمان لغيبته عنه في الكوفة، ولأن زيدًا كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فهو إمام في الرسم، وابن مسعود إمام في الأداء، ثم إن زيدًا هو الذي ندبه الصديق لكتابة المصحف، وجمع القرآن، فهلا عتب على أبي بكر؟ وقد ورد أن ابن مسعود رَضِيَ وتابع عثمان، ولله الحمد.
وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نُسخت، وأما زيد فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ - عام توفي - على جبريل اهـ.
ويقول أبو بكر بن الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدًا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله، ورسول الله ﷺ حي، والذي حفظ منه عبد الله في حياة الرسول ﷺ نيف وسبعون سورة، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ، والذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حي أولى بجمع المصحف، وأحق بالإيثار، والاختيار اهـ. ينظر الوجيز في فضائل الكتاب العزيز (١٦٩).
وقد أخرج البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه اهـ. ينظر الفتح (٩/ ٤٧) ٥٠٠٤، ويأتي لذلك مزيد بسط في مبحث منهجهم في القراءات ص (٧٤٨).

(٢) بعد مراجعتي لتفسيره - رضي الله عنه - عند الطبري وجدت أن (١١, ٠) من تفسيره، كان آثار في إيضاح التفسير بالقراءة. ولم يقاربه في هذه النسبة أحد من الصحابة، أو مفسري التابعين.

من الكوفة: الأسود بن يزيد[١]، وعلقمة بن قيس[٢]، وأبو عبد الرحمن السلمي[٣].

بل كان مجاهد يتحسر على عدم معرفته لقراءة ابن مسعود، ويقول: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت[٤].

ومما يدل على تقدمه أيضًا أن بعض مفسري التابعين من المدارس الأخرى حينما نقلوا تفسير ابن مسعود، كان أكثر ما أخذوه عنه ما كان في القراءات، فمجاهد مثلاً لم يرو عنه إلا في خمسة مواضع، كان أربعة منها في القراءات[٥].

وكذلك روى عنه قتادة في تفسيره في سبعة عشر موضعًا، ستة عشر منها كانت في القراءة[٦].

ووجدت هذا حتى عند المتأخرين من الكوفيين، فهذا السدي يروي عن ابن مسعود خمس روايات، أربع منها في القراءة[٧].

وقريبًا من هذا ما جاء عن الضحاك، الذي روى عن ابن مسعود تسع روايات، ست منها في القراءة[٨].

من ذلك يتضح لنا أن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ اشتغل بالقراءة، والإقراء،

(١) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ٤٤).
(٣) المرجع السابق (١/ ٤٥).
(٤) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٥/ ٢٠٠).
(٥) تراجع الآثار التالية في تفسير الطبري: ١٣٤٣١، ١٤٦٣٢، (٢٥/ ١٧)، (٣٠/ ١٦١).
(٦) ينظر الآثار: ١٩٥٩٥، ١٩٩٥٣، (١٣/ ٢٤٦)، (١٥/ ٦٢)، (١٥/ ٢٠٩)، (١٥/ ٢٣٠)، (١٦/ ٢)، (١٦/ ٣)، (١٦/ ١٢٣)، (١٦/ ٢٠٨)، (١٧/ ١٦٥)، (١٧/ ١٧٣)، (٢٥/ ١٣٦)، (٢٧/ ٢٠٦).
(٧) الآثار في تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٣)، (٢٣/ ٦٥)، (٢٥/ ٧٧).
(٨) ينظر الآثار في تفسير الطبري ١٥٦٦٦، (١٣/ ٢٤٦)، (١٩/ ٦٧)، (٢٢/ ٢١)، (٢٢/ ٣٠)، (٢٥/ ٧٧).

وفاق غيره من الصحابة في هذا، حتى صار التابعون من المدارس الأخرى يفيدون من قراءته، أكثر من إفادتهم من قراءة أصحابهم، لاسيما ما كان منها في التفسير.

٣ ـ اشتغاله بالفقه والإفتاء :

وكان اشتغاله ـ رحمه الله ـ بالفقه والإفتاء أكثر من تعرضه للقرآن وتأويله، وقد تميز في هذا من بين أصحاب النبي ﷺ، حتى إن بعض التابعين عدّه من أفقه الصحابة، وفي ذلك يقول عامر الشعبي: ما كان أحد من أصحاب النبي ﷺ أفقه من صاحبنا عبد الله، يعني ابن مسعود[١].

ونجد شاهد هذا الاتجاه الفقهي، والميل إلى الإفتاء، في الأثر الذي خلفه فيمن بعده، فكان عامة أصحابه، ومن جاء بعدهم، أكثر شغلهم في الإفتاء، وبيان الأحكام الشرعية، وعندما نراجع الحديث عن أصحابه نجد أن الأئمة يقدمون الحديث عنهم بقولهم: الذين يفتون ويقرئون، وأحسب أن سبب ذلك، وعلته، أن الكوفة كانت تحتاج إلى بيان الحلال والحرام، وإيضاح كثير من المسائل العلمية العملية أكثر من حاجتها للتفسير.

٤ ـ تقدم وفاته ـ رضي الله عنه ـ :

فقد توفي ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وعُمِّر بعده ابن عباس ستًا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود[٣] !.

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ١٠).
(٢) مقدمة في أصول التفسير (٩٧)، والسير (١/ ٤٩٩).
(٣) مقدمة في أصول التفسير (٩٧).

أصحاب عبد الله :

بعد أن تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في الأمصار، صار لكل واحد منهم مدرسة، وأصحاب، وقد تهيأ لبعض الصحابة تلاميذ أخذوا علمه وحفظوه، ونشروه في حياته، وبعد مماته، وابن مسعود هو أحد الصحب الكرام الذين تيسرت لهم تلك الصفوة من التابعين الذين اتبعوه بإحسان ، فكانوا كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بقوله : أصحاب عبد الله سُرج هذه القرية[١] .

ويقول العجلي : ليس أحد من أصحاب النبي ﷺ أنبل صاحبًا من ابن مسعود[٢] .

وكان سعيد بن جبير يقول : كان أصحاب عبد الله شيوخ هذه الأمة[٣] .

والكوفة واحدة من المدارس الثلاث التي قام أصحابها بنشر علم شيخهم .

يقول ابن المديني : لم يكن من أصحاب النبي ﷺ أحد له أصحاب حفظوا عنه، وقاموا بقوله في الفقه إلا ثلاثة : زيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس[٤] .

ويبين الشعبي - رحمه الله - الفقهاء من أصحاب عبد الله فيذكر أربعة هم : علقمة بن قيس، وعبيدة السلماني، وشريح ، ومسروق[٥] .

ويُفصلُ حالهم الشعبي بقوله : كان علقمة أبطن القوم بابن مسعود، وكان مسروق قد خلط منه، ومن غيره، وكان الربيع بن خثيم أشد القوم اجتهادًا، وكان عبيدة يُوازي شريحًا في العلم، والقضاء[٦] .

(١) المعرفة (١/ ٣٥٣).

(٢) تاريخ الثقات (٢٧٩)، قلت : وليس قول العجلي هذا ببعيد، فإني لم أجد أحدًا يساويهم في عبادتهم وورعهم مع كثرة علمهم وفقههم - رحمة الله عليهم -.

(٣) المعرفة (٢/ ٥٥٨).

(٤) العلل (٤٣) ، والمعرفة (١/ ٧١٤).

(٥) السير (٤/ ٥٦).

(٦) المرجع السابق (٤/ ٥٥).

ويوسع إبراهيم النخعي نطاق التعريف بأصحاب عبد الله، فيعد من كان يقرأ، ويفتي من أصحاب عبد الله، فيقول : كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس القرآن، ويُعلمونهم السنة، ويصدُر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود، ومسروق ، وعبيدة، وأبو ميسرة بن شرحبيل، والحارث بن قيس[١] .

وأيد هذا القول ابن المديني، وذكر قولاً لابن سيرين : أنه زاد الحارث الأعور[٢] ، وتعقبه بقوله : الحارث الأعور كان في غير طريق أصحاب عبد الله، كانت روايته ومذهبه إلى علي بن أبي طالب، وما أعلمه روى عن عبد الله إلا حديثين، مختلف عنه في أحدهما[٣] .

وبعد أن عدّ ابن المديني أصحاب عبد الله الستة قال : بعد هؤلاء الستة، كان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله وطريقتهم ومذهبهم إبراهيم، والشعبي؛ إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق ، يأخذ عن علي، وأهل المدينة، وغيرهم، وكان إبراهيم يذهب مذهب أصحابه[٤] .

ويقول عنهم البيهقي : هم أعلم الناس بمذهب عبد الله، وإن لم يرياه[٥] .

وإنما عرضت لبيان أشهر أصحاب عبد الله في هذا المقام؛ لأني لم أعرج عليهم في فصل أشهر رجال مدارس التفسير، وأغفلت ذكرهم هناك لندرة المروي عنهم في مضمار التفسير، وضآلة الوارد عنهم في علم التأويل، فإنك تجد المروي عن كثير منهم في التفسير لا يكاد يجاوز الآثار العشرة. ومع هذا فسأقتطف من ترجمة كل واحد من

(١) الحلية (٤/ ١٧٠)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥١)، والمعرفة (٢/ ٥٥٣)، والزهد لوكيع (٢/ ٥٢١)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٦).
(٢) السير (٤/ ٥٦)، والمعرفة (٢/ ٥٥٧).
(٣) العلل (٤٣)، والمعرفة (١/ ٧١٤).
(٤) العلل (٥٢).
(٥) سنن البيهقي (٦/ ٢٥٥).

أولئك الستة ما تدعو إليه الحاجة مُضيفًا نبذة من ترجمة مرة الهمذاني، لعنايته بتفسير ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مع بيان شيء من الفوارق بينهم.

ثم أختم هذا المبحث بما يجود به الرحمن من بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين أعلم أهل الكوفة بعد أولئكم الستة، أعني الشعبي والنخعي[١].

١ ـ علقمة بن قيس :

هو أبو شبل: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الكوفي[٢]، كان ـ رحمه الله ـ من أكبر أصحاب ابن مسعود وأنبلهم[٣]، وهو فقيه الكوفة، وعالمها، ومُقرئها[٤]، وهو عم الأسود بن يزيد، وخال فقيه العراق إبراهيم النخعي[٥].

هاجر في طلب العلم والجهاد، ونزل الكوفة[٦] ولازم ابن مسعود[٧] حتى صار من أعلم أصحابه به، وقد انتهى إلى علم ابن مسعود، ولم يجاوزه[٨]، وعدَّ من أخص أصحاب عبد الله وأبطنهم به[٩]، وكان يقال: إذا رأيت علقمة فلا يضرك ألا ترى ابن

---

(١) بعد مراجعتي لتفسير ابن كثير، وجدت أن أصحاب ابن مسعود الستة: مع ما روي عن مرة الهمذاني، وزر بن حبيش. هؤلاء الثمانية مجتمعون، مجموع ما روى عنهم في تفسير ابن كثير (٦٥) أثرًا فقط، منها (٢٩) أثرًا عن مسروق، والبقية يشترك فيها هؤلاء السبعة.

(٢) طبقات خليفة (١٤٧)، والمعارف (١٩٠)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤١)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٨٦).

(٣) اللباب (٣/ ٣٠٤)، والتذكرة (١/ ٤٨).

(٤) السير (٤/ ٥٣).

(٥) العلل لأحمد (٢/ ٣٠٠) ٢٣٣٤، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٩٦).

(٦) السير (٤/ ٥٤).

(٧) المعرفة (٢/ ٥٥٣)، والكاشف (٢/ ٢٧٧).

(٨) المعرفة (٢/ ٥٥٧)، والسير (٤/ ٣٠٨).

(٩) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٥)، وطبقات الحفاظ (١٣).

مسعود[١] ، وكان يُشبه بابن مسعود في هديه، ودله، وسمته[٢] .

قرأ القرآن على ابن مسعود[٣] ، وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أقرأ شيئًا، وما أعلم شيئًا، إلا وعلقمة يقرؤه، ويعلمه[٤] .

وكان من أقرئهم في الكوفة[٥] .

وكان ـ رحمه الله ـ ممن غلب جانب الورع والإقلال في العلم بعامة، وفي التفسير بخاصة، فلم يأت عنه فيه إلا القليل[٦] .

وكان على جانب كبير من العبادة والنسك، يقول عنه مرة: كان علقمة من الربانيين[٧] .

وقد كان الربيع بن خثيم، وهو من أشد الكوفيين اجتهادًا في العبادة يأتي علقمة فيقول: ما أزورُ أحدًا ما أزورك[٨] .

توفي رحمه الله سنة ثنتين وستين[٩] .

---

(١) التهذيب (٧/ ١٧٧).
(٢) العبر (١/ ٤٩)، والمستدرك (٣/ ٣٢٠)، والمعرفة (٢/ ٥٥٣)، واللباب (٣/ ٣٠٤)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٠).
(٣) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٥)، والسير (٤/ ٥٤).
(٤) التذكرة (١/ ٤٨)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٤٥)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٣٠٥).
(٥) السير (٤/ ٥٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٦٩).
(٦) رجعت إلى تفسير ابن كثير فلم أجد له إلا سبع (٧) روايات، وعند القرطبي (٦٦) قولاً، جُلها في تفسير آيات الأحكام.
(٧) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٠)، والعلل لأحمد (١/ ٤٤٦) ١٠٠٣، والمعرفة (٢/ ٥٥٦).
(٨) السير (٤/ ٥٩).
(٩) المعارف (١٩٠)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٤٥)، والتذكرة (١/ ٤٨).

٢ ـ مسروق :

هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية[١] ، أبو عائشة الوادعي الهمداني[٢] .

يقول الخطيب البغدادي : يقال : إنه سُرِق وهو صغير ، ثم وجد فسمي مسروقًا[٣] .

عداده في كبار التابعين ، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ[٤] .

يقول فيه الشعبي : كان مسروق أعلم بالفتوى من شريح ، وكان شريح أعلم بالقضاء من مسروق ، وكان شريح يستشير مسروقًا ، وكان مسروق لا يستشير شُريحًا[٥] .

وكان الشعبي يقول : ما رأيت أحدًا أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق[٦] .

وكان ـ رحمه الله ـ قد أخذ عن ابن مسعود ، وعن غيره ، وفي ذلك يقول ابن المديني : مسروق صلى خلف أبي بكر ، ولقي عمر وعليًا[٧] ، وقدم المدينة وسأل عن أصحاب النبي ﷺ فدل على زيد بن ثابت ، يقول : قدمت المدينة فسألت عن أصحاب النبي ﷺ فإذا زيد من الراسخين[٨] .

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٢)، والتذكرة (١/ ٤٩)، والإصابة (٣/ ٤٩٢)، وطبقات الحفاظ (٤)، والخلاصة (٣٧٤).

(٢) تاريخ الثقات (٤٢٦)، والكنى لأحمد (١٠٩).

(٣) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٢)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٤٤).

(٤) السير (٤/ ٦٤)، والإصابة (٣/ ٤٩٢).

(٥) المعرفة (٢/ ٥٨٨)، والإصابة (٣/ ٤٩٢).

(٦) العلم لأبي خيثمة (١١٧)، والعلل لأحمد (٢/ ٤٥١) ٣٠٠٣، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٢).

(٧) العلل (٧٦).

(٨) المعرفة (١/ ٤٨٤)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٤).

وقد مرَّ معنا بعض قول الشعبي في ذلك وتمامه: أحدثك عن القوم كأنك شهدتهم، كان شريح أعلمهم بالقضاء، وكان عبيدة يوازي شُريحًا في علم القضاء، وأما علقمة فانتهى إلى علم عبد الله لم يُجاوزه، وأما مسروق فأخذ عن كل[١].

وقد أخذ التفسير عن عبد الله، وفي ذلك يقول: كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار[٢].

وكان ـ رحمه الله ـ من أكثر أصحاب عبد الله الستة نقلاً عنه في التفسير[٣]، ومن أكثرهم تعرضًا للتفسير. على أن المروي عنه قليل إذا ما قورن بغيره من التابعين[٤].

وقد غلب عليه جانب الورع في هذا العلم، فكان يُحذر أصحابه من التعرض للتفسير، ويقول: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله[٥]، توفي ـ رحمه الله ـ سنة ثلاث وستين[٦].

بين مسروق، وعلقمة:

كان هذان الإمامان من أكبر أصحاب عبد الله الملازمين له، ومن المقدمين في العلم، والفضل، ولعلي بعد هذا الإيجاز في ترجمتهما أبين بعض أوجه الاختلاف بينهما، فمن ذلك:

(١) العلل لابن المديني (٥٢)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٥)، والمعرفة (٢/ ٥٥٧)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨١) ٨٤، والتذكرة (١/ ٤٩)، والتهذيب (١٠/ ١١٠).

(٣) نقل (١٠, ٠) من تفسير ابن مسعود، في حين جاء المروي من طريق علقمة (٠٤, ٠) فقط، وإن كان قد سبقه مرة حيث روى (٢٥, ٠)، لكني ذكرت أنه المقدم بين أصحاب عبد الله الستة.

(٤) هو من أكثر المقلين من أصحاب عبد الله الستة أثرًا وتعرضًا للتفسير، فقد جاء عنه في تفسير ابن كثير (٢٩) قولاً، وعند القرطبي (١٠٣) أقوال، فيُعد على قلة ما روي عنه من مكثريهم.

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩).

(٦) المعارف (١٩١)، والوفيات لابن قنفذ (٩٦)، والنجوم الزاهرة (١/ ١٦١)، ودول الإسلام (١/ ٤٧)، والشذرات (١/ ٧١).

١ ـ كان علقمة أعلم بالحلال والحرام، ولا عجب في ذلك، فإنه كان من بيت علم وفقه، وكان يُسأل والصحابة متوافرون[١] بالكوفة، وعدَّ فقيه الكوفة وعالمها.

٢ ـ كان علقمة أكثر اهتمامًا بالقراءة، والإقراء، فقد جود القرآن على ابن مسعود[٢].

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يُرسل إليه ويقول له: رتل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن[٣].

وكان مشتغلاً بالقرآن كثيرًا، فكان يختم القرآن في خمس ليال[٤].

٣ ـ وكان مع هذا أطولُ ملازمة لابن مسعود وأكثر مشابهة، وأقرب مسلكًا من مسروق، فلم يجاوز علم ابن مسعود، وكان أشبه الناس بهديه، وأعلمهم به، حتى إن ابن مسعود كان يحيل عليه، ويشهد له بقوله: ما أعلم شيئًا إلا علقمة يعلمه ويقرؤه، وقلَّ أن يخالفه في شيء[٥].

ولما سافر علقمة إلى مكة أرسل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لعلقمة، وأصحاب عبد الله، فكان ابن عباس يُسأل وهم بحضرته يقول علقمة: يُسأل فيُخطئ ويُصيب، فيفحش في أنفسنا أن نرد عليه ونحن على طعامه[٦].

---

(١) المحدث الفاصل (٢٣٨)، والعلم لأبي خيثمة (١١٤)، والعبر (١/ ٤٩)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٤٥).

(٢) السير (٤/ ٥٤)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٦٨).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٩)، والمصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٤)، والسنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٥٤)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥/ ١٢٤) ١٩٧٣.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٥٠١)، وسنن سعيد بن منصور، كتاب فضائل القرآن (٢/ ٤٥٥)، وفضائل القرآن للفريابي (٢٢٣)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥١).

(٥) سبق بيان ذلك، ص (٤٧٣).

(٦) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٤).

٤ ـ ومع هذا التقدم في العلم، وطول الملازمة، فإن حالة من الورع والزهد، والخوف من الشهرة منعته من نشر هذا العلم، وقللت من نتاجه، قيل له: ألا تغشى المسجد فتجلس وتفتي الناس؟ قال: تريدون أن يطأ الناس عقبي ويقولون: هذا علقمة[١]!.

وكان الشعبي يقول في وصف حال ذاك البيت الذي نشأ فيه علقمة: إن كان أهل بيت خلقوا للجنة، فهم أهل هذا البيت علقمة والأسود[٢].

وكان من ورعه ـ رحمه الله ـ كراهيته للكتابة، قال له مسروق: اكتب لي النظائر، قال: أما علمت أن الكتاب يكره[٣].

يقول مسلم بن صبيح (أبو الضحى): أتيت علقمة فسألته عن قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[٤] فقال: وما تصنع بهذا؟ إنما هذا شيء من فعل الجاهلية! قال: فأتيت مسروقًا فسألته، فقال: (البحيرة)، كانت الناقة إذا ولدت بطنًا خمسًا أو سبعًا شقوا أذنها، وقالوا: هذه بحيرة، قال: (ولا سائبة)، قال: كان الرجل يأخذ بعض ماله فيقول: هذه سائبة، قال: (ولا وصيلة)، قال: كانوا إذا ولدت الناقة الذكر أكله الذكور دون الإناث، وإذا ولدت ذكرًا وأنثى في بطن قالوا: (وصلت أخاها)، فلا يأكلونهما، قال: فإذا مات الذكر، أكله الذكور دون الإناث، قال: (ولا حام)، قال: كان البعير إذا ولد وولد ولده، قالوا: (قد قضى هذا الذي عليه) فلم ينتفعوا بظهره، قالوا: (هذا حمى)[٥].

---

(١) الزهد لابن المبارك (٤٨٨)، والمعرفة (٢/ ٥٥٥)، وسنن الدارمي (١/ ١٣٢)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٣٠٦).

(٢) السير (٤/ ٦٠)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٧٠).

(٣) العلل لأحمد (١/ ٢١٦) ٢٤٢.

(٤) سورة المائدة: آية (١٠٣).

(٥) تفسير الطبري (١١/ ١٢٦) ١٢٨٢٩.

٥ ـ وفي مقابل ما سبق، فإننا نجد مسروقًا أقل التزامًا لقول عبد الله من علقمة؛ لاتصاله بمدرسة المدينة، والشام، وغيرهما من الأقطار، فعلقمة لم يجاوز علم شيخه، ومسروق أخذ عن كل من رحل إليه.

ومع هذا فكان مُحبًا لأقوال إمام المدرسة الكوفية ـ رضي الله عنه ـ مقدمًا لها، وفي هذا يقول: شامت أصحاب محمد ﷺ، فوجدت علمهم انتهى إلى ستة: إلى عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم شامت الستة، فوجدت علمهم انتهى إلى علي، وعبد الله[١].

ويقول أيضًا: لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، والإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله من ذلك الإخاذ[٢].

وكان يقول: وقد سألت عمر، وعثمان، وعليًا، فلما لقيت عبد الله كفاني[٣].

٦ ـ وكان من المفارقات بينهما، أن مسروقًا كان أحرص على إبلاغ ما علمه، وأكثر اهتمامًا بنشر ما سمعه من علقمة، ولاشك أن لتنقله في البلاد، وكثرة أسفاره الأثر في ظهور هذا الحرص عنده، وكان يقول، لأن أفتي يومًا بعدل وحق أحب إلي من أن أغزو في سبيل الله سنة[٤].

ولذا نجده من أكثر أصحاب عبد الله رواية ودراية في التفسير.

٧ ـ ومما لاحظته أن مسروقًا كان أقرب إلى الأثر من علقمة، مما جعل الشعبي ـ صاحب الأثر ـ يُقدمه، ويُفضله على علقمة، بل إن جلَّ المروي عن مسروق جاء من

(١) المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٩٦)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٤٧)، والمعرفة (١/ ٤٤٤).
(٢) المعرفة (٢/ ٥٤٢)، والعلم لأبي خيثمة (١٢٣).
(٣) العلل لابن المديني (٤٣).
(٤) تاريخ الإسلام (ح ٦١ هـ/ ٢٣٩).

رواية الشعبي[١] في حين كان المروي عن علقمة من طريق إبراهيم[٢] .

وكان مسروق يكره الرأي والقياس، يقول ـ رحمه الله ـ : إني أخاف وأخشى أن أقيس[٣] .

٣ ـ عبيدة السلماني :

هو عبيدة بن عمرو السلماني المرادي[٤] ، أحدكبار التابعين، أدرك النبي ﷺ ولم يره، قال ـ رحمه الله ـ: صليت قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ولم أره[٥] .

قال الشعبي : كان عبيدة يوازي شُريحًا في القضاء[٦] وقد برع ـ رحمه الله ـ في الفقه[٧] .

وكان كثير الورع والتوقي، يقول ابن سيرين : ما رأيت رجلاً كان أشد توقيًا من عبيدة[٨] .

وكان من توقيه أن دعا بكتبه عند موته فمحاها، وقال : أخشى أن تضعوها على غير موضعها[٩] .

---

(١) من أمثلة ذلك؛ انظر الآثار الواردة في تفسير الطبري: ٣٢٠٦، ٤٢٤٢، ٤٢٤٤، ٤٢٤٥، ٤٤٤٧، ٤٤٥١، ٤٥١٤، ٤٥٨٥، ٤٩٠٩.

(٢) من ذلك الآثار: ٣١٨٥، ٣١٨٧، ٣٢٥٤، ٣٣٧٦، ٣٤٢٢، ٤٥٢٠، ٤٥٦٤.

(٣) سنن الدارمي (١/ ٦٥).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣١٧)، والأنساب (٣/ ٢٧٦)، وطبقات الفقهاء (٨٠).

(٥) التاريخ الكبير (٦/ ٨٢)، والجرح (٦/ ٩١)، وتاريخ بغداد (١١/ ١١٨)، والاستيعاب (٢/ ٤٤٤).

(٦) تاريخ بغداد (١١/ ١١٩)، وتاريخ الإسلام (ح ٦١ هـ/ ٤٨٢)، والتهذيب (٧/ ٨٤).

(٧) النجوم الزاهرة (١/ ١٨٩)، والسير (٤/ ٤٠)، والتهذيب (٧/ ٨٥)، والشذرات (١/ ٧٨).

(٨) تهذيب الأسماء (١١/ ٣١٧)، والأنساب (٣/ ٢٧٧)، وتاريخ الإسلام (ح ٦١ هـ/ ٤٨٣).

(٩) العلم لأبي خيثمة (١٣٦)، وسنن الدارمي (١/ ١٢١)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٩٤).

وكان ـ رحمه الله ـ يأتي إلى ابن مسعود كل خميس ، فيسأله عن أشياء غاب عنها ، فكان عامة ما يحفظ عن عبد الله مما يسأله عبيدة عنه[١] .

قال ابن سيرين : كان أصحاب عبد الله منهم من يقدم عبيدة ومنهم من يقدم علقمة[٢] .

وكان ـ رحمه الله ـ من المقلين في التفسير ، شأنه في ذلك شأن أصحاب عبد الله الملازمين له ـ رحمة الله عليهم ـ[٣] .

توفي ـ رحمه الله ـ سنة اثنتين وسبعين[٤] .

٤ ـ أبو ميسرة بن شرحبيل :

هو عمرو بن شرحبيل الهمداني[٥] ، أبو ميسرة الكوفي[٦] ، أحد المشهورين بالزهد والتقوى ، يقول فيه الذهبي : كان من العباد الأولياء[٧] .

وعن شقيق بن سلمة ، قال : ما رأيت همدانيًا قط أحب إلى أن أكون في مسلاخه من عمرو بن شرحبيل[٨] .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٣٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٩٤)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣١٧)، وتاريخ بغداد (١١/ ١١٩).

(٣) وجدت بعد مراجعتي لتفسير ابن كثير ، أن المروي عنه (٧) روايات فقط ، وعند القرطبي (٢٤) رواية .

(٤) تهذيب الأسماء (١/ ٣١٧)، والنجوم الزاهرة (١/ ١٨٩)، والشذرات (١/ ٧٨).

(٥) الثقات لابن حبان (٥/ ١٦٨)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٦٥)، والتهذيب (٨/ ٤٧).

(٦) الكنى للدولابي (٢/ ١٣٥)، والجرح (٦/ ٢٣٧)، والإصابة (٣/ ١١٤).

(٧) السير (٤/ ١٣٥)، وقال ابن حجر في التقريب : ثقة عابد (٤٢٢)، وقال ابن الجزري في الغاية : صالح عابد (١/ ٦٠١).

(٨) طبقات ابن سعد (٦/ ١٠٦)، وتهذيب الكمال (٢٢/ ٦١)، والسير (٤/ ١٣٥).

وعنه قال: ما اشتملت همدانية على مثل أبي ميسرة، قيل: ولا مسروق، قال: ولا مسروق[١].

وكان محبًا لعلقمة مؤثرًا له، فيقول لأصحابه: انطلقوا بنا إلى أشبه الناس هديًا ودلاً وأمرًا بعبد الله بن مسعود، فيدخل بهم على علقمة[٢].

وكان من المقلين في التفسير[٣].

ومما جاء عنه قوله لزوجته: ليت أمي لم تلدني، فقالت له امرأته: لم يا أبا ميسرة؟! قال: لأني أوعدت أني وارد، ولم أوعد أني صادر[٤]، يتأول قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[٥].

توفي بالكوفة، في ولاية عبيد الله بن زياد[٦] سنة إحدى أو اثنتين وستين[٧]، وأوصى أن يصلي عليه شريح[٨].

٥ ـ الأسود بن يزيد:

هو الأسود بن يزيد بن قيس، أبو عمرو النخعي الكوفي[٩]، وكان ابن أخي علقمة ابن قيس، وخال إبراهيم النخعي، وأخا عبد الرحمن بن يزيد، ووالد عبد الرحمن بن

---

(١) التاريخ الكبير (٦/ ٣٤٢)، وطبقات ابن سعد (٦/ ١٠٦)، وتهذيب الكمال (٢٢/ ٦١).
(٢) الحلية (٢/ ٩٨)، والمعرفة (٢/ ٥٥٤)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٩٨).
(٣) له في تفسير ابن كثير (٩) روايات فقط، وفي تفسير القرطبي (١٣) رواية.
(٤) المعرفة (٢/ ٥٦٢).
(٥) سورة مريم: آية (٧١).
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ١٠٩)، وغاية النهاية (١/ ٦٠١).
(٧) طبقات خليفة (١٤٩).
(٨) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٣)، وغاية النهاية (١/ ٦٠١).
(٩) التاريخ الكبير (١/ ٤٤٩)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٣٩)، وطبقات خليفة (١٤٨)، والجرح (٢/ ٢٩١)، والتذكرة (١/ ٥١).

الأسود، فهؤلاء أهل بيت من رؤوس العلم والعمل[١] .

قال الذهبي: وهو نظير مسروق في الجلالة، والعلم، والثقة، والسن، يضرب بعبادتهما المثل[٢] .

قال إبراهيم: كان يختم القرآن في رمضان كل ليلتين، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال[٣] .

وعن الشعبي قال: كان الأسود بن يزيد صوامًا قوامًا حجاجًا[٤] .

وكان يجتهد في العبادة، ويصوم حتى يخضر ويصفر[٥] .

وعن الحكم قال: إن الأسود كان يصوم الدهر[٦] ، قال الذهبي: وهذا صحيح عنه، وكأنه لم يبلغه النهي في ذلك، أو تأول[٧] .

وقد نقل العلماء في تاريخ وفاته أقوالاً أرجحها أنه توفي سنة خمس وسبعين[٨] .

ومن كان مثل هذا الإمام في الانصراف إلى العبادة، والانقطاع إلى القرآن فإن

(١) التاريخ الكبير (١/ ٤٤٩).
(٢) السير (٤/ ٥٠).
(٣) الحلية (٢/ ١٠٢)، والمصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٥٠١)، وفضائل القرآن للفريابي (٢٢٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥/ ١٤٩) ٢٠٠٠ .
(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٧٠)، والحلية (٢/ ١٠٣)، والتاريخ الكبير (١/ ٤٤٩)، وغاية النهاية (١/ ١٧١).
(٥) الحلية (٢/ ١٠٣)، وتاريخ الإسلام (ح ٦١ هـ/ ٣٦١)، والسير (٤/ ٥٢).
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٧٠)، والسير (٤/ ٥٢).
(٧) السير (٤/ ٥٢)، ورد عنه ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «**لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد**»، ينظر صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (٢/ ٨١٥) ١١٥٩ .
(٨) طبقات ابن سعد (٦/ ٧٥)، والتاريخ الكبير (١/ ٤٤٩)، ومشاهير علماء الأمصار (١٠٠)، والثقات (٤/ ٣١)، وغاية النهاية (١/ ١٧١)، وشذرات الذهب (١/ ٨٢).

المتوقع أن يكون المروي عنه قليلاً، فإني لم أجد له في كتب التفسير إلا النزر القليل من الآثار ـ رحمه الله رحمة واسعة[١] ـ.

٦ ـ الحارث الجعفي :

هو الحارث بن قيس الجعفي، الكوفي[٢] العابد الفقيه، وقلما روى[٣].

يقول فيه الذهبي : كان كبير القدر، ذا عبادة وتأله، يُذكر مع علقمة والأسود[٤].

وعن خيثمة بن عبد الرحمن : كان الحارث بن قيس من أصحاب عبد الله بن مسعود، وكانوا مُعجبين به، وكان يجلس إليه الرجل والرجلان فيحدثهما، فإذا كثروا قام وتركهم[٥].

روى القراءة عن ابن مسعود[٦].

ويقول فيه ابن حبان : من خيار الكوفيين، وقدماء مشايخهم. مات في ولاية معاوية بن أبي سفيان[٧]، سنة أربع وخمسين[٨]، وصلى عليه أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه[٩] ـ.

وكان ـ رحمه الله ـ من أقل أصحاب ابن مسعود تعرضًا للقول في التفسير رواية

---

(١) ليس له عند ابن كثير في تفسيره، إلا ثلاث روايات فقط، وعند القرطبي (١٧) رواية.
(٢) الجرح (٣/ ٨٦)، وتهذيب الكمال (٥/ ٢٧٢)، وتاريخ بغداد (٨/ ٢٠٦)، والوافي بالوفيات (١١/ ٢٤١)، والتهذيب (٢/ ١٥٤)، والخلاصة (٦٨).
(٣) السير (٤/ ٧٥).
(٤) المرجع السابق (٤/ ٧٥).
(٥) المعرفة (٣/ ١٤٢)، وتهذيب الكمال (٥/ ٢٧٣).
(٦) غاية النهاية (١/ ٢٠١).
(٧) مشاهير علماء الأمصار (١٠٨).
(٨) التاريخ الصغير (١/ ٩٢).
(٩) المرجع السابق (١/ ٩٢)، والسير (٤/ ٧٦).

ودراية ، فقد رجعت إلى بعض كتب التفسير فلم أجد له قولاً[١] .

٧ ـ مرة الهمداني :

هو مرة بن شراحيل الهمداني[٢] ، المعروف بمرة الطيب، ومرة الخير، لُقب بذلك لعبادته وخيره[٣] .

وبلغ من كثرة تعبده أنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته[٤] .

وعن عطاء بن السائب قال : رأيت مصلى مرة الهمداني، مثل مبرك البعير[٥] ، ونقل عنه أن مُرةَ كان يصلي في اليوم والليلة ست مائة ركعة[٦] .

قال الذهبي معلقًا على هذه الآثار : ما كان هذا الولي يكاد يتفرغ لنشر العلم، ولهذا لم تكثر روايته[٧] .

قلت : وهو كما قال ، فإن المروي عنه في التفسير قليل[٨] ، وإنما برز ـ رحمه الله ـ بين أصحابه في نقل ورواية تفسير شيخه ابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ فكان أكثر أصحاب عبد الله نقلاً لتفسيره، ونشراً لعلمه، فإن أغلب المروي عن ابن مسعود في

---

(١) رجعت إلى تفسير ابن كثير والقرطبي وأضفت إليهم المغني في الفقه فلم أجد له أي قول .

(٢) رجال صحيح البخاري (٢/ ٧٦٦)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٥١٧)، والتذكرة (١/ ٦٧).

(٣) الموضح لأوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤١٤)، وتهذيب الكمال (٢٧/ ٣٨٠)، والسير (٤/ ٧٤)، والتهذيب (١٠/ ٨٨).

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣٤)، وتهذيب الكمال (٢٧/ ٣٨١)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣١٨).

(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥٤٩)، والحلية (٤/ ١٦٢)، والثقات لابن حبان (٥/ ١٤٦).

(٦) الحلية (٤/ ١٦٢)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٤)، والمنتظم (٥/ ٢٧٦).

(٧) السير (٤/ ٧٤).

(٨) له في تفسير ابن كثير خمس روايات فقط ، وفي تفسير القرطبي (١٧) رواية .

التفسير جاء من روايته ولم يتجاوز عمله هذا النقل[١] .

توفي سنة ست أو سبع وسبعين ـ رحمه الله[٢] ـ.

وخلاصة القول : إن أصحاب عبد الله الملازمين له كانوا بين مُقلٍّ، وورع مُتقي، أو عابد منشغل بالعبادة، وقد تقدم من بين هؤلاء علقمة ومسروق، فكانا من أعلم أصحابه، ومع كل هذا فإنه لم يرو عنهم في العلم والتفسير إلا النزر القليل، بل إنهم من أقل أصحاب المدارس رواية ودراية .

وأحسب أن مما يضاف إلى ما سبق، أنهم عاشوا في وقت مبكر والصحابة متوافرون، ولم يحتج الناس لعلمهم، فكثير منهم عاش ما بين الستين والسبعين وقليل منهم من جاوز الثمانين، أما غيرهم فإن الكثير منهم بلغ التسعين، وعاش إلى نهاية القرن الأول الهجري.

هذا بدوره مما جعلني أختار الإمامين الجليلين في الكوفة الشعبي والنخعي ؛ لأني وجدت لهم مادة تفسيرية يمكن من خلالها استخلاص شيء من مناهجهم سائلاً الله ـ عز وجل ـ السداد والرشاد .

وسبق أن تحدثت في فصل أشهر رجال المدارس باستفاضة عن هذين الإمامين، ولعلي أختم هذا المبحث المتعلق بأصحاب عبد الله ببيان أهم أوجه الشبه والاتفاق، وأوجه الاختلاف والافتراق .

مقارنة بين الشعبي، والنخعي :

كان عامر الشعبي، وإبراهيم النخعي من أعلم الناس بمذهب عبد الله وأصحابه،

---

(١) المروي عن طريق مرة من تفسير ابن مسعود قارب (٢٥ , ٠) من مجموع تفسيره، أي (٢١٤) رواية، في حين لم يرو الذي يليه من أصحاب عبد الله، وهو مسروق إلا (١٠ , ٠) من تفسير عبد الله، وبعدهما علقمة حيث روى (٠٤ , ٠) من مجموع تفسيره.

(٢) طبقات خليفة (١٤٩)، ومشاهير علماء الأمصار (١٠٢)، والتهذيب (١٠/ ٨٩).

وإن لم يرياه[١] ، وكان لهما الأثر الكبير في نشر تراث مدرسة الكوفة، وقد تعاصرا وأخذ كل واحد منهما بحظ من علم ابن مسعود وأصحابه - رضي الله عن الجميع - ، ولكن مما ينبغي تسجيله هنا ما لمسته من مفارقات وتباين بينهما في المناهج وأثر ذلك على تفسيرهما لكتاب الله العزيز. فمن أهم ذلك :

١ - أن الشعبي كان أقرب للأثر من النخعي : فقد أدرك الجم الغفير من الصحابة، وسمع من ثمانية وأربعين منهم، وصار من أعلم أهل الكوفة والبصرة والحجاز بالحديث[٢] .

يقول ابن عوف : إن كنا نتذاكر الشيء ما نرى أن فيه أثراً، فيحدثنا الشعبي فيه بحديث[٣] .

ويقول حماد بن زيد : ما كان بالكوفة رجل أوحش رداً للآثار من إبراهيم، وذلك لقلة ما سمع من حديث النبي ﷺ، ولا كان بالكوفة رجل أحسن اتباعاً، ولا أحسن اقتداءً من الشعبي، وذلك لكثرة ما سمع[٤] ، ولقد كان يعد الشعبي صاحب آثار، والنخعي صاحب قياس[٥] .

وكانت طريقة فقهاء الرأي مُبغضة له ولم يرتضها[٦] ، وكان الأئمة يصنفون الشعبي مع علماء الأثر، وفي ذلك يقول ابن المديني : كان الشعبي، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله والزهري أمرهم واحد[٧] .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٥٥).
(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٦).
(٣) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٢).
(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٧)، والفتح (٤/ ٣٩، ٤١٠).
(٥) الحلية (٤/ ٣٢٠)، والتذكرة (١/ ٨٢).
(٦) أبو حنيفة حياته وعصره لأبي زهرة (٦٨).
(٧) المعرفة (٣/ ١٧).

وكان الشعبي يوصي أصحابه بإتيان المحدثين من أئمة الأمصار، فعن شعيب بن الحبحاب، قال: قال لنا الشعبي: عليكم بذاك الأصم؛ يعني محمد بن سيرين[١].

وكان ينهاهم عن مجالسة أصحاب إبراهيم النخعي[٢].

وكان ـ رحمه الله ـ من أوائل من اهتم بعلم الجرح والتعديل، فعدل وجرح[٣].

وكانت مراسيله أقوى من مراسيل إبراهيم[٤].

وكان لهذا الفرق أثره في عناية الشعبي بالعلوم النقلية، الخادمة لعلم التفسير، كعلم أسباب النزول[٥]، وتفسير القرآن بالسنة[٦]، وبقول الصاحب[٧]، فإن الشعبي كان أسبق في هذا كله، وأعلم من إبراهيم.

٢ ـ إذا كان الشعبي قد فاق النخعي في معرفة الآثار والسنن، فإن إبراهيم قد سبق وتقدم على عامر الشعبي في المعرفة والاهتمام بآراء وأقوال شيخ المدرسة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، فقد ترسم خطاه في كثير من الآراء، وحذا حذوه في العديد من التأويلات.

فعن علي بن المديني قال: كان إبراهيم عندي من أعلم الناس بأصحاب عبد الله،

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٥)، والعلل لأحمد (٢/ ٤٦٩) ٣٠٧٧، والمعرفة (٢/ ٥٦).

(٢) العلل لأحمد (٣/ ٣٤) ٤٠٥٠، (٢/ ٥٥٥) ٣٦٢٨، والبداية (٨/ ١٠٩).

(٣) المعرفة (٢/ ٥٨١)، وقول من يعتمد في الجرح (١٥٩).

(٤) قواعد في علوم الحديث (١٤٨)، والتهذيب (٥/ ٦٧).

(٥) بلغت نسبة أسباب النزول في تفسير الشعبي (١٣ , ٠) من مجموع تفسيره، في حين كانت عن إبراهيم أقل من (٠٣ , ٠).

(٦) بلغت نسبة المروي عن الشعبي في تفسير القرآن بالسنة (٢٤ , ٠) من مجموع تفسيره، في حين كانت عند إبراهيم أقل من (٠١ , ٠) من مجموع تفسيره.

(٧) بلغت نسبة المروي عن الشعبي في تفسير القرآن بقول الصحابي (٠٥ , ٠) من مجموع تفسيره، في حين كانت عن إبراهيم (٠٢ , ٠) فقط من مجموع تفسيره.

وأبطنهم به[١] .

ويقول أيضًا : وكان أصحاب عبد الله الذين يقرأون بقراءته ، ويفتون الناس بسُنته علقمة ، والأسود ، ومسروق . . . وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ، وطريقتهم ، ومذهبهم : إبراهيم ، والشعبي ، إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق ؛ يأخذ عن علي ، وأهل المدينة ، وغيرهم ، وكان إبراهيم يذهب مذهب أصحابه[٢] ، وليس هذا بمستغرب على إبراهيم ، فإن علقمة عم أم إبراهيم ، والأسود خال إبراهيم ، وعلقمة عم الأسود[٣] .

وكان يُقال : ما رأينا رجلاً قط أشبه هديًا بعلقمة من النخعي ، ولا رأينا رجلاً أشبه هديًا بابن مسعود من علقمة[٤] .

وقد كان لتلك الصلة بين إبراهيم وعلقمة ، وبين علقمة وابن مسعود الأثر في اهتمام إبراهيم بآثار ابن مسعود أكثر من اهتمام الشعبي ، ونجد شاهد هذا عند مراجعة تفسير ابن مسعود ، فقد كان نقل إبراهيم وروايته لتفسير ابن مسعود أكثر من نقل الشعبي وروايته[٥] .

وكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتمعا ، فإن اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه .

ولعل من أوجه الاختلاف بينهما ـ التي يمكن بيانها هنا ـ أن صلة إبراهيم بعلقمة

---

(١) العلل (٤٦) .

(٢) المرجع السابق (٥٢) .

(٣) الكنى لأحمد (١٠٣) .

(٤) العلل لأحمد (٢/ ١٩٤) ١٩٨٣ .

(٥) بعد مراجعتي لتفسير ابن مسعود عند الطبري ، وجدت أن المروي من طريق إبراهيم عن ابن مسعود بلغ (٠,٠٩) من مجموع تفسيره ، في حين بلغ المروي عن طريق الشعبي (٠,٠٢) فقط من مجموع تفسيره ، في حين نجد اهتمام الشعبي بتفسير عمر واضحًا حيث روى من طريق الشعبي أكثر من (٢٠) رواية ، في حين كان المروي من تفسير عمر عن النخعي روايتين فقط .

كانت أكثر من صلته بمسروق، وأما الشعبي فكانت صلته بمسروق أكثر، وهذا من العوامل التي جعلت إبراهيم أكثر تقليداً لابن مسعود؛ لأن علقمة كان أكثر عناية واهتماماً بآثار ابن مسعود من مسروق، والنخعي لم يسمع من مسروق شيئاً[١].

وكما سبق أن أشرنا فإن مسروقًا كان ممن أخذ عن ابن مسعود، وعلي، وأهل المدينة، في حين اقتصر علقمة، وبعده إبراهيم على علم ابن مسعود وأصحابه، فتبين من ذلك تعدد مصادر الشعبي بخلاف حال إبراهيم النخعي.

يقول الشعبي في وصف أصحاب عبد الله: كان علقمة أعلمهم، وكان عبيدة يوازي شريحًا في الفتوى والقضاء، وكان مسروق أطلبهم للعلم[٢].

٣ـ إذا كانا قد اهتما ببيان آيات الأحكام، واعتنيا كلاهما بما ورد فيها من مسائل فقهية، فإن اهتمام إبراهيم بذلك كان أكثر، وكان في مجال الاستنباط أفقه من الشعبي، وقد شهد له بذلك الشعبي نفسه، فلما بلغه موت إبراهيم قال: إنه نشأ في أهل بيت فقه، فأخذ فقههم، ثم جالسنا فأخذ صفوة حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله[٣]؟!.

يقول الإمام الذهبي: فأفقه أهل الكوفة علي، وابن مسعود، وأفقه أصحابهما علقمة، وأفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد[٤].

ونجد شاهد هذا في كتب التفسير[٥]، والفقه[٦]، فقد كانت عناية إبراهيم أكثر من

(١) جامع التحصيل (١٤٢)، والميزان (١/ ٧٥).
(٢) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥١)، وطبقات الحفاظ (١٤).
(٣) العلم لأبي خيثمة (١١٦)، والحلية (٤/ ٢٢١)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤١٣).
(٤) السير (٥/ ٢٣٦).
(٥) رأينا فيما سبق أن ما نسبته (٣٨,٠) من مجموع تفسير إبراهيم كان حول آيات الأحكام وما يرد من مسائل فقهية، في حين بلغ نسبة هذا عند الشعبي (٢٣,٠) من مجموع تفسيره.
(٦) رجعت إلى المغني لابن قدامة، فكان المروي عن إبراهيم (٦٩٦) قولاً، في حين بلغ عن عامر الشعبي (٥٠١) قول.

الشعبي في استنباط الأحكام الفقهية.

وكان الكوفيون يتذاكرون العلم، ومسائل الفقه، فإذا جاءت الفتوى ليس عندهم فيها دليل، أحالوها لإبراهيم، يقول إسماعيل بن أبي خالد: كان الشعبي وأبو الضحى، وإبراهيم، وأصحابنا، يجتمعون في المسجد فيتذاكرون الحديث، فإذا جاءتهم فتيا - ليس عندهم فيها شيء - رموا بأبصارهم إلى إبراهيم النخعي [١].

وأحسب أن مما منع الشعبي في كثير من الأحيان من التحدث والإفتاء بالإضافة لما سبق - الورع.

فعن ابن عون قال: ذكر الشعبي وإبراهيم فقال: كان إبراهيم يسكت فإذا جاءت الفتيا انبرى لها، وكان الشعبي يتحدث، ويذكر الشعر، وغير ذلك، فإذا جاءت الفتيا أمسك[٢].

وعن ابن عون قال: كان الشعبي إذا جاءه شيء اتقى، وكان إبراهيم يقول ويقول ويقول[٣].

٤ - ومن أوجه الاختلاف بينهما أن الشعبي كان أطول باعًا في علوم العربية من النخعي، بل هو من أكثر الكوفيين استخدامًا للغريب والشعر[٤]، فكان من أفصحهم في ذلك، ولذلك قيل: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل، وذكر منهم الشعبي[٥].

وأما إبراهيم فكان كثير اللحن، وفي ذلك يقول عاصم بن أبي بهدلة: كان إبراهيم

---

(١) الحلية (٤/ ٢٢١)، والجرح (٢/ ١٤٤)، وتاريخ ابن معين (٢/ ١٧).
(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٩٧).
(٣) سنن الدارمي (١/ ٥٢)، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٩٧)، والتذكرة (١/ ٨٥).
(٤) سبق الإشارة إلى ذلك وتفصيله في أهم خصائص تفسير الشعبي في ترجمته ص (٣٢٩).
(٥) تاريخ الخلفاء (٢٠٦).

رجل صدق، ولو سمعته يقرأ قلت: ما يحسن هذا شيئًا[١].

وعن خالد بن سلمة المخزومي قال: لقد رأيت إبراهيم فرأيت رجلاً لحانًا[٢].

ونجد شاهد تقدم الشعبي في كثرة النقل عنه في كتب غريب الحديث واللغة.

ومع هذا كله فقد عني تلاميذ إبراهيم - على قلتهم - بنشر تراثه أكثر من أصحاب الشعبي.

٥ - ومن أوجه الاختلاف الواضحة بينهما: كثرة تلاميذ الشعبي ووفرة الآخذين عنه.

فكان يحضر مجالسه خلق كثير، وفي ذلك يقول ابن سيرين: «قدمت الكوفة، وللشعبي حلقة عظيمة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير»[٣].

بيد أنه لم يكن يجالس النخعي إلا النزر القليل[٤]، ومنشأ ذلك أنه كان مهيبًا[٥] قليل المزاح[٦].

يقول ابن عون: كان الشعبي منبسطًا، وإبراهيم منقبضًا، فإذا وقعت الفتيا انقبض الشعبي، وانبسط إبراهيم[٧].

وعن عاصم قال: تبعت الشعبي، فمررنا بإبراهيم، فقام له إبراهيم عن مجلسه فقال له الشعبي: أما إني أفقه منك حيّاً، وأنت أفقه مني ميتًا، وذاك أن لك أصحابًا

(١) العلل لأحمد (١/ ٣٤٨) ٦٤٩، (٢/ ٢٥٠) ٢١٤٨.
(٢) العلل لأحمد (١/ ٣٤٨) ٦٤٨.
(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩).
(٤) العلل لأحمد (٣/ ٣٩) ٤٠٧٠.
(٥) المرجع السابق (٣/ ١٢٤) ٤٥٢٢، ٤٥٢٥.
(٦) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٦٦).
(٧) المرجع السابق (١/ ٦٦٥)، والسير (٤/ ٣٠٣).

يلزمونك فيحيون علمك[١] .

وكانا إذا اجتمع الشعبي وإبراهيم سكت إبراهيم[٢] .

وخلاصة القول : إن اهتمام الشعبي، وعنايته بالتفسير كانت أكثر من عناية صاحبه، ويدلك على هذا ما ذكرناه آنفا من مفارقات، ومقارنات بين نصيب كل واحد منهما من روايات في التأويل، أو نصيب كل واحد منهما من العلوم ذات الصلة المباشرة بالتفسير، كعلم أسباب النزول وغيره. كل هذا يجعلنا نقدم الشعبي على النخعي في علم التأويل ، بل إنه لولا الورع الذي لازمه، ومنعه من التقدم أكثر في هذا العلم، لكان له شأن في مدرسة الكوفة وغيرها. والله أعلم.

أسباب قلة المروي عن المدرسة في التفسير :

لعل من أهم أسباب إقلال هذه المدرسة ما يلي :

١ ـ الهيبة والورع في التفسير :

وهذا من أبرز الأسباب التي كانت وراء إقلال المدرسة، وقد كان لتربية ابن مسعود لأصحابه الأثر البالغ في تحذيرهم من الخوض في التفسير، وحثهم على الإقلال من القول فيه ما أمكن، وقد سبق الإشارة إلى طرف من أحواله ـ رضي الله عنه ـ في هذا[٣] .

وكان لهذه التربية وهذا المنهج أثر كبير على أصحابه الملازمين له والذين صحبوه وأخذوا عنه مباشرة، وكانوا من أقل التابعين على الإطلاق نتاجًا في التفسير[٤] ، وكان دور بعضهم يقتصر في أحسن أحواله على الرواية عن شيخه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ

(١) السير (٤/ ٥٢٦)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٨٤)، وتاريخ الإسلام (ح ٩٦ هـ/ ٢٨٢).

(٢) السير (٤/ ٣٠٣)، والتذكرة (١/ ٨٢).

(٣) ينظر ص (٥١١).

(٤) المروي عن مسروق، وعلقمة ، ومرة، والحارث، قليل جدًا. فقد رجعت لتفسير ابن كثير فلم أجد إلا (٦٥) قولاً لهم جميعًا.

فيه ولا يتعدى هذا[١] .

وكان أصحاب عبد الله مع إدراكهم وتقدمهم في العلم، يجتنبون الخوض في التفسير تورعًا واحتياطًا لأنفسهم.

ولذا يقول مسروق: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله[٢] .

وعن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن شيء من القرآن؟ فقال: اتق الله وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن[٣] .

وكان أبو وائل: إذا سئل عن شيء قال: قد أصاب الله ما أراد[٤] .

ويقول عامر الشعبي: أدركت أصحاب عبد الله وأصحاب علي وليس هم لشيء من العلم أكره منهم لتفسير القرآن[٥] .

وكان إبراهيم النخعي يقول: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه[٦] .

ثم جاءت الطبقة الوسطى من تابعي المدرسة، وهم الذين أخذوا عن أصحاب عبد الله بن مسعود، ولا زالت الهيبة والتعظيم باقية في نفوسهم، فهذا عامر الشعبي كان من أكثر من روي عنه الورع في التفسير، فعنه قال: والله ما من آية إلا سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله[٧] .

(١) كما نجد ذلك عند مرة خاصة، وقد مرّ ذلك قريبًا ص (٤٨٤).
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٧٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).
(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٥١١) ١٠١٤٨، وشعب الإيمان (٢/ ٤٢٤) ٢٢٨٢، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).
(٤) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٥١٣) ١٠١٥٧.
(٥) المرجع السابق (١٠/ ٥١٢) ١٠١٥٢.
(٦) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩)، والحلية (٤/ ٢٢٢)، وشعب الإيمان (٢/ ٤٢٥) ٢٢٨٦.
(٧) تفسير الطبري (١/ ٨٧) ١٠٢، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٣).

ويقول أيضًا: ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي[١]، ويقول: من كذب على القرآن فقد كذب على الله[٢].

ويقول: الذي يفسر القرآن برأيه إنما يرويه عن ربه[٣].

وكان رحمه الله ينكر على من تساهل وتوسع في التفسير، ولذا لما قيل له: إن السدي أوتي حظًا من العلم بالقرآن، قال: إنه قد أعطي حظًا من جهْل بالقرآن[٤].

وكان ينهاه عندما يمر به وهو يفسر القرآن[٥].

وكان عندما يرى أبا صالح (باذام) يُفسر القرآن يأخذ بإذنه ويعركها ويقول: تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن[٦].

ولما قدم شيخ المفسرين - مجاهد - إلى الكوفة، كان الكوفيون يتقون بعض تفسيره[٧].

كان من مظاهر الورع التي برزت في الكوفة ما يراه القارئ لسيرهم من انصراف الكثير منهم للعبادة، مع سابق فضلهم وعلمهم.

فكانوا مضرب المثل في ذلك[٨].

وخاف بعضهم الشهرة، أو آثر السلامة مخافة الزلل والخطأ، فعلقمة على فضله

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٧) ١٠٣.
(٢) الحلية (٤/ ٣٢١).
(٣) المرجع السابق (٤/ ٣١٢).
(٤) العلل لأحمد (٢/ ٣٣٤) ٢٤٧٧.
(٥) المحرر الوجيز (١/ ١٩)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٥).
(٦) تفسير الطبري (١/ ٩١) ١١٢، والتهذيب (١/ ٤١٧).
(٧) سبق تفصيله في ترجمة مجاهد ص (١٢٧).
(٨) السير (٤/ ٥٠).

وعلمه كان لا يجاوز علم ابن مسعود، ولا يخرج عنه، وكان متوقيًا للشهرة، قيل له: ألا تغشى هذا المسجد، وتفتي الناس؟ فقال ـ رحمه الله ـ: تريدون أن يطأ الناس عقبي، ويقولون: هذا علقمة بن قيس!![1].

بل كان ـ رحمه الله ـ مع أنه من أخص أصحاب ابن مسعود، وأشبههم به هديًا ودلاً ـ أكثر علمه المروي عنه إنما أخذه منه بالسؤال، ولم يتحدث به ابتداءً[2].

ومُرّة، وهو من أكثر من روى عن ابن مسعود في التفسير، ما كان يكاد يتفرغ لنشر العلم، فقد انقطع واشتغل بالعبادة، ولهذا لم تكثر روايته.

يقول الشعبي: ما رأيت قومًا قط أكثر علمًا، ولا أعظم حلمًا، ولا أكف عن الدنيا من أصحاب عبد الله[3].

وهذا إبراهيم النخعي الذي جاء بعد هؤلاء، قد تأثر بهم، فمع إمامته لأهل العراق في الفقه بالاتفاق؛ لم يكن يتكلم حتى يُسأل[4]، وكان يكره كبر الحلقة، ويخاف الشهرة، وكان عدد الحاضرين في مجلسه لا يزيد عن الخمسة[5]، حتى إن الإمام الذهبي صدر ترجمته بقوله: كان عجبًا في الورع والتوقي من الشهرة[6].

وكان من أثر هذا الإقلال عند الطبقتين المتقدمة والمتوسطة من الكوفيين، أن أكثرت الطبقة المتأخرة من التابعين، ومن بعدهم في التفسير، وأفاضوا في علم التأويل، سدًا لما لمسوه من حاجة الكوفة إلى علم القرآن، وتعويضًا لما رأوه من نقص في مجال التفسير.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٤٨٨)، والمعرفة (٢/ ٥٥٥).
(٢) كما سبق بيانه في ترجمته.
(٣) السير (٤/ ٢٦٢).
(٤) الحلية (٤/ ٢٢٦)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٥)، والتذكرة (١/ ٧٤).
(٥) العلل لأحمد (٣/ ٣٨) ٤٠٧٠، والإرشاد (٢/ ٥٥٧)، وصفة الصفوة (٣/ ٨٩).
(٦) الكاشف (١/ ٩٦)، والتذكرة (١/ ٧٤).

وكان معظم مادتهم في هذا الإكثار مستقى من نبع المدرسة المكية، ومستمدًا من بحر حبر الأمة ـ رضي الله عنه ـ.

فإن السدي حين أنكر عليه الكوفيون إكثاره من التفسير أجابهم بقوله: إن هذا التفسير أخذته عن ابن عباس، فإن كان صوابًا فهو قاله، وإن كان خطأ فهو قاله[1].

وهذا الضحاك بن مزاحم[2] نجد أنه أخذ جل تفسيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

ولم يقتصر ورع الكوفيين على دراية التفسير، بل تعدى ذلك إلى الحذر حتى من روايته.

فتفسير عمر ـ رضي الله عنه ـ كان جله من روايات البصريين، وتفسير ابن عباس كان أكثره من رواية المكيين، وتقدم قبل قليل إيراد إنكارهم على السدي حينما رأوا إكثاره في تناول التفسير، فرد عليهم بقوله: إنه ليس من اجتهاده؛ بل من تفسير ابن عباس.

٢ ـ التشدد في نقل الأحاديث، والسنن:

لم يكن ما أسلفته من بيان حالهم في شدة الورع وكثرة الحذر مقتصرًا على الخوف في القرآن، والتعرض له بالبيان؛ بل كان ذلك منهجًا غلب على أتباع هذه المدرسة، فشمل التشدد في نقل الروايات والأخبار الواردة عنه ﷺ، فكانت المدرسة الكوفية من أقل المدارس اعتمادًا على السنن في تفسيرها لقلة الحديث فيها من جهة، وخوفهم من الوقوع في الخطأ عند نقل حديث المصطفى ﷺ من جهة أخرى، مما جعلهم يميلون إلى الاعتماد على أقوال شيخهم ابن مسعود، أو أصحابه.

---

(١) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، ومعجم الأدباء (٧/ ١٦).

(٢) كان من المكثرين بين مفسري أتباع التابعين في الكوفة.

فعن عاصم العدوي قال: سألت الشعبي عن حديث فحدثنيه، فقلت: إنه يرفع إلى النبي ﷺ؟ فقال: لا، على من دون النبي ﷺ أحب إلينا. فإن كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي ﷺ[١].

وقيل لإبراهيم النخعي: يا أبا عمران، أما بلغك حديث عن النبي ﷺ تحدثنا؟ قال: بلى، ولكن أقول: قال عمر، وقال عبد الله، وقال علقمة، وقال الأسود، أجد ذلك أهون عليّ[٢].

وعامر الشعبي كان أكثر حديثًا من الحسن[٣]، ولكن الحسن كان أسهل منه في التحديث؛ لأنه كان يأخذ عن كل أحد، ولذا كثرت الروايات عن الحسن؛ فكان الشعبي يغلظ عليه في الإنكار بقوله: لو لقيت هذا الكبش - يعني الحسن - لنهيته عن قوله: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ. قال: صحبت ابن عمر ستة أشهر، فلم أسمعه يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا في حديث واحد[٤].

وكان من نتاج هذا الورع أن كان الأئمة من مدرسة الكوفة من أشد التابعين تمحيصًا للروايات، فكان الشعبي من أول من زكى وجرح عند انقراض عصر الصحابة[٥].

وكان إبراهيم النخعي يعد صريفًا للحديث؛ لكثرة ما كان يرد[٦].

ونتج عن تلك الحيطة والحذر في الرواية، أن عد الأئمة مراسيلهم من أصح المراسيل؛ لأنهم يتشددون في قبول الرواة.

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٨٣)، والسير (٤/ ٣٠٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٢)، ورواه الدارمي في سننه بلفظ مقارب (١/ ٨٣).
(٣) السير (٤/ ٣١٢).
(٤) العلل لأحمد (٢/ ١٩٨) ١٩٩٩.
(٥) قول من يعتمد في الجرح والتعديل (١٥٩).
(٦) طبقات علماء الحديث (١/ ١٤٦)، والسير (٤/ ٥٢١)، وطبقات الحفاظ (٢٩).

فهذا ابن معين يصحح مراسيل إبراهيم، ويعتبرها أصح من مراسيل سعيد بن المسيب، ويفضلها على مراسيل القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر[١].

وقال العجلي: مرسل الشعبي صحيح، لا يكاد يرسل إلا صحيحًا[٢].

والكوفة كانت أسبق من البصرة في إسناد الأخبار، فعن حماد بن سلمة قال: كنا نأتي قتادة فيقول: بلغنا عن النبي عليه السلام، وبلغنا عن عمر، وبلغنا عن علي، ولا يكاد يسند، فلما قدم حماد بن أبي سليمان[٣] البصرة، جعل يقول: حدثنا إبراهيم، وفلان، وفلان، فبلغ قتادة ذلك، فجعل يقول: سألت مطرفًا، وسألت سعيد بن المسيب، وحدثنا أنس بن مالك، فأخبرنا بالإسناد[٤].

٣ ـ كراهية الكتابة:

كتابة العلم، وتدوين الحديث، والتفسير، وغيرها من فروع العلم، كانت من المسائل التي كرهها بعض السلف، وأجازها آخرون.

وكان الكوفيون من أكثر المدارس كراهية للكتابة[٥]، خشية أن تشبه بالمصاحف، فحين بلغ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن عند أناس كتابًا يعجبون به، لم يزل بهم حتى أتوه به فمحاه، ثم قال: إنما هلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وتركوا كتاب ربهم[٦].

---

(١) معرفة الرجال (١/ ١٢٠)، والنكت على ابن الصلاح (٢/ ٥٥٥).

(٢) تاريخ الثقات (٢٤٤)، والتهذيب (٥/ ٦٨).

(٣) قال الذهبي: حماد بن أبي سليمان معدود في صغار التابعين، تفقه بإبراهيم وهو من أصحابه، السير (٥/ ٢٣١).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٣١)، والمعرفة (٢/ ٢٨٢).

(٥) قارن حالهم بالمكيين، أو البصريين، أو المدنيين، مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وغيرهم، كلهم كتبوا، أو أمروا بالكتابة.

(٦) سنن الدارمي (١/ ١٢٢)، المصنف لابن أبي شيبة (٩/ ٥٣) ٦٤٩٨، وتقييد العلم (٥٦).

بل كـان ـ رضي الله عنه ـ يقول : إن ناسًا يسمعون كلامي ، ثم ينطلقون فيكتبونه ، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله[١] .

وقد تأثر أصحابه به ، فكان عبيدة السلماني ينهى أن يخلد بعده كتابًا[٢] ، بل دعا بكتبه فمحاها عند الموت[٣] .

وكـان إبراهيم النخعي يكره الكتابة وينهى عنها[٤] ، ويخشى أن يشبه بالمصاحف[٥] ، وأن يتكل عليه كاتبه[٦] ، بل صرح ـ رحمه الله ـ أن من أسباب ضبط سالم بن أبي جعفر ، وأنه أتم حديثًا منه ، كتابته[٧] .

٤ ـ اشتغال المدرسة بالفقه ، والإفتاء :

مدرسة الكوفة من أكثر المدارس عناية ، واهتمامًا بمعرفة الأحكام الشرعية ، وقد اتضح هذا في تفسيرهم ، فإننا نجد المشاهير منهم كإبراهيم النخعي من أكثر التابعين على الإطلاق عناية بآيات الأحكام[٨] ، وقاربه في ذلك عامر الشعبي[٩] .

وقد نزل بالكوفة جمع من الصحابة ، وحظيت بالفقهاء والقضاة ، قال مسروق : كان القضاء في أصحاب رسول الله ﷺ في ستة عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبي موسى الأشعري ، فكان نصفهم لأهل الكوفة : علي ،

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢٤).
(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٠)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٥)، وتقييد العلم (٤٦).
(٣) سنن الدارمي (١/ ١٢١)، وعلل أحمد (١/ ٢١٥) ٢٤٠.
(٤) سنن الدارمي (١/ ١٢٠)، والعلل لأحمد (١/ ٢١٧) ٢٤٨، وتقييد العلم (٤٨).
(٥) سنن الدارمي (١/ ١٢١).
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧١)، والسير (٤/ ٥٢٢).
(٧) معرفة الرجال لابن معين (٢/ ٢٥)، والمحدث الفاصل (٣٧٤).
(٨) بلغ نسبة تعرضه لآيات الأحكام (٣٨, ٠) من مجموع تفسيره.
(٩) بلغ نسبة تعرضه لآيات الأحكام (٢٣, ٠) من مجموع تفسيره.

وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري[١] .

وكان التابعون يقدمونهم في الفقه على أصحاب ابن عباس[٢] .

بلغ من افتخار هذه المدرسة بالتقدم في الفقه أن حماد بن أبي سليمان[٣]، كان يقول لأهل الكوفة: أبشروا! فإني قدمت على أهل الحجاز فرأيت عطاءً، وطاوسًا، ومجاهدًا، فصبيانكم، بل صبيان صبيانكم أفقه منهم[٤] . وقد علق مغيرة بن مقسم على قول حماد بقوله: فرأينا أن ذاك بغي منه[٥] .

والناظر في كتب التراجم يجد أن من أهم العلوم التي اشتغل بها أصحاب عبد الله الإفتاء، والإقراء.

يقول ابن المديني: كان أصحاب عبد الله الذين يقرأون ويفتون، ستة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شراحيل، والحارث بن قيس[٦] .

٥ ـ الفتن وأثرها على المدرسة :

فالمدرسة الكوفية كانت من أقل المدارس استقرارًا، لاسيما في طبقة متوسطي التابعين، حيث تعرض الكثير منهم للفتن، كفتنة القراء بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث، فقد دخل فيها الإمامان إبراهيم النخعي وعامر الشعبي[٧] .

٦ ـ تقدم وفاة أصحاب عبد الله :

ومما قلل نتاج أصحاب عبد الله، تقدم وفاتهم، فعلقمة توفي سنة اثنتين

(١) المعرفة (١/ ٤٨١)، والعلل لابن المديني (٤١)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٤٩).
(٢) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٠)؛ لأن أصحاب ابن عباس صرفوا جل همهم إلى القرآن وتأويله.
(٣) وهو من صغار التابعين كما مرّ.
(٤) السير (٥/ ٢٣٥).
(٥) السير (٥/ ٢٣٥).
(٦) العلل (٤٦).
(٧) بخلاف البصرة التي كانت أكثر استقرارًا، لاسيما أن الأئمة فيها كالحسن وأبي العالية، وابن سيرين وقتادة، لم يدخلوا في تلك الفتن، بل حذروا من الدخول فيها. ينظر كتاب مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة (١٤).

وستين[١]، ومسروق توفي سنة ثلاث وستين[٢] ، وعبيدة توفي سنة اثنتين وسبعين[٣] ، والأسود توفي سنة خمس وسبعين[٤] .

أثرها :

من المقرر سلفًا أن المدرسة الكوفية من المدارس التي هابت التفسير وتورعت فيه كثيرًا، واشتغلت بعلوم أخرى، حازت فيها قصب السبق، لاسيما علما القراءة، والفقه، فكان الأئمة من التابعين يأتون هذه المدرسة لتحصيل ما فاتهم في هذين العلمين.

أثرها على المدرسة المكية :

أكثر من استفاد من هذه المدرسة في علم القراءة والفقه: هم أصحاب ابن عباس، لاسيما ابن جبير، ومجاهد. ومما يدل على تأثر المدرسة المكية بالكوفية ذاك التقارب في بعض المسالك ، والمناهج ، مع أن ابن عباس لم يرو عن ابن مسعود، إنما بدأ الأثر والتقارب ، واتضح في عصر التابعين، وكان من الأسباب الرئيسة في ذلك الصلة الوثيقة بين ابن جبير وأصحاب ابن مسعود، وكثرة تردده على الكوفة[٥] .

وقد أثرت المدرسة الكوفية في سعيد فتوجه إلى علمي القراءة والفقه، اللذين كان حظ المدرسة المكية منهما قليلاً، فكان من المكثرين فيهما[٦] .

---

(١) الوفيات لابن قنفذ (٩٥)، وطبقات الفقهاء (٧٩)، ودول الإسلام (٤٧)، والشذرات (١/ ٧٠).
(٢) الوفيات (٩٦)، وطبقات الفقهاء (٧٩)، ودول الإسلام (٤٧)، والشذرات (١/ ٧١).
(٣) الوفيات (٩٧)، وطبقات الفقهاء (٧٩)، ودول الإسلام (٥٤)، والشذرات (١/ ٧٨).
(٤) طبقات الفقهاء (٧٩)، ودول الإسلام (٥٥)، والعبر (١/ ٦٣).
(٥) سبق تفصيل ذلك في أثر المدرسة المكية على الكوفية ص (٤١٧).
(٦) سبق بيان ذلك في ترجمة سعيد ص (١٤٢، ١٤٤).

وأما مجاهد فإنه تأثر بقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وكان يتحسر على ما فاته منها ويقول: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن ما سألت[١].

وكان مجاهد يقول: ما رأيت مسجدًا أحرى أن نسمع فيه علمًا لم نسمعه من مسجد الكوفة[٢].

وقد تأثر ـ رحمه الله ـ بقراءة ابن مسعود، فكان يرجح بعض المعاني بها، ويقدمها على غيرها، فمن ذلك ما جاء عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾[٣]، قال: هي خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب)[٤].

وعند قوله سبحانه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[٥]. قال: في قراءة عبد الله: (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)[٦].

وعند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[٧] قال: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأيناه في قراءة ابن مسعود: (أو يكون لك بيت من ذهب)[٨].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يُفسر القرآن برأيه (٥/ ٢٠٠).
(٢) تاريخ أبي زرعة (٢/ ٦٧٨).
(٣) سورة آل عمران: آية (٨١).
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٥٥٣) ٧٣٢٣، ٧٣٢٤، وزاد المسير (٢/ ٤١٥)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد به (٢/ ٢٥)، وسوف يأتي مزيد بحث لهذه المسألة عند الحديث عن منهجهم في القراءات ص (٧٤٨).
(٥) سورة المائدة: آية (٨٩).
(٦) تفسير الطبري (١٠/ ٥٦٠) ١٢٤٩٩، وزاد المسير (٢/ ٤١٥).
(٧) سورة الإسراء: آية (٩٣).
(٨) تفسير الطبري (١٥/ ١٦٣)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٩٠)، وزاد المسير (٥/ ٨٨).

وعند قوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[١] قال: كنا نرى أن قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ شيء هين، حتى سمعت قراءة ابن مسعود: (إن تتوبا إلى الله فقد زاغت قلوبكما)[٢].

ومجاهد قد نقل عن ابن مسعود في تفسيره شيئًا من الآثار، معظمها في علم القراءة[٣].

أثرها على المدرسة البصرية:

مع التقارب المكاني بين الكوفة، والبصرة، إلا أن الأثر الكوفي على البصرة كان قليلاً، مقارنة بالأثر المدني عليها، وإن كان من أثر يذكر على مفسري البصرة، فقد كان ذلك في نقل بعضهم لقراءة ابن مسعود، والإفادة منها في تفسيره، فإن قتادة استفاد من قراءة ابن مسعود وروى شيئًا من ذلك[٤].

فعند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾[٥]، قال قتادة: (درست) قرأت، وفي حرف ابن مسعود (دَرَس)[٦].

---

(١) سورة التحريم: آية (٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦١)، وزاد المسير (٨/ ٣١٠).

(٣) سبق بيان ذلك في ترجمة مجاهد عند الحديث عن تعدد مصادره ص (١٢٦)، ومما ينبغي الإشارة إليه أنه بعد التتبع لأقوال مجاهد، وجدته يعتمد على أقوال الصحابة في بعض الآثار، إلا أن اعتماده على ابن مسعود لم أجده إلا في أثر واحد، ينظر تفسير الطبري (٣٠/ ٢٧٣).
في حين كانت عنايته أكثر بقراءة ابن مسعود، مما يدل على أهمية قراءة ابن مسعود بين التابعين، وأثرها في بيان كثير من المعاني التفسيرية.

(٤) بعد مراجعتي لتفسير ابن مسعود عند الطبري، وجدت أن قتادة روى عنه سبع عشرة رواية، ست عشرة منها في القراءات.

(٥) سورة الأنعام: آية (١٠٥).

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٣٠) ١٣٧٣٠، وينظر زاد المسير (٣/ ١٠١)، وفتح القدير (٢/ ١٥٠).

وعند قوله سبحانه: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[١] قال: في حرف ابن مسعود: (فامضوا إلى ذكر الله)[٢].

وعند قوله سبحانه: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[٣] قال: في قراءة عبد الله: (إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة)[٤].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الجمعة: آية (٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ١٠١)، وينظر تفسير عبد الرزاق (٣/ ٢٩١)، وزاد المسير (٨/ ٢٦٤).
(٣) سورة الهمزة: آية (٩).
(٤) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٩٥).

المبحث الرابع

مدرسة المدينة

كانت المدينة دار الهجرة، ومركز الخلافة، ومقر كبار الصحابة، فإن النبي ﷺ بعد رجوعه من حنين ترك بها اثني عشر ألفًا من الصحابة، مات بها عشرة آلاف، وتفرق ألفان في سائر أقطار الإسلام[١].

فكانت مهد السنن، وموطن الفتاوى المأثورة، يتلقى فيها حديث المصطفى ﷺ وتؤخذ منها آثار الصحابة، فأصبحت من أكثر المدارس اشتغالاً بالمغازي والسير، والسنن والآثار، فصارت السنة شعار أهلها، والحديث وروايته محط اهتمام أصحابها.

يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة[٢].

وفي مقابل هذه الحال فقد كانت من أقل المدارس اشتغالاً بالتفسير[٣]، ومن أكثرها هيبة وتعظيمًا له، فقلَّ نتاجها، وسبقها غيرها.

وأشهر من تفرغ في المدينة للحياة العلمية زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ، فقد استبقاه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المدينة، فكثر أصحابه، يقول ابن عمر ـ

(١) الفكر السامي (١/ ٣١١).

(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٣٨).

(٣) بلغ نسبة ما روي عنها ما يقارب (٠,٢) من مجموع التفسير المروي عن مشاهير مفسري التابعين، في حين كان عن المدرسة المكية (٠,٤٦)، وعن البصرية (٠,٣٨)، وعن الكوفية (٠,١٤).

رضي الله عنهما: فرق عمر الصحابة في البلدان ، وحبس زيد بن ثابت بالمدينة يفتي أهلها[١] .

ويقول حميد بن الأسود: ما تقلد أهل المدينة قولاً بعد زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك[٢] .

وكان أحد الصحابة الثلاثة الذين قيض الله لهم أصحابًا حفظوا أقوالهم، ونشروا علمهم، وآثارهم[٣] .

ولذا فسوف أعرض بشيء من الاختصار لأهم ما في سيرة هذا الإمام - رضي الله عنه - مبينًا أبرز العلوم التي سبق فيها، مع بيان أثر أصحابه في بقية تلاميذ المدارس .

زيد بن ثابت :

هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان بن النجار[٤] أبو سعيد، وأبو خارجة الأنصاري النجاري[٥] .

قدم النبي ﷺ المدينة وزيد ابن إحدى عشرة سنة .

فعنه - رضي الله عنه - قال : قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن إحدى عشرة سنة، وأمرني أن أتعلم كتاب يهود، فكنت أقرأ إذا كتبوا إليه . فتعلم تلك الكتب وحذقها في نصف

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٠)، أورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن سعد (١٣/ ٣٩٣) ٣٧٠٥١، وينظر طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٩)، تاريخ الإسلام، (ح ٤١ هـ/ ٥٤).

(٢) العلل لأحمد (٣/ ٢٥٩) ٥١٤٥ .

(٣) المعرفة (١/ ٣٥٣، ٧١٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٨) ، والاستيعاب (١/ ٥٥١)، وكتاب النسب (٢٧٨)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ١٩٧)، والتاريخ الكبير (٣/ ٣٨٠)، وتاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار (١٠٥)، والإصابة (١/ ٥٦٢).

(٥) أخبار القضاة لوكيع (١/ ١٠٧)، والجرح (٣/ ٥٥٨)، والكنى للدولابي (١/ ٧١).

شهر[١] .

وقد نال ـ رحمه الله ـ شرف جمع المصحف حين عهد إليه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بذلك ، وقد استدعاه أبو بكر ـ رضي الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ، فقلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟! قال : هو والله خير ، فلم يزل يُراجعني حتى شرح الله صدري لذلك[٢] ، وكذا نال شرف نسخه في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ فعن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يُغازي أهل الشام في فتح إرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حُذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك .

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرَّهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا[٣] .

---

(١) مسند أحمد (٥/ ١٨٦)، وسنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب ، (٣/ ٣١٨) ٣٦٤٥ ، وسنن الترمذي ، كتاب الاستئذان ، باب ما جاء في تعليم السريانية ، (٥/ ٦٧) ٢٧١٥ ، والمعجم الكبير للطبراني (٥/ ١٣٣) ٤٨٥٦ ، ٤٨٥٧ ، والمستدرك للحاكم ، وصححه (١/ ٧٥) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، يُنظر الفتح (٩/ ١٠) ٤٩٨٦ ، ومسند أحمد (٥/ ١٨٨)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٦٥)، وفضائل القرآن للنسائي (٦٣)، والمصاحف لأبي داود (١٢) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، ينظر الفتح (٩/ ١١)، ٤٩٨٧ ، وفضائل القرآن للنسائي (٥٧) .

وقد عرض عليه ابن عباس القراءة[١] .

وكان ابن عباس يُجله، ويقدره، ولما قدم إلى زيد أخذ بركابه، فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله، قال: إنا هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا[٢]

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه أراد أن يقرأ على عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فقال له: إنك إذًا تشغلني عن النظر في أمور الناس، فامض إلى زيد بن ثابت، فإنه أفرغ لهذا الأمر، فاقرأ عليه[٣] .

يقول عامر الشعبي ـ رحمه الله ـ: غلب زيد الناس على اثنين، على الفرائض، والقرآن[٤] .

ويقول العجلي: الناس على قراءة زيد، وفرض زيد[٥] .

وكيف لا وقد شهد له النبي ﷺ بهذا؟! يقول النووي[٦]: أعلم الصحابة بالفرائض زيد، لحديث «**أفرضكم زيد**»[٧] .

يقول قبيصة بن ذؤيب: كان زيد بن ثابت مترئسًا بالمدينة في القضاء، والفتوى،

---

(١) تاريخ الإسلام (ح ٤١ هـ/ ٥٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٣٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٠)، والمستدرك للحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (٣/ ٤٢٣)، والمعجم الكبير للطبراني (٥/ ١٠٧) ٤٧٤٦، وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رجاله رجال الصحيح (٩/ ٣٤٥)، وذكره صاحب الكنز، وعزاه لابن عساكر (١٣/ ٣٩٦) ٣٧٠٦١.

(٣) أورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن الأنباري في المصاحف (١٣/ ٣٩٤) ٣٧٠٥٣.

(٤) تهذيب الكمال (١٠/ ٢٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٤٩).

(٥) تاريخ الثقات (١٧٠).

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠١).

(٧) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٥/ ٦٦٥) ٣٧٩١، وينظر مسند أحمد (٣/ ٢٨١)، وصحيح ابن حبان، يُنظر الإحسان (٩/ ١٣١) ٧٠٨٧ ط كمال الحوت، وشرح السنة للبغوي (١٤/ ١٣١).

والفرائض، في عهد عمر، وعثمان، وعلي، في مقامه بالمدينة وبعد ذلك[١].

ويقول سليمان بن يسار: ما كان عمر وعثمان يقدمان أحدًا على زيد بن ثابت في القضاء، والفتوى، والفرائض، والقراءة[٢].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يستخلفه على المدينة في كل سفر[٣].

وعن مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ قال: كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد، وكان إمام الناس بعد زيد ابن عمر[٤].

وفي هذا يقول ابن جرير الطبري: كان ابن عمر وجماعة ممن عاشوا بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ إنما كانوا يفتون بمذاهب زيد بن ثابت، مما كانوا أخذوا عنه مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ﷺ قولاً[٥].

وكان عالم العلماء، وفقيه الفقهاء بعد طبقة الصحابة سعيد بن المسيب يرد بعض أقوال الصحابة إذا خالفت ما جاء عن زيد في المسائل المشهورة[٦].

وزيد ـ رضي الله عنه ـ فاق غيره من الصحابة في علم القراءة والفرائض، ثم الفتوى، وأما علوم الحديث، والتفسير، فكان اشتغاله بها قليلاً، فلم يرد عنه من أحاديث سوى اثنين وتسعين حديثًا، منها خمسة أحاديث متفق عليها، وأربعة انفرد بها البخاري، وواحد رواه مسلم[٧].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٠)، وأورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن سعد (١٣/ ٣٩٣) ٣٧٠٥٠.
(٣) أخبار القضاة (١/ ١٠٨)، والإصابة (١/ ٥٦٢).
(٤) المعرفة (١/ ٤٨٦).
(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٦).
(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥١).
(٧) مقدمة مسند بقي (٨٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠١).

وأما علم التفسير فإنه من أقل الصحابة رواية واشتغالاً به، وبعد البحث والمراجعة، وجدت أن المروي عنه في تفسير ابن كثير والقرطبي، لا يتجاوز مجموعه خمسة وعشرين قولاً[١].

وفاته:

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه توفي سنة خمس وأربعين[٢].

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه (وقد شهد جنازة زيد): مات حبر الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفًا[٣].

أصحاب زيد بن ثابت:

صحب زيدًا عدد من فقهاء المدينة، وقد اشتهر من أصحابه والآخذين عنه ستة من التابعين.

يقول ابن المديني: فأما من لقي زيدًا، وتثبت عندنا لقيه فهم: سعيد بن المسيب[٤]، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وخارجة بن زيد، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار[٥].

---

(١) رجعت إلى تفسير ابن كثير، فوجدت المروي عنه (١٢) قولاً، منها خمسة أقوال في مسائل فقهية.
ورجعت أيضًا إلى تفسير القرطبي، فوجدت المروي عنه (١٣) قولاً، منها عشرة أقوال في مسائل فقهية، والثلاثة الباقية في بيان القراءة.

(٢) الإصابة (١/ ٥٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٣)، والاستيعاب (١/ ٥٥٣)، والمستدرك (٣/ ٤٢١)، والوفيات لابن قنفذ (٦١)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٢٤، ٢٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٢)، والمستدرك (٣/ ٤٢٧)، والإصابة (١/ ٥٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٣).

(٤) سعيد بن المسيب مرت ترجمته ص (٣٤٤).

(٥) العلل (٥١)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٢).

عروة بن الزبير :

هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي[١] .

ولد سنة ثلاث وعشرين[٢] ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق[٣]، وخالته عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ فحدث عن عائشة ولازمها، وجالس زيد بن ثابت، وأبا هريرة، وغلب أصحابه بكثرة الدخول على عائشة[٤] .

ولذا فقد كان من أكثر أصحابه من المدنيين حديثًا، يقول ابن شهاب: جالست سعيد بن المسيب فكان يعيد الرجيع من حديثه، وكان عروة بحرًا ما تكدره الدلاء[٥] .

وعدّه ابن القيم من أغزرهم، وأكثرهم حديثًا[٦] .

يقول عنه ابنه هشام ـ وهو من أكثر الرواة عنه ـ : ما تعلمناه جزء من ألف جزء من أحاديثه[٧] .

ولذا كان ـ رحمه الله ـ لا يقول في شيء برأيه، وفي ذلك يقول ابنه هشام: ما رأيت عروة يُسأل عن شيء قط فقال فيه برأيه[٨] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٨)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣١)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٥).
(٢) السير (٤/ ٤٢٢)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٥)، وطبقات الحفاظ (٢٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٨)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣١)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٥).
(٤) السير (٤/ ٤٢٤)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٧).
(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤١٨)، والإرشاد (١/ ١٩١)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣)، والشذرات (١/ ١٠٤).
(٦) إعلام الموقعين (١/ ١٧).
(٧) التاريخ الكبير (٧/ ٣٢)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٢)، وطبقات الحفاظ (٢٣).
(٨) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩).

وكان ـ رحمه الله ـ يتمنى أن يكون ممن يروى عنه هذا العلم[١] ، ويقول لبنيه : يا بني سلوني، فلقد تُرِكت حتى كدت أن أنسى، وإني لأسأل عن الحديث، فينفتح حديث يومي[٢] .

وكان ـ رحمه الله ـ من حرصه على التحديث يتألف الناس على علمه[٣] ، وكان يعد من فقهاء المدينة الأربعة مع سعيد بن المسيب، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان[٤] .

ومع هذا كله فقد كان من أورع الناس في التفسير، ومن أقلهم تعرضًا له، وخوضًا فيه، حتى قال عنه ابنه هشام : ما سمعت أبي يتناول آية من كتاب الله قط[٥] .

توفي ـ رحمه الله ـ سنة أربع وتسعين، على قول الجمهور كما ذكره النووي وغير واحد[٦] .

سُليمان بن يسار :

هو أبو عبد الله المدني[٧] ، مولى أم المؤمنين ميمونة[٨] ، عالم المدينة وفقيهها، وهو أحد

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٨)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٩)، والمعرفة (١/ ٥٥٢)، والسير (٤/ ٤٣١).

(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥٢١)، والعلم لأبي خيثمة (١١٤)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩).

(٤) الجرح (٦/ ٣٩٦)، والعلل لأحمد (٢/ ٤١٠) ٢٨٣٦، وتاريخ ابن معين (٢/ ٢٠٨).

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩).

(٦) تهذيب الأسماء (١/ ٣٣٢)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٨٢)، وطبقات الفقهاء (٥٨)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٨)، والشذرات (١/ ١٠٤).

(٧) الحلية (٢/ ١٩٠)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٧٤)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٢٢٨)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٥٢).

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٤)، ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ١٩٢).

الفقهاء السبعة[١] من المدنيين، وكان نظير سعيد بن المسيب[٢]، وفضله بعضهم عليه.

فعن الحسن بن محمد بن الحنفية، قال: سليمان بن يسار عندنا أفهم[٣] من ابن المسيب[٤].

وكان سعيد بن المسيب، يقول: اذهبوا إليه، فإنه أعلم من بقي اليوم[٥].

وعدّه الإمام مالك بعد ابن المسيب[٦].

وفاته:

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه توفي سنة سبع ومائة[٧]، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة[٨].

وسبق في ماضي القول أن أشرنا إلى ستة من أصحاب زيد مرّ الحديث على ثلاثة منهم، وأما قبيصة بن ذؤيب، فسوف يأتي الحديث عنه في المدرسة الشامية؛ لأثره على

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٣٤)، ودول الإسلام (٧٥)، ومرآة الجنان (١/ ٢٥٦)، وشذرات الذهب (١/ ١٣٤).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ١٩٣).

(٣) رجح البخاري في تاريخه: أن الرواية الصحيحة عن الحسن بن محمد أنه قال: «أقيس»، ولم يقل: أفهم، ولا أفقه (٤/ ٤١).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٤)، والمعرفة (١/ ٥٤٩)، وطبقات الفقهاء (٦١)، والتذكرة (١/ ٩١)، والعبر (١/ ١٠٠)، وشذرات الذهب (١/ ١٣٤). وجاء عند العجلي بلفظ أفقه (٢٠٧).

(٥) طبقات الفقهاء (٦٠)، والتذكرة (١/ ٩١)، ومرآة الجنان (١/ ٢٥٦)، وشذرات الذهب (١/ ١٣٤).

(٦) المعرفة (١/ ٥٤٩)، وطبقات الفقهاء (٦١).

(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٥)، وطبقات الفقهاء (٦٠)، ودول الإسلام (٧٥)، والعبر (١/ ١٠٠)، ومرآة الجنان (١/ ٢٥٦).

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٥)، وطبقات الفقهاء (٦٠)، وشذرات الذهب (١/ ١٣٤).

تلك المدرسة[١] .

وخامس أصحاب زيد ابنه خارجة أحد الفقهاء السبعة[٢] ، والذي كان جل شغله بعلم الفرائض[٣] ، ولم يكن من المكثرين[٤] .

ومثله أبان بن عثمان بل هو أقل منه ، فليس له إلا أحاديث قليلة[٥] .

بين أصحاب زيد :

يتضح مما سبق أن أصحاب زيد : عروة ، وسعيداً ، وسليمان بن يسار ، كانوا مهتمين بعلمي الفقه ، والحديث ، وصارفين إلى ذلك جل عنايتهم ، وكان بينهم تمايز ، واختلاف ، فأعلمهم بالحديث ، وأكثرهم رواية له عروة بن الزبير ، وأكثرهم جمعًا بين العلمين سعيد بن المسيب ، وأكثرهم اشتغالاً بالفقه سليمان بن يسار ، وقد مرَّ معنا ما ذكره البخاري في تاريخه من قول الحسن بن محمد : إن سليمان بن يسار كان أقيس من سعيد .

ومما جاء عنهم ، ما رواه مالك في وصف حالهم قال : كان سليمان بن يسار يقول في مجلسه ، فإذا كثر فيه الكلام ، وسمع اللغط أخذ نعليه ثم قام عنهم ، وكان ابن المسيب رجلاً شديداً يحصب الناس بالحصا[٦] .

قال ابن وهب : وحدثني مالك قال : كان سليمان بن يسار كثيراً ما يوافق سعيداً ،

---

(١) ينظر ص (٥٢٨).
(٢) السير (٤/ ٤٣٧).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٢٣).
(٤) السير (٤/ ٤٣٨).
(٥) السير (٤/ ٣٥٢).
(٦) المعرفة والتاريخ (١/ ٥٤٩).

قال: وكان سعيد لا يجترأ عليه[١] .

هذا شيء من كثير عن أصحاب زيد، إلا أن مما ينبغي الإشارة إليه وذكره في هذا المقام، أن أصحاب زيد كان جل اهتمامهم منصبًا على القراءة، والفرائض، والإفتاء، وبعد ذلك الحديث، وكان نصيبهم من علم التفسير قليلاً.

وقد بدأت الحاجة إلى علم التفسير تزداد في المجتمع المدني كلما تقادم الزمان بأهلها، وبعد عن العصر النبوي، فتعرض بعض المتأخرين من التابعين للتفسير، ومن أوائلهم محمد بن كعب القرظي، وكان من أعلمهم فيه[٢]، وتبعه بعد ذلك زيد بن أسلم، فكان من المقدمين بين المدنيين في علم التأويل، يقول سفيان بن عيينة: لم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله - يعني - زيد بن أسلم[٣] .

وأثنى عليه غير واحد من الأئمة بالعلم والتقدم في هذا الشأن؛ كيعقوب بن شيبة[٤]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٥] وغيرهما.

وذكر بعض الأئمة أن له تفسيرًا رواه عنه ابنه عبد الرحمن[٦] ، ويظهر - والله أعلم - أن الموجود بين أيدينا من تفسيره قليل[٧] ، وأن كثيرًا منه جاء من رواية ابنه عبد الرحمن منسوبًا له[٨] .

---

(١) المعرفة والتاريخ (١/ ٥٤٩).
(٢) سبق تفصيل حاله ص (٣٥٤).
(٣) فتح الباري (١٣/ ١١١).
(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٤٣)، وبغية الطلب (٩/ ٣٩٩٤).
(٥) مقدمة في أصول التفسير (٧١).
(٦) السير (٥/ ٣١٦)، والتحفة اللطيفة (٢/ ٩٢)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٧٧)، والفهرست (٣٣).
(٧) المروي من تفسيره عند الطبري (١١٧) قولاً فقط.
(٨) المروي عن عبد الرحمن في تفسير ابن كثير، أضعاف ما روي عن أبيه، فقد بلغ (٣٢٣) قولاً.

أسباب قلة المروي عنهم:

ومن الأسباب الرئيسة التي قللت نتاج المدرسة المدنية في التفسير ما يلي:

١ ـ الورع من التعرض لتأويل القرآن:

المدنيون من أكثر التابعين إحجامًا عن التفسير؛ خشية الخطأ فيه، اقتداءً بنهج كثير من الصحابة، فهذا ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لم يكن يرضى عن منهج ابن عباس، ولم يعجبه توسعه في التفسير، حتى سمعه يفسر معنى قوله تعالى ـ في وصف السموات والأرض ـ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فقال ـ رضي الله عنه ـ: قد كنت أقول ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي علمًا[١].

وكانت هذه سمة عامة لفقهاء المدينة، فكانوا يخشون من القيل في تأويل القرآن، حذرًا ألا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه[٢].

فعن عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع[٣].

فسعيد بن المسيب الذي عدّه غير واحد من الأئمة من أعلم التابعين على الإطلاق[٤]، وفقيه الفقهاء[٥].

يقول فيه يزيد بن أبي يزيد: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان

---

(١) الحلية (١/ ٣٢٠)، والخبر بتمامه قد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ص (٤١٩) والآية من سورة الأنبياء (٣٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨٩).

(٣) المرجع السابق (١/ ٨٥) ٩٢، والعلل لأحمد (٢/ ٣٧٤) ٢٦٦٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٧٤).

(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٤).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١)، والسير (٤/ ٢٢٤).

أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع[١] . بل إنه لما سأله رجل عن تفسير آية من القرآن قال: أنا لا أقول في القرآن شيئًا[٢] .

قال الإمام الذهبي معلقًا على هذا الأثر: ولهذا قلّ ما نقل عنه في التفسير[٣] . وهذا عروة بن الزبير الذي قال فيه الإمام الزهري: إنه بحر لا تكدره الدلاء[٤] . ويقول فيه ابنه هشام: ما تعلمناه جزءاً من ألف جزء من أحاديثه[٥] وكان أكثر حديثًا من سعيد بن جبير[٦] .

ومع هذا يقول فيه ابنه هشام: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط[٧] .

والقاسم بن محمد لم يحد عن هذا المنهج، فمع مجالسته لابن عباس لم يتأثر به، بل تأثر بابن عمر، فغلب عليه جانب الورع.

وفي ذلك يقول: كنت أجالس البحر ابن عباس، وقد جلست مع أبي هريرة وابن عمر فأكثرت، فكان هنا ـ يعني: ابن عمر ـ ورع، وعلم جم، ووقوف عما لا علم له به[٨] .

يقول عبيد الله بن عمر: كان القاسم لا يفسر القرآن[٩] ، وكان سالم لا يفسر القرآن[١٠] .

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٦) ١٠٠ .
(٢) المرجع السابق (١/ ٨٥) ٩٤، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٣٧).
(٣) السير (٤/ ٢٤٢).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٨)، والشذرات (١/ ١٣٠).
(٥) التاريخ الكبير (٧/ ٣٢)، والمعرفة (١/ ٥٥١)، والفقيه والمتفقه (٢/ ١٤١).
(٦) السير (٤/ ٤٢٥).
(٧) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧).
(٨) السير (٥/ ٥٥).
(٩) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٨١)، والسير (٥/ ٥٩).
(١٠) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٠٠).

وفضلاً عن ذلك الإحجام، فقد كان التابعون في المدينة ينكرون على من يكثر في التفسير، ولذا لما قدم عكرمة إلى المدينة، كان سعيد بن المسيب ينكر عليه كثرة تحديثه في التفسير.

فعن عمرو بن مرة قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن؟ قال: لا تسلني عن القرآن، وسل عنه من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء - يعني عكرمة[1] -.

وأنكروا على زيد بن أسلم، فعن حماد بن زيد قال: قدمت المدينة، وزيد بن أسلم حي، فسألت عبيد الله بن عمر، فقلت: إن الناس يتكلمون في زيد، فقال: ما أعلم به بأسًا إلا أنه يفسر القرآن برأيه[2]

٢ - الاشتغال برواية السنن، والآثار، والسير:

كان جل اهتمام المدنيين الاشتغال بالحديث، ومدارسته رواية ودراية، ولذا فقد كانوا من أعلم الناس بالمغازي، والسنن، والآثار عنه ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أعلم الناس بالمغازي أهل بالمدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق . . . فأهل المدينة أعلم بها؛ لأنها كانت عندهم[3].

هذا هو الاهتمام الغالب على التابعين من أهل المدينة، تناقل الحديث ومعرفة المغازي والسير، مع علم الفقه المعتمد على الأثر، والذي يأتي بعد علم الحديث، وهذا ليس بمستغرب على مدينة عاش فيها المصطفى ﷺ وتوفي فيها ودفن بها، وبقي فيها الكثير من أصحابه - رضي الله عنهم -، الذين حفظوا أقواله، وأفعاله، وتقريراته، بل

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، وجامع بيان العلم (٢/ ٢٩)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٨٤)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٨٢).

(٢) الجرح (٣/ ٥٥٥)، والكامل في الضعفاء (٣/ ١٠٦٤)، وبغية الطلب (٩/ ٣٩٨٨)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٤٥).

(٣) مقدمة في أصول التفسير (٦٠).

وصفاته الخلقية والخُلُقية، فكانت حلق العلم تعج بتلك السيرة العطرة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ثم جاء من بعدهم الأتباع الذين تناقلوا ما ورثوه من علم الرواية والأثر، وقد أغناهم هذا المحفوظ عن كثرة الاشتغال بالرأي والاجتهاد، مع ما يضاف إلى ذلك من قلة المسائل الواردة والحادثة في المجتمع المدني البعيد عن الثقافات الوافدة، أو الفتن الحادثة، فكان التابعون فيها لا يأخذون بالرأي إلا اضطرارًا، ولا يفرعون المسائل، ولا يستخرجون أحكامًا لمسائل لم تقع، بل لا يفتون إلا فيما وقع.

كل هذا وغيره صرف معظم اهتمام التابعين في المدينة إلى الحديث والمغازي، وكان نصيبهم من العلوم الأخرى قليلاً.

وقد كان للمكثرين من الصحابة ممن عاشوا في المدينة الأثر البالغ في توجيه التابعين، فابن عمر - رضي الله عنهما - كان أحسن سردًا للرواية من ابن عباس، أما التفسير فكان ابن عباس أعلم به[1].

٣ - قلة الكتابة :

لم يعتن أهل المدينة عناية كاملة بتدوين علمهم وكتابته، وقد توفي الكثير منهم ولم يدون كتابًا، يقول الإمام مالك: ولقد هلك ابن المسيب ولم يترك كتابًا، ولا القاسم بن محمد، ولا عروة بن الزبير، ولا ابن شهاب[2].

ويرجع عدم الاعتناء هذا إلى كراهية بعضهم له خشية أن يشابه صنيعهم هذا صنيع أهل الكتاب، أو أن تختلط كتبهم مع كتاب الله تعالى.

فعن عبد الله بن العلاء قال: سألت القاسم أن يملي علي أحاديث فمنعني، وقال:

---

(١) الإرشاد (١/ ١٨٤).

(٢) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥١٧)، والمعرفة (١/ ٤٧٨).

إن الأحاديث كثرت على عهد عمر، فناشد الناس أن يأتوا بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب. قال: فمنعني القاسم يومئذ أن أكتب حديثًا[١].

وهذا عروة بن الزبير كان عنده كتب، وكان يكتب عن عائشة، ولكنه تأثر بحال الغالب من فقهاء أهل المدينة، فجمع كتبه وأحرقها[٢].

وقد ندم عروة على ذلك وتأسف، وتمنى أن تكون عنده، وأنه لم يحرقها، وفي ذلك يقول: كنا نقول: لا نتخذ كتابًا مع كتاب الله، فمحوت كتبي، فوالله لوددت أن كتبي عندي، إن كتاب الله قد استمرت مريرته[٣].

وقال أيضًا: لوددت لو أني فديتها بأهلي، ومالي[٤].

وقد استمرت الكراهية للكتابة حتى في عهد صغار التابعين وأتباعهم.

فعن يحيى بن سعيد قال: أدركت الناس يهابون الكتب، ولو كنا نكتب يومئذ لكتبنا من علم سعيد بن المسيب ورأيه شيئًا كثيرًا[٥].

أثرها:

مع قلة المروي عنها في التفسير، إلا أنها من أكثر المدارس تأثيرًا في مناهج التابعين عمومًا، فالمدينة مثلت الحديث وروايته، وكانت عاصمة الخلافة، وبقي لها الأثر

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٨). قول: مثناة كمثناة أهل الكتاب: هو كتاب وضعه أحبار بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب. ينظر السير (٥/ ٥٩).

(٢) الكفاية (٢٠٥).

(٣) الحلية (٢/ ١٧٦)، واستمرت مريرته: أي قوي واستحكم. السير (٤/ ٤٣٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٠)، والتهذيب (٧/ ١٨٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ١٤١)، والمعرفة (١/ ٦٤٩).

والريادة في علم الأثر والدراية، فأثرت بذلك على كثير من مدارس التابعين.

أثرها على البصرة:

كانت البصرة من أكثر المدارس تأثرًا بالمدينة، وكان بينهما من التواصل والترابط ما جعل إمام البصرة الحسن البصري يرسل بالمسائل المشكلة إلى إمام التابعين بالمدينة سعيد ابن المسيب.

فعن علي بن زيد قال: كنت إذا خرجت إلى مكة قال لي الحسن: سل سعيدًا عن كذا، وسل لي سعيدًا عن كذا - يعني -: سعيد بن المسيب[١].

ويقول قتادة: ما جمعت علم الحسن إلى علم أحد من العلماء، إلا وجدت له فضلاً عليه، غير أنه كان إذا أشكل عليه شيء، كتب فيه إلى سعيد بن المسيب يسأله[٢].

ولذا قلّ ما كان الحسن وسعيد يختلفان في الفُتيا[٣].

وكان الحسن لا يدع شيئًا من فعله لقول أحد حتى يقولوا: إن سعيد بن المسيب قد قال خلافه فيأخذ به، ويدع قوله[٤].

والحسن قد نشأ في سني عمره الأولى في المدينة، ولذا نجد أثر هذه النشأة في تفسيره، فكان يستدل بلغتهم في تفسيره، فمن ذلك ما جاء عنه عند تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[٥]، قال: بطنها حبًا، وأهل المدينة يقولون ذلك[٦].

---

(١) العلل لأحمد (٣/ ٣٢١) ٥٤٢٩.

(٢) التذكرة (١/ ٥٥)، والتهذيب (٤/ ٨٦)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤).

(٣) تهذيب الكمال (٦/ ١٠٨).

(٤) أنساب القرشيين (١/ ٣٩٦)، والمنتظم (٦/ ٣٢٠).

(٥) سورة يوسف: آية (٣٠).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٦٤) ١٩١٤٨، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم وابن المنذر، وأبي الشيخ، عن الحسن بنحوه (٤/ ٥٢٨).

وعند تفسير قوله سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾[١] قال: هي البسط، أهل المدينة يقولون: هي البسط[٢].

ولما رأى قتادة ذاك التأثر والتقدير من شيخه لأئمة التابعين في المدينة لاسيما سعيد، حرص على السفر للمدينة، والأخذ عنهم، فرحل إلى سعيد، فجعل يسأله أيامًا، وأكثر من المسألة، فقال سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتى رد عليه حديثًا كثيرًا، فقال سعيد: ما كنت أظن أن الله تعالى خلق مثلك[٣].

وكان يقول: ما أتاني عراقي أحفظ منك.

ولما رأى قتادة الحسن يُرسل إليه في مسائل من العلم مشكلة تأثر به في الجانب الفقهي أكثر من تأثره بشيخه الحسن، وقد عني بنقل تفسيره أكثر من عناية المدنيين بذلك[٤]، ونشر علمه، وفتواه في البصرة، وكان جل ما أخذ عنه في التفسير هو ما ورد في تفسير آيات الأحكام[٥].

وقد تأثر به قتادة في هذا فتوسع في القول بنسخ كثير من الآيات[٦]، بل إنه نقل

(١) سورة الرحمن: آية (٧٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٧/ ١٦٣)، وفتح القدير (٥/ ١٤٥).

(٣) كتاب الحث على الحفظ وذكر كبار الحفاظ (١٠٥).

(٤) كان قتادة من أكثر الناقلين لتفسير سعيد بن المسيب، حيث روى ما نسبته (٣٧, ٠) من مجموع تفسيره، في حين تلاه يحيى بن سعيد حيث روى ما نسبته (١٦, ٠) من مجموع تفسيره.

(٥) وبمراجعة تفسير سعيد، وجدت أن (٥٦, ٠) من تفسيره لآيات الأحكام كان من رواية قتادة، ينظر تفسير الطبري الآثار ذوات الأرقام: ٤٥٢٢، ٤٦٢٦، ٤٦٢٨، ٤٦٤٦، ٥٠٩٢، ٥٢١٧، ٥٢١٨، ٥٢٦٦، ٥٣٣٨، ٥٣٣٩، ٥٣٤٣، ١١٢٢٣، ١١٢٨٤، ١١٣٠٩، ١١٣١٠، ١٢٧٤٤، (١٨/ ٧٨)، (١٨/ ٧٩)، (٢٨/ ٩)، (٢٨/ ١٠).

(٦) يعد سعيد بن المسيب وقتادة من أكثر التابعين توسعًا في النسخ، ويأتي لذلك مزيد بحث في فصل أثرهم في أصول التفسير ص (١٠٨١).

جل ما جاءعن سعيد في هذا الباب[١] ، وكان يعرض ما عنده على ابن المسيب ، فقد عرض عليه صحيفة جابر بن عبد الله[٢] .

وقد كان للمدنيين الأثر البالغ في ميل مدرسة البصرة للسنن والآثار في تفسيرها ، حتى صارت من أكثر المدارس اعتماداً على السنة في تأويلها[٣] .

يقول قتادة : ما رأيت أعلم من سعيد ، ولا أجدر أن يتبع فلان عن فلان ـ يعني ـ يسند[٤] .

أثرها على التفسير في الشام :

الأثر المدني على التفسير في الشام أشهر من أن يذكر ، فإن كثيراً من فقهاء المدينة رحلوا إلى الشام ، ونقلوا ما علموه من السنن والآثار إلى هناك ، ولعل من أهم أسباب تلك الرحلة والصلة ، وجود عبد الملك بن مروان الذي يعد من فقهاء المدينة الأربعة الذي ولي الخلافة فسافر إليه قبيصة بن ذؤيب ، وغيرهم من فقهاء المدينة ، ثم تولى عمر ابن عبد العزيز الخلافة ، واهتم بآثار أهل المدينة وعلمهم[٥] .

---

(١) أورد الطبري في تفسيره عن سعيد القول بالنسخ في عشر روايات ، سبع منها من رواية قتادة ، وهي الآثار ذوات الأرقام : ٥٢١٩ ، ٥٢٢٠ ، ٨٦٧٤ ، ٨٦٧٥ ، ٨٦٧٦ ، (٢٢/ ١٩) (٢٢/ ٢٠) .

(٢) العلل لأحمد (٣/ ٤٧٠) ٦٠٠٧ .

(٣) بعد مراجعتي لتفسير الطبري ، وجدت أن مجاهداً اعتمد على ما جاء عن النبي ﷺ في (٢٥) رواية ، وعكرمة في (٩) روايات ، وابن جبير في (٢٢) رواية ، وعطاء في (١٠) روايات ، في حين كان اعتماد قتادة على ذلك في أكثر من (٢٠٠) رواية ، وبلغ عن الحسن أكثر من (٨١) رواية .

(٤) الجرح (٤/ ٦٠) .

(٥) وسيأتي مزيد بحث لذلك عند الحديث عن المدرسة الشامية .

أثرها على المدرسة المكية :

كان جل اهتمام أصحاب ابن عباس متعلقًا بعلم التفسير رواية ودراية ، وكانت الصلة بينهم وبين المدينة قليلة ، فلم يكن للمدينة أثر يذكر في المدرسة المكية ، إلا ما كان من تأثر أحد أئمة المكيين - وهو عطاء - بالمنهج المدني ؛ لأنه رحل إلى مدينة المصطفى ﷺ فاستبان فضله على أصحابه[1] في هذا الجانب ، فقد كان للمدينة الأثر البالغ في منهجه وانصرافه لعلمي الفقه والحديث ؛ ولذا نجد من المفارقات الرئيسة بينه وبين أصحابه ، اتباع عطاء للدليل ، وميله للفقه الأثري ، ولذا عدّه الشافعي من أكثر التابعين اتباعًا للأثر ، بسبب اتصاله بالمدينة .

* * *

(١) المعرفة (١/ ٤٤٣)، وترتيب المدارك (١/ ٦٣).

المبحث الخامس

التفسير في الشام واليمن ومصر

أولاً : التفسير في الشام :

لقد حظي الشام بعدد من علماء الصحابة ، وتخرج على يدهم عدد كبير من التابعين ، فقد أرسل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون الناس ، فأرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى أهل فلسطين[١] ، وأرسل عبادة ابن الصامت ـ رضي الله عنه ـ إلى أهل حمص[٢] .

وأما أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ فأرسله إلى دمشق[٣] ، وكان من أكثرهم أتباعًا ، فقد كانت له حلقة عظيمة في مسجد دمشق يحضرها ما يزيد على ألف وستمائة شخص ، يقرأون عشرة عشرة ، ويتسابقون عليه ، وأبو الدرداء واقف يفتي الناس في حروف القرآن[٤] .

ويعد أبو الدرداء أكثر الصحابة أثرًا في الشام ودمشق ، يقول الذهبي : وكان أبو الدرداء

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٨٧)، والتاريخ الكبير (٤/ ٣٥٩)، والجرح والتعديل (٤/ ١/ ٢٤٤)، والسير (٢١/ ٣٤٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٨٧)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ٢٠٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٦)، والإصابة (٢/ ٢٦٨)، وشذرات الذهب (١/ ٤٠)، والسير (٢/ ٣٤٤).

(٣) أسد الغابة (٥/ ١٨٥)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٢٢٨)، والتذكرة (١/ ٢٤)، والإصابة (٣/ ٤٥)، والشذرات (١/ ٣٩)، والسير (٢/ ٣٤٤).

(٤) غاية النهاية (١/ ٦٠٧).

عالم أهل الشام، ومقرئ أهل دمشق، وفقيههم وقاضيهم[١] .

وكان ـ رضي الله عنه ـ من قراء الصحابة المعدودين ، فعن أنس بن مالك قال : مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة من الصحابة : أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[٢] .

كما كان له الإمامة في العلم . . يقول مسروق : وجدت علم الصحابة انتهى إلى ستة : عمر، وعلي، وأبي، وزيد، وأبي الدرداء، وابن مسعود[٣] .

وبعث عمر ـ أيضًا ـ عبد الرحمن بن غنم الأشعري إلى الشام يفقه الناس[٤] .

ومن شيوخ الشاميين ـ أيضًا ـ الصحابي الجليل تميم الداري[٥] .

وعلى يد هؤلاء الصحب الكرام تعلم التابعون بالشام، وكانوا كثيرين[٦] إلا أن أشهرهم :

عائذ الله بن عبد الله أبو إدريس الخولاني[٧] ، وهو عالم الشام بعد أبي الدرداء[٨] ،

---

(١) التذكرة (١/ ٢٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفضائل، باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ، ينظر الفتح (٩/ ٤٧) ٥٠٠٤، وأبو زيد : هو أحد عمومة أنس، وقد ذكر ابن المديني أن اسمه أوس، وعده يحيى بن معين ثابت بن زيد.
وهذا الحصر في هؤلاء الأربعة إضافي، بمعنى أنهم جمعوه عرضًا على النبي ﷺ ، وقد أطال ابن حجر في بيان توجيه ذلك في الفتح (٩/ ٥١).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥١)، والسير (٢/ ٣٤٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٤١)، والمعرفة (٢/ ٣٠٩)، والشذرات (١/ ٨٤).

(٥) تذكرة الحفاظ (١/ ٥١)، والسير (٤/ ٤٦).

(٦) مفتاح السعادة (٢/ ٢٤)، والإعلان والتوبيخ (٢٩٥)، فجر الإسلام (١٨٤، ١٨٥)، والتعريف بالقرآن والحديث (١٦٦).

(٧) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٤٨)، وطبقات الفقهاء (٧٤).

(٨) تذكرة الحفاظ (١/ ٥٧)، والسير (٤/ ٢٧٤).

وكان يقرأ، ويعلم، ويقص، ويعظ[١]، ويعني كثيراً بالمغازي والسير، توفي سنة (٨٠هـ)[٢]، إلا أن المروي عنه في التفسير قليل جداً[٣].

ومن هؤلاء مكحول أبو عبد الله الدمشقي مولى لامرأة من هذيل، وكان نوبيًا، وقيل من سبى كابل، وقيل من سلالة الأكاسرة[٤].

وكان ـ رحمه الله ـ من أفقه أهل الشام[٥]، وكل ما قال بالشام قبل منه[٦].

يقول سليمان بن موسى . إن جاءنا العلم من الحجاز عن الزهري قبلناه، وإن جاءنا من الشام عن مكحول قبلناه، وإن جاءنا من الجزيرة عن ميمون قبلناه، وإن جاءنا من العراق عن الحسن قبلناه[٧].

وعن الزهري قال: العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[٨].

وقال سعيد بن عبد العزيز: كان أفقه أهل الشام، وكان أفقه من الزهري[٩].

وعليه تتلمذ إمام الشام في زمانه الأوزاعي[١٠].

---

(١) الحلية (٥/ ١٢٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ٣٢٢)، والشذرات (١/ ٢٨٨).
(٢) السير (٤/ ٢٧٥).
(٣) رجعت إلى تفسير ابن كثير، فلم أجد له إلا ثلاث روايات فقط.
(٤) التاريخ الكبير (٨/ ٢١)، والبداية والنهاية (٩/ ٣١٧)، والسير (٥/ ١٥٥).
(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٤٥)، والمعرفة (١/ ٦٤٠)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٨٠).
(٦) المعرفة (٢/ ١١٧)، والسير (٥/ ١٥٩).
(٧) تاريخ أبي زرعة (١/ ٣١٥)، ويلاحظ أن الجامع بين هؤلاء الأئمة، هو اتباعهم الأثر.
(٨) السير (٥/ ١٥٨).
(٩) السير (٥/ ١٥٩)، والبداية والنهاية (٩/ ٣١٧).
(١٠) قال الأوزاعي في الإيلاء: ونحن على قول أصحابنا الزهري، ومكحول، أنها تطليقة، تفسير الطبري (٤/ ٤٨٨) ٤٦١٠.

وقد جاء عنه جملة طيبة في التفسير، وغالبها في الفقه، والوعظ[١] .

بين الشام والمدينة :

لقد استفاد الشام من كبار التابعين الذين نزلوا به، وبثوا علمهم فيه، وأكثرهم من علماء المدينة الكبار، مما يؤكد الأثر المدني في الشام ولاسيما أنه كان منهم خليفتان عبد الملك بن مروان الذي عده ابن ذكوان رابع أربعة فقهاء في المدينة بعد ابن المسيب، وعروة، وابن ذؤيب[٢] ، ثم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي آلت إليه الخلافة في آخر المائة الأولى، وقد نزل الشام قبله الإمام قبيصة بن ذؤيب، فقيه المدينة[٣] ، ومن كبار أصحاب زيد بن ثابت روى عنه الفرائض، وكان أعلم الناس بقضائه[٤] .

قال ابن حبان : قبيصة بن ذؤيب الخزاعي من فقهاء أهل المدينة وعبادهم، كان كثير السفر إلى الشام في تجارة وغزو، فحديثه عند أهل الشام والمدينة معًا، توفي سنة ست وثمانين، وقال السيوطي عنه: المدني سكن الشام[٥] .

ثم انتقل إلى الشام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد كان أميرًا على المدينة، وكان ممن يجالس سعيد بن المسيب، ويصدر عن رأيه، وكان سعيد لا يأتي أحدًا من الأمراء غير عمر، أرسل إليه عبد الملك فلم يأته، وأرسل إليه عمر فأتاه، وكان عمر

---

(١) يراجع في ذلك تفسير الطبري، الآثار ذوات الأرقام: ٣٩٩٧، ٤١٢٩، ٤٣٧١، ٤٤٣١، ٤٦٠٤، ٤٦١٠، ٤٧١١، ٤٧١٢ . . . إلخ، وينظر تفسير ابن كثير : (١/ ٣٣٣)، (١/ ٣٤٢)، (١/ ٣٧٥)، (١/ ٣٩٢)، (١/ ٣٩٥)، و (١/ ٣٩٧)، (١/ ٤٣٦)، و (٢/ ٩٤)، (٢/ ١٩٢)، (٢/ ٢٢١)، (٣/ ٢٩)، (٣/ ٣٦)، (٣/ ١٦٤) إلى غير ذلك من الأمثلة التي زادت في تفسير ابن كثير عن ثلاثين أثرًا.

(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤١٠)، ٢٨٣٦، و(٢/ ٥٩٤) ٣٨٢٠، وطبقات الفقهاء (٦٢).

(٣) العلل لأحمد (٢/ ٦٦) ١٥٦٥، ١٥٦٦، والعلل لابن المديني (٤٩، ٥١، ٥٣).

(٤) المعرفة (١/ ٣٥٤)، ومشاهير علماء الأمصار (٦٤).

(٥) طبقات الحفاظ (٢١).

يكتب إلى سعيد في علمه[١] ، ويركب إليه في المسألة[٢] ، وكان معظمًا له جدًا حتى قال: ما كان في المدينة عالم يأتيني بعلمه إلا وأوتى بما عند سعيد بن المسيب[٣] .

فلما استخلف عمر بن عبد العزيز حمل معه علم سعيد إلى الشام، بل وكان معه عدة من علماء المدينة، فكان معه سالم بن عبد الله، وأبو قلابة ومحمد بن كعب، وعراك بن مالك[٤] ، وابن شهاب[٥] ، وكان معه أيضًا وزير الخلفاء رجاء بن حيوة الذي كان مكحول إذا سئل يقول: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة[٦] . إلا أنه كان قليل الحديث والرواية؛ لانشغاله بالوزارة، وتشدده حتى عدَّ من أكف ثلاثة عن الحديث، مع فضلهم[٧] .

ورحل إلى عمر بن عبد العزيز، زيد بن أسلم[٨] ، وكل هؤلاء ممن نشر علم المدينة بالشام.

لقد أدرك علماء الشام فضل علم المدنيين، فأخذوا ينهلون من علومهم، فها هو مكحول يرحل ليطلب علم المدينة، ويبقى بها حتى سمع من جل علمائها، يقول مكحول: قدمت المدينة، فما خرجت منها حتى ظننت أنه ليس بها من علم إلا وقد سمعته[٩] .

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٤، ٥١٨).
(٢) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٥).
(٣) المنتظم (٦/ ٣٢١).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٢١)، (٢/ ٧١٤).
(٥) سيأتي بيان دور ابن شهاب في اتصال الشام والمدينة بشيء من التفصيل.
(٦) البداية والنهاية (٩/ ٣١٥).
(٧) المعرفة (٢/ ٣٦٨)، والسير (٤/ ٦٠٩).
(٨) بغية الطلب (٩/ ٣٩٩٠).
(٩) العلم لأبي خيثمة (١١٨)، وطبقات ابن سعد (٧/ ٤٥٣).

وصرح بأن عامة ما يحدث به هو ما أخذه عن ابن المسيب[١] ، وقد أبدى إعجابه بسعيد بن المسيب حتى قال: طفت الأمصار فما لقيت رجلاً أعلم من ابن المسيب[٢] .

وكان يقول عن سعيد: عالم العلماء[٣] ، وإذا سئل عن أفقه من أدرك قال: سعيد ابن المسيب[٤] .

ويمكن عد الزهري شاهداً آخر في حلقات الاتصال بين الشام والمدينة، فمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري هو من طبقة صغار التابعين[٥] ، وقد قرأ القرآن على أنس بن مالك[٦] ، وسمع منه[٧] .

وقد أخذ العلم عن كبار التابعين في المدينة، وصار أعلم أهل زمانه بحديثهم، فبعد أن ذكر علي بن المديني العشرة الذين كان لهم علم بزيد بن ثابت قال: وكان أعلم الناس بقولهم وحديثهم ابن شهاب[٨] .

وقد لازم الزهري سعيد بن المسيب سبع حجج، وكان يميل في فتياه إلى قوله[٩] .

ولما سئل عن أفقه من أدرك قال: سعيد بن المسيب[١٠] .

---

(١) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٩) ٢٩٩٥، (٣/ ٨١) ٤٢٧٢، وتاريخ دمشق (٨/ ٦٩٦)، وطبقات ابن سعد (٥/ ١٢١).

(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤٠٠) ٢٧٨٦، (٣/ ٣٢٠) ٥٤٢٤، والتهذيب (٤/ ٢٨٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢١).

(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٣)، والمعرفة (١/ ٤٧٩)، والجرح (٤/ ٦١)، ومرآة الجنان (١/ ٢١٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥).

(٥) النكت على ابن الصلاح (٢/ ٥٥٨).

(٦) غاية النهاية (٢/ ٢٦٢).

(٧) العلل لأحمد (٢/ ٢٢٦) ٢٠٨٨، و(٣/ ٢٩٣) ٥٣٠١.

(٨) المعرفة (١/ ٣٥٣)، (١/ ٧١٤)، والعلل لابن المديني (٥٣).

(٩) التاريخ الصغير (١/ ٢٢٤)، والتعديل والتجريح (٣/ ١٠٨٢).

(١٠) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٣)، والمعرفة (١/ ٤٧٩)، والجرح (٤/ ٦١).

والزهري يعد من أبرز التابعين الذين بثوا علم المدينة في الشام، فهو يقول عن نفسه: اختلفت من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى الحجاز خمسًا وأربعين سنة ما استطرقت حديثًا واحدًا، وقال أيضًا: ما وجدت أحدًا يفيدني في ترددي إلى الشام[١].

وهذا يعني أنه نقل علم المدينة إلى الشام، ولم يجد زيادة علم بالشام حتى ينقله للمدينة.

وقد انتفع أهل العلم بالشام والمدينة بعلومه، ولذا لقب بعالم الشام والحجاز[٢].

قال عنه الذهبي: المدني نزيل الشام[٣].

وكان الزهري مع مكحول كفرسي رهان بالشام، وإن كان مكحول أكثر اشتغالاً بالفقه من الزهري، والزهري أعلم منه بالحديث والسير[٤].

ولتقاربهما وإمامتهما في مكان وزمان واحد جمعت أقوالهما، وصنفت كتب في اختلافهما[٥].

وكان مكحول يعرف له فضله، ويقدمه ولا يتقدم عليه، ولما سئل: من أعلم الناس؟ قال: ابن شهاب[٦].

وقد نقل عن الزهري روايات عديدة في التفسير كان أكثر من ثلثها في تفسير آيات

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٠٩).
(٢) التهذيب (٩/ ٤٤٥).
(٣) السير (٥/ ٣٢٦).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٤٥)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٨٠)، والعلل لأحمد (١/ ١٨٤) ١٥٠.
(٥) ينظر مقدمة كتاب الزهري لابن عساكر (١٩)، وهي ترجمة مأخوذة من تاريخ دمشق، طبعت بتحقيق د. شكر الله بن نعمة الله قرجاني، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ م.
(٦) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤١١)، وقد أفاض ابن عساكر في ترجمة الزهري في تاريخ دمشق.

الأحكام، وكثير منها مما يرويه عن سعيد بن المسيب[١] .

وقد ورث علم هذين العلمين مكحول والزهري، الإمام الأوزاعي عبد الرحمن ابن عمرو بن محمد[٢] ، المولود في حياة الصحابة[٣] ، والذي يعد أول من دون العلم في الشام[٤] ، فنشر علم التابعين في تلك المنطقة، قال مالك : الأوزاعي إمام يقتدى به[٥] .

وقال الذهبي : كان له مذهب مستقل مشهور عمل به فقهاء الشام مدة، وفقهاء الأندلس ثم فني[٦] .

وكان الأوزاعي معظمًا لمكحول، والزهري، ويذكرهما في أصحابه الذين يفتي بقولهم[٧] .

وقال عن الزهري، ما داهن ابن شهاب لملك قط دخل عليه، ولا أدركت خلافة هشام أحدًا من التابعين أفقه منه[٨] .

بين الشام والعراق :

وقع الخصام بين أهل العراق والشام مُبكرًا في القراءات، وذلك أن أهل كل مصر قد تلقوا القرآن عن الصحابي الذي نزل عندهم بقراءته، وحرفه الذي تلقاه من

---

(١) بعد مراجعة تفسير الطبري، وجدت المروي عنه (١٤٨) رواية، بلغ نصيب آيات الأحكام منها (٣٧,٠) من مجموعها، وقد بلغت رواياته عن سعيد بن المسيب (١٦,٠) من جملة الروايات الواردة عن سعيد بن المسيب في التفسير .

(٢) السير (٧/ ١٠٧).

(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٤٠).

(٤) السير (٧/ ١٢٨).

(٥) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤٤٠)، والسير (٧/ ١١٢).

(٦) السير (٧/ ١١٧).

(٧) تفسير الطبري (٤/ ٤٨٨) ٤٦١٠ .

(٨) تاريخ أبي زرعة (١/ ٤١٠).

رسـول الله ﷺ، واشتد خصام أهل العراق في القراءة في غزوة أرمينية سنة ثلاثين، حتى كفر بعضهم بعضًا، فقد روى ابن جرير الطبري بإسناده عن زيد بن ثابت في خبر جمع القرآن أنه قال: «إن حذيفة بن اليمان قدم من غزوة كان غزاها مرج أرمينية، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك الناس! فقال عثمان: وما ذاك؟ قال: غزوت مرج أرمينية، فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، فتكفرهم أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فتكفرهم أهل الشام».

ولم يقتصر الاختلاف في القراءة في غزوة أرمينية على أهل العراق وأهل الشام، فقد كان أهل كل جند أو مصر منهم يعتقدون أن قراءتهم أصح القراءات وأعلاها، ادعى ذلك أهل حمص، ونافسهم فيه أهل دمشق، وادعاه أيضًا أهل الكوفة، ونافسهم فيه أهل البصرة، قال ابن الأثير في ذكر غزو حذيفة وأمر المصاحف: «فيها صرف حذيفة عن غزو الري إلى غزو الباب مددًا لعبد الرحمن بن ربيعة، وخرج معه سعيد بن العاص، فبلغ معه أذربيجان، وكانوا يجعلون الناس ردءًا، فأقام حتى عاد حذيفة ثم رجعا. فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمرًا لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبدًا، قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناسًا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد. ورأيت أهل دمشق يقولون: إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على ابن مسعود، ورأيت أهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على أبي موسى، ويسمون مصحفه لباب القلوب»[1].

(١) تفسير الطبري (١/ ٦٢)، والكامل في التاريخ (٣/ ١١١).

وظل أهل دمشق وأهل حمص يختلفون في القراءة، ويتنافسون فيها بعد أن جمع عثمان بن عفان الناس على مصحف واحد، كل منهم يتمسك بقراءته ويُصوّبها، ولا يحيد عنها[١].

ولكن هذا التنافس لم يصل بالطبع إلى درجة التكفير التي كانت قبل أن يجمعهم عثمان ـ رضي الله عنه ـ على مصحف واحد، إلا أنه بقي في أهل الشام نفرة من العراق، ولاسيما الكوفة بسبب اعتماد الكوفيين على الرأي والقياس أكثر من اعتمادهم على الأثر والرواية، ونظرًا للمنهج الأثري المدني الذي ساد بالشام، لذا نفر بعض الأئمة الشاميين من أهل العراق، باستثناء الأثريين من الكوفيين كالشعبي[٢].

بل قد وجدت عبارات للأوزاعي فيها نكير شديد على أهل القياس والرأي من معاصريه[٣].

قال الأوزاعي موضحًا المنهج الشامي: كانت الخلفاء بالشام، فإذا كانت بلية سألوا عنها علماء أهل الشام، وأهل المدينة، وكانت أحاديث أهل العراق لا تجاوز جدار بيوتهم، فمتى كان علماء أهل الشام يحملون عن خوارج أهل العراق[٤].

وفي المقابل حصل شيء من تأثر الشام بالبصرة، ويرجع ذلك إلى أسباب لعل من أبرزها أثرية أئمة البصرة.

---

(١) القراءات في بلاد الشام (٨٢، ٨٨).

(٢) كان مكحول يقول: عامة ما أحدثكم من علم الشعبي، وسعيد بن المسيب، ينظر العلل لأحمد (٢/ ٤٤٩) ٢٩٩٥، (٣/ ٨١) ٤٢٧٢.
وكان الشعبي ينعى على أهل الرأي تركهم السنن، يراجع ص (٣٢٠) في ترجمة الشعبي.

(٣) من ذلك كلامه عن أبي حنيفة، ينظر العلل لأحمد (٢/ ٥٤٦) ٣٨٩، وكتاب السنة (١/ ١٨٧)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٨٩)، وكتاب المجروحين لابن حبان (٣/ ٦٤)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٢٥٦)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٨٤).

(٤) المعرفة (٢/ ٧٥٧)، وتاريخ دمشق (١/ ٧٠).

فقد تتلمذ الحسن، وقتادة على يد سعيد بن المسيب، وكان الأوزاعي من رواة قتادة[١] .

وكان يقارن بين مكحول ، وقتادة، قيل للزهري: أقتادة أعلم عندكم أو مكحول؟ قال: لا، بل قتادة، ما كان عند مكحول إلا شيء يسير[٢] .

في حين كان الزهري يقول : العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام[٣] .

ومن الواضح أن الجامع لهؤلاء هو الأثرية، وترك الرأي، وثمة سبب آخر يجعل الشام يتأثر بالبصرة، وهو بُعْد البصرة عن الرفض حتى عدَّها أهل العراق قطعة من الشام نزلت العراق[٤] .

ولذا كثرت رحلات الأمويين إلى البصرة، حتى قال البصريون: ما كنا نفقد في كل يوم راكبًا من ناحية بني أمية ينيخ[٥] .

وكان الرجلان من بني أمية يختلفان في البيت من الشعر، فيرسلان إلى قتادة[٦] .

وقد أدى هذا التقارب بين المدرستين، أن ابتلي بعض أهل الشام بالقول بالقدر موافقة للبصريين، فقد رمي مكحول به[٧]، واشتهر ذلك عنه، حتى أنكر عليه علماء الشام كرجاء بن حيوة[٨] .

---

(١) السير ٥/ ٢٧٠ .
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٣٠)، والسير (٥/ ٢٧١).
(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣١٧)، والسير (٥/ ١٥٩).
(٤) كتاب تفسير الحسن البصري (١/ ٤٩).
(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٨٥).
(٦) أنباه الرواة (٣/ ٣٥)، والمزهر (٢/ ٣٣٤)، والسير (٥/ ٢٧٨)، ومعجم الأدباء (١٧/ ١٠).
(٧) السير (٥/ ١٥٩).
(٨) العلل لأحمد (٣/ ٢٨٠) ٥٢٤٧.

ومن جهة أخرى اكتفى كثير من أهل العلم بالشام عن العراق، قال ابن المبارك: ما رحلت إلى الشام إلا لأستغني عن حديث أهل الكوفة[١].

وفي الجملة كان التفسير في الشام صورة من المنهج المدني، أصولاً وفكراً واتجاهًا، لذا ـ مع قلة نتاجه ـ لم أدرسه كمدرسة مستقلة لها تميزها في التفسير، والله تعالى أعلم.

ثانيًا: التفسير في اليمن:

لم يلق التفسير في اليمن من الاهتمام ما لقيه في غيرها من بلاد الإسلام في الحجاز، والعراق، ولم ينشط أهل اليمن في علوم التفسير، إلا في عصر أتباع التابعين، وذلك يرجع إلى أسباب، لعل من أهمها: نزول عدد قليل من الصحابة بها[٢]، ولذا فهي من أقل المدارس تابعًا[٣]. إلا أنه قد نزلها بعض كبار التابعين مما نشَّط الحركة العلمية فيها قليلاً، ومن هؤلاء.

طاوس بن كيسان، أبو عبد الرحمن الفارسي[٤].

سمع طاوس من عدة من الصحابة، وتحمل عنهم، فسمع من زيد بن ثابت، وعائشة، وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وأكثر سماعه كان من ابن عباس، وكان طاوس معدودًا في كبراء أصحابه[٥]، وهو يعد من أصحابه الستة[٦]، وكان ابن عباس يدخله

---

(١) المعرفة (٢/ ٧٥٧).

(٢) ذكر ابن حبان من مشاهير الصحابة في اليمن (١٦) صحابيًا فقط، في حين بلغ مَنْ عدهم من مشاهير الصحابة بالمدينة (١٥٢) صحابيًا، وبالبصرة (٥٥) صحابيًا، وبالكوفة مثل ذلك، وبالشام عدَّ (٢٢) صحابيًا، ومثلهم بمصر . . .

(٣) عدَّ ابن حبان من مشاهير المدنيين (١٦٩) تابعيًا، ومن مشاهير الكوفيين (١١٧)، ومن مشاهير البصريين (٩١)، ومن مشاهير الشاميين (٧٢)، ومن مشاهير المصريين (٣٢)، ومن مشاهير اليمنيين (٢٧) تابعيًا فقط.

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٥٣٧)، وتاريخ خليفة (٢٣٦)، والتاريخ الصغير (١/ ٢٥٢).

(٥) السير (٤/ ٣٩)، وطبقات فقهاء اليمن (٥٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٩).

(٦) أي مع مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وابن جبير، وجابر بن زيد.

على الخواص[١] ، ولم يسمع طاوس من معاذ بن جبل، لتقدم وفاته بالشام[٢]، وقد اشتغل طاوس بالفقه والإفتاء، وغلب ذلك عليه حتى برع فيه، وفاق أقرانه.

يقول خصيف بن عبد الرحمن ـ وهو يعدد فضائل التابعين ـ: كان أعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأعلمهم بالحلال والحرام طاوس، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير[٣] .

وقد كان هذا الفقه واضحًا فيما نقل عنه من تفسير، فقد كان جل المروي عنه ـ على قلته ـ في بيان آيات الأحكام[٤] ، وكان شديد التأثر بتفسير ابن عباس لملازمته له، فقد كان كثير الترداد على مكة؛ إذ حج ما يزيد على أربعين حجة[٥] ، وقد غلبه الورع مع كثرة علمه، وشمل ورعه الحديث والتفسير، فكان يعد الحديث حرفًا حرفًا[٦]، حتى قال عنه قيس بن سعد لأحد البصريين: كان طاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم[٧] .

وكان ابن سيرين معروفًا بالورع، وأنه لا يروي بالمعنى[٨] .

---

(١) المحدث الفاصل (٥٦٩)، والسير (٥/ ٤٦).

(٢) علل ابن المديني (٢٨٨)، والفتح (٣/ ٣١٢)، (١١/ ٣٢)، وقد توفي معاذ في طاعون عمواس سنة ١٧ هـ.

(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٥١٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٧٢)، ومرآة الجنان (١/ ٢٢٥).

(٤) بعد مراجعتي لتفسير ابن كثير كله، وجدت المروي عن طاوس (٥٨) قولاً في التفسير، منها (٣١) قولاً في تفسير آيات الأحكام في سورتي البقرة والنساء.
وقد راجعت تفسير القرطبي فوجدت المنقول عنه حتى نهاية سورة آل عمران (٥١) قولاً، منها (٤٥) في بيان آيات الأحكام، أي ما يزيد عن (٨٧, ٠) من مجموع تفسيره كان في بيان آيات الأحكام، واتضحت لي عنايته بالحلال والحرام عند مراجعة كتب الفقه، فقد سبق عامة أصحاب ابن عباس في عدد المنقول عنه، ففي المغني لابن قدامة نقل عنه (٣٢٢) قولاً، في حين كان المنقول عن مجاهد (٢٥٧)، وعن ابن جبير (٢١٢)، وعن عكرمة (١٤٤) قولاً فقط.

(٥) العلل لأحمد (٢/ ٤٦٣) ٣٠٥، المعرفة (١/ ٧٠٦).

(٦) المحدث الفاصل (٥٣٩)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٥٤١)، والمعرفة (١/ ٧٠٦).

(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤١)، المعرفة (١/ ٧٠٩).

(٨) سبق تفصيل ذلك في المقارنة بينه وبين الحسن، ص (٤٣٢).

وعن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: سألت طاوسًا عن تفسير هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[١] فأراد أن يبطش بي؛ كراهية لتفسير القرآن[٢].

ولقد غلب على طاوس الطابع المكي في الاستنباط والدلالة؛ ولذا كان تفسيره أقرب إلى المكيين منه للبصريين[٣].

ومن أئمة التابعين في اليمن أيضًا:

وهب بن منبه بن كامل أبو عبد الله[٤]، من مسلمة أهل الكتاب، له روايات في التفسير، ومواعظ بليغة، وعلم غزير، أكثره عن أهل الكتاب، قال الذهبي: وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب[٥]، وقال أيضًا: وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ[٦].

وقال وهب عن نفسه: «لقد قرأت ثلاثين كتابًا نزلت على ثلاثين نبيًا»[٧].

ولذا كان كثيرًا ما يحدث عن التوراة، وأخبار بني إسرائيل[٨]، والقصص[٩]،

---

(١) سورة المائدة: آية (١٠٦).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٥١٢) ١٠١٥٣.

(٣) بعد مراجعة تفسير القرطبي وجدت أن (٢٧) قولاً لطاوس من أصل (٤٥) قولاً في تفسير آيات الأحكام حتى نهاية سورة آل عمران وافق فيها المدرسة المكية، أي (٦٠ , ٠) من تفسيره لآيات الأحكام يتوافق مع المكيين.

(٤) التاريخ الكبير (٨/ ١٦٤)، والمعارف (٢٣٩)، ومشاهير علماء الأمصار (١٢٢).

(٥) السير (٤/ ٥٤٥).

(٦) تذكرة الحفاظ (١/ ١٠١).

(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤٣)، الحلية (٤/ ٢٤).

(٨) من ذلك ما رواه الطبري عنه أنه قال في الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها: وأهل التوراة يقولون: هي البر، تفسير الطبري (١/ ٥١٨) ٧٢٦.

(٩) طبقات فقهاء اليمن (٥٧)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٢٨٣)، والإسرائيليات لأبي شهبة (١٠٥).

ونتاجه في التفسير في غير ذلك نادر ، ولذا رأيت أن ترجمته في منهج التابعين في الإسرائيليات ألصق، لذا نوهت بذكره هناك[١] .

ويعد **معمر بن راشد** البصري أول من رحل إلى اليمن[٢] ، ونشر علمه هناك، حتى قال عبد الرزاق الصنعاني - من رؤوس أتباع التابعين باليمن -: كتبت عن معمر عشرة آلاف حديث[٣] ، ولازمه سبع سنين[٤] ، وجل تفسيره إنما يرويه عنه[٥] .

وبذلك نجد التشابه الواضح بين اتجاه التفسير في اليمن مع المدرسة البصرية .

كما يعد عبد الملك بن جريج - أيضًا - ممن أسهم في نشاط حركة التفسير في اليمن، فقد رحل إليها، وبث علمه فيها، قال: قدمت بلدًا داثرًا فنثرت لهم عيبة علم، (يعني: اليمن)[٦] .

إلا أنه لم يلق طاوسًا فلم يرو عنه[٧] .

ومع هذا كله فإن استفادة أهل اليمن من معمر كانت أشد، ولذا قلت الرواية عن ابن جريج في تفاسيرهم[٨] ، في حين كان للزهري المدني أثر أكبر في تفسيرهم[٩] .

---

(١) ينظر ص (٩١١).
(٢) السير نقلاً عن الإمام أحمد بن حنبل (٧/ ٧).
(٣) السابق (٧/ ١١).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦٤).
(٥) روى عنه ثلثي التفسير، ينظر الكلام على تفسير عبد الرزاق ص (٧٠).
(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٩٢).
(٧) العلل لأحمد (٢/ ٣٠٢) ٢٣٣٨ .
(٨) لم تتجاوز مرويات عبد الرزاق من طريق ابن جريج في تفسيره (٤٣) رواية، في حين روى من طريق معمر (٢٤٧١) رواية، ينظر ص (٧٠).
(٩) بلغت الروايات التي وجدتها لأهل اليمن عن الزهري (١٦٣) رواية، منها (٨٤) رواية عن الزهري في تفسير عبد الرزاق الذي يعد من أهم المصادر في معرفة تفسير الزهري .

ومن هنا كان أثر المدرسة البصرية ثم المدنية أكبر من أثر المكية في اليمن، أما المدرسة الكوفية، فلم أر لها أثرًا على اتجاه التفسير في اليمن، والله تعالى أعلم.

التفسير في مصر:

فتحت مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، على يد عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ، وكان في جيش الفاتحين الكثير من الصحابة، إلا أننا يمكن أن نعد عقبة ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ هو أكثر الصحابة تأثيرًا في مصر في جانب التفسير وغيره، فلقد دخل مصر، ومعه مصحفه الذي صار إمامًا للناس يرجعون إليه[1].

وأحب أهل مصر عقبة، ورووا عنه، ولازموه، حتى قال سعد بن إبراهيم: كان أهل مصر يحدثون عن عقبة بن عامر، كما يحدث أهل الكوفة عن عبد الله[2].

ولئن كان ابن مسعود قد نشر الورع والهيبة من التفسير في نفوس تلاميذه الكوفيين، فبالمقابل نجد أهل مصر قد ورثوا عن عقبة هيبة التفسير، والورع من الخوض فيه، فها هو يزيد بن أبي حبيب يروي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله اليزني، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هلاك أمتي في الكتاب، واللبن**، قالوا: يا رسول الله، ما الكتاب واللبن؟ قال: **يتعلمون فيتأولون على غير ما أنزله الله عز وجل، ويحبون اللبن ويدعون الجمع، والجماعات**»[3].

لقد تأثر عقبة ومن بعده المصريون بهذا الحديث، وتورعوا عن التفسير، بل غلب عليهم الورع في شتى شئونهم، حتى قال يحيى بن سعيد الأنصاري المدني (وهو من

---

(١) القرآن وعلومه في مصر (١٤).

(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٢) ٢٩٥٨.

(٣) العلل لأحمد (٣/ ٤٥٢) ٥٩١٨، واللبن جمع لبنة، والمراد الانشغال بالبناء، وصحح إسناده محقق الكتاب د. وصي الله عباس.

صغار التابعين): ما أعلم الورع اليوم إلا في أهل المدينة، وأهل مصر[١].

وتلقى المصريون العلم عن الصحابة على قلتهم بمصر[٢]، وكان من أشهرهم أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني (٩٠ هـ)، فقد أخذ العلم وتتلمذ على يد عقبة، وعمرو بن العاص[٣]، وجاءت الطبقة التي تلي كبار التابعين فنشطت في العلم، ولاسيما يزيد بن أبي حبيب الذي بث العلم بمصر ونشره، يقول أبو سعيد بن يونس: كان مفتي أهل مصر في أيامه يزيد، وكان حليمًا عاقلاً، وكان أول من أظهر العلم بمصر، والكلام في الحلال والحرام[٤]، ويزيد هو إمام الديار المصرية في زمانه كما قاله ابن كثير[٥]، ويقول عنه الليث بن سعد: هو سيدنا، وعالمنا[٦].

إلا أنه كان ذا حظ قليل في علم التأويل، فقد كان يغلب عليه الطابع المدني في التحديث والانشغال به عن التفسير، فأكثر في الحديث وروى عن جملة من التابعين أمثال نافع وسالم[٧]، كما أنه انشغل بما انشغل به أهل مصره من المغازي والسير، حتى ما رأيت له في التفسير ـ على قلتها ـ كان حول مسائل في السيرة[٨]، ولم ينتشر التفسير

---

(١) المعرفة (٢/ ٤٨٤).

(٢) سيرة الإمام مالك لأبي زهرة (٨٤).

(٣) حسن المحاضرة (١/ ٢٩٦).

(٤) تهذيب الكمال (٣٢/ ١٠٥)، والتهذيب (١١/ ٣١٨)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨)، وحسن المحاضرة (١/ ٢٩٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠).

(٦) تهذيب الكمال (٣٢/ ١٠٥)، وحسن المحاضرة (١/ ٢٩٩)، والشذرات (١/ ١٧٥).

(٧) طبقات ابن سعد (٧/ ٥١٣).

(٨) بعد مراجعة تفسير ابن كثير، وجدت له ثلاثة آثار كلها حول ذلك (٣/ ٥٧٠)، (٤/ ١٠)، (٨/ ٢٧٤)، والمواضع التي وجدت النقل عنه فيها عند أبي زرعة في تاريخه كانت أيضًا حول مسائل في المغازي والسير، ينظر تاريخ أبي زرعة (١/ ٢١٩، ٢٩٠، ٣٨٦، ٤١٣، ٤٣١، ٥٢٤، ٥٣٧، ٥٩٤، ٦٣٠، ٦٣٥، ٦٣٦).

بمصر إلا في عصر أتباع التابعين، فقد ظهر الليث بعد سعد، ونشر العلم بمصر، وكان ذا حافظة قوية وفقه دقيق حتى قال عنه الشافعي: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا عليه»[١]، وانتشر في عهد أتباع التابعين تفسير ابن عباس الذي رواه علي بن أبي طلحة، وكانت نسخة منه موجودة عند أبي صالح كاتب الليث[٢]، وكذلك تفسير سعيد بن جبير، الذي رواه عطاء بن دينار، وهو من ثقات أتباع التابعين، وقد أخذه من ديوان عبد الملك بن مروان[٣]، ومع عدم وجود مادة علمية في المراجع بين أيدينا تدل على رواية المصريين للتفسير، إلا أني أميل إلى ظهور التفسير في عصر التابعين في مصر، بمنهج المدرسة المكية، ولكن لم ينقل بسبب الورع الذي تلقوه عن شيخهم عقبة، والتأثر بالمنهج المدني في رواية الآثار والسير، يدل على ذلك ما يلي:

١ ـ مرور ابن عباس بمصر، فقد رحل إليها، وروى عنه من أهل مصر خمسة عشر نفسًا[٤].

٢ ـ رحلة عكرمة إلى مصر عام (٥٨ هـ)[٥]، وأخذ يزيد، وروايته عنه[٦].

٣ ـ رحلة مجاهد إلى مصر، التي روى فيها عن مسلمة بن مخلد، وروى عنه فيها خلق كثير[٧].

٤ ـ المراسلات التي كانت بين يزيد بن أبي حبيب، وبين عطاء بن أبي رباح، وإن

---

(١) وهذا يؤكد ما قاله أبو زهرة: إن الشافعي درس فقه الليث فانتهى إلى هذه النتيجة، ينظر كتاب سيرة الإمام مالك لأبي زهرة (٨٤).

(٢) الإتقان (٢/ ٥٣٢) ط بيروت، دراسات في التفسير وأصوله (٣٠٧).

(٣) الجرح (٦/ ٣٣٢)، والمراسيل (٥٨)، والتهذيب (٧/ ١٩٨)، وتاريخ التراث (١/ ٧٦).

(٤) السير (٣/ ٣٣٦).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ١٣٣)، وغاية النهاية (٢/ ٤١).

(٦) الكامل (٥/ ١٠٧).

(٧) طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٠٦).

كان الظاهر أن أكثرها في الفقه، وإن كان المصريون كتبوا عن مجاهد ولم يكتبوا عن عكرمة، إلا أن المنهج المكي كان هو الغالب في هذه الفترة، ولو قدِّر بقاء شيء من التفسير، ووصوله إلينا، لما اختلف عن المدرسة المكية نهجًا ومسلكًا فيما أحسب، والله تعالى أعلم.

* * *

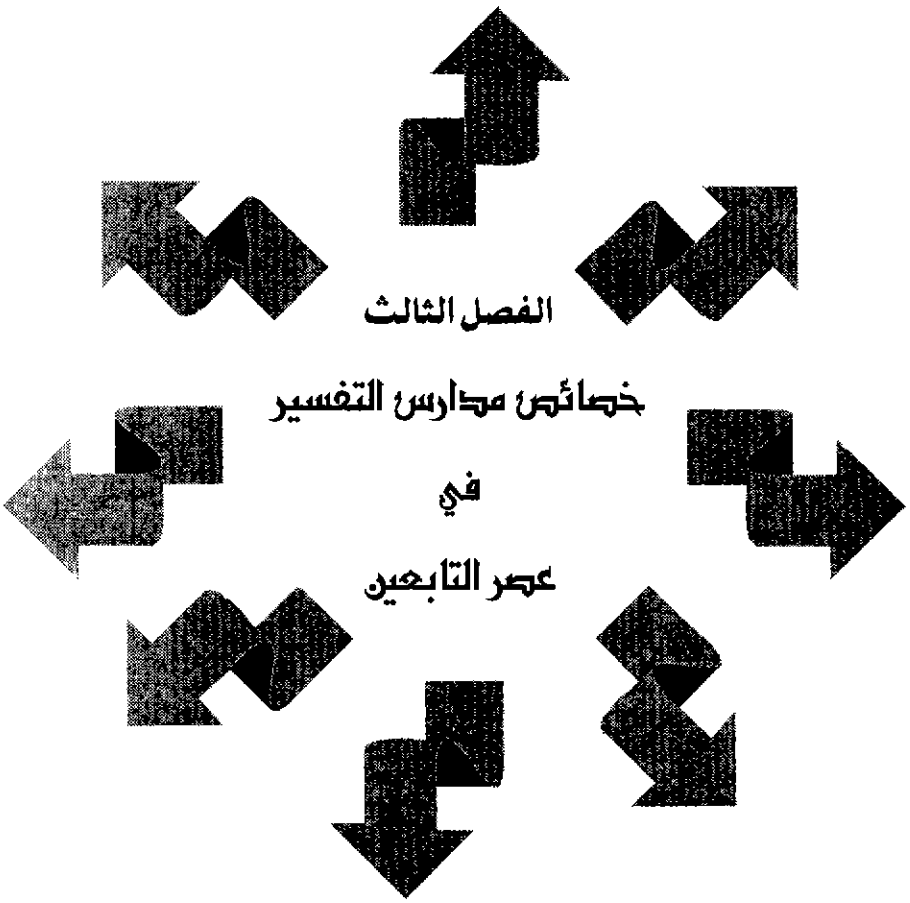

الفصل الثالث

خصائص مدارس التفسير

في

عصر التابعين

الفصل الثالث

خصائص مدارس التفسير في عصر التابعين

لاشك أن القول بتعدد المدارس يستلزم ضرورة القول بتعدد المناهج ، واختلاف المسالك والمشارب، فلكل مدرسة سماتها وخصائصها التي انفردت بها أو اعتنت بها اعتناءً أكثر من اعتناء غيرها، لذلك استحقت أن تكون مدرسة قائمة بذاتها، وإلا فإن مجرد الاختلاف المكاني ليس له كبير اعتبار في هذا الصدد.

وفي هذا الفصل أحاول تحديد تلك السمات والخصائص في منهج كل مدرسة، وبدهي أن هذا لا يعني البحث عن حدود وحواجز تمنع من التقاء مدرستين أو أكثر، فهذا لا يمكن تصوره في مدارس تتوارد على علم واحد، وهو علم التفسير، المتعلق بكتاب واحد، هو كتاب الله تعالى. إلا أن هذا التداخل والاشتراك لا يمنع من القول بوجود تمايز وتباين بين مدرسة وأخرى، وأشبه ما يكون ذلك بالإنسان، فإنك تجد قدراً مشتركًا من الصفات والسمات بين جميع أفراده، وذلك ليس بحائل دون وجود خصائص ومميزات تفصل بين إنسان وآخر، وهكذا الشأن في المدارس.

كما أننا نلاحظ تعدد المناهج والخصائص في المدرسة الواحدة ، إلا أن أوجه الاتفاق تمثل القدر الأكبر، وبجمع تلك الأوجه، وضم الأشباه والنظائر، يمكن إبراز السمات والخصائص لكل مدرسة على حدة.

* * *

خصائص المدرسة المكية

المدرسة المكية مدرسة عظيمة النتاج، نقل إلينا من علمهم الشيء الكثير، حتى لقد فاق المنقول عنها ما نقل عن سواها من المدارس، وقد تميزت بخصائص كثيرة، انفردت في بعضها عن المدارس الأخرى، وهذه هي محل البحث والدراسة، وقد تحصل لي من هذه الخصائص ما يلي :

١ ـ كثرة الاجتهاد والاستنباط.

٢ ـ التخصص في علم التفسير.

٣ ـ اهتمام أصحابها بالعلوم الأخرى مقارنة بالتفسير.

٤ ـ التوسع في الإسرائيليات.

وفيما يلي بيان لهذه الخصائص :

الخصيصة الأولى : كثرة الاجتهاد والاستنباط :

تفسير القرآن مطلب مهم، وغاية قصوى؛ لأنه كتاب هداية وحكمة ونور، والتفسير هو شرح لمراده سبحانه، وتطبيق لأوامر الشرع ونواهيه، ولقد حفلت المصنفات في علوم القرآن بكثير من الآثار والروايات، تحذر من خوض غمار التفسير، إلا لمن هو أهل؛ لأن من قال في القرآن برأيه، وعلى غير هدى فليتبوأ مقعده من النار.

ومن الملاحظ أن هذه الآثار، أو أكثرها، التي تحذر من الخوض في التأويل، مدارها على رجال المدرسة المدنية، والكوفية، في حين قلّ المروي عن المكيين في ذلك، فكثر في المقابل عندهم الاجتهاد، والاستنباط.

وقد يلحظ الباحث أسبابًا أخرى لهذه الكثرة في المنقول، اجتهادًا عنهم، لعل أبرزها هو شخصية شيخ المدرسة حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -.

فلقد كان ترجمان القرآن ابن عباس ممن فتح الله عليه؛ استجابة لدعوة نبينا محمد ﷺ، عندما دعا له بالفقه، والحكمة، ولقد أعمل - رضي الله عنه - الفكر والاستنباط في استخراج المعاني العظيمة، والاجتهادات القيمة من الآيات، ولا أدل على ذلك من قول شقيق بن سلمة، قال: خطب ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة البقرة، فجعل يقرأها ويفسرها، فجعلت أقول: ما رأيت، ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت[1].

أضف إلى ذلك ما حباه الله من قوة حافظة، وذكاء فطري، ونظر ثاقب، كل هذا أثر في شخصية الآخذين عنه.

وإذا عرفنا أن ابن عباس - رضي الله عنه - لم يكتف فقط بإلقاء العلم على تلاميذه؛ حتى أضاف إلى ذلك المنهج التربوي[2]. اتضح لنا بذلك مدى الأثر الذي تركه في نفوس المكبين من تلامذته، بل وسواهم ممن تتلمذ عليه من أهل الآفاق كأبي العالية، وغيره.

لقد كان ابن عباس يأمر أصحابه بالانطلاق في الاجتهاد، والتصدي لإفتاء الناس بما علموه منه وسمعوه، فقد ذكر سعيد بن جبير أنه لما جلس مع ابن عباس، وجاء سائل أمر ابن عباس سعيدًا أن يفتيه بحضرته مدربًا له ومربيًا على الاجتهاد، في حين توقف التابعون عن الفتيا بحضرة شيوخهم في سائر المدارس التفسيرية الأخرى.

---

(١) وقد سبق تفصيل ذلك، وإيراد العديد من النصوص المبينة لمدى علمه بالتأويل وتقدمه فيه - رضي الله عنهما - يُنظر ص (٣٨٣).

(٢) سبق بيانه في ترجمته - رضي الله عنهما - ص (٣٩٠).

وثمة أمر آخر، وهو أن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أكثر من التفسير في حين أن شيوخ المدارس الأخرى كانوا يتحاشونه في الجملة ولم يفسحوا المجال لتلاميذهم للانطلاق، فقلَّ المروي عنهم في ذلك، أما المكيون وخصوصًا مجاهدًا، وعكرمة، وسعيد بن جبير، فقد انطلقوا يقيسون مالم يسمعوا على ما سمعوه، بل وفتح ابن عباس لهم باب الحوار والنقاش، بعد أن اطمأن إلى تحصيلهم وأهليتهم، فجعلوا يراجعونه ويعارضونه مما شجعهم على التوسع في مجال الاجتهاد.

لقد كان ابن عباس، نِعْمَ المربي ـ رضي الله عنه ـ فلقد كان ذا شخصية فريدة في زمانه، قال يومًا لأصحابه: أتدرون ما ذهاب العلم من الأرض؟، قلنا: لا، قال: أن يذهب العلماء[1].

فلا غرو إذًا أن يكون لهذا التوسع في الاجتهاد في المدرسة المكية، وبعدها البصرية، الأثر البالغ على مدارسهم، فقد سد هذا التوسع كثيرًا من الحاجة الملحة في طبقة التابعين في تينك المدرستين، ولذا نجد أن أتباع التابعين في مكة والبصرة اقتصر دورهم على الرواية، والنقل، إذ لم يدع لهم شيوخهم بابًا للاجتهاد إلا وسبقوهم إليه.

أما المدارس التي تورعت فقد كان لهذا الإحجام على الاجتهاد أثره في طبقة صغار التابعين، وتابعيهم، إذ توسعوا وكثرت أقوالهم تبعًا لكثرة الحاجة لمعرفة وبيان معاني كثير من الآيات، فتوسع السدي، وبعده الضحاك في الكوفة، ومثلهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في المدينة وغيرهم.

ولقد ظهرت قوة اجتهاد واستنباطات مدرسة التابعين المكية في نواحٍ كثيرة منها:

---

(١) العلم لأبي خيثمة (١٢١).

١ ـ الدقة اللغوية :

لقد فاقت هذه المدرسة سائر مدارس التابعين في الدقة اللغوية، وسيأتي أن لمدرسة البصرة جانبًا مهمًا في استعمال الفصيح، والبليغ من اللغة، وأن المنقول عن الحسن البصري ـ إمام المدرسة ـ أكثر من غيره مطلقًا، إلا أن هذا المنقول لم يستوعب جميع الآيات، في حين أن المنقول عن مجاهد مثلاً يعتبر أقل بكثير من المنقول عن الحسن إلا أنه استوعب الغريب كله في القرآن.

يقول السيوطي: وأولى ما يرجع إليه في معرفة الغريب، ما ثبت عن ابن عباس، وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب غريب القرآن[١].

وقد جاء بناء عليه أكثر تفسير غريب مفردات القرآن عن المدرسة المكية[٢].

وثمة شيء آخر تميزت به المدرسة المكية، وهو الدقة في التفريق بين المفردات القرآنية، والكلمات المتشابهة، فمجاهد مثلاً عندما يتعرض لتفسير (الربانيين) يربطها بكلمة أخرى، ويبين النسبة بينهما، فيقول: الربانيون: الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار.

فلم يكتف ـ رحمه الله ـ ببيان معنى (الربانيين) حتى بين نسبتهم للأحبار، أي: أنهم أعلى منهم شأنًا، وقدرًا.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿**والأرض ذات الصدع**﴾، قال: الصدع مثل المأزم غير الأودية والجرف.

---

(١) الإتقان (١/ ١٥٠).

(٢) جاء (٤٦, ٠) من مجموع المروي عن مشاهير التابعين عن المدرسة المكية، في حين بلغ عن البصرية (٣٨, ٠) من مجموعه، ولم يزد في الكوفية عن (١٤, ٠) وعند المدنية بلغ (٠٢, ٠) فقط.

وهنا نلحظ الدقة ؛ لأن المأزم هو الطريق بين جبلين، وقد يكون واديًا أو جرفًا أو غير ذلك، فبين ـ رحمه الله ـ أن الصدع هو ما كان كذلك ولم يكن واديًا ولا جرفًا[١] .

وعند قوله سبحانه: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾[٢] .

قال مجاهد: (فأتوهن من حيث أمركم الله)، أمروا أن يأتوهن من حيث نُهوا عنه[٣] .

٢ ـ معالجة مشكل القرآن :

تميزت المدرسة المكية بدخولها في مجال المشكل، والمشكل علم صعب المنال، بعيد الغور، لا يلج بحره إلا العلماء الأفذاذ، ومع كثرة علوم التابعين وغزارتها، إلا أنهم لإحجامهم عن التوسع في الاستنباط اقتصروا على تفسير اللفظ، وبيان المعنى العام، أما المكيون فلخوضهم غمار الاستنباط والاجتهاد تعرضوا لذلك، وأكثروا[٤] .

فنجد مثلاً مجاهدًا يوجه الإشكال الذي عرض لقوله تعالى: ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾، بأنه أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهن سفاحًا[٥] .

وعند قوله سبحانه: ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾[٦] ، قال ـ أيضًا ـ : منافعهما قبل أن يحرما[٧] .

---

(١) وقد سبق ذكر العديد من الأمثلة في ترجمة مجاهد ص (٩٧، ١٢٢).

(٢) سورة البقرة: آية (٢٢٢).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٣٨٩) ٤٢٨٢ .

(٤) في كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ورد أكثر من (٢٠) أثرًا عن مجاهد، في حين كان نصيب الحسن (٤) آثار، وأما قتادة، وابن جبير فلم يرد عنهما إلا أثران. وعمومًا فإن المكيين من أكثر التابعين تعرضًا لمشكل الآيات.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٤١٤) ١٨٣٧٦ .

(٦) سورة البقرة: آية (٢٨٩).

(٧) تفسير الطبري (٤/ ٣٢٨) ٤١٣٦ .

وعند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾[١] قال: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾[٢].

وعند قوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٣]، وجه مجاهد معنى الإسلام هنا فقال: هو كقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[٤].

٣ ـ تفسير آيات الصفات:

لقد نحت المدرسة المكية منحىً انفردت به عن باقي المدارس في باب الاجتهاد، ألا وهو تعرضها لآيات الصفات، ونحوها، بالتفسير والشرح، وهي مدرسة سلفية النزعة، أثرية المنهج، ولما كان التابعون كلهم بحمد الله على هذا المنهج، لم يكن إثبات الصفات ميزة للمدرسة المكية، وإنما الذي تميزت به هذه المدرسة، هو تعرضها لتفسير آيات الصفات تفسيراً واضحًا لا غموض فيه، ولا لبس، في حين تهيب أصحاب المدارس الأخرى من الخوض في ذلك، فاقتصر المنقول عنهم على الإثبات، وإمرارها كما جاءت، فإنهم لما كانوا قد تورعوا عن الاجتهاد في سائر الآيات، كان تورعهم في آيات الصفات أشد.

ولما كان المتعرض لتفسير آيات الصفات يحتاج أحيانًا إلى عبارة تبين اللازم من الآية، فقد جاء في تفسير الآيات عند المكيين ما يوضح هذا اللازم ويقرره، حتى يظن من لا كبير علم له أنه تأويل للصفة، وليس الأمر كذلك[٥].

---

(١) سورة آل عمران: آية (٥٢).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤٤٩) ٧١٢٣.
(٣) سورة آل عمران: آية (٨٣).
(٤) سورة الزمر: آية (٣٨)، والأثر أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٦٥) ٧٣٤٢.
(٥) والكلام حول هذه المسألة يطول، وسوف يأتي بيانها مفصلاً ـ إن شاء الله ـ في مبحث منهج آيات الاعتقاد ص (٧٨١).

٤ ـ اتساع دائرة التفسير :

لقد كان التفسير مقتصراً على المنقول وما يضم إليه من علم بالعربية والآثار والسير، ولم يكن ثمة من يجرؤ على مخالفة هذا المنهج للآثار المحذرة من القول في القرآن بلا علم، فلما قام الحبر الأعظم ابن عباس بتدريس القرآن منهج علم، وهداية، وظهر الأثر الحميد لذلك في الناس، اتجهت الأنظار حينئذ إلى لون جديد من ألوان التفسير، وهو التفسير المبني على الاستنباط ، والاجتهاد، ولاسيما وقد اتسعت معارف العرب، وخالطوا أهل الكتاب، وتنوعت ثقافاتهم، فبدأ المفسرون يعملون فكرهم في الآيات، ولقد كانت المدرسة المكية ـ كما سبق قريباً ـ رائدة ذلك الأمر للأسباب التي أسلفتها، إلا أن بعضهم دفعه هذا المنهج إلى مخالفة ظاهر القرآن القريب لما يعرض له من الحجة، والاجتهاد.

وليس مخالفة ظاهر القرآن القريب مقتصراً على المدرسة المكية، فإن هذا قد وجد أيضاً في المدرسة البصرية، فقد خالف الحسن ظواهر بعض الآيات، لكن الباعث ليس واحداً، فمخالفة أهل البصرة كان سببها غلبة الجانب الوعظي عليهم كما سيأتي بيانه[1]، أما مخالفة المكيين، فكانت بسبب الاجتهاد، والاستنباط، وقد سبقت بعض الأمثلة لذلك[2].

وبذلك خرج علم التفسير من دائرة ما يسمى التفسير الأثري إلى دائرة أخرى امتزج فيها النقل بالنظر، وعدها بعض المصنفين بداية التفسير العقلي[3]، وهذا المصطلح وإن كان قد حدث له بعد ذلك ما يعيبه ويشينه، إلا أن المقصود به آنذاك هو الخروج عن مقتضى التفسير القائم في ذاك العصر، ولا معارض لذلك فيما أعلم.

---

(١) سيأتي ذلك ص (٥٧٤).

(٢) عند الحديث عن ترجمة مجاهد ص (٩٣)، وعكرمة ص (١٥٩).

(٣) انظر دراسات في التفسير ص (١١٧)، وكتاب القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص (١٩٧).

وعلى كلٍ فقد اختصت المدرسة المكية بهذه الخصيصة وامتازت بها عن باقي المدارس الأخرى، وهذا بين واضح، والله أعلم.

الخصيصة الثانية: التخصص في علم التفسير:

التخصص ظاهرة عصرية نسبيًا، والمراد بذلك أن العالم أو الباحث يأخذ بطرف من علوم كثيرة، مع التميز، والاعتناء بعلم واحد، أو فرع واحد من العلوم، وهذا هو الذي درجت عليه النظم الحديثة في التعليم.

وهذا التخصص يتيح الفرصة الأكبر للإبداع والعطاء؛ لأن العلوم جميعها لا يمكن أن يحيط بها إنسان واحد، والأعمار أقل من أن تمنح هذا العطاء الواسع، واحتياجات الأمم تتنوع في شتى العلوم، والفنون.

والتخصص لم يكن بعيدًا عن العهد الأول، فأعلم الناس بالحلال والحرام معاذ، وأفرض الصحابة زيد، إلا أن التخصص في التفسير وعلوم القرآن لم يظهر بصورة واضحة إلا على يد المدرسة المكية التي صرفت همتها، واستفرغت وسعها في كتاب الله تعالى شرحًا، وبيانًا، وتوضيحًا، وتفسيرًا، ولغة، وفقهًا، وهذا الاهتمام الواسع أقعدهم عن مسابقة الأقران في علوم أخرى من وجه، ودفع بهم إلى المقدمة في التفسير، وعلوم القرآن من وجه آخر، فبزوا الأقران في ذلك، وكثر المنقول عنهم فيه، أكثر من غيرهم في الجملة.

ولما كان علم التفسير يحتاج إلى علوم أخرى خادمة له، نجدهم قد تخصصوا أيضًا في هذه العلوم التي تخدم علم التفسير، وتسير في ركابه.

وأدى بهم هذا التخصص إلى أن تعرضوا، وتوسعوا في فروع من علوم القرآن لم يتوسع فيها أحد قبلهم.

فمن ذلك: علم الأشباه والنظائر، وهو الذي يبحث في الآيات المتناظرة التي يشبه

بعضها بعضًا في دلالة الأحكام والبيان، وهذا لا يستغني عنه مفسر، حتى لا يختلف قوله في موضعين من باب واحد.

وقد يسمى أيضًا بكليات القرآن، وهو منهج استقرائي دقيق يدل على سعة علم صاحبه، وخبرته التامة بالآيات، فمن أمثلة ذلك ما جاء عن ابن عباس أن كل شيء في القرآن عسى، فإن عسى من الله واجب[١].

أو ما جاء عن مجاهد وهو قوله: (كل ظن في القرآن فهو علم)[٢].

وهذا المنهج الاستقرائي من الدقة بمكان، وهو يساعد كثيرًا على فهم التفسير، ولم يخض في خضم هذا العلم في عصر التابعين - كما أسلفت آنفًا - إلا أئمة المدرسة المكية نتيجة لتخصصهم.

وكما أضفى التخصص على هذه المدرسة ثوبًا من الاستعراض العلمي والاستيعاب ما ليس لغيرها من المدارس فهي من أوائل المدرسة التي قامت بعد حروف القرآن وكلماته[٣].

كما أن أقوالها في الغريب قد استوعب كامل القرآن، وقد اعتنى أصحاب هذه المدرسة ببيان الألفاظ (المعربة) في القرآن، فقد تبنوا هذا المذهب.

فعن مجاهد، وعكرمة.. إن في القرآن من غير لسان العرب.

وعن سعيد بن جبير قال: ما في الأرض لغة إلا أنزلها الله تعالى في القرآن[٤].

وقد ساعدهم في معرفة ذلك اختلاطهم بالوافدين من الحجاج، كما أن للموقع

---

(١) سيأتي بيانه وتفصيله ص (١٠٣٦).
(٢) ينظر ترجمة مجاهد ص (١٢٠).
(٣) ترجمة مجاهد ص (١٢٨).
(٤) فنون الأفنان (٣٤١).

الجغرافي لمكة ـ ملتقى الشرق بالغرب ـ ما يجعلهم يسمعوا العديد من لغات الناس، ويتعلموا عنهم تلك الكلمات؛ فحملهم هذا على تفسير (المعرب) من القرآن[١].

ولقد بلغت في هذا شأواً بعيداً لم تبلغه مدرسة أخرى، وقد اهتموا أيضًا ببيان المبهمات الواردة في القرآن وتفسيرها، وقد يكون في ذلك نوع من التكلف أحيانًا، لعدم ثبوت الرواية فيها، وقد تكون من الإسرائيليات، إلا أنه يبقى لهم السبق في هذا الاستيعاب الذي شمل غالب القرآن[٢].

فكثرة المروي عنهم بالنسبة لغيرهم في الأشباه والنظائر (الكليات) والغريب، والمعرب، والمبهمات، وغيرها، دليل واضح على تفرغهم للتفسير، والتخصص فيه، حيث تعرضوا، وأكثروا في هذه العلوم والفنون، وكدوا فيها الفهوم، لمعرفة أشرف معلوم.

الخصيصة الثالثة: قلة اهتمام أصحابها بالعلوم الأخرى مقارنة بالتفسير:

إن هذه الخصيصة تكاد تعتبر نتيجة لخصيصة التخصص، وإنما أفردتها بالذكر؛ لتتضح لنا صورة المدرسة المكية من جميع جوانبها.

فلقد كان أئمة هذه المدرسة تميزوا بالسبق في علم التفسير، وخاصة مجاهد، وعكرمة، ثم ابن جبير، بل إن عطاءً الذي نقلت عنه فتاوى فقهية دقيقة، كان جل علمه الفقهي في الحلال والحرام مختصًا بمسائل الحج، فهو لم يخرج من حيز التخصص، فقد كان المكيون أكثر الناس تعرضًا لآيات الحج، مما أكسبهم فقهًا دقيقًا في

(١) بعد مراجعة كتاب المهذب في بيان المعرب للسيوطي، وجدت المروي عن ابن عباس (٥٥) رواية، وعن عكرمة (٢٤) رواية، وعن سعيد (٢٢) رواية، وغيرهم دونهم في ذلك.

(٢) بعد تتبع المروي في كتاب مفحمات الأقران في مبهمات القرآن للسيوطي، نجد أن المنسوب لأعلام المدرسة المكية في ذلك (مجاهد، وعكرمة، وابن جبير) هو (١٣٦) قولاً، في حين جاءت المدرسة البصرية في المرتبة الثانية حيث نسب للحسن وقتادة (٩٠) قولاً فقط.

مسائل الحج، وهذا أمر ضروري تستدعيه الحاجة إلى إفتاء الناس الوافدين من حجاج ومعتمرين على مكة في كل وقت وموسم، ولاشتغالهم به حث الأئمة على أخذ المناسك عن المكيين[١].

يقول ابن عيينة: خذوا المناسك عن أهل مكة، والقراءة عن أهل المدينة، والحلال والحرام عن أهل الكوفة[٢].

وتقول عائشة في شيخهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أعلم من بقي بالمناسك[٣].

وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة عند تناول منهج التابعين في آيات الأحكام إن شاء الله[٤].

والمقصود هنا بيان قلة المروي عنهم في غير التفسير.

ومن العجيب أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان علمًا في علوم شتى من فقه، وتفسير، وعربية، وغيرها، ومع ذلك فلم ينقلوا عنه في علم مثل ما نقلوا عنه التفسير، فقد تأثروا به، وساروا على منهجه في التفسير دون غيره[٥].

الخصيصة الرابعة: التوسع في الإسرائيليات:

مما يبدو واضحًا للمطالع في كتب التفسير أن المدرسة المكية أكثر المدارس تساهلاً في الرواية عن بني إسرائيل[٦]، وبدأ هذا المنحى عن شيخ المدرسة ابن عباس ـ رضي الله

(١) البداية (٩/ ٢٧٦).
(٢) معجم البلدان (٤/ ٤٩٣).
(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٦).
(٤) سيأتي ذلك في ص (٨٤٥).
(٥) كما سبق بيانه في ترجمته ـ رضي الله عنهما ـ ص (٣٨٧).
(٦) بلغ نسبة المروي عن مشاهير المكيين في الإسرائيليات (٣٥,٠) من مجموع الآثار المنقولة عن =

عنهما ـ حيث تعرض للنقل والرواية عن كعب الأحبار، مستدلاً في ذلك بحديث إباحة الحديث عن بني إسرائيل (كما سيأتي بيانه)[١]، وقد درج على هذا الأمر تلامذته وأصحابه (سعيد ومجاهد وعكرمة)، فتوسعوا في النقل عن أهل الكتاب.

وكان هذا ـ أيضًا ـ دأب كل من كان مكي المنهج، والمشرب؛ وإن لم يكن من قاطنيها، يدلك على ذلك ما تراه جليًا في تفسير أبي العالية، والسدي.

وبهذا تكون المدرسة المكية قد أدخلت هذا العنصر الإخباري في مجال التفسير؛ لفهم محتوى النص، وما يتبعه من عرض للتاريخ، وكشف لأحوال الأمم السابقة للعظة والعبرة، وهذا كله لم تشاركها مدرسة أخرى فيه، وقد عد ذلك بعض الباحثين بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور التفسير، انتقل فيها من التفسير الأثري الذي يعتمد على الرواية، إلى التفسير الأثري النظري الذي يعتمد على الرواية والدراية، وتلك نقلة مهدت لظهور التفاسير الجامعة التي ظهرت في القرنين الثاني، والثالث، على يدي يحيى بن سلام، ومحمد بن جرير الطبري[٢].

* * *

= التابعين، كما بلغت نسبة المروي عن الناقلين لتفسير ابن عباس المتأثرين بمنهج ابن عباس (٣٦, ٠) من مجموع الآثار المنقولة عن التابعين من الإسرائيليات، (وأعني بهم السدي، وأبا العالية، وغيرهم) أي: إن مجموع ما روي عنهم (٧١, ٠) من مجموع المنقول في الإسرائيليات.

(١) سيأتي مبحث الإسرائيليات، إن شاء الله تعالى ص (٨٧٥).

(٢) دراسات في التفسير وأصوله (٧٣).

خصائص المدرسة البصرية

تميزت المدرسة البصرية بخصائص كثيرة أدت إليها عوامل شتى، وقد حاولت في هذا الفصل أن أستعرض أهم الخصائص التي تميزت بها، مركزاً في كثير منها على المقارنة بينها وبين غيرها من المدارس، ولاسيما صنوها المدرسة الكوفية التي كانت تحاذيها في المكان.

وقد تحصل من هذه الخصائص ما يلي:

الخصيصة الأولى: الجوانب اللغوية:

المقصود بهذا: بيان تقدُّم هذه المدرسة على غيرها من المدارس في تخير الأساليب البلاغية، وانتقاء العبارات الجميلة عند الإفصاح عن تفسير الآيات، وما يدخل تحت هذا من جودة سبك العبارة، ولطافة الأسلوب، وهذه الخصيصة، وإن كان يشاركها في شيء منها بعض المدارس الأخرى؛ إلا أن اجتماعها بهذا الوضوح والشمول، لم أجده في غير مدرسة البصرة، ولعل ذلك راجع إلى ما يأتي:

أ- أن البصرة سبقت مدائن العالم الإسلامي في وضع قواعد النحو، حتى إنها سبقت قرينتها الكوفة التي كثيراً ما تقرن بها في جانب النحو، فيقال: (مذهب البصريين، ومذهب الكوفيين)؛ لأن الكوفة كانت بعيدة عن الحركة التجارية الواسعة التي كانت تعج بها أسواق البصرة، والتي أدت إلى اختلاط اللسان العربي بغيره من اللغات، ولاسيما اللغات التي كانت منتشرة في الهند، والمشرق، في حين كانت الكوفة مقراً للعنصر العربي ولم يحصل لها هذا الاختلاط، فحافظ ذلك على

لسانها[١].

وكان من المتوقع ـ والحالة هذه ـ أن يتقدم الكوفيون على البصريين في اللغة، إلا أن العكس هو الذي حدث؛ لأن أهل البصرة لما شعروا بخطورة هذا الاختلاط على اللغة، بادروا فقعدوا القواعد التي من شأنها حفظ اللسان والتزموا بها في غالب مناحي الفكر، وعامة نتاج العقل، حفظًا للسانهم من الدخيل الوارد؛ ولأجل هذا نجد أن هذه الخصيصة اللغوية تعدت إلى غير التفسير من العلوم الأخرى.

ب ـ لقد عاش في البصرة الكثير من الموالي الذين دخلوا في الإسلام طواعية، وأحبوا لغة القرآن وتأدبوا بها، ورأوا تقدمها على لغاتهم الأصلية، وألسنتهم الأولى، فانكبوا على دراستها والاعتناء بها، بل وتقيدوا بها في أمورهم العامة والخاصة، لما شعروا بحاجتهم إليها واعتماد فهم الدين، واستنباط الأحكام على هذه اللغة العظيمة.

وظهر ذلك في نبوغ الكثير من الموالي في مجال اللغة والأدب، فإذا ذكر النحو مثلاً انصرفت الأذهان إلى سيبويه، وإذا ذكر الوعظ والعبارات الوعظية المؤثرة، أسرع إلى المخيلة اسم الحسن البصري، وهكذا يحاول الإنسان دائمًا أن يعوض ما فقده مما يحبه، ويقدمه على غيره، فلما أحب الموالي الإسلام ولغة القرآن اشتغلوا بها، كما أنه لما أحب العرب الجهاد تفانوا فيه، وقد ترتب على هذه المحبة أن تشدد البصريون في شأن القياس اللغوي، فصاروا لا يقيسون إلا على ما كثر، ولا يقيسون على الشاهد الواحد، ولا النادر، في حين لم يتشدد الكوفيون ـ وهم عرب أقحاح ـ مثل هذا التشدد، فيقيسون على ما ورد، ولو نادرًا، ويقيسون على الشاهد الواحد، ولو لم يأت في الباب غيره[٢].

جـ ـ لقد ساعد موقع البصرة الجغرافي من اتصال البصريين بأهل اللسان، والنهل

(١) كتاب الشافعي لأبي زهرة ص (٥٧).

(٢) ينظر مقالة بيئة البصرة من مجلة الأزهر العدد (١/ محرم سنة ١٣٦٦ هـ) ص (٨٦).

من معين العربية الأصيل، ألا وهم الأعراب الذين كانوا يفدون على البصرة من الجزيرة للتجارة وغيرها، فصارت منتديات البصرة الفكرية مرتعًا واسعًا للتباري في اللغة.

يقول الرياشي البصري - وهو يصف الفرق بين المنبع البصري في اللغة والمنبع الكوفي -: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء يأخذون اللغة عن أهل السواء أصحاب الكواميخ، وأكلة الشواريز[1].

يقول اليزيدي البصري وهو يلمز أهل الكوفة.

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول

فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قطربل

فكلهم يعمل في نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلي

إن الكسائي وأصحابه ... يرقون في النحو إلى أسفل[2]

د- وثمة عامل آخر مهد الطريق أمام البصرة للريادة اللغوية والتقدم في الخصائص التي تعنى بهذا الجانب، ألا وهو الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي أضفى ظلالاً على أهل البصرة، فزاد نتاجهم، وغزرت مادتهم.

فقد صار ما يشبه الاندماج بين العناصر المختلفة، عربية وغير عربية، وتلاشى الكثير من الفوارق بين الطبقات، ولم تحفل بالثورات السياسية، التي كانت تعج بها الكوفة[3].

---

(١) الكواميخ جمع كامخ: نوع من الأدم، معرب. ينظر اللسان (٣/ ٤٩)، والشواريز جمع شيز، والشيز خشب أسود تتخذ منه الأمشاط وغيرها، الشيزي: شجر تعمل منه القصاع والجفان. ينظر اللسان (٥/ ٣٦٣).

(٢) انظر مقالة بيئة البصرة (٨٧).

(٣) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة (١٤).

ولا غرو حينئذ أن نجد الحسن البصري قد نشأ، وعاصر أحداث الفتن والثورات منذ مقتل عثمان، ثم لم تتلطخ يده ولا لسانه بشيء من ذلك، بل كان ينهى عن الدخول في الفتن، مما جعل أمر الناس مستقراً، فانصرفوا للعلوم.

ومن هنا نجد أن هذه الحقيقة قد ساعدت في تقدم البصريين في علوم شتى، ومنها اللغة، والتفسير[١].

وبهذه الأسباب وغيرها، ظهرت البصرة منارة في أفق علوم اللغة تشع على سائر الأقطار نور العلم والهداية، وقد قامت البصرة بعبء هذا العلم من نشأته حتى استوى على سوقه، ومرّ زمن طويل قبل أن تشارك الكوفة فيه، وهي إنما أخذته من البصرة[٢].

ومهما يكن من شيء فقد سبق العراق سائر أقطار الإسلام، وسبقت البصرة خاصة سائر أمصار العراق في وضع النحو، وذهبت بفخر ذلك، وكان لها السبق والتقدم، وكان لعلمائها الفضل في ابتداء النحو وتبويبه، ووضع قواعده، وتفريع فروعه.

ولا يخفى أن أول من وضع العربية من العلماء هو أبو الأسود الدؤلي البصري، الذي صار علماً على العربية، وما زال الناس يلهجون بالثناء عليه، ومن ثم نبغ في البصرة بعده كثير من علماء اللغة، فبرز من الموالي بها: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي قيل فيه: إنه أول من علم النحو ومد القياس. وتتلمذ عليه عيسى بن عمرو الثقفي شيخ الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض، ثم أخذ عن الخليل سيبويه، وعنه روى جل ما أودعه في الكتاب[٣].

---

(١) سبق تفصيل ذلك في مبحث المدرسة البصرية، في أسباب كثرة المروي عنها ص (٤٥١).
(٢) فهرست ابن النديم ص (٩٦).
٣) ينظر مقالة بيئة البصرة، في مجلة الأزهر ص (٨٣).

وإذا كان لنا وقفة لبيان مكانة البصرة النحوية، فإنها تكون مع سيبويه؛ فلقد وضع كتابه (الكتاب)، وقد أحاط فيه بقواعد النحو وأصوله، وكثير من فروعه، وعلله، وحكمة الواضع فيما وضع، وكثير من أقيسته، وقد سار الكتاب سير الشمس في جميع الأقطار الإسلامية، واشتغل الناس به درسًا، وتمحيصًا، وفهمًا، وشرحًا، واختصارًا، بل إنه لم يخدم كتاب في العربية مثل ما خدم كتاب (الكتاب) لسيبويه، وقد كان العلماء المتقدمون لا يرونه يعلم النحو فقط، وإنما يعلم الابتكار والاستنتاج أيضًا، وقد كانوا يستكثرون على قدرة عالم واحد أن ينتج مثل (الكتاب) فتخيلوه لاثنين وأربعين عالمًا، قال ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا منهم سيبويه[1].

وقد تكون هذه مبالغة، إلا أن هذا الأمر على فرض وقوعه، فهو يدل على تقدم علماء البصرة في النحو حتى اجتمع منهم أكثر من أربعين نفسًا، وهو عدد كبير له دلالاته وأبعاده[2].

وقد برزت الخصيصة اللغوية في النتاج الكثير المنقول عن المدرسة البصرية في التفسير، فامتلأت تفسيراتهم بالعبارات الجزلة، والألفاظ الفصيحة، بل إن الإنسان قد يصيب كبد الحقيقة إذا قال: إن اللغة حفظت من جانب المدرسة البصرية أكثر من باقي المدارس مُجتمعة.

ومما يدل على ذلك أن المروي عن المدرسة البصرية في كتب غريب الحديث والمعاجم أكثر بكثير من باقي المروي عن المدارس مجتمعة، فقارب ما روي عن الحسن وحده مجموع ما روي عن المكثرين غيره في المدارس الأخرى، كما تقدم الإشارة إليه

(١) ينظر مقالة بيئة البصرة ص (٨٤)، ومدرسة الحديث في الكوفة (٦٠).
(٢) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة (٣٦).

في ترجمة الحسن ـ رحمه الله[١] ـ.

ثم إن تناول المدرسة البصرية للغريب والفصيح، كان تناولاً دقيقًا جميلاً، فتميزت بهذا ـ أيضًا ـ المدرسة البصرية عن غيرها.

فالإمام مجاهد ـ مثلاً ـ درج على النمط العلمي في تفسير الغريب، بأن يبين للكلمة المعنى المرادف، أو الموافق، ونحوه، ويقتصر على ذلك، في حين أن التابعين من البصرة كانوا يضعون معنى الكلمة الغريبة في قالب أدبي، وأسلوب رشيق، بعبارة وعظية، أو أدبية راقية. والناس تميل نفوسهم لمثل هذا البيان المؤثر، ولذا تناقل الناس الغريب والفصيح، عن البصرة أكثر مما تناقلوه عن غيرهم، حتى إننا لنجد كتب الأدب تعتمد على كلامهم أكثر من سواهم، فمجموع ما روي عن الحسن في (عيون الأخبار، والعقد الفريد، والبيان والتبيين) كان أكثر مما روى عن غيره من التابعين مجتمعين كما سبق ذكره[٢].

هذا حال البصرة في مجال اللغة، فإذا انتقلنا إلى المدارس الأخرى، فإننا نلمح اختلافًا بينًا عن المدرسة البصرية، فلقد قيل مثلاً عن عطاء ـ وهو من أئمة المدرسة المكية ـ: إنه ضعيف في اللغة، وكان النخعي شيخ الكوفة يلحن، حتى لو سمعته يقرأ لقلت: لا يحسن شيئًا، وها هو إسماعيل بن أبي خالد راوية الشعبي يلحن اللحن الفاحش فيحدث (بقوله عن أبو . . .) وهكذا، وقلَّ أن نجد مثل هذا في المدرسة البصرية.

ولذا فقد امتازت البصرة بهذه الخصيصة، وتميزت بها، وصار هذا مشهودًا في ألفاظها، وكلامها وعباراتها، وارتقت به عن غيرها من المدارس.

---

(١) ينظر ص (٢٠٥) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٤٥٠).

الخصيصة الثانية : الجانب الوعظي في التفسير :

ومما تميزت به هذه المدرسة أيضًا، اعتماد أئمتها على الجانب الوعظي في التفسير، وصوغهم عبارات التفسير في قوالب الحكمة والعظة، وصونهم كلامهم عن العبارات الجافة التي لا تؤثر في المخاطب، ولا تهز المشاعر، وتعتبر مدرسة البصرة رائدة المدارس الوعظية التي جمعت بين العلم، وصحة الحديث من جانب، وبين الأساليب الراقية التي تؤثر في الوجدان، وتهيج النفوس، وتشوق الأرواح من جانب آخر، وهذا ما نجده في تفسير الحسن، كما هو في تفسير قتادة.

وللباحث أن يلحظ عدة أسباب، يمكن أن نعتبرها المحور الأساس الذي أثر في اتجاه هذه المدرسة.

فمن ذلك ما عرفت به البصرة آنذاك من الانفتاح التجاري على المشرق، وما أدى إليه ذلك من مظاهر الترف، فصار لزامًا على العلماء والشيوخ أن يدرؤوا هذا الخطر الداهم بتزهيد الناس في الدنيا، وبيان حقيقتها، وأنها معبر للآخرة، ليست بدار إقامة.

وهذا يكاد يكون أمرًا مطردًا في كثير من البلدان التي يتسلل إليها روح التنعم، والدعة.

وقد يرد على هذا أن أهل مكة لا يظهر هذا واضحًا في مناهجهم العلمية، سواء كانت تفسيرًا أو غير ذلك، إلا أنه يمكن القول بأن أهل مكة لم يصلوا في ترفهم ما وصل إليه أهل البصرة، ومن جانب آخر فإن المناخ الجغرافي والحرارة الشديدة في مكة لم تكن تدع النعيم يصفو لأهلها، وعلى كلٍ فالمنهج أغلبي في الجملة.

أما المدرسة المدنية فاستغنت بالوارد عن النبي ﷺ، وكثرة المروي من الحديث فيها، فاتجهت للوعظ بالحديث والأثر، في حين أن المدرسة العراقية التي كان نصيبها من الحديث قليلاً اتجهت فيها الهمم إلى ما روي عن التابعين من مواعظ وآثار فجمعت، وتناقلتها الألسن.

وتبعًا لذلك فقد انتشر الزهد عند العراقيين، وصارت الكتب المؤلفة في الزهد عراقية المبدأ، والمشرب، وظهرت كتب الزهد، لوكيع، وهناد، وابن المبارك، وهي عراقية، في حين قل أن تجد مرويات في الزهد عن أئمة الحجاز (كابن المسيب، والزهري) وغيرهما في عامة كتب الوعظ والرقائق، بل يمكن القول بأن بذرة التصوف (وكان في أول الأمر خاضعًا للزهد فحسب) قد نبتت، وترعرعت في أرض العراق، وفي البصرة بالذات.

وقد يكون من الأسباب أيضًا اتباع أئمة المدارس لشيوخهم. فالمدرسة العراقية كثر في كلامها الزهد أكثر من المدرسة المكية بكثير، وقد يكون ذلك تبعًا لاختلاف المروي عن شيوخ المدارس، فابن مسعود أكثر من ذلك، فكان المروي عنه في كتب الزهد يزيد على ثلاثة أضعاف ما روي عن ابن عباس - رضي الله عن الجميع[1] -.

ومن الأسباب كذلك أن أئمة هذه المدرسة كانت لهم أسباب خاصة أدت بهم إلى هذا الاتجاه، فالحسن - رحمه الله - كما مرّ معنا في ترجمته - نشأ في بيت النبوة، ورضع من أم سلمة، وكان أبواه من القصاص، كما كانت لسكناه البصرة أثرًا من وجه آخر، إذ كانت البصرة متأثرة بأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - في حياة الزهد، كما تأثر كذلك تأثرًا واضحًا بعابد البصرة وزاهدها عامر بن عبد القيس[2]. فدرجت أذنه على

(١) بعد تتبع ما روي في كتب الزهد للأئمة أحمد، ووكيع وابن المبارك وهناد، وجدت المنقول فيها (٣٦٧) أثرًا عن ابن مسعود، في حين كان المنقول عن ابن عباس (١٢٠) أثرًا، وعن أنس (١٢٠) أثرًا، وعن عمر (١٤٨) أثرًا، وعن علي (٦٧) أثرًا، وعن أبي الدرداء (١٣٦).

(٢) كتاب الحسن البصري مفسرًا (١٤).

سماع الموعظة حتى تشرب بها ، ولما فتح الله عليه بالعلم أثر فيه هذا الجانب حتى صاغ جل أساليبه ، ودفع بها في هذا المضمار .

ومن الأسباب كذلك تمكن أصحاب هذه المدرسة من اللغة ، مما جعلهم يتأنقون في تدبيج عباراتهم ، وتخير الكلمات المعبرة ، والتفنن في الألفاظ الفصيحة المؤثرة ، فجاءت حكمهم ومواعظهم كالماء الزلال ، بل هي السحر الحلال ، فلم تقف عند الآذان ، بل ولجت القلوب بدون استئذان .

هذه الأسباب وغيرها هي التي دفعت بهذه المدرسة إلى الجانب الوعظي ، فصار تفسيرها تغلب عليه هذه الصفة ، ودخل فيه أسلوب القص كذلك ، وتوسعت فيه توسعًا ملحوظًا ، فلم يقاربها في ذلك أحد ، ومع أن المكيين قد كان المروي عنهم في التفسير كثيرًا ، إلا أن المروي عنهم في آيات الوعظ ليس كثيرًا ، ثم إن منهجهم في صوغ عباراتهم لم يكن يضاهي منهج الوعظ عند المدرسة البصرية ، بل غلب على عباراتهم البيان الموجز في عبارة علمية معرفية أكثر منها جمالية عاطفية .

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[1] قال : وأتوا به متشابهًا لونه مختلفًا طعمه ، مثل الخيار من القثاء[2] . في حين أنه لما تناول الحسن هذه الآية بالتفسير قال فيها : ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف تُرذلون بعضه؟ وإن ذلك ليس فيه رَذْل[3] .

ومن ذلك ما جاء عن مجاهد في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي

(١) سورة البقرة : آية (٢٥) .

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٩٠) ٥٢٦ ، تفسير عبد الرزاق (١/ ٤١) ، وزاد المسير (١/ ٥٣) ، وأورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى وكيع ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن مجاهد به (١/ ٩٦) ، وفتح القدير (١/ ٥٥) .

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٨٩) ٥٢٠ ، وتفسير عبد الرزاق (١/ ٤٠) ، وزاد المسير (١/ ٥٣) ، وأورده السيوطي في الدر وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن الحسن به (١/ ٩٦) .

﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ . . . ﴾ قال : قوله : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾[١] فليطيعوا ، الاستجابة : الطاعة[٢] .

في حين قال الحسن : اعملوا وأبشروا ، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله[٣] .

وهذا يؤكد مدى المبلغ الذي وصلت إليه المدرسة البصرية والذي لا يدانيه منهج من مناهج المدارس الأخرى ـ سواء كانت من المدارس المكثرة كالمكية أو المقلة كالمدنية[٤] .

وقد غلب هذا اللون من القص والزهد على حلقات العلم في البصرة[٥] ، حتى صارت أكثر الحلقات تعنى بهذا الجانب ، ويقول عبد الله بن عون : أدركت هذا المسجد ـ مسجد البصرة ـ وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم ابن يسار ، وسائر المسجد قصاص[٦] .

فهذا كله مما يؤكد تميز المدرسة البصرية بهذا الجانب الوعظي وتفوقها على مثيلاتها من المدارس التفسيرية .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٨٦) .

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٤٨٤) ٢٩١٣ ، وأورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى ابن جرير عن مجاهد به (١/ ٤٧٤) .

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٤٨٦) ٢٩١٩ ، ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار التالية من تفسير الطبري : ١٩٣٤ ، ٤٠٠٦ ، ٦٠٧١ ، ٦٦٩٤ ، ٦٨١٥ ، ٦٨٤٣ ، ٨٢٢٣ ، ٨٣٢٩ . . . ويقارن تفسير الحسن بتفسير غيره .

(٤) كتاب القصاص والمذكرين (٢٥٤) .

(٥) بعد تتبع كتب الزهد (لابن المبارك ، وأحمد ، وهناد ، ووكيع) واستخراج آثار التابعين منها ، تبين أن المصنفين اعتمدوا في كتبهم عن الزهد على روايات شيخ هذه المدرسة الحسن أكثر مما نقلوه عن غيره ، فقد بلغت مروياته في هذه الكتب (٤٦٤) أثراً ، في حين بلغت عن مجاهد شيخ مكة (١٧١) أثراً ، ويليهما في ذلك الربيع بن خثيم (٧٢) أثراً ، وعن سعيد بن جبير (٥٧) أثراً ، وغيرهم دونهم في ذلك .

(٦) كتاب القصاص والمذكرين (١٧٠) .

ومما يذكر أيضًا في هذا الجانب أن المدرسة البصرية استخدمت أسلوب الوعظ حتى في تفسيرها لآيات الأحكام كما سبق الإشارة إليه[١] .

وقد أدى التوسع في الجانب الوعظي إلى نتائج كثيرة، لعل من أبرزها ما يلي :

١ ـ كثرة العباد والزهاد في مدرسة البصرة، وتميزها في ذلك عن بقية الأمصار، فقد أثر الوعظ في سلوكياتهم، واتسعت فكرة الزهد منذ ذلك الحين[٢] .

قال ابن أبي ليلى: طفت الأمصار، فما رأيت مصرًا أكبر متهجدًا من أهل البصرة[٣] .

ويقول سعيد بن جبير: ما رأيت أرعى لحرمة هذا البيت، ولا أحرص عليه من أهل البصرة، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلقت بأستار الكعبة تدعو وتتضرع وتبكي حتى ماتت[٤] .

يقول ابن عون: إنما بزّ الناسَ الحسنُ بالزهادة في الدنيا، فأما العلم فقد شاركه فيه الناس[٥] .

٢ ـ تقبل الأسلوب القصصي في الوعظ، والرضى عنه.

كان الفقهاء والمتكلمون والأدباء يسمون أهل الذكر والوعظ قصاصًا[٦] ، وكان الأسلوب القصصي غير مرضي عند علماء السلف؛ لغلبة الدخيل عليه، فلا يكاد يخلو من آثار واهية، وأحاديث موضوعة، ولقد تفنن القصاص في ذلك حتى إن بعضهم كان

(١) في ترجمة الحسن وقتادة ص (٢١٦)، (٢٦٨).
(٢) تذكر دائرة المعارف الإسلامية في مادة (زهد) أن فكرة الزهد اتسعت منذ عصر الحسن.
(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٢/ ١٨٩) ١٢٥٠٣.
(٤) السير (٤/ ٣٣٤)، وصحح الذهبي إسناد هذا الخبر.
(٥) المعرفة (٢/ ٥٠).
(٦) معالم القربة في أحكام الحسبة (١٨٠).

يعترف بأنه وضع الأحاديث حسبة ـ زعموا ـ فقيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم: من أين لك ذلك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة[١].

ومن هنا ندرك أسباب انصراف السلف عن القصص والقصاصين، بل والتحذير منهم، ومع ذلك فإننا نجد المدرسة البصرية توسعت فيه، ولم تر فيه غضاضة، لما فيه من السرد المعبر والوعظ المؤثر، فهاهو الحسن يجيزه فيقول: القصص بدعة، ونعمت البدعة، كم من دعاء يستجاب، وأخ مستفاد[٢].

وكان الحسن يجلس في مجلس القصاص بكل إجلال. قال الأوزاعي: كان الحسن إذا قص القاص لم يتكلم، فقيل له في ذلك فقال: إجلالاً لذكر الله[٣].

ولم يغلب الجانب القصصي على العامة من أهل البصرة فحسب، بل غلب على شيوخ المدرسة نفسها، فكان الحسن يقص حتى في مواقع العبادة، واحتياج الناس فيها إلى الذكر، فإنه لما حج ودخل الحرم، جعل يقص في موسم الحج، فمرّ به علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ فقال له: يا شيخ أترضى نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فلله في أرضه معاد غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فثم دار العمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فلم تشغل الناس عن طواف البيت؟ قال: فما قصّ الحسن بعدها[٤].

ولم يختلف منهج قتادة عن الحسن كثيراً في ذلك، فقد اقتفى سبيل شيخه، واتخذ

(١) تدريب الراوي (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).
(٢) كتاب القصاص (١/ ٨٥)، والآداب الشرعية (٢/ ٩٢).
(٣) المرجعين السابقين.
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ٧٠).

ذات المسلك، ولذا نجد عبارة الإمام أحمد فيه دقيقة إذ يقول: كان قتادة يقص، وقال أيضًا: وكان قتادة من الثقات المأمونين، وكان يقص، وكان صحيح الحديث[١].

ونلمح من هذه العبارة أن القصاص كانوا غير صحيحي الحديث؛ لأن الإمام أحمد أعقب قوله بذكر أنه كان يقص، ونص على صحة حديث قتادة. فأفاد بمخالفته حال أغلب القصاص.

ولقد كان هذا المنهج كما أسلفت هو منهج عامة البصريين، إلا أننا نجد أبا العالية - وهو بصري - لم يسلك مسلك المدرسة فقلَّ الوعظ عنده، بل كان ينتقد أصحابه في الإكثار منه - ولعل سبب ذلك تأثر أبي العالية بالمدرسة المكية كما سبق تقريره[٢].

٣ - ومن نتائج مسلك الوعظ في التفسير أيضًا: العناية بعلم المناسبات، والترابط بين الآيات، حتى يتمكن من سرد الآيات وتفسيرها للناس، في تسلسل جميل يأخذ بألبابهم، ويشد مسامعهم، ينتقل من آية لأخرى، مع بيان تناسبهما، وأسرار ختم الآية الأولى وأسرار بداية الثانية.

وقريب من ذلك أيضًا اهتمامهم بشرح الأمثال القرآنية بعبارات ماتعة، يشرح المثل من خلالها، ووجه ضربه، مع قوة المعنى، وفصاحة الأسلوب[٣].

ويمكن من خلال إيراد بعض الأمثلة أن نلاحظ الفرق بين البصريين وغيرهم في شرح المثل، فعند شرحهم للمثل الوارد في قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[٤]، قال مجاهد: إضاءة البرق وإظلامه، على نحو ذلك المثل[٥].

(١) تهذيب التهذيب (٢/ ٣).

(٢) سبق ذلك عند المقارنة بين الحسن وأبي العالية ص (٤٤٦).

(٣) وقد سبق تفصيل ذلك في ترجمة قتادة ص (٢٧٠).

(٤) سورة البقرة: آية (١٩).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٣٤٩) ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد بنحوه (١/ ٨٢).

وقال قتادة: فالمنافق إذا رأى في الإسلام رخاءً أو طمأنينة، أو سلوة من عيش قال: أنا معكم وأنا معكم، وإذا أصابته شديدة حقحق والله عندها، فانقطع به، فلم يصبر على بلائها، ولم يحسب أجرها، ولم يرجُ عاقبتها[1].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في بيان المثل الذي ضربه جل ثناؤه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾[2].

قال مجاهد في بيان المثل: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، قال: بملئها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، قال: الزبد: السيل، ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ قال: خبث الحديد والحلية... إلخ ما قال[3] - رحمه الله - في بيان مفردات المثل.

بينما نجد قتادة يتوسع في بيان المثل وشرحه فيقول: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جُفاءً لا ينتفع به، ولا ترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله، كما اضمحل هذا الزبد، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض، وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، الآية، كما يبقى خالص الذهب والفضة حين أدخل النار، وذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهل، وقوله: ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾.

يقول: هذا إلى الحديد والصفر الذي ينتفع به فيه منافع، يقول: كما يبقى خالص

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٥٠) ٤٥٨، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة بلفظ مُقارب (١/ ٨٣).

(٢) سورة الرعد: آية (١٧).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤١٢) ٢٠٣١٨، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى أبي عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد بنحوه (٤/ ٦٣٤).

هذا الحديد وهذا الصفر، حين أدخل وذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي خالصها[1].

٤ ـ العبارة الشديدة مع العصاة، والمخالفين:

لما كان المنهج الوعظي سمة من سمات هذه المدرسة كان من البدهي أن تكون العبارات الوعظية شديدة عند التعرض لتفسير الآيات التي تحذر من المعاصي والعصيان، وهذه السمة لا تكاد توجد في عبارات أصحاب المدارس التفسيرية الأخرى، وربما أيضًا كانت الشدة مع المتغافلين عن بعض السنن، والمستحبات، لا العصاة فحسب، كما سبق بيان ذلك بالأمثلة المروية عن الحسن ـ رحمه الله ـ عمن لا يقوم الليل، أو من توسع في المآكل، والمشارب، والمساكن ونحو ذلك.

ولا يختلف منهج (قتادة) عن هذا المنهج في الجملة[2].

٥ ـ الالتجاء إلى مخالفة الظاهر أحيانًا.

نظرًا لاهتمام البصريين بالجانب الوعظي، فإننا نجدهم يلتزمونه في تفسيرهم غالبًا، والواعظ يجعل هدفه تحقيق التأثير في نفس السامع ليستجيب، بعكس المنهج العلمي الذي يكون الهدف منه هو تحقيق المسألة، وبيان الغامض فيها، بغض النظر عن حال السامعين. ولقد كان أئمة المدارس التفسيرية موفقين في الجمع بين الأمرين غالبًا، إلا أنه قد نجد بعضًا من المواضع المخالفة نتيجة لغلبة أحد المناهج على صاحبها، وقد سبق لذلك بضعة أمثلة ظهر فيها ميل الحسن لرأي يخالف فيه الظاهر من القرآن دون وجود دليل يقتضي ذلك، كما في تبنيه القول بأن ابني آدم هما من بني إسرائيل، ولم

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤١٢) ٢٠٣١٩، تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٣٥).
ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار التالية في تفسير الطبري، ١٥٤٣٥، ١٥٤٤٠، (١٨/ ١٤٩)، (٢٣/ ٢١٤).

(٢) سبق بيان ذلك في ترجمة الحسن ص (٢١٥) وترجمة قتادة ص (٢٦٥).

يكونا ابني آدم لصلبه .

وكذلك في إقسامه أن ابن نوح ليس ولداً لصلبه، ونحو ذلك من الأمثلة[١] .

الخصيصة الثالثة : اجتناب الإسرائيليات :

إن جمهور أهل العلم يرون أن الحديث عن بني إسرائيل لا حرج فيه فيما لا نجد له معارضًا في شرعنا، وذلك لحديث الإباحة «**وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» ، ومع وفرة المادة العلمية في الإسرائيليات التي يمكن أن تكون مجالاً لتفسير بعض الآيات، وجنوح كثير من مفسري مكة لها، إلا أن المدرسة العراقية تعد من أقل المدارس سرداً للإسرائيليات، وأكثرها إنكاراً لبعضها ، وقد يكون السبب في ذلك هو قلة ما وصل إلى العراق من النقول والآثار في ذلك، فأكثروا من استعمال العقل والاستنباط والاجتهاد في فهم النصوص القرآنية الواردة في تلك القصص، ولاسيما أن العراق كانت تعج بملتقى الحضارات الفكرية المختلفة التي تدلي بدلوها في ميدان الثقافة، ناهيك أن بعضًا من الإسرائيليات فيها من التفاصيل لبعض القصص ما لا تقبله العقول السليمة، أو الفطر المستقيمة بادي الرأي، وإن كنا لا نجزم بمخالفتها لشرعنا، كما أن لتتلمذ أئمة هذه المدارس على رجال الرواية والأثر من الصحابة كابن مسعود وأنس، الذين كانا يجتنبان الرواية عن أهل الكتاب ـ أثره في قلة المروي عن المدارس العراقية في الإسرائيليات[٢] .

ويضاف إلى ذلك أنا لا نجد بالعراق مسلمة أهل الكتاب؛ كما وجدناهم بسائر الأمصار[٣] ، وقد نأت مدرسة البصرة عن الرواية عن أهل الكتاب، وفاقت جميع

(١) ينظر ذلك في ترجمة الحسن ص (٢٣٠).

(٢) لا يقال: إن أبا العالية قد أكثر من الرواية والنقل عن بني إسرائيل؛ لأنه وإن كان بصري الموطن والمنشأ ـ فهو مكي المذهب، والمشرب، كما أسلفته في ترجمته ص (٢٩١).

(٣) كان بالشام كعب الأحبار، ثم انتقل إلى مكة، وكان باليمن وهب بن منبه، وكان بالمدينة عبد الله ابن سلام.

المدارس في هذا ، ومدرسة الكوفة وإن كانت أقل منها رواية في هذا الشأن إلا أنه مما يُحمد للبصريين أنه مع النتاج الكثير المنقول عنهم في التفسير كانت نسبة الإسرائيليات عندهم قليلة جدًا ؛ لأنهم ضربوا صفحًا عن الإكثار من النقل عن بني إسرائيل .

ومما يحمد لهذه المدرسة أنها وإن كانت من مدارس الوعظ ، والقص ، والغالبُ على القصاص الاستئناس بالحكايات ، والأمور الغريبة التي تثير انتباه الناس ـ فقد ابتعد أئمتها وشيوخها عن قصص بني إسرائيل ، ويوضح ذلك ما نجده في مناظرة الحسن وقتادة في ابن نوح ، فقد كان الحسن يرى أنه ليس ابنه لصلبه ، فاحتج قتادة عليه فيما احتج به أن أهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه ، فقال الحسن مستنكرًا : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب[1] ؟! .

والتزم الحسن بذلك ؛ ففي أكثر الآيات التي رويت عشرات الروايات عن التابعين في تفسيرها بالإسرائيليات ، نجد الحسن لا يعتمد على شيء من ذلك .

وقد سبق سرد بعض الأمثلة نحو تفسيره قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم** ﴾ ، وتأويله للسكينة في قوله : ﴿ **فيه سكينة من ربكم** ﴾ ، وبيانه للوالد والولد الصالح في قوله : ﴿ **فلما آتاهما صالحا** ﴾ ، وبيانه للمراد بـ فتنة سليمان ، ونحو ذلك[2] .

وأما (قتادة) فهو ـ وإن كان أكثر توسعًا من الحسن في سرد الإسرائيليات ـ إلا أنه كان يختصرها ، ويسوق الشاهد منها فحسب ، ويوردها بصيغة التمريض (ذكر لنا والله أعلم) وهذا يدل على تحرجه ، وعدم قناعته بمحتواها .

وبهذا ينجلي للناظر أن المدرسة البصرية كان أكثر المدارس توقيًا وحذرًا من الرواية

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٢٦)، والمحرر الوجيز (٩/ ١٦١).

(٢) وقد سبق بيان ذلك وتفصيله في ترجمة الحسن ص (٢٤٦).

عن بني إسرائيل، والله أعلم.

الخصيصة الرابعة: بروز التفسير بالسنة في المروي عن المدرسة البصرية:

التفسير بالمأثور يقتضي سعة الرواية، والتثبت فيها، ومن هنا اختلفت المدارس في الكم والكيف، فعندما نجد أن المنقول عن المدرسة البصرية كثير[١]، نجد أن أهل الكوفة مقلون في هذا الباب، مع أن الآثار التي نقلت للعراق تكاد تكون واحدة، ويمكن أن يرجع ذلك إلى ما يلي:

١ ـ تأثر شيخ المدرسة البصرية الحسن البصري بنشأته في المدينة حيث الرواية والأثر، وكذلك بتتلمذه على الصحابي الجليل أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فصار شغوفًا بأن يسند الأقوال، وينسب التفسير، ولم يكن الحال كذلك بالنسبة لأهل الكوفة، وقد يعزى ذلك إلى أن شيخهم ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كان متحرجًا من الرواية في الجملة، كما سيأتي تفصيله في خصائص المدرسة المكية.

ومما ترتب على هذا الأمر أن كان تساهل أهل البصرة في الرواية أكثر من أهل الكوفة، وقد سبق طرف من ذلك في ترجمة الحسن، وقتادة[٢].

وهذا ما نجده أيضًا في تفسيرهم، فقد كان جل المروي عنهم من التفسير النبوي إنما هو من باب المقاطيع والبلاغات (بلغنا ـ ذكر لنا ... حدثنا ... إلخ) فقد تساهلوا ـ رحمهم الله ـ في الرواية سندًا، وكذلك وقع التساهل من بعضهم في الرواية متنًا، فقد سئل الحسن عن الرجل يحدث بالحديث لا يألو فيكون فيه الزيادة والنقصان: قال: ومن يطيق ذلك!! وقال: لا بأس بالحديث أن تقدم أو تؤخر إذا أصيب المعنى[٣].

---

(١) المروي عن التابعين في الاعتماد الصريح على السنة جاء في (٣٨١) أثرًا، منها (٢٨٠) أثرًا عن البصريين، أي إن ما يزيد على (٧٣, ٠) من التفسير النبوي جاء من روايتهم.

(٢) ينظر ص (٢٢٠) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٢٠) من هذا البحث.

وهذا التساهل في المتن لم يركن إليه قتادة ـ رحمه الله ـ فهو وإن تساهل في الإسناد أحيانًا إلا أنه كان ضابطًا للمتن، ولعل السبب في ذلك يرجع لحافظته القوية.

وبالجملة، فالحسن[1]، وقتادة[2]، من أكثر التابعين اعتمادًا على التفسير النبوي في تأويلهم.

* * *

(١) بلغ عدد الآثار التي اعتمد الحسن فيها على ما جاء عن النبي ﷺ (٨١) أثرًا.

(٢) وبلغ عن قتادة (٢٠٠) أثر، في حين كان اعتماد مجاهد في (٢٠) أثرًا فقط، وعن ابن جبير (٢٢) أثرًا، وعن عطاء في (١٠) آثار، وعن عكرمة في (٩) آثار، وغيرهم دونهم في ذلك.

خصائص المدرسة الكوفية

الخصيصة الأولى: الاهتمام بتفسير آيات الأحكام:

ومما قام عليه منهج المدرسة الكوفية واختصت به، العناية الفائقة بالأحكام الفقهية المستنبطة من النصوص القرآنية.

فقد تناولت في تفاسيرها الأحكام بالعرض، والتفصيل، والتوجيه، فصارت من أكثر المدارس عناية بهذا الجانب[1].

وقد تأثرت في ذلك بمسلك إمامها ابن مسعود - رضي الله عنه وأرضاه - الذي عدَّ من قضاة الصحابة، ومن المكثرين في الفتوى، واعتبره ابن حزم سابع سبعة من كبار الصحابة الذين يمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم[2].

وكان - رضي الله عنه - معدوداً سادس ستة من مفتي الصحابة[3].

فعن مسروق قال: كان القضاء في أصحاب النبي ﷺ في ستة: في عمر، وعلي، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وكان نصفهم لأهل

(١) بعد مراجعتي لتفاسير المشاهير من كل مدرسة، وجدت أن نسبة ما روي عن الكوفيين في تفسير آيات الأحكام بلغ (٣١, ٠) من مجموع تفسيرهم، في حين بلغ عند المدنيين (١٩, ٠)، ولم يزد عند المكيين عن (٠٥, ٠)، وعند البصريين عند (٠٤, ٠) من مجموع تفسيرهم.

(٢) الأحكام لابن حزم (٤/ ١٧٦)، وإعلام الموقعين (١/ ١٢).

وقد جمع د. محمد رواس قلعجي قدراً كبيراً من آراء عبد الله بن مسعود، وفقهه، واجتهاداته، في موسوعة فقه عبد الله بن مسعود، نشرها مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.

(٣) تهذيب الكمال (١٠/ ٣٠).

الكوفة[١] .

فكان الكوفيون من أفقه التابعين. يقول عامر الشعبي: لم يكن قوم بعد أصحاب محمد ﷺ أفقه من أصحاب ابن مسعود[٢] .

وكان كثيرٌ من الأئمة يفضلهم في الفقه على أصحاب ابن عباس[٣] .

وكان محمد بن سيرين - وهو من أئمة البصرة - يقول: ما رأيت سود الرؤوس أفقه من أهل الكوفة[٤] .

وهذا سفيان بن عيينة إمام أتباع التابعين في مكة يقول: خذوا المناسك عن أهل مكة، وخذوا القراءة عن أهل المدينة، وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة[٥] .

ولكثرة اشتغال المدرسة بالفقه، وإعمالها للرأي فيه، أطلق عليها مدرسة الرأي، وكان الرأي بمعنى الفقه عند السلف[٦] .

فكان علقمة، والأسود، وغيرهم يفتون بالرأي فيما يعرض لهم من مسائل[٧] .

وأكثر أهل الرأي كانوا بالكوفة، وقد تخرجوا على يد عبد الله بن مسعود، وهو ممن كان يتحرج في الرواية عن رسول الله ﷺ خشية أن يشبه له، ولا يتحرج مثل هذا في الاجتهاد بالرأي، وإن صح عنده الحديث رجع إليه.

ومن المعلوم أن الخلاف بين مدرستي الرأي بالكوفة، والأثر في المدينة ليس في

---

(١) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٤٩)، والمعرفة (١/ ٤٨١).
(٢) المصنف لعبد الرزاق (١٠/ ٢٦٩)، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٠).
(٣) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٥٠).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦٧١)، والسير (٤/ ٢٦٢)، (٤/ ٦١١).
(٥) معجم البلدان (٤/ ٤٩٣).
(٦) فيض الباري (١/ ١٧٧).
(٧) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٦١، ٦٢).

مسألة قبول الآثار، أوردها، بل الأساس في مقدار الأخذ بالرأي والتفريع عليه. فقد كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأي إلا اضطراراً، أما أهل الرأي فإنهم يكثرون من الإفتاء في المسائل بالرأي ما دام لم يصح عندهم حديث في ذلك.

فالكوفة إذن كان فيها حديث، وأثر، ولكن كان الرأي عندهم أكثر من مدرسة المدينة.

ونختم هذه المسألة بالقول: إن نواة مدرسة الرأي وأساسها كان على يد الصحابي الجليل ابن مسعود - رضي الله عنه - وأصحابه من بعده، وأبرز هؤلاء علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي.

ويرجع انتشار مدرسة الرأي في الكوفة إلى الأمور الآتية[1]:

١ - تأثرهم بمعلمهم عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - الذي سار على طريقة عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - والذي يقول عنه: لو سلك الناس واديًا وشعبًا، وسلك عمر واديًا وشعبًا، لسلكت وادي عمر وشعبه، وقد تخرج على يد ابن مسعود علقمة ابن قيس أستاذ إبراهيم النخعي، الذي يعد زعيم مدرسة أهل الرأي زمن التابعين.

٢ - قلة الحديث المروي عن رسول الله ﷺ عندهم، فهو لا يوازي ما عند علماء المدينة موطن الرسول ﷺ وكبار الصحابة، ثم إن من نزل الكوفة من الصحابة رضوان الله عنهم، وإن كانوا كثيرين بالنسبة لغيرهم من البلدان، إلا أنه لا يصل إلى العدد الذي آثر البقاء في الحجاز.

٣ - اشتراطهم في قبول الحديث شروطًا لا يسلم معها من الأحاديث إلا القليل، وكان السبب وراء ذلك انتشار الكذب، والفرق الضالة، وفي مقدمة هؤلاء الشيعة

(١) ينظر التشريع والفقه في الإسلام تاريخًا ومنهجًا (١٦٦)، تاريخ الفقه الإسلامي (٧٣، ٧٤)، والمدخل للفقه الإسلامي (٢٤٧)، والمدخل لدراسة الشريعة الإسلامية (١٣٨)، والمدخل لدراسة الفقه الإسلامي (٦٥)، والمدخل إلى الفقه الإسلامي (١٢٢).

أكذب الناس في المرويات. والكوفة أرض دارت فيها كثير من الفتن، فشاع الوضع في الحديث تأييداً للمذاهب السياسية، وهذا بدوره جعل التابعين فيها يقلون الرواية من الحديث عنه ﷺ، فكانت الأحاديث التي يعول عليها لديهم قليلة، وهذا يدعوهم عند النظر في المسائل إلى القول بالرأي، حيث لا نص.

٤ ـ اختلاف بيئة الحجاز عن بيئة العراق، فقد كان العراق متاخماً للفرس، واتصل بالحضارة الفارسية اتصالاً وثيقاً، وذلك من شأنه أن يحدث كثيراً من المسائل الجزئية، والمشاكل المتعددة، فكان من الضروري أن يقضى فيها بحكم شرعي، وقد لا يكون هناك نص في هذه الواقعة، فكان لابد من الاجتهاد في الرأي، فوسع هذا من دائرة العمل به.

ولذا نجد ابن عمر يقول عنهم: يا أهل العراق تأتون بالمعضلات[1]. وكان ابن المسيب إذا سئل عن مسألة شائكة قال للسائل: أعراقي أنت[2]؟.

الخصيصة الثانية: كثرة الاشتغال بالقراءة:

وهذا مما اختصت به مدرسة الكوفة، وسبقت فيه، فقد حرص الكوفيون أشد الحرص على هذا العلم، فقلما تجد مفسراً بينهم يخلو تفسيره من الاعتماد على القراءات في إيضاح المعاني القرآنية؛ لأنها السبيل الموصل إلى فهم بعض المعاني، وبيان المراد بها.

وقد جعلوا القراءة أصلاً من الأصول التي اعتمدوا عليها في منهجهم في التفسير، حتى إن كثيراً من الأئمة تمنى أن لو كان يقرأ بقراءة شيخهم.

وقد ذكر السيوطي أن عدد القراء في الكوفة، كان يزيد على عدد القراء في كل من المدينة، ومكة، والشام، والبصرة[3].

(١) المعرفة (٢/ ٧٥٩).
(٢) المعرفة (٢/ ٧٥٩).
(٣) الإتقان (١/ ٧٣).

وكان القراء كتيبة خاصة في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث[١] .

وعدَّ الذهبي من القراء الكبار ثلاثة من الكوفيين، في حين لم يذكر من البصريين إلا واحداً[٢] .

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يوصي أصحابه ممن أراد السفر إلى الكوفة بقوله: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرّدوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ[٣] .

هذه حال الكوفة، لهم دويّ بالقرآن كدوي النحل، وليس هذا بمستغرب على مدرسة تولى إمامتها ابن أم عبد ـ رضي الله عنه ـ الذي أخذ من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة، والذي كان من أكثر الصحابة اشتغالاً بالقراءة واعتماداً عليها في تفسيره[٤] .

ولقد كان لابن مسعود الأثر البالغ على أصحابه، وعلى غيرهم من تلاميذ المدارس الأخرى ممن أقام أو مرَّ بالكوفة[٥] .

ونجد أن هذا الأثر امتد في الكوفة إلى ما بعد عصر التابعين، ففيها من أئمة القراءات السبع ثلاثة، هم أعلام القراءة في الأمصار الإسلامية، وهم عاصم بن أبي النُّجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي، ومرجع هؤلاء جميعًا أبو عبد الرحمن السُّلَمي، وزرُّ بن حبيش[٦] .

وقد انعكست قراءات ابن مسعود التفسيرية هذه على فقه أهل العراق، الذين

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٣٥٠).

(٢) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٢ ـ ٨٢)، ذكر منهم سعيد بن جبير، وسعيد كما سبق في ترجمته مختلف في نسبته، والأكثرون على أنه كوفي الموطن.

(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٧)، وسنن الدارمي (١/ ٨٥)، وسنن ابن ماجه (١/ ١٢).

(٤) سبق بيان ذلك وتفصيله عند الحديث عن تقدمه ـ رضي الله عنه ـ في علم القراءة ص (٤٦٥).

(٥) كما نجد ذلك عند ابن جبير، ومجاهد، وقتادة، وقد سبق إيضاح ذلك.

(٦) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو (٢٢)، وكتاب قراءة عبد الله بن مسعود (٣٢).

ورثوا علم ابن مسعود، ومن ذلك ما يرويه السرخسي الحنفي في كفارة اليمين، حيث يقول: أما صوم كفارة اليمين ثلاثة أيام متتابعة عندنا خلافًا للشافعي الذي قال: إنه (يعني الصوم) مطلق في القرآن، ونحن أثبتنا التتابع بقراءة ابن مسعود، فإنها كانت مشهورة إلى زمن أبي حنيفة ـ رحمه الله[1] ـ.

الخصيصة الثالثة: الهيبة، والورع في التفسير:

وفي مقابل ما سبق فإن من السمات البارزة التي تميزت بها مدرسة الكوفة البعد عن الخوض في تفسير القرآن، فقد تهيب أستاذها الأول الرواية عن الله عز وجل، أو عن رسوله ﷺ، وتبعه على ذلك أصحابه الملازمون له، حتى صاروا من أقل التابعين على الإطلاق عناية بالتفسير[2].

وقد امتد الورع بالمدرسة إلى الإقلال حتى من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كما يصفه أحد أصحابه، وهو عمرو بن ميمون بقوله: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط: قال رسول الله ﷺ، فلما كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ، قال: فنكس، قال: فنظرت إليه فهو قائم مُحلَّلة أزرار قميصه قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا بذلك[3].

---

(١) المبسوط (٣/ ٧٥)، وينظر دراسات في التفسير د. محمد بلتاجي (٣٩).

(٢) هذا في طبقة أصحاب عبد الله الملازمين له، علقمة، ومسروق، ومرة، والأسود، وعمرو بن شراحبيل، وعبيدة السلماني، والحارث بن قيس، وزر بن حبيش، فإن ما روي عن أصحاب عبد الله، كما جاء عند ابن كثير في تفسيره لم يزد على (٦٥) رواية فقط. أين هذا من الحسن الذي أورد عنه ابن كثير (٦٢٦) رواية، وعن مجاهد (١٠٦٢) رواية، وعن قتادة (١٠٠٩) روايات.

(٣) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ (١/ ١٠).

فصارت الكوفة من أقل المدارس اشتغالاً بعلمي التفسير والحديث، ووجدنا أن أثر الورع يمتد ليشمل طبقة متوسطي التابعين، فإن إبراهيم النخعي، وعامرًا الشعبي مع ما جاء عنهما من الروايات في التفسير؛ فإن جلَّ ذلك كان في إيضاح آيات الأحكام.

ونتيجة لهذا الإقلال في المدرسة، فإن صغار التابعين، كالسدي، وأبي صالح، وبعدهم أتباع التابعين، كثر اشتغالهم بالتفسير نظرًا لقلته في تلك المدرسة، ولحاجة الناس إليه، وقد أنكر كثير من أئمة الكوفيين صنيعهم هذا، وخاصة أن معظمه لم يسمعوه من قبل، فاستغربوه وأنكروه، فكان السدي يرد عليهم بقوله: إن هذا التفسير أخذته من ابن عباس، فإن كان صوابًا فهو قاله، وإن كان خطأ فهو قاله، وقد صدق ـ رحمه الله ـ في مقولته هذه، فإن جلَّ المروي عنه إنما استفاده من مدرسة مكة، حتى إننا ذكرنا فيما مضى أن السدي مع أنه كوفي إلا أن منهجه ومسلكه وجلَّ تأويلاته تبع فيها ابن عباس وأصحابه[1].

كما أن المكثرين من الكوفيين في طبقة أتباع التابعين كالضحاك بن مزاحم كان معظم ما رواه في التفسير لم يستفده من الكوفيين، وإنما أخذه من تفسير ابن عباس، وأصحابه[2].

الخصيصة الرابعة: الاهتمام بنقل آثار ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود[3].

ولذا نجد عامة حديثهم وآثارهم، هي مما أخذوه عنه ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) سبق تفصيل ذلك في ترجمته ص (٢٩٩).

(٢) سبق تفصيل ذلك في بيان الأثر المكي على مدرسة الكوفة ص (٤١٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٠).

فعن مسروق[١] قال: حدثنا عبد الله، ولو لم يحدثنا عبد الله مَن كان يُحدثنا[٢] ؟!.

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء، فلولا عبد الله ما أخبرنا به أحدٌ! قال: أرواح الشهداء عند الله في أجواف طير خضر في قناديل تحت العرش، تسرحُ في الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى قناديلها، فيطلع إليها ربها فيقول: ماذا تريدون؟ فيقولون: نريد أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى[٣].

وعن إبراهيم النخعي قال: كان عبيدة السلماني يأتي عبد الله كل خميس فيسأله عن أشياء غاب عنها، فكان عامة ما يحفظ عن عبد الله مما يسأله عبيدة عنه[٤].

وعن شعبة قال: قلت لأبي إسحاق: كيف كان أبو الأحوص (عوف بن مالك) يُحدثكم، قال: كان يسكبها علينا في المسجد، يقول: قال عبد الله، قال عبد الله[٥].

وعن الشعبي قال: تجالس شُتير بن شكل، ومسروق، فقال شُتير: إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدقك، وإما أن أحدث فتصدقني؟ قال مسروق: لا، بل حدث فأصدقك، فقال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أكبر آية في القرآن تفوضًا ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ قال مسروق: صدقت[٦].

وجاء رجل إلى الشعبي يسأله عن شيء، فقال الشعبي: كان ابن مسعود يقول فيه

---

(١) مع أن مسروق من أكثر أصحاب عبد الله بن مسعود تنقلاً في البلاد كما سبق بيانه، وينظر ص(٤٧٤).

(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤٥٠) ٢٩٩٩.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٨٧) ٨٢٠٨، وأصل الحديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (٣/ ١٥٠٢) ١٨٨٧، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران (٥/ ٢٣١) ٣٠١١.

(٤) سنن الدارمي (١/ ١٣٧).

(٥) العلل لأحمد (٣/ ٣٤٤) ٥٠٧٦.

(٦) تفسير الطبري (٢٨/ ١٤٠).

كذا كذا، قال: أخبرني أنت، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أخبرته عن ابن مسعود، ويسألني عن رأيي[١].

ولذا نجد الكوفيين من أكثر المدارس التزامًا بآثار شيخها، واتضح هذا في تفسيرهم، فإن عامة ما يروى في كتب التفسير عن أصحاب عبد الله الملازمين له هو مما نقلوه عنه ـ رضي الله عنه ـ.

فهذا مرة الذي روى عن ابن مسعود فأكثر لا نجد له في كتب التفسير إلا أقل القليل من المروي من اجتهاده[٢].

بل إننا نجد الأثر يمتد إلى الطبقة التي أخذت عن أصحاب عبد الله، فمع أنها لم تلق ابن مسعود ولم تره إلا أنها من أحرص التابعين على الاستدلال بأقواله وآثاره في التفسير[٣].

وعمومًا فإن المدرسة الكوفية من أقل المدارس مخالفة لأستاذها ـ رضي الله عنه[٤] ـ.

وأظن أن من أسباب كثرة الاشتغال بآثار شيخهم قلة السنن والأحاديث المروية عندهم، مع ما تميزت به المدرسة من الورع في التحديث، فقد كان بعضهم يتشكك في حفظه لحديث رسول الله ﷺ، فيؤثر ألا يحدث عنه ﷺ خشية أن يقع في الكذب على رسول الله ﷺ.

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٤٧).

(٢) نقل من تفسير ابن مسعود (٢١٦) رواية، أي ما نسبته (٢٥, ٠) من مجموع تفسير عبد الله، في حين أنه لم يرد عنه في تفسير ابن كثير إلا (٥) روايات فقط من اجتهاده.

(٣) بخلاف غيرهم من أصحاب المدارس الأخرى، لاسيما أصحاب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فإنهم من أكثر تلاميذ المدارس مراجعة ومخالفة لأستاذهم.

(٤) بلغ نسبة المروي عن الكوفيين في الاعتماد على قول الصحابي (٠٤, ٠)، في حين كان نسبة اعتماد البصريين على ذلك (٠٢, ٠)، وعند المكيين أقل من (٠٠٨, ٠) فقط.

ولذا كان يقول عاصم الأحول: سألت الشعبي عن حديث فحدثنيه، فقلت: إنه يُرفع إلى النبي ﷺ، فقال: لا، على من دون النبي ﷺ أحب إلينا، فإن كان فيه زيادة أو نقصان، كان على من دون النبي ﷺ[1].

ولما سئل إبراهيم النخعي عن مسألة وقيل له: أما تحفظ عن رسول الله ﷺ حديثًا غير هذا؟ قال: بلى، ولكن أقول: قال عبد الله، قال علقمة: أحب إلي[2].

بل كان من ورعها في هذا الباب أن عدت من أكثر المدارس ردًا للسنن والأحاديث، وما ذاك إلا بسبب تشدد أصحابها في قبول الروايات، فإنهم من أوائل من سأل عن الإسناد، وسبقوا في ذلك جميع المدارس، وفيها أول من نقد الرواة، ولذا كانت مراسيل التابعين في الطبقة المتوسطة من أصحابها كالنخعي، تُقدم على مراسيل سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وابن المسيب - وهم من كبار التابعين[3].

فكان عندهم من الحيطة، والحذر في التحمل، والأداء لحديث المصطفى ﷺ ما ليس في أصحاب المدارس الأخرى.

ومن أهم الأسباب التي ألجأتهم لذلك ظهور بوادر الوضع والكذب في الحديث، لاسيما وأن الكوفة من أكثر المدن الإسلامية التي دارت على أرضها الفتن، وانتشرت فيها الفرق، وخاصة الشيعة أكثر الفرق إغراقًا في الكذب[4].

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٨٢).

(٣) المرجع السابق (١/ ٨٣).

(٣) شرح علل الترمذي لابن رجب (٦٣)، والعلل لأحمد (٣/ ٣٨٠) ٥٦٧٣، والنكت على ابن الصلاح (٢/ ٥٥٥).

(٤) بعد مراجعة كتاب تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر، وجدت أن المنسوبين في هذا الكتاب للبدع من رفض، وتشيع، وإرجاء، وقدر، وغيرها في مكة والمدينة، والكوفة، والبصرة، ومصر، والشام، واليمن بلغوا (١٧٨) راويًا، منهم (١٠١) راو في الكوفة، من هؤلاء (٨١) روايًا منسوبًا للرفض، أو التشيع في الكوفة، مما يدل على انتشار الفرق في هذه المدينة، لاسيما من نسب إلى الرفض.

الخصيصة الخامسة : قلة الإسرائيليات في تفسيرها :

من المعالم البارزة في تفسيرها قلة الإسرائيليات ، فإنها أعرضت عن الرواية عن أهل الكتاب ، وكانت من أقل المدارس اعتمادًا عليها في تفسيرها[١] .

وقد تأثرت في ذلك بمسلك أستاذها الأول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فإنه من أشد الصحابة حذرًا من هذا المصدر .

والناظر في تفسيره وسيرته ، يجد عدم رضاه عن الناقلين لأخبار بني إسرائيل ، فعن أبي عبيدة قال : جاء رجل إلى قوم في المسجد ، وفيه عبد الله بن مسعود ، فقال : إنّ أخاكم كعبًا يقرئكم السلام ، ويبشركم أن هذه الآية ليست فيكم : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[٢] فقال له عبد الله : وأنت فأقرئه السلام ، وأخبره أنها نزلت ، وهو يهودي[٣] .

وعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : جاء رجل إلى عبد الله ، فقال : من أين جئت؟ قال : من الشام ، قال : من لقيت؟ قال : لقيت كعبًا ، فقال : ما حدثك كعب؟ قال : حدثني أن السموات تدور على منكب ملك؛ قال : فصدقته ، أو كذبته؟ قال : ما صدقته ، ولا كذبته ، قال لوددتُ أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها . كذب كعب ، إن الله يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾[٤] .

---

(١) بلغت نسبة المروي عن أصحابها في هذا (٠,٠٩) من مجموع تفسيرهم ، في حين كان المروي عن المدرسة المكية ما نسبته (٠,٥٥) ، وعن المدنية (٠,٣٥) ، وعن البصرية (٠,٠٣) من مجموع تفسيرهم .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٨٧) .

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٦١) ٨٣٢٥ ، وأورده السيوطي في الدر ، وعزاه إلى ابن جرير عن أبي عبيدة به (٢/ ٤٠٢) .

(٤) سورة فاطر آية (٤١) ، وينظر تفسير الطبري (٢٢/ ١٤٤) ، وأورده السيوطي في الدر عن شقيق بلفظ مختصر ، وعزاه إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر (٧/ ٣٥) .

وعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلق معي إلى ابن مسعود بها، وقد زالت، أو كادت أن تزول، فجلسنا بالباب، ثم قال للجارية: انظري من بالباب؟ فقالت: علقمة، والأسود، فقال: ائذني لهما، فدخلنا فقال: كأنكما قد أطلتما الجلوس، قلنا: أجل، قال: فما منعكما أن تستأذنا؟ قال: خشينا أن تكون نائمًا، قال: ما أحب أن تظنوا بي هذا، إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل، فقلنا: هذه صحيفة فيها حديث حسن، فقال: يا جارية هاتي بطست واسكبي فيه ماءً، قال: فجعل يمحوها بيده ويقول: ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾ فقلنا: انظر فيها فإن فيها حديثًا عجيبًا، فجعل يمحوها ويقول: إن هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

قال أبو عبيد (راوي الحديث): يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب، فلهذا كره عبد الله النظر فيها[١].

وعن عبد الرحمن بن يزيد، قال: قال عبد الله: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فتكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل، فإنهم لم يهدوكم ويضلوا أنفسهم، وليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي ملته تالية[٢] تدعوه إلى دينه كتالية المال[٣].

وقد اتضح هذا المسلك في تفسيره ـ رضي الله عنه ـ فلم أجده يدخل في شيء من التفاصيل المروية عن أهل الكتاب، ولا يعتمد عليها[٤].

والمراجع لتفسير ابن جرير يجد شاهدًا آخر يؤكد ما سبق من قلة الرواية عن أصحاب عبد الله[٥].

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٢).
(٢) قال عبد الرزاق: التالية، البقية، ينظر المصنف (٦/ ١١٢).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٤٨) ٦٤٧٥، ومصنف عبد الرزاق (٦/ ١١٢).
(٤) يأتي مزيد بسط لهذه المسألة عند الحديث عن منهج الرواية عن بني إسرائيل.
(٥) تتبعت تفسير ابن جرير حتى نهاية تفسير سورة (ص)، فلم أجد لهم رواية في ذلك.

بل إن الأثر امتد إلى عموم الكوفيين، فنجد أن أخص الكوفيين بعد أصحاب عبد الله، وهو إبراهيم النخعي كان من أقل التابعين على الإطلاق رواية لهذه الإسرائيليات[1].

* * *

(١) قد يرد على هذا ما جاء من اعتماد السدي على روايات بني إسرائيل، والسدي، وإن كان كوفي الموطن فإنه مكي المنهج والمسلك والطريقة، بل إنه بعد تأملي في تفسيره لم أجده شابه الكوفيين إلا في القليل النادر، وقد سبق تفصيل هذه المسألة في ترجمة السدي ص (٣٠٠)، وينظر ترجمة إبراهيم في بيان إعراضه عن الرواية من أهل الكتاب ص (٣٤٣).

خصائص المدرسة المدنية

الرواية والأثر، والسنة، والخبر، والفقه، والاتباع، خصائص كثيرة تميزت بها المدرسة المدنية، وليس المراد هنا تعديد خصائصها العامة، وإنما المقصود بيان ما انفردت به من ميزات عن باقي المدارس الأخرى، أو بيان الفرق إذا اشتركت أكثر من مدرسة في ميزة، وفيما يلي بيان لهذه الخصائص :

الخصيصة الأولى : هيبة التفسير، والإقلال من التعرض له :

تعتبر المدرسة المدنية أشد المدارس ورعًا في التفسير، ولم ينقل عنها إلا العدد القليل من الآثار[1]، وذلك لأنها نحت منحى التفسير بقدر الحاجة، من بيان غامض، أو إجابة سؤال، أو تفصيل حكم فقهي مستنبط من الآية، أو ذكر لسبب النزول ونحوه. . .

والناظر في هذا يمكن أن يعثر على بعض الأسباب التي أدت إلى ذلك، منها :

١ ـ كثرة الصحابة بالمدينة، وقد كانوا متورعين عن التفسير، وقلَّ المنقول عنهم، بل أثر عنهم التحذير من الخوض فيه، لئلا يشتغل به من لا علم له فيضل ويُضل، وهذا كله مع علمهم واجتهادهم، الذي قد يفوق غيرهم من المفسرين، وقد قدمهم أهل المدينة على غيرهم، وبالتالي حذوا حذوهم في هذا المنهج، فلقد كان أهل المدينة يفضلون عبد الله بن عمر على ابن عباس، ويستفتونه[2].

(١) سبق أن ذكرنا أن المنقول عن المدرسة المدنية لا تزيد نسبته عن (٠٢, ٠) من مجموع المروي عن المدارس كلها.

(٢) الإرشاد (١/ ١٨٤)، والسير (٨/ ١١٢).

يقول طاوس: ما رأيت الذي هو أعلم من ابن عباس، وأورع من ابن عمر[١].

٢ ـ تورع أهل المدينة عن الكلام في غير المسائل الحالة النازلة، ولذا كان زيد بن ثابت إذا سأله رجل عن شيء قال: آلله لكان هذا، فإن قال نعم تكلم فيه، وإلا لم يتكلم[٢].

٣ ـ اكتفاء أهل المدينة بالعلم الوارد لهم عن طريق الرواية عن النبي ﷺ أو عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ثم لم تكن الحاجة لعلم التفسير على قدر ما كانت الحاجة له في العراق؛ لقلة الروايات عندهم.

٤ ـ المرويات الكثيرة لديهم في التحذير من القول في كتاب الله بغير علم، وعقوبة المتجرئ على القرآن، والقائل فيه برأيه، بحيث آثر كثير منهم السلامة، حتى وإن كان أهلاً للتفسير.

هذه الأسباب وغيرها أدت إلى توقي أهل المدينة التفسير، وقد تكاثرت الروايات عنهم محذرة عن الخوض في التفسير. حتى قال عبيد الله بن عمر: «لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع»[٣].

وعن هشام بن عروة قال: ما سمعت أبي يتناول آية من كتاب الله قط[٤].

وقد أدى هذا المنهج إلى التورع حتى في الألفاظ التي يبديها أهل المدينة، فعن ابن عون، عن القاسم بن محمد أنه قال في شيء: أرى، ولا أقول: إنه الحق[٥].

---

(١) المطالب العالية (٤/ ١١٥).
(٢) العلم لأبي خيثمة (١٢٦)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٤٥٢).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٨٥، ٩٢)، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٣).
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩).
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٧).

وجاء عنه أيضًا قوله: لأن يعيش الرجل جاهلاً خير من أن يفتي بما لا يعلم[١].

وكان هذا رأيه حتى قال عبد الله بن عون: ما لقيت أكف من ثلاثة، محمد بن سيرين، ورجاء بن حيوة، والقاسم بن محمد[٢].

ولما سئل القاسم عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾[٣].

فقيل له: أأنزل أو لم يُنزل؟ فقال: لا أبالي أيّ ذلك كان إلا أني آمنت به[٤].

وعن أيوب قال: سمعت القاسم بن محمد يُسأل بمنى فيقول: لا أدري لا أعلم، فلما أكثروا عليه قال: والله ما نعلم كل ما تسألون عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حلّ لنا أن نكتمكم[٥].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هيبة التفسير كانت ـ أيضًا ـ من خصائص الكوفة، إلا أن المدينة كانت أشد هيبة، وأقل رواية منها بكثير[٦].

ثم إن المدينة تميزت بكثرة المرويات المسندة الصحيحة، فكانت هيبتهم دافعة لهم للمزيد من الرواية، بعكس المدرسة الكوفية التي لم يكن عندها كثير من الروايات، فدفعتهم هيبتهم لمزيد من القياس الفقهي، فكان جل المروي عنهم في تأويل آيات الأحكام.

---

(١) العلم لأبي خيثمة (١٣٠).

(٢) المعرفة (٢/ ٣٦٨).

(٣) سورة البقرة: آية (١٠٢).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٤٢٣) ١٦٧٩.

(٥) الحلية (٢/ ١٨٤).

(٦) بعد تتبع تفسير الطبري، وجدت أن المروي عن الشعبي، وهو من المقلين (٤٦١) أثرًا، وعن النخعي (٦٠٨) آثار، في حين كان عن ابن المسيب (١٨١) أثرًا، وعن محمد بن كعب (١٥٣) أثرًا.

الخصيصة الثانية: الانشغال عن التفسير بالحديث، والمغازي، والسير، والفقه الأثري:

انشغل أهل المدينة بالحديث والأثر، بسبب توافر عدد كبير من الصحابة بها، كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ، فتلقف التابعون بالمدينة حديث رسول الله ﷺ من أفواه الصحابة، واهتموا به، واعتنوا بحفظه ونشره، ولاسيما الأنصار، حتى شهد لهم ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: وجدت أكثر حديث رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار[١].

ولأجل هذا الاهتمام قبل كثير من أهل العلم رأي أهل المدينة وعلمهم، وجعلوه حجة، قال زيد بن ثابت: إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة[٢].

وما ذاك إلا لاهتمامهم بالسنة والحديث، فهم أكثر اهتمامًا بذلك من مدرسة الكوفة مثلاً، التي أقلت من رواية الحديث، وأكثرت من الآثار عن الصحابة[٣].

وترتب على ذلك أن الأئمة كانوا يقدمون أهل المدينة على أهل العراق في الحديث[٤].

كما اهتم أهل المدينة أيضًا بالمغازي والتاريخ، بل كانوا المقدمين في ذلك، يقول شيخ الإسلام: إن أعلم الناس أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها؛ لأنها كانت عندهم[٥].

ولذا نجد الزهري من صغار التابعين قد برز في علم المغازي، وكان ابن إسحاق

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٤١).
(٢) المعرفة (١/ ٤٣٨).
(٣) الرفع والتكميل (٨٧).
(٤) المعرفة (١/ ٤٣٨).
(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٦).

وهو من أتباع التابعين إخباري متمكن، ولذا نجد جل ما جاء عنه في تفسيره إنما هي قصص، وأحداث، وسير، وقريبًا من ذلك كان حال محمد بن كعب القرظي[١].

هذه كانت حالة أهل المدينة في الرواية، والسنن، وبالتالي قلل هذا من تعرضهم لمباحث التفسير، والاشتغال به، فهذا ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ مفتي المدينة، والذي كان المدنيون يفضلونه على ابن عباس[٢]، يقول عنه ابن جبير ـ الذي تلقى عنه، وتلقى عن ابن عباس كليهما ـ : كان حسن السرد للرواية عن النبي ﷺ، ولم يبلغ في الفقه والتفسير شأو ابن عباس[٣].

ويبين الشعبي مكانة ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في الحديث فيقول: كان ابن عمر جيد الحديث، ولم يكن جيد الفقه[٤].

وثمة علم آخر شغل أهل المدينة عن التضلع في علوم التفسير، ألا وهو الاهتمام بالفقه الأثري لا الفقه القائم على الرأي والقياس، ولذلك اشتد نكير علمائهم على من تكلم في المسائل قبل وقوعها.

فكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يُنكر على العراقيين كثرة سؤالهم بقوله: تأتوننا بالمعضلات[٥].

ولما سأل أحد العراقيين أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال له: ممن أنت؟ قال: من العراق، قال: أكثر شيء سؤالاً، وغضب[٦].

---

(١) تاريخ التراث (١/ ٧٦).
(٢) الإرشاد (١/ ١٨٤)، والسير (٨/ ١٢).
(٣) الإرشاد (١/ ١٨٤)، والمستدرك (٣/ ٥٣٥)، والحلية (١/ ٣١٦).
(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٧٣.
(٥) المعرفة (٢/ ٦٤٠).
(٦) المستدرك (٢/ ٢٢٦).

وعندما سأل ربيعة الرأي سعيد بن المسيب: كم في إصبع المرأة (يعني الدية) فقال: عشر من الإبل، فاعترض عليه ربيعة، فقال سعيد: أعراقي أنت؟ فقال: بل عالم متثبت، أو جاهل مُتعلم، فقال سعيد: هي السنة يا ابن أخي[١].

ولأجل توقفهم عند النصوص، انتشر عندهم الفقه الأثري، وظهر فيهم الفقهاء الأثريون، فنجد علماء التراجم والسير، يُصدرون تراجم الأئمة منهم بقولهم: فقهاء المدينة الأربعة، أو السبعة، أو العشرة.

ولقد أثر هنا المنهج المدني في أمصار كثيرة مختلفة، كالشام وغيرها[٢]، وسلك هذا المنهج الشعبي في الكوفة، وغيره.

الخصيصة الثالثة: السلامة من الأهواء والفتن:

كان أثر المنهج الحديثي في التلقي قويًا في المدينة، فقد أحاط أهل المدينة أنفسهم بسياج السنة، والأثر، فعصمهم ذلك من الوقوع في زلات الأهواء، ومزالق الفتن التي بدأت في الظهور في عصر التابعين، وتشدد أهل المدينة في ذلك مع الوافدين لأرضها، ولاسيما مع العراقيين، ولذا نجد الزهري يقول: يا أهل العراق يخرج الحديث من عندنا شبرًا، ويصير عندكم ذراعًا[٣] ويقول: إذا أوغل الحديث هناك - يعني العراق - فاردد به[٤].

بل يبالغ طاوس فيقول: إذا حدثك العراقي مائة حديث، فاطرح منها سبعة وتسعين[٥].

---

(١) موطأ مالك، كتاب العقول، باب عقل الأصبع، (٦١٩) ١٥٦٦.
(٢) سبق بيانه في أثر المدرسة المدنية ص (٥٢٠).
(٣) تاريخ الإسلام (٥/ ١٤٣)، والمعرفة (٢/ ٧٦١).
(٤) المعرفة (٢/ ٧٦٠).
(٥) المعرفة (٢/ ٧٥٧).

ويزيدُ هشام بن عروة فيقول: إذا حدثك العراقي ألف حديث، فاطرح تسعمائة وتسعة وتسعين حديثًا، وكن من الباقي في شك[١].

وصارت هذه الحساسية مع كل ما هو عراقي، حتى إننا نجد ابن المسيب، وقد سئل عن مشكلة؟ فإذا به يواجه السائل مباشرة بسؤاله له: أعراقي أنت[٢]، ولما سئل عن مسألة، وقيل له: إن الحسن قال فيها كذا وكذا، فقال: احتوشه ناسجو أهل العراق فأفسدوه[٣].

ولما سئل طاوس عن الحسن قال: ذاك رجل جريء[٤].

وانصرف أهل المدينة خلف علمائهم، فلم يلتفتوا للأهواء، ولم يعتنوا بالسياسة، اعتناء غيرهم من أهل الآفاق[٥].

والناظر في كتب تراجم رواة الحديث، يجد أن المدنيين من أقل الرواة دخولاً في الأهواء والبدع، بخلاف حال غيرهم من أهل الأمصار.

ونرى كذلك انتقاد أهل المدينة عكرمة، وعدم رضاهم عنه؛ لأجل ما رمي به من رأي الخوارج[٦].

وقد أدى هذا الخلوص من الفتن والأهواء إلى أن صار التفسير المدني من أبعد التفاسير عن الأهواء، والبدع.

---

(١) المعرفة (٢/ ٧٥٧).

(٢) المعرفة (٢/ ٧٥٩).

(٣) المعرفة (١/ ٤٧٢).

(٤) المعرفة (٢/ ٤٤).

(٥) كتاب الإمام مالك لأبي زهرة (٥٣).

(٦) بعد مراجعتي للرواة في كتاب التقريب، وجدت أن (٨١) راويًا من الكوفة نسبوا للتشيع، و(١٢) راويًا رموا بالإرجاء، في حين كان (٢٣) راويًا من البصرة نسبوا للقدر، و(٨) لرأي الخوارج، و (٦) رواة للنصب، في حين أن المدينة لم ينسب فيها للقدر إلا (٤) رواة، وللتشيع (٣) رواة.

الخصيصة الرابعة : الاهتمام بالقراءات :

مما اختصت به المدرسة المدنية كذلك، اهتمام أئمتها بتحقيق القراءة على وجهها، ولاسيما ما كان من قراءة زيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ ولقد كان للكوفيين اهتمام بالقراءة أيضًا، إلا أن اهتمامهم كان منصبًا على فهم القرآن؛ ولذا أدخلوا القراءة في التفسير؛ ولهذا لما سمع مجاهد قراءة ابن مسعود انحلت له بعض المشاكل التي كان يسأل فيها ابن عباس، وذكر أنه لو علم هذه القراءة قبل ذلك لما سأل ابن عباس عن كثير من المسائل[١] .

أما اهتمام أهل المدينة فكان منصبًا على الأداء، وضبط الرواية، ولذا قال سفيان بن عيينة : خذوا المناسك من أهل مكة، والحلال والحرام من أهل الكوفة، والقراءة من أهل المدينة[٢] .

ومما يدلنا على ذلك قول زيد بن ثابت : القراءة سنة، فاقرؤوا كما علمتم[٣] .

ويقول ـ : رضي الله عنه ـ نزل القرآن بالتفخيم[٤] .

ومما أثر عن أبي بن كعب في ذلك قوله : تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمون القرآن[٥] .

وقد أثار هذا الاهتمام بالقراءة في المدينة ما يلي :

١ ـ دقة مصحف زيد، وخلوه من المنسوخ، يقول ابن قتيبة : وكان آخر عرض

---

(١) وقد سبق بيان ذلك في ترجمته ص (١٢٦).
(٢) معجم البلدان (٤/ ٤٩٣).
(٣) شعب الإيمان (٢/ ٥٤٨) ٢٦٧٩، وتفسير سعيد بن منصور (٢/ ٢٦٠).
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢١٠).
(٥) شعب الإيمان (٢/ ٤٣٠) ٢٣٠١.

رسول الله ﷺ القرآن على مصحفه، ومصحف زيد أقرب المصاحف لمصحفنا[١].

٢ ـ قلة المنقول عن زيد، وأبي بن كعب في التفسير، بل وفي الحديث[٢]؛ لاشتغالهما بالقراءة، وتعليمهما.

الخصيصة الخامسة:

توسعت المدرسة المدنية في النسخ على يد ابن المسيب، ثم جاء بعده زيد بن أسلم، وتأثر بالأول قتادة، وبالثاني عبد الرحمن بن زيد، فتوسعا في القول بالنسخ، وإلا فالغالب على التابعين عدم التوسع في ذلك[٣].

ولعل السبب أن القول بالترجيح أو الجمع، يحتاج إلى إعمال الاجتهاد، وأهل المدينة أثريون، لذا كان القول بالنسخ هو الأقرب للرواية، والأبعد عن الاجتهاد.

* * *

(١) المعارف لابن قتيبة (١١٣).

(٢) لم يرو عن أبي بن كعب إلا (١٦٤) حديثًا، كما أنه لم يرو عن زيد بن ثابت إلا (٩٢) حديثًا.

(٣) كما سيأتي تفصيل ذلك في مبحث أثرهم في أصول التفسير ص (١٠٨١).